



العجاج

حياته ورجلته

الدكتور عبد الحفيظ السطاي
مدرس الادب الاسلامي ووقته اللغة
في جامعة حلب

العجماء
حياتها ورجلها

تأليف
الدكتور عبد الحفيظ السطحي
مدرس الأدب والإسلام في لغة
في جامعة حلب

توزيع
مكتبة أطلين
دمشق

هذه الدراسة جزء من رسالة للدكتوراه
قدّمت إلى جامعة القاهرة ، ونوقشت بين يدي
الجمهور في ١٩٦٩/٩/٢٧م ، ونال بها المؤلف لقب
دكتور في الآداب .

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

مقدمة

إن لرجز العجاج أهمية بالغة في دراسة الاتجاهات الأدبية خلال القرن الهجري الأول ، ففي رجزه تتضح الخصائص البارزة لتلك المدرسة التي بدأها الأغلب واوجدها العجاج ، ومن خلال هذه الخصائص يمكن للباحث أن يجد سبيلاً إلى دراسة عدد من أوجه النشاط الأدبي واللغوي والاجتماعي لتلك الفترة من تاريخنا ، أضف إلى ذلك أن هذا الرجز أشبه بمعجم لغوي تنطوي على كثير من مشكلات اللغة بنحوها وأبنيها ومعاني الفاظها .

ومع ذلك كله ليس من دراسة للعجاج باعتباره رأس مدرسة الرجز في العصر الإسلامي ، أو للرجز بوجه عام كشفاً عن اتجاهاته وما جدّ فيه من تيارات أدبية مختلفة بين عصر تطوره لعهد بني أمية ، والعصور الأدبية التالية ، بل إن ديوان العجاج لم يحظ بعناية علمية ، هو أهل لها ، وجدير بها ، وإنما نشره المستشرق الواردت ضمن مجموعة « أشعار العرب » ، ولا شك أننا نحمد لألواردت أنه أخرج ديوان العجاج في هذه المجموعة ، وعانى في سبيله حزنونة الرجز ومسالكه الصعبة العسرة ، إلا أن عمله بوجه عام لا يتصف بالمنهجية العلمية تماماً ، فالأراجيز ناقصة ، والشروح منعدمة ، والتخريج قاصر جداً ، والمصادر تعدت على الأصابع ، ومثل هذه الأراجيز لا ينشر دون دأب طويل على تحقيقها وشرحها وتخريجها وإعداد المصادر الكثيرة لمشكلاتها اللغوية والنحوية ، ولا سيما أن هذا الديوان لا يستغني عنه باحث في العربية ، لأنه

مصدر رئيسي لكثير من شواهد اللغويين والنحاة والمفسرين ومن إليهم ، وكم تكون خيبة الأمل مريرة لدى الباحث ، حين يعود بشاهد إلى ديوان العجاج ، فلا يجد ضبطاً دقيقاً ، أو شرحاً موثقاً ، أو تخریباً كافياً ، أو مصادر تعين على تتبع ما في البيت من إشكال في النحو او اللغة .

ولذلك كله اتخذت ديوان العجاج موضوعاً لرسالة الدكتوراه ، راجياً أن أوفق إلى دراسته دراسة علمية تكشف عما فيه من خصائص واتجاهات ، وتحقيقه تحقيقاً علمياً دقيقاً يفي بما يحتاج الباحث حين العودة إليه ، أو التتبع لبعض مشكلاته . ومن ثمّ كان عملي ينقسم إلى مرحلتين : الأولى دراسة للعجاج وخصائص رجزه ، والثانية تحقيق لديوانه بشرح الأصمعي .

وهذا الكتاب يُقدّمُ القسم الخاص بدراسة العجاج : حياته ورجزه ، ويتألف من تمهيد وستة فصول ، إذ بدأت الحديث بتمهيد حول الإطار السياسي والاجتماعي والفكري لعصر العجاج ، وذلك تيسيراً لفهم بعض الاتجاهات التي أثرت في العجاج وفي أدبه معاً .

ثم كان الفصل الأول لتعريف حياة العجاج ، فتحدثت فيه عن نسبه وعشيرته ، ونشأته ورحلاته ، ثم عقيدته ، وما يتصل بذلك من جزئيات تكمل تلك الصورة لراجز بني سعد .

ولمّا انجلت معالم هذه الصورة إلى حدّ ما ، لم يكن من المنطق أن نتحدث عن خصائص رجزه ، قبل الوقوف على مصادر هذا الرجز أولاً ، ثم على توثيقه ثانياً ، ولهذا كان الفصل الثاني يتحدث عن مصادر رجز العجاج ، فوقفنا على ديوانه ، باحثاً عن الطرق التي وصل بها إلينا ، موثقاً رواية الأصمعي ، مؤكداً نسبة الشرح إليه ، باسطاً خصائص هذا الشرح ، معرّفاً بمصادر رجز العجاج في غير الديوان .

ثم كان الفصل الثالث خاصاً بتوثيق رجز العجاج ، وهنا جعلت التوثيق يذهب في اتجاهين اثنين : الأول دراسة ما داخل رجز العجاج من رجز منحول عليه ، والثاني ما اضطربت نسبته بين العجاج وغيره من الرجاز والشعراء ، ولئن كانت ظاهرة الانتحال لا تكاد تستبين في رجزه ، فظاهرة الاضطراب ذات سلطان واسعٍ العديده من أراجيزه ، ومع هذا الاتساع فقد وقفت منها جميعاً أتلمس من الأدلة ما يميل بكل أرجوزه أو مقطّعة إلى العجاج أو إلى غيره ، وبذلك أمكن تشذيب أراجيزه ، وأصبح من الهين أن تدرس موضوعاتها وخصائصها بعد أن زایلها كل دخيل أو غريب .

ومن ثمّ كان الفصل الرابع يتناول موضوعات رجز العجاج ، وقد بدأتها بإلقاء نظرة سريعة على موضوعات الرجز قبل العجاج ، لنرى ما كان للأغلب العجلي من دور في تطويرها ، وما كان للعجاج من دور واسع في هذا التطوير ، ومن ثمّ انتقلت إلى الموضوعات التي تناولها العجاج في رجزه ، من نسيب ومديح ، وفخر وهجاء ، ووعظ وحكمة ، ووصف وتصوير ، فكنت اقف عند كل من هذه الموضوعات ، مبيناً لخصائصه ، شارحاً لاتجاهاته ، راصداً لصلاته بالقديم أو بالجديد لعهد بني أمية .

ثم كان الفصل الخامس لدراسة الخصائص الفنية في رجزه ، وهنا تناولت الخصائص المعنوية أولاً ، ثم الخصائص اللفظية ، وأفردت للخصائص اللغوية والنحوية والصرفية الفصل السادس ، وبهذا تمت لنا دراسة الخصائص التي أرادها العجاج لرجزه ، وبني عليها مدرسته التي امتدت إلى أواسط القرن الهجري الثاني .

وبعد أن تكاملت مراحل الدراسة ، كان لا بد من خاتمة تلخص ماورد في تلك المراحل من آراء ، وتوجز ما تناثر فيها من اجاث ، فوضعت خاتمة

تلخص ذلك كله .

وبما أنني أقدم هذه الدراسة في كتاب مستقل ، فقد عرّضت لي فكرة جعلت تعريبي بإخراج بعض الأبحاث من الدراسة إلى مقدمة الديوان لاتصالها الوثيق به ، ولكنني وقفت حائلاً دون ذلك ، لأن الفصل بين الدراسة والديوان لا يعدو أن يكون شكائياً فحسب ، ولا بد من التكامل بينهما باعتبار أنهما عمل واحد في الأصل ، وهذا ما حملني أيضاً على عدم إثبات المصادر والمراجع في نهاية هذا الكتاب ، لأن من الصعب أن يُفصل بين مصادر الدراسة ومصادر التحقيق ، ولسوف نثبتها جميعاً في نهاية الديوان إن شاء الله .

* * *

وأما أساتذتي الدكتور شوقي ضيف المشرف على هذا البحث ، والدكتور حسين نصار ، والدكتور كامل جمعة ، أعضاء لجنة المناقشة ، فلهم خالص شكري لما بذلوه من جهد ووقت في قراءة هذا البحث ، وما أبدوه من ملاحظات قيمة ، وما أسبغوه عليه من ثناء وتقدير ، وما جوبوني به من رعاية وتشجيع .

* * *

وكل ما أرجوه أن أكون قد وفقت إلى ما أردته من دراسة للعجاج ورجزه ، وحسي أنني أخلصت النية ، وبذلت غاية ما أستطيع ، ومن الله العون ، وبه التوفيق من

دمشق في ١٧ نيسان ١٩٧١

عبد الحفيظ السطلي



العجاج
حياته ورجزه



تمهيد

الوظائف السياسي والاجتماعي والفكري

لعصر العجاج

لا نجد سبيلا الى دراسة حياة العجاج وخصائص رجزه ، قبل أن نقف رويداً على أحوال عصره ، ذلك لأن الاتجاهات الأدبية المختلفة في هذا العصر ، كانت تتأثر باختلاف الأحوال السياسية والاجتماعية والثقافية . فالعجاج ولد في الجاهلية وقال فيها أبياتاً وتوفي أيام الوليد بن عبد الملك^(١) . ولذا فهو معاصر أحداث الجزيرة العربية منذ فجر الاسلام حتى أوج العصر الأموي ، وكان لهذه الأحداث أثر في اتجاهاته النفسية والشعرية معاً ، فكان يلتقي مع شعراء عصره في بعض الاتجاهات الجديدة في اللغة والمعاني والموضوعات ، وكان يختلف عن سائر الشعراء في بعض الاتجاهات التي رسمها لنفسه في لغة القصيدة وشكلها وبعض موضوعاتها ، وهذه الاتجاهات جميعها لاتفهم بدقة في رجزه الا من خلال مرافقتها من أحداث سياسية واجتماعية وثقافية .

على أننا لن نطيل البحث في هذه الموضوعات ، وليس من شأننا أن نوسعها بحثاً أو تفصيلاً ، وليس لنا في هذا التمهد الا أن نبين أهم الأحداث السياسية ، والظواهر الاجتماعية والاتجاهات العقلية التي لها تأثير

(١) تاريخ ابن عساکر ٣٩٤/٧ ، وشرح شواهد المغني ١٨٠ . وتوفي الوليد سنة (٩٦ هـ) .

في دراسة العجاج ، ولها أن تفسر أحياناً بعض ما نجده في رجزه من خصائص .

- ١ -

كان الاسلام أكبر ثورة سياسية واجتماعية في جزيرة العرب ، اذ وحد القبائل ، وحاول القضاء على العصبية ، وبنى دولة الاسلام بناء اجتماعياً متيناً وشرع لهذه الدولة كل ما تحتاج اليه من أسس وقوانين^(١) ، ولكن هذا كله لم يأت الا بعد أحداث وحروب متتالية ، هزت قبائل الجزيرة هزاً ، ولا سيما بعد فتح مكة (٥٨) ، ولم تكن تلك الأحداث والحروب ميداناً للسيرف وحده ، وانما كانت أيضاً ميداناً للشعر والشعراء ، اذ كان لكل فريق شعراؤه ، وكانت كل غزوة تدعو الى أشعار تقال فيها رثاء أو تهديداً أو افتخاراً^(٢) ، حتى ظهرت في هذه الفترة نساء شاعرات ، كان معظم أشعارهن تحريضاً على القتال ، أو بكاء على القتلى^(٣) ، وبعد عام الفتح كانت وفود القبائل تترى على النبي صلى الله عليه وسلم من كل صوب وحذب ، وربما رافقها بعض شعراء القبائل ، فكانوا ينشدون الرسول أشعاراً أو رجزاً ، فينهض شعراء المسلمين ليردوا عليهم بالشعر نفسه^(٤) .

وبذلك كانت الأحداث الاسلامية الأولى تدعو الى الشعر ، وتستثيره في صدور أصحابه ، ولا يعقل أن يكون العجاج في غيب عن هذه الأحداث ، فقد

-
- (١) انظر تاريخ الاسلام السياسي ٢١٧/١ - ٢٤٥ .
(٢) ارجع الى سيرة ابن هشام ، وانظر عقب كل غزوة من الغزوات لترى ما قيل فيها من أشعار .
(٣) تاريخ ابن الاثير ٢٥/٣ ، والبداية والنهاية ٥٩٠/٤ و ٦٠ - ٦٠ ، وعيون الاثر ٢٩١/١ و ١٨/٢ و ٣٥ .
(٤) تاريخ ابن الاثير ١٢٠/٢ . والبداية والنهاية ٤٢/٥ و ٤٣ و ٧١ و ٧٢ و ٧٤ ، وعيون الاثر ٢٤٦/٢ .

- ٤ -

استمع الى أخبارها وأشعارها وهو فتى باليامة ، ولا يبعد أن تكون بعض الآيات قد خرجت عن لسانه، والآن فلا مَرِيَّةَ أن هذه الأحداث قد أثرت في نفسه وفي شاعريته ، ولا سيما حين اقتربت من ديار قومه في حروب الردة وما تلاها من أحداث جسام .

فحين قضى النبي صلى الله عليه وسلم برزت مشكلتان ، الأولى مشكلة الخلافة من بعده ، والثانية اتساع أمر المرتدين ، أما الخلافة فلم تكن واضحة ولا محددة المعالم في الاسلام ، ومن ثم كان اجتماع الأنصار وبعض المهاجرين في سقيفة بني ساعدة^(١) ، وظهرت ثلاثة آراء حول الخلافة ، ولكن أصحابها لم يؤلفوا أحزاباً واضحة ، وان كان بعضها بداية لأحزاب سياسية فيما بعد^(٢) .

كان الأنصار يرون أن الخلافة فيهم ، لما كان لهم من سابقة في نصرة الرسول والمسلمين ، وهموا بمبايعة سعد بن عباد ، وكان المهاجرون يرون أن الخلافة في قريش ، واحتجوا بعدد من الأحاديث التي تؤيد ذلك^(٣) ، وكان الهاشميون يرون الخلافة فيهم لقربانهم من الرسول ، ويجدون في علي رضي الله عنه خير مَنْ يُبَايَعُ للخلافة ، وأما الأمويون فما كانوا يجرؤون على المطالبة بها يومئذ ، ولذلك حرضوا علياً على المطالبة بالخلافة ، وحضوا آل هاشم على منازعة أبا بكر أيها^(٤) .

-
- (١) البداية والنهاية ٤٥/٥ ، وتاريخ يعقوبي ١٠٢/٢ ، وتاريخ ابن خلدون ص ٦٤ من بقية الجزء الثاني .
(٢) قابل بما قاله بدوي عبد اللطيف في كتابه الأحزاب السياسية في فجر الاسلام ٥٥ .
(٣) مقدمة ابن خلدون ٥٢٣/٢ .
(٤) تاريخ الطبري ٤٤٩/٢ ، وتاريخ ابن الأثير ١٣٥/٢ .

وهذه الآراء كان يمكن أن تتحول الى أحزاب متصارعة في ذلك الحين ، واكن حجة قريش علت على حجة الأنصار ، ثم قضي على الفتنة بمبايعة عمر لأبي بكر ، والناس يعلمون منزلة أبي بكر وصحته للرسول في الاسلام وقبل الاسلام^(١) ، فهو أول من أسلم من الرجال^(٢) ، وقد بعثه النبي على الحج بالناس حين عاد من تبوك في السنة التاسعة^(٣) . . ولكن هذا كله لم يمنع وجود معارضة لمبايعة أبي بكر ، فالأنصار أو بعض الأنصار ، قالت لعمر حين بايعه : « لانبايع الا علياً^(٤) » . وامتنع عن مبايعته أيضاً جماعة من بني هاشم ، وبني أمية ، بينهم الزبير بن العوام ، وأبو سفيان بن حرب ، وعمار بن ياسر ، وأبو ذر الغفاري ، ومالوا مع علي رضي الله عنهم^(٥) .

وكان يمكن للفتنة أن تستمر لولا أن علياً رضي الله عنه نهر أبا سفيان ورفض القيام في وجه أبي بكر^(٦) ، والروايات متناقضة حول مبايعة علي له ، بعضها يقول انه تلكأ عن مبايعته ، وبعضها يرى أنه سارع الى المبايعة دون تلكؤ^(٧) ، وبعضها ينقل أن علياً عاتب أبا بكر يوم بايعه الناس فقال :

-
- (١) تاريخ الخميس ٢٦٠/١ - ٢٦١ .
(٢) تاريخ ابن الأثير ٢٢/٢ ، وتاريخ الخميس ٢٨٦/١ ، وتاريخ أبي الفداء ١١٨/١ ، وتاريخ ابن الوردي ١٠٣/١ ، وجوامع السيرة لابن حزم ٤٥ ، أما علي فهو أول من أسلم من الصبيان ، وقيل إن اسلامه كان قبل اسلام أبي بكر .
(٣) البداية والنهاية ٣٦/٥ ، وتاريخ الخميس ١٤١/٢ ، وجوامع السيرة ٢٥٨ ، وتلقيح أهل الأثر لابن الجوزي ٣٦ .
(٤) تاريخ ابن الأثير ١٣٥/٢ .
(٥) تاريخ ابن الوردي ١٤١/١ .
(٦) تاريخ الطبري ٤٤٩/٢ . وتاريخ ابن الأثير ١٣٥/٢ .
(٧) تاريخ الطبري ٤٤٦/٢ - ٤٤٨ ، وتاريخ ابن الأثير ١٣٥/٢ ، ومروج الذهب ٤١٥/١ .

« أفسدت علينا أمورنا ، ولم تستشر ولم ترع لنا حقاً ، فقال : بلى ، ولكن خشيت الفتنة » (١) . ودراسة هذه الروايات تحتاج الى حذر وأي حذر من المؤرخين أنفسهم ، اذ لا يبعد أن تكون الأهواء والنحل قد أثرت فيما نقله بعض المؤرخين ، ولكن مجموع ما بلغنا من أخبار يشير بوضوح الى وجود طائفة تتشيع لحق علي في الخلافة منذ يوم السقيفة ، وربما جاز لنا أن نستنتج من وجود هذه الطائفة ، وبما بلغنا من روايات وأخبار أن علياً لم يبايع أبا بكر وهو راض كل الرضى ، وانما كان يشعر بشيء من الضيق ، ولكنه أراد وحدة الأمة ، ولا سيما أن الردة كانت تهدد أركان الدولة الاسلامية من أساسها .

والردّة كانت قد ظهرت في أواخر حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فظهر أمر الأسود العنسي باليمن في بني منجج ، وكان مشعوذاً يُري الناس الأعاجيب (٢) . وظهر أمر مسيلة الكذاب باليمامة في بني حنيفة ، فادعى الشركة في النبوة مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم مالبت أن وضع الصلاة عن أتباعه وأحل لهم الخمر والزنا ونحو ذلك ، فقبه معظم بني حنيفة (٣) . وظهر أمر سجاح في بني تميم ، فادعت الوحي واتخذت مؤذناً وحاجباً ومنبراً وجيشاً جيشاً تريد حرب مسيلة ، ثم انتهى الأمر بالزواج بينها ، فاتحدت جيوش بني حنيفة وبني تميم من المرتدين (٤) . وظهر أمر

(١) مروج الذهب ١/٤١٤ .

(٢) تاريخ الطبري ٢/٤٦٣ ، وتاريخ ابن الأثير ٢/١٣٩ ، والبداية والنهاية ٦/٣٠٥ ، وتاريخ الخميس ٢/١٥٥ .

(٣) تاريخ الطبري ٢/٥٠٤ ، وتاريخ ابن الأثير ٢/١٥٠ ، وتاريخ

الخميس ٢/١٥٧ ، وفتوح البلدان ١١٩ .

(٤) تاريخ الطبري ٢/٤٩٥ ، وتاريخ ابن الأثير ٢/١٤٧ ، وتاريخ الخميس

٢/١٥٩ .

طلحة بن خويلد ، وكان رئيس بني أسد فادعى النبوة ، وكان آخر المرتدين في حياة الرسول (١) . ثم ارتد عيينة بن حصن الفزاري مع قومه فيما بعد ومنعوا الزكاة وتبعوا طلحة ولحقوا به (٢) .

وإذا كان الأسود العنسي قد قتل قبل وفاة الرسول بيوم واحد ، فإن سائر المرتدين قد استفحل أمرهم بعد وفاته عليه السلام ، بل جعلوا من ذلك سبباً يؤيدون به رديهم ، « فقلت فرقة : لو كان نبياً ما مات ، وقال بعضهم : انقضت النبوة بموته فلا نطيع أحداً بعده ، وقال بعضهم : نؤمن بالله ونشهد أن محمداً رسول الله ونصلي ولكن لا نعطيكم أموالنا » (٣) . ومهما تعددت هذه الأسباب أو الذرائع ، فهي تترد الى عودة العصبية بين القبائل ، وضعف الاسلام في نفوس أكثر الأعراب ، ومطامع فردية حملت أصحابها على ادعاء النبوة ، وصادفت هوى عند الأعراب لما في ذلك من عودة الى فوضى الجاهلية ومفاسدها بما حرمه الاسلام أشد تحريم .

ولهذا كان البلاء على المسلمين شديداً ، ولولا حزم أبي بكر (٤) ، وبلاء المسلمين في قتال الردة ، لتفرقت كلمة العرب بعد أن وحدها الاسلام ، ولكن الله أراد لدينه أن ينتصر ، وأراد لكلمة الحق أن تكون هي العليا .

(١) تاريخ الخميس ١٦١/٢ ،

(٢) تاريخ الطبري ٤٨٣/٢ ، وتاريخ ابن الأثير ١٤٣/٢ .

(٣) تاريخ الخميس ٢٠١/٢ ، وانظر الفخري في الآداب السلطانية

٦٤ ، وتاريخ الطبري ٤٦٣/٢ - ٥٤١ ، وتاريخ ابن الأثير ١٤٢/٢ -

١٦٠ . وتاريخ ابن خلدون ص ٦١ و ٦٦ - ٦٨ من بقية الجزء الثاني ،

والبداية والنهاية ٣١١/٦ وما بعدها .

(٤) انظر جوامع السيرة ٣٣٩ ، وفتوح البلدان ١٣١ ، وتاريخ

الخميس ٢٠١/٢ .

والمهم في حروب الردة أن أشدها وأخطرها قد حدث حول اليمامة ، وكان أهل اليمامة والبحرين كلهم من المرتدين^(١) ، وفيهم قبائل تميم قوم العجاج ، وكان العجاج في هذه الفترة فتى يافعاً ، يقيم في حاضرة اليمامة ، ويشهد هذه الأحداث الخطيرة ويعيش هذه الحروب الدموية الطاحنة ، وكذلك فالردة قد أشعلت من حولها حرباً بين الشعراء أيضاً^(٢) ، وإذا كانت أراجيز العجاج خِلُوا من القول في أحداث الردة ، فهذا لا يمنع أن يكون الرجل قد تأثر بها ، بل الحق أن يقال ان حروب الردة قد خلفت فجلاً بعض الآثار في نفسه وفي أدبه معا ، ولسوف تبرز هذه الآثار في دراسة حياته وخصائص رجزه ، وقد يكون له رجز في هذه الأحداث ، ولكنه فقد وصار الى ماذهب ولم يُحفظ من أشعار العرب في تلك الأحداث المتلاحقة من الحروب الأهلية ، أو حروب الفتح خارج حدود الجزيرة .

وإن كانت الردة قد انتهى أمرها في حياة الصديق ، فإن مشكلة الخلافة لم تنته ، وإنما خبت نارها تحت الرماد ، فلما عهد أبو بكر بالخلافة الى عمر بن الخطاب ، لم تظهر هذه المشكلة وذلك لهية عمر ، وحزمه في القضاء على العصية ، وانشغال الناس بالفتوح ، والذي يبدو أن علياً لم يمانع أبا بكر في تولية عمر حين استشاره في ذلك^(٣) ، ولكن عمر حين عهد بأمر الخلافة من بعده الى ستة نفر^(٤) ، وجعلها شورى بينهم ، كان

(١) تاريخ الخميس ٢٠٢/٢ .

(٢) انظر تاريخ الطبري ٤٧٧/٢ - ٤٧٨ - و ٤٩٣/٢ - ٤٩٧ .

و ٥٢١/٢ - ٥٢٧ .

(٣) انظر تاريخ ابن الأثير ١٧٩/٢ ، والبداية والنهاية ١٨/٧ ، وتاريخ

الخميس ٢٥٤/٢ .

(٤) وهم : عثمان ، وعلي ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن بن

عوف ، وسعد بن أبي وقاص .

لابد أن يستيقظ لهيب تلك النار التي خبت الى حين ، ذلك لأن أقوى أولئك النفوس كان علياً وعثمان ، وكلاهما من كتاب الوحي^(١) ، ولكل منهما سابقة في الاسلام ، الا ان قرابة علي من الرسول ، وما عرف من بلائه في الاسلام قبل الهجرة وبعدها ، كان يجعل جمهور الصحابة في صف علي ، ولا سيما أولئك الذين كانوا يخشون بني أمية ان فاز بها عثمان ، لما عُرف عنه من لين لا يقوى على دفع مطامع أسرته من الأمويين ، وحين عُهد بالأمر الى عبد الرحمن بن عوف كانت الأموية تدفع به الى مبايعة صهره عثمان ، وكانت الهاشمية والأنصار يطالبون بمبايعة علي^(٢) ، والذي يبدو أن عبد الرحمن وهو أموي ، قد مال مع الاموية في مبايعة عثمان ، وكان هذا ماتوقعه علي رضي الله عنه في بعض الروايات^(٣) .

ومبايعة عثمان على هذا النحو تعني أن الاموية والهاشمية ، قد بدأت كل منها تشكل ما يشبه الحزب السياسي على الاقل ، ولا سيما أن أكثر الروايات تشير الى أن علياً قد بايع عثمان على كره منه ، وثمة روايات أخرى تنقل ما دار من ملاسنة حادة بين الاموية والهاشمية ، وتصور مدى تعلق كبار الصحابة بآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٤) .

(١) الكتاب والوزراء ١٢ ، والبداية والنهاية ٣٣٩/٥ ، وتلقيح أهل الأثر ٣٧ .

(٢) تاريخ الطبري ٢٩٧/٣ ، وتاريخ ابن الأثير ٢٩/٣ ، وتاريخ ابن خلدون ص ١٢٦ من بقية الجزء الثاني .

(٣) انظر تاريخ ابن الأثير ٢٨/٣ ، وتاريخ الطبري ٢٩٧/٣ ، وتاريخ اليعقوبي ١٣٩/٢ ، وقابل بالبداية والنهاية ١٤٧/٧ فابن كثير ردّ عوف لعثمان ، ولكن ردّ ابن كثير لا يعتمد على دليل بين .

(٤) مروج الذهب ٤٤٠/١ ، وتاريخ الطبري ٢٩٦/٣ ، وتاريخ ابن الأثير ٢٨/٣ .

ويبدو أن خلافة عثمان قد حققت شيئاً من رغبة الاموية في السيادة والثراء ، لانه ما لبث أن عزل عدداً من الصحابة عن أمصار الدولة ، وولى مكانهم عدداً من أقاربه (١) ، فأثار بذلك سخط المهاجرين والانصار ، وكان الفارق واسعاً بين عماله من أصحاب الدنيا ، وعمال عمر بن الخطاب من أصحاب الزهد والتقوى (٢) ، بل ان من ولاة عثمان من اتهم برفقة الدين وشرب الخمر كالوليد بن عقبة (٣) ، ومنهم من رمي بظلم الرعية وكانت له سابقة في الاسلام لاتحمد كعبد الله بن أبي سرح (٤) ، اذف الى ذلك ما تجمع لدى الامويين من ثراء واسع كان دائماً يثير على عثمان نقمة الصحابة كأبي ذر رضي الله عنه (٥) ، وخاصة ان عثمان قد فرط في اموال المسلمين وتغاضى عن اموال ذهبت الى بعض خاصته لا الى بيت المال (٦) . ولم يقف عثمان عند هذا الحد من تحقيق رغائب الاموية ، بل تجرأ على ردّ طريد رسول الله الى المدينة (٧) ، ونفى عنها ابا ذر بعد ان حبس عطائه

-
- (١) انظر تاريخ ابن الأثير ٣/٣٦ و ٤٠ ، وتاريخ الخميس ٢/٢٥٥ .
(٢) انظر مروج الذهب ١/٤٣٥ و ١/٤١٧ .
(٣) وهو اخو عثمان لأمه ، وقد ولاه على العراق ، بعد ان عزل سعد بن أبي وقاص . انظر تاريخ الخميس ٢/٢٥٥ .
(٤) وهو اخو عثمان من الرضاع ، وقد ولاه على مصر ، وكان عبد الله يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم ، ثم ارتد ولحق بقريش فقال : ان محمداً ليكتب بما شئت . . . ويوم الفتح جاء به عثمان الى الرسول مبايعاً ، فلم يبايعه عليه السلام الا بعد ساعة ، كان يود خلالها أن يقتله بعض الصحابة بما أسلفه من اساءة الى النبي والمسلمين . انظر الكتاب والوزراء ١٣ - ١٤ ، وتاريخ يعقوبي ٢/٤٥ ، وانسان العيون ٣/٣٦٤ . وجوامع السيرة ٢٣٢ ، والروض الأنف ٢/٢٧٤ .
(٥) مروج الذهب ١/٤٣٨ ، وتاريخ الخميس ٢/٢٥٨ .
(٦) تاريخ أبي الفداء ١/١٧٦ .
(٧) وهو الحكم بن مروان ، والد مروان بن الحكم مؤسس الفرع الرواني في دولة بني أمية ، وكان الرسول قد لعنه وطرده من المدينة الى الطائف أو بطن وج ، انظر تاريخ الخميس ٢/٣٠٦ - ٣٠٧ .

وعطاء عبد الله بن مسعود ، وكلاهما من خاصة اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١) ، وكانت هذه الامور من الاسباب التي تقم الناس بها على عثمان ، وما زال الامر يتسع حتى كان حصاره ومقتله على ايدي الوفود من اهل مصر والكوفة والبصرة^(٢) .

وكان مقتل عثمان نقطة تحول في التاريخ الاسلامي ، اذ بدأت الفتنة والحروب الاهلية ، وانشقت الامة فرقاً وأحزاباً ، وصار للسيف منذئذ القول الفصل في امر الخلافة^(٣) ، اذ ان جمهور اهل المدينة اتجه الى علي بالمبايعة ، وكان اول من بايعه طلحة والزبير^(٤) ، وامتنع عن مبايعته جماعة من الانصار ومن قريش وكانوا عثمانية^(٥) ، وبامتناع هؤلاء كانت اوائل بذور الفتنة . وقبل مقتل عثمان كانت عائشة قد غادرت المدينة الى مكة ، وكأنها رغبت في اعتزال مايجد من احداث ، وكانت تحرض الناس على عثمان ، فلما بلغها انه قتل وان الامر صار لعلي ، تحولت الى ندب عثمان والقول انه قتل مظلوماً ، وكأنها كانت ترغب ان تكون الخلافة لواحد غير علي امثال طلحة او الزبير ، وذلك لعداء قديم كانت تكنه لعلي منذ

-
- (١) تاريخ الطبري ٣/٣٥٥ و ٣٥٤ ، وتاريخ ابن الأثير ٢/٤٦ ،
تاريخ الخميس ٢/٢٦٦ .
(٢) انظر اسباب النعمة عليه وخبر مقتله في تاريخ الطبري ٣/٣٧٨ -
٤٢٥ ، وتاريخ ابن الأثير ٣/٦٢ - ٧٥ ، وتاريخ الخميس ٢/٢٦٦ -
٢٧٤ ، وتاريخ ابن خلدون ص ١٣٩ - ١٤٣ من بقية الجزء الثاني ، واخبار
الدول ٩٩ ، ومروج الذهب ١/٤٧٣ .
(٣) انظر تاريخ الدولة العربية لولهوزن ٥٠ - ٥١ .
(٤) تاريخ ابن الأثير ٣/٨٠ ، وتاريخ الطبري ٣/٤٥٠ .
(٥) تاريخ ابن الأثير ٣/٨١ ، وتاريخ الطبري ٣/٤٥١ - ٤٥٣ ،
ومقدمة ابن خلدون ٢/٥٥٧ - ٥٥٨ .

حادثة الافك^(١) . ولعل موقف عائشة ، كان حافظاً لطلحة والزبير حين انتقضا على علي وخرجا الى مكة ، ليجعلا من عائشة رضي الله عنها ستاراً لهما في الثورة على خلافة علي ، ومن ثم وُجِدَت بعض الروايات التي تنقل ان طلحة والزبير كانا قد بايعا علياً على كره منها^(٢) . وبينما كان هؤلاء في مكة يعدون ثورة على خليفة المدينة ، كان قميص عثمان قد وصل الى منابر الشام ، واخذت الاموية تعد للثورة ايضاً ، او قل للحرب في سبيل سيادتها متذرة بدم عثمان^(٣) .

والمهم ان طلحة والزبير لم يجاربا علياً من مكة ، لان المدينة كانت اكثر عدداً ، بل توجهوا مع عائشة الى البصرة وكان لاهلها هوى في طلحة^(٤) ، فسار اليهم علي ، واتخذ من الكوفة قاعدة له ، وكان النصر له في واقعة الجمل^(٥) ، فعادت عائشة الى المدينة ، وقتل طلحة والزبير ، وقيل ان طلحة قتله مروان بن الحكم اثناء القتال^(٦) ، لان الاموية كانت تخشى نفوذه في مستقبل الاحداث .

وبعد واقعة الجمل سار علي في اهل العراق الى معاوية ، والتقى

-
- (١) انظر تاريخ الطبري ٢/٢٦٨ و تاريخ ابن الأثير ٢/٨١ ،
والبداية والنهاية ٤/١٦٢ ، وتاريخ الخميس ١/٤٧٦ ، وعيون الأثر ٢/٩٨ .
(٢) تاريخ الطبري ٣/٤٥٣ ، وتاريخ ابن الأثير ٣/٨١ .
(٣) وكانوا بين متهم لعلي بتأليب الناس على عثمان مما جراًهم على قتله ، أو متهم له بالسكوت عن نصره عثمان لا بالممالة عليه انظر مقدمة ابن خلدون ٢/٥٥٧ - ٥٦٠ ، والفخري في الآداب السلطانية ٧٤ .
(٤) ولهوزن - تاريخ الدولة العربية ٥٢ .
(٥) انظر تاريخ الطبري ٣/٤٧٦ ، وتاريخ ابن الأثير ٣/٨٦ - ١١٣ ،
وتاريخ الخميس ٢/٢٧٦ - ٢٧٧ ، والبداية والنهاية ٧/٢٢٩ ، ومروج الذهب ٦/٢ .
(٦) تاريخ الخميس ٢/٢٧٩ و ٢/٣٠٧ .

الجمعان في « صفين » على حدود الفرات . ومال النصر الى صف علي لولا خدعة معاوية وعمرو بن العاص برفع المصاحف والدعوة الى التحكيم ، وكان اصحاب التقى والورع في جيش علي اول من خدع فألقى السلاح، ثم حملوا علياً على قبول ذلك حملاً ، فأقر بالتحكيم مكرها ، وعاهد معاوية على ذلك ، ثم عاد بجنده الى الكوفة ، واذا بأولئك الاتقياء انفسهم قد عادوا عن رأيهم وتنبهوا الى ما وقعوا فيه من شرّك ، واعتبروا ذلك منهم كفراً واي كفر ، لانهم قبلوا تحكيم الرجال في امر عدل كانوا يجاربون في سبيله ، وطلبوا الى علي ان يرفض التحكيم من جديد ، وان يقر بكفره كما اقروا ، وان يتوب من كفره كما تابوا ، ولكنه ابى عليهم ذلك ، فخرجوا عنه ونزلوا قرية « حروراء » فنسبوا اليها ، واطلق عليهم اسم الخوارج^(١) .

ونتيجة للتحكيم اصبح معاوية خليفة شرعياً في نظر اهل الشام ، وغدا في الدولة خليفتان كل منهما يرى ان الشرعية في جانبه ، وكان لا بد من الحرب لتوحيد الدولة من جديد ، ولكن دهاء معاوية وسياسته القائمة على شراء الدين بالدنيا ، جعله اقوى في اهل الشام ، من علي في اهل العراق اذ كانت سياسة علي تقوم على الورع دون ان يخشى في الله لومة لائم^(٢) ، وكان اصحاب معاوية اكثر طاعة ونظاماً من اصحاب علي^(٣) ، فلما قتل علي رضي الله عنه ، بايع اهل العراق لابنه الحسن ، ولكن الحسن ما كاد يلتقي بجيش معاوية في مسكن بناحية الأنبار ، حتى عدل عن الحرب ، واسلم

-
- (١) انظر تاريخ ابن الأثير ١١٨/٣ - ١٤١ ، وتاريخ الخميس ٢٧٧/٢ ، والبداية والنهاية ٢٥٢/٧ ، ومروج الذهب ١٧/٢ ، والجزء الرابع من تاريخ الطبري .
- (٢) انظر الفخري في الآداب السلطانية ٧٣ - ٧٤ .
- (٣) انظر خطبه في نهج البلاغة ، وانظر الكامل للمبرد ١٥٢/٢ وقارن بالكامل أيضا ١٠٧/٢ .

الامر لمعاوية على ان يكون ولياً للعهد ، ولم يكن ذلك مجرد بيع لحقه في الخلافة^(١) ، ولكنه ادرك ما في جيشه من فوضى ، وما يحيط به من اشباع مردوا على عدم النظام او الطاعة^(٢) ، وان كان بعضهم لا يخلو من حماس وتحفز لقتال الامويين^(٣) .

وبذلك تم الامر لمعاوية ، فدخل الكوفة وبيع له اهل العراق ، ولكن هذا الصلح لم يكن يرضي اشباع علي ، ولا سيما اولئك الذين كانوا يلتهبون حماساً لقتال معاوية ، بل كان ذلك الصلح خيبة امل مريرة لهم ، حتى كانوا يسمون الحسن بنل المؤمنين بعد ان كان امير المؤمنين ، ولما نزل بأهله الى المدينة واقام بها ، كانوا يقولون له : « يا عار المؤمنين سودت وجوه المؤمنين » ، فيقول : « العار ولا النار »^(٤) . ولهذا لم يكن تفرد معاوية بالخلافة نهاية طبيعية للحرب الاهلية او تسوية مقنعة لمشكلة الخلافة ، وانما نتج عنه زيادة في تلاحم اشباع كل حزب من الاحزاب الثلاثة التي نهضت بعد صفين ، حزب الشيعة ، وحزب الخوارج ، وحزب الامويين .

ثم توالى الاحداث بعد ذلك فزادت كلا من هذه الاحزاب قوة وتلاحماً ، وخرجت مجزب رابع هو حزب الزبيريين ، واهم هذه الاحداث مقتل الحسين بن علي مسموماً^(٥) ، ثم مبايعة معاوية لابنه يزيد بولاية

-
- (١) كما يرى ولهوزن في تاريخ الدولة العربية ٥٧ .
 - (٢) تاريخ الطبري ١٢٣/٤ ، وتاريخ ابن الاثير ١٧٥/٣ ، والبداية والنهاية ١٧/٨ .
 - (٣) تاريخ الخميس ٢٩٠/٢ .
 - (٤) تاريخ الخميس ٢٩٠/٢ .
 - (٥) في بعض الروايات ان معاوية هو الذي دبر ذلك مع زوجة الحسن ، انظر مروج الذهب ٥٠/٢ .

العهد ، واخذه البيعة له في الحجاز بالعنف والمكر والكذب ، بعد ان وقف في وجهه سادة الهاشمية والقرشية من غير الامويين^(١) ، ثم ماتى ذلك ايام يزيد من مقتل الحسين في كربلاء (٥٦١ هـ) ، وخلع اهل المدينة ليزيد ، واباحة مدينتهم من قبل جيشه بعد وقعة الحرة (٥٦٣ هـ) ، ثم خروج عبد الله بن الزبير في مكة ، ومبايعة اهل الحجاز له بالخلافة ، مما جعل جيش يزيد بعد موقعة الحرة ، ينتقل الى محاربة ابن الزبير وحصاره وضرب الكعبة بالحجارة ، وكاد يجده لولا موت يزيد ، وعودة الجيش الى الشام .

ولما مات يزيد ، تفرق امر بني امية ، وبايعت امصار الدولة لابن الزبير ، وانقسم الشام على نفسه ، فمالت القيسية بزعامه الضحاك بن قيس الفهري الى ابن الزبير ، ومالت الكلبية الى الامويين ، ولم يكن للاموية زعامة اقوى من مروان بن الحكم ، وكاد مروان يتجه الى ابن الزبير ليبيعه بالخلافة ، لولا ان الاموية عقدت مؤتمراً بالجالية قرب دمشق ، وبايعت ابن الحكم بالخلافة (٥٦٤ هـ) ، فسار مروان بأنصاره من الكلبية وبالجيش القادم من حصار ابن الزبير ، ولقي الضحاك في وقعة مرج راهط ، فهزمت القيسية ومُقتل الضحاك ، وبذلك قام امر الاموية من جديد في الشام وفلسطين ، ثم لم تلبث السياسة الاموية ان ضمت مصر الى خلافة مروان ، وعاد في الدولة الاسلامية خليفتان ، عبد الله بن الزبير في الحجاز والعراق ، ومروان بن الحكم في الشام ومصر ، وما زال الامر على هذا النحو حتى كانت خلافة عبد الملك بن مروان ، فسار بنفسه الى لقاء مصعب بن الزبير في العراق ، وظفر به وقتله سنة (٥٧١ هـ) ، ثم سَير الحجاج بن يوسف الثقفي بجيش الى عبد الله بن الزبير بمكة فحاصره وقتله سنة (٥٧٣ هـ) ، وخلا الامر لعبد الملك وللأمويين من بعده .

(١) تاريخ ابن الاثير ٢١٧/٣ - ٢١٨ .

ولكن الأمر لم يتم لعبد الملك وخلفائه الا ظاهرياً ، ذلك لأن سلطة الخلافة بقيت تستمد وجودها من البطش والقوة ، واستمرت تثقل على ثورات ومعارك دامية مع المناوئين ، اذ أن الاحزاب المعارضة ما كان لها أن تتبدد أمام الاحداث ، الا ما كان من امر الزبيريين ، وانما كانت تلك الاحزاب تقوى وتشتد ، ويتخذ كل منها مظهراً خاصاً من مظاهر المقاومة ، وكان لكل منها عدد من الشعراء ، يناضلون عنها ، ويقارعون الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان ، ومن هنا كان لهذه الاحزاب أثر بارز في اتجاه الشعراء ، وفي معاني الشعر لهذا العصر ، وهي على اختلافها قد تركت بعض الآثار في رجز العجاج ، ولذا لا بأس أن نطل عليها بسرعة لتكون خاتمه لهذا الاطار السياسي الموجز لعصر العجاج .

لقد رأينا أن معركة صفين قد أبرزت في الناس ثلاثة أحزاب متميزة ، هي حزب الشيعة ، وحزب الخوارج ، وحزب الأموية ، ثم أضافت الأحداث حزباً رابعاً هو حزب الزبيرية ، وهذا الحزب الاخير قام مع ابن الزبير وانتهى بمقتله ، وبذلك لم يعيش اكثر من تسع سنوات ، وكان ابن الزبير يرى أن تكون الخلافة في قريش دون أن تحصر في الاموية او الهاشمية ، ولذلك كان يقاتلهم جميعاً لحرصهم أن تكون الخلافة فيهم ، وهو بالتالي راغب فيها حريص عليها ، وأغلب الظن أن الزبيرية لم تكن دعوة ذات نظرية خاصة في الحكم ، ولم تكن سوى طموح لزعامة ابن الزبير في وقت لم يكن في الحجاز شخصية اخرى لها من الصفات ما كان لابن الزبير بعد مقتل الحسين بن علي ، ولذلك امتنع الهاشميون عن مبايعته ورأوا فيه محبباً للعالم والسلطان فحسب^(١) ، وهذا ما حمله على سجن محمد بن الحنفية وغيره من

(١) انظر التطور والتجديد للدكتور شوقي ضيف ٦٠ ، وتاريخ الشعر السياسي للشايب ١٧٤ .

سادات الهاشمين^(١) .

وقيام هذا الحزب على أساس الطموح الفردي ، دون الاعتماد على نظرية واضحة حول الخلافة ، جعل الشعر من حوله لا يختلف عن الشعر الاسلامي قبل ذلك ، ففي معانيه نجد الجدة في تناول المعاني والألفاظ الدينية ، ولكنه لا يبرز رأياً ولا يجادل عن دعوة ، ولا يحض على نظرية خاصة ، وهذا واضح في ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ، وهو أهم شاعر اتصل بحزب الزبيريين . ومثل ذلك نجده في ديوان العجاج ، فقد مدح مصعب بن الزبير بالارجوزة (٧) ، فذكر ايقاعه بالختار بن أبي عبيد الثقفي ، ولم يشر الى رأي خاص كان يراه الزبيريون في أمر الحكم او الخلافة . وهذه الأرجوزة تعني أن العجاج قد اتصل بهذا الحزب ، وهلل فيها لمصعب حين قضى على ثورة المختار الثقفي ومن معه من الغلاة ، ولكنه ما لبث أن انقلب على مصعب بعد مقتله ، فعرض بآل الزبير ومدح الأمويين بالأرجوزة (٩) .

ولئن كان حزب الزبيريين قد انتهى بسرعة ، ولم يؤلف دعوة الى نظرية خاصة ، فالأمر قد اختلف مع الأحزاب الأخرى ، اذ كان لكل منها نظريته الخاصة في أمر الخلافة ، وقد استمرت جميعاً تقارع بعضها حرباً بالسيف وحرباً باللسان ، ولا سيما حزب الخوارج .

وجماعة الخوارج كان أول أمرهم حين خرجوا على عليّ بسبب التحكيم ، فقالوا : « لاحكم الاّ الله^(٢) » ، ثم نظروا الى التحكيم على أنه كفر ، فمن تاب منه فهو المسلم ، ومن لم يتب فهو الكافر الذي لا بدّ من حربه ، وكانوا يتولون أبا بكر وعمر ، ثم يتولون عثمان ست سنين من خلافته ثم

(١) الكامل للمبرد ١٦٥/٢ - ١٦٦ .

(٢) قيل إن أول من قالها عروة بن أديّة من بني ربيعة بن حنظلة .

وقيل غير ذلك . انظر الكامل ١١٦/٢ و ١٢١/٢ .

يشهدون عليه بالكفر للأسباب التي أوردناها في موضع سابق ، ويتولون كذلك علي بن ابي طالب حتى قبيل التحكيم ، ثم يكفرونه ومن معه لأنه أقام عليه غير تائب ولا نادم ، ويكفرون كذلك طلحة والزبير لأنها بايعا علياً وهو امام عادل مرضي لم يظهر منه كفر ، ثم نكثنا بعرض من اعراض الدنيا ، وأخرجنا عائشة تقاتل وقد أمرها الله وصاحبها أن يَقْرَن في بيوتهن ، وأما معاوية فقد حارب الامام العادل علياً ، وحارب المسلمين ، وبذلك أصبح وجماعته كفاراً ايضاً^(١) ، وبهذه النظرة أصبحت جماعة المسلمين كفاراً جميعاً في رأي الخوارج .

وهم لا يشترطون في الامام أن يكون من قريش كالزبيرية ، ولا من أحيائها ككلاهشمية والأُموية ، بل لا يشترطون أن يكون عربياً ، وإنما يرون أن يكون مسلماً عادلاً مرضياً ، دون نظر الى قبيلته او عائلته ، وبذلك فهم يمثلون مايشبه الدعوة الجمهورية في الاسلام ، ولهذا انضم الى صفوفهم جماعات من الموالي ، أما عامة الخوارج فكانوا من الأزديانية ، وتيم المضرية ، ذلك لأن مبدأهم السياسي لامكان فيه للعصية القبلية .

وما زال الأمر بالخوارج على هذا النحو ، حتى كانت خلافة عبد الله بن الزبير ، فظهر أصحاب نافع بن الأزرق ، وغالى هؤلاء في عقائدهم ، فكان ذلك سبباً لتفرق الخوارج الى أربعة فرق متميزة^(٢) ، هي الأزارقة أصحاب نافع بن الأزرق ، والنجدات أصحاب نجدة بن عامر ثم أبي مُدَيْك ؛ والصفرية أصحاب زياد بن الأصفر ، الاباضية أصحاب عبد الله بن اباض التيمي ، ولا يهمننا دراسة أمر هذه الفرق وما بينها من خلاف ، وحسبنا أن

(١) انظر الكامل ١١٦/٢ و ١٧٢/٢ .

(٢) الكامل ١٧٠/٢ .

نشير الى أن هذا الخلاف قد تركّز حول آراء الغلو التي آمن بها نافع بن الأزرق ، اذ رأى أن من خالف الخوارج من المسلمين مشرك لا يُقبل منهم الا الاسلام او السيف ، ولا يحِلُّ أكلُ ذبائحهم ولا تناكحهم ولا توارثهم ، والقَعْدُ بمنزلتهم ، والتقية لا تحلُّ^(١) ، ومن ثمّ رأى أن أطفال المشركين في النار ودماء هؤلاء الأطفال حلال للخوارج ، ورأى الاّ تؤدى الأمانة الى من خالفهم ، لأن الله قد أحل أموالهم للخوارج كما أحل دماءهم^(٢) ، ومن هنا ندرك مدى البلاء العظيم الذي أصاب الناس من الخوارج ، ولا سيما فرقة الأزارقة منهم .

ومها ظهر من تألق في دعوتهم الى المساواة ، فان معتقداتهم الدينية وتكفيرهم كلّ المسلمين من غير الخوارج ، جعلهم يعيشون في الارض فساداً^(٣) ، ويسعون الى أمر من العسير أن يتحقق لهم^(٤) ، ولذلك وطنّوا أنفسهم على الموت ، وجعلوا غاية ما يرجون هو الشهادة والجنة^(٥) ، ولذلك كانوا أصحاب جرأة واقدام منذ أن حاوروا علياً قبّل التحكيم وبعده^(٦) ، وكانوا أصحاب حجة وجدل^(٧) ، ولكن هذا الجدل هو الذي فرق أمرهم^(٨) ، وعصف بهم في بعض الحروب^(٩) .

-
- (١) الكامل ١٧٦/٢ .
(٢) الكامل ١٧٨/٢ .
(٣) انظر الكامل ١١٩/٢ ، ١٥٤/٢ ، ١٧٥/٢ وما بعدها .
(٤) قابل بما قاله ولهوزن في تاريخ الدولة العربية ص ٦١ - ٦٢ .
(٥) انظر الكامل ١٢٠/٢ ، و ١٣٩ و ١٥٠ ، و ٢٣٣ .
(٦) تاريخ الطبري ٥٣/٤ ، وتاريخ ابن الأثير ١٤٤/٣ ، والكامل ١٥٨/٢ .
(٧) تاريخ الطبري ٤٧/٤ ، وتاريخ ابن الأثير ١٤٣/٣ ، والكامل ١٣٤/٢ و ١٤٩ و ١٧٦ - ١٨٠ .
(٨) انظر الكامل ١٧٦/٢ - ١٧٨ .
(٩) الكامل ٢٣٧/٢ .

وكان هذا كله يظهر جلياً في أشعارهم ، حتى كان شعر الخوارج أصدق شعر سياسي قيل في معركة الأحزاب لعصر بني أمية ، فهو يجمع بين الحجة والبرهان ، والجدّة في المعاني والموضوع ، والغاية والأسلوب ، والاعتدال على آيات القرآن الكريم ، وكان مصوراً حقيقياً لحياة أصحابه وتفانيهم في عقائدهم ، وجراتهم على اعدائهم ، وحبهم للشهادة في سبيل الله (١) ، وهذا ما يظهر بوضوح في أشعار عمران بن حطان (٢) ، وقطري بن الفجاءة (٣) ، والطرماح بن حكيم (٤) ، وغيرهم من كبار شعراء الخوارج (٥) .

وكان في الوجه المقابل شعراء الزبيريين والأمويين يردون على الخوارج مزاعمهم ، ويرونهم كفاراً مارقين (٦) ، ويصورون مايعيشون في الأرض من فساد ، وهذا الجانب يبرز في شعر العجاج وغيره من شعراء بني أمية ، فالعجاج في الارجوزة (١) يصف ماعاث الخوارج في اليمامة من فساد ، وما أصاب الناس بهم من بلاء ، ويصور جماعة الخوارج فيراهم قد خالفوا الناس أجمع بما اتخذوه من ضلال ، وقد لَفَّوْا أخلاطاً من العبيد ونحوهم ، ثم يرى أن الايقاع بهم انما يجلبو عن الدين قدراً قد لحق به . وبذلك كان العجاج لا يرى رأي الخوارج ، وانما أصلاهم بشعره ، وعرض بهم أشدّ تعريض .
 واثن كان الخوارج هم أصحاب الشوكة بين أحزاب المعارضة ، فقد كان حزب الشيعة أقل ضراوة ، ولكنه مازال يناصب الأمويين العدا ،

-
- (١) انظر الكامل ١١١/٢ ، و ١١٥ ، و ١٩٥ .
 (٢) الكامل ٣٦٢/١ و ١٠٨/٢ - ١١١ ، والأغاني ٣/٣ و ١١٤/١٢ و ١٥٢/٦ - ١٥٧ .
 (٣) انظر قصيدته يوم دولاب في الكامل ١٨٢/٢ .
 (٤) الاغاني ١٥٦/١٠ - ١٦٠ .
 (٥) أشعارهم وأخبارهم متفرقة في الجزء الثاني من الكامل ، وفي المواضع التي أشرنا إليها من تاريخ الطبري وابن الأثير ، وفي كتاب الاغاني .
 (٦) انظر أبياتا لعبد الله بن قيس الرقيات في الكامل ١٢٠/٢ .

حتى كانت له اليد الطولى في القضاء عليهم . وبطانة علي قد بدأت منذ حياة النبي صلى الله عليه وسلم^(١) ، ثم انضحت أيام خلافة عثمان ، وأصبحت جليّة بعد مبايعة علي ، ثم غدت حزباً سياسياً بعد الجمل وصفين ، فلما قتل علي ، وخبّب الحسن آمال أصحاب الحماس من شيعة أبيه ، ثم آل الأمر الى ذبح الحسين وتمزيق آل البيت في كربلاء ، جعل هذا الحزب غايته اسقاط الأموية المغتصبة ، واعادة الحق الشرعي الى أصحابه من آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم .

كان أصحاب علي من أهل المدينة أنصاراً ومهاجرين ، ولكن انتقاله بجاضرة الخلافة الى الكوفة ، جعل عامة أهل العراق من شيعته ، مقابل أهل الشام شيعة معاوية ، وذلك للتنافس القديم الذي كان بين العراق والشام منذ أيام الفرس والروم ، وبسبب الصراع القبلي بين العدنانية والقحطانية ، اذ كانت معظم قبائل العراق من العدنانية ، بينما كانت معظم قبائل الشام من القحطانية^(٢) ، وبما أن السياسة الأموية كانت ظروفها تدفع الى انتهاج السياسة العربية الخالصة ، فقد رأينا طائفة من الموالي في العراق تنضم الى الحوارج ، أمّا كثرتهم فانحازت الى صفوف الشيعة ، اما كرهاً بالأمويين وسياستهم ، أو رغبة في عدالة علي وخلفائه ، أو ايماناً بما داخل التشيع من غلو قد يناسب تفكير بعض الموالي ولا سيما الفرس منهم ، ذلك لأن العراق بما فيه من تأثيرات فكرية وحضارية وفلسفية قديمة من فارسية وهندية ويونانية^(٣) ،

(١) انظر النظم الاسلامية للدكتور صبحي الصالح ٩٥ - ٩٦ .
(٢) انظر التطور والتجديد للدكتور شوقي ضيف ٦٥ ، وتاريخ الدولة العربية لولهوزن ٦٣ .
(٣) انظر التطور والتجديد ١٣ - ١٦ و ٦٧ ، والنظم الاسلامية ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٧ ، ١١٤ .

قد أثر في التشيع ، فهض لذلك بعض الفرق من الغلاة ، وأفسدوا حب آل البيت ، واتخذوه قناعاً فيما ذهبوا اليه من آراء^(١) .

والشيعة ترى أن الامامة ليست من المصالح العامة التي تفوض الى نظر الأمة ، وانما هي ركن الدين وقاعدة الاسلام ، ولا يجوز لني أن يُغفل أمرَ تعيين الامام من بعده ، ومن ثم يرون أن النبي قد عين علياً بنصوص « ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم ، لا يعرفها جهاذة السنة ولا ثقلة الشريعة »^(٢) ، والامام عندهم معصوم عن الكبائر والصغائر ، وغالوا في أمره حتى جعلوه علام الغيوب ، بل زعموا أن الأئمة فوق الأنبياء والملائكة^(٣) .

وكما أن الحوارج كان بينهم لـجـج وانقسام ، فكذلك الشيعة كان بينهم جدل ومحاوره ، جعلت أمرهم يؤول الى فرق متعددة ، تتفق من حيث التشيع لآل البيت ، والقول بحق علي في الخلافة بالنص والوصية ، ثم تفترق في تعيين الامام من أبناء علي ، أو في بعض الآراء الغالية التي تسربت الى معظم هذه الفرق . وليس من شأننا أن نتحدث بالتفصيل عن فرق الشيعة ، الا أن من الخير أن نسوق فكرة عامة عن أهم هذه الفرق ، وهي السبئية والكيسانية والزيدية والامامية ، لنقف على بعض هذه الفرق التي وردت في رجز العجاج ، وعلى أبرز عقائد الغلاة ، التي عرّض بها العجاج في بعض أراجيزه ، وانصب عليها انصباباً بالرد والتفنيد .

أما السبئية فهي تنسب الى عبد الله بن سبأ ، وكان يهودياً من اليمن ، واشترك في الثورة على عثمان ، وكان يتنقل في الأمصار الاسلامية ويؤلب

(١) ارجع الى النظم الاسلامية ١١٤ ما بعدها .

(٢) مقدمة ابن خلدون ٥٢٧/٢ ، وانظر النظم الاسلامية ٩٨ - ٩٩ .

(٣) انظر آراء الغلاة في النظم الاسلامية ١٠٢ - ١١٤ .

الناس عليه ^(١) . والأئمة عند السبئية قد اتصفوا بصفات الألوهية ، أو أن الاله قد حل في ذاتهم البشرية ، وهو قول بالحلول يوافق مذهب النصارى في عيسى صلوات الله عليه . وقد بنوا مذهبهم على ما يشبه القول بالتناسخ ، إذ قالوا ان كمال الامام لا يكون لغيره ، فاذا مات انتقلت روحه الى امام آخر ليكون فيه ذلك الكمال ^(٢) ، وبذلك فشحص النبي لم يموت بمحمد عليه السلام ، وانما انتقل الى سلالة واحدة بعد واحد بادئاً بعلي رضي الله عنه ، وبهذا لم يكن علي في نظرهم مجرد الخليفة الشرعي للنبي ، وانما هو الروح الالهي المتجسد ، ووارث النبوة غير منازع ^(٣) ، ومن هنا زعمت السبئية أن علياً لم يموت ، وانما هو غائب عن أعين الناس ، ومثله عندهم في غيابه كمثل الحضرة الذي ورد ذكره في القرآن ^(٤) ، ولذلك لا بد أن يرجع الى الأرض لاقامة العدل والحق ، أما الآن فهو في السحاب والرعد صوته والبرق سوطه ^(٥) . وبعض هذه الآراء في تأليه علي ، أو القول بأنه مبعوث قبل القيامة ، قد ظهرت في حياة علي رضي الله عنه ، وقد أحرق بالنار من ذهب فيه الى التأليه ^(٦) .

وأكثر السبئية من الفرس الذين اعتنقوا الاسلام ، وبذلك كان أكثر انتشارها بين قوم من غير العرب ^(٧) ، ولكن هذه الفرقة مالبت أن اتحدت

-
- (١) التطور والتجديد ٦٧ .
(٢) مقدمة ابن خلدون ٥٣٠/٢ .
(٣) تاريخ الدولة العربية لولهوزن ٦٤ ، والتطور والتجديد ٦٧ .
(٤) سورة الكهف ١٨/٦٦ ، وارجع الى البداية والنهاية ٢٩٥/١ ،
واخبار الدول للقرماني ٤٤ .
(٥) مقدمة ابن خلدون ٥٣٠/٢ - ٥٣١ ، والنظم الاسلامية ٩٣ - ٩٤ .
(٦) مقدمة ابن خلدون ٥٣٠/٢ ، وتاريخ ابن الأثير ١٧٠/٣ .
(٧) ولهوزن ، تاريخ الدولة العربية ٦٤ .

بحركة أخرى عرفت بالـكيسانية نسبة الى كيسان مولى علي ، وكان كيسان قد أُلّف هذه الحركة بعد استشهاد الحسين رضي الله عنه ، فدعا أنصار آل البيت الى امامة محمد بن علي المعروف بابن الحنفية (١) ، وآمن بآراء عبد الله ابن سبأ ، حتى اختلط الأمر على بعض الباحثين فأطلق اسم السبئية على الكيسانية نفسها (٢) ، وقد غالى كيسان في صفات ابن الحنفية ، فجعله محيطاً بالعلوم كلها ، ولديه الأسرار بجملتها من علم التأويل والباطن ، وعلم الآفاق والأنفس ، وآمن برجعته الى الدنيا قبل يوم القيامة (٣) ، وزعم أنه حيّ لم يميت ، وأنه مقيم في جبل رَضوى من أرض الحجاز (٤) ، وهذه الفكرة التي بدأت بها السبئية ، هي التي لعبت دورها في عقيدة المهدي المنتظر ، الذي سوف يظهر في زمن لا يعلمه الا الله ، ليملا الدنيا عدلاً كما ملئت ظلماً ، وهي من الأفكار الشيعة التي ما تزال لها بعض الأصداء لدى عامة المسلمين .

وربما كان المختار بن أبي عبيد الثقفي أول من اطلق اسم « المهدي » على محمد بن الحنفية ، بعد أن أطلق اسم « الوصي » على علي في بعض خطبه (٥) ، وكان المختار على مذهب الخوارج ، ثم صار زبيرياً ، وتولى الكوفة لابن الزبير ، ثم آمن بآراء الكيسانية ، وغالى في ذلك حتى نسبت اليه (٦) ، الا أن محمد بن الحنفية لعنه وبريء منه حين بلغه أن المختار ينسب اليه صفات الألوهية والتقديس (٧) ، وكان المختار اكثر نشاطاً من كيسان حتى جعله بعض

-
- (١) نسبة الى زوجة علي الثانية خولة ، التي كانت من بني حنيفة .
 (٢) ولهوزن تحدث عن السبئية وهو يريد الكيسانية ، لأن الكيسانية هي التي اتصلت بابن الأشعث ، انظر تاريخ الدولة العربية ٦٤ .
 (٣) العلل والنحل ٢٣٥/١ - ٢٣٦ ، والنظم الاسلامية ١١٦ - ١١٧ .
 (٤) مقدمة ابن خلدون ٥٣١/٢ .
 (٥) النظم الاسلامية ١١٧ ، والكامل للمبرد ١٦٥/٢ .
 (٦) الكامل ١٦٤/٢ - ١٦٥ .
 (٧) مقدمة ابن خلدون ٥٣٠/٢ .

الباحثين زعيم الكيسانية ، وأطلق عليها اسم « المختارية »^(١) ، وكاد يؤسس دولة لهذه الفرقة ، بعد أن جمع من حوله الموالى والعبيد ، وهم غالبية من آمن بالسنيّة والكيسانية ، ولكنه هُزم وقُتل على يد مصعب بن الزبير . ولعل الكيسانية لم تتخذ طابع الاستمرار بعد المختار الثقفي ، وإنما تلاشى أصحابها بين الفرقتين اللتين استقطبتا أنصار آل البيت ، وهما الزيدية و الامامية .

والزيدية تنسب الى زيد بن علي بن الحسين ، الذي خرج على هشام بن عبد الملك في الكوفة فقتل وصُلب^(٢) ، وهي أكثر الفرق اعتدالاً ، اذ كانت ترى أن وصية النبي لعلي بالامامة كانت بالوصف لا بالشخص ، والناس مقصرون اذ لم يضعوا الوصف موضعه ، وبذلك لا يتبرأ زيد بن علي من الشيخين أبي بكر وعمر ، بل يجيز امامة المفضل مع وجود الأفضل^(٣) .

واصحاب هذه الفرقة ساقوا الامامة في لولد فاطمة ، ولكنها في مذهبهم لا تقوم على النص والتعيين ، وإنما على اختيار أهل الحلّ والعقد^(٤) ، وهم لا يقصدون الامام ، ولا ينهبون الى شيء من التأليه فيه ، وإنما يرون فيه العدل والزهد والسخاء والشجاعة .

وأما الامامية فقد سميت بذلك نسبة الى مقاتلهم بأشراط معرفة الامام وتعيينه في الايمان ، وهي أصل عندهم ، وقد ساقوا الامامة بعد علي في ولد فاطمة ايضاً ، ولكن بالنص عليهم واحداً بعد واحد^(٥) ، وهم يرون أن وصية النبي لعلي كانت بنصوص تدل على تعيين علي وتشخيصه ، وكذلك تنقل منه

- (١) النظم الاسلامية ١١٧ .
- (٢) ولم يخرج دعوة لنفسه ، وإنما خرج للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، انظر النظم الاسلامية ١٢١ .
- (٣) مقدمة ابن خلدون ٥٢٩/٢ .
- (٤) مقدمة ابن خلدون ٥٣٤/٢ .
- (٥) مقدمة ابن خلدون ٥٢٩/٢ .

الى من بعده ، وبذلك يتبرؤون من الشيخين أبي بكر وعمر ، لأنهما لم يقدموا
علياً بمقتضى هذه النصوص (١) ، ولما ناظروا زيد بن علي في امامة الشيخين
ورأوه لا يتبرأ منها رفضوه ولم يجعلوه من الأئمة ، وبذلك سموا رافضة (٢) .
ومن الامامية هذه تفرع فيما بعد الاسماعيلية والاثنا عشرية (٣) .

والشعر السياسي عند الشيعة يعتمد على عرض المبادئ والدعوة اليها ،
والاعتماد على المعاني الدينية ، والاقتراس من القرآن الكريم على نحو ماتراه
فوق الشيعة من تأويل ، ولكنه أقل حيوية وحماساً من شعر الخوارج ،
وشعراؤه لم يختصوا بذهبهم اختصاص شعراء الخوارج ، ولم يخلصوا لمذهبهم
اخلاص الخوارج له ، ذلك لايمان الشيعة بالثيقة ، ولهذا وجدنا كثيراً
والكميت يمدحان الأمويين مع أنها من كبار شعراء الشيعة (٤) .

وإذا ساءلنا العجاج رأيه في هذا الحزب ، وجدناه في الارجوزة (٧)
يدح مصعب بن الزبير حين أوقع بالختار الثقفي ، وفيها ينص على أن جماعة
الختار كانوا من الاعاجم والموالي ، وينعت الختار بالكذب والرشوة والكهانة ،
ويصفه بالسبي ، ثم يجعل قتله عقاباً من الرحمن له . وبذلك كان العجاج
لا يرى رأي الشيعة ، وإنما نال منهم ، وتهكم بهم ، ثم شايع الامويين في
مدائحهم بعد القضاء على ابن الزبير .

والامويون كان لهم حزبهم السياسي ، تجاه تلك الاحزاب المعارضة ،

(١) مقدمة ابن خلدون ٥٢٨/٢

(٢) مقدمة ابن خلدون ٥٢٩/٢ ، والرافضة هذه فرقة من فرق
الشيعة ، وقد أطلق أهل السنة والجماعة اسم « الرافضة » أيضاً عن كل
من اعتزل طريقتهم رافضاً أن يكون الشيخان امامين شرعيين بعد رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، انظر النظم الاسلامية ١٢٢ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ٥٣٥/٢ .

(٤) انظر التطور والتجديد ٦٨ - ٦٩ و ص ٢٣٢ - ٢٥٥ ، وتاريخ

الشعر السياسي ١٦١ - ١٧٢ .

وكان هذا الحزب لا بد أن يقارع الأحزاب الأخرى مجادلاً محتجاً لحقه في الخلافة ، فكان يثير وراثته خلافة عثمان ، ويجادل في حقه الشرعي بالخلافة بناء على « التحكيم » الذي وضع الخلافة في صف معاوية ، إلا أن هذه الذرائع ما كان لها أن تبلغ من المعارضة اقتناعاً ، ولا أن ترد عن الأمويين اتهاماً ، إذ أن الخلافة لا تورث وراثته ، وقتل عثمان كان في نظر الحوارج جزءاً وفاقاً بكفره بعد أن كان عادلاً ، والتحكيم في نظر الشيعة كان منزلة ، وفي نظر الحوارج كان كفراً ، ومن جرى إليه من صفوفهم أو صفوف علي وجبت عليه التوبة .

ثم إن المعارضة ما كانت لتنسى للأمويين أنهم أصحاب سابقة في إيذاء الإسلام والمسلمين^(١) ، وأنهم مادخلوا الإسلام الإلتهام مكرهين بعد أن فتحت عليهم أبواب مكة ، وأنهم وطأوا لأنفسهم أيام خلافة عثمان ، ثم تاجروا بدمه ، واغتصبوا حق الخلافة ، وحوّلوا أمرها إلى ملك يشبه ما عند القياصرة والأكسرة ، بل إن الخليفة الأموي منذ معاوية لم يكن يتبع سياسة خلقية دينية ، وإنما يتجه إلى سياسة دينية تسعى إلى توطيد الحكم بأية وسيلة ، ولهذا عُرف الغدر عن خلفاء بني أمية منذ معاوية بن أبي سفيان^(٢) ، وكان عمالهم يسرون بالرعية سيرة الظلم ولا سيما في العراق ، حتى بلغ الأمر

(١) فمعاوية بن أبي سفيان مؤسس الفرع السفيفاني أمه هند ، وهي التي مثلت بحمزة عم النبي يوم أحد ، فأهدر النبي دمها يوم الفتح ، انظر البداية والنهاية ١١/٤ ، ١٦ ، ٣٧ ، وعيون الأثر ١٨/٢ ، وتاريخ الخميس ٩٤/٢ ، ومروان بن الحكم مؤسس الفرع المرواني هو ابن طريد رسول الله ، انظر تاريخ الخميس ٣٠٦/٢ وهو الذي زور كتاب عثمان إلى أهل مصر وكانت الفتنة بسببه ، انظر تاريخ الخميس ٢٥٩/٢ والوزراء والكتاب ٢٢ ، ويقال إن مروان هو الذي قتل طلحة بن الزبير يوم الجمل ، انظر تاريخ الخميس ٢٧٩/٢ ، ٣٠٧ .
(٢) انظر تاريخ ابن الأثير ١٩٥/٣ ، ومروج الذهب ٥٠/٢ .

غايته بولاية الحجاج الثقفي ، اذ عُدَّت ضحاياه بالآلاف ^(١) ، ونُسِجت من حوله الأساطير ^(٢) ، وأفرِدَتْ له أخبار طوال ^(٣) .

وهذا كان يجعل الأمويين في موقف المغتصب لحق الخلافة . ولم تكن القوة وحدها لتكفي في ترسيخ دعائم الحزب الأموي ، ولا سيما أن الأحزاب الأخرى كانت تعتمد على أسس دينية في بناء الاتجاه السياسي لكل منها ، فآل الزبير كانت ثورتهم انقاداً للدين والخلافة أن تُحوَّل الى نظام الاكسرة أو القياصرة ، والحوارج كانت دعوتهم تتجه الى اقامة الدين الصحيح والمساواة بين الناس ، والشعبة كانت دعوتهم تعتمد على حق علي في الخلافة ، ثم وصاية النبي له فيما زعموا ، أما الأمويون فكانوا يفتقرون في واقع الأمر الى ترسيخ أقدامهم بمثل هذه الدعوة الدينية ، ولذلك عاذوا بالدعوة الى أنهم يحكمون الناس بقدر من الله تعالى ^(٤) ، وما دام حكمهم بقدر من الله تعالى و ارادة منه ، فليس على الناس الا طاعة خليفتهم وأمرائهم ، وبذلك جعل الأمويون أنفسهم خلفاء الله على الارض ، أو قل أصحاب الحق الالهي في الخلافة وحكم الناس ، ومن هذه الزاوية جعل الحزب الأموي يرفع من شأن خلفاء بني أمية ، ويعلي من أمر ولانهم وقادتهم ، ويعطي لهم من الأوصاف ما يقارب التقديس على نحو ما كانت عليه دعوة الحزب الشيعي للأئمة من آل البيت . ولهذا كان الشعر الأموي يرفل بالمعاني الدينية على نحو ما كان عليه الشعر في الأحزاب الأخرى ، وتظهر فيه ذرائع الأموية في الدعوة الى حقها في الخلافة ،

-
- (١) حياة الحيوان ١/١٤١ - ١٤٤ .
 - (٢) انظر أخبار الدول ١٣٥ .
 - (٣) انظر مروج الذهب ٢/١٣١ .
 - (٤) التطور والتجديد ٥١ - ٥٢ .

وتبرز فيه اتجاهات الأموية الدينية من الإقرار بالقضاء والقدر والإرجاء ونحو ذلك . وبما أن هذا الحزب يمتلك المال والسلطة ، فذلك كان شعراؤه أكثر من أن يحاط بهم عدداً^(١) . أما العجاج فقد شابع بني أمية ، فمدحهم قبل ابن الزبير وبعده ، واتصل بعدد من خلفائهم وأمرائهم وقادتهم وولاتهم ، وكان في بعض مدائحه ملتزماً بآراء الحزب الأموي ، منادياً بدعوتهم ، قائلاً برأيهم في الإقرار بالقضاء والقدر .

وبذلك لم يكن العجاج بمعزل عن الأحداث السياسية ، والصراع بين الأحزاب ، وإنما تأثر بما عاصره من أحداث ، واتصل ببعض الأحزاب ، ونال من الأحزاب الأخرى ، وبهذا لانجد مسوغاً لقول الجاحظ عن العجاج : انه « أعرابي ليس بنبي نحلة أو خصومة »^(٢) ، فالعجاج قد تأثر بالجانب السياسي في عصره ، وتأثر كذلك بالجانب الاجتماعي ، لأن الحياة الاجتماعية قد تأثرت بكل ما ظهر لذلك العصر من مشكلات سياسية أو حزبية .

- ٢ -

وكان المجتمع لعصر العجاج يمتاز بعدد من الظواهر الاجتماعية البارزة ، أولها ما كانت تخلفه الأحداث السياسية من فوضى في حياة الناس ، والثانية قيام المجتمع على أساس عصبي قبلي ، والثالثة وجود طبقات اجتماعية متميزة ، والرابعة اختلاف البيئات الاجتماعية باختلاف الأقاليم . وكان العجاج في رجزه يتأثر بهذه الظواهر الاجتماعية كلها ، شأن سائر المعاصرين له من شعراء ورجاز .

(١) انظر التطور والتجديد ٧١ - ٧٤ .

(٢) كتاب العثمانية للجاحظ ١٢٥ .

فالأحداث السياسية كانت تخلف شيئاً من الفوضى في حياة الناس الاجتماعية ، وكان العراق أكثر الأقاليم تأثراً بتلك الأحداث ، لأنه كان موطناً لأشدّ أحزاب المعارضة ، وهم الخوارج والشيعة ، ومن ثم كان العراق وما جاوره من بلاد نجد مسرحاً هاماً للثورات المتعاقبة ، وما كان لهذه الثورات أن تنتهي الا بالفوضى واختلال أمر الناس ، ومن أمثلة ذلك أن الخوارج حين غلبوا على نجد والبحرين وعليهم أبو مُدَيْكِ الأَسدي (١) ، كان الناس قد أصابهم من البلاء والعنت ما يظهر بجلاء في أرجوزة العجاج (١) التي مدح بها عمر بن عبيد الله بن معمر بعد تغلبه على الحرورية وقتله أبا مُدَيْكِ باليمامة . وحين مات يزيد بن معاوية كان ذلك سبباً لاختلال أمر البصرة حيث كان العجاج ، فدبت الفوضى وخلت المدينة من أمير شرعي ، وقام الأزدي يؤمرون عليهم من أرادوا ، وقامت تميم يرفعون الى الامارة من شاءوا ، وكان من ذلك حرب بين الفريقين آلت الى مقتل أمير الأزدي مسعود بن عمرو العتكي (٢) ، وفي أرجوزة العجاج (٣٥) ما يصور هذه الفوضى التي ابتليت بها البصرة في ذلك الحين ، اذ اصاب الناس من البلاء ما يشبه غمة قد أطبقت عليهم وكأنها قدر من الله تعالى !

وتقلب الأحوال السياسية وعدم الاستقرار ، كان يدعو الى شيء من النفاق الاجتماعي ، ومن أمثلة ذلك ان كثيراً والكميت وهما من كبار شعراء الشيعة ، قد مدحا خلفاء بني أمية ، وسموا ذلك تقية ، ونحن نسميه نفاقاً لم يكن يقتصر عليها ، وانما كان ظاهرة واضحة المعالم في هذا العصر ،

(١) انظر تاريخ الطبري ٢٠/٥ وتاريخ ابن الأثير ٨٥/٤ .

(٢) انظر تاريخ الطبري ٤٠٣/٤ - ٤٠٨ ، وتاريخ ابن الأثير

٥٥/٤ - ٥٧ .

ويمثلها مديح العجاج لآل الزبير ، فلما أفل نجمهم نال منهم ثم مدح الامويين ، وهذه الظاهرة كانت واضحة أيضاً في موقف الشعراء من الولاة ، فالفرزدق كان يسعى الى مداراة قبيلته تيم المضرية ، ولا يجد ضيراً في النفاق السياسي ، فهو يمدح الوالي اليميني على العراق مادام والياً ، فان عزل هجاء وعرض باليمنية^(١) ، وذلك لأن طبيعة العصر تختلف عن طبيعة الجاهلية ؛ في عصر ما قبل الاسلام كانت القبيلة لا تخضع الا لسيدها ، أما اليوم فالقبيلة تخضع لسultan الوالي ، واذن لا بد من التقرب اليه ان كان من قبيلة لها عصية أخرى ، وهذا ما يفسر موقف العجاج من والي اليمامة في الأرجوزة (١٧) ، فالوالي قد عزل ، ويبدو أن العجاج لم يكتثر للأمر ، فلما عاد الوالي من جديد ، كان لا بد من الاعتذار اليه ، والتفاني في مدحه ، مراعاة لمصالح العجاج في اليمامة ، أو مراعاة لمصالح قومه بني سعد .

وهذه الفوضى كان لها بعض الأصداء في أحوال الناس المعاشية ، اذ كان على الولاة أن يجوبوا للخلفاء ليعمروا بيت المال ، والا فرضت عليهم المغارم ، وهذا ما حمل الولاة والعمال على العنت والظلم في جمع المال دون أن يراعوا فقراً أو خصاصة ، ولا سيما أن معظم الجباة كانوا لادمة ولا دين ، فهم يسرقون من حرمان الله ، ويفرضون على ضعيف الناس جعلاً ورشوة ، فان دفع والا ضربوه وضاعفوا عليه ما فرضوه ، حتى ولو كان القحط قد حل به ، وأصابته السنون بالفقر والبلاء ، وهذا كله قد تأثر به العجاج ، وصوره أدق تصوير في الأرجوزة (١٧) .

وظاهرة أخرى كانت تبرز في مجتمع العجاج ، هي العصية القبيلة ،

(١) انظر التطور والتجديد ١١٦ وما بعدها .

فالإسلام قد حاول القضاء عليها ، ولكنها لم تلبث أن عادت سيرتها الأولى منذ اختلاف الأنصار والمهاجرين على الخلافة ، ثم تبدت في ردة الأعراب ، واستعرت بين اليمنية والقيسية بعد مرج راهط ، والحق أن العصية القبلية كانت تعيش في دماء القوم وأنفسهم ، ذلك لأن العصية كان ما يزال لها سلطان على نفوس القوم رغم دعوة الإسلام الى نبذها ، إذ أنها مجال قد أودعت فيه مفاخر القوم وأيامهم وأنسابهم وماضيهم منذ أجيال بعيدة .

والذي أسهم في استمرار هذه العصية بعد الفتوحات ، أن القبائل المهاجرة التي سارت في ركاب الفتح ، بقيت محافظة على كيائها القبلي داخل جيش المسلمين ، فكل قبيلة بقيت تؤلف وحدة حربية متميزة ، يرأسها ساداتها في الحرب ، ولكل منها لواؤها المعروف ، فإذا حط رحالها في بعض المناطق نزلت كل قبيلة في موضع خاص بها ، ومثال ذلك أن اليمنية نزلت مدينة حمص في الشام دون القيسية^(١) ، وكان أهلها يتعاطفون على هذا الأساس القبلي ، حتى أنهم تبرعوا لأعشى همدان حين مرّ بهم لأنه يماي^(٢) ، وإذا أقامت مجموعة من القبائل المختلفة في حاضرة مثل الكوفة أو البصرة ، كان لكل منها خطتها أو موقعها الخاص بها ، « ففي البصرة مثلاً لكل من تميم والأزد وبكر وعبد القيس خطتهم ، وكانت الكوفة مقسمة الى خطط مختلفة بين القحطانيين والعدنانيين^(٣) » .

وزاد من أمر العصية خطورة واستمراراً ، أن اليمنية والقيسية ، كانت تؤلف كل منها اطاراً قبلياً عاماً يضم القبائل المتفرعة عنها ، فكانت فروع

(١) انظر الاغاني ٤٩/٦ - ٥٠ (دار الكتب) ، وكانت حمص كلها لليمن حتى قيل : « أذل من قيسي بحمص » انظر مجمع الامثال ٢٨٣/١ .
(٢) الاغاني ١١٧/١٤ و ٦٢/١٧ (ساسي) .
(٣) التطور والتجديد ١٨ ، وانظر الكامل للمبرد ٢١٩/٢ .

اليمنية كلها ضمن اطار عصبي واحد ، وكانت فروع القيسية كلها ضمن اطار عصبي مقابل ، وكانت المنافسة على أشدها بين الفريقين ، وهي منافسة تعود في أصولها الى عصر ما قبل الاسلام ، وهذا التكتل العصبي لعب أدواراً خطيرة في تاريخ الأحزاب السياسية ، لأن من الطبيعي أن تسعى كل عصبية الى السيادة والملك^(١) ، ولهذا كانت القيسية ، وهي عدنانية من مضر ، تندفع الى نصره حزب أو طائفة من هذا الحزب ، بينما تندفع اليمنية الى نصره حزب آخر أو طائفة أخرى ، ففي الشام كانت قيس في صف ابن الزبير بزعامه الضحاك ، وكانت كلب اليمنية في صف الأمويين ، ولم ينته الصراع بينها في « مرج راهط » ، وإنما نقل الى العراق وخرسان ، فلعبت القيسية أدواراً سياسية خطيرة ولا سيما في خرسان ، فكانت من أهم الأسباب في القضاء على دولة بني أمية ، مع أنها شغلت مناصب كثيرة بفضل من ينتمي اليها من ثقيف ، وكانت تميم كاليمنية تنتمي الى مضر ، ولكنها لم تكن على وئام مع القيسية بادىء الأمر ، إلا أن الرغبة في التكتل العصبي جعلت تميماً تنضم الى القيسية تحت لواء المضربة ، وكان يجاورها في البصرة وخراسان أزد عمان ، وهم من أشد أعداء قيس وميم على السواء^(٢) .

وسياسة الأمويين كانت عاملاً هاماً في تنشيط الصراع بين العصبيات ، إذ كان هذا الخليفة يقرب القيسية فتتال مغام الحكم والسلطان ، ثم يأتي خلفه فيقرب اليمنية وتنال بذلك مزايا الجاه والسلطة ، بينما تتخلى القبيلة السابقة عما كان لها من جاه وسلطان ، وهكذا كان تغيير الخليفة يعني تغييراً في الطبقة العصبية المتنفذة ، وبذلك كان يزداد اتساع الصراع بين العصبيات على المغام

(١) انظر مقدمة ابن خلدون ٤٣٩/٢ - ٤٤٠ و ٤٦١/٢ .

(٢) تاريخ الدولة العربية ٦٥ - ٦٦ .

السياسية ، وهذه الظاهرة بدأت بتولي الفرع المرواني للخلافة ، وازداد خطرها بعد خلافة عمر بن عبد العزيز^(١) ، وكان هذا الامر يتم نفسه في الأمصار ، اذ كان الوالي يضرب القبائل بعضها ببعض ليكون هو الأعلى ، وتبعاً لعصبيته كان يعتمد على القيسية مثلاً ، ثم يعتمد خلفه على أعدائها ، ومن ثم كان الصراع العصبي لا تهدأ له نائمة ولا سيباً في العراق^(٢) .

وهذه الظاهرة هي التي تفسر ما نجد في رجز العجاج من صراع عصبي واسع ، فقد خلف فخراً واسعاً بتميم ، وصوّر ذلك الصراع الدامي بين الأزدي وقبيلته تميم ، ولكنه لا يضع القبيلتين وجهاً لوجه ، وإنما يجمع من حوله الحزب المضري كله ، فهو يعدد قبائل المضرية من تميم وخندف وخزيمة وقيس عيلان ، ويرى أنه بهذه القبائل ، أو قل بالحزب المضري كله ، يضرب جموع الأزدي اليمانية .

وبما زاد هذا الصراع الاجتماعي خطورة دخول الموالي في ثنايا الأحزاب السياسية ، أو التجمعات القبلية ، وكان الموالي يؤلفون طبقة متميزة في المجتمع الاسلامي لعصر العجاج ، اذ أن تكوين المجتمع في ذلك الحين كان يتألف من طبقتين الأولى طبقة العرب الفاتحين ، والثانية طبقة الموالي من الأمم المغلوبة وأبرزها موالي الفرس في العراق ، ومن الممكن للباحث أن يميّز بين العرب طبقتين أيضاً ، الأولى طبقة الخاصة في الحجاز والشام ، وقد أثرت من الفتوح ثراءً عظيماً ، وطبقة العامة الذين عاشوا في نجد والعراق والأمصار الأخرى^(٣) ، ولكن العرب على اختلاف أحوالهم المعاشية كانوا يؤلفون طبقة اجتماعية متميزة تقابلها طبقة الموالي من غير العرب .

(١) انظر تاريخ الاسلام السياسي ٥٢٥/١ - ٥٣٣ .

(٢) تاريخ الدولة العربية لولهوزن ٦٤ - ٦٥ .

(٣) قارن بالتطور والتجديد ٧٤ .

ومبادئ الدين الاسلامي كان يمكن أن تمنح هؤلاء الموالي كل ما للعرب من حقوق مدنية ، ولكن سياسة الأمويين كانت سياسة عربية خالصة ، وما كان واقع الدولة يسمح بسياسة أفضل ، اذ لا يمكن للدولة أن تتأمن على مناصبها الكبرى كالولادة والقادة والعمال ، أن تكون الا بأيدي العرب الذين كانوا هم المؤسسين لهذه الدولة ، كما أن البنية الاجتماعية كانت لاتسمح بالتساوي بين العرب والموالي ، ذلك لأن النظام القبلي كان هو السائد في المجتمع ، وكل فرد لابد أن يرتبط باطار قبلي معين ، ولذا كان المسلمون من غير العرب لامكان لهم في البناء الاجتماعي الا اذا التحقوا بالولاء بهذه القبيلة أو بتلك ، وهذا يعني أنهم بطبيعة الحال في منزلة اجتماعية أقل من منزلة أفراد القبيلة من العرب ، ومما يكن لهم من شأن أو نسب قبل اسلامهم فان ذلك لايمدهم في المجتمع الجديد بأي شرف أو امتياز ، لأن شرف الموالي انما هو بمن دخلوا في ولائه لا بأنسابهم الأساسية^(١) .

وهذا مادفع تلقائياً الى نظرة لاتخو من استخفاف ، كان ينظر العرب بها الى الموالي^(٢) ، ولعل من دوافع ذلك أيضاً شعور العرب أنهم أصحاب الفتح والانتصار ، وربما كان لتوالي الأحداث السياسية وتدخل الموالي في تيارات الأحزاب السياسية ماحمل على زيادة الاستخفاف بهم ، ومن ثم قررت في أنفسهم شيء من الحقد والضعينة ، فجعلوا يفترون سبلا ، منهم من سار في ركاب الحوارج لما في مذهبهم من مساواة بين المسلمين ، ومنهم من أيدفوق الشيعة رغبة في دعوتها الغالية أو انتقاماً من الدولة الأموية ، وعلى العموم كان الموالي آذانا لكل ناعق بثورة ، وسيوفاً لكل من يخرج على السلطان .

(١) مقدمة ابن خلدون ٥٢٨/٢ .

(٢) انظر لمحة عن ذلك في التطور والتجديد ٨٥ - ٨٦ .

وقد تأثر رجز العجاج بهذا الجانب ، فلم يغفل دور الموالي في ثورات الحوارج والشيعة ، ففي الأرجوزة (١) ذكر أن الحوارج قد لفقوا أخلاقاً من الناس ، فهم الموالي من سوقة وعبيد ، وفي الأرجوزة (٧) نصّ على أن أصحاب المختار الثقفي كانوا من الأعاجم والموالي أيضاً .

وآخر ما نلاحظه في مجتمع العجاج ، أن البيئة الاجتماعية كانت تختلف باختلاف الأقاليم ، وكل إقليم كان له طابع أدبي خاص تبعاً للبيئة الاجتماعية فيه ومدى ما تأثرت به من الأحداث السياسية ، وأهم هذه البيئات أربع هي الحجاز ونجد والعراق والشام .

أما الحجاز فالحياة الاجتماعية فيه تحولت عما كانت عليه في الجاهلية ، إذ أن الفتوح قد أغدقت عليه ثراءً واسعاً ، فاجتمع لخاصة الناس فيه من الثروة ما يقدر بأرقام تدنو من الخيال أحياناً^(١) ، وابتنوا القصور في مكة والمدينة ، وافتتوا في بنائها بالحص والآجر والساج^(٢) ، وملئوا جنباتها بالعبيد والاماء^(٣) ، ثم أصبح الحجاز في عزلة سياسية تامة بعد أن وطد المرانيون لأنفسهم في الشام ، ولا سيما أن سياسة الأمويين كانت تهدف الى عزلة الحجاز واغراقه بالأموال والأعطيات^(٤) ، حتى ينصرف عن التفكير في أمر السياسة .

(١) انظر تاريخ الخميس ١٧٢/١ - ١٧٣ ، و ٢٥٧/٢ - ٢٥٩ ، وتاريخ أبي الفداء ١٧٦/١ ، ومقدمة ابن خلدون ٥٤٢/٢ ، ومروج الذهب ٤٣٣/١ - ٤٣٤ ، و ٤٣٨/١ ، و ٦٧/٢ .
(٢) انظر مقدمة ابن خلدون ٥٤٣/٢ ، ومروج الذهب ٤٣٤/١ .
(٣) وكانت أعداد العبيد كثيرة لأنه لم يكن آنئذ ما يعرف بالفداء ، وكان أول من فكر فيه عمر بن عبد العزيز (١٠١ هـ) ، ولكن الفداء لم يتم الا أيام الرشيد (١٨٩ هـ) ، انظر فتوح البلدان للبلاذري ١٨١ ، والتنبيه والاشراف للمسعودي ١٨٩ .
(٤) انظر تاريخ الطبري ٣٦٦/٤ ، وتاريخ ابن الأثير ٤٥/٤ ، والمستجدات من فعات الأجواد ٢٢٠ - ٢٢١ .

فلما جاء أبناء الرعيل الثاني وجدوا أنفسهم فيما يشبه الفراغ ، وبين أيديهم أموال كثيرة ، ومن حولهم ذلك الرقيق من عبيد واماء ، فاتجه بعضهم الى التفقه في الدين ، ومال معظمهم الى حياة اللهو والمتعة^(١) ، وكان دور العبيد والاماء هو الترفيه عن هذا الشباب بفن الغناء ، وهو فن كان في جاهلية الحجاز^(٢) ، ولكنه كان محدوداً وساذجاً ، أما اليوم فقد اشتهر واتسع حتى فتحت له النوادي في مكة والمدينة واشتهر فيه أعلام من مشاهير المغنين والمغنيات^(٣) .

وشعر هذه البيئة الجديدة كان لا يبدؤ أن تظهر فيه سمات تميزه من شعر ما قبل الاسلام ، اذ ضمير فيه موضوع المديح والهجاء ، واتجه بوجه خاص الى الغزل لما فيه من تلاؤم مع ترف هذه البيئة ورقة مشاعرهما وما ظهر فيها من فن الغناء الجديد ، « ومن هنا كان أكثر الشعراء في الحجاز لهذا العصر شعراء حب وغزل على نحو ما نعرف عند عمر بن أبي ربيعة والعرجي وابن قيس الرقيات في مكة ، والأحوص في المدينة ، فقد ذهب شعرهم جميعاً في التغني بقصة الحب وأحداثه ووقائعه ، وعبروا في ذلك عن رقة حس شديدة ، وكان شعرهم يتحول في كثير من جوانبه الى أنفاس خالصة »^(٤) .

وكان هؤلاء الشعراء أساليبهم المعروفة في مدرسة الغزل الحسي المادي ، وكان لهم دورهم في تطوير شكل القصيدة ومضمونها . وما كان العجاج ليتأثر

(١) ذكر أن الوليد بن عثمان بن عفان كان صاحب متعة وشراب ، وقتل أبوه وهو مخلق سكران ، مما يدل على أن اللهو بدأ منذ زمن مبكر ، انظر مروج الذهب ٤٣٣/١ .

(٢) انظر أخبار جاريتي ابن خطل ، وقد اهدر النبي دمهما يوم الفتح لأنهما كانتا تغنيان في الجاهلية بهجاء المسلمين ، تاريخ الخميس ٩٤/٢ ، وجوامع السيرة ٢٣٣ .

(٣) انظر التطور والتجديد ٦ .

(٤) التطور والتجديد ٧ .

بهذه النزعة الاجتماعية التي وجدت في بيئة الحجاز ، فهو أعرابي من تميم عاش بين نجد والعراق ، وتأثر بما فيها من بيئات اجتماعية ، ثم تأثر ببعض الشيء بما كان في الشام من حضرة الخلافة .

أما نجد فهي صحراء واسعة بين الحجاز والعراق ، والحياة فيها تعتمد على المراعي ، ان جادت السماء بالغيث والمطر ، والاّ كان لا بدّ من تأمين الحياة بالغزو والاغارة ، وربما كانت مواقع الغيث سبباً للتنازع بين الأحياء والقبائل ، وهذا ماجعل بين قبائل نجد أياماً ووقائع كثيرة ، وخلف آحنا ويرات منذ الجاهلية ، ولا سيما أن هذه القبائل منها العدناني ومنها القحطاني ، وهذا مساعد على ايقاظ روح العصية بين القبائل المهاجرة الى العراق والشام وخراسان . وقد لمسنا آثار هذه العصابات بجلاء في أراجيز العجاج .

ولم تظفر بلاد نجد بما ظفر به أهل الحجاز ، لأن سكان نجد لم يكونوا من السابقين الى الاسلام حتى يكون لهم نصيب من ذلك الثراء الواسع ، وانما كان نصيبهم تلك الحروب الأهلية الطاحنة التي بدأت بحروب الردة ، وانتهت الى تسلط الحروب خاصة في البحرين واليامة ، وبذلك تحولت بلاد نجد الى مسرح للصراع الدامي بين الخوارج وأصحاب السلطان في العراق . ولهذا لم تكن بيئة نجد قد ظفرت بغير الفقر الذي عرفته في جاهليتها ، ولذلك لم نجد أي تحول في أشعار هذه البيئة النجدية ، الاّ ما كان من بروز ظاهرة الغزل العذري على يد قيس بن ذريح وجميل بثينة وغيرهما^(١) ، وهو غزل لم يكن مألوفاً على هذا النحو من التخصص في العصر الجاهلي ، واذا لم نجد هذا التخصص بشكل واسع في غزل العجاج فان آثار العفة العذرية واضحة

(١) انظر التطور والتجديد ١٢ - ١٣ .

في غزله ، وفي نفسيته وأخلاقه ، كما أن البيئة النجدية قد أثرت تأثيراً واسعاً جداً في أوصافه وأحاديثه عن الصحراء بحيوانها ونباتها وأحوالها المختلفة ، بل ان نشأته في الهامة على شواطئ الخليج العربي ، قد خلفت صوراً عديدة للسفينة وتشبيه الجمل أو الناقة بها ، ولعل بيئة نجد الطبيعية والاجتماعية كان لها أثر جوهري في طباع العجاج ، وفي بنية رجزه ، اذ أن هذه الصحراء كانت هي المصدر الأساسي لما أورده من غريب ، وربما كانت أحداثها السياسية ، وما نتج عنها من بؤس اجتماعي ، هي التي أثرت في نفسية العجاج ، فغدا زاهداً في الهجاء ، مٌضرباً عن شتم أعراض الناس .

فالعجاج قد تأثر بالبيئة الطبيعية والاجتماعية في نجد وأما العراق فقد رحل اليه وأقام في البصرة ، وكانت حياة الناس الاجتماعية في العراق تشبه من بعض الجوانب ما كان من بؤس نجد ، ولكنها تختلف عن ذلك في التكوين الاجتماعي والثقافي والحزبي ، فالعراق كانت تتضح فيه طبقات المجتمع أكثر من أي اقليم آخر لكثرة الموالي من الفرس ، وفي العراق حاضرة الحزب الشيعي ومنطلق حزب الخوارج ، وفيه بلغ صراع العصيات غايته ، وفي البصرة كان ثمة صراع عقلي واسع حول بعض الآراء الدينية من قدر أو جبر أو ارجاء ، وكانت الثورات والحروب لا تنقطع ، فاذا أراد الناس متعة أو ترفيهاً ، وجدوا ضالتهم في المربد أو الكناسة ، اذ كان جرير والفرزدق وأصحابها قد هيؤوا فناً جديداً لامتناع الناس ، هو فن النقائض ، وصحيح أن النقائض قد عرفت لها بعض النماذج في الجاهلية و صدر الاسلام^(١) ، الا

(١) انظر امثلة لذلك في تاريخ الطبري ١٧٦/٢ و ٢٠٣/٢ - ٢٠٤ ، وتاريخ الخميس ٢٧٩/١ و ٢٨٠ و ٢٨٧ - ٢٨٨ ، والبداية والنهاية ٢١/٤ و ٥٢ - ٥٦ و ١٣٢ - ١٣٣ و ٢٧٩ - ٢٨٠ و ٤١/٥ - ٤٢ و ٢٢١ ، والمغازي ١٨٥ - ١٨٦ ، وعيون الاثر ٢٨٨/١ - ٢٩٠ و ٦٦/٢ و ٢٠٤ .

أنها تحولت في العراق الى فن دائم يلقي كل يوم ، ولا يبعث عليه الصراع العصبي فقط ، وانما يدفع اليه أيضاً صراع أدبي وفني بين الشعراء ، يحاول كل منهم أن يكون أكثر اعجاباً لدى الناس المتفرجين في البصرة أو الكوفة (١) .

وقد تأثر العجاج بهذه البيئة الاجتماعية في العراق ؛ تأثر بالعصيات النائرة ، واشترك من بعض الجوانب في الصراع بين الأحزاب ، والتزم ولاة العراق ، فمدح مصعب بن الزبير ، والحجاج بن يوسف الثقفي ، واتخذ لنفسه آراء الجبرية بما يتناسب مع مدحه لبني أمية ، ولكنه لم يسهم في الصراع الفني بين شعراء التقاض لأنه صدف عن الافحاش في الهجاء ولم يكن كذلك من الشعراء الذين وقفوا في صف الموالي (٢) ، وانما وجدناه يحط من شأن الحرورية لأنهم سوقة وعبيد ، ويعرض بأصحاب المختار الثقفي لأنهم من الأعاجم .

وكانت بيئة الشام تختلف كل الاختلاف عن بيئة العراق ، اذ أن وجود ذلك الصراع القوي بين العصيات القبلية والطبقات الاجتماعية والتيارات الحزبية في العراق ، جعل منه المركز الأوّل من حيث كثرة الشعر والشعراء ، أما الشام فكان خلافاً لذلك ، لأن الحزب الأموي هو الذي يؤلف السواد الأعظم من الناس ، ولولا الصراع بين القيسية واليمينية في مرج راهط لما عرف الشام خلافاً من هذا النوع ، ولذلك كانت البيئة الاجتماعية في الشام أقرب ما تكون الى التجانس والاستقرار أكثر من الأقاليم السابقة ، وهذا ما جعل نبوغ الشعراء في الشام قليلاً جداً حتى لم يبرز فيها غير عدي بن الرقاع العاملي . وقد لاحظ الدكتور شوقي ضيف أن مرد هذه الظاهرة يعود الى أن معظم قبائل الشام

(١) انظر التطور والتجديد ١٠٢ - ١٨٥ .
(٢) انظر قصيدة لجريير يفخر على قحطان بالفرس والروم ، في مروج الذهب ١٤٨/١ .

كان من اليمنية ، وهؤلاء اصطنعوا العربية الشمالية اصطناعاً ، فلم تؤهلهم لقول الشعر ونظمه (١) ، وهذه الملاحظة يمكن أن تصدق الى حد ما ، ولكن رثابة البيئة الاجتماعية نسبياً كان له الأثر الهام في تحلف النبوغ الشعري ، وقد سبق ابن سلام الى القول بأن الشعر انما يكثر بالحروب التي تكون بين الأحياء ، وبهذا علل ابن سلام ، قلة شعر قريش في الجاهلية ، اذ لم يكن بينهم نائفة ولم يجاروا (٢) ، وهذا نفسه يمكن أن نلاحظه في تيقظ الشعر في الشام عقب الحرب بين اليمنية والقيسية في مرج راهط ، فقد استثارت بعض الشعراء من الفريقين ، الا أن انتصار أحدهما ونقل الأخرى نشاطها السياسي الى العراق وخراسان فترة من الزمن ، جعل النضال الشعري بينها ينجو من جديد في الشام . واذن فالبيئة الاجتماعية المتجانسة نسبياً ، والمؤلفة من قبائل اليمنية غالباً ، قد حملت على الحد من النبوغ الشعري في بيئة الشام ، فكان الشعر لذلك يفد اليها من الأقاليم الأخرى ، باعتبارها قاعدة الخلافة والسلطة ، وكانت دمشق ملتقى الشعراء من العراق والحجاز ونجد ، ومن هؤلاء الشعراء طبقة الرجاز من أمثال العجاج ورؤبة وأبي النجم ، ومن هنا كان أثر الشام في العجاج أنها استثارت همته للمديح ، ولونت معانيه بآراء الأمويين السياسية ، ودعته الى الرحلة بعد الرحلة الى خلفاء بني أمية .

- ٣ -

وبرز لعصر العجاج عدد من الاتجاهات الفكرية والعقلية ، منها ما كان يهدف الى توضيح أمور الدين الاسلامي من تفسير لكتاب الله أو رواية لحديث

(١) التطور والتجديد ٢٤ .

(٢) طبقات ابن سلام ٢١٧ .

- ٤٢ -

رسول الله ، أو تبين لأركان الفقه الاسلامي ، ومنها ما كان صراعاً حول مسائل القدر والايان وما تفرع عن ذلك من أمور .

فعلم التفسير قام على يد جماعة من الصحابة الذين تفقهوا في كتاب الله ، أمثال عبد الله بن عباس ، وأبي بن كعب ، وأبي موسى الاشعري ، وأنس ابن مالك ، وأبي هريرة ، وعبد الله بن عمر ، وجابر بن عبد الله ، والسيدة عائشة أم المؤمنين ، ثم تلقى أقوال الصحابة نفر من كرام التابعين في الأمصار الاسلامية المختلفة ، فنشأت في مكة طبقة من المفسرين ، وفي المدينة طبقة ثانية ، وفي الكوفة طبقة ثالثة^(١) . وبعد أن مر الحديث والفقه بطور التمهد والتحضير ، اتسع البحث فيها وتنوع ، ودارت حولها المدارس الفكرية تنتصر للمأثور تارة ، وللرأي تارة أخرى^(٢) ، وسبب ذلك أن أصول التشريع الاسلامي كانت تستمد من القرآن والحديث والاجماع والقياس^(٣) ، ولهذا قامت في المدينة مدرسة فقهية تمتاز بالاعتماد على الحديث ، لأنها مدينة الرسول ودار السنة وموطن الرعيل الأول من علماء الصحابة ، وقامت في الكوفة مدرسة تمتاز بالاعتماد على الرأي والقياس ، لأنها كانت بعيدة عن موطن الحديث ، ولم يبلغ أهلها من سنن النبي وأقواله إلا ما حمله اليهم أولئك الصحابة ، الذين ساكنوهم ونزلوا بين أظهرهم أمثال علي بن أبي طالب ، وعبد الله بن مسعود ، وأنس بن مالك ، وسعد بن أبي وقاص^(٤) .

وكان التميز واضحاً بين مدرسة أهل الحجاز في المدينة ، ومدرسة أهل العراق في الكوفة ، الأولى تعنى بتحصيل الأحاديث ونقل الأخبار وبناء

(١) مباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي الصالح ٢٣٧ - ٢٣٨ .

(٢) علوم الحديث للدكتور صبحي الصالح ٣١٦ .

(٣) النظم الاسلامية للدكتور صبحي الصالح ٢٢٧ .

(٤) النظم الاسلامية ٢٠٩ ، وانظر الملل والنحل للشهرستاني

الأحكام على النصوص ، ولا يرجع أصحابها الى القياس الجلي أو الحفي ما وجدوا خبراً أو أثراً^(١) ، وهذه المدرسة هي التي خرّجت الامام الشافعي فيما بعد (٢٠٤ هـ) ، والثانية تُعنى بتحصيل وجه القياس والمعنى المستنبط من الأحكام وبناء الحوادث عليها ، وربما قدّم أصحابها القياس الجلي على آحاد الأخبار^(٢) ، وهذه المدرسة هي التي خرّجت الامام أبا حنيفة فيما بعد (١٥٠ هـ) .

وكان بين المدرستين اختلافات كثيرة في الفروع ، ولهم فيها تصنيف ، وعليها مناظرات ، ولذلك أصبحت مصادر الفقه الاسلامي ، وبصورة خاصة الرأي أو القياس نقطة الجدل والمناظرة بين الفقهاء ، فالشعبي كان أصحابه يناظرونه في الفقه^(٣) ، والزهري وقيادة يتناظران عند سليمان بن عبد الملك^(٤) ، وكان لكل اقليم من الدولة فقهاؤه ومحدثوه^(٥) ، وكل مجلس من مجالس هؤلاء الفقهاء ، لا بد أن يثار فيه ذلك الجدل الفقهي ، لأن لكل رأيه في أسباب الخلاف والموازنة بين الآراء .

ولم يكن شعراء هذا العصر على بعد من هذا الجدل الذي يجري في حلقات الفقهاء ، فجزير كان يلتزم حلقة ابن سيرين ، والفرزدق كان يلتزم حلقة الحسن البصري^(٦) ، وربما وجدنا في أشعارهم ما يشبه الفتاوى للناس^(٧) ، وقد تأثرت أشعارهم بالمعاني الدينية ، حتى أصبحت معظم الموضوعات الشعرية لا تخلو من هذه المعاني ، وهي ظاهرة بدأت منذ صدر الاسلام ولكنها اتسعت

-
- (١) الملل والنحل ٤٥/٢ ، وانظر فجر الاسلام ٢٧٦/١ .
 - (٢) الملل والنحل ٤٦/٢ .
 - (٣) البيان والتبيين ٣٢٢/٢ .
 - (٤) البيان والتبيين ٢٤٣/١ .
 - (٥) انظر التطور والتجديد ٤٦-٤٧ ، وفجر الاسلام ٢٠٩/١-٢٣٩ .
 - (٦) العقد ١٦٩/٣ طبعة القاهرة ١٣٠٢ .
 - (٧) الأغاني ١٤/١٩ .

في هذا العصر ، ولا سيما أن موجة من الزهد كانت ترافق حركة العلوم الإسلامية من تفسير أوفقه أو حديث ، لأن معظم هؤلاء العلماء من الصحابة أو التابعين كانوا من الزهاد أو المبالغين في الزهد^(١) .

وقد تأثر العجاج بهذه الجوانب ، فظهرت جليلة في ملامح رجزه بوجه عام ، وقد التقى بأبي هريرة ونقل عنه بعض الأحاديث^(٢) ، وأنشده الأرجوزة (٢٢) وهي في الوعظ فقال أبو هريرة : « أشهد أنك تؤمن بيوم الحساب »^(٣) وأنشده شيئاً من غزله في الأرجوزة (٢١) يسأله هل يرى فيه حرجاً ، فقال : قد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُنشد مثل هذا فلا يرى بأساً^(٤) . وبذلك كان للعجاج اتصال بالصحابة في الحجاز ، ولنا أن تتوقع منه الاتصال بزاهد البصرة وعالمها الحسن البصري ، ومن ثم كان لاتصاله بالصحابة والعلماء الزهاد ، أن ظهرت في أراجيزه بعض الاتجاهات الزهدية ، وأفرد لذلك بعض الأراجيز الخاصة .

وكان ثمة مناظرات حول أمور أخرى غير الفقه والتشريع ، كانت هنالك أسئلة تثار حول الإيمان وهل العمل جزء منه ، فان زاد العمل زاد الايمان ، وان نقص العمل نقص ذلك الايمان ، أم أن الايمان واحد لا يزيد ولا ينقص ؟ وأسئلة أخرى تثار حول القضاء والقدر ، وهل الانسان يختار في أعماله ، أم أنه مجبر عليها واذا كان مجبراً فكيف يحاسب على أمر قد أجبر عليه اجباراً ، وهل في ذلك

-
- (١) انظر التطور والتجديد ٣٢ - ٤٨ .
(٢) الشعر والشعراء ٥٧٢ ، والأغاني ٥٨/٢١ ، وتاريخ ابن عساكر ١٩٤/٧ ، وسمط اللآلي ٥٦ ، وشرح شواهد المغني ١٨ ، والمقاصد النحوية ٢٧/١ .
(٣) الأغاني ٥٨/٢١ ، وخزانة بولاق ٥٠٩/٣ .
(٤) شرح الأصمعي : الأرجوزة ١٥/٢١ - ١٦ وأشار الى ذلك صاحب اللسان في مادة (بخند) و (درم) .

عدل من الله ؟ وهل كان الصواب في صف علي أم في صف معاوية ، وأي الفريقين كان على حق ، وأين قتلى كل منها ، أفي الجنة أم في النار ؟ ومن هنا دخلت السياسة من طرف خفي الى التفكير العقلي ، وكان للثقافات الأجنبية ، والعناصر الأعجمية التي داخلت مجتمع المسلمين ، أن أثرت تأثيراً بالغاً في تسرب بعض الآراء المنكرة الى أذهان بعض الناس في ذلك الحين . وثمة أخبار تشير الى تفكير بعض الأفراد في الجبر أو الاختيار منذ خلافة عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب^(١) ، ولكن الفرق القائلة بذلك ، لم تظهر الاّ أوائل عصر بني أمية ، فكانت طائفة ترى الانسان مجبراً في أعماله ، وهي الجبرية ، وأخرى تراه مختاراً في أعماله ، وهي الاختيارية أو القدرية ، وثالثة كانت وسطاً بين الجبر والاختيار ، وهي المرجئة .

والجبرية كانت ترى أن الانسان أشبه بريشة في مهب الريح ، وليس له حرية أو اختيار فيما ينسب اليه من أفعال ، وقد لخص ابن حزم حججهم فقال : « فأما من قال بالاختيار فانهم احتجوا فقالوا : لما كان الله تعالى فعلاً ، وكان لايشبه شيء من خلقه ، وجب أن لا يكون أحد فعلاً غيره ، وقالوا أيضاً : معنى اضافة العقل الى الانسان ، انما هو كما تقول : مات زيد ، وانما أماته الله ، وقام البناء ، وانما أقامه الله تعالى^(٢) . »

فهم يرون أن الأفعال حين تُنسب الى الانسان ، انما تنسب على سبيل المجاز لا الحقيقة^(٣) ، وبما أن الأفعال جبر لا اختيار فيه ، فلذلك رأوا أن الثواب والعقاب جبر أيضاً لا تحكم للانسان في أمره^(٤) . وكان أول القائلين

(١) النظم الاسلامية ١٣٤ - ١٣٦ ، وانظر بعض الاحاديث النبوية حول ذلك في شفاء العليل لابن القيم ٢٧٢ و ٢٧٤ .
(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل ٢٢/٣ - ٢٣ .
(٣) الملل والنحل للشهرستاني ١١٠/١ .
(٤) الملل والنحل ١١١/١ .

بهذه البدعة هو الجعد بن درهم وتلميذه الجهم بن صفوان ، وكلاهما من الموالى ، وبهذا نستدل على تأثير الاعاجم في افساد عقائد المسلمين (١) ، وكان الجعد قد تعرض لأمر آخر لا يقل خطراً عن الجبر ، وهو قوله بتعطيل الله عن الاتصاف بصفات غير ذاته ، اذ رأى أن ما ورد في القرآن مثل سميع ويصير ليس على ظاهره وانما هو مؤول ، لأن ظاهره يدل على التشبيه بالخلوق وهو مستحيل على الله .

ونقل الجعد تعاليمه الى تلميذه الجهم بن صفوان ، وهو من أهل خراسان من الموالى ، وأقام بالكوفة خطيباً يدعو الناس فيجذبهم الى قوله ، حتى نُسِبَتْ اليه هذه الطائفة فسميت بالجهمية ، وظهر مذهبه في ترمذ ، وقتيل بروج آخر أيام بني أمية (٢) ، ولم تبق الجبرية فرقة واحدة ، بل انقسمت الى فرق متعددة (٣) ، وقد نشط علماء المسلمين في الرد عليها لما خرجت به عن حدود الدين الحنيف (٤) .

وكان يقابل هذه الفرقة من قال بحرية الارادة ، ونفى أن يكون الانسان مجبراً في أعماله ، أو أن يكون القدر هو المتحكم في أعمال الانسان من خير أو شر ، وهؤلاء هم « القدرية » ، وهم نفاة القدر لا المثبتون له كما يمكن أن يتبادر الى الذهن من تسميتهم ، وكان أول الداعين الى ذلك هو معبد بن خالد الجهمي وتلميذه غيلان الدمشقي ، أما معبد فقد قتله الحجاج لخروجه مع ابن الأشعث وقيل لزندقته ، وكان يجالس الحسن البصري

(١) انظر النظم الاسلامية ١٣٨ . وكان الجعد في الشام وأدب

آخر خلفاء بني أمية مروان بن محمد .

(٢) الملل والنحل ١/١٠٩ ، وفجر الاسلام ٣٥١/١ ، والنظم

الاسلامية ١٣٧ - ١٣٩ .

(٣) انظر اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للامام الرازي ٦٨ - ٦٩ .

(٤) انظر رد ابن حزم في كتابه الفصل في الملل ٣/٢٣ - ٢٦ .

أولاً ، ثم استقل عنه في دعوته . وأما غيلان فكان يسكن دمشق ، وكان أبوه مولى لعثمان بن عفان ، وقد أوقع الناس بينه وبين هشام بن عبد الملك وما زالوا حتى أمر به فقتل (١) .

ومجمل آراء غيلان تبعاً لمعبد هي قوله بالاختيار ، وقوله بنفي الصفات الثبوتية ، وقوله بخلق القرآن ، وقوله ان الايمان قول ومعرفة ولكن العمل لا يعد شرطاً داخلياً فيه ، وقوله في الامامة بما قالت الخوارج : من أنها تصح لغير القرشي ولكل من آمن بالكتاب والسنة اذا أجمع المسلمون على امامته (٢) .

ويرى بعض الباحثين أن معبد شيخ غيلان لم يأت بهذه الآراء من نفسه ولم يستقها من آيات القرآن ولا مما عرف عند السلف جائزاً في حق الله أو غير جائز ، وإنما استقاها من رجل نصراني من أهل العراق يدعى أبا يونس الأسواري ، ومن الباحثين من يظن أن معبد الجبني أخذ آراءه هذه عن أبان بن سمعان اليهودي ، وأن أبان أخذ آراءه عن طالوت بن أعصم اليهودي أيضاً (٣) .

ثم وُجدت فرقة ثالثة كانت وسطاً بين الجبرية والقدرية ، وهي فرقة المرجئة ، وكان أساس مذهبهم الايمان والعمل (٤) ، وتكلموا في الايمان والكفر

(١) فجر الاسلام ٣٤٩/١ .

(٢) ومن القائلين بهذا الرأي في الامامة أبو بكر الباقلاني ، ومعظم العلماء على شرط القرشية ، انظر مقدمة ابن خلدون ٥٢٤/٢ ، وأورد السيوطي بعض الاحاديث التي تنص على شرط القرشية ، انظر كتابه تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ٤ .

(٣) النظم الاسلامية ١٤٢ ، وانظر فجر الاسلام ٣٤٨ و ٣٥٠ -

٣٥١ ، وتاريخ العرب السياسي ٥١٢/١ - ٥١٣ .

(٤) الملل والنحل ١١٢/١ .

ماهما ومتى يجوز التسمية بها^(١). ونشأة هذه الفرقة تعود الى الوسط السياسي الذي وجدت فيه ، فالخوارج يكفرون عامة المسلمين ، ومن الشيعة من يكفر أبا بكر وعمر وعثمان ، وأعداء الأمويين جميعاً يكفرون بني أمية ، وكل فرقة ترى أنها على الحق ، وأنّ الفرق الأخرى على كفر وضلالة ، ولهذا قامت جماعة المرجئة لتكون وسطاً بين هذه الأحزاب المتنازعة فذهبت الى أن أصحاب هذه الأحزاب جميعاً قد اعتنقوا الاسلام ، ونطقوا بالشهادتين ، ولا يُدعى ان كانوا قد كفروا حقاً أو أصابوا حقاً ، وإنما أمر ذلك الى الله تعالى ، فهو الذي يعلم الكافر من المؤمن ، وله وحده أن يعاقب ان شاء أو يعفو ان أراد ، ولهذا أرجأت أمر علي ومعاوية ومن سبق من الخلفاء الى الله تعالى دون أن تقطع برأي في ذلك^(٢).

ولكن الموقف السياسي المحايد حملهم على التفكير في شأن الايمان ، وبذلك ارتبطت عندهم الظواهر السياسية بأصول العقيدة في الاسلام ، فأروا أن الايمان هو التصديق بالقلب فقط ، أو قل هو معرفة الله بالقلب ولا عبرة بالظهر ، فان آمن الانسان بقلبه كان مسلماً حقاً ، وان أظهر اليهودية أو النصرانية ، وان لم ينطق لسانه بالشهادتين ، اذ ليس من شرط الايمان أن يقر الانسان باللسان ، أو أن يقوم بالأعمال المفروضة على المؤمنين من صلاة وزكاة وصوم وحج ، فهذه الأعمال الواجبة في الاسلام ليست من شروط الايمان في نظرهم ولا هي جزء منه . ولذلك امتنعوا عن الحكم على غير المسلمين ، لأن أمر الحكم عليهم هو لله تعالى في رأيهم ، وبذلك كله خرجوا

(١) الفصل في الملل ١١٢/٢ .

(٢) انظر النظم الاسلامية ١٤٣ ، وفجر الاسلام ٣٤٣/١ ، وتاريخ

الاسلام السياسي ٥٠٥/١ .

عن الاسلام خروجاً تلاماً^(١) .
 وآراء المرجئة من الصعب أن يُحدّد لها مصدر معين ، اذ تشعبت
 فرقها ، واختلطت كثير من آرائها بآراء الخوارج^(٢) وغيرهم من الفرق حتى
 قال الشهرستاني : « والمرجئة أصناف أربعة : مرجئة الخوارج ، ومرجئة
 القدرية ، ومرجئة الجبرية ، والمرجئة الخالصة »^(٣) . ومن هنا نتبين السبب
 الذي أوقع في الشبهة بعض الباحثين في الخلط بين هذه الفرق ، أو باعتبار
 الجهم بن صفوان مثلاً أحد رؤوس المرجئة ، مع أنه صاحب الجهمية وهي
 أبرز فرقة من الفرق الجبرية . وكذلك يمكن أن ندرك من قول الشهرستاني ،
 لماذا اقتصر بعض المصنفين من القدماء على اعتبار فرق المسلمين أربع فرق
 هي : الشيعة والخوارج والمرجئة والمعتزلة^(٤) ، أو خمس فرق باضافة أهل
 السنة اليها^(٥) ، ولا سيما أن القدرية كانت تمهد لظهور المعتزلة وتتفق معها في
 بعض الأصول ، حتى لقب أصحاب المعتزلة بالقدرية أيضاً^(٦) ، ولهذا لم يميز
 بينها بعض الباحثين تمييزاً دقيقاً^(٧) .

وأول ظهور المعتزلة كان قد بدأ بإعتزال واصل بن عطاء حلقة أستاذه
 الحسن البصري بسبب مارآه واصل من أن مرتكب الكبيرة ليس بكافر ولا

-
- (١) النظم الاسلامية ١٤٣ ، وضحي الاسلام ٣١٦/٣ ، وانظر
 مناقشة الدكتور صبحي الصالح لهذه البدع من آراء المرجئة في النظم
 الاسلامية ١٤٦ ، وانظر بسطاً لآراء المرجئة ورد ابن حزم عليها في كتابه
 الفصل في الملل ١٨٨/٣ - ٢١٢ .
 (٢) الملل والنحل ١٥٤/١ .
 (٣) الملل والنحل ١٨٦/١ .
 (٤) المقالات والفرق للأشعري ١٥ .
 (٥) الفصل في الملل ١١١/٢ .
 (٦) الملل والنحل ١٥٤/١ و ٥٨ ، وانظر النظم الاسلامية ١٤٠ - ١٤١ .
 (٧) أمثال أحمد أمين في فجر الاسلام ٣٤٧/١ .

مؤمن ، وإنما له منزلة بين المنزلتين^(١) ، والمشهور أن هذه الحادثة هي السبب في تسمية هذه الفرقة بالمعتزلة ، وإن قيل غير ذلك^(٢) ، وقد مهد لظهورها ما رأيناه من فرقة القدرية ، وما كان من آراء الحسن البصري امام أهل البصرة ، وهي تركز حول نظرتة الى الايمان ، والى مرتكب الكبيرة والى الجبر والاختيار .

فقد ربط الحسن البصري بين الايمان والعمل ، ورأى أن الايمان لا يكمل الا اذا عمل صاحبه بمقتضاه ، فان نقص من عمله شيئاً ، نقص من ايمانه قدر ذلك ، ومن هنا نظر الى مرتكب الكبيرة ، فرأى أنه لا يوصف بالموثمن الكامل لأنه لم يعمل بمقتضى الايمان ، وليس ما يثبت انه قد كفر ، ولذا كان منافقاً في رأي الحسن البصري ، في حين رآه واصل بن عطاء فاسقاً ، والفسق أشد من النفاق ، ونظرة الحسن الى مرتكب الكبيرة على هذا النحو جعلته يتساءل أيضاً عن الجبر والاختيار ؛ فمرتكب الكبيرة يفعل ذلك باختياره واراדתه أم أن ذلك مفروض ومقدر عليه ؟ وهنا يظهر الحسن البصري وسطاً بين القدرية والجبرية حين يرى أن الخير من الله والشر من العبد ، ويلتزم بقوله تعالى : « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك^(٣) » .

وآراء الحسن البصري هذه قد أثرت في تلميذه واصل بن عطاء ، الذي أسس أول فرقة من فرق المعتزلة^(٤) ، ولا يعيننا تفصيل أمر هذه الفرق ،

(١) الملل والنحل ١/٦٠ .

(٢) انظر فجر الاسلام ١/٢٥٣ ، والنظم الاسلامية ١٥٠ .

(٣) سورة النساء ٤/٧٨ ، وانظر آراء الحسن البصري بالتفصيل في النظم الاسلامية ١٥٢ - ١٥٤ وانظر أيضاً التطور والتجديد ٥٢ وقابله بالملل والنحل ١/٥٩ .

(٤) وأطلق عليها اسم الواصلية، انظر الملل والنحل ١/٥٧ - ٦٢ .

وحسبنا أن نطل على آراء المعتزلة بوجه عام ، وهي تركز على خمسة أسس
عرفت عندهم بالتوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ،
والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

فالمعتزلة اتفقوا على نفي الصفات عن الله تعالى ، ونفي التشبيه عنه من
كل وجه : جهة ومكانا وصورة وجسماً وتجزئاً وانتقالاً وزوالاً وتغيراً وتأثراً ،
وأوجبوا تأويل الآيات التي فيها شيء من التشبيه ، وسموا هذا النمط توحيداً .
واتفقوا على أن العبد خالق لأفعاله من خير وشر ، ومستحق على مايفعله
ثواباً أو عقاباً في الدار الآخرة وان الله منزه أن يضاف إليه شر وظلم وفعل
هو كفر ومعصية ، لأنه لو خلق الظلم كان ظالماً كما لو خلق العدل كان
عادلاً ، وسموا هذا النمط عدلاً . واتفقوا على أن المؤمن اذا خرج من الدنيا
على طاعة وتوبة استحق ماوعده الله به من ثواب ، وان خرج من غير توبة عن
كبيرة ارتكبها ، استحق ما أوعده به الله من عقاب ، وأن الله صادق في
وعده ووعيده ليس مبدلاً لكلماته ، وسموا هذا النمط عدلاً ووعداً . واتفقوا
على أن مرتكب الكبيرة فاسق منزلته بين المؤمن والكافر ، وهذا ما عرف
عندهم بالمنزلة بين المنزلتين . واتفقوا على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر ، وجعلوا من أنفسهم دعاة لذلك تحقيقاً للآية الكريمة : « ولكن
منكم أمة يدعون الى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر »^(١) .
والمعتزلة عامة كانت نشأتهم دينية خالصة ، ولكن طبيعة أبحاثهم جعلتهم
ينظرون الى الامامة وشرط الامام ، فأوا بتفكيرهم العقلي أن الامامة ينبغي
أن تكون اختياراً من الأمة ، وذلك لأن الله عز وجل لم ينص على رجل

(١) سورة آل عمران ٣/١٠٤ ، وانظر آراء المعتزلة في الملل والنحل
٥٥/١ - ٥٦ ، والنظم الاسلامية ١٥٥ - ١٦٩ ، وتاريخ الاسلام السياسي
٥١٣/١ - ٥١٤ ، وفجر الاسلام ٣٥٩/١ - ٣٦٣ ، وضحي الاسلام ٢١/٣ - ٦٧ .

بعينه ، وأن اختيار ذلك مفوض الى الأمة تختار منها من ينفذ أحكامه سواء كان قرشياً أو غيره من أهل ملة الاسلام وأهل العدالة والايان^(١) . ورأيهم هذا متفق مع الحوارج ، وقد يكون فيه شيء من الخطر على الأمويين ، ولكن قولهم بالعدل ، وفيه نفى القدر واعتبار الانسان مسؤولاً عن أعماله ، فيه تأييد لخصوم الأمويين عامة ، لأنه يفند مزاعم الأموية في أنهم يحكمون الناس بقدر من الله تعالى ، ومع ذلك فالأمويون لم يتعرضوا للمعتزلة ، لأنها لم تنهض لأهداف سياسية كالحوارج والشيعة ، وسياسة الأمويين كانت لا تتعرض الا للخصوم السياسيين ، ولا تتدخل في الأمور الدينية بين الفرق ، خلافاً لسياسة العباسيين فيما بعد .

وكانت المعتزلة تتأثر بأراء أجنبية^(٢) ، جعلتها تخرج الى ماسماه ابن حزم « شتّع المعتزلة »^(٣) ، وهي في ذلك لا تختلف عن غيرها من فرق الغلاة عند الشيعة والحوارج والمرجئة^(٤) .

وهذه الفرق على اختلافها من جبرية أو قدرية أو مرجئة أو معتزلة ، كان للجدل بينها ميدان واسع جداً ، وكان أهل السنة يناظرون أصحاب هذه الفرق تارة ، وأصحاب تلك الفرق تارة أخرى^(٥) ، ويمكن القول ان الجدل كان لا يهدأ أيام الأمويين ، وقد اتسع وتشعب أيام العباسيين ، ولم يكن شعراء العصر الأموي بعزل عن تأثير هذه الحياة العقلية على مافيا من صراع وجدل ، ولا سيما أن أكثر جوانب هذا الصراع الفكري كان ذا صلة وثيقة

-
- (١) مروج الذهب ١٩١/٢ ، وانظر تاريخ الاسلام السياسي ٥١٥/١ .
(٢) انظر في ذلك النظم الاسلامية ١٥٥ ، وتاريخ الاسلام السياسي ٥١١/١ - ٥١٢ .
(٣) الفصل في الملل ١٩٣/٤ .
(٤) الفصل في الملل ١٧٩/٤ ، ١٨٨ ، ٢٠٤ .
(٥) انظر شفاء العليل لابن القيم ١٣٩ و ١٥٢ ، وفجر الاسلام ٣٧٠/١ .

بالصراع السياسي والاجتماعي في ذلك الحين ، فكان لكل فرقة شاعرها أو شعراؤها ، وكان لكل رأي من يؤيده من الشعراء أمّا عن مبدأ وعقيدة ، وأمّا عن تكسب وطلب للرزق .

فثابت قطنة كان من شعراء المرجئة ، وله قصيدة تعتبر وثيقة تاريخية لما أورد فيها من عقائد المرجئة وآرائهم^(١) . وذو الرمة كان قديراً ، ورؤية بن العجاج كان جبرياً ، وقد اختصم ذو الرمة مع رؤية في الجبر والاختيار واحتج كل منها لمذهبه^(٢) ، وكان العجاج جبرياً أيضاً ، وشعره سجل حافل بأراء الجبرية التي كان يذهب إليها بنو أمية في تأييد ملكهم ، وهو في ذلك لا يختلف عن غيره من شعراء الأموية أمثال الأخطل وجوير والفرزدق ومن إليهم .

ومن هذا التمهد تبين لنا أن رجز العجاج قد تأثر الى أبعد الحدود بالجوانب السياسية والاجتماعية والعقلية التي برزت في عصره وبيئته ، وقد أثرت هذه الجوانب أيضاً في طباعه وحياته بوجه عام .

(١) القصيدة في الاغاني ٥٢/١٣ ، وانظر آياتاً منها في التطور والتجديد ٥١ ، وفجر الاسلام ٣٤٥/١ ، وتاريخ الاسلام السياسي ٥٠٧/١ .
(٢) أمالي المرتضى ١٥/١ .

الفصل الأول

حياة العجاج

١ - نسبه وعشيرته

ان العجاج هو (عبد الله بن رؤبة بن بني سعد بن زيد مناة بن تميم^(١)) ، ولا خلاف في ذلك ، ولكن الخلاف نجده في نسب العجاج الذي يصل بينه وبين « سعد بن زيد مناة بن تميم » . فالأصمعي أورد نسبه في بداية الديوان على هذا النحو : « عبد الله بن رؤبة بن لبيد بن صخر بن كئيف بن عميرة ابن مُحَنِيَّ بن ربيعة بن سعد بن مالك بن سعد بن زيد مناة بن تميم » ، ومثل هذا أوردته ابن حزم في جمهرة أنساب العرب^(٢) ، والعيني في المقاصد^(٣) ، والسيوطي في شرح شواهد المغني^(٤) ، مع اختلاف يسير ، اذ ورد عند ابن حزم : « صخر بن كئيف » بالنون ، وورد عند العيني « صخر بن كئيف ابن عميرة بن حي » ، وعند السيوطي : « صخر بن كئيف بن عمرو بن

-
- (١) سمط اللآليء ٥٦ ، والاشتقاق لابن دريد ٢٥٩ ، والصحاح ٣٢٧/١ ، والشعر والشعراء ٥٧٢ ، وطبقات ابن سلام ٥١٧ ، والمؤتلف ١٢١ ، والخزانة ٩١/١ - ٩٢ ، ولم يذكر ابن عساكر من نسبه الا قوله « عبد الله ابن رؤبة بن لبيد بن صخر » ثم ذكر كنيته ولقبه فقط ، انظر تاريخه ٣٩٤/٧ .
- (٢) جمهرة أنساب العرب ٢١٥ .
- (٣) المقاصد النحوية ٢٦/١ .
- (٤) شرح شواهد المغني ١٨ .

حي ، وقيل عميرة بن حي ، وهذه الاختلافات يسيرة ربما كانت بسبب التحريف أو التصحيف من قبل الرواة أو النساخ ، ولكن الخلاف الواسع إنما يطالعنا فيما أورده صاحب الأغاني ، إذ قال : « واسم العجاج عبد الله بن رؤبة بن حنيفة وهو أبو جذيم بن مالك بن قدامة بن أسامة بن الحارث بن عوف بن مالك بن سعد بن زيد مناة بن تميم (١) » .

وهذا النسب غريب تفرد به الأصفهاني ، ولم ننف على أثر له في غير الأغاني . والمهم أن العجاج هو عبد الله بن رؤبة من بني سعد من تميم ، وأما لقبه « العجاج » فلا خلاف في أنه قد لُقِّبَ به لبيت قاله من الشعر (٢) ، وهو :

حَتَّى يَعْجَجُ ثَخَنًا مِّنْ عَجَجَجَا (٣)

وقد أورد السيوطي أسماء عدد من الشعراء الذين لُقِّبوا بأبيات قالوها من الشعر (٤) ، ولاحظ (الواردت أن مثل هذه الألقاب لم يكن شيئاً غريباً، وما كانت لتسيء الى الشرف أو السمعة (٥) ، وما يؤيد ذلك أن العجاج نفسه قد أورد هذا اللقب في قوله (٦) :

فَقَدْ أَكُونُ الْمُغَوَانِي مَصِيدًا مَلَاوَةً كَأَنَّ فَوْقِي جَلِيدًا
فَقُلْنَا قَدْ أَقْصَرَ أَوْ قَدْ عَوَّدَا عَن وَصَلِنَا الْعَجَّاجُ أَوْ تَجَلَّدَا

-
- (١) الأغاني ٥٧/٢١ .
(٢) الشعر الشعراء ٥٧٣ ، والمزهر ٤٤١/٢ ، وجمهرة اللغة ٥٣/١ ، ١٣٤ ، وشرح شواهد المضي ١٨ ، والمقاصد ٢٦/١ ، واللسان (عجاج) ، وتاريخ ابن عساكر ٣٩٤/٧ .
(٣) الأرجوزة ١٤٦/٣٣ .
(٤) المزهر ٤٣٤/٢ - ٤٤٤ .
(٥) مقدمة الواردات ١٤ (بالألمانية) .
(٦) الأرجوزة ٩/٢٧ - ١٢ .

ويبدو أن العجاج كان طويل القامة ، ولذلك كان يُعرَف أيضاً بعبد الله الطويل ، يدل على ذلك خبر طريف أورده صاحب الأغاني ، وفيه يُعرَف العجاج نفسه بقوله : « أنا عبد الله الطويل » ، قال الأصفهاني : « وكان يكنى بذلك »^(١) ، وكانت للعجاج كنية أخرى ، إذ كان يعرف أيضاً « بأبي الشعثاء » والشعثاء ابنته^(٢) ، وقد أورد العجاج هذه الكنية الأخيرة في قوله^(٣) :

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَدْ أَنْعَمَا عَلَى أَبِي الشَّعْثَاءِ نِعْمَى ثُمَّ مَا
بَدَّلَهَا إِلَّا بِأَحْسَانٍ كَمَا أْتَمَّ نِعْمَاهُ عَلَى مَنْ أَسْلَمَا

ولئن وجدنا من الأخبار ما يفيد شيئاً عن لقب العجاج أو كنيته ، فإن الأخبار عن أسرته جيدة نادرة في مصادرنا المختلفة ، وليس في رجزه إلا اشارات الى بعض أولاده ، ومن العسير أن نجد صورة واضحة لأفراد أسرته ، فنحن لانعلم شيئاً عن والد العجاج وهل كان راجزاً أيضاً ؟ فلدينا من الأخبار ما يدل على أنه كان يحسن نظم الشعر ، ولدينا من الأخبار أيضاً ما يدل على أنه لم يكن يحسن نظم الشعر ، فالسيرافي يقول : « حدثنا أبو بكر بن السراج قال حدثنا أبو العباس محمد بن يزيد قال حدثنا الرياشي أحسبه عن الأصمعي قال : قال رؤبة : خرجت مع أبي أريد سليمان بن عبد الملك فلما صرنا ببعض الطريق قال لي أبي : أبوك راجز وجدك كان راجزاً وأنت

(١) الأغاني ١٢٤/١٨ - ١٢٥ و ٦٠/٢١ ، وانظر الخزانة ١٦٠/١ ، وتاريخ ابن عساکر ٣٩٤/٧ .
(٢) الشعر والشعراء ٥٧٢ ، والبيان ٣٥٦/١ ، وشرح شواهد المغني ١٨ ، والمقاصد ٢٦/١ ، وكنى الشعراء لمحمد بن جبيب : نوادر المخطوطات المجموعة (٧) ص ٢٩١ .
(٣) الأرجوزة ١٧/٢١ - ٢٠ .

مفجع ..» (١) ، وقال ابن رشيقي في باب التجنيس : « ولم تكن القدماء تعرف هذا اللقب ، أعني التجنيس ، يدل ذلك على ذلك ما حكى عن رؤبة بن العجاج وأبيه ، وذلك أنه قال له يوماً : أنا أشعر منك . قال : وكيف تكون أشعر مني وأنا علمتك عطفَ الرجز ؟ قال : وما عطف الرجز ؟ قال :

عاصمٌ يا عاصمٌ لو اعتصم (٢)

فقال : يا أبت أنا شاعر ابن شاعر ، وأنت شاعر ابن معجم « فغلبه (٣) . وفي كلام السيرافي ما يشير الى أن والد العجاج كان راجزاً ، وفي كلام ابن رشيقي ما ينقض ذلك ، ولهذا لا ندرى ان كان والد العجاج شاعراً حقاً أم لا ، ولا نعلم علم اليقين اذا كان العجاج قد ورث نظم الرجز عن أبيه رؤبة ابن لييد ، الا أن هذا لا يمنع أن يكون العجاج قد تأثر بأحد من أسرته أو قبيلته بوجه عام ، ذلك لأن بني سعد عامة قد اشتهروا بالرجز ، وأورد الجاحظ بعض الأخبار التي تؤيد ذلك (٤) ، ونقل الجرجاني أن أبان خيالة (٥) ، قال : « وفدت على مسلمة بن عبد الملك وقد مدحته فأكرمني وأنزلني ثم قال

(١) أخبار النحويين البصريين للسيرافي ٩١ ، ومثله في شرح

شواهد المغني ٣٢٣ .

(٢) الأرجوزة ٣٩/٢٣ ، ورواية الديوان : « وعاصم ما عاصم

لو اعتصم » .

(٣) العمدة ٢٢٧/١ .

(٤) البيان والتبيين ٣٤/٤ - ٣٥ .

(٥) ورد في الوساطة « بجيلة » ، وكذلك في الإبانة عن سرقات

المتنبي ٥٧ ، وإنما هو أبو تخيلة من بني سعد ، وهو الذي مدح مسلمة بن

عبد الملك ، انظر الشعر والشعراء ٥٨٣ ، والموازنة ٨٣ ، والبيان والتبيين

٣/٢٢٥ ، وتحرف اسمه في العمدة ١٨٧/٢ فجاء « أبو جيلة » وهو تحريف

قارنه بالمقد الفريد ٢٠٦/٦ .

لي : مالك والقصيد وأنت من بني سعد ، عليك بالرجز ... » (١) . ولعل هذه الشهرة بالرجز قد ثبتتها رجز العجاج ورؤية فيما بعد .
 فالعجاج من بني سعد ، وهذه القبيلة قد اشتهرت بهذا اللون من الشعر ، ولا يبعد أن يكون في أسرة العجاج من كان يتخذ من الرجز وسيلة للتعبير الفني ، دون أن يكون في هذا الرجز من الاطالة والخصائص مانجده في مدرسة العجاج نفسه .

ولئن كنا لا نعرف شيئاً عن والد العجاج ، فكذلك الامر عن والدته ، وقد علمنا أن جده من قبل أمه يدعى كسيباً ، وذلك من رجز أنشده جرير في هجاء العجاج ، فقال : (٢) .

يَابْنَ كَسَيْبٍ مَا عَلَيْنَا مَبْدُخٌ قَدَ غَلَبْتِكَ كَاعِبٌ تَضْمَخُ
 ثُمَّ أَتَتْ بَابَ الْأَمِيرِ تَصْرُخُ (٣)

ولكننا لانعلم شيئاً عن كسيب هذا الا ماورد من تسميته في رجز جرير .
 واذا أردنا تعرّف أخوة العجاج ، لم نظفر الا بأخ له يدعى العباس ، قال الجاحظ : « ومن ولد مالك بن سعد : عبد الله والعباس ابنا رؤبة ، وكان العباس ، علامة عالماً ، ناسباً راوية ، وكان عبد الله أرجز الناس وأفصحهم ، وكان يكنى أبا الشعثاء ، وهو العجاج » (٤) .

ولا ندري ان كان للعجاج اخوة آخرون غير العباس ، أما الأخوات فلا ندري عنهن شيئاً ، وليس في أيدينا من الدلائل ما يشير الى وجود أخوات له أم لا .

(١) الوساطة ١٥٢ .

(٢) جمهرة اللغة ١/٢٨٧ - ٢٨٨ .

(٣) يشير جرير الى خبر العجاج مع زوجته الدهناء .

(٤) البيان والتبيين ١/٣٥٦ .

فاذا دخلنا بيت العجاج نفسه أمكن لنا أن نتعرف اثنتين من أزواجه ،
الأولى هي عقرب ، والثانية هي الدهناء ، وقد خلطت ألواردت بينها ، وجاء
بكلام مضطرب لا يستند على أدلة ، إذ جعل الدهناء زوجة العجاج الأولى وأم
أولاده رؤبة وحزمة ، ثم ذهب إلى أن العجاج قد طلقها وتخلّى عن الزواج ،
ثم أحب عقرب فتزوجها فجاءته مع أطفالها الأربعة ، ومن ثم أورد ألواردت
الخبر المشهور عن طلاق الدهناء فجعله خاصاً بعقرب ، وهذا مخالف لكل
ماورد في مصادرنا العربية على اختلافها^(١) .

والذي نلاحظه أن الدهناء كانت آخر زوجة للعجاج ، وأن عقرب
سبق منها ولكنها ليست أم ولديه رؤبة وحزمة ، وإنما كان العجاج متزوجاً
قبلها بامرأة أخرى هي أم أولاده ، يدل على ذلك ما كان من علاقة غير ودية
بين العجاج وزوجه عقرب من جانب وبين رؤبة وأخته حزمة من جانب
آخر ، فقد نقل السيوطي شيئاً من هذا فقال : « وروى صاحب كتاب
مناقب الشبان وتقديهم على ذوي الأسنان من طريق محمد بن سلام عن أبي
يحيى الضبي قال : كان رؤبة يرعى ابل أبيه وهو لا يقرض الشعر فتزوج أبوه
امرأة يقال لها عقرب ، فعادت رؤبة ، وكانت تقسم ابله على أولادها
الصغار ، فقال رؤبة : ما هم أحقّ مني ، اني لأقاتل عنها السنين وأنتجع
الغيث ، فقالت عقرب للعجاج : اسمع ، هذا وأنت حي ، فكيف بنا من
بعدك ؟! فخرج فزبره وصاح به وقال اتبع ابلك ! »^(٢) .

وهذه الحادثة كانت عند بعضهم هي السبب لما كان من عتاب ومراجعة
بين العجاج وابنه رؤبة ، وهي تشير إلى صلة غير ودية نهضت بين الأب وابنه

(١) انظر تمهيد الواردات ١٧ - ١٩ (بالالمانية) .

(٢) شرح شواهد المفني ٣٢٣ - ٣٢٤ ، ونقله البغدادي في
الخزانة ٤٠/٢ .

في فترة متأخرة من حياة العجاج (١) .

ولم تكن صلة العجاج بابنته حزمة أفضل من ذلك ، بل كانت غير ودية أيضاً ، إذ أورد ابن منظور أن العجاج كان قد اقترض منها سبعين درهماً للمُصَدِّق ، ثم تقاضته فقضاها بَكْرًا ، وقال في ذلك (٢) :

قَدِ أَقْرَضْتَ حَزْمَةَ قَرَضًا عَسْرًا ما أنسأتنا مُدُّ أَعَارَتِ شَهْرًا
حَتَّى أَعَدَّتْ بِإِذِلَا دِعْشَرًا أَفْضَلَ مِنْ سَبْعِينَ كَانَتْ خُضْرًا
ولهذا نرجح أن تكون حزمة وأخوها رؤبة من زوجة للعجاج لانعرف عنها شيئاً ، وأما عقرب فهي الزوجة الثانية على الأقل ، ولم تكن الدهناء إلا آخر زوجة له ، لأن المصادر العربية كلها تجمع على أن العجاج قد تزوجها وهو شيخ طاعن في السن ، ثم طلقها في خبر مشهور ، ولم تبق عنده طويلاً (٣) .

وفي مجالس ثعلب إشارة الى « ابن خال رؤبة » تدل على أنه كان شاعراً أيضاً ، فقد أنشد ثعلب هذين البيتين :

إِذَا قَلِقَلْتِ بَيْنَ التَّرَاقِي وَحَشْرَجَتِ وَضَاقَ بِهَا بَعْدَ المُكَابِدَةِ الصَّدْرُ
وَقِيلَ اعْتَرِفْ مَا كُنْتَ قَدَّمْتَ آنِفًا فَذَاكَ الْغِنَى عِنْدَ الحِسَابِ أَوْ الفَقْرِ

(١) انظر الأرجوزة (٨) من ديوان العجاج .

(٢) اللسان ، مادة (دعشر) .

(٣) تفصيل خبرها مع العجاج في المحاسن والأضداد ٣٧٤ ، وكنز الحفاظ ٣٤٧ ، وشرح المقامات الحريرية ٢/٢٩١ ، وثمة إشارة إليه في تهذيب اصلاح النطق ١/٥٧ ، والف با ٢/١٨٥ ، وجمهرة اللغة ١/٤٧٩ ، والصحاح ٥/٢١١٦ ، وقد قالت الدهناء ابياتا رائية في ذلك ، ارجع اليها في الصحاح ٢/٦٠١ ، وجمهرة اللغة ١/٣٣٨ و ٢/٣٣١ ، وكنز الحفاظ ٣٤٨ ، وأبياتا ميمية ، ارجع اليها في محاضرات الادباء ٢/١١٩ ، والبيان والتبيين ٣/٢٠٧ ، والحيوان ٣/٥٦ ، بالاضافة الى المصادر التي فصلت هذا الخبر .

وذكر قبلها أنه يقال : « هي لابن خال رؤبة »^(١) ، وكنا نودّ لو حدد لنا شيئاً عن اسمه أو نسبه ، لأن في ذلك عوناً لتعرف بعض ما غمض من أسرة العجاج ، ولو تحقق ذلك لكان من المسالك المؤدية بنا الى تجاوز شيء من ذلك الغموض .

وأما أبناء العجاج وبناته فقد عرفنا منهم رؤبة وهو الذي حمل لواء أبيه في الرجز ، وعرفنا حزيمة ، وليس من دليل يشير الى أنها هي التي لقبّت بالشعفاء ، أو أن الشعفاء ابنة أخرى للعجاج كان قد كني بها ، واذا لم يكن في أيدينا من الأخبار ما يشير الى وجود أبناء آخرين للعجاج ، فهو نفسه قد حدثنا عن وجود أبناء وأحفاد له في قوله^(٢) :

أصبح قومي يحفرون حفرتي يدعون باسمي وتناسوا كنيتي
بنو بنيّ وبنات لابنتي

ولكننا لانعرف له من الأبناء غير رؤبة ، ولا نعرف من الأحفاد الاّ ولد بن لرؤبة : الأول عبد الله بن رؤبة ، والثاني عقبة بن رؤبة ، وأما عبد الله فكان يروي بعض الأخبار والأشعار عن والده رؤبة وجدّه العجاج ، ومن ذلك ما نقله الجاحظ فقال : « وقال عبد الله بن رؤبة : سألت رجلاً رؤبة عن أخطب بن تميم ، فقال : خدّاش بن ليث بن يبيبة . يعني البعيث »^(٣) ، ومن ذلك أيضاً ما نقله البغدادي فقال : « قال أبو القاسم الزجاجي في أماليه الوسطى والصغرى أخبرنا أبو عبد الله محمد بن العباس اليزيدي قال أخبرنا أبو

(١) مجالس ثعلب ١٢٩ .

(٢) الأرجوزة ٤٦/٢٢ - ٤٨ .

(٣) البيان والتبيين ٣٧٣/١ - ٣٧٤ و ١٠/٣ - ١١ ، والبعيث

هو البعيث المجاشعي الذي كان يهاجي جريراً . ونسبه في المؤلف : خدّاش ابن بشر بن خالد بن يبيبة .

الفضل الرياشي عن الأصمعي عن عبد الله بن رؤبة بن العجاج عن ابيه عن جده قال : أنشدت أبا هريرة .. « (١) .

وأما عقبة بن رؤبة فكان راجزاً الا أن الرواة لم تحمل من رجزه شيئاً ، ولم يُذكر الا في خبر واحد فقط هو التقاؤه مع بشار بن برد عند عقبة ابن سلم ، وهو خبر مشهور جداً في كتب اللغة والأدب (٢) ، ولم يُعرف لعقبة بن رؤبة غير هذا الخبر ، ولم ينقل له بيت واحد من الشعر ، وإنما ذهب شعره كله ، فضاع بذلك آخر ما يمكن أن نجد من خصائص في مدرسة العجاج .

وبهذا نجد في أسرة العجاج أكثر من راجز واحد ، وإذا كنا لانعلم علم اليقين ان كان العجاج قد أخذ الشعر أو الرجز عن ابيه ، فان هذا الرجز انتقل منه الى بعض أبنائه وأحفاده ، فكان لأسرته فضل واسع في بناء هذه المدرسة التي جاءت مع الأغلب العجلي ، وتركزت عند العجاج .

٢ - نشأته وعمره ورحلاته :

ليس من اليسير أن نقف على نشأة العجاج ومراحل حياته ، ذلك لأن ما بين أيدينا من أخباره جد قليل ، فكتب اللغة والأدب والتراجم وغيرها قد شغلت بأخباره المتصلة بالرجز والغريب واللغة ، وأغفلت ما يتصل منها بنشأته وأدوار حياته ، والذي يبدو أن أخبار العجاج كانت من الوفرة بكان ، يدل على ذلك ما نقله ابن النديم (٣٨٥ هـ) في الفهرست ، من وجود كتاب

(١) خزانة بولاق ٥٠٩/٣ ، وانظر مجالس ثعلب ٤٨١ اذ أورد له سندا يتصل بشيب بن شيبه .

(٢) انظر الأغاني ١٧٤/٣ (دار الكتب) ، والموشح ٣٦٦ ، والشعر والشعراء ٧٣٤ ، وزهر الآداب ١٢١/٢ وطبقات الشعراء المحدثين لابن المعتز ٣ - ٤ ، والمختار من شعر بشار ٢٢١ ، والبيان والتبيين ٤٩/١ .

في « أخبار العجاج » ، صنفه أبو أحمد عبد العزيز بن يحيى الجلودي ، وهو من اهل البصرة أخباري صاحب سيرة وزيادات وتوفي بعد الثلاثين والثلاثمائة^(١) ، وقد أشار ابن النديم الى أن هذا الكتاب قد ضم أيضاً أخبار رؤبة ابن العجاج .

وكتاب الجلودي لم يشر اليه حاجي خليفة (١٠٦٧ هـ) صاحب كشف الظنون ، ولا يبعد ان يكون قد فقد وضاع قبل القرن الحادي عشر الهجري ، وبضياعه فقد من أيدينا أهم وثيقة كان في وسعها أن تطلعنا على جوانب من حياة العجاج ، وليس في مصادرنا المختلفة ما يعوض كلياً عن كتاب الجلودي ، ومع ذلك فلا بد لنا أن نلتمس شيئاً عن نشأة العجاج ، ومتى عاش ، وأين أقام ، وكيف كانت حياته ، وذلك من خلال ما لدينا من أخبار يسيرة ، وما نجده في أراجيز العجاج نفسه .

ان ألواردت قد حاول أن يحدد الزمن الذي عاش فيه العجاج ، وخرج من مناقشة هذا الأمر الى أن حياة العجاج كانت في الفترة الواقعة بين (٦٤٦/٢٥) و (٧١٥/٩٧) وذلك لأن ألواردت قد زعم أنه ليس من مصدر يحدد بدقة الزمن الذي عاش فيه العجاج ، أو يحدد العمر الذي بلغه ، أو السنوات التي كانت فيها حياته^(٢) .

الا أن رأى ألواردت ومناقشته لحياة العجاج لا تتفق مع المصادر العربية ، فابن عساكر في تاريخه نقل عن المزرباني قوله : ان العجاج « وُلِدَ في الجاهلية ، وقال فيها أبياتاً من رجزه ، ومات أيام الوليد بن عبد الملك بعد أن كبر وأقعد »^(٣) ، وهذا القول أورده عن المزرباني ايضاً السيوطي في

(١) الفهرست ١١٥ .

(٢) انظر تمهيد الواردات ١٤ - ١٦ (بالالمانية) .

(٣) تاريخ ابن عساكر ٣٩٤/٧ .

شرح شواهد المغني^(١) ، واذا كنا لانجده في كتاب الموشح أو معجم الشعراء للمرزباني ، فهذا لا يشكك في قول المرزباني الذي أورده السيوطي وابن عساكر لأنه سقط من أصول أحد كتبه الموجودة حالياً ، أو أنه ورد في كتاب آخر للمرزباني لم يحفظ لنا ، أو أنه جاء في رواية نُقلت مجرد نقل عن المرزباني فحسب .

وقول المرزباني هذا يجعل العجاج من المعمرين ، واذا عدنا الى كتاب المعمرين من العرب لأبي حاتم السجستاني نسأله عن العجاج ، وجدناه لا يذكر عنه شيئاً ، مع أنه ذكر الأغلب العجلي وقال انه عاش عمراً طويلاً^(٢) ، والذي يبدو أن أبا حاتم السجستاني قد أغفل العجاج لأن من عادتهم ألاّ يسلكوا بين المعمرين إلاّ من بلغ العشرين بعد المائة أو جاوزها ، وبذلك فالعجاج لم يبلغ من العمر ما يسمح له أن يُسلك في هذه الطبقة من المعمرين ، ولكنه ربما قارب المائة على كل حال ، فقد ولد في الجاهلية ، وقال أبياتاً فيها ، وقوله أبياتاً من الشعر يعني أنه ربما كان في حوالي العاشرة من عمره على الأقل . واذا كان قد توفي أيام الوليد بن عبد الملك ، فالوليد كانت فترة خلافته بين (٨٦ - ٩٦ هـ) ، وقد مدحه العجاج ورحل اليه ، ولنفرض أنه توفي في السنوات الأولى من خلافة الوليد ، فهذا يعني أنه توفي ما بين (٨٦ - ٩٠ هـ) على الأقل ، وهذا يشير الى أنه عاش بين (٩٠ - ١٠٠) سنة ، وبذلك نجده قد عمّر طويلاً ، وهو ينظم أراجيزه المطولة .

وفي رجز العجاج دليل واضح على أنه كان من المعمرين ، ولم يكن في اطار السبعين أو الثمانين حين واقته المنية ، ذلك لأننا لانكاد نجد له رجزاً

(١) شرح شواهد المغني ١٨ . وذكر الجاحظ أن العجاج ولد في الجاهلية ، انظر كتاب العثمانية ١٢٥ .
(٢) كتاب المعمرين ٧٩ .

قاله أيام شبابه ، فديوانه فيه من الأراجيز ما يمكن أن يُحدّد له تاريخ لارتباطه بأحداث معينة ، وفيه من الأراجيز ما يختص بالحديث عن مفاخر تميم ، أو مفاخر العجاج نفسه ، أو الحديث عن أوصاف الصحراء وما فيها من مشاهد وألوان ، وهذا الرجز لانجد وسيلة الى تحديد زمنه ، ولكنه ان كان من نظم الشباب ، كان لابد أن يظهر فيه بعض معالم الشباب نفسه ، في حين لا يبدو من خلاله الا وجه العجاج المسن ، وهو يتحسر على أيام شبابه ، ويندب ما يلاقه من هرم وضعف وتقدم في السن مفرط ، وفي هذا ما يشير الى أن الأراجيز لم تنظم في مرحلة الشباب أو الكهولة ، وانما نظمت في فترة متأخرة من حياته .

وأقدم ما نجده له من شعر سياسي يرجع الى ولاية مروان بن الحكم على المدينة واليامة لمعاوية بن أبي سفيان ، وخلافة معاوية بدأت سنة (٤١هـ) وانتهت سنة (٦٠هـ) ، أي أن هذا الشعر الذي نظمه في هذه الفترة كان شعراً ناضجاً من حيث اللغة والأساليب ، واذا كان العجاج في البداية قد ترسم أسلوب الأغلب العجلي في تقصيد الرجز ، أو أنه طور هذا الفن تطويراً خاصاً به ، فان ذلك على الوجهين لا يتم له الا بعد فترة من النظم والتطوير ، اذ لاشك أنه قد أنفق زمناً قبل أن يبلغ بالأرجوزة هذا المستوى الفني الذي جعل منها صنواً لقصيدة الشعراء . وبذلك لانجد حرجاً اذا ما قلنا ان رجز العجاج قد فقدت منه طائفة مهمة كان نظمها أيام شبابه ، ومن ثم لانجد بدأ من القول ان العجاج كان من المعمرين ، وانه ربما قارب المائة من السنين . وقد رأينا أن العجاج من قبائل تميم ، وكانت منازل تميم بأرض نجد وامتدت الى اليامة والبصرة وجانب من أرض الكوفة^(١) ، وأما موطن العجاج

(١) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ١٦١ .

بالذات ، فالذي يبدو أنه كان في حَجْر حاضرة اليمامة ، اذ نجد الأصفهاني يقول : « أخبرني محمد بن الحسن بن دريد قال حدثنا أبو حاتم عن أبي عبيدة عن رؤبة قال : لما ولي الوليد بن عبد الملك الخلافة ، بعث بي الحجاج مع أبي لنقاه ، فاستقبلنا الشمال حتى صرنا بباب الفراديس ، قال : وكان خروجنا في عام محصب ، وكنت أصلي الغداة وأجتي من الكمأة ماشئت ، ثم لا أجاوز الا قليلا حتى أرى خيراً منها فأرمي وآخذ الآخر ، حتى نزلنا بعض المياه ، فأهدي لنا حَمَلٌ مُخْرَفَجٌ^(١) ووطب^(٢) ولبسن غليظ وزبدة كأنها رأس نعجة حوشية ، فقطعنا الحَمَلَ آراباً وكدرنا^(٣) عليه اللبن والزبدة حتى اذا بلغ اناه انتشلنا اللحم بغير خبز ، ثم شربت من مرقة شربة لم تزل ذفرياي ترشجان حتى رجعنا الى حجر .. »^(٤) .

فالعجاج ورؤبة قد وفدا على الوليد بن عبد الملك حين ولي الخلافة سنة (٨٦ هـ) ، ثم رجعا الى « حَجْر » ، فهي اذن المكان الذي كانا فيه يقيمان ، ومنه قدما واليه قد رجعا ، وحجر هي قاعدة اليمامة وأم قراها ، وبها ينزل الوالي ، وهي بمنزلة البصرة والكوفة ، لكل قوم منها خطة ، الا أن العَدَدَ فيها لبني حنيفة^(٥) .

وبما يؤكد اقامة العجاج باليمامة ما أورده التبريزي في اختصام العجاج مع زوجه الدهناء بنت مسجل ، اذ نقل عن أبي عبيدة أن الدهناء قد خاصته الى « والي اليمامة ، فكان أبوها يعينها على ذلك ، فقال له أهل اليمامة :

(١) المخرفج : السمين . والخرفجة : سعة العيش ، وحسن الغذاء .

(٢) الوطب : سقاء اللبن .

(٣) كدر الماء : صبّه .

(٤) الأغاني ٥٩/٢١ ، وورد أيضا في الأغاني ١٢٣/١٨ ، وتاريخ

ابن عساكر ٣٩٥/٧ .

(٥) معجم البلدان ٢٢١/٢ (بيروت) ، وانظر ٤٤٢/٥ .

أما تستحي أن تطلب العسب لابتكك»^(١) .

ولعل ما كان يوثق صلة العجاج باليامة أن عبد الملك بن مروان كان قد أقطعه قرية القُصَيْبَةِ ، قال ياقوت : « وقُصَيْبَةُ العجاج أظنها من نواحي اليامة أقطعه اياها عبد الملك »^(٢) ، وقال البكري : « والقصيبة قرية بها منازل بني امرئ القيس بن زيد مناة بن تميم »^(٣) ، وقال الهمداني في حديثه عن ديار بني تميم : « والقُصَيْبَةُ ومَرءَةٌ قرِيتان لبني امرئ القيس من تميم »^(٤) .

الآن أن العجاج ربما أقام فترة من حياته في البصرة ، أو قتل ربما كان يتردد على البصرة فيقيم فيها فترة بعد أخرى ، ثم يعود الى قريته القصيبة ، أو الى حجر قاعدة اليامة ، ولذلك كان يوصف بأنه من أعراب البصرة^(٥) ، ونقل الأصفهاني بسنده عن المدائني قال : « قدم البصرة راجز من أهل المدينة فجلس الى حلقة فيها الشعراء فقال : أنا أرجز العرب ، وأنا الذي أقول :

مروان يعطي وسعيد يمنع مروان نَبَعٌ وسعيد خِرْوَعٌ
وددت أني راميت من أحب في الرجز يدأ بيد ، والله لأنا أرجز من العجاج ،
فليت البصرة جمعت بيني وبينه ، قال : والعجاج وابنه رؤبة معه حاضران .
فأقبل رؤبة على أبيه فقال : قد أنصفك الرجل . فأقبل عليه العجاج ، فقال :
ها أنذا العجاج فهلم ، وزحف اليه ، فقال : وأي العجاجين أنت ؟ قال :
ما خلكتك تعني غيري ، أنا عبد الله الطويل ، وكان يكنى بذلك ، فقال له

(١) كنز الحفاظ ٣٤٧ ، وهذا النص أورده الشريشي في شرح

المقامات ٢٩١/٢ .

(٢) معجم البلدان ١٢٦/٤ .

(٣) معجم ما استعجم ١٠٧٨/٣ .

(٤) صفة جزيرة العرب ١٨١ .

(٥) المقاصد النحوية ٢٧/١ ، وقرائد القلائد ٥ .

المدني : ما عنيتك ولا أردتك ! فقال : وكيف وقد هتفت بي؟ قال : أو ما في الدنيا عجاج سواك . قال : ما علمت ! قال : أعلم وإياه عنيت . قال : فهذا ابني رؤبة ! فقال : اللهم غفرا ما بيني وبينكم عمل ، وإنما مرادي غيركما . فضحك أهل الحلقة وكفا عنه « (١) » .

فالعجاج اذن كان يقيم في البصرة بعض الاحيان ، حتى ان ابن قتيبة نقل عن العجاج أنه قال : « قال لي ابو هريرة : بمن أنت ؟ فقلت : من أهل العراق » (٢) . الا أن العجاج ما كان ليقم بالبصرة أو باليامة دون رحلة أو أسفار ، اذ أن حب الأسفار قد تأصل في نفسه ، يدل على ذلك ما نجد في أراجيزه من حب للرحيل وصبابة تنعكس في أحاديثه عن جملة « مَسْحُول » وما يلاقه من حزن وألم في انتظاره للرحيل والسفر (٣) :

أُنِيخَ مَسْحُولٍ مَعَ الصُّبَارِ مَلَالَةَ المَأْسُورِ لِلإِسَارِ
يُفْنِي جَمِيعَ اللّيلِ بالتَّرْفَارِ وَعَبْرَاتِ الشُّوقِ بالإِدْرَارِ
نَظَارِ أَنْ أُرَكَبَهُ نَظَارِ وَلَوْ يَقْرَهُ كَانَتْ ذَا قَرَارِ
صَبَابَةً فِي أَثَرِ السُّفَارِ

فالعجاج قد تعاطف مع بعيده ، وجعل الشوق الى الأسفار ، لا يهيج في قلبه وحده ، وإنما يهيج أيضاً في قلب بعيده ، حتى غدا يفني ليله بالزفرات والعبوات . وفي أرجوزة أخرى يحدثنا عن بعيده بوضوح ، فنراه قد ملّ دمشق مع صاحبه ، وغدا يطالعه البِشْرُ حين تَحْوَلُ من غَمَقِ دِمَشقٍ وما فيه من خَمَّةٍ وذباب ، الى طريق نجد وما يلوح فيه من برق سهيل (٤) :

(١) الاغاني ٦٠/٢١ ، و ١٢٤/١٨ - ١٢٥ .

(٢) الشعر والشعراء ٥٧٢ .

(٣) الأرجوزة ١/٤ - ٧ .

(٤) الأرجوزة ١/٣ - ٦ .

أَصْبَحَ مَسْحُولٌ يُوَازِي شِقًّا مَلَالَةً يَمَلُّهَا وَأَزُقَا
 وَبَادِيَاتٍ مِنْ ذَبَابِ زُرُقَا يَنْثِقُ رِحْلِي وَالشَّلِيلَ نَتَقَا
 يَنْفِضُ عَنْهُ عَنَّتْرًا وَبَقَا أَقُولُ إِذْ أُنْجَدَ مِنْ دَمَشْقَا
 حِينَ رَمَى بِجَاجِيهِ الشَّرْقَا وَاسْتَأْفَ مِنْ نَحْوِ سُهَيْلٍ بَرَقَا
 يَا بُشْرَتَا إِنْ كَانَ هَذَا حَقًّا

واذن كان العجاج يرتحل الى العراق والشام ، ولكننا لانقوى على تحديد رحلاته بدقة ، اذ لا نجد من أخبار هذه الرحلات الا ذلك الخبر الذي أوردنا منه قسماً منذ قليل ، وهو يشير الى رحلة العجاج مع ولده رؤبة الى الوليد ابن عبد الملك حين ولي الخلافة ، وبعض المصادر تزعم أن هذه الرحلة كانت الى سليمان بن عبد الملك^(١) ، وهذا باطل لأن العجاج لم يبق الى خلافة سليمان (٩٦ هـ) ، وانما توفي أيام الوليد بن عبد الملك .

وثمة خبر آخر يشير الى رحلة للعجاج ورؤبة الى سليمان بن عبد الملك أيضاً ورد في تاريخ ابن عساكر ، وفيه أن رؤبة قال : « خرجت مع أبي أريد سليمان بن عبد الملك ، فلما صرنا ببعض الطريق ، قال لي : أبوك واجز ، وجدك واجز ، وأنت مفحم . قلت : أفأقول ؟ قال : نعم . فقلت :

كَمْ قَدْ حَسَرْنَا مِنْ عِلَاقٍ عَنَسِـ

ثم أنشدته إياها فقال : اسكت فض الله فاك . فلما انتهينا الى سليمان ، قال له : ماقلت ؟ فأنشده أرجوزتي ..»^(٢) .

ويمكن أن يصدق هذا الخبر ان كان رؤبة وأبوه قد قصدا سليمان قبل

(١) عبون الاخبار لابن قتيبة ١١٦/٢ .

(٢) تاريخ ابن عساكر ٣٩٥/٧ . وشرح شواهد المغني ٣٢٣ .

خلافته ، الاّ أن آيات الأرجوزة تشير الى أن الممدوح هو الخليفة بالذات ،
اذ يقول فيها (١) :

حتى احتَضَرْنَا بَعْدَ سَيْرٍ حَدَسِ إمامَ رَغَسٍ فِي نِصَابِ رَغَسِ
مَلِكَهُ اللهُ بِغَيْرِ نَحْسِ خَلِيفَةً سَاسَ بِغَيْرِ فَجَسِ

فالأرجوزة قيلت في مدح الامام أو الخليفة ، وهذا الامام هو الوليد
ابن عبد الملك خلافاً لما أورده ابن عساكر والسيوطي ، يدل على ذلك ما نقله
المرزباني في ترجمة العجاج اذ قال : « حدثني علي بن يحيى قال حدثنا محمد
ابن العباس عن التوزي عن أبي عبيدة عن الهفتي ، وأخبرني عبد الله بن يحيى
العسكري قال حدثني أحمد بن بشر المرثدي عن أبي سعيد النحوي عن التوزي
عن الأصمعي أن العجاج دخل على الوليد بن عبد الملك فأنشد :

كم قد حسرنا عن علة عنس

فصار الى قوله :

بين ابن مروان قريع الانس وابنة عباس قريع عبس
فقال له الوليد ما صنعت شيئاً ، أنشدني غير هذا .. » (٢) .

وهذا يؤيد أن تكون الأرجوزة التي مدح الوليد بن عبد الملك ،
لا أخيه سليمان ، ولا سيما أن العجاج لم يبق الى خلافة سليمان وإنما توفي أيام
خلافة الوليد .

ومن هنا لانجد من أخبار رحلات العجاج الاّ رحلة أو أكثر الى
الوليد بن عبد الملك ، غير أن لنا أن نتوقع له رحلات أخرى لانعرف لها

(١) الأرجوزة ٢٥/٤٣ - ٢٨ .

(٢) اللوشح ٢١٥ . والوليد وسليمان ولدا عبد الملك بن مروان
من زوجه ولادة العبسية .

أخباراً ، اذ لا يمكن للعجاج أن يرسل رجزه مكتوباً الى المدوح وهو الذي يقدمه الخلفاء على الشعراء ، ويأذنون له بالدخول عليهم قبل جرير ومن اليه^(١) ، وقد رأيناه يمدح مروان بن الحكم أيام كان والياً لمعاوية على المدينة واليامة ، ثم يمدح مصعب بن الزبير أيام كان والياً على العراق لأخيه عبد الله ، ثم يمدح الحجاج بن يوسف الثقفي أيام كان والياً على العراق لعبد الملك بن مروان ، ثم يمدح عبد الملك وينال منه قرية القصيبة ، ثم يمدح عدداً آخر من أمراء الأمويين ، ولا نظن العجاج قد وجه هذه المدائح كلها الى مدوحيه وهو مقيم باليامة أو بالبصرة ، وانما لنا أن نتوقع أنه كان يرحل الى مدوحيه في البصرة وواسط ودمشق يمدحهم وينال عطاءهم ثم يعود الى اليامة ، ولهذا نجد بعض الأخبار التي تشير الى عودة العجاج الى اليامة بعد أن كان في العراق أو في الشام ، ومن ذلك ما نقله ابن منظور فقال : « خرج العجاج يريد اليامة ، فاستقبله جرير بن الحطفي فقال : أين تريد ؟ قال : أريد اليامة . قال : تجد بها نبيداً خضرياً . أي كثيراً^(٢) » .

ويبدو أن رحلات العجاج لم تقتصر على العراق والشام وانما كانت تتجه أحياناً الى الحجاز ، ففي حديث العجاج ورؤيته أبا هريرة قوله : « وردت المدينة فأتيت أبا هريرة »^(٣) . وفي رجزه ما يفيد أنه كان في مكة حين جاءه خيال تُكِنِّي وخيال تُكْتَم^(٤) :

طَافَ الْخِيَالانِ فَهَاجَا سَقَمًا خِيَالُ تُكِنِّي وَخِيَالُ تُكْتَمَا
بَاتَا يَجُوسَانِ وَقَدْ تَجَرَّمَا لَيْلُ التَّمَامِ غَيْرَ عِنكَ أَدَهَمَا

- (١) انظر الاغاني ١٢٣/١٨ و ٥٩/٢١ ، وتاريخ ابن عساكر ٣٩٥/٧ .
(٢) اللسان ، مادة (خضرم) .
(٣) انظر شرح الأرجوزة ١٦/٢١ ، والعقد الفريد ١٣٩/٦ ، وسوف نعرض لهذا الحديث في بحثنا القادم عن عقيدة العجاج .
(٤) الأرجوزة ١/٢١ - ٨ .

بِالْخَيْفِ مِنْ مَكَّةَ نَاسًا نَوْمًا فَارْقًا عَيْسًا وَشُعْنًا سُهْمًا
أَسْرُوا وَأَسْرَيْنَ هَزِيْعًا ثَمَّ مَا عَرَّسْنَ الْإِثْمَ مَا يُحِيلُ الْقَسَمَا
ولا ندرى اذا كانت رحلته الى الحجاز طلباً لمديح بعض الأمراء هناك ،
أم أنها كانت نسكا وتعبداً ، ولكن راجز بني سعد لا يبعد أن يقصد الأمرين
معاً ، ولعله في بعض رحلاته الى الحجاز كان يمدح والى المدينة وذلك لامتداد
سلطانه على ولاية اليمامة أيضاً ، ولا يبعد أن يكون في هذه الرحلات قد
اتصل ببعض أمراء الأمويين ومدحهم .

فالعجاج قد رحل الى العراق والشام والحجاز ، وليس في أيدينا أي
دليل على رحلته الى غير هذه الامصار ، الا أننا لا نتوقع أن يرتحل الى
غيرها ، ذلك لأنها هي البيئات المناسبة للشعر في القرن الهجري الأول . وأما
البيئات الأخرى فلم تكن قد أصبحت بعد من البيئات التي تجتذب اليها الشعراء .
وبهذا أمكن لنا أن نقف الى حد ما على أمرين من نشأة العجاج ،
الأول متى نشأ ، والثاني أين نشأ ، وثمة أمر ثالث لا يقل أهمية عما سبق ،
وهو القول في نشأة العجاج كيف كانت ، وكيف تدرجت حتى استقام له
الشباب ثم الرجولة ، ولكن هذا الجانب -غامض كل الغموض في حياة العجاج
شأن أكثر شعراء أدبنا القديم ، ذلك لأن الأخبار التي تنتقل عن هؤلاء
الشعراء ، غالباً ماتغفل هذا الجانب المهم من حياتهم ، واذا أردنا معرفة
شيء عن طفولة العجاج لم نجد وسيلة لذلك ، ولكننا يمكن أن نقدر أن
هذا الطفل الأعراي قد نشأ في أحضان بادية نجد ، على مقربة من اليمامة أو
في اليمامة نفسها ، وكانت نشأته في بيت ربما كان أهلاً للفصاحة ، حتى أمكن
له أن يُخرِّج عبد الله بن ربيعة العجاج أفصح أعراي في عصره ، والعباس
بن ربيعة وهو علامة نسابة^(١) ، ثم كان شبابه لا يختلف عن شباب غيره

(١) البيان والتبيين ١/٣٥٦ .

من اعراب نجد كما سرى في حديثنا عن اخلاقه وصفاته .
والذي يبدو أن العجاج كان على صلة بأكثر الأحداث في عصره ،
وبأكثر الأمراء والحلفاء الذين عاصروهم بعد انتقال الحكم الى بني أمية ، و اذا
كان قد وطد لنفسه مدرسة في الرجز عرفت به وبابنه رؤبة ، فقد كان على
صلة وثيقة بشعراء عصره وخاصة طبقة الرجاز .

فابن قتيبة نقل خبراً طريفاً عن الأصمعي عن رؤبة بن العجاج ، فيه أن
الكذاب الحرمازي الراجز^(١) أتى العجاج يطلب حاجة فقص عليه طائفة من
كذبه ، ثم قال له العجاج : ما حاجتك ؟ قال : كذا وكذا ،
فقضاها له^(٢) .

ونقل ابن قتيبة أيضاً في ترجمة أبي نخيلة الراجز الأسدي^(٣) ، قوله :
« وكان يهاجي العجاج ، فلما تنافرا في شعرهما حضرهما الصبيان ، فذهب
انسان يطردهم ، فقال العجاج : دعهم فانهم يغلبون ويلعبون »^(٤) .
وكان للعجاج لقاء مع أبي النجم العجلي ، ومن أخبار هذا اللقاء ما نقله
صاحب الأغاني فقال : « خرج العجاج مُتَحَفِّلاً^(٥) عليه حُجَّةٌ خز وعمامة
خزٌ على ناقة له قد اجاد رحلها حتى وقف بالمربد والناس مجتمعون
فأنشدهم قوله :

قَد جَبَرَ الدِّينَ الِالَهَ فُجَبَّرَ

فذكر فيها ربيعة وهجام ، فجاء رجل من بكر بن وائل الى أبي النجم

-
- (١) هو عبد الله بن الاعور ، وقيل له الكذاب لكذبه . انظر ترجمته في
الشعر والشعراء ٦٦٥ - ٦٦٦ والمؤتلف ١٧٠ .
(٢) الشعر والشعراء ٦٦٥ .
(٣) انظر ترجمته في الشعر والشعراء ٥٨٣ - ٥٨٤ ، والمؤتلف ١٩٣ - ١٩٤ .
(٤) الشعر والشعراء ٥٨٣ .
(٥) متحفلاً : متزيناً .

وهو في بيته فقال له : انت جالس ، وهذا العجاج يهجوننا بالمربد ، قد اجتمع عليه الناس !! قال : صف لي حاله وزيه الذي هو فيه ، فوصف له . فقال : أبغني جملاً طحّاناً قد أكثر عليه الهناء ، فجاء بالجمال اليه . فأخذ سراويل له فجعل احدى رجليه فيها واتزر بالأخرى وركب الجمل ودفع خطامه الى من يقوده ، فانطلق حتى أتى المربد . فلما دنا من العجاج ، قال : اخلع خطامه ، فخلعه ، وأنشد :

تَذَكَّرَ الْقَلْبُ وَجَهْلًا مَا ذَكَرَ

فجعل الجمل يدنو من الناقة يتشممها ويتباعد عنه العجاج لئلا يفسد ثيابه ورحله بالقطران ، حتى اذا بلغ الى قوله :

شَيْطَانُهُ أَنْشَى وَشَيْطَانِي ذَكَرَ

تعلق الناس هذا البيت وهرب العجاج عنه (١) .

وبذلك كان العجاج ممن يسهم في حياة المربد الأدبية ، فينشد بعض رجزه ، أو يستمع الى مايجرى فيه من نقاض ومهاجاة بين فحول القريض ، ومن ذلك ما نقله صاحب الأغاني عن النابغة الجعدي ، فقال : « وهاجي أوس بن مَعْرَاءٍ بِحُضْرَةِ الْأَخْطَلِ وَالْعَجَّاجِ وَكَعْبِ بْنِ جُعَيْلٍ ، فغلبه أوس ، وكان مُغْلَبًا » (٢) ، وقال أيضاً عن النابغة الجعدي وأوس بن مَعْرَاءٍ : « قال أبو زيد : فحدثني المدائني أنها اجتمعا في المربد فتنافرا وتهاجيا ، وحضرهما العجاج والأخطل وكعب بن جُعَيْلٍ ، فقال أوس :

لَمَّارَاتُ جَعْدَةَ مِنَّا وَرِدَا (٣) وَلَوَّانَعَامًا فِي الْبِلَادِ رُبْدَا (٤)

(١) الأغاني ١٥٣/١٠ (دار الكتب) ، ونقله ابن قتيبة في الشعر والشعراء ٥٨٤ - ٥٨٥ مع اختلاف يسير في الرواية .

(٢) الأغاني ٨/٥ (دار الكتب) ، وشاعر مُغْلَبٌ : كثيرا ما يغلب .

(٣) الوَرْدُ : الجيش ، والوَرْدُ : أيضا : الإشراف على الماء .

(٤) النعام الربد : ما كان لونه سوادا مختلطا .

إِنَّ لَنَا عَلَيْكُمْ مَعَدَّةً^(١) كَاهِلَتَهَا وَرُكْنَهَا الْأَشَدَّ

فقال العجاج :

كُلُّهُ امْرِيٌّ يَعْدُو بِمَا اسْتَعَدَّا^(٢)»

فالعجاج اذن شارك في حياة المربد ، وكان من شعرائه منشداً أو مستمعاً ، ولكنه لم يشارك جدياً في لعبة النقائص التي كانت تشتد يوماً بعد يوم على أيدي الفرزدق وجريز ، لأن طبع العجاج قد صدّف عن هجاء الناس والنسب منهم سواء كان ذلك عن جد أو عن هزل .

وبذلك نجد العجاج قد نشأ أعرايياً في اليمامة ، وامتدت به الحياة الى الشطر الأكبر من القرن الهجري الاول ، ولكننا نجهد ظروف حياته وأطوارها شأن أكثر شعراء أدبنا القديم ، اذ لانكاد نلم بأخبار يسيرة عن حياته الأدبية في مربد البصرة ، أو مديح بعض الخلفاء والولاة والأمراء والقادة ، وكذلك الأمر في عقيدة العجاج وأخلاقه وشخصيته ، فاذا ما أردنا بحث هذه الجوانب من حياته لم نجد الا أخباراً جدت يسيرة ، ولكننا هنا يمكن أن نلوذ بأراجيزه ، ذلك لأنه لم يرض بشيء من وصف أخلاقه وعقيدته ، بل ان أراجيزه لاتخلو من الاشارة أحياناً الى ثقافة العجاج وبعض اتجاهاته العقلية والنفسية .

٣ - عقيدته

لاشك أن الأب لويس شيخو قد غالى في كتابيه « شعراء النصرانية » و « النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية » ، وكذلك في أكثر مقالاته

(١) أراد معد بن عدنان واليه ينتسب أوس بن مفرء ، وبه يفخر على النابغة .

(٢) أغاني دار الكتب ١٣/٥ .

التي نشرها في مجلة « المشرق » ، وذلك لأنه كاد يسلك في النصرانية كل شعراء الجاهلية دون تمييز بين النصراني منهم أو اليهودي أو المثلث أو الحنفي ، وكثيراً ما كانت تخدعه بعض الألفاظ في أشعارهم دون أن يدقق فيما وراءها من المعاني ، فيتخذ منها لنفسه حججاً وأكثرها عليه حجة ، وقد تحدثنا عن هذا الجانب في دراستنا لأمية بن أبي الصلت .

الات أن ما يُستغرب حقاً من الأب لويس شيخو أن يسلك في النصرانية شاعراً إسلامياً كالعجاج ، لاشيء اللهم الات لوجود رواية لأحد آياته يمكن أن تفسر بمعنى « الانجيل أو القربان » . فقد قال الأب شيخو : « ما كنا لنجسر أن ننظم العجاج في سلك شعراء النصرانية لولا كلمة وردت في شعره تدل على أنه دان بالنصرانية ، وان يكن بعد ذلك عدل الى الاسلام . وهذه الكلمة هي مطلع قصيدته الرائية الشهيرة حيث قال :

الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعْطَى الشَّبْرَ

فشرح البعض لفظة (الشبر) بمعنى الخير والعطية ، أي الحمد لله موزع الخيرات والعطايا . الات أن للفظة معنى آخر قديماً ورد في شعر عدي بن زيد الشاعر النصراني الشهير حيث يصف أمانته نحو النعمان (شعراء النصرانية ص ٤٥٢) :

لم أخنه والذي أعطى الشبر

فورد هناك شرح الكلمة « بالانجيل والقربان » وكذلك قال ابن السكيت في اصلاح المنطق (في الطبعة المصرية ص ١٦٩) : وقيل في الشبر هاهنا انه القربان . فعدي اذ أقسم بالشبر أراد أجل مالمدي النصارى في دينهم وهو القربان . وقد زاد العجاج على قول عدي اذ خص الحمد له في مقدمة قصيدته وبراعة استهلاله بمنحة الله المشبر ، فلا يريد أي عطية كانت بل أكبر هبات

الله التي هي عند النصارى الإنجيل والقربان» (١) .
وهذا المعنى الأخير لكلمة الشبر كان عند الأب شيخو يكفي لتفسير العجاج ، ولهذا قال بعد ذلك : « فترى من هذه الشروح أن العجاج وعدي ابن زيد ضربا على وتر واحد وأن كليهما يدين بالنصرانية » (٢) . الا انه مالم يأت أن أدرك أن هذه الكلمة بالذات ليس ثمة اختلاف في شرحها فحسب ، وإنما تختلف روايتها أيضاً في بيت العجاج ، فقال : « هذا ولا نجعل أن الرواة رووا كلمة العجاج » بالحَبَر أو بالخَيْر « وكلاهما بعيد أو تصحيف ، فالحَبَر الأثر أو السرور ، أما الخَيْر على فَعَلَ أو الخَيْر على فِعَلَ بلفظ الجمع فلا ذكر لهما في المعاجم ، مالم يُقَلَّ أن الخَيْر جمع خَيْرَة أي المختار ، ولا شك في أن العجاج نظر الى قول عدي السابق ذكره ، ولا سيما أن أقدم رواية وهي « الشبر » راقية الى الخليل في القرن الثاني للهجرة » (٣) .

وبهذا يجد الأب لويس شيخو أن الحجة قد قامت له ، وأن العجاج قد أصبح فعلاً يدين بالنصرانية ، ولكن هذه الحجة جدّ واهية من أساسها ، لأن كلمة واحدة لا تكفي لإقامة الدليل على عقيدة الرجل ، ذلك لأنها ان كانت فعلاً بالرواية التي أوردها الأب شيخو ، وبالمعنى نفسه الذي اختاره لها ، فهي لاتعدوا أن تكون من آثار ثقافة العجاج وتقليده لشاعر جاهلي هو عدي ابن زيد ، ولا تدل بذلك الا على مجرد تأثره ونقله هذا المعنى عن سواه من الشعراء ، ولسوف نرى في دراستنا لمعانيه كثيراً من نظائرها هذا التقليد في المعاني ، ولسوف نقف كذلك على عدد من المعاني التي كانت بمنزلة المآخذ

(١) مجلة المشرق ٢٣/٤٤٠ - ٤٤١ .

(٢) مجلة المشرق ٢٣/٤٤١ .

(٣) مجلة المشرق ٢٣/٤٤١ .

على العجاج ، لأنه لم يتمثل فيها ذلك الواقع الجديد للحضارة العربية بعد
الاسلام ، وانما بقي يستمد بعض معانيه من أعماق الحياة الجاهلية أحياناً .
ثم ان وجود رواية أخرى للبيت تُسقط الاحتجاج به ، واذا كان الأب
شيخو قد ردّ رواية البيت « الشَّبَر » الى الخليل بن أحمد في القرن الهجري
الثاني ، فهو لم يحدد مصدر هذه الرواية ، وعدم تحديد هذا المصدر مضعف
لاستشهاده بها ، ولنفرض جدلاً أنه اعتمد في ذلك على بعض كتب اللغة ،
فهذه الكتب لا تدقق أحياناً في الرواية لأنها تروي البيت مستقلاً عن قصيدته ،
في حين نجد الأصمعيّ وهو من رجال القرن الثاني أيضاً لا يشير مطلقاً الى هذه
الرواية في شرحه لديوان العجاج ، وانما يروي البيت على هذا النحو :

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعْطَى الْحَبَرَ

ويقول في شرحه : « الحَبَر : السرور ، ويقال : هو في حَبْرَةٍ من
العيش أي في مسرة من العيش . والحَبَر : السرور ... يقول : الحمد لله
الذي أعطى هذا العهد ، يقول : اتبعوا أثر نبيهم وذهب تشبيه الخوارج»^(١) .
فالأصمعي يجعل معنى البيت مرتباً بسائر أبيات الأرجوزة ، اذ أن
معنى السرور يمكن أن يرتبط بالقضاء على الخوارج ، فاذا قُضِيَ على الخوارج
كان ذلك مدعاة حبور وسرور لدى الناس في اليامة وذلك لما عانوه من ظلم
الخوارج وعسفهم وتسلطهم على رقاب الناس وأموالهم . وهذا يردّ مازعه
الأب لويس شيخو من أن هذه الرواية فيها بعد أو تصحيف ، ولا سيما أنها
هي الرواية الوحيدة التي أوردها الأصمعي في ديوان العجاج وشرحها ، ولم
يشر الى أية رواية أخرى .

واذا كان للبيت رواية أخرى في بعض كتب اللغة ، وهي رواية

(١) شرح الأرجوزة ٣/١ .

« الشبر » ، فهذه الكتب أشارت الى معنى القربان مدفوعة بما ورد في بيت عدي بن زيد النصراني ، وأشارت الى أن المعنى هو مجرد « الخير أو العطيّة » ، وأكثرها لم يشر في هذه الرواية الا الى المعنى الأخير فقط (١) . وما دام هنالك أكثر من شرح واحد لرواية « الشبر » ، فهذا يكفي لاسقاط الاحتجاج حتى بهذه الرواية نفسها ، اذ لايجوز الاحتجاج بأحد هذين الشرحين دون الآخر .

ومها يكن فوجود كلمة واحدة لا يكفي لتحديد عقيدة العجاج مع وجود مئات من الألفاظ والمعاني الاسلامية في رجزه ، وقد شعر بهذا الأب لويس شيخو ، فقال : « ولسنا لنقصد بقولنا هذا أن نصرانية العجاج كانت خالصة لاغبار عليها ، فكما ترى هنا أثر النصرانية (٢) ، تجد أيضاً في شعره آثاراً اسلامية » (٣) . ثم أنشد بعض الأمثلة من المعاني الاسلامية في رجزه . وفي قوله الأخير مغالطة علمية ليست من المنطق في شيء ، اذ يجعل كلمة واحدة دليلاً على نصرانية الرجل ، ثم يجعل الآثار الاسلامية الكثيرة في رجزه ، والمتغلغلة في أعماق نفسه ، أشبه بالغبار على نصرانيته تلك ، ثم زاد مغالطة حين قال : « فمن هذه الأمثلة يلوح للقراء ما صار اليه شعر الرجز في عهد بني أمية ، اذ بلغ الغاية من المثانة والتبسط ، وكان للعجاج في ذلك السهم الناثر ، وعلى أثره جرى ابنه رؤبة من بعده ، وعاش الى زمن دولة بني العباس ، ولا نعرف من نصرانيته شيئاً كما ظهر من شعر والده ، ولعله

(١) انظر اصلاح المنطق لابن السكيت ١١٠ ، وتهذيب اصلاح المنطق للتبريزي ١٦٩/١ وأمالي القالي ١٣٤/١ ، وجمهرة اللغة ٢٥٧/١ ، والصحاح ٦٢١/٢ و ٦٩٢ ، ومجالس ثعلب ٥٣٣ ، والمخصص ٨٠/١٥ ، واللسان والتماج (شبر) .

(٢) يريد في كلمة (الشبر) .

(٣) مجلة المشرق ٤٤٢/٢٣ .

لم يثبت على دينه أو جمع بينه وبين الدين الحمدي كما وقع لغيره من نصارى عهد الاسلام الأول الذين لم يستقروا على رأي فتقلبوا على حسب أحوال الزمان والله أعلم» (١) .

وهذا كلام كله مغالطة لا تعتمد على أدلة من العلم أو المنطق ، وإنما تعتمد على أوهام كانت تحيا في مخيلة الأب اليسوعي ، وتحمله حملاً على المغالاة والخروج عن الأساليب العلمية في أمثال هذه الابحاث ، اذ أن رؤبة بن العجاج لا مجال أبداً للشك في عقيدته الاسلامية الخالصة من كل سائبة ، والعجاج لا يمكن مجال أن تناقش مسألة عقيدته لولا ما اصطنعه الأب شيخو من أوهام أيضاً ، وما ابتناه من برهان لا يقوم على أساس علمي في الاحتجاج ، حين جعل كل الحجة تتركز حول بعض المعاني لاحدى روايات بيت واحد من رجز العجاج ، ثم اغفل ما بين أيدينا من أخبار وأراجيز تشير بكل وضوح الى أن الاسلام كان من الأركان الأساسية في تكوين شخصية العجاج وبعض خصائص رجزه .

فاذا نظرنا الى راجزنا العجاج لم نجد فيه الا تقياً ورعاً ، قد أضاء الاسلام بين جوانحه ، وهذبته خير تهذيب ، حتى كان برما بما يقوله على عادة الشعراء من النسيب والغزل ، بل كان يخشى أن يكون ذلك بما حرّمه الاسلام ، فقد ورد في شرح ديوانه : « حدثنا أبو حاتم قال : حدثنا أبو عبيدة حدثنا رؤبة بن العجاج عن أبيه قال : وردت المدينة فأثبت أبا هريرة ، فقلت : يا صاحب رسول الله ، اني رجل أقول من هذا الرجز شيئاً ، فهل ترى فيه حرجاً ، قال : أسمعني بعض ما قلت . قال : فأنشدته :

طَافَ الْخِيَالانِ فَهَاجَا سَقَمًا خِيَالُ تَكْنِي وَخِيَالُ تَكْتَمًا

(١) مجلة المشرق ٢٣/٤٤٨ .

قَامَتْ تُرَيْكُ رَهْبَةً أَنْ تُصْرَمَا سَاقًا بَخْنَدَاءَ وَكَعْبًا أَدْرَمَا
 فقال : قد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُنشد مثل هذا
 فلا يَرَى بأساً « (١) .

ولا يخاف الحرج والاثم في أمثال هذا الغزل ، الا انسان تقيّ ورع
 قد آمن بالاسلام قلباً ونفساً ولساناً ، واذا كان قد سأل أبا هريرة عن آياته
 في الغزل ، فانه لم يقف عند ذلك ، وانما راح يسأله عما يقوله أيضاً في
 موضوع الوعظ ، وقد نقل الأصفهاني شيئاً من ذلك فقال : « أخبرني عبد
 الله بن أبي داود السجستاني قال حدثنا عبد الله بن محمد بن خلاد قال حدثنا
 يعقوب بن محمد الزهري قال حدثنا محمد بن ابراهيم عن يونس بن حبيب عن
 رؤبة بن العجاج عن أبيه ، قال : أنشدت أبا هريرة (٢) :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي تَعَلَّتْ بِأَمْرِهِ السَّمَاءُ وَاسْتَقَلَّتْ
 بِإِذْنِهِ الْأَرْضُ وَمَا تَغَيَّتْ أَرَسَى عَلَيْهَا بِالْجِبَالِ الثَّبَتِ
 الْبَاعِثِ النَّاسَ لِيَوْمِ الْمَوْقِيتِ

قال أبو هريرة : أشهد أنك تؤمن بيوم الحساب « (٣) .
 ولا شك أن لقاءه لأبي هريرة قد جعله يتحمل شيئاً من الحديث عنه ،
 وفي الأخبار السابقة شيء من هذا الحديث ، وروايته عن أبي هريرة مشهورة
 قد أشار إليها السيوطي وابن عساكر (٤) ، وقال ابن قتيبة : « وكان لقي أبا
 هريرة وسمع منه أحاديث . قال العجاج : قال لي أبو هريرة : ممن أنت ؟

(١) الأرجوزة ١٦/٢١ ، وانظر الاغانى ٥٨/٢١ ، والعقد الفريد
 ١٣٩/٦ ، واللسان (بخند) ، و (درم) .
 (٢) الأرجوزة ١/٢٢ - ٣ ، ٥ ، ٨ .
 (٣) الاغانى ٥٨/٢١ ، وأشار البغدادي الى هذا الحديث في الخزانة
 ٥٠٩/٣١ (بولاق) .
 (٤) تاريخ ابن عساكر ٣٩٤/٧ ، وشرح شواهد المغني ١٨ .

قلت : من أهل العراق . قال : يوشك أن تأتيك بُقَعَانُ الشام فيأخذوا صدقتك ، فإذا أتوك فتلقهم بها ، فإذا دخلوها فكن في أقاصيها واخل عنهم ، وعنها ، وإياك وأن تسبهم ، فانك ان سببتهم ذهب أجرك وأخذوا صدقتك ، وان صبرت جاءت في ميزانك يوم القيامة » (١) .

ولا ريب أن لقاءه لأبي هريرة كان ينم عن اسلام حق ، لا يداخله شك ، ولا يصدعه رياء ، ولهذا كثرت المعاني الاسلامية في رجزه ، كالحديث عن الملائكة الموكلين بأصحاب النار يوم القيامة ، اذ يجد في نفسه خوفاً منهم ، ولولا ذلك لكان قاسياً على جهة الناس ممن يناصبونه عداً أو حسداً (٢) :

تَاللّٰهِ لَوْ لَا اَنْ تَحْشَ الطَّبْخُ فِي دُخْلِ النَّارِ وَقَدْ تَسَلَّخُوا لِهَامِهِمْ اَرْضُهُ وَاَنْقَحُ
 فِي الْجَحِيمِ حِينَ لَا مُسْتَصْرَخُ لَعَلِمَ الْجُهَّالُ اِنِّي مِفْنَحُ
 اَمَّ الصَّدَى عَنِ الصَّدَى وَاَصْمَحُ
 فالتَّبْخُ اَرَادَ بِهِمْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ الْمُوَكَّلِينَ بِنَارِ جَهَنَّمَ (٣) ، وقد تناول هذه الفكرة من زاوية اسلامية خالصة ، ومثلها أحاديثه الكثيرة عن الايمان والكفر والغفران .

فأخوارج قد خرجوا على دين الله ، وكفروا فهزموا وقتلوا بكفرهم وضلاتهم (٤) :

وَإِخْتَارَ فِي الدِّينِ الْحَرَوْرِيَّ الْبَطْرَ وَأَنْزَفَ الْحَقَّ وَأَوْذَى مَنْ كَفَرَ
 وَالدين هو دين الاسلام الحنفي طبعاً ، فالعجاج يكثر من ذكره ولا سيما

(١) الشعر والشعراء ٥٧٢ - ٥٧٣ .

(٢) الأرجوزة ١/٤١ - ٦ .

(٣) انظر مقاييس اللغة ٣/٧٣٧ ، والصحاح ١/٤٢٦ ، واللسان

(حشش) و (طبخ) .

(٤) الأرجوزة ١/٣٤ - ٣٥ .

في حديثه عن الحوارج وأصحاب ابن الأشعث ، ممن خرجوا على سلطان الدولة أيام الأسويين وابن الزبير .

والعجاج دائم الدعاء الى الله تعالى ، يطلب منه الرزق في الدنيا ، والغفران في الآخرة (١) :

يَا رَبِّ رَبِّ الْبَيْتِ وَالْمُشْرِقِ وَالْمَرْقَاتِ كُلِّ سَهْبٍ سَمَلْتِ
أَيَاكَ أَدْعُو فَتَقَبَّلْ مَلَقِي فَاعْفِرْ خَطَايَايَ وَسَمِّرْ وَرَاقِي

فالرجل مؤمن أشد الايمان بالله والملائكة واليوم الآخر ، وهذا الايمان انما ينبع من الاسلام نفسه لامن دين سواه ، ذلك لانه في رجزه أيضاً قد حدد لنا طبيعة هذا الايمان العميق ، فقد هلل لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، اذ دعا الى دين الله وما زال حتى أظهر الله هذا الدين به ، وغفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر (٢) :

فَمَا وَنَى مُحَمَّدٌ مِذَّةً أَنْ غَفَرَ لَهُ الْإِلَهُ مَا مَضَى وَمَا غَبَرَ
أَنْ أَظْهَرَ الدِّينَ بِهِ حَتَّى تَظْهَرَ

وهو لا يقتصر على هذه المعاني الاسلامية العامة ، وانما يستمد من القرآن الكريم بعض المعاني بالفاظها وعباراتها أحياناً ، وهذا لا يحسنه الا من آمن بكتاب الله أشد ايمان ، حتى كان في وسعه أن يستمد من ألفاظه ومعانيه . فاذا تحدث عن قتلى أعدائه جعلهم يتناثرون هنا وهناك كأعجاز نخل مغرقة (٣) :

كَأَنَّهُمْ مِنْ زَاهِقٍ وَمُزْهَقٍ بَيْنَ الزَّرَانِقِ وَعَطْفِ الْأُبْرُقِ
أَعْجَازُ نَخْلٍ بِالْحَزِيرِ مُغْرَقِ

(١) الأرجوزة ١/١٠ - ٤ .

(٢) الأرجوزة ١٤/١ - ١٦ .

(٣) الأرجوزة ٢٥/١٠ - ٢٧ .

ثم عاد الى هذه الصورة مرة أخرى في حديثه عن قتلى أعدائه ،
فقال (١) :

كَأَنَّهُمْ مِنْ هَالِكِ مُطَاحٍ وَرَامِقٍ يَجْرِي بِالصِّيَاحِ
وَعَائِسٍ تَقَادُ بِالرِّشَاحِ أَعْجَازُ نَخْلٍ بِالْحَزْرِ يَزَاحِ

ولا نكاد نشك أن هذه الصورة قد استمدها العجاج من القرآن الكريم ،
اذ وردت في الحديث عن هلاك قبيلة عاد ، ف جاء في سورة القمر : « انا
أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر ، تنزع الناس كأنهم أعجاز
نخل منقعر » (٢) ، وفي سورة الحاقة : « وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر
عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ، فترى القوم فيها صرعى
كأنهم أعجاز نخل خاوية » (٣) .

وإذا تحدث العجاج عن الثور و اشرافه على الفجر ، قال (٤) .

حَتَّى إِذَا الصُّبْحُ لَهُ تَنَفَّسًا غَدَاً بِأَعْلَى سَحَرٍ وَأَجْرَسَا
غَدَاً يُبَارِي خَرِصًا وَاسْتَأْنَسَا كَالْكَوْكَبِ الدَّرِيِّ يَعْלו الأَوْعَسَا
وَتَنَفَّسُ الصُّبْحُ أَتَى بِهِ مِنَ الْآيَةِ : « وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ » (٥) ،
وتشبيه الثور بالكوكب الدرّي لعله أتى من أعجاب العجاج بتلك الصورة
الرائعة في قوله تعالى : « الله نور السموات والأرض ، مثل نور كمشكاة
فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري .. » (٦) .

-
- (١) الأرجوزة ٣٠/٣٧ - ٣٣ .
 - (٢) سورة القمر ١٩/٥٤ - ٢٠ .
 - (٣) سورة الحاقة ٧/٦٩ - ٨ .
 - (٤) الأرجوزة ٤٦/١١ - ٤٩ .
 - (٥) سورة التكويد ١٩/٨١ .
 - (٦) سورة النور ٣٦/٢٤ .

وإذا تحدّث عن أخلاقه ذات الطابع الاسلامي الخالص ، أعقبها بقوله (١) :
عَلَّ الْإِلَهَ الْبَاعِثَ الْأَثْقَالَ يُعْقِبُنِي مِنْ جَنَّةٍ تَظَلُّلًا
وَعَنَبًا يُسَاقِطُ الْأَهْدَالَ

وصورة الجنة بظلالها وقطوفها الدانية ، صورة اسلامية وردت في مواضع كثيرة من القرآن ، إلا أن قوله « الباعث الأثقالا » نقل حرفي لقوله تعالى : « وأخرجت الأرض أثقالها » (٢) ، أي مافيا من كنوز أو موتى ، وذلك يوم القيامة .

فالعجاج ينقل عن القرآن المعاني والألفاظ والعبارات ، ويتأثر بالاسلوب كذلك ، ومن أبرز هذه الصور التي تأثر فيها بأسلوب القرآن ، قوله مثلاً (٣) :
وَعَاصِمٌ مَاعَاصِمٌ لَوِ اعْتَصَمَ

وكان العجاج يعتدّ بهذا البيت ويسمي مافيه من التجنيس بِعِطْفِ الرَّجَزِ ، قال ابن رشيق : « ولم تكن القدماء تعرف هذا اللقب ، أعني التجنيس ، يدلّك على ذلك ما حكى عن رؤبة بن العجاج وأبيه ، وذلك أنه قال له يوماً : أنا أستر منك . قال : وكيف تكون أشعر مني ، وأنا علّمتك عطف الرجز ؟ قال : وما عطف الرجز ؟ قال : (البيت) .. » (٤) .

وعطف الرجز هذا لم يأت به العجاج من ابداعه ، وإنما تأثر فيه بأسلوب القرآن ، اذ نجد من أساليب القرآن التكرار في بعض الآيات ، ليعظّم من شأنها ويجعل لها وقعاً في النفوس قوياً ، ولفناً للأسماع والأفهام سريعاً ، ومن ذلك ماجاء في سورة الطارق : « والسّماء والطارق ، وما ادراك ما الطارق ، النجم

(١) الأرجوزة ١٤/١٤ - ١٦ .

(٢) سورة الزلزلة ٢/٩٩ .

(٣) الأرجوزة ٣٩/٢٣ .

(٤) العمدة ١/٢٢٧ .

الثاقب ، إِنَّ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ « (١) ، وفي سورة القارعة :
 « القارعة ، ما القارعة ، وما أدراك ما القارعة ، يوم يكون الناس كالفراس المبثوث « (٢) ،
 وفي سورة الحاقة : « الحاقة ، ما الحاقة ، وما أدراك ما الحاقة ، كذّبت
 ثمود وعاد^٣ بالقارعة « (٣) .

فالعجاج قد أخذ بهذا الأسلوب وسماه بعطف الرجز ، ومن ثم فقد تأثر
 بالقرآن أسلوباً وألفاظاً ، واستمد منه كثيراً من العبارات والمعاني ، وهذا
 كله يجعل من أغرب العجب أن ينظر اليه الأب لويس شيخو على أنه نصراني
 لمجرد وجود رواية لأحد آياته يمكن أن تُفسر بالقربان أو الانجيل ، ولكن
 قاتلَ الله التعصب ، فكثيراً ما يغرر بصاحبه ، ويزن باطن الرأي صواباً ،
 ويخرجُ بالحق إلى الهوى ، وما هذا من أساليب العلم في شيء ! فالعجاج
 كان مؤمناً بعقيدة الاسلام ، وهذا الايمان قد حدد أكثر اتجاهاته الأخلاقية ،
 وكان من العناصر البارزة في تحديد شخصيته وأخلاقه .

٤ - شخصية العجاج

ونود الآن أن نرسم صورة لشخصية العجاج بما تنطوي عليه من أخلاقه
 وصفاته وثقافته ، ولنا أن نعترف منذ البدء ، أن وسائلنا الى دراسة هذا
 الجانب الهام شبه قاصرة بعد ضياع أكثر أخباره ، وليس لنا الا أن نعتمد في
 أكثر هذا البحث على رجز العجاج نفسه ، وهذا قد يبيء لنا معرفة بعض
 الجوانب الأخلاقية من خلال حديث العجاج عن نفسه ، ولكنه لا يكفي اذا
 أردنا المنهج العلمي الصحيح ، اذ ينبغي أن نقارن بين ما قاله هو عن نفسه ،

(١) سورة الطارق ١/٨٦ - ٤ .

(٢) سورة القارعة ١/١٠١ - ٤ .

(٣) سورة الحاقة ١/٦٩ - ٤ .

وما قاله الناس عنه ، ومع ذلك فإننا لانبعد عن الصواب إذا قلنا ان هذه المعاني التي تحدث فيها العجاج عن نفسه ، قد تكررت بكثرة في أراجيره ، بما يشير الى أنها أقرب ماتكون الى الصواب في تصوير حياته وأخلاقه وشخصيته .

وأول ما يطالعنا في شخصية العجاج أنه رجل أعراي نشأ كما رأينا في اليمامة من بادية نجد ، ثم أقام فترة أو فترات بالبصرة ، ولذلك كان يوصف بأنه من أعراب البصرة^(١) . وهذا الجانب الأعراي من شخصيته قد برز واضحاً في ألفاظه الغريبة ومعانيه الجافية أحياناً ، أمثال قوله^(٢) :

يارب، لا أدري وأنت الداري

وقد أخذ عليه اسناد الدراية لله تعالى لما في الدراية من معنى الختل والحيلة ، واعتبر هذا الاسناد من جفاء الأعراب ، لأن العجاج ، وهو أعراي ، لا يعلم بدقة ما يُطلق على الله من الصفات وما يجوز منها وما يمتنع^(٣) .

وأمثال هذا كثير في رجزه ولسوف نفرده له بحثاً خاصاً ، ولكنه يشير الآن الى جفاء هذا الأعراي واتصاله الوثيق بحياة الصحراء ، حتى انه إذا أراد أن يتحدث عن قوة ابنه رؤبة ونمائه واكتماله لم يجد أفضل من ان يشبهه بالبرذون المشدود بالإكاف^(٤) :

حَتَّى إِذَا مَا آصَّ ذَا أَعْرَافٍ كَالْكَوْدَنِ الْمَشْدُودِ بِالْإِكَافِ
قَالَ الَّذِي جَمَعْتَ لِي صَوَافٍ

(١) المقاصد النحوية ٢٧/١ ، وفرائد القلائد ٥ .

(٢) الأرجوزة ٢٥/٤ .

(٣) انظر المخصص ٣١/٣ ، والمفردات في غريب القرآن ١٦٩ ،

وتفسير البحر المحيط ١٩٤/٧ .

(٤) الأرجوزة ٦٠/٨ - ٦٢ . والإكاف : البرذعة .

وهذا الأعرابي قد تهذب بالاسلام أحسن نهذيب ، وانطبع بالمدرسة
 النجدية العنودية أجمل انطباع ولكنه إنْ تحدث عن شبابه الماضي أورد شيئاً
 عن شغف النساء به ، حتى انهن لينظرن اليه من خلل الخدور اعجاباً به
 وميلاً اليه ^(١) :

اذ تَرْتَمِي مِنْ خَلَلِ الْخُدُورِ بأَعْيُنٍ مُحَوَّرَاتٍ حُورِ
 خُزْرِ بِالنَّبَابِ اليَ صُورِ اذ نَحْنُ فِي صَبَابَةِ التَّسْكِيرِ
 بل ربما حدثنا عما كان فيه من سفة الشباب ، قبل أن ينهائه الحلم والدين
 الحنيف عن ذلك ^(٢) :

فإنْ يَكُنْ نَاهِيَ الصَّبَا مِنْ سِنِّي والجِلْمُ بَعْدَ السَّفَةِ الْمُسْتَنِّ
 وَعِلْمٌ وَعَدِ اللهُ غَيْرُ الظَّنِّ فَقَدَ أُرَانِي وَلَقَدَ أُرْنِي
 بِالْفَنِّ مِنْ نَسْجِ الصَّبَا وَالْفَنِّ غُرّاً كَأَرَامِ الصَّرِيمِ الْغُنِّ
 وربما أشار الى شيء من اللهو والمجون ، ولكنه لا يصرح بهذه الكلمات،
 وإنما يورد ذلك عن طريق الكناية والغموض المتعمد ، واذا يجنّه تسامي
 جنهن في هو كأنه الشجر الملتف الكثيف في ظلمته والباسه ^(٣) :

وقَدَ يُسَامِي جِنِّهِنَّ جِنِّي فِي غَيْطَلَاتٍ مِنْ دُجَا الدُّجُنِّ
 ويلخص تلك الفترة من شبابه بعبارة لاتخلو من حرقة ولوعة ، اذ يرى
 أن تلك الفترة قد كانت زمناً تمتع به وكأنه سكران قد أخذت به نشوة
 الصنح والذن ^(٤) :

-
- (١) الأرجوزة ١٢/١٩ - ١٥ .
 - (٢) الأرجوزة ١٧/١٦ - ٢٢ .
 - (٣) الأرجوزة ١٦ / ٢٦ - ٢٧ .
 - (٤) الأرجوزة ١٦ / ٣٣ - ٣٥ .

ملاوة مَلِيَّتْهَا كَأَنِّي ضَارِبٌ صَنْجِي نَشْوَةٍ مُغْنَنٌ
بَيْنَ حِقْفَاتِي قَرَقَفٍ وَدَنٌ

وقد يشير الى تعلقه بامرأة أيام شبابه ، ولكنه في أحاديث الشباب كلها لا يشير الى مجون سافر كالذي كان عند طرفة بن العبد في الجاهلية ، أو شعراء الحجاز في عصره ، وإنما يتحدث عنهن حديثاً عاماً ، وإذا ما أورد طرفاً من حديث المجون جاء به غامضاً أو مستتراً وراء صور مختلفة من الكناية ، وهو في هذا كله لا يريد أن يتحدث عن غزله ومجونه ، وإنما يريد أن يفخر بنفسه أيام كان في أبرد الشباب ، ولذلك نجده يلح على بعض المعاني التقليدية عند الشعراء ، فالنساء شغوفات به ، ينظرن اليه من خلل الخدور ، وهو يحدثهن بمنطق لو سمعته حيات الجبال لجأت اليه ، ولو سمعته الوعول لانهدرت نحوه ، وأغلب الظن أن العجاج لا يقصد وجه الحقيقة تماماً لأن طبيعة الفخر هي التي تدفع غالباً الى أمثال هذا الحديث ، ومهما يكن فحديث العجاج عن الشباب لا يصرح بالمجون السافر ، ولا يقص أخباراً مع هذه أو تلك ، ولنا أن نتوقع منه ذلك لما عرفنا في طباعه من عمق الايمان ، وأصالة العقبة ، والبعد عن الريبة .

فشخصية العجاج إنما تبرز من خلال هذه الأخلاق التي طبعت على الخير، وابتعدت كل البعد عن الشر والافساد بين الناس ، فهو امرؤ ذو عقبة لا يبتغي من جاراته سوءاً ، ولا يشتم الناس ، ولا يسير في ثيمة ، ولا يجتذبه عمل فيه عيب ، أو خلق فيه سوء (١) :

أني امرؤ عن جاراتي كَفِيٌّ عَنِ الْأَذَى إِنْ الْأَذَى مَقْلِيٌّ
وعن تَبَغِّي سرّها غَنِيٌّ عَفٌّ فَلَا لاصٍ وَلَا مَلْصِيٌّ

(١) الارجوزة ٢٥ / ٣٨ - ٥٠ .

بَرَزْتُ وذو العفافة البرزّيّ إنّ تَدَنُّ أو تَنَّا فلا نَسِيّ
 لِمَا قَضَى اللهُ ولا قَفِيّ ولا مَعَ الماشِي ولا مَشِيّ
 يَلْمِزُهَا وذاك طُرْآنِيّ لا يَطْبِينِي العَمَلُ المَقْدِيّ
 ولا مِنَ الأخلاقِ دَغْمَرِيّ وجارَةٌ اليَتِّ لها حُجْرِيّ
 وَمَحْرُمَاتٌ هَتَكُهَا بِحُجْرِيّ

وهذه المعاني الأخلاقية قد أكثر العجاج من ترديدها ، فهو دائماً يصون
 حرمة جارته ، ويتعد بنفسه عن الفحش والحنا ، ولا يُقدِّم على ما حرم
 الله عليه (١) :

ياربُّ اذ شَدَدْتَنِي عَقالاً ولو تَشَاءُ أَمْرَعُ انجِلالاً
 اِنْ كُنْتُ قَدِ غَيَّرْتُ حالي حالاً مِنْ كَبَرٍ قَدِ أَوْهَنْ الأَوْصالاً
 فلم أَكُنْ أَسْتَنْطِقُ العُدَّالاً مِنْ أَنْ يَرُونِي لِلخَنّا قَوَّالاً
 ولم أَكُنْ لِجارتي غَوَّالاً ولم أَكُنْ في جَنبِها جَهَّالاً
 ولم أَكُنْ أُخادِعُ الضُّلالاً ولا لِمَا حَرَمْتَهُ أَكَّالاً
 ولا لِبَيْتِ جارتي خَتَّالاً بَعْدَ المَنامِ ابْتِغايِ الأَدغِلالاً
 تَبَغَّياً ما لَيْسَ لي حَلالاً عَلَيَّ الأِلهِ الباعِثِ الأَثقالاً
 يُعقِبُنِي مِنَ جَنَّةٍ تَظلالاً وَعِنباً يُساقِطُ الأَهْدالاً

وقد يُثِيبُ الصابِرَ النَوَّالاً

فهو انسانٌ مؤمن كل الايمان بالله ، ولذلك أصبحت تتمثل فيه أخلاق
 المسلم الحق ، انه لا يثتم الناس ، بل ربما خصَّص فغدا لا يثتم الانسان
 الكريم المسلم ، ولا يرى من الغنم أن يثتم انساناً بريئاً ، ولا أن يعين
 بذلك أقرب الناس اليه ، ثم يؤكدمرة أخرى أن جارته حرام عليه كما أراد

(١) الارجوزة ١/١٤ - ١٧

الله لها أن تكون ، وفي ذلك تكريم لنفسه لأنه يسعى الى مكارم الأخلاق خائفاً من الله ، راغباً في نوال ثوابه (١) :

لا أَسْتُمُّ الْمَرْءَ الْكَرِيمَ الْمُسْلِمًا ولا أَرَى شَتْمَ الْبَرِيِّ مَغْنَمًا
ولا ابنَ عَمِي أَنْ أَرَاهُ مُفْحَمًا وجارةَ الْبَيْتِ أَرَاهَا مَحْرَمًا
كَمَا قَضَاهَا اللهُ إِلَّا أَنْمًا مَكَارِمُ السَّعْيِ لِمَنْ تَكْرَمًا
مَخَافَةَ اللهِ وَعِلْمًا أَنْمًا يَجْزِي الْمُجَازِي عَامِلًا مَا قَدَّمَ

وفي أرجوزة أخرى يعود الى هذه الفكرة أيضاً ، فهو لا يشتم السعدية من قبيلته ، ولا تبيت جارته بريئة تُقذَف بها ، ولا تنال منه الا هديّة وتكريماً (٢) :

اني امرؤ لا أَسْتُمُّ السَّعْدِيَّةَ ولا تَسْبِيْتُ جَارَتِي مَلْصِيَّةً
إِلَّا مِنَ التَّكْرِيمِ وَالْهَدِيَّةِ

ولهذا تخلّى راجز بني سعد عن هجاء الناس ، واذا نحم عليه ما يشبه الهجاء ، مال الى التعريض أو ما يشبه أن يكون تعريضاً ، وقد نجد من الغرابة أن العجاج قد لجأ الى ما يشبه النفاق في صلته بأمرء عصره ، اذ مدح الأمويين ، ثم مدح آل الزبير ، فلما عاد الأمر الى بني مروان ، عاد العجاج ايضاً الى مدح بني أمية والنيل من آل الزبير ، ولكن هذا النفاق أو المصانعة كان ظاهرة طبيعية في تلك الفترة ، ذلك لأن تقلب الأحداث السياسية بسرعة ، والصراع العنيف بين الطامحين الى الحكم والسلطان ولا سيما في العراق ، قد جعل أمثال العجاج يرهبون أن تدور الدائرة عليهم ، أو على قومهم ، في ظروف لم تكن لها سابقة في تاريخ القبائل ، ولهذا كان

(١) الارجوزة ٢١/٢١ - ٢٨ .

(٢) الارجوزة ٤٠/١٧ - ١٩ .

جانب المصانعة لا بد منه في شخصية العجاج ، وخاصة ان تيار المصانعة كان هو السائد لدى شعراء ذلك العصر ، ولم ينبج منه آئذ الا شعراء الخوارج ، فهم الذين ابوا أن يصانعوا خليفة أو أميراً حتى ولو كان السيف ينظر الى أعناقهم في قبضة الجلاد .

فالعجاج اذن قد تأثر بشيء من أخلاق العصر الذي عاش فيه ، ولعله كان على شيء من الفاقة والعوز حتى وجدنا في الأخبار أنه يقترض من ابنته حزمة سبعين درهماً يدفعها للمصدق^(١) ، وقد يكون له بعض الابل ، ولكنه على ما يبدو لم يكن صاحب غنى و ثراء ، ولهذا كان في بعض مديحه يتجه الى التكسب وطلب النوال ، ولكنه في مدائح كثيرة لا يتعرض لمعاني التكسب مطلقاً ، وكأنه كان مخلصاً في هذا المديح ، أو أنه كانت تشغله المعاني السياسية عن التفكير في المعاني الأخرى ، ولا نجدّه يتعرض للتكسب الا في المدائح التي قالها ليزيد بن معاوية ، والوليد بن عبد الملك .

ومن هنا نلاحظ أن شخصية العجاج كانت ذات جوانب متعددة ، منها ما كان وليد النشأة الأعرابية والتربية الدينية ، ومنها ما كان وليد البيئة الاجتماعية والسياسية ، ولهذا يمكن القول ان العناصر التي كوَّنت شخصية العجاج كانت كثيرة جداً ، منها بيئته وأسرته وقبيلته من بني سعد ، ومنها رحلاته الى بعض أنحاء الجزيرة والى العراق والشام ، ومنها الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية التي عاصرها ، ولكن الحضارة الجديدة في العراق والشام ، لم تغير كثيراً من ثقافته الأعرابية ، ولهذا كان يخطيء التعبير أحياناً عن بعض مظاهر هذه الحضارة التي لا تتصل بحياة الأعراب ، ومن ذلك قوله في وصف بعيه^(١) :

(١) اللسان ، مادة (دعثر) .

(٢) الارجوزة ٥٢/١٩ - ٥٧ .

كَانَ عَيْنِيهِ مِنَ الْغُؤُورِ بَعْدَ الْإِنْسَى وَعَرَقِ الْغُرُورِ
قَلْتَانِ فِي لِحْدَيْ صَفَا مَنْقُورِ أَذَاكَ أَمْ حَوَجَلْتَا قَارُورِ
غَيْرَتَا بِالنُّضْحِ وَالتَّصْيِيرِ صَلَاصِلِ الزَّيْتِ إِلَى الشُّطُورِ

فشبهه عيني بغيره بقارورتين ترشجان الزيت ، وبذلك ظن أن الزجاج يرشح كالفضار ، وهذا المعنى أخذه عليه عدد من النقاد ، أمثال ابن قتيبة^(١) ، وابن عبد ربه^(٢) ، وأبي هلال العسكري^(٣) .

وهذا يعني أن ثقافته كانت تنحصر في الحياة التي تمكن منها في بيئة الصحراء النجدية ، حيث أخذ الفصاحة من قومه أو بيئته أو بيئة نجد ، حتى قال الجاحظ انه : « أرجز الناس وأفصحهم »^(٤) ، وهذه الفصاحة قد انتقلت منه الى ابنه حتى قال ابن سلام : « قلت ليونس : هل رأيت عرييا قط أفصح من رؤبة ؟ قال : ما كان معد بن عدنان أفصح منه »^(٥) ، ونقل صاحب الأغاني بسنده عن محمد بن داود قال : « لقيت الحليل بن أحمد يوماً بالبصرة ، فقال لي : يا أبا عبد الله ، دفنا الشعر واللغة والفصاحة اليوم ! فقلت : وكيف ذاك ؟ قال : هذا حين انصرفت من جنازة رؤبة »^(٦) ، وفصاحة رؤبة هذه قد اشتهرت عند النقاد حتى أصبح ابن قتيبة اذا تحدث عن الحسن البصري قال : « وكان يشبه رؤبة بن العجاج في فصاحة لهجته وعريته »^(٧) ، واذا تحدث الجاحظ عن ابراهيم بن السدي قال : « وكان

-
- (١) الشعر والشعراء ٥٧٤ .
 - (٢) العقد الفريد ٢٠٥/٦ .
 - (٣) كتاب الصناعتين ٦٧ .
 - (٤) البيان والتبيين ٣٥٦/١ .
 - (٥) الأغاني ٥٨/٢١ .
 - (٦) الاغاني ١٢٥/١٨ و ٦١/٢١ .
 - (٧) كتاب المعارف ٤٤١ ، ومثله في الاغاني ١٢٤/١٨ .

يتكلم بلسان رؤبة « (١) ، وربما ذهب بعضهم الى أن رؤبة أفصح من أبيه (٢) ، إلا أن هذه الفصاحة لم تكن لرؤبة إلا اكتساباً من أبيه العجاج ، فالعجاج قد نقل ذلك عن بيته وبيئته ومن ثم أعطاه الى أبنائه وأحفاده ، فكانت فصاحته من أبرز ما تميزت به شخصيته وثقافته ، وما ذلك إلا لأن هذه الثقافة كانت تتميز بالطابع البدوي الأعرابي ، وسوف نجد لها آثاراً واضحة في دراستنا لموضوعاته وخصائص رجزه ، ولنا أن نشير هنا الى بعض مظاهر هذه الثقافة ، اذ نجد العجاج عالماً بأمور الصحراء وما يتصل بها من مستلزمات الحياة ، فهو عالم بالأنواء والرياح ، ومن ذلك قوله (٣) :

سَارِ سَرَى مِنْ قِبَلِ الْعَيْنِ فَجَرُّ عَيْطِ السَّحَابِ وَالْمَرَابِيعِ الْكُبْرِ
وَزَفَرَتَ فِيهِ السَّوَاتِي وَزَقَرَ بَغْرَةَ نَجْمِ هَاجٍ لَيْلًا فَتَعَرَّ

فلما أراد أن يشبه الجيش في أبيات سابقة بالمطر ، جعل هذا المطر غزيراً جداً ، وجعل سحابه من أعظم السحاب ، ولكنه بثقافته الأعرابية أدرك أن أغزر ما يكون المطر ، إنما يأتي من جهة العين ، وهي عين قبة العراق ، والعرب تقول : « مطرنا بالعين ومن العين ، اذا كان السحاب ناشئاً من ناحية قبة العراق » (٤) ، ولهذا جعل ذلك المطر يسري من جهة العين ، ثم يجر أعظم السحاب ، ولم يكتف بذلك بل جعل هذا السحاب من « المربيع الكبير » أي من السحاب العظيم الذي يكون مطره في أول الربيع ، وذلك أغزر له وأشد .

(١) البيان والتبيين ١/٣٣٥ .

(٢) انظر الموشح ٢١٩ ، ورفض المرزباني أن يكون رؤبة أفصح من أبيه العجاج .

(٣) الأرجوزة ١/٤٩ - ٥٢ .

(٤) المخصص ١٦/١٨٥ ، وانظر الأزمنة والأمكنة ٨/٢ ، واللسان

(عين) .

وهذا كله انما يستمده العجاج من ثقافته الأعرابية ، التي خبرت أنواء الصحراء وأمطارها ورياحها ، وهو عالم أيضاً بطباع الحيوان في هذه الصحراء ، فاذا تحدث عن الثور الوحشي عرض لأمر في وصفه لا يدركه الا من رآه بعينه ، فقال (١) :

يَرْكَبُ كُلَّ عَاقِرٍ جُمُهورٍ مَخَافَةَ وَزَعَلِ المَحْبُورِ
وَالهَوْلِ مِنْ تَهَوُّلِ الهَبُورِ

فالثور يركب الرمل العظيم الذي لا ينبت ويعتصم به خوفاً من الرماة ، ولأن كلاب القانص لا تقدر على ركوب الرمل (٢) ، وهذا من طباع الثور ، ولا يدركه الا من ألفه في الصحراء . ولكن العجاج ربما ربط بين صورة لهذا الثور وهو يحفر كناسه ، وبين صور أخرى لطرائقهم في حفر الآبار ، وذلك في قوله (٣) :

وشَجَرَ الهدَّابَ عَنْهُ فَجَفَا بِسَلْهَبَيْنِ فَوْقَ أَنْفِ أذْلَفَا
إِذَا انْتَحَى مُعْتَقِمًا أَوْ لَجَفَا

فالثور يدفع عنه أغصان الشجر بقرنيه الطويلين ، ويحفر كناسه مُعْتَقِمًا أَوْ مُلَجَفًا ، والاعتقَامُ أَنْ تَحْفِرَ البئرَ ، فاذا قَرُبَتْ مِنَ المَاءِ احْتَفَرَتْ فِي وَسْطِهَا بئرًا صغيرة بقدر ما تجد طعام الماء ، فان كان عذبا حفرت بقتها (٤) ، والتَلْجِيفُ حَفْرٌ فِي جَوَانِبِ البئرِ مِنْ أَسْفَلِ تَوْسِيعَادُونَ تَعْمِيقٌ (٥) .

-
- (١) الأرجوزة ١٩/٨٦ - ٨٨ .
(٢) انظر المعاني الكبير ٢/٧٤٩ ، والاقتضاب ٣٢٠ ، وتحصيل عين الذهب ١/١٨٥ ، والخزانة ٣/١٠٢ .
(٣) الأرجوزة ٤٤/٥٢ - ٥٤ .
(٤) الصحاح ٥/١٩٨٩ ، واللسان (عقم) .
(٥) الصحاح ٤/١٤٢٥ ، والاساس ٢/٣٣٣ ، واللسان (لجف) .

وبذلك أمكن لثقافة العجاج أن تمده بمثل هذه الصور عن حياة الصحراء ، بل زادته معرفة بالأمراض والأدواء التي لا بد منها في حياة الأعراب ، فاذا وصف المعركة بين الثور والكلاب قال (١) :

وَبَجَّ كُلَّ عَانِدٍ نَعُورٍ أَجْوَفَ ذِي ثَوَارَةٍ ثَوُورٍ
قَضَبَ الطَّبِيبِ نَائِطَ المَصْفُورِ

فالثور يطعن منها كل عِرْقٍ نَعُورٍ بالدم ، فيقطعه قطع الطبيب لذلك العرق المعروف بالنَائِطِ والممتد في الصُّنْبِ ، وذلك معالجة للصفار وهو اجتماع الماء في البطن (٢) .

وإذا وصف المعركة مع الخوارج ، وتحدث عما أصابهم من قتل وجراحات ، قال (٣) :

ضَرْباً إِذَا صَابَ اليَافِيخَ احْتَفَرَهُ فِي الهَامِ دُحْلَاناً يُفَرِّسُنَ النُّعْرَهُ
بَيْنَ الطَّرَاقِينِ وَيَقْلِينِ الشَّعْرَهُ عَنِ قَلْبِ ضُجْمٍ تَسُورِيٍّ مَنْ سَبَرَهُ

فالجراحات تشبه الآبار الضُجْمِ ، أي المائلة ، وهذه الجراحات لفسادها تورتي من سبرها ، أي من قاسها أورثت جوفه داء يُسمى «الورتي» (٤) ، وهو داء في الجوف ، وقيل : هو قرح شديد يقاء منه القيح والدم (٥) .

وهذه مجرد أمثلة لبعض الجوانب من ثقافة العجاج الأعرابية ، وسوف نجد ظواهر أخرى كثيرة من هذه الجوانب في أبحاثنا القادمة ، إذ أن هذه

(١) الارجوزة ١٤٩/١٩ - ١٥١ .

(٢) انظر أدب الكاتب ١٥٢ ، وشرح أدب الكاتب ٢٢٦ ، والصحاح ١١٦٦/٣ ، واللسان (صفر) .

(٣) الارجوزة ١١٩/١ - ١٢٢ .

(٤) المعاني الكبير ٩٨٥/٢ - ٩٨٦ ، والصحاح ٢٥٢٢/٦ .

(٥) اللسان ، مادة (وري) .

الثقافة الأعرابية قد تأثرت بروافد أخرى منها سياسية واجتماعية وفكرية سوف نرى آثارها في معانيه وموضوعاته ، ومنها دينية اسلامية سوف نجد آثارها في موضوع الوعظ وفي المعاني والألفاظ القرآنية أو الاسلامية التي تطالعنا في أغلب اراجيزه ، وثمة ملاحظة هامة ينبغي أن نشير إليها ، وهي اكتثار العجاج من تشبيه الأطلال بالكتابة ، ومن ذلك قوله في وصف الأطلال (١) :

كَأَمَّا بَعْدَ الرِّيحِ الْهَجْمِ وَبَعْدَ هَذَاذِ السَّحَابِ السُّجْمِ
مِنْ مَرٍّ أَعْوَامِ السِّنِينَ الْعُومِ مَرَّاجِعِ النَّفْسِ بِوَحْيِ مُعْجَمِ (٢)

فشبه آثار الديار بآثار المداد في كتاب معجم .

ومن أمثلة ذلك أيضاً قوله في وصف الديار (٣) :

تَنَازَعُ الْأَرْوَاحَ وَالْأَمْطَارَا أَنْوَاءَهَا وَالْبَارِحَ الطَّيَّارَا
بِالْجَوِّ الْإِنَّا أَنْ تَرَى حَبَّارَا (٤) كَمَا يُجِدُّ الْكَاتِبُ الْأَسْطَارَا

فشبه آثار الأطلال بتجديد آثار الكتابة .

وثمة اشارات أخرى في اراجيزه ، ولعل من أوضحها قوله لمروان بن

الحكم (٥) :

فَدَافِعْ وَأَنْ تَدْفَعَ أَدْنَى لِلْكَرَمِ فِي عَاجِلِ الْأَمْرِ وَأَجَلَى لِلنَّظْمِ
وظَاهِرِ الْإِرْسَالِ وَآكُتُبُ بِالْقَلَمِ السَّى ابْنِ حَرْبٍ لَا تَجِدُهُ كَالْبُرْمِ

فهو يدعو أن يكتب الى معاوية بن أبي سفيان في أمر « عاصم » و

« حيي » وكانا في سجن مروان بن الحكم .

(١) الارجوزة ١٢/٢٤ - ١٥ .

(٢) النفس : المداد ، ومراجيعه : آثاره . والوحي : الكتاب .

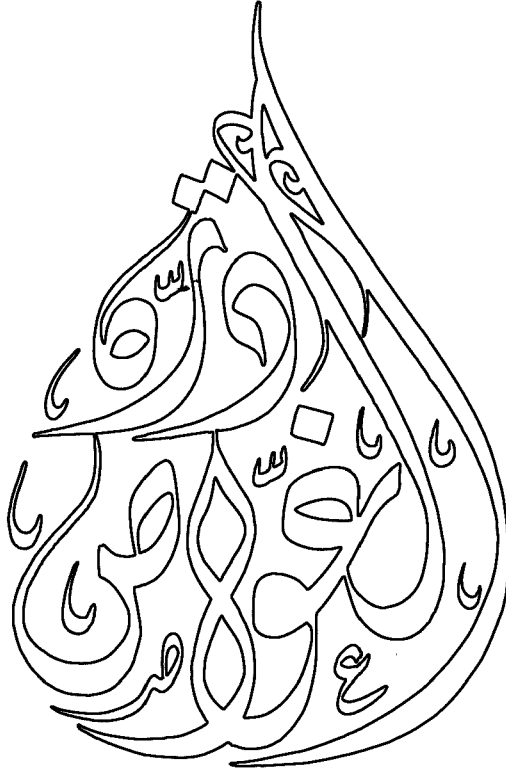
(٣) الارجوزة ٩/٣٤ - ١٢ .

(٤) الجو : كل بطن واسع مطمئن . والحبر : الاثر .

(٥) الارجوزة ١٤/٢٣ - ١٧ .

وهذه الاشارات في رجزه تدعونا الى التساؤل ، أكان العجاج يعرف الكتابة ، أم كان يحسنها قراءة وخطاً ، الا أن كثرة ترددها في رجزه ، تجعل من المحتمل أن يكون العجاج من كان يقرأ ويكتب ، واذا صح ذلك ، كانت القراءة مصدراً جديداً من مصادر ثقافته وبناء شخصيته .

فثقافة العجاج كانت بدوية أعراوية ، ولكنها لا تخلو من مؤثرات العصر والبيئات المختلفة التي ارتحل اليها ، وأخلاقه كانت تبتعد عن الفحش قولاً وعملاً ، وتصدر عن ايمان عميق بالدين الاسلامي الحنيف ، وبذلك كانت شخصيته تمتاز بعالم خاصة ، لا بد أن تؤثر في ديوانه وخصائص رجزه .



الفصل الثاني

مصادر رجز العجاج

ان تعرّف رجز العجاج وخصائصه لا يتم لنا ، الاّ بعد توثيق هذا الرجز ، ومن ثم نجد أنفسنا في هذا الفصل والذي يليه ، أمام عدد من الأبحاث الهامة ، اذ ينبغي أن نقف عند ديوان العجاج ، لنرى طريق روايته ، ومدى الثقة بمن رواه ، وما يتصف به شرحه من خصائص ، ومن ثم نحاول أن نلقي نظرة على ما بين أيدينا من رجزه ، لنرى ان كان قد تسربت اليه بعض مظاهر الشك أو الانتحال ، فاذا فرغنا من غربة أراجيزه على هذا النحو ، قمنا بغربة أخرى مهمة جداً نحاول فيها أن نحيط ما استطعنا بالاضطراب في رواية أراجيزه وعزوها أحياناً اليه والى غيره من الرجاز أو الشعراء ، وبذلك نقر ما للعجاج ونفي عنه ما ليس له ، وبهذا يصبح من اليسير أن نحدد خصائص رجزه ، بعد أن وثقناه ، وفصلنا عنه ماداخله من قبل الرواة .

١ - ديوان العجاج

ان ديوان العجاج كان معروفاً لدى المصنفين خلال قرون متعاقبة منذ أن وضعه الأصمعي ، اذ نجد اشارات اليه في كتب اللغة والتراجم والأدب منذ القرن الثالث الى القرن الحادي عشر الهجري ، ومن أقدم الاشارات التي وجدناها ماورد في جمهرة اللغة لابن دريد (٣٢١ هـ) اذ جاء فيها : « والسبب

واحد الأسباط ، وهم أولاد اسرائيل اثنا عشر سبطاً ، كل سبط قبيلة هكذا فسّر في التنزيل والله أعلم . وغلط العجاج أو رؤبة فقال - الشعر في أراجيز العجاج يصف ثور وحش : (الأبيات) « (١) ، وفي العبارة الأخيرة اشارة الى تصنيف أراجيزه في ديوان خاص به ، الا أن هذه العبارة قد تكون مزيدة على أصل الجمهرة من قبل بعض النساخ .

وفي القرن الرابع نجد اشارة الى ديوان العجاج في الفهرست لابن النديم (٣٨٥ هـ) ، اذ أشار ابن النديم الى أن ديوان العجاج قد عمله كل من الأصمعي وأبي عمرو والشيباني (٢) .

وفي القرن السادس يطالعنا ابن خير الأندلسي (٥٧٥ هـ) بنص جدّ ثمين عن ديوان العجاج ، فيقول : « أراجيز العجاج وابنه رؤبة بن العجاج : حدثني بها الشيخ أبو عبد الله محمد بن سليمان النفزي عن خاله أبي محمد غانم ابن وليد الخزومي عن أبي عمر بن خيرون السهمي عن أبي القاسم أحمد بن أبان بن سيّد عن أبي علي البغدادي . وحدثني بها أيضاً الشيخ أبو الحسين عبد الملك بن محمد بن هشام رحمه الله عن الأستاذ أبي محمد بن السيد النحوي عن أخيه أبي الحسن علي بن محمد عن الأستاذ أبي عبد الله محمد بن يونس الحنجاري عن أبي محمد عبد الله بن محمد بن الأسمية عن محمد بن أبان بن سيّد عن أبي علي البغدادي عن أبي بكر بن دريد عن أبي حاتم السجستاني عن الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء عن رؤبة بن العجاج عن أبيه العجاج رحمه الله (٣) . »

وفي القرن السابع نجد اشارة الى الديوان في وفيات الاعيان لابن خلكان (٦٨١ هـ) ، اذ يقول في ترجمة رؤبة : « هو وأبوه راجزان

(١) جمهرة اللفظة ٢٨٤/١ .

(٢) الفهرست ١٥٨ .

(٣) فهرسة ابن خير ٣٩٣ .

مشهوران ، كل منها له ديوان رجز ليس فيه شعر سوى الأراجيز » (١) ،
وهذه العبارة بتامها نجدها في المقاصد النحوية للامام محمود بن أحمد العيني
(٨٥٥ هـ) ، وكشف الظنون لحاجي خليفة (١٠٦٧ هـ) ، مما يدل على
أن الديوان كان معروفاً في القرن التاسع والقرن الحادي عشر ، وثمة اشارة
أخرى وردت لهذا القرن الأخير في خزانة الأدب للبغدادي (١٠٩٣ هـ)
اذ يصحح رواية أحد الشواهد للعجاج ثم يقول : « كما هو في ديوانه » (٢) .
فديوان العجاج كان معروفاً خلال هذه القرون الطويلة ، وقد حفظ لنا
ابن النديم أنه صُنّف على يد الأصمعي (٢١٠ أو ٢١٣ .. هـ) ، وأبي
عمرو الشيباني (٢٠٦ أو ٢١٣ هـ) ، ولا نعرف شيئاً عن ديوان الشيباني ،
إلا هذه الاشارة التي أوردها ابن النديم ، أما ديوان الأصمعي فقد حفظ لنا
ابن خير سناً متصلاً لروايته حتى القرن السادس الهجري ، وأهم ما في هذا
السند هو اتصاله بأبي علي البغدادي عن أبي بكر بن دريد عن أبي حاتم
السجستاني عن الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء عن رؤبة بن العجاج عن أبيه
العجاج رحمه الله .

وقد حفظت لنا مكتبة « فاتح » في استانبول نسخة من ديوان العجاج ،
هي أقدم ما عثرنا عليه من نسخ ، وهي أصل لها جميعاً ، وهذه النسخة لم يحدد
ناسخها شيئاً عن اسمه أو تاريخ نسخها لها ، ذلك لأنه بدأ بعد رجز العجاج
برجز رؤبة ، وبذلك أصبح المكان المعتاد لوضع اسم الناسخ وتاريخ النسخ وما
الى ذلك في آخر رجز رؤبة ، إلا أن الناسخ لم ينجز نقله لديوان رؤبة ،
أو ان هذا الديوان قد سقط وضاع من هذه النسخة ، فضاع ما كان يمكن أن
يرشدنا بدقة الى تاريخها واسم ناسخها .

(١) وفيات الأعيان ٦٣/٢ .

(٢) خزانة الأدب ٣٧٩/٤ .

ومع ذلك فدراسة الخط الذي رُسِمَت به ، تجعل من اليسير الى حد ما ، أن يحدد لها تاريخ على وجه التقريب ، فالخط مغربي قديم ، يرقى الى القرن السادس الهجري ، وبذلك فتاريخ رسمها قريب جداً من تاريخ تدوين كتاب الفهرسة لابن خير ، واذا طالعنا الورقة الأولى من الديوان ، وجدنا فيها : « سَفَرٌ فيه رجز العجاج عبد الله بن رُوْبَة بن لييد بن صخر التيمي رواية عبد الملك بن قريب الأصمعي رحمة الله عليه » .

وعنوان النسخة على هذا النحو واضح الدلالة على أنها من عمل الأصمعي ، ويؤكد ذلك أن الأصمعي أو كنيته « أبو سعيد » قد ورد بكثرة تلفت النظر في شرح الأراجيز ، الا أن هذا العنوان قد أغفل سند الرواية عن الأصمعي ، وهو نقص يمكن أن يُعَوِّض جانباً منه بما ورد في النسخة نفسها من عبارات تؤكد أنها من رواية أحد تلامذة أبي حاتم السجستاني عن أبي حاتم عن الأصمعي ، وبذلك تلتقي بالجزء الهام من الأسانيد التي أوردها ابن خير في فهرسته .

وهذه العبارات يمكن أن نسلکہا في قسمين : الأول عبارات تفيد أن الرواية منقولة عن الأصمعي نفسه ، وهي أربع ، الأولى في الورقة (٣٠ / ب) وهي : « وأخبرنا الأصمعي » ، والثانية في الورقة (٣٧ / ب) وهي : « زعم الأصمعي » ، والثالثة في الأوراق (٥٢ / ب ، ٥٣ / ب ، ٥٦ / آ) ، وهي : « وأنشدنا أبو سعيد » ، والرابعة في الورقة (٥٦ / ب) ، وهي : « وقال أبو عمرو : فرُعلة ، أراد ولد الضبع ، وقال الأصمعي : صحف » ، ومن المحتمل أن يكون في العبارة الأخيرة تحريف بزيادة الواو في قوله : « وقال الأصمعي » ، اذ لو حذفت هذه الواو لكانت العبارة تعقيباً من الأصمعي على قول استاذہ أبي عمرو .

والقسم الثاني من هذه العبارات فيه ما يؤكد رواية النسخة من قبل أبي حاتم عن الأصمعي وهي ثمان : الأولى في الورقة (٢٦ / آ) وهي : « قال أبو حاتم : سمعي عن الاصمعي : من طول ما نُجْشِمُهَا المَهَالِكَا » ، والثانية في الورقة (٨٨ / آ) وهي : « قال أبو حاتم : سمعت من الأصمعي قال : تَسْبِجَ ، لَبِيسَ القَمِيصِ .. » ، والثالثة في الورقة (٩٠ / آ) وهي : « ويروى : بطن قَوَّعَرَفَجَا . قال أبو حاتم : أنشدني الأصمعي : بطن قَوَّعوسجا » ، والرابعة في الورقة (٩١ / ب) وهي : « قال أبو حاتم : سألت الأصمعي ، فقال تَنْسَجِ تُوْثَرُ » ، والخامسة في الورقة (٩٢ / ب) وهي : « قال أبو حاتم : قال الأصمعي : المُفْرَجُ الواسعة الفروج » ، والسادسة في الورقة (٩٣ / ب) وهي : « قال أبو حاتم : كان الأصمعي ينشد : ترى تليه .. » ، والسابعة في الورقة (٩٨ / ب) وهي : « وَيَاءُ : أضحكه . والقِدَمُ : مامرّ من السنين . قال أبو حاتم : سمعت الأصمعي عن خلف الأحمر وَيَاءُ قَرَّبَكَ ، وأما أضحكك فعن ابن عباس » ، والثامنة في الورقة (١١٣ / آ) وهي : « قال أبو حاتم :

إِنْ تَنْكِرِيهَا فَهِيَ نَكْرَانِيَّةٌ
هكذا قرأته على الأصمعي » .

فهذه العبارات تؤكد رواية النسخة من قبل أبي حاتم عن الأصمعي ، وفي المصادر ما يشير أيضاً الى قراءة أبي حاتم رجز العجاج ، أو بعض رجزه على الأصمعي ، ففي المزهري : « وقال أبو حاتم أيضاً : قرأت على الأصمعي رجز العجاج حتى وصلت الى قوله : جأبا ترى بليتة مسحجا » (١) ، وفي الخصائص : « قال أبو حاتم : قرأت على الأصمعي في جيمة العجاج : جأبا

(١) المزهري ٢/ ٣٧٥ .

ترى بليته مسحجا» (١) .

فمن الثابت أن أبا حاتم هو الذي روى نسخة الديوان التي بين أيدينا عن أستاذه الأصمعي ، وإذا كانت أسانيد ابن خير تجعل أبا بكر بن دريد هو الذي نقل رواية الديوان عن أبي حاتم ، ففي جمهرة اللغة ما يؤيد ذلك ، إذ نجد ابن دريد يسأل أبا حاتم عن رجز العجاج في مسائل أوجز الأصمعي في شرحها ، ومن ذلك قول العجاج حسب رواية الجمهرة (٢) :

يَحْجُوزُهُنَّ وَلَهُ حُوزِيٌّ كَمَا يَحْجُوزُ الْفَيْئَةَ الْكَمِيَّةُ

قال ابن دريد : « وروى (حوزي ، كما يحوز) ، وسألت أبا حاتم عن قوله (وله حوزي) ، قال حائر من قلبه مزعج » (٣) . ولم يتطرق الأصمعي الى شرح ذلك في البيت ، بل اكتفى بقوله : « ويحوز : يسوق ويطرد » .

ويبدو أن ابن دريد قد أثقل على أستاذه في هذه الأسئلة ، يدل على ذلك قوله : « قال أبو عبيدة وقد روى بيت العجاج (٤) :

وَحَى لَهَا الْقَرَارَ فَاسْتَقَرَّتِ وَشَدَّهَا بِالرَّاسِيَاتِ الثُّبْتِ
(وأوحى لها) أيضاً . قال أبو بكر : سألت أبا حاتم عن هذا فضج ، فقال : لا تزال تسألني عما أكره » (٥) ، ثم شرح أبو حاتم لتلميذه ابن دريد قول أبي عبيدة ورأيه في شرح الروايتين ، ذلك لأن الأصمعي قد أورد الروايتين ولكنه أوجز في شرحه ، ولم يوضح الفارق بينهما .

فابن دريد كان حريصاً على تفهم رجز العجاج من أستاذه ، ولكنه كما

(١) الخصائص ٣٦٦/١ ، ومثله في نزهة الألبا ٢٥٤ .

(٢) الأرجوزة ١٧٨/٢٥ ، ١٨٠ .

(٣) جمهرة اللغة ١٥١/١ .

(٤) الأرجوزة ٤/٢٢ - ٥ .

(٥) جمهرة اللغة ١٩٨/٢ .

سنرى لم يضاف الى شرح الاصمعي الاّ أشياء بسيرة نقلها هو عن أبي حاتم ،
أو أضافها أبو حاتم نفسه ، وهي لاتعدو عدة مواضع محددة لدينا معروفة ،
وذلك لأنه قدم قبلها مايشير الى اضافتها .

ويبدو لنا أن رجز العجاج قد رواه عن الاصمعي بعض تلامذته غير
أبي حاتم السجستاني ، وينبغي هنا ألا نعتبر سند ابن خير هو السند الوحيد
لرواية ديوان العجاج عن الأصمعي ، اذ كان الأصمعي يقرئ هذا الديوان
لتلامذته ، وليس في أيدينا من الأدلة على ذلك الا ما أورده ابن جني بسنده
عن أبي عبد الله اليزيدي قال : « حدثنا الخليل بن أسد النوشجاني قال :
قرأت على الأصمعي هذه الأرجوزة :

يا صاح هل تعرف رسماً مكرساً

الى آخر الخبر .. (١) » .

فالأصمعي كان يقرئ رجز العجاج لتلامذته ، واذا كان الخليل بن أسد
النوشجاني قد قرأ هذه الأرجوزة على الأصمعي ، فلا شك أن تلامذة آخرين
قد قرأوا على الأصمعي ديوان العجاج كاملاً مع أبي حاتم السجستاني ، ومنهم
مشاهير أمثال عبد الرحمن بن أخي الأصمعي ، وأبي الفضل العباس بن الفرغ
الرياشي ، وأبي اسحق ابراهيم بن سفيان الزياتي .

والذي جعلنا نرجح هذا الاحتمال ، ونبرز أسماء هؤلاء الثلاثة من تلامذة
الأصمعي ، أمران : الأول ما نلاحظه في نسخة الأصل من ديوان العجاج
الذي بين أيدينا ، والثاني ما نلاحظه في كتب الأدب واللغة والتراجم من
ملاحظات تؤيد ذلك .

(١) الخصائص ١/٣٦٠ .

ففي نسخة الأصل وردت حواش كثيرة أضيفت إليها بخط يختلف عنها لونا وطريقة ، وهو خط مغربي قريب من خط الأصل الا أنه أحدث منه زمناً ، وهذه الحواشي منها ما كان شروحا لغوية ، ومنها ما كان اشارة الى روايات أخرى للأبيات ، وفي نهاية الأرجوزة (٤٢) ورد بخط الحواشي نفسه : « بلغت المقابلة من أوله الى آخره بالكتاب الذي قرىء على ابن أخي الأصمعي رحمه الله فصح بحمد الله تعالى وعونه وصلى الله على محمد نبيه » .

وهذه الحاشية الأخيرة يمكن أن تشير الى أن صاحبها قد قابل نسخة الأصل بنسخة من ديوان العجاج قرئت على عبدالرحمن بن أخي الأصمعي ، ونقل عنه بعض ما لاحظته من اختلاف في الرواية أو نقص في الشروح ، وهذا أمر نسلم به تماما ، الا أن المقابل لم يلتزم بالاشارة الى عبدالرحمن بن أخي الأصمعي في نقل الروايات المخالفة ، وانما أشار أيضا بدقة واستقصاء الى روايات أخرى تخص الرياشي ، وثلاثة تخص الزيادي ، وكان يمكن أن نذهب الى أن ثمة تحريفاً بين « الرياشي » و « الزيادي » ، إذ أن المقابل قد أشار الى عبدالرحمن (٢١) مرة ، وأشار الى الزيادي (٤) مرات فقط . ولكن هذا الاحتمال ينفيه أن المقابل كان يميز بين رواية كل من الثلاثة ، فاذا اتفقت رواية عبدالرحمن والرياشي رسم الى جانبها « صح لهما » وجاء هذا في (٧) مواضع ، أو رسم كلمة « صحا » وجاء هذا في (٤) مواضع ، وقد نص في موضعين على اختلاف رواية الرياشي وعبدالرحمن معاً عن رواية الزيادي ، ففي الأصل ورد البيت (٧) من الأرجوزة (٥) على هذا النحو :

هَشَمَكَ حَوِيَّ الهَبِيدِ آرَكَ

والى جانب (آركا) رسم المقابل : « صح زيادي » مشيراً الى أن روايته كرواية الأصل ، ثم رسم فوقها : « الراتكا : صح لهما » اشارة الى

أنها رواية الرياشي وعبد الرحمن ، وكذلك الأمر في البيت (٧٠) من
الأرجوزة (٣٤) اذ ورد في الأصل :
فَعَادَ مِنْهُ رَحْمَةً وَغَارَا

وتحت كلمة « رحمة » رسم المقابل « صح لهما » اشارة الى أنها أيضاً
رواية الرياشي وعبد الرحمن ، ورسم فوقها : « أَنْفَاء - صح زيادي » .
وهذا يدل دلالة قاطعة على أنه لا تحريف بين « الرياشي » و « الزيادي »
في اضافات المقابل ، فكل منهما كان مقصوداً بذاته ، ولا سيما أن المقابل قد
أشار الى أن رجز العجاج قد قرئ على الرياشي ، وعلى عبد الرحمن بن أخي
الأصمعي ، كما أشار أيضاً الى وجود كتاب للزيادي يضم رجز العجاج .

فقد ألحق حاشية بشرح البيت (٤٩) من الأرجوزة (١) يقول فيها :
« وقرئ على الرياشي : من كوكب العين » ، ورسم حاشية الى جانب البيت
(١٠٨) من الأرجوزة (٣٣) يقول فيها : « قرئ على الرياشي : ولم تعوج
رحم من تعوجا » . مما يدل على أن هذا الرجز كله قرئ على الرياشي ،
ويؤيد ذلك ما تتبَّعه المقابل من رواية الرياشي لأراجيز الديوان جميعا ، ولا
يكون هذا التتبع الا عن كتاب يجمع ديوان العجاج برواية الرياشي عن الأصمعي .

وفي شرح البيت (٤١) من الأرجوزة (٢٠) قال الأصمعي :
« الهبور : المكان المظلم من الأرض » ، ورسم المقابل حاشية الى جانب هذا
الكلام فقال : « واحده هبر ، هكذا في الكتاب الذي قرئ على ابن أخي
الأصمعي » ، وهذه الحاشية ثمينة جداً لأنها تشير الى أن كتاب ابن أخي الأصمعي
قد نقل عن الأصمعي الأراجيز والشرح معاً .

والى جانب البيت (٢١) من الأرجوزة (٢١) رسم المقابل حاشية
يقول فيها : « في كتاب الزيادي : لا أستم الحر البريء المسلما » . ويمكن

أن يذهب بنا الظن الى احتمال أن يكون كتاب الزيادي هذا كتاباً لغويّاً ورد فيه هذا الشاهد ، أو بعض أبيات من رجز العجاج ، ولكن هذا ينفيه نفيّاً قاطعاً أن المقابل قد أضاف الى نسخة الأصل الأرجوزتين المطولتين (٤٣) و (٤٤) نقلا عن كتاب الزيادي نفسه ، اذ قال في التقديم لهما : « وقال العجاج في رواية أبي اسحق الزيادي » ، وهذا يشير بوضوح الى أن كتاب الزيادي ، ان هو الاّ ديوان العجاج وشرّحه ، نقله الزيادي عن أستاذه الأصمعي كما نقله أبو حاتم السجستاني ، والرياشي ، وعبد الرحمن بن أخي الأصمعي .

وأمام هذه الأدلة لانجد ما يمنع أن يكون رجز العجاج قد نُقِلَ عن الأصمعي عن طريق تلامذته هؤلاء جميعاً ، ولم تنقل لنا المصادر الاّ سندا متصلاً بأبي حاتم في فهرسة ابن خبير ، ولم يحفظ لنا الزمن الاّ نسخة برواية أبي حاتم عن الأصمعي .

والذي يجعلنا نزداد يقيناً بهذا الاحتمال ، هو أن هؤلاء جميعاً من أبرز تلامذة الأصمعي ، وأكثرهم رواية لكتبه ، فأبو حاتم سهل بن محمد السجستاني (٢٥٥ هـ) كان كثير الرواية عن أبي زيد وأبي عبيدة والأصمعي ، وكان عالماً باللغة والشعر ^(١) ، وقد روى كثيراً من كتب الأصمعي ومصنفاته من دواوين الشعراء ^(٢) . والرياشي أبو الفضل العباس بن الفرّج (٢٥٧ هـ) كان كثير الرواية عن الأصمعي وغيره ، الاّ أنه قال : « تحفظت كتب أبي زيد ودرستها ، الاّ أني لم أجالسه مجالستي للأصمعي ، وأما كتب الأصمعي فاني حفظتها لكثرة ما كانت تتردد على سمعي لطول مجالستي له ^(٣) » ، وكان

(١) انظر الفهرست ٥٨ ، وأخبار النحويين البصريين ٩٣ ، وبغية الوعاة ٢٦٥ ، ومراتب النحويين ٨٠ ، وطبقات النحويين ١٠٠ ، ونزهة الألبا ٢٥١ .
(٢) انظر فهرسة ابن خبير ٣٤١ و ٣٧٥ و ٣٨٩ و ٣٩٣ و ٣٩٤ و ٤٠٢ .
(٣) طبقات النحويين ١٠٣ - ١٠٤ .

عالمًا بالشعر واللغة والنحو وكان مقدمًا على أبي حاتم عند أهل البصرة (١) .
والزيادي أبو اسحق ابراهيم بن سفيان (٢٤٩ هـ) ، وكان نحوياً لغوياً
راوية ، وقد روى عن أبي عبيدة والأصمعي وكان يشبهه به في معرفة الشعر
ومعانيه (٢) . وعبد الرحمن بن عبد الله بن قُرَيْب (٣) روى عن عمه الأصمعي
علماً كثيراً ، وكانت كتب الأصمعي بين يديه ، وربما حكى عنه ما يجده
في كتبه من غير أن يكون سمعه من لفظه ، وهو ثقة فيما يرويه عن عمه
وعن غيره من العلماء (٤) .

فهم جميعاً من تلامذة الأصمعي النابهن ، ولا يبعد أن يكونوا جميعاً
قد نقلوا عنه ديوان العجاج ، ولا سيما أن ثمة دواوين أخرى أمكن أن نجد
لأسانيدھا عن الأصمعي أكثر من تلميذ واحد ، ومنها مثلاً أشعار هذيل وقد
رواها عن الأصمعي كل من أبي حاتم والرياشي (٥) . وشعر طفيل الغنوي ،
وقد رواه عن الأصمعي كل من أبي حاتم وعبد الرحمن بن أخي الأصمعي (٦) .
وهذا يرجح أيضاً أن يكون رجز العجاج قد رواه عن الأصمعي كل
من الرياشي والزيادي وعبد الرحمن بالإضافة الى رواية أبي حاتم ، وذلك
لما رأيناه من أدلة مختلفة تؤيد هذا الاحتمال ، واذا كانت لم تبق لنا الا
نسخة من رواية أبي حاتم عن الأصمعي ، فقد حَفِظَت لنا بعض الروايات

-
- (١) انظر طبقات النحويين ١٠٥ ، والفهرست ٥٨ ، واخبار النحويين
البرصيين ٨٩ ، وبغية الوعاة ٢٧٥ ، ونزهة الألبا ٢٦٢ .
(٢) انظر بغية الوعاة ١٨١ والفهرست ٥٨ ، واخبار النحويين البرصيين
٨٨ ، ونزهة الألبا ٢٦٩ ، وطبقات النحويين ١٠٦ .
(٣) لم أقف على سنة وفاته ، وكان حيا حوالي ٢١٦ هـ ، انظر
معجم المؤلفين ١٤٨/٥ .
(٤) انظر مراتب النحويين ٨٢ ، وبغية الوعاة ٢٩٩ ، وطبقات النحويين
١٩٧ ، والفهرست ٥٦ ، وفهرسة ابن خير ٣٧٥ .
(٥) فهرسة ابن خير ٣٨٩ .
(٦) فهرسة ابن خير ٣٩٣ .

للسنخ الأخرى فيما ورد من اضافات على حواشي نسخة الأصل . وكان يمكن أن نضيف هذه الحواشي الى متن الأصل نفسه ، لولا أنها تضم أيضاً بعض الروايات دون تحديد لأصحابها ، وتضم شروحات لغوية كثيرة منها ما يظهر عليه أنه نقل عن كتاب عبد الرحمن بن أخي الأصمعي ، ومنها ما يبدو أنه منقول عن كتب لغوية مختلفة ، وليس من الهين التمييز دائماً بين هذا وذاك ولذلك كان لابد من وضع هذه الاضافات جميعاً في حاشية التحقيق ، دون أن تخلط بالأصل .

والمهم أن الأصمعي هو الذي روى ديوان العجاج^(١) وشرحه ، ومن واجبتنا أن نقف رويداً عند صانع هذا الديوان ، قبل أن نتجه الى دراسة طريقته في شرحه وتصنيفه .

والأصمعي هو عبد الملك بن قُرَيْبٍ ويكنى أبا سعيد ، واسم قُرَيْبٍ عاصم بن عبد الملك بن أصمَع بن مطهر بن رياح بن عمرو بن عبد الله الباهلي^(٢) ، وكان من أهل البصرة ، ثم قدم بغداد أيام هارون الرشيد^(٣) ، وقد اجتمع له من الأخلاق والصفات ما جعله أهلاً لمجالسة الرشيد ومنادمته ، فلم يكن الأصمعي من أصحاب الأهواء ، وكان في ذلك يشبه أبا عمرو بن العلاء والخليل بن أحمد ويونس بن حبيب^(٤) ، وكان صدوقاً في الحديث^(٥) ، يثني

(١) أخبار النحويين البصريين ٥٨ ، وثمة خلاف في بعض حلقات نسبه فانظر : نزهة الألبا . ١٥٠ ، وبغية الوعاة ٣١٣ ، وانباه الرواة ١٩٧/٢ ، واللباب في تهذيب الأنساب ٥٦/١ ، ولب الألباب ١٧ ، والفهرست ٥٥ ، وروضات الجنات ٤٥٨ ، وطبقات النحويين ١٨٣ ، وتقريب التهذيب ٥٢١/١ ، وجمهرة أنساب العرب ٢٤٥ ، ومراتب النحويين ٤٦ .

(٢) انباه الرواة ١٩٨/٢ .

(٣) نزهة الألبا ١٧١ .

(٤) نزهة الألبا ١٥٠ .

عليه بالثقة أكبر علماء الحديث أمثال الشافعي وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين^(١) ، ولم يُتهم الأصمعي في شيء من دينه^(٢) ، وكان يتقي أن يفسر الحديث أو يفسر القرآن^(٣) ، بل كان لا يفسر شيئاً من اللغة له نظير أو اشتقاق في القرآن وكذلك الحديث تخرجاً ، وكان لا يفسر شعراً فيه هجاء ، وكان صدوقاً في كل شيء^(٤) .

وكان الأصمعي الى ذلك كله وفاقاً في صداقته للناس ، اذ نقل الزبيدي بسنده عن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن أخي الأصمعي قال : « سمعت عمي يقول : أرسل الي هارون الخليفة فدخلت عليه ، فاذا هو على كرسي جالس ، والفضل بن الربيع على كرسي ، واذا بنطع مبسوط عليه رجل مقتول ، فجلست . قال : فقال لي الفضل بن الربيع : يا عبد الملك ، هذا جعفر قد أخزاه الله . قال : فسكت . قال : فقال هارون : قم . فقامت . وسمعت عمي يقول : سمعت هارون يقول : ما رأيت أوفى من الأصمعي بعدُ ، ما ذكرتُ جعفرأ لأحد الا دعا عليه أو شتمه الا الأصمعي »^(٥) . وهذه الأخلاق والصفات تجعل باطلاً ما يروى عن أبي عبيدة من أخبار تنسبُ الأصمعي الى الكذب^(٦) ، ذلك لأن السيرافي ذكر أن أبا عبيدة والأصمعي كانا « يتقارضان كثيراً ويقع كل واحد منهما في صاحبه^(٧) » ،

-
- (١) نزهة الالباء ١٧١ - ١٧٢ ، وروضات الجنات ٤٦١ ، وطبقات النحويين ١٨٤ و ١٩٢ ، وتقريب التهذيب ٥٢٢/١ .
(٢) طبقات النحويين ١٨٨ .
(٣) بغية الوعاة ٣١٣ .
(٤) مراتب النحويين ٤٨ ، وانظر أخبار النحويين ٦٠ ، ونزهة الالباء ١٧٠ .
(٥) طبقات النحويين ١٨٥ .
(٦) انظر الفهرست ٥٥ .
(٧) أخبار النحويين ٦٩ .

ونقل الأبنباري شيئاً من أخبار هذه المقارسة ^(١)، وقال أبو الطيب اللغوي: « فلما ما يحكيه العوام وسُقَّاط الناس من نوادر الأعراب ، ويقولون : هذا بما افتعله الأصمعي ، ويحكون أن رجلاً رأى عبدَ الرحمن ابن أخيه فقال : ما فعل عمُّك ؟ فقال : قاعد في الشمس يكذب على الأعراب ، فهذا باطل ما خلق الله منه شيئاً ، ونعوذ بالله من معرفة جهل قائله ، وسقوط الخاطئين فيه . وكيف يقول ذلك عبد الرحمن ولولا عمه لم يكن شيئاً ! وكيف يُكذِّب عمُّه وهو لا يروي شيئاً الا عنه ! وأنتى يكون الأصمعي كما زعموا ولا يفتي الا فيما أجمع عليه العلماء ، ويقف عما يتفردون به عنه ، ولا يُجوِّز الا أفصح اللغات ، ويلجج في دفع ماسواه ^(٢) . »

وهذا كله انما أحاط بالأصمعي لخصومات كانت بينه وبين أقرانه من معاصريه أمثال أبي عبيدة وأبي زيد ^(٣) ، وأما ما ينسب اليه من نوادر وأساطير فذلك لشهرته الواسعة في حياته أو بعد وفاته .

فالأصمعي صدوق ثقة فيما يرويه ، وأكثر روايته كانت عن الأعراب ، قال للسيوافي : « واكثر سماعه من الأعراب وأهل البادية ، حدثنا أبو بكر ابن السراج قال حدثنا أبو العباس المبرد قال : قال الأصمعي : رأني أعرابي وأنا أكتب كل مايقول ، فقال : ماتدع شيئاً الا نَمَصْتَه ، أي نقته . وقال له بعض الأعراب وقد رآه يكتب كل شيء : ما أنت الا الحفظة ، تكتب لفظ اللفظة . وقال له آخر : أنت حتف الكلمة الشرود ^(٤) . »

ولعل اتصاله الوثيق بالأعراب ، وأخذه عن الثقات أمثال أبي عمرو بن

(١) نزهة الألبا ١٦٧ - ١٦٨ .

(٢) مراتب النحويين ٤٩ .

(٣) انظر مراتب النحويين ٥٠ .

(٤) أخبار النحويين البصريين ٦٦ - ٦٧ ، وانظر الفهرست ٤٧ .

العلاء^(١) ، كان من الأسباب التي جعلت من لسانه لساناً طلقاً فصيحاً ، حتى قال الشافعي رحمه الله : « ما عبر أحد عن العرب بأحسن من عبارة الأصمعي^(٢) » ، وروى الرياشي قال : « سمعت عمرو بن زمرزوق يقول : رأيت الأصمعي وسيبويه يتناظران ، فقال يونس : الحق مع سيبويه وهذا يغلبه بلسانه في الظاهر ، يعني الأصمعي^(٣) . »

والأصمعي في نقله عن الأعراب كان يكتب ويدون كل ما يسمعه ، إلا أن ذاكرته لم تكن دون كتابته في الحفاظ على ما يسمعه من لغة أو غريب أو أخبار مختلفة ، وقد نُقِلَ عن ذاكرة الأصمعي من الأخبار ما يشبه الأساطير ، ولكنه مع ذلك لا يتروي إلا الحقيقة^(٤) ، إذ كانت ذاكرة الأصمعي تتسع لأكثر مما نُقِلَ إلى عصره من تراث العرب ، فقد نُقِلَ السيرافي بسنده عن ابن الأعرابي قال : « شهدت الأصمعي وقد أنشد نحواً من مائتي بيت ما فيها بيت عرفناه^(٥) » ، ولهذا كان عمر بن شبة يقول : « سمعت الأصمعي يقول : أحفظ عشرة آلاف أرجوزة^(٦) » وفي رواية أخرى : « ستة عشر ألف أرجوزة^(٧) » ، ونقل أبو الطيب اللغوي بسنده عن أبي حاتم قال : « كان الأصمعي أروى الناس للرجز ، سمعت بَحْرانياً كان قد طاف بنواحي خراسان يسأله ، فقال له : أخبرني فلان بالري أنك تروي اثني عشر ألف أرجوزة . فقال : نعم ، أروي أربعة عشر ألف

-
- (١) انظر بعض اساتذته في بغية الوعاة ٣١٣، وانباه الرواة ١٩٨/٢ .
 - (٢) نزهة الألبا ١٦٩ ، وبغية الوعاة ٣١٣ ، وروضات الجنات ٤٥٨ و ٤٦١ ، وفي الروضات : « ما عبر أحد من العرب » .
 - (٣) نزهة الألبا ١٦٩ ، وبغية الوعاة ٣١٣ .
 - (٤) انظر نزهة الألبا ١٦٧ - ١٦٨ .
 - (٥) أخبار النحويين البصريين ٦٠ ، ونقله الأنباري في نزهة الألبا ١٥٤ .
 - (٦) نزهة الألبا ١٥١ .
 - (٧) بغية الوعاة ٣١٣ ، وروضات الجنات ٤٦١ ، وانباه الرواة ١٩٨/٢ .

أرجوزة . فعجبت ، فقال لي : أكثرها قصار . فقلت : اجعلها بيتاً بيتاً ،
أربعة عشر ألف بيت !

وأما في رواية الرياشي فيما كتب اليّ أبو روق الهزّاني ، قال : سمعتُ
الرياشي يقول : سمعت الأصمعي يقول : أحفظ اثني عشر ألف أرجوزة ،
فقال له رجل : منها البيت والبيتان ، فقال : ومنها المائة والمائتان .
حدثنا جعفر بن محمد قال : أخبرنا علي بن ذكوان عن المازني قال :
قلت للأصمعي : انك لتحفظ من الرجز مالا يحفظه أحد . فقال : انه كان
هنا وسدّ منا . قال اللغوي : والسدّم هاهنا الحرص (١) .

فذاكرة الأصمعي نادرة في اتساع ما تحفظه من أشعار العرب وأخبارها ،
وصلة الأصمعي بأراجيز العرب صلة جدّ وثيقة ، ولذلك كان يحفظ وجز
العجاج ورؤبة ، يدل على ذلك ما نقله المرتضى في خبر أول لقاء بين
الأصمعي والرشيد ، وفيه يقول الأصمعي : « قال لي الرشيد : أصبت ،
ثم قال : أتروي لرؤبة بن العجاج والعجاج شيئاً ؟ فقلت : هما شاهدان لك
بالقوافي وان غيباً عن بصرك بالأشخاص (٢) » ، ثم طلب اليه ، فأنشدته
بعض أراجيز رؤبة .

واتصاله بالرجز عامة ، وحفظه لأراجيز رؤبة والعجاج خاصة ، جعله
هو نفسه يقول الرجز (٣) ، وأدى به ايضاً الى تصنيف كتاب الأراجيز (٤) ،
وهذا كله يشير الى مدى اهتمام الأصمعي بالرجز ، ويؤكد مرة أخرى صنعه
لديوان العجاج وشرحه له وعنايته به ، وهذه الصلة بالرجز من ناحية ، وبالأعراب

-
- (١) مراتب النحويين ٥٧ ، وانظر طبقات النحويين ١٨٥ و ١٨٨ .
(٢) أمالي المرتضى ٩٨/٣ ، ونقله ابن عبدربه في العقد الفريد ١٦١/٦ .
(٣) انظر كتاب الورقة ٣١ - ٣٢ .
(٤) بغية الوعاة ٣١٤ ، وانباه الرواة ٢٠٤/٢ ، والفهرست ٥٥ ،
وروضات الجنات ٤٦١ .

من ناحية اخرى ، جعلت للأصمعي شهرة واسعة في معرفة الغريب واللغة ، بل جعلته صاحب ملح ونوادر وأخبار لكثرة ما كان يجالس من أعراب للبادية .

وكان يوصف دائماً باتساع باعه في اللغة والغريب والنوادر والأخبار وقد يوصف أيضاً بأنه صاحب نحو ، ولكنه في هذا دون أبي زيد الأنصاري وفوق أبي عبيدة معمر بن المثنى ، ولذلك قال السيوطي : « أبو سعيد الأصمعي البصري اللغوي أحد أئمة اللغة والغريب والأخبار والملح والنوادر . . قال ابن معين : ولم يكن ممن يكذب ، وكان أعلم الناس في فنه ^(١) » ، ونقل أبو الطيب اللغوي عن الفراء قوله : « ذاك أعلمهم بالشعر ، وأتقنهم للغة ، وأحضرهم حفظاً ^(٢) » ، وقال محمد بن داود : « بصري راوية للشعر والغريب موثوق به في الحديث ^(٣) » ، وقال الأنباري : « وكان صاحب النحو واللغة والغريب والأخبار والملح . . ويقال : كان الرشيد يسميه شيطان الشعر . وقال الأخفش : ما رأينا أحداً أعلم بالشعر من الأصمعي وخلف ! فقلت : أيها كان أعلم ؟ فقال : الأصمعي لأنه كان نحويًا . وقال أبو العباس محمد ابن يزيد المبرد : كان أبو زيد صاحب لغة وغريب ونحو ، وكان أكثر من الأصمعي في النحو ، وكان أبو عبيدة أعلم من أبي زيد والأصمعي بالأنساب والأيام والأخبار ، وكان للأصمعي يد غراء في اللغة لا يُعرف فيها مثله وفي كثرة الرواية ، وكان دون أبي زيد في النحو ^(٤) » .

وهذا كله انما يفسر اهتمام الأصمعي برجز العجاج ، ويلقي ضوءاً على

(١) بغية الوعاة ٣١٣ ، ومثله في روضات الجنات ٤٥٨ .

(٢) مراتب النحويين ٤٨ .

(٣) كتاب اللورقة ٣٠ .

(٤) نزهة الألبا ١٥١ - ١٥٢ ، وتقل كلام المبرد بروايات متقاربة في

أخبار النحويين ٥٩ ، وانباه الرواة ٢/١٠٢ ، والفهرست ٥٥ ، وأخبار النحويين ٦٨ .

طريقته في شرح هذا الرجز ، وقد ترك الأصمعي مصنفات عديدة جداً (١) ،
وجمع دواوين كثير من الشعراء ، والذي يهمننا من مصنفاته كتاب الأراجيز
السابق ذكره ، وكتاب الأمثال (٢) ، وهذا الكتاب يمكن أن يوضح السبب
لاهتمام الأصمعي بالأمثال في شرحه للديوان .

وقد عُمِّر الأصمعي فبلغ ثمانياً وثمانين في بعض الروايات ، أو بلغ
احدى وتسعين في روايات أخرى ، وتوفي رحمه الله بالبصرة سنة (٢١٣ هـ)
وقيل سنة (٢١٠ أو ٢١٢ أو ٢١٥ أو ٢١٦ أو ٢١٧) على خلاف في
ذلك ، وتفرد الزبيدي فذكر أنه توفي بمرور خراسان (٣) .

٢ - شرح الديوان

في البحث السابق تأكد أن ديوان العجاج من عمل الأصمعي ، وأن
شرحه أيضاً من عمل الأصمعي نفسه ، ونود هنا أن نزيد ثقته في نسبة الشرح
الى الأصمعي ، لا لأننا نجد مجالاً للشك ، ولكن دفعاً لكل تشكك أو
ريبة في ذلك ، ولا سيما أن هذا الشرح من أقدم الوثائق التاريخية للشروح في
مكتبتنا العربية .

وأهم ما يؤكد أن الشرح للأصمعي نفسه ، كثرة ما نُقِلَ عنه من عبارات
حرفية أو شبه حرفية عُزِيَتْ للأصمعي في كثير من المصادر المختلفة ، وقد
أشرنا في تحقيق الديوان الى العديد من هذه العبارات ، وحسبنا هنا أن نورد
بعض الأمثلة التي توضح ذلك .

(١) انظر بغية الوعاة ٣١٤ ، وانباء الرواة ٢/٣٠٣ ، وروضات الجنات
٤٦١ ، وفهرست ابن خیر ٣٧٥ ، ٣٨٩ ، ٣٩١ ، ٣٩٧ ، ٤٠٢ .
(٢) فهرسة ابن خیر ٣٤٠ - ٣٤١ .
(٣) طبقات النحويين ١٩٢ .

فقد أنشد البكري (٤٨٧ هـ) بيت العجاج :

والشَدَّيَاتِ يُسَاقِطْنَ النُّعْرَ

ثم قال : « قال الأصمعي : إنما يقال : ناقة ما حملت نَعْرَةَ قَطٍ ، ولا يقال طَرَحَتْ نَعْرَةَ »^(١) .

وهذه العبارة منقولة حرفياً عن شرح الديوان ، وفيه : « قال الأصمعي : ليس أحد يقول : يُسَاقِطْنَ النُّعْرَ ، ولا طَرَحَتْ نَعْرَةَ » ، إنما يقال : ناقة ما حملت نَعْرَةَ قَطٍ »^(٢) .

وأنشد البكري آيات العجاج

رَحَلْتُ مِنْ أَقْصَى بِلَادِ الرَّحْلِ
مِنْ قَلَلِ الشَّخْرِ فَجَنَّبِي مَوْكِلَ

ثم قال : « قال الأصمعي : (مَوْكِلِ) . أظنه حصناً بجزرموت »^(٣) .

وفي شرح الديوان : « وجنبي موكل : أظنه حصناً بجزرموت »^(٤) .

وقال البكري : « كابد : بكسر الباء ، بعدها دال مهملة ، على لفظ

فاعل : موضع في شق ديار بني تميم ، قاله الأصمعي . وأنشد للعجاج :

وَلَيْلَةَ مِنَ اللَّيَالِي مَرَّتِ
سَاهَدْتُهَا بِكَابِدٍ وَجَرَّتِ

كَلَّكَلَهَا لَوْلَا الْإِلَهُ ضَرَّتِ

وقال مرة أخرى : « (بِكَابِدٍ) أي بمكابدة شديدة ومشقة ، كذا

نقله قاسم بن ثابت »^(٥) .

(١) معجم ما استعجم ٧٨٤/٣ .

(٢) شرح الأرجوزة ٦٣/١ .

(٣) معجم ما استعجم ٧٨٣/٣ .

(٤) الأرجوزة ٥٠/١٢ .

(٥) معجم ما استعجم ١١٠٧/٤ وقاسم بن ثابت بن حزم اندلسي توفى

بسر قسطة سنة (٣٠٢ هـ) .

وفي شرح الديوان : « بكابد ، يقول : بأمر يكابدني . وكابدُها : شاقُّها . وقال مرةً أخرى : (بكابد) ، كأنه موضع في شق بني تميم ، يقال له : كابد (١) » .

وقال البكري : « صَعْفُوقَة : قرية بالهامة ، كان ينزلها خَوْلُ السلطان ، قاله الأصمعي ، قال وخَوْلٌ بالهامة يقال لهم الصَعافِقَة ، كان بنو مروان سيروهم ثمة . وإياهم أراد العجاج بقوله :

مِن آلِ صَعْفُوقٍ وَأَتْباعٍ أُخَرَ

صَعْفُوق : مفتوح الأول ، ولم يأت مثله في الكلام الاّ مضموم الأول (٢) » .

وهذا نقل لا يخلو من تصرف ، عن شرح الديوان ، وعبارة الشرح : « صَعْفُوق : مفتوح الأول ، لم يبيء مثله في الكلام الاّ مضموم الأول نحو دُعُوب ، وصَعْفُوق : قوم كانوا يخدمون السلطان ، خَوْلٌ بالهامة يقال لهم الصَعافِقَة ، كان معاوية بن أبي سفيان أو آل مروان بن الحكم سيروهم ثمة ، لا أدري ما أصله ، والصَعْفُوقَة : قرية بالهامة كان ينزلها خَوْلُ السلطان (٣) » .

وثمة أمثلة أخرى في اللسان ، ومن ذلك أن ابن منظور أنشد قول العجاج :

قَدَ أَقْفَرَتْ غَيْرَ الظِّلِمِ الأَصْعَلِ

ثم قال في شرحه : « الأصمعي : قوله (أصعل) هكذا يروي ،

(١) الأرجوزة ٢٤/٢٢ .

(٢) معجم ما استعجم ٨٣٣/٣ .

(٣) شرح الأرجوزة ٣١/١ .

فأما كلام العرب فهو (صَعَلٌ) بغير ألف^(١) .
وهذا نَقَلَ شبه حرفي عن سَرَح الديوان ، وفيه « قال أبو سعيد:
ولم أسمع (الأصَعَل) الا ههنا والصَعَلُ هو الكلام^(٢) » .
وأشد ابن منظور أيضاً قول العجاج :
بَعْدَ الَّذِي عَدَا الْقُرُوصَ فَحَزَرَ
ثم قال في شرحه : « وقال الأصمعي وحده : اذا حَدَى اللسان فهو
قارص^(٣) » .

وفي شرح الديوان : « والقارص : اللبَنُ الذي يَحْدِي اللسان^(٤) » .
وهذا النقل الحرفي أو شبه الحرفي لعبارات الديوان ، وعزَّوْها الى
الأصمعي ، ائما يدل دلالة قاطعة على أن هذا الشرح للأصمعي نفسه ، وليس
من السائغ أن يقال انه نَقَلَ عن كتب الأصمعي ، ذلك لأنه نقل حرفي
عن الديوان أحياناً دون زيادة أو نقصان .
وقد أورد البكري أيضاً ثلاث اشارات في كتابه « سمط اللآلي » ،
تدل دلالة قاطعة على أن الشرح للأصمعي ، وتفيد أن هذا الشرح قد نقله
عنه كل من أبي حاتم وعبد الرحمن بن أخي الأصمعي .
فقد روى البكري بيت العجاج^(٥) :

تُواضِحُ التَّقْرِيْبَ قَلْبُوا مِحْلَجًا

ثم قال في شرحه : « والقَلْبُو : الحَقِيف . والمِحْلَج : الشديد المدمج ،

-
- (١) اللسان (صعل) .
 - (٢) شرح الأرجوزة ٢٨/١٢ .
 - (٣) اللسان (قرص) .
 - (٤) شرح الأرجوزة ١٣١/١ .
 - (٥) الأرجوزة ٧٨/٣٣ .

هكذا رواه أبو حاتم عن الأصمعي (١) . وهذا الشرح موجود حرفياً في الديوان .

وأشده البكري أيضاً قول العجاج (٢) :

لَا عَاجِزَ الْهَوَىٰ وَلَا جَعَدَ الْقَدَمُ

ثم قال في شرحه : « وقال أبو حاتم عن الأصمعي في قوله (ولا جعد القدم) : هو واسع الشحوة ليس بضيقها ، وهذا مثل ضربه (٣) . وهذا الشرح موجود أيضاً بصورة حرفية في شرح الديوان .

وأشده البكري بيتاً للعجاج على هذا النحو (٤) :

يَقْتَسِرُ الْأَقْوَامُ بِالتَّغْمِ

ثم قال في شرحه : « هكذا رواه أبو علي (بالتغم) بالغين المعجمة ، لم تختلف الرواية عنه في ذلك ، وإنما هو (بالتغم) بالقاف ، أي الركوب والاستعلاء ، كذلك رواه أبو حاتم وعبد الرحمن عن الأصمعي وفسره بما ذكرته ، وهو الذي لا يصح غيره (٥) . والرواية الثانية مع شرحها موجودة حرفياً في ديوان العجاج .

وهذه الاشارات الثلاث تؤكد أن الشرح للأصمعي ، وتوثق ماسبق أن ذكرناه من أن رواية الديوان وشرحه ، قد جاءت من طريق أبي حاتم عن الأصمعي ، ومن طريق عبد الرحمن عن عمه .

وقد رأينا في موضع سابق أن النسخة الباقية من الديوان هي من رواية

-
- (١) سمط اللالي ٦٩٩ .
 - (٢) الأرجوزة ١٨/٢٣ .
 - (٣) سمط اللالي ٧٢٩ .
 - (٤) الأرجوزة ١٠٣/٢٤ .
 - (٥) سمط اللالي ٤٩١ .

أبي حاتم عن الأصمعي ، وقد كان أبو حاتم يضيف الى شرح أستاذه بعض الزيادات ، إلا أنه لم يخلط بينها وبين شرح الأصمعي ، وإنما قدم لكل منها بقوله « قال أبو حاتم » فميز بذلك اضافاته من الأصل . وهذه الاضافات قليلة جداً ، لا تؤثر في بنية شرح الأصمعي ، ولا سيما بعد أن تميزت منه .

وقد سبق أن حددنا المواضع التي ذُكر فيها أبو حاتم مشيراً الى أمور خاصة سأل عنها الأصمعي ، أو سمعها منه ورأى أن ينبه عليها بوجه خاص ، وهنا سنعرض للمواضع الأخرى التي ذُكر فيها أبو حاتم مشيراً الى زيادات خاصة به ، وهي لا تعدو أن تكون شرحاً لما أغفله الأصمعي ، أو تدقيقاً واستدراكاً أعلى شرحه ، أو مخالفة له فيما ذهب اليه ، أو رواية لأبي حاتم عن غير الأصمعي ، وهي جميعاً لا تزيد على عشرة مواضع في شرح الديوان كله .
وأما المواضع التي شرح فيها أبو حاتم ما أغفله الأصمعي فهي أربعة ، ففي شرح البيت (٤٠) من الأرجوزة (٣٣) :

وفاِحماً ومَرسناً مُسرَجَجا .

ورد لأبي حاتم قوله : « قال أبو حاتم : الفاحم الشعر الأسود ، شَبَّه سواده بسواد الفحم » . ولم يتعرض الأصمعي لشرح كلمة « الفاحم » .
وفي شرح البيت (٨٥) من الأرجوزة (٣٣) :

وفرَغا من رعي ماتلَزَجَجا

جاء لأبي حاتم قوله : « قال أبو حاتم : الرعي الأكل ، والرعي المرعى » . ولم يشرح الأصمعي كلمة « الرعي » .
وفي شرح البيت (٩١) من الأرجوزة (٣٣) :

فوق الجلاذي اذا ما أمَجَجَجا

زاد أبو حاتم قوله « قال أبو حاتم : كان الوجه أن يقول (أمجاً) ،
ولكنه أراد الوزن فحرك الجيم » ولم يُنبّه الأصمعي على ذلك .

وفي شرح البيت (١١٧) من الأرجوزة (٣٣) :

طَرْنَا إِلَى كَلِّ طُؤَالٍ أَهْوَجًا

أضف أبو حاتم قوله : « قال أبو حاتم : يقال فرس طَوِيلٌ وَطُؤَالٌ ،
فاذا أردت الجميع قلت : طُؤَالٌ . ولم يشرح الأصمعي كلمة « الطُؤَالٌ » .
وفي ثلاثة مواضع أخرى وقف أبو حاتم من شرح الأصمعي موقف

المدقق المستدرك . ففي شرح البيت (٥٨) من الأرجوزة (٣٣) :

وَمَهْمَهُ هَالِكٍ مَنْ تَعَرَّجًا

ورد مايلى : « هَالِكٍ مَنْ تَعَرَّجًا : أَي مَنْ تَعَرَّجَ فِيهِ هَلَكٌ ،
أَي هَالِكِ الْمُتَعَرِّجِينَ . قَالَ أَبُو حَاتِمٍ : قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : يُقَالُ هَلَكَهُ اللَّهُ
وَأَهْلَكَهُ . فَسَأَلَتِ الْأَصْمَعِي عَنْهُ فَرَدَّهُ وَخَطَّاهُ فِي قَوْلِهِ » .

وفي شرح البيت (٥) من الأرجوزة (٣٤) :

فَحِيٌّ بَعْدَ الْقِدَمِ الدِّيَارَا

ورد مايلى : « فَحِيٌّ بَعْدَ الْقِدَمِ الدِّيَارَا : أَي قَلَّ لَهَا حَيَاكُ اللَّهِ ،
وَهُوَ الْبِشْرُ بِالْإِنْسَانِ ، وَبَيَّاهُ : أَضْحَكُهُ . وَالْقِدَمُ : مَامَرٌ مِنَ السَّنِينَ .
قَالَ أَبُو حَاتِمٍ : سَمِعْتُ الْأَصْمَعِيَّ عَنْ خَلْفِ الْأَحْمَرِ : وَبَيَّاكَ قَرَبَّكَ ، وَأَمَّا
أَضْحَكَكَ فَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ » .

وفي شرح البيت (١٢) من الأرجوزة (٣٤) :

كَأَيُّجِدُ الْكَاتِبُ الْأَسْطَارَا

ورد مايلى : « وَيُقَالُ سَطَّرُ وَسَطَّرَ جَمِيعًا ، وَالْجَمِيعُ أَسْطَارٌ

وَأَسْطُرٌ وَسُطُورٌ . قَالَ أَبُو حَاتِمٍ : سَطُرٌ وَثَلَاثَةُ أَسْطُرٍ ، وَسَطُرٌ
وَثَلَاثَةُ أَسْطَارٍ .

وفي موضعين آخرين عقّب أبو حاتم على شرح الأصمعي بما يخالفه ،
ففي شرح البيت (٩٧) من الأرجوزة (٣٣) :

جَابَأَ تَرَى تَلِيلَهُ مُسْحَجًا

ورد مايلي : « و يروى : ترى بليته . قال أبو حاتم : كان الأصمعي
ينشد (ترى تليله) ، والتليلُ : العنقُ : وهو الذي كان يختاره ، وغيره
يقول : بليته ، أي بعنقه . والليتان : ناحيتا العنق . قال أبو حاتم :
رواه الناس كلهم : بليته مسحجا . فقال : هذا تصحيف . قال أبو حاتم :
ويخلط الأصمعي ، فقلت : لم ؟ قال : كيف يكون « ترى بعنقه مسحجا » ،
لو كان ذلك لقال « تسحجا » . قلت له : في كتاب الله : « ومزقناهم
كلّ ممزّق » ، يريد كل تمزيق . فسكت وعرف الحق (١) .

وفي شرح البيت (١١٦) من الأرجوزة (٣٣) :

سَفَرَ الشَّالِ الزَّبْرَجِ المَزْبَرَجَا

ورد مايلي : « وقوله الزبريج المزبرجا : مثل الخبيث المخبث .
قال أبو حاتم : تفسير المخبث أن أهله خباء ، وليس هذا مثل المزبرج .
ففي هذين الموضعين نصّ أبو حاتم على مخالفته للأصمعي ، ذلك لأن
أبا حاتم قد روى أيضاً عن أبي عبيدة وأبي زيد الأنصاري ، وأبو زيد يفوق
الأصمعي في النحو ، وأبو عبيدة يفوق الأصمعي في الأخبار ، ولهذا وجدناه

(١) هذه الحادثة مشهورة في كتب اللغة ، وقد صرح أبو حاتم في أكثر
الروايات انه سمع روايته «بليته» من أبي زيد الأنصاري عن ربيعة بن العجاج
انظر شرح مايقع فيه التصحيف ١٠٠ و ١١٤ ، والخصائص ٣٦٦/١ ،
والزهري ٣٧٥/٢ ، ونزهة الألبا ٢٥٣ ، واللسان (سحج) .

قي موضع واحد فقط ينقل رواية خبر عن أبي عبيدة ، ويضيفه هو أو تلميذه ابن دريد الى شرح البيت (١٥) من الأرجوزة (٢١) على هذا النحو : « حدثنا أبو حاتم قال حدثنا أبو عبيدة حدثنا روبة بن العجاج عن أبيه قال : وردت المدينة فأتيت أبا هريرة .. الخ » .

تلك هي المواضع التي حاول فيها أبو حاتم أن يتعقب الأصمعي ، شارحاً أو مدققاً أو ناقلاً عن غير أستاذه ، وهذه المواضع المستدركة ، لها تعني بوضوح أن الشرح الأصيل ماهو الا لأصمعي نفسه ، ولو لم يكن ذلك لما أمكن لأبي حاتم أن يتعقب ذلك الشرح ويدقق فيه ويخالف بعضه ويشرح ما أغفل شرحه منه .

وبتحديد هذه العبارات التي أضافها أبو حاتم نكون قد زدنا من توثيق شرح الديوان ، وميّرنا بينه وبين ما أضيف اليه ، وزيادة في هذا التوثيق، ينبغي أن نشير الى خمسة عبارات أخرى وردت في شرح الديوان وهي مزيدة عليه ، ونظن ظناً أن ثلاثاً منها يمكن أن تكون لأبي حاتم مع اغفال اسمه لسبب من الأسباب ، وأن اثنتين منها قد أضيفتا من قبل النساخ فيما بعد .

أما العبارات التي نظن أنها لأبي حاتم ، فالأولى في الورقة (٦٨ / ب) وهي : « الجسر الطويل ، وقال غيره الشديد » . فالعبارة الأخيرة ليست من قول الأصمعي . والثانية في الورقة (٧٠ / آ) ، وهي : « وقال مرة أخرى : بكابد ، كأنه موضع في شق بني تميم » ، والقول قول الأصمعي ، الا انه نُقِلَ عنه نقلاً . والثالثة في الورقة (١١٠ / آ) ، وهي : « قال : يقول قد ضمرت فكانها القداح من الضمر ، قاله أبو عبيدة » ، والعبارة الأخيرة لاتصدر عن الأصمعي ، لأنه لايمكن للأصمعي أن يروي عن معاصره

أبي عبيدة لما كان بينها عن مقارضة واتهام .

فهذه العبارات الثلاث يبدو أنها من نقل أبي حاتم ، وان كان لا يستبعد أن يكون بعضها من اضافات النساخ ، أما العبارات التي نرجح أن تكون مضافة من قبل النساخ ، فهي اثنتان ، الأولى في الورقة (٤ / ب) ، وهي : « قال عبد الرحمن قال عمي : أنشدت هارون الرشيد أمير المؤمنين .. الخ » ، والثانية في الورقة (٩٦ / آ) ، وهي : « قرئ على الرياشي : ولم تُعَوِّجْ رُحْمَ مَنْ تَعَوَّجَا » .

وبتمييز هذه العبارات جميعاً أمكن لنا أن نجرد شرح الأصمعي من كل زيادة أو سائبة قد أضيفت إليه ، ومن ثم يمكن أن نلقي نظرة الى هذا الشرح ، لتعرف طريقة الأصمعي وأسلوبه في شرح ديوان العجاج .

وأبرز ما يمتاز به شرح الأصمعي التركيز على الشرح اللغوي للألفاظ ، وهو لا يقف عند شرح معنى الكلمة في البيت ، وإنما يقلب معانيها المختلفة في اللغة ، ثم يأتي بشواهد من الشعر القديم ، أو بشواهد من الآيات القرآنية ، وغالباً ما يشرح هذه الشواهد ، ولا سيما تلك التي يستمدّها من الشعر القديم ، إلا أن اهتمامه بالشرح اللغوي ، كان لا ينسبه غالباً أن يوجز في شرح المعنى العام للبيت ، وكثيراً ما كان يدفعه الى شرح معاني الأبيات ذلك الحرص على إيضاح ما يريده من دقة في شرح المعاني اللغوية للألفاظ ، وتظهر هذه الخصائص بجلاء في شرحه لهذه الأبيات (١) :

فالحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعْطَى الْحَبْرَ مَوَالِي الْحَقِّ إِنْ مَوَّلَى شِكْرًا
اذ قال في شرحها : « قال : الحَبْرُ السرور ، ويقال هو في حَبْرَة

(١) ديوان العجاج ، الأرجوزة ٣/١ - ٤ .

من العَيْش ، أى في مَسْرَّة من عَيْش ، والحَبْر السُرور ، ويقال هو حُبْرَ به ، أى سُرَّ به ، وفي الحديث : « ذَهَبَ حَبْرُهُ وَسَبْرُهُ » .
والحُبُّور : الآثار . وأنشد للعجاج :

بِهَ شِيَاتٍ كَالْحُبُّورِ الْقَمَلِ

يصف ظليماً . وقال ذو الرمة :

لَا زِلْتُمَا فِي حَبْرَةٍ مَابَقِيْتُمَا وَلَا قِيْتُمَا يَوْمَ الْحِسَابِ مُحَمَّدًا

صلى الله على محمد وآله وسلم . وقوله « حَبْرَةٌ » ، يقول : في سرور ، ويقال : فلان مَحْبُور . يقول : الحمد لله الذي أعطى هذا العهد ، يقول : اتَّبَعُوا أَثَرَ نَبِيِّتِهِمْ ، وذهب تشبيه الخوارج . وقوله « موالى الحق » أي أولياء الحق . والمولى : الولي ، والمولى : ابن العم ، والمولى : المنعم ، والمولى : المنعم عليه ، والمولى : الخليف ، ويقال : مولاي ، أي وليي . وأنشد للحطيئة في المولى ابن العم :

بني عَمَّنَا انَ الرِكَابَ بِأَهْلِهَا إِذَا سَاءَ هَا المَوْلَى تَرَوْحُ وَتَبْتَكِرُ

يريد اذا ساءها ابنُ العم بأمر ميكره رحلت الى غيره . وقوله « انِ المولى شكر » ، قال : هذا بمنزلة قولك : قد أعطاك الله خيراً ان شكرت ، أي فاشكر . يقول : ردَّ الحق الى اهله فليشكروا .

ومن الملاحظ أن هذا النص فيه معظم خصائص شرح الأصمعي ، من اصرار على شرح الألفاظ شرحاً لغوياً ، واستطراد في الشرح اللغوي للكلمة ، وتقلب لمعانيها المختلفة في اللغة ، أو لأصل اشتقاقها ، أو ما تفرع عنها من طرق الاشتقاق ، ثم الایجاز في معاني الآيات ، والاستشهاد بالشعر والحديث . إلا أن هذا الاتساع في الشرح لانجده دائماً في شروح الأراجيز ، وإنما نجد الشرح يستفيض في بعضها ، ويضمّر في بعضها الآخر ، ويكاد ينعدم في

بعض الأراجيز القصيرة (١) .

وسواء أوجز الأصمعي في شرحه أو أطال فهذه الخصائص لاتفارقه كلها أو بعضها حسب حاجته في شرح كل بيت . وإذا رأيناه في النص السابق يستشهد بالشعر القديم ، فثمة مواضع أخرى يلجأ فيها الى آيات الكتاب العظيم ، ومن ذلك ما نجد في شرح هذه الأبيات (٢) :

يَوْمَ تَبْرَى النَّفُوسُ مَا أَعَدَّتْ مِنْ نَزْلِ إِذَا الْأُمُورُ غَبَّتْ

وقال في شرحها : « ما أعدت : أي ما أعدت هناك من ثواب الخير أو شره قدمته . أي هيأت من نزل . قال الأصمعي : من قوله عز وجل : « كانت لهم جنات الفردوس نزلاً (٣) » . وغبت : أتت عليها زمان ، اذا غبت الأمور فبقيت أيلما » .

ولا يقف الأصمعي عند الشواهد من الشعر والقرآن والحديث ، وإنما يكثر من الأمثال أيضاً ولا سيما تلك التي ترد اشارة اليها في أبيات العجاج ، ومن أمثلة ذلك ما قاله في شرح البيت (٤) :

فِي بَيْتٍ لِحُورٍ سَرَى وَمَا شَعَرَ

اذ قال في شرحه : « وقوله « في بئر لاحور » ، يريد في بئر حور ، وهي بئر نقص ، سرى الحوروي وما شعر ، يقول : نقص وما درى . ولا : لغو . ويقال : فلان يعمل في حور ، أي في نقصان ، وأنشدنا عن أبي عمرو :

(١) انظر الأراجيز ٢٦ - ٣٢ ، فالشرح فيها يكاد يكون منعدماً .

(٢) الأرجوزة ١٠/٣٢ - ١١ .

(٣) سورة الكهف ١٨/١٠٨ .

(٤) الأرجوزة ٤٠/١ .

وَأَسْتَعْجِلُوا عَنِ خَفِيفِ الْمَضْغِ فَتَازِدَرَدًا

وَالذَّمُّ يَبْقَى وَزَادَ الْقَوْمُ فِي حُورٍ

وَمَثَلٌ مِنَ الْأَمْثَالِ يُقَالُ لِلرَّجُلِ إِذَا رَأَوْهُ يَنْقُصُ وَيُدْبِرُ أَمْرَهُ : « حُورٌ فِي تَجَارَةِ » ، أَي نَقُصَ فِي مَنَقِصَةٍ . يَقُولُ إِنْ الْحُرُورِيُّ سَرَى مِنْ أَمْرِهِ فِي فِي أَمْرٍ يَهْوِي بِهِ سَفَلًا فِي حُورٍ .

فَالأصمعي هنا جاء بشاهد من أمثال العرب ، وإذا كانت الأمثال ترد في مواضع متعددة من شرحه ، فهذا يذكرنا بما رأيناه منذ حين ، وهو أن الأصمعي قد أَلْفَ كتاباً خاصاً بالأمثال . وفي النص السابق ثمة إشارة إلى أمور نحوية ، وذلك في قوله « ولا : لَعَوُ » أي زائدة ، ومثل هذا قليل في شرحه نسبياً ، ذلك لأن الأصمعي لم يكن يعنى بالنحو عنايته باللغة ، ولهذا كان أبو زيد الأنصاري يُقَدِّمُ عليه في النحو .

واهتمام الأصمعي باللغة جعله يدقق في شرحه اللغوي ، ويحترز في عبارته ، ولا يلقي الكلام على عواهنه ، إذا لم يكن على ثقة تامة بما يقول ، ومثال ذلك شرحه لهذا البيت (١) :

دَيْثَ صَعْبَاتِ الْقِفَافِ وَابْتَارَ

فقد جاء في شرحه « وقوله « ابتار » ، قال : أظنه احتفّر ، اتخذ طريقاً واتخذ بئراً . ويقال : ابتاراً يبتسّرُ ابتساراً . قال : ومعناه أنه اتخذ طريقاً سهلاً . »

فهنا قال : « أظنه » ، ولم يلق رأيه بعبارة فيها يقين أو ما يشبه اليقين ، بل إنه لا يجد ضيراً أن يصرح بأنه لا يدري كنه أحد المعاني إذا استغلت عليه في بعض الروايات من رجز العجاج ، وبذلك لا يتعنت في شرحه ولا

(١) الأرجوزة ٤٥/١ .

يحمل نفسه على مواطن الزلل ، ومن أمثلة ذلك شرحه للبيت (١) :

هَشْمَكَ حَوَلِيَّ الْهَبِيدِ آرِكَآ

فقد نصّ على أن البيت يروى أيضاً « حولي الهبيد الراتكا » ، وبعد أن شرح الرواية الأولى ، قال : « الرتّك : أن تقارب الخطو وتسرع المشي . قال الأصمعي : وأما قوله « الهبيد الراتكا » فان هذا لا أدري ماهو » .

ويلاحظ في هذا النص أيضاً أن الأصمعي قد يورد أكثر من رواية للبيت إن وقف على روايات مختلفة له ، ومثل هذا كثير في شرح الديوان . والأصمعي لا يكتفي بالشرح اللغوي للألفاظ ، دون أن يتحدث عن أصل الكلمة الأعجمي إن كان لها ذلك ، فهو لا يمر بكلمة أعجمية ، الاّ وقف عندها وأشار الى أصلها باللغة الفارسية أو النبطية أو غيرها ، ومثال ذلك شرحه لهذا البيت (٢) :

نُغْشِيْمٌ مِنْ بَعْدِ شَلِّ صَائِكَا

اذ قال في شرحه : « الشلّ : الطرد ، ويقال شلّه شلاً . والصائك : الدم ، وأصله الذي له ربح ، أي منتن ، وقد أخطأ لأن الدم لا يكون له تلك الساعة ربح ، الاّ أنه أطلق عليه ما يؤول اليه ، وأصل الصائك بالنبطية صيقاً » .

فقد شرح الكلمة ثم ردها الى أصل معناها ، وفسر استعمال العجاج لها ، ومن ثم تحدث عن أصلها في اللغة النبطية ، وهذا الحرص اللغوي جعله يهتم في شرحه باللهجات العربية ، فاذا وقف على كلمة تختلف من لهجة الى

(١) الأرجوزة ٧/٥ .

(٢) الأرجوزة ٩/٥ .

أخرى في بنيتها أو معناها ، لم يغفل هذا الاختلاف ، وإنما وقف عنده بشرح
يرضي نزغته الى الدقة والاستقصاء في شرح ألفاظ اللغة ، ومثال ذلك شرحه
للبيت (١) :

حَتَّىٰ اشْفَتَرْتُمْ وَأَخْرَزْتُمْ مَرْفَضًا

وبما قاله في شرحه : « والمرفضُ : المتفرقُ . ومُنْفَضٌ : من
التفرق أيضاً ، يقال : لا يَفْضُضُ اللهُ فاك ، وقيس وقيم ومن دنا منهم
يقولون : لا يُفْضِ اللهُ فاك . »

وهذا الحرص اللغوي ربما دفعه الى نقد أستاذه أبي عمرو بن العلاء ،
وعدم الأخذ برأيه ، فاذا أورد أبيات العجاج (٢) :

كَالْبُرْدِ بَعْدَ الْجِدَّةِ الْمُرْعَبِلِ فَرَعْلَةٌ بِالْأَدَمِيِّ وَالْمَغْسَلِ
قال في شرحها : « قال : المرعبل ، المشقق . وفَرَعْلَةٌ : قطعة
من الناس ، قال ابو عمرو : فَرَعْلَةٌ ، أراد وَلَدَ الضَّبْعِ . وقال الأصمعي:
صَحْف . وَالْأَدَمِيُّ وَالْمَغْسَلُ مَوْضِعَانِ . »

فالأصمعي كان أدق من أبي عمرو في شرح البيت وفهمه ، وذلك لأن
« الرَّعْلَةَ : القطعة من الناس » ، ومعنى البيت أن الناس بعد أن أجهدهم
القحط وسوء معاملة الجبابة ، أصبحوا كأنهم برد مشقق بعد جدّة ، وغدت
قطعة منهم في هذا المكان واخرى في ذاك المكان .

والأصمعي في شرحه ربما أتى بأحكام تتصل بالنقد أو باللغة أو بضرائر
الشعر ، وربما أورد بعض الاخبار التي تفسر بعض الارجيز ، وتشرح
المناسبات التي قيلت فيها ، ولكن معظم هذه الاخبار ترد موجزة لا تفصيل

(١) الأرجوزة ٢٦/٦ .

(٢) الأرجوزة ١٣٢/١٧ - ١٣٣ .

فيها ولا استقصاء ، ومثال ذلك كله ما تجده في شرح الأبيات (١) :

فأصبَحَا بِنَجْوَةٍ بَعْدَ ضُرُرٍ مُسَلِّمِينَ مِن إِسَارٍ وَأَسْرٍ

وقال في شرحها : « قال : والنَجْوَةُ ، ما ارتفع من الأرض ، أي أصبحا بمكان مرتفع عن الأذى بعد ضرر ، يريد عاصماً وحييّاً . يقول : أصبحا بِحُسْنِ حال بعد ضُرٍّ من إِسَارٍ وَأَسْرٍ ، قال : لما اختلف اللفظان حسن التكرير ، وإنما يقال : إِسَارٍ وَأَسْرٍ ، فاحتاج إليه فجره . قال : وكانا لَصَيْنٍ ، فأخذهما مروان وكان على اليمامة والمدينة ، فرفعهما الى سجن المدينة . قال فشفع الى عبد العزيز بن مروان فأعانه على شيء من أمرهما . والذي نعلمه من أخبار الأصمعي أن أكثر روايته كانت عن الأعراب ، وهذا يظهر أيضاً في شرحه لديوان العجاج ، فاذا وقفنا عند البيت (٢) :

وَعَهْدَ إِخْوَانِهِمْ كَانُوا الْوَزَرَ

وجدناه يشرح الوزَرَ بالملجأ ، ثم يقول : « قال الأصمعي : وحدثني شيخ من غنبي (٣) قال : قلت لأعراب نزلت عندهم مُمَسَّى : هل من مرعى ؟ فقالت امرأة منهم : نعم ، انظر بأقبال الأوزار ، تعني بتلك الجبال » .

وإذا كان الأصمعي قد اشتهر بأنه صاحب ملح ونوادر وأخبار ، فهذه كلها قد تركت آثاراً في شرحه ، فهو لا يترك مجالاً لادخال نادرة أو خبر طريف الا أورده واتخذ منه ما يريح قارئه أو سامعه من عناء اللغة ومشكلاتها ، ومثال ذلك شرحه للبيت (٤) :

-
- (١) الأرجوزة ١١/٢ - ١٢ .
 - (٢) الأرجوزة ٨/١ .
 - (٣) غنبي : حي من غطفان .
 - (٤) الأرجوزة ٩٨/١ .

كَجَمَلِ الْبَحْرِ إِذَا خَاضَ جَسَرَ

فقد شرح جَمَلِ الْبَحْرِ بأنه سمكة طولها ثلاثون ذراعاً ، أقل وأكثر،
ولما فرغ من شرح البيت تماماً ، قال : « قال الأصمعي : قال خلف :
قلت لأعرابي خبثت نفسه عليّ وكسل ، وأردت أن أنشطه : إن في البحر
سمكة طولها ستون ذراعاً تسير السفينة رأسها عند رأسها ، وذنبها عند ذنبها .
قال : أشهد أن أمر الله حق - وطابت نفسه - والله ماهي بسمكة انها
لشيطان ! » .

ومثل هذا ما تجده في شرح الأبيات (١) :

وَبَلَدَةٍ لِمَاءَةِ الْأَكْنَافِ قَلُوبٌ غَاشِيَا عَلَيَّ انْحِرَافِ

وقال الاصمعي في شرح الثاني : « وقوله « على انحراف » ، يقول : من
غشيا فانه منحرف ليس بمطمئن . قال الاصمعي : قال اعرابي ، وسمع
رجلاً يقرأ « ومن الناس من يعبد الله على حَرْفٍ (٢) » ، فقال : اللهم اجعلنا
من يعبدك على حَرْفَيْنِ » .

فالأصمعي اذن لا يتخلى عن الملح والنوادر ان وجد اليها منفذاً ، بل
يجعل منها ما يشبه الاستراحة أحياناً من تلك التزاحم اللغوي في رجز العجاج
او شرح الاصمعي له .

ومن المهم جداً أن نشير الى أن الأصمعي قد تنبه في شرحه الى ظاهرتين
خطيرتين ، الأولى ظاهرة الانتحال في رجز العجاج ، والثانية ظاهرة
الاضطراب في نسبة بعض الأبيات الى العجاج والى غيره من الشعراء .

(١) الأرجوزة ١/٨ - ٢ .

(٢) سورة الحج ١١/٢٢ والحَرْفُ في الآية : الشك ، اي على شك في
عبادته ، شبهه بالحال على حرف جبل في عدم ثباته . ولم يفهم الاعرابي
هذا المعنى .

أما ظاهرة الانتحال فقد أشار إليها في موضعين ، إذ شرح البيت (٥٢) من الأرجوزة (١) ثم قال : « قال الأصمعي : أظن هذا البيت مصنوعاً ، أظن ناساً وضعوه يتيمنون به ، فأسقط هذا البيت » . وفي مقدمة الأرجوزة (٥) قال : « وقال العجاج أيضاً في قتال الأزدي وبني تميم في دم عمرو بن مسعود . قال : وهي تَتُّهُمْ » . ففي الموضع الأول أشار إلى انتحال بيت في إحدى الأراجيز ، وفي الموضع الثاني أشار إلى اتهام أرجوزة بكاملها ، وهذا يعني أن الأصمعي لم يغفل عن هذه الظاهرة الخطيرة في رجز العجاج .
وأما ظاهرة الاضطراب فقد أشار إليها في موضعين أيضاً ، إذ شرح هذين البيتين للعجاج (١) :

يُمْكِنُ السِّيفَ إِذَا الرُّمْحُ انْطَرَّ فِي هَامَةِ اللَّيْثِ إِذَا مَا اللَّيْثُ هَرَّ
ثم قال بعد شرحها : « قال الأصمعي : قال العلقم بن جحل ، وهو مع أبي موسى أو خالد بن الوليد بنهر المرأة (٢) :

مَنْ يَرْنَا يَوْمَ الْمَدَارِ وَالنَّهْرِ بِبَطْنِ مَيْسَانَ وَقَدْ حَقَّ الْحَدَرُ
حَوْلَ أَمِيرٍ صَادِقٍ ثَبَتَ الْغَدْرُ يُمْكِنُ السِّيفَ إِذَا الرُّمْحُ انْطَرَّ
في هَامَةِ اللَّيْثِ إِذَا مَا اللَّيْثُ هَرَّ » .

وكانه يشير هنا إلى التداخل في رواية أبيات العجاج وأبيات العلقم بن جحل ، ولهذا نظائر كثيرة في رواية الشعر العربي القديم ، وقد أشار إلى مثل هذا أيضاً في الأرجوزة (١٦) إذ قال بعد البيت (٣٠) : « قال الأصمعي : بعضهم يجعل من هذا لدهلب القرعي . قال أبو سعيد : وسمعت عقبة بن روبة ينشدها للعجاج » ، فقد أشار إلى أن بعض الرواة قد نسب

(١) الأرجوزة ٩٦/١ - ٩٧ .
(٢) نهر المرأة : نهر بالبصرة ، انظر معجم البلدان ٣٢٣/٥ .

عدداً من أبياتها الى دهلج ثم صحح روايتها للعجاج بأنه قد سمعها عن عقبة بن ربيعة ينشدها للعجاج نفسه ، وعقبة في هذا حجة على غيره من الرواة .

وبذلك كان الأصمعي في شرحه واسع الآفاق ، فلم يترك مجالاً فيه فائدة الاطرقة ، ولكن اهتمامه بالشرح اللغوي ، واستطراده الدائم في سبيل استقصاء هذا الشرح ، كان أبرز ما يميز طريقته في شرح الديوان ، وهذه الطريقة لم تحتفظ بخصائصها لدى شراح الدواوين ومن الهم بعد الأصمعي ، وإنما جعل الشرح اللغوي يضمّر تدريجياً ، ويتجه الى التخفيف من الاستطراد، حتى كاد لا يشرح الا المعنى اللغوي المستعمل للكلمة في البيت ، في حين بدأ يتسع تدريجياً شرح المعاني للأبيات ، حتى غدا يحتل المكان الأكبر من شرح كل ديوان أو مجموعة مختارة .

٣ - مصادر مختلفة

في دراستنا لديوان العجاج ، أمكن أن نجد سنداً متصلاً لرواية أراجيزه الا أن ثمة ما يدعو الى نظرة أخرى شاملة الى رواية رجزه ومصادره بوجه عام ، ذلك لأن الأصمعي لم يكن بالراوي الوحيد لأراجيز العجاج ، وثمة ملحقات كثيرة أضفناها الى الديوان ، وهي متناثرة في مصادر اللغة والأدب والمعاجم والتراجم وما اليها ، ولا وجود لها في أصل الديوان ، ومثل هذه الملحقات ظاهرة أصبحت مألوفة لدى كل ديوان قديم ، وكان صناع تلك الدواوين أمثال الأصمعي وأبي عمر الشيباني وابن السكيت ومن الهم ، كانوا يصنفون للشاعر ديواناً يجمع كل ما وقعوا عليه من أشعاره أو كل ما أعجبوا به أو اطمأنوا اليه من هذه الأشعار ، ومن ثم كانت تبقى هنالك أشعار أخرى متناثرة في مصادر المكتبة العربية ، ولا وجود لها في الديوان المصنف.

وهذا كله يدعونا أن نتعرف الطرّق التي وصل منها رجز العجاج ،
وأى طبقة من الرواة قد عُيّنت به واهتمت بنقله ، وفي معرفة ذلك كله
مايفيد حتماً في دراسة توثيق هذا الرجز ، وتعليل اختلاف رواياته ، أو
الاضطراب في نسبته ، أو ما داخله من رجز منقول عليه .

ولاشك أن أفراد أسرة العجاج وقبيلته كانوا على راس الرواة في حمل رجزه
ونقله من القرن الأول الهجري الى عصر التدوين في القرن الثاني ، فابنه
رؤبة كان أشبه براوية لأراجيزه وأخباره ، وعنه روى أبو عمرو بن العلاء
ديوان العجاج وعن أبي عمرو رواه الأصمعي (١) ، وكثيراً ما نجد روايات
لآيات العجاج أو شروحاً لها أو أخباراً حولها تُسند روايتها الى رؤبة بن
العجاج ، ومن ذلك مثلاً ما سبق أن ذكرناه من اختلاف أبي حاتم والأصمعي
حول بيت العجاج (٢) :

جأباً ترعى تليلاً مسحاً

ونقل ابن جني هذا الخلاف فقال : « قال أبو حاتم : قرأت على
الأصمعي في جيمة العجاج : (البيت) ، فقال : (تليلاً) ، فقلت :
بليته . فقال : هذا لا يكون ، فقلت : أخبرني به من سمعه من فلق
في رؤبة أعني أبازيد الأنصاري .. الخ (٣) » .

فأبو حاتم يحتج على الأصمعي برواية رؤبة للبيت ، وأمثال هذا كثير
في مصادرنا المختلفة . وأما رواية رؤبة لأخبار أبيه ، فمن ذلك ما رواه صاحب
الأغانى فقال : « أخبرني محمد بن الحسن بن دريد ، قال حدثنا أبو حاتم عن
أبي عبيدة عن رؤبة ، قال : لما ولي الوليد بن عبد الملك الخلافة بعث بي

(١) فهرسة ابن خير ٣٩٣ .

(٢) الأرجوزة ٧٩/٣٣ .

(٣) الخصائص ١/٣٦٦ - ٣٦٧ ، وانظر نزهة الالباب ٢٥٣ .

الحجاج مع أبي لنقاء^(١) الخ .
 وروايته لأخبار العجاج جعلته يروي عنه أيضاً الحديث ، ومن ذلك ما نقله صاحب الأغاني فقال : « أخبرني عبد الله بن أبي داود السجستاني قال حدثنا عبد الله بن محمد بن خلاد قال حدثنا يعقوب بن محمد الزهري قال حدثنا محمد بن إبراهيم عن يونس بن حبيب عن روبة بن العجاج عن أبيه قال : أنشدت أبا هريرة^(٢) :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي تَعَلَّتْ بِأَمْرِهِ السَّمَاءُ وَاسْتَقَلَّتْ
 بِإِذْنِهِ الْأَرْضُ وَمَا تَغَيَّتْ أُرْسَى عَلَيْهَا بِالْجِبَالِ الثَّبَتِ
 الْبَاعِثُ النَّاسَ لِيَوْمِ الْمَوْقِثِ

قال أبو هريرة : أشهد أنك تؤمن بيوم الحساب^(٣) .

وقال أبو الفرج أيضاً : « أخبرني محمد بن خلف عن وكيع قال حدثنا عبد الله بن عمرو عن محمد بن اسحق السهمي عن أبي عبيدة الحداد قال : حدثنا روبة بن العجاج عن أبيه قال : سمعت أبا هريرة يقول : السواك يُدْرِبُ وَضَرَ الطَّعَامِ^(٤) .

فروبة كان راوية لأراجيز أبيه وأخباره ، وقد كان الى ذلك كثيراً ما يسأل عن شروح بعض الأبيات أو عما فيها من مشكلات ، ومن ذلك مثلاً ما نقله المرزباني فقال : « أخبرنا أبو بكر الجرجاني قال : حدثنا أبو العيلاء ، قال : سئل الأصمعي عن بيت العجاج^(٥) :

(١) الأغاني ٦٠/٢١ وانظر الأغاني أيضاً ١٢٤/١٨ .
 (٢) الأرجوزة ١/٢٢ - ٣ ، ٥ ، ٨ ، وفي رواية الأغاني اختلاف واسع عن رواية الديوان .
 (٣) الأغاني ٥٨/٢١ .
 (٤) الأغاني ٥٨/٢١ .
 (٥) الأرجوزة ٨/٢٤ ، ورؤية ردية الى الواو فقط ، وأورده صاحب القاموس بالواو والياء معا .

غَيَّرَ ثَلَاثَ فِي الْمَحَلِّ صِيَمٍ

وأصله الواو : قال حدثني عيسى بن عمر قال : سألت رؤبة عن هذا فقال : - تيه به في المثمين ، هو صوم^(١) .

وقال المرزباني أيضاً : « أخبرني الصولي قال : حدثنا القاسم بن اسماعيل قال : حدثنا محمد بن سلام ، قال : سمعت يونس يقول : كان رؤبة عندي ، فقال له رجل : مامعنى قول العجاج^(٢) :

وَحَبَسَ النَّاسُ الْأُمُورَ الْحُبْسَا

فقال له رؤبة : قلبه ويلك!^(٣) .

وهكذا كان رؤبة راوية لأراجيز أبيه ، شارحاً لما يسأل عنه من معانيها أو أبنيتها ، غير مغفل لما يوضح أمرها من أخبار أحياناً ، وكأنه بذلك من طبقة أولئك الرواة العلماء الذين ستتحدث عنهم بعد قليل .

ورؤبة كان له من الأبناء عبد الله بن رؤبة ، وعقبة بن رؤبة ، ولا شك أنها قد أسها أيضاً في رواية أراجيز العجاج وأخباره ، وقد نقل الينا بعض الأخبار التي تشير إلى ذلك ومنها قول البغدادي : « قال أبو القاسم الزجاجي في أماليه الوسطى والصغرى أخبرنا أبو عبد الله محمد بن العباس اليزيدي قال أخبرنا أبو الفضل الرياشي عن الأصمعي عن عبد الله بن رؤبة بن العجاج عن أبيه عن جده قال : أنشدت أبا هريرة .. الخ^(٤) ، ومن ذلك أيضاً مقاله المرزباني : « قال الأصمعي . وأنشدني عقبة بن رؤبة :

وَدَغِيَّةٍ مِنْ خَطِلٍ مُغْدَوْدِنٍ

-
- (١) الموشح ٢١٨ .
 - (٢) الأرجوزة ٦٤/١١ ورواية الديوان : « وحبس الناس الأمور » .
 - (٣) الموشح ٢١٨ - ٢١٩ .
 - (٤) خزانة بولاق ٥٠٩/٣ .

وإنما هو دغوة ، يقال : فلان ذو دغوات أي سقطات (١) .
وهذا البيت لرؤبة بن العجاج (٢) ، وقد أنشده عقبة بن رؤبة ، وقد
أشرنا في بحث سابق إلى أن عقبة هذا لم يُحفظ عنه خبر غير التقائه مع
بشار بن برد عند عقبة بن سلم ، ولم يُنقل له بيت واحد من الشعر ،
وإنما ضاعت أخباره وأراجيزه ، ولا شك أنه فقد معها أيضاً كثير من
مروياته وأسانيده التي نقل فيها بعض الأخبار والأراجيز عن أبيه وجده .

ومن هنا نجد أن أسرة العجاج من ولده وأحفاده قد أسهمت دون ريب
في رواية رجزه ، وكذلك أخوه العباس ، إذ قال الجاحظ : إنه كان « علامة
علماً ، ناسباً راوية (٣) » ، وإذا كان راوية ، فلا يعقل أن يروي أشعار الناس
من دون أراجيز أخيه العجاج ، بل ينبغي أن يكون العباس من أفراد
أسرة العجاج الذين كان لهم الدور الأول في رواية رجزه .

ولم تكن أسرة العجاج هي الوحيدة التي نقلت رجزه إلى عصر التدوين،
وإنما كانت قبيلته أيضاً لها حظ في ذلك ، شأن أي شاعر آخر من شعراء
أدبنا القديم ، فالقبيلة كانت تحفظ أشعار شعرائها منذ الجاهلية ، واستمر بها
الأمر على هذا النحو في الإسلام وذلك لما رأيناه من استمرار الأساس القبلي
في تكوين المجتمع الإسلامي لذلك الحين ، وربما بلغ الأمر بأحد أفراد قبيلة
العجاج أن ينتحل رجزه وينسبه إلى نفسه ، فقد نقل الجرجاني بسنده أن أبا
نخيلة (٤) الراجز قال : « وفدت على مسامة بن عبد الملك وقد مدحته

(١) الموشح ٢١٨ .
(٢) في المعاني الكبير ٧٩٦/٢ ، وشرح القاموس مادة (غدن) .
(٣) البيان والتبيين ٣٥٦/١ .
(٤) سبق التنبيه إلى أن اسمه تحرف في الوساطة فجاء «أبا بجيلة»
بالباء والجيم .

فأكرمني وأنزلني ، ثم قال لي : مالك والقصيد وأنت من بني سعد ، عليك بالرجز فقلت : أولست بأرجز العرب ؟ فقال : اسمعي ، فأنشدته :

ياصاحِ ماشاقكِ من رَسْمِ خالٍ . . . ودِمنَةِ تَعْرِفُها وأطلالٍ .

وهو من قول العجاج^(١) ، فلما سمع أولها أصاخ ، فلما أسهبت فيها قال : أمسك ، فنحن أروى لهذا منك ! وظننته مقتني فما أصبت منه خيراً^(٢) .

ولا يهينا في هذا الخبر الآن ما يدعيه أبو نخيلة لنفسه من رجز العجاج ، وإنما يهينا أن أبا نخيلة قد حفظ رجز العجاج ، وكلاهما من قبيلة بني سعد من تميم ، وهذا يؤيد ما قلناه من أن قبيلة العجاج نفسها كانت تحفظ أراجيزه وترويه ، ولم تكن كلها كأبي نخيلة في هذا الانتحال والادعاء ، ومع ذلك فخبير أبي نخيلة هذا يمكن أن يهينا منذ الآن على بعض الأسباب للاضطراب في رواية رجز العجاج .

فأسرة العجاج وقبيلته قد كان لها اليد الطولى في رواية رجزه خلال القرن الهجري الأول ، أضف إلى ذلك أن العجاج نفسه ربما كان يحسن الكتابة ، يدل على ذلك كثرة ما أورده في رجزه من تشبيه الأطلال بآثار الكتابة ، وقد رأينا أمثلة لذلك في موضع سابق ، وإذا كان العجاج يحسن الكتابة فهذا يعني أنه قد أسهم هو أيضاً بتدوين طائفة من رجزه على الأقل ، فكان ذلك عوناً للرواة من بعده ، أو لبعض الرواة الأقربين منه أو من ولده رؤبة .

ولعل أراجيز العجاج كلها أو بعضها قد دُوِّنت قبل الاصمعي ، فقد

(١) ملحقات الديوان ١/٦٤ - ٢ .

(٢) الوساطة ١٥٢ .

ذكر الآمدي كتاباً لبني سعد^(١) ، وذكر ابن النديم كتاباً آخر لبني تميم^(٢) ،
وبنو سعد من أحياء تميم ، وإذا جُمِعَتْ أشعار تميم فليس من شك في أنها
تضم أشعار بني سعد ، ذلك لأن كتاب القبيلة كان يضم شعر شعرائها أو
بعضهم ، وينقل ما يتصل بهذا الشعر من أخبار أو قصص أو أنساب أحياناً^(٣) ،
وهذا يعني أن رجز العجاج قد جُمع كله أو بعضه في كتاب بني سعد أو
كتاب بني تميم .

وقد نشط تصنيف دواوين القبائل منذ أواخر القرن الهجري الثاني على
أيدي أبي عبيدة معمر بن المثنى والأصمعي من علماء البصرة ، والمفضل الضبي
وأبي عمرو الشيباني من علماء الكوفة ، إلا أن ثمة من الأخبار ما يدل « على أن كتب
القبائل كانت مكتوبة مدونة قبل مطلع القرن الثاني الهجري ، وأن العلماء الرواة من رجال
الطبقة الأولى — في القرن الثاني — قد وصلتهم هذه المدونات من القرن الأول
الهجري فاعتمدها مصدراً من مصادر تدوينهم نسخهم الخاصة التي نسبت روايتها
اليهم^(٤) .

وبما يؤيد هذا الرأي ماورد في خبر دخول الأصمعي لأول مرة على
الرشيد ، وفيه يقول الأصمعي : « قال- الرشيد : احسنت ، أرويت للعجاج
ورؤية شيئاً ؟ قلت : هما يا أمير المؤمنين يتناشدان لك بالقوافي وإن غابا
عنك بالأشخاص . فمدّ يده فأخرج من تحت فراشه رقعة ، ثم قال : اسمعني .
فقلت :

(١) المؤلف والمختلف ٦٩ .

(٢) الفهرست ٢٢٦ .

(٣) انظر مصادر الشعر الجاهلي ٥٥١ - ٥٥٤ .

(٤) مصادر الشعر الجاهلي ٥٥٨ .

أرقني طارقُهمَّ طارقاً

فمضيت فيها مضيّ الجواد في سنن ميدانه .. الخ (١) .

ووجود « رقعة » عند الرشيد فيها رجز للعجاج أو لرؤبة بن العجاج ، يعني أن بعض هذا الرجز على الأقل قد دون قبل اشتهار أمر الأصمعي ، ذلك لأنه لم يحظ بهذه الشهرة الا بعد أن اتصل بالرشيد ، واختص بمناذمته ومجالسته .

وبذلك كانت الرواية والتدوين قد اجتمعا معاً في الحفاظ على أراجيز العجاج ونقلها من القرن الأول إلى القرن الثاني ، ومن ثم أصبحت أراجيزه بين أيدي الطبقة الأولى من الرواة العلماء (٢) ، أمثال أبي عمرو بن العلاء ، وعبد الملك بن قريب الأصمعي ، وأبي عبيدة معمر بن المثنى ، وأبي زيد الأنصاري ، وأبي عمرو الشيباني ، ثم الطبقة الثانية من هؤلاء الرواة ، أمثال أبي حاتم السجستاني ، وأبي إسحق الزبدي ، وأبي الفضل الرياشي ، وعبد الرحمن بن أخي الأصمعي .

وقد سبق القول في تفصيل أمر هؤلاء الرواة ، وسبق القول أيضاً في أن ديوان العجاج قد رواه الأصمعي عن أستاذه أبي عمرو بن العلاء عن رؤبة ابن العجاج عن أبيه العجاج ، وكثيراً ما نجد في مصادرنا روايات لأبيات العجاج تسند إلى أبي عمرو بن العلاء ، أو الأصمعي ، أو أبي عبيدة ، أو أبي زيد ، أو من تلامه من تلامذة أخذوا عنهم ، واستنوا طريقهم في الرواية والعلم معاً .

(١) العقد الفريد ٦/١٦١ (طبعة القاهرة ١٣٥٩ هـ) ، وأورد المرتضى هذا الخبر في أماليه ٩٨/٣ .

(٢) انظر طبقات الرواة في مصادر الشعر الجاهلي للدكتور ناصر الدين الاسد ٢٢٢ - ٢٥٤ .

وكثيراً ما نجد اختلافاً في روايات بعض الأبيات بسبب اختلاف هؤلاء الرواة العلماء ، ومثال ذلك ما قاله السيوطي : « الأحوزي مثل الأحوزي ، وهو السائق الحفيف عن أبي عمرو ، قال العجاج ^(١) :
يَحُوزُهُنَّ وَلَهُ حُوزِيُّ

وأبو عبيدة يرويه بالذال ، والمعنى واحد ^(٢) » .

وهناك شروح كثيرة لقدمى الرواة ، تتناول بعض أبيات العجاج ، وهي متناثرة في مصادر الأدب واللغة ، ومنها مثلاً ما نقله أبو بكر بن دريد فقال : « .. وأوحى يوحي إيجاء ، فالوحي من الله عز وجل إلهام ، ومن الناس إيماء .. قال أبو عبيدة ، وقد روى بيت العجاج ^(٣) :

وَحَى لَهَا الْقَرَارَ فَاسْتَقَرَّتِ وَسَدَّهَا بِالرَّاسِيَاتِ الثَّبَاتِ

و (أوحى لها) أيضاً . قال أبو بكر : سألت أبا حاتم عن هذا فضجّ ، فقال : لا تزال تسألني عما أكره ، ثم قال : يا بني قال أبو عبيدة : وحى لها القرار ، أي كتب لها ذلك ، وأوحى لها القرار لقوله عز وجل (انبأ طوعاً أو كرهاً ، قالتا أتينا طائعين) ^(٤) هذا لفظه ، وقال مرة أخرى : قالتا اتينا طائعين ، أي قال لاهل السموات والأرض ، فاكفى بذكر السموات والأرض ^(٥) .
وأما هذه الروايات والشروح كثيرة جداً ، وقد عملت جهدي في التنقيح

(١) الأرجوزة ١٧٨/٢٥ ، ورواية الديوان : «يحوذها وهو لها حوزي» .

(٢) المزهري ١/٥٦٠ .

(٣) الأرجوزة ٤/٢٢ - ٥ .

(٤) سورة فصلت ١١/٤١ وتتمام الآية : « ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً . قالتا : اتينا طائعين » .

(٥) جمهرة اللغة ١٩٨/٢ .

عنها ، أثناء تحقيق الديوان .
 فأراجيز العجاج قد حملتها الرواية والكتابة إلى هؤلاء الرواة العلماء . في
 القرن الثاني ، ومن ثم أصبحت ألسنة اللغويين والنحاة تلهج بها قوياً بعد
 قرن ، لما في هذه الأراجيز من شواهد لاتعد ولا تحصى على معاني اللغة ،
 وأبنية الألفاظ ، وطرائق الاشتقاق ، وغرائب الاستعمال ، ولهذا كان
 يقال : « أشعر الناس العجاجان ، أي رؤبة وأبوه (١) » ، وهذا إنما يمثل
 آراء اللغويين والنحاة فيه ، يدل على ذلك قول الأصفهاني : « أخبرني ابن
 دريد ، قال أخبرني عبد الرحمن ابن أخي الأصمعي عن عمه قال قيل ليونس :
 من أشعر الناس ؟ قال : العجاج ورؤبة . فقيل له : ولم ، لم نعن
 الرّجّاز ! فقال : هم أشعر من أهل القصيد ، إنما الشعر كلام ، وأجوده
 أشعره ، قال العجاج (٢) :

قَدَّ جَبَرَ الدِّينَ الْإِلَهَ فُجَبَّرَ

فهي نحو مائتي بيت موقفة القوافي ، ولو أطلقت قوافيها ، كانت كلها
 منصوبة . قال : وكذلك عامة أراجيزهما (٣) . فيونس ، وهو من النحاة ،
 معجب بالعجاج ورؤبة ، مقدم لهما على أهل الرجز والقصيد ، ومصدر إعجاب
 هو جودة الكلام ، وجودة الكلام بينها على أساس لغوي إذ يرى في قدرة
 العجاج على اللغة في أرجوزته تلك دافعاً الى تقديمه على أقرانه من رجاجز
 ومُقصدّين .

وهذه القدرة اللغوية هي التي شهرت رجز العجاج في أوساط أهل اللغة

-
- (١) الصحاح ٣٢٧/١ ، والمقاصد النحوية ٢٦/١ ، واللسان (عجاج) .
 (٢) مطلع الأرجوزة (١) من الديوان .
 (٣) الأغاني ١٢٤/١٨ و ٥٩/٢١ ، ونقله ابن رشيق في العمدة ٥٦/١ ،
 والبغدادي في الخزانة ٩٢/١ ، والسيوطي في الزهر ٤٨٤/٢ .

والتحو ، حتى كانت الإشارة اليه تكفي لتعريفه وتعريف موضع الشاهد من رجزه ، ومثال ذلك ما قاله ابن فارس : « فالدخس أن يندس الشيء في التراب ، ولذلك سمى الراجز الأثافي دخساً (١) » .

وهو في ذلك إنما يشير إلى بيت العجاج في وصف آثار الديار (٢) :

فاطرقت إلا ثلاثاً دخساً

ولهذا ينبغي أن نتوقع انتشار أراجيز العجاج في تلك المصادر التي عنيت بجمع اللغة أو تناولت بالتصنيف مشكلات اللغة وظواهرها من فقه واستقاق وغريب ونوادر وما أشبه ذلك ، لأن في رجز العجاج ذخراً واسعاً من الشواهد على هذا كله ، ولذا كانت أمثال هذه المصادر في مقدمة مصادر رجز العجاج ، ولا سيما المعاجم منها ، حتى إننا عددنا في كتاب الألفاظ لابن السكيت (١١٠) أبيات للعجاج ، وفي جمهرة اللغة لابن دريد (٤٢٨) بيتاً ، وفي مقاييس اللغة لابن فارس (١٥٣) بيتاً ، وفي الصحاح للجوهري (٣٨٨) بيتاً ، وفي الأساس للزخشي (١١٠) أبيات ، وفي المحمص لابن سيده (٢٠٩) أبيات ، وفي اللسان لابن منظور (٨٠٩) أبيات من أصل الديوان وحوالي (٣٠٠) بيت من الملحقات ، ولو عددنا الأبيات المكررة لكادت هذه الأرقام تتضاعف في هذه المعاجم ولا سيما في اللسان .

وهذه المصادر اللغوية جميعاً إنما تورد أبياتاً للعجاج لتكون شاهداً على معنى من المعاني ، أو بنية لفظ من الألفاظ ، أو أصل كلمة من الكلمات . ولهذا الغاية أيضاً كانت كتب التفسير وما يتصل بها من كتب صنفت في غريب القرآن ، أو مشكاه ، أو مجازه ، أو ما أشبه ذلك ، هي من المصادر

(١) مقاييس اللغة ٣٣٤/٢ .

(٢) الأرجوزة ٩/١١ .

الرئيسية لرجز العجاج ، ولهذا أمكن أن نعد في مجاز القرآن مثلاً لأبي عبيدة (٢٧) بيتاً من رجز العجاج .

ثم كانت كتب النحو على اختلافها من مصادر رجز العجاج أيضاً ، وذلك لما في رجزه من شواهد كثيرة تؤيد ماصنعه أوائل النحاة من قواعد اللغة ، أو لما فيه من خروج على تلك القواعد أحياناً ، ومن ثم كان الخلاف يتسع بين النحاة ، منهم من يحاول أن يوجد له تعليلاً ، ومنهم من يذهب به إلى الشذوذ في الاستعمال ، وحسبنا أن سيبويه قد احتجّ بأبيات للعجاج ، أو بأبيات تنسب إليه ، في (٢٧) سبعة وعشرين موضعاً من كتابه ، وهذه نسبة كبرى إذا ما قيست بسائر الشعراء الذين احتجّ بهم سيبويه في الكتاب ، وإذا عدنا إلى مجالس ثعلب أو الخصائص لابن جني مثلاً ، وجدنا في الأول (٢٧) بيتاً للعجاج ، وفي الثاني (٤٥) بيتاً ، مما يؤكد اهتمام هذا النوع من المصادر بـرجز العجاج .

ثم تردّ مصادر الأدب والنقد والمعاني ، وقد أورد كل منها طائفة من رجزه ، ولكنها قليلة نسبياً إذا ما قورنت بالمصادر السابقة ، حتى إن كتاب الأغاني مثلاً لم ينقل من أراجيز العجاج إلاّ ثمانية أبيات متفرقة وردت في ثنايا أخباره ، ولم ينشد الجاحظ من رجزه غير (١٦) بيتاً في البيان والتبيين ، و (٩) أبيات فقط في كتاب الحيوان ، إلاّ أن هذه المصادر ربما طالعنا بشيء من أخباره ، أو أغلظه ، أو بعض خصائص رجزه أو أحكام النقاد القدامى فيه ، ولذلك فهي من المصادر الهامة جداً لرجز العجاج ودراسته معاً .

ويتلو ذلك منزلة تلك المصادر التي تناولت شرح بعض الدواوين أو المختارات أو اهتمت بجمع الأمثال ، أو صنّفت على شكل رسائل في موضوع من الموضوعات ، أو تعرضت لطبائع الحيوان ، أو ألّفت في الأماكن

والبندان ، فهذه المصادر جميعاً إنما تورد بعض ما يتصل بموضوعها من الشواهد ، وكثيراً ما نجد في بعضها تحريفاً أو اضطراباً في الرواية .
وأما كتب البلاغة فلا قيمة لها في دراسة رجز العجاج ، ولولا بيت العجاج^(١) :

ومقلة وحاجبا مزججبا وفاحما ومرسنا مسرجبا
لما كان له ذكر في هذه المصادر ، إلا أن البيت الثاني لا يخلو منه كتاب من كتب البلاغة ، وذلك لأن الإغراب في قوله « مسرجا » قد أصبح من شواهد البلاغيين طراً .

وهناك مصادر أخرى في المكتبة العربية ، ولا وجود فيها لأشعار العجاج وهي كتب التاريخ ، والسيرة^(٢) ، والديانات ، والمذاهب والفرق ، والكتب التي عاجلت أبحاثاً عامة في الديانة الإسلامية ، وصفات الله وأسمائه ، والملائكة والكتب المقدسة ، والأنبياء والرسل ، والقضاء والقدر ، وما يتفرع عن هذه الأبحاث جميعاً^(٣) .

فهذه المصادر كلها لم نقف على أي بيت فيها للعجاج ، وأكثرها بعيد كل البعد عن ذكره مع أنها تحدثت عن بعض معاصريه ، وهذه المصادر أكثرها غير موثق فيما تناولته من أشعار ، ولا سيما كتب التاريخ منها ، لأن أصحابها لا يمتنون بصلة إلى رواية الشعر أو نقده ، وأكثر الشعر المنحول على أمة بن أبي الصلت مثلاً ، قد حماته إلينا أمثال هذه المصادر من كتب التاريخ والسيرة وما إليها ، أما المصادر التي تناولت طرفاً من رجز العجاج ، فهي من المصادر

(١) الأرجوزة ٣٣/٣٩ - ٤٠ .

(٢) ماعدا الروض الأنف ، وهو من شروح السيرة ، لا كتاب في السيرة نفسها .

(٣) كل ما رجعنا إليه من هذه المصادر أثبتناه في ثبت المصادر والمراجع .

الموثوق بها بوجه عام ، وإذا رأينا فيها بعض آثار التحريف أو الاضطراب في الرواية ، فهذا أمر لا ينجو منه شاعر قديم في تاريخ أدبنا العربي ، وإذا وقفنا على بعض الأبيات التي نرجح أن تكون منحولة ، فهذا لا يعدو كتب النحو بوجه خاص ، ذلك لأن الصراع بين النجاة ربما قاد بعضهم أحياناً إلى صنع ما يؤيده من شواهد ، ومثل هذا لا يخفى منه طابع الوضع والتلفيق ، ولذلك كانت مصادر العجاج بوجه عام لا مجال إلى اتهامها أو النيل من توثيقها، وكل ما يمكن لنا أن نشير إليه هو وجود بعض الشواهد القليلة المتهمة في كتب النحو وهي لا تجعل من السائغ أن نتهم كتب النحو كلها ، أو أن نعتبرها كتباً غير موثوق بها ، شأن اتهامنا لابن إسحق في السيرة^(١) ، أو للمقدسي في كتابه البدء التاريخ^(٢) . والفصل القادم سيكون خاصاً بدراسة هذا الجانب من رجز العجاج .

(١) انظر دراستنا لأمية بن أبي الصلت ٥٣ - ٥٦ .

(٢) المصدر السابق نفسه ٥٩ .

الفصل الثالث

توثيق رجز العجاج

أشرنا في مواضع سابقة إلى ظاهرتين كان الأصمعي قد تنبه اليهما في رجز العجاج ، وهما ظاهرة الانتحال ، وظاهرة الاضطراب في الرواية ، وفي هذا الفصل نودّ أن نبسط القول في كل منهما ، وذلك لنوثق أراجيز العجاج قبل أن نمضي في الفصول التالية إلى دراسة خصائصها المختلفة .

١ - الانتحال في رجزه

إن ظاهرة الانتحال لم تقتصر على شعراء ما قبل الاسلام ، وإنما تبرز أحياناً لدى شعراء العصر الأموي ، ذلك لأن القرن الأول الهجري لم يتسع فيه نطاق التدوين اتساعه في القرن الثاني وما بعده ، إلا أن هذه الظاهرة تختلف في وضوحها واتساع أمرها من شاعر إلى آخر ، سواء كان الأمر في الجاهلية ، أم كان في عصر بني أمية ، إذ أن الأحداث نفسها كانت تحدد للقبائل والأحزاب أيّ شاعر يمكن أن يضاف إلى شعره بعض المنحول عليه ، وذلك تبعاً للصراع القبلي والحزبي الذي ضجّ في القرن الأول بعد الهجرة .

ومن هنا يمكن أن نتلمس ظاهرة الانتحال في رجز العجاج ، فهذا رجل لم يشتهر أمره على أساس ذلك الصراع الحزبي أو القبلي لعصره ، وإن كان قد مسّ بعض جوانب هذا الصراع في رجزه ، ولعل عدم شهرته بذلك

هو مادفع بالجاحظ إلى القول عنه : « وهو أعرابي ليس ببذي نحلة ، ولا صاحب خصومة ، وقد أدرك الجاهلية (١) » .

ولو اشتهر أمره بمثل هذه الموضوعات لكان حُمِلَ عليه شيء منها ، ولا سيما أن الأرجوزة التي اتهمها الأصمعي لا تخرج في موضوعها عن الصراع القبلي في البصرة .

ومعظم أراجيز العجاج كانت وقفاً على الصحراء وما فيها من صور رائعة ومثل هذه الأراجيز لاحاجة لأحد كي يضيف إليها أشعاراً منحولة عليها ، ولا سيما أن أسلوب العجاج في بنائه للأرجوزة بألفاظها وتراكيبها وموسيقاها كان لا يقوى عليه أبرع الوداعين حدقاً ومهارة ، ومع ذلك فقد أشار الأصمعي إلى موضعين من الديوان فيها شيء من آثار الوضع والانتحال ، وكنا أشرنا إلى هذين الموضعين ولكننا نعود إليها الآن ، لنحاول مناقشة ما فيها من وضع أو تلفيق .

فالعجاج وصف الجيش بالكثرة والجلبة ، فجعل من كثورته ليلاً ، ومن أصواته مطراً غزيراً ، فقال (٢) :

كأَنَّمَا زُهاوُهُ لِمَنْ جَهَرَ لَيْلٌ ، وَرِزُّهُ وَغَرُّهُ إِذَا وَغَرَ
سَارِي سَرَى مِنْ قِبَلِ الْعَيْنِ فَبَجَرَ عَيْطُ السَّحَابِ وَالْمَرَابِيعِ الْكُبَّرِ
وَزَفَرْتُ فِيهِ السَّوَابِي وَزَفَرَ بَغْرَةَ نَجْمٍ هَاجَ لَيْلًا فَبَغَرَ
مَاءُ نَسْأَصٍ حَلَبَتْ مِنْهُ فَدَرَ حَدَوَاءُ تَحْدُوهُ إِذَا الْوَيْلُ انْتَشَرَ

وفي شرح البيت السادس من هذه الأبيات قال الأصمعي : « وقوله (بغرة نجم) ، قال : فورة نجم . فَبَغَرَ ، يقول : فار بها . قال

(١) كتاب العثمانية للجاحظ ١٢٥ .

(٢) الأرجوزة ٤٧/١ - ٥٤ .

الاصمعي : اظن هذا البيت مصنوعاً ، اظن ناساً وضعوه يتيمنون به «
فأسقط هذا البيت » .

وأفضل ما في قول الأصمعي كلمة « اظن » ، فهو يظن أن البيت مصنوع ، ولذلك يدعو تلميذه إلى إسقاط هذا البيت وعدم روايته ، ومرد ذلك إلى أن في البيت روحاً جاهلية لا تتفق مع الشعر الاسلامي ، فالعرب قبل الاسلام كانوا يؤمنون بالأنواء ، وينسبون المطر الى النجوم ، فيقولون : « مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا (١) .. » ، وهذا كله قد أبطله الاسلام ، ولعل هذا مادفع الاصمعي إلى اتهام البيت وربما كان البيت موضوعاً فعلاً ، إلا أننا لانجد سيلاً إلى القطع بذلك ، لأن رجز العجاج قد نَقَلَ عدداً من المعاني الجاهلية التي لا يمكن أن تتهم لمجرد أنها معان جاهلية ، ذلك لأنها وردت في رجز أعرابي قد تمثل الاسلام على ما يبدو من رجزه ، ولكنه لم يستطع أن يتخلى عن بعض المعاني الجاهلية التي انطبعت في نفسه وهو بعيد في صحارى نجد ، ولا سيما أن هذه المعاني لا تخرج عن تصوير بعض العادات القديمة أو المعتقدات التقليدية التي لا تتعارض مع الاسلام تعارضاً واضحاً او جذرياً .

ولهذا يمكن القول إن البيت الذي شك فيه الأصمعي ، قد يكون مثاراً للشك والاتهام ، ولكنه لا يمكن القطع بوضعه وانتحاله .

وثمة موضع آخر أشار فيه الأصمعي إلى الانتحال في رجز العجاج ، وذلك في الأرجوزة (٥) من الديوان وأولها :

لَمَّا رَأَوْا مِنَّا إِبَادًا سَامِكًا مَرْدَى حُرُوبٍ يَفْرُجُ اللِّسَانِ كَا
وقال الأصمعي مقدماً لها : « وقال العجاج أيضاً في قتال الأزدي وبني تميم في دم مسعود بن عمرو . قال : وهي تتهم » .

(١) انظر اللسان مادة (نوا) .

ودراسة الأرجوزة تبرز بعض دواعي الشك فيها ، ومن ذلك موضوعها ، فهو يتصل بالفتنة التي شجرت بين القبائل في البصرة عقب وفاة يزيد بن معاوية وهرب واليه على البصرة عبيد الله بن زياد ، فخلت البصرة من أمير شرعي ، وبرز الصراع العصبي بين تميم المضرية والأزد اليمانية ، فجعلت تميم ترفع إلى الأمانة من شاءت ، وشرعت الأزد ترفع إليها من أرادت ، وبذلك قامت الحرب بينها ، وقتل مسعود بن عمرو العتكي بعد أن رفعته الأزد إلى إمارة البصرة^(١) . ومن ثم نجد في هذه الأرجوزة المنسوبة إلى العجاج فخرأ بالقضاء على الأزد وقتل زعيمها مسعود بن عمرو . ومثل هذا الموضوع يمكن أن يُنحَل الشعرُ بسببه ، لما فيه من أهداف عصبية بين القبائل ، ولا سيما أن للعجاج أرجوزة أخرى مؤثقة . تناول فيها فتنة البصرة وقتال الأزد وبني تميم ومقتل مسعود بن عمرو العتكي^(٢) .

ومما يؤيد ذلك أن في الأرجوزة بعض المآخذ التي أشار إليها الأصمعي نفسه ، ومنها ما علّق به على هذا البيت^(٣) :

هذا وَمِنَّا الْمُطِيرُ الرَّكَّائِكَا

قال الأصمعي : « أخطأ إنما كان ينبغي أن يقول : مِنَّا الْمُطِيرُ المطر الغزير ، فقال : الركاك ، وهو جمع رِكَاكٍ ، وِرِكَاكٍ جمع رِكٍ ، وهو المطر الضعيف » .

وأمثال هذا لا يصد عن العجاج ، إذ لا يمكن أن يضل في تحديد أوصاف

(١) تاريخ الطبري ٤/٤٠٣ - ٤٠٨ ، وتاريخ ابن الاثير ٤/٥٥ - ٥٧ ، وجمهرة الانساب ٣٥ ، وأسماء القتالين من الاشراف في نوادر المخطوطات ١٧١/٢ .

(٢) البيت ٢٧ من الارجوزة .

(٣) الارجوزة (٣٥) من الديوان .

وثيقة الصلة بالصحراء ، وهذا يرجح أن تكون الأرجوزة منجولة عليه بدافع من الصراع بين العصيات ، لأن هذا الصراع حمل كل قبيلة على التزيد من أمثال هذه الأشعار التي تصور أيامها وانتصاراتها على القبائل الأخرى .

فإذا عدنا إلى الأراجيز التي وردت في ديوان العجاج لم نجد موضعاً للشك في غير الأرجوزة السابقة ، وأما الملحقات التي أضفناها من مصادر مختلفة فالشك يلح في بعض المقطعات أو الأبيات التي وردت في كتب النحو بوجه خاص ، ذلك لأن الخلاف بين النحاة والخصومة القائمة بين مدرستي الكوفة والبصرة^(١) ، كانت من الأسباب التي أدت إلى نخل بعض أبيات الشواهد وعزوها للشعراء القدامى ، وكثيراً ما يقع الاضطراب في رواية هذه الأبيات وعزوها لهذا الشاعر أو لذاك . ومن هنا نجد مجالاً للشك والالتهم في بعض المقطعات التي عزيت للعجاج ، أو نسبت إليه وإلى عدد آخر من الشعراء أو الرجاز .

ومن المقطعات التي نشك فيها هذه الأبيات :

لقد رأيتُ عَجَباً مَدُّ أَمْسَا عَجَائِزاً مِثْلَ الْأَفَاعِي خَمْسَا
يَا كَلْنَ مَا فِي رَحْلَيْنِ هَمْسَا لَا تَرِكْ اللَّهُ لِهِنَّ خَيْرَسَا
وَلَا لَقَيْنَ الدَّهْرَ إِلَّا تَعْسَا فِيهَا عَجُوزٌ لَا تُسَاوِي فَلَئْسَا
لَا تَأْكُلُ الزُّبْدَةَ إِلَّا نَهْسَا

وقد وردت هذه الأبيات كلها أو بعضها في مصادر كثيرة جداً^(٢) ، وذلك لأن البيت الأول شاهد على أن بعض بني تميم يعربون « أمس » ويمنعونها من الصرف ، خلافاً لأهل الحجاز فهي عندهم مبنية على الكسر مطلقاً ، وكل من رواها أو روى أبياتاً منها كانت روايته دون نسبة إلى شاعر معين ،

(١) انظر هذه الخصومة في مصادر الشعر الجاهلي ٤٢٩ - ٤٣٨ .

(٢) انظر تخريجها في الديوان .

بل إن بعضهم قد صرح أنها من الشعر الذي لا يُعرَفُ قائله^(١) ، ولم ترد الإشارة إلى نسبتها للعجاج إلاّ عند البغدادي إذ قال : « والبيت الشاهد من أبيات سيبويه التي ما عرف قائلها ، وقال ابن المستوفي : وجدت هذه الأبيات الثمانية في كتاب نحو قديم للعجاج أبي رُوثة ، وأراه بعيداً من نمطه^(٢) » . ولم نجد منها إلا سبعة أبيات فقط .

والحق ما قاله ابن المستوفي فالأبيات بعيدة عن نمط العجاج في أراجيزه ، وقد يقال : إن لكل شاعر ضعيفاً وسقطاً ، وقد تكون هذه الأبيات من ضعيف العجاج وسقطه ، وهذه حجة لا تنكر ، ولولاهما لقطعنا بنجل الأبيات قطعاً ، إلا أن وضع النجاة للشواهد ، وتجاوفي هذه الأبيات عن أسلوب العجاج ، تجعلنا نشك فيها ، ويميل بها إلى الشعر المنحول عليه ، ولا يمنعنا من هذا الشك أن بعضها ورد في كتاب سيبويه ، لأن شواهد سيبويه لم تخل من بعض الأبيات المنحولة ، وإذا كنا نجل سيبويه عن ذلك ، فلا مرية أن مثل هذه الأبيات قد وضعت قبل تأليف سيبويه للكتاب .

ومن الرجز الذي نشك فيه أيضاً ، هذه الأبيات :

بِئْسَ بَجْسَانٌ وَمِعْزَاهُ تَسْبِطٌ تَلَحَّسُ أذُنَيْهِ وَحِينًا تَمْتَخِطُ
فِي سَمَنِ مِنْهُ كَثِيرٌ وَأَقِطٌ مَازِلْتُ أَسْعَى بَيْنَهُمُ وَالْتَبِيطُ
حَتَّى إِذَا كَادَ الظَّلَامُ يَخْتَلِطُ جَاءَ وَابِمَدَقٍ هَلْ رَأَيْتَ الذِّئْبَ يَقَطُ

وهذه الأبيات وردت في مصادر كثيرة دون نسبة^(٣) ، وعزتها بعض المصادر للعجاج ، فقال العيني : « أقول ذكره المبرد ونسبه إلى راجز لم

(١) المقاصد النحوية ٣٥٧/٤ .

(٢) خزانة بولاق ٢٢٢/٣ .

(٣) انظر تخريجها في آخر الديوان .

يعين اسمه ، وقيل هو العجاج « (١) ، وقال العيني أيضاً : « عزي إلى العجاج ، ولم يثبت (٢) » ، وقال البغدادي : « وهذا الرجز لم ينسبه أحد من الرواة إلى قائله ، وقيل : قائله العجاج (٣) » .

وكل من أورد هذه الأبيات كلها أو بعضها ، إنما أوردتها لأن في البيت الأخير شاهداً عندهم لوقوع جملة « هل رأيت الذئب قط » الاستفهامية ، نعتاً لـ « مذق » على تقدير القول ، أي جاءوا بمذق يقول من رآه : هل رأيت الذئب قط . ذلك لأن الجملة التي تقع نعتاً شرطها أن تكون خبرية . وإذا عدنا إلى تأمل الأبيات وجدناها كالأبيات السابقة تختلف كل الاختلاف عن نمط أراجيز العجاج ، وعدم نسبتها في أكثر المصادر إلى راجز معين ، ربما أوحى بنقلها من أساسها على أيدي صناع النحو ، ثم حاول بعضهم أن يلصقها بالعجاج إصافاً ، ولذا لانسلم بتوثيقها ، وإنما نشك فيها ونميل إلى ترجيح وضعها وانتقالها .

وثمة أبيات أخرى تبدو فيها بعض مواطن الشك ، ولكننا لا نجد أدلة كافية لسلكها في الرجز المنحول أو المشكوك فيه ، ولا سيما أن بعضها مضطرب في نسبه إلى العجاج ، وإلى غيره من الرجاز ، ولذا ربما كان من صنع العجاج ، وربما كان منحولاً أيضاً ، ولهذا أرجأنا النظر فيه إلى القسم الثاني من هذا الفصل ، وهو الاضطراب في رواية رجز العجاج .

٢ - الاضطراب في رواية رجزه

وجدنا أن صور الالتحال قليلة جداً في رجز العجاج ، ولا سيما في

(١) المقاصد النحوية ٦١/٤ .

(٢) فرائد القلائد ٢٨١ .

(٣) الخزانة ٩٥/٢ .

ديوانه الذي رواه الأصمعي ، إلا أن صور الاضطراب في رواية رجزه كثيرة جداً ، ولا بد من عرضها جميعاً لغربة رجز العجاج قبل أن نبحث في موضوعاته وخصائصه . ومشكلة الاضطراب في رواية الشعر ونسبته إلى أصحابه مشكلة صعبة المسالك ، يمكن أن تصادف الباحث في كل دراسة يتجه بها إلى أدبنا القديم ، ولا سيما أدب الجاهلية وصدور الاسلام ، ذلك لأن تشابه الأسماء أحياناً يميل بالرواية إلى الوهم والاضطراب بين هذا وذاك ، وأسرة الشاعر أيضاً ربما أوقعت في الوهم إن كان فيها من يقرض الشعر ، وكذلك شهرة الشاعر بلون معين من الشعر يمكن أن يوقع في الوهم والاضطراب مع من اشتهر بهذا اللون أيضاً ، ومن ثم وجدنا اضطراباً واسعاً بين الشعراء الذين عرفوا بالتأله والتخف ، والشعراء الذين عرفوا بالنسيب والغزل ، والشعراء الذين عرفوا بنظم الرجز ، وكذلك نجد اضطراباً في نسبة الأشعار إلى أصحابها لاثنيء الا بسبب الوهم وعدم التثبت من الرواة ، وهذا كثير جداً في أدبنا القديم ، وهذه الأسباب وما إليها تجعل من واجب الباحث أن يحقق دائماً في هذه الأشعار المضطربة ، ليكون على بيّنة مما لهذا الشاعر وما ليس له .

ومن هنا كان توثيق رجز العجاج لا بد فيه من دراسة للأشعار المنحولة أو المشكوك فيها ، ودراسة أخرى للأشعار المضطربة التي يتنازعها الرواة بين العجاج وبين غيره من الشعراء . ويمكن أن تُصنّف الأراجيز أو الأبيات المضطربة عند العجاج في أربعة أقسام تبعاً للأسباب التي أدت إلى هذا الاضطراب ، وأول هذه الأقسام تلك الأراجيز التي وقع الاضطراب في روايتها مع أسرة العجاج ، ونعني بذلك رؤبة بن العجاج ، وعبد الله بن رؤبة حفيد العجاج .

أما عبد الله بن رؤبة فقد أثار لدينا الشك في موضع واحد فقط ، إذ

أورد الراغب الأصفهاني هذين البيتين :

يرى راحة في كثرة المال ربُّه وكثرة مال المرء للمرء متعب
إذا قل مال المرء قلت همومه وتَشَعَّبَ الأموالُ حين تَشَعَّبَ

وعزاهما إلى عبد الله بن رُوْبَة^(١) . ومَرَدَه إثارة الشك ، إلى أن عبد الله بن رُوْبَة يمكن أن يكون العجاج نفسه ، ويمكن أيضاً أن يكون حفيده ، فكل منها يدعى عبد الله بن رُوْبَة ، والبيتان من الطويل لا من الرجز ، وقول العجاج لغير الرجز نادر جداً ، ومع ذلك فإننا نرجح ان تكون الأبيات له ، لأن حفيده لم يُنْقَل عنه أنه يقول الشعر أو الرجز .

وأما رُوْبَة فقد حمل لواء أبيه في الرجز ، حتى كان أكثر من أبيه رجزاً ، وأغزر منه ديواناً ، والرواة يجمعون بينها في الفصاحة واللغة والاحتجاج ولهذا كان ثمة تداخل كثير واضطراب واسع في رواية بعض الأراجيز أو الأبيات ، والخطأ في عزوها إلى رُوْبَة أو إلى أبيه العجاج .

وأول ما نلاحظه من صور الاضطراب بين رُوْبَة والعجاج بعض الأراجيز التي وردت في ديوان العجاج ، ثم وردت في ديوان رُوْبَة ، وهي تعني أنها عزيت إلى العجاج مرة وإلى رُوْبَة مرة أخرى ، ولا بد من نظرة إليها ، وإن كان لنا أن نقول منذ الآن ، إن رُوْبَة كان هو الذي روى ديوان العجاج ، ومن المحتمل جداً أنه روى هذه الأراجيز لأبيه فظن بعضهم أنها لرُوْبَة فرواها له .

وأول هذه الأراجيز الأرجوزة (٢٨) من ديوان العجاج ، وأولها :

إِنَّا جُعِلْنَا لِتَمِيمٍ جَبَّلاً وَمَعْقِلًا إِذَا أَرَادُوا مَعْقِلًا

(١) محاضرات الادباء ١/٢٤٧ .

وتتألف من (٧) أبيات ، وقد وردت أيضاً في ديوان رؤبة^(١) ، وفي النسخة التي جاءت برواية الأصمعي وشرحه^(٢) ، مما يشير إلى أن الأصمعي قد رواها للعجاج أولاً ، ثم رواها لرؤبة ثانياً ، وكان يمكن أن يقال إنها قد أضيفت إلى ديوان رؤبة بوهم من النساخ ، ولكن اختلاف الشرح بين هذا الديوان وذاك ، يجعل من المستبعد أن يكون نقلها في ديوان رؤبة بفعل النساخ لا من أصل الديوان .

ولم يرد شيء من أبياتها في كل ما رجعنا إليه من مصادر ، وبذلك لانجد لها مصدراً إلا رواية الأصمعي ، وإذا عدنا إلى دراستها وجدنا من الصعب جداً أن يقال فيها حكم فصل يدفع بها إلى العجاج أو إلى ولده رؤبة ، ولا سيما أن موضوعها هو الفخر بتميم ، وهذا سائد في رجز رؤبة والعجاج معاً ، وأسلوبها لامتياز فيه بسهولة الفوارق بين أسلوب كل منها ، ولكننا نستشعر من تكرار الألفاظ داخل البيت أنها أقرب إلى أسلوب العجاج منها إلى أسلوب رؤبة ، وكذلك يساعدنا في هذا الترجيح ما قلناه سابقاً من أن رؤبة كان راوية أبيه ، وقد روى هذه الأرجوزة لأبيه حين جمع شعر العجاج ، ثم رواها مرة أخرى فظن الأصمعي أو أستاذه أبو عمرو أنها لرؤبة نفسه .

والأرجوزة الثانية هي الأرجوزة (٣٩) من ديوان العجاج ، وأولها :

إِنَّا إِذَا مَا الْحَرْبُ حَدَّ نَابُهَا وَطَالَ بَعْدَ قِصْرِ أَسْبَابِهَا

وتتألف من (٢١) بيتاً ، وقد وردت أيضاً في ديوان رؤبة ، وفي

(١) النسخة (٥١٩) ادب ص ١٥٥ ، والنسخة (٤٩) ادب

ص ١٦٦ .

(٢) أمكن لنا أن نعثر على أصليين لديوان رؤبة : الأول برواية الأصمعي وشرحه ، والثاني برواية ابن الأعرابي وشرحه أيضاً ، وقد اختلفا في عدد الأراجير ، وترتيبها ، وطريقة شرحها .

النسخة التي رواها وشرحها ابن الأعرابي^(١) ، ولم يرد شيء من أبياتها في كل ما رجعنا إليه من مصادر ، وإذا عدنا إلى الأرجوزة نفسها وجدناها تتبع طريقة العجاج في الفخر ، فصاحبها لا يشتم ولا يجب ذلك الشتم حتى إنه لا يرد في هذه الأرجوزة على من تعرض له بذلك ، ثم نجد لديه فخرأً بقوافيه وجريها على لسانه جري السيل من شعاب الجبال ، وهذه المعاني وردت بكثرة في أراجيز العجاج التي خصّها بموضوع الفخر الذاتي ، ولهذا نرجح أن تكون الأرجوزة للعجاج نفسه وما سلكها في ديوان رؤبة إلا لأن رؤبة كان راوية لديوان أبيه ، ولا يبعد أن يكون ابن الأعرابي أو أحد أساتذته قد وهم في نقل بعض الأراجيز التي رواها رؤبة لأبيه فظن أنها لرؤبة نفسه .

والأرجوزة الثالثة هي الأرجوزة (٤٢) من ديوان العجاج ، وأولها :

ياربُّ إن أخطأتُ أو نسييتُ فانتَ لاتنسى ولا تموتُ

وتتألف من (٧٤) بيتاً ، وقد وردت في ديوان رؤبة ، وفي كل من نسختي الأصمعي وابن الأعرابي^(٢) ، وثمة اختلاف بين شرح الأصمعي لها في ديوان رؤبة ، وبين شرحه لها في ديوان العجاج ، وهذا الاختلاف ينفي أن تكون الأرجوزة قد أضيفت مع شرحها إلى ديوان رؤبة بفعل النسخ ، إذ لو تم ذلك على يد ناسخ لما اختلف الشرح المدرج مع الأرجوزة ، وهذا يؤكد أن الأصمعي هو الذي صنف الأرجوزة في ديوان العجاج وشرحها ، ثم صنفها في ديوان رؤبة وشرحها أيضاً .

وقد وردت أبيات من هذه الأرجوزة في مصادر كثيرة جداً ونسبت إلى

(١) النسخة (٥١٦) أدب الورقة ٣٠٢ .

(٢) النسخة (٥١٦) أدب الورقة ١٢٨ ، والنسخة (٥١٩) أدب

ص ١٠٣ ، والنسخة (٤٩ ش) أدب ص ١٠٩ .

رؤبة^(١) ، ولم ترد أية إشارة إلى العجاج إلا في رواية الخالدين للبيتين (٣٢ - ٣٣) منسوبين للعجاج ، وكثرة هذه المصادر التي تروي أبياتاً منها لرؤبة ربما كانت مرجحاً قوياً في عزو الأرجوزة إلى رؤبة دون العجاج ، لأننا لو افترضنا أن الرواة والمصنفين قد نقلوا عن ديوان رؤبة هذه الأرجوزة ، فما بهم لا ينقلونها عن ديوان العجاج أيضاً ، وكلاهما مصنف موجود بين أيدي تلامذة الأصمعي ومن لحق بهم ، إن هذا لا نجد له تفسيراً سوى شهرة الأرجوزة لرؤبة دون العجاج ، ولكننا بالمقابل لانقوى على توكيد هذه النتيجة واعتبار الأرجوزة لرؤبة وإخراجها من ديوان العجاج ، ذلك لأن الديوان الذي بين أيدينا قد نقل الأصمعي روايته نقلاً عن أبي عمرو بن العلاء عن رؤبة نفسه ، ورواية رؤبة لرجز أبيه ربما أوقعت الأصمعي أو أبا عمرو في شيء من الاضطراب والوهم ، ولهذا نُسبني على نسبة الأرجوزة إلى العجاج ، ونكتفي بمجرد التنبيه على ما في نسبتها من اضطراب بينه وبين ولده رؤبة .

ومقابل هذه الأراجيز الثلاث التي وردت في ديوان العجاج ، وفي ديوان رؤبة أيضاً ، ثمة أرجوزة وردت في ديوان رؤبة برواية الأصمعي دون إشارة إلى العجاج ، وأولها^(٢) :

وَبَلَدٍ يَغْتَالِ خَطْوَوَ الْمُخْتَطِيبِ يُغَايِلُ الْغَوَّلَ عَرِيضَ الْمَبْسُطِ

وهي تتألف من (٤٥) بيتاً ، وقد وردت أيضاً في ديوان رؤبة برواية ابن الأعرابي ، وجاء في مقدمتها قوله : « قال أبو الحسن اخبرني ابن الأعرابي قال هذه للعجاج ، وهي في رواية أبي عمرو والأصمعي لرؤبة^(٣) » .

ولا شك أن الأصمعي قد رواها عن أبي عمرو (١٥٤) هـ ، ورواية

(١) انظر تخريج الأرجوزة في آخر الديوان .

(٢) النسخة (٥١٩ أدب) ص ٢١٣ ، والنسخة (ش ٤٩) أدب ص ٢٢٧ .

(٣) النسخة (٥١٦ أدب) الورقة ١٥٤ .

أبي عمرو أوثق وأقدم من رواية ابن الأعرابي (٢٣١ هـ) ، ولا سيما أن أبا عمرو قد نقل ذلك كله عن شفاء روبة ، ولو نقل أبو عمرو شيئاً من رواية هذه الأرجوزة للعجاج لأوردها الأصمعي في ديوانه ، بل إن الأصمعي قد أكد نسبتها إلى روبة حين قال في شرح البيت الأول منها : « قال أبو سعيد : سرقها روبة من أبيه العجاج ، قال أبوهِ :
وبلَدٍ يَغْتالِ خَطْوِ الخاطِبي (١)

قال : حدثنا مسلمة بن عياش قال : قال روبة : الفحول هم الرواة .
قال : يريد أنهم يسرقون » .

ونقل : ابن الأعرابي في نسخته خلاصة قول الأصمعي فقال : « قوله
وبلَدٍ ، قال الأصمعي : سرق هذا من أبيه من قوله :
وبلَدٍ يَغْتالِ خَطْوِ الخاطِبي » .

فالأصمعي قد نص على سرقة روبة لهذا البيت من أبيه العجاج ، وهذا
مانص عليه ابن قتيبة أيضاً فقال عن روبة : « قوله :
وبلَدٍ يَغْتالِ خَطْوِ المُخْتَطِبي
سرقة من أبيه ، قال أبوهِ :
وبلَدٍ يَغْتالِ خَطْوِ الخاطِبي (٢) » .

وبذلك فقول الأصمعي وابن قتيبة يؤكد أن تكون الأرجوزة لروبة
لا لأبيه كما زعم ابن الأعرابي ، والذي يؤكد ذلك أيضاً أن ابن دريد وابن
فارس والجاحظ والزحشري قد نقلوا أبياتاً منها ونسبوها جميعاً إلى روبة (٣) ،

(١) الأرجوزة ٢/٢٠ ، والبيت برواية الديوان :

وبلدة بعيدة النياط
مجهولة تغتال خطو الخاطبي

(٢) الشعر والشعراء ٥٧٨ .

(٣) انظر جمهرة اللغة ١/٣٠٦ ، ومقاييس اللغة ٤/١٥٨ ، والبيان

في حين لم نجد إشارة إلى العجاج إلا في اللسان^(١) ، إذ نسب إليه بيتين من الأرجوزة ، وهذا لا يعدو أن يكون ضرباً من الوهم ، إذا ما قورن بكثرة الروايات التي تنسب الأرجوزة إلى رؤبة .

ولهذا لم ندخل هذه الأرجوزة إلى ديوان العجاج ، لأن من المرجح لدينا أنها ليست له مطلقاً ، وإنما هي لرؤبة بن العجاج ، ومكانها الطبيعي أن تكون في ديوان رؤبة .

وثمة أرجوزة أُلحقت بديوان العجاج ، من رواية أبي اسحق الزياتي ، وهي الأرجوزة (٤٣) ، وأولها :

كَمْ قَدْ حَسَرْنَا مِنْ عِلَاةٍ عَنَسٍ كَبْدَاءَ كَالْقَوَسِ وَأُخْرَى جَلَسٍ
وتألف من (٧٧) بيتاً . وثمة أخبار تجعل منها أرجوزة لرؤبة بن العجاج ، أو تجعل العجاج هو الذي سرقها من رؤبة ونسبها إلى نفسه ، ولا بد من مناقشة ذلك حتى نخرج إلى توثيق هذه الأرجوزة .

والخبر الأول نقله ابن قتيبة فقال : « وحدثني (سهيل بن محمد) عن الأصمعي عن عقبة بن رؤبة عن أبيه ، قال : بينا أنا أصلح بوزعة لي وأنا أقول^(٢) :

حَتَّى احْتَضَرْنَا بَعْدَ سَيْرِ حَدَسٍ إِمَامَ رَغْسٍ فِي نِصَابِ رَغْسٍ
خليفة سأس بغير تعس
فقال لي أبي : يا أحمق ! ، ألا قلت^(٣) :

والتبيين ٢٦٦/١ ، وأساس البلاغة ٣٤٦/٢ . وعبارة الجمهرة : « قال الراجز رؤبة بن العجاج » .
(١) اللسان (أجن) .
(٢) الأبيات ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٨ من الأرجوزة .
(٣) البيت الأول والثاني هما البيتان (٤٠ - ٤١) من الأرجوزة ،

بَيْنَ ابْنِ مَرْوَانَ قَتْرِيْعِ الْإِنْسِ وَبِنْتِ عَبَّاسٍ قَتْرِيْعِ عَبْسٍ
 أَنْجَبَ عَيْرَسٍ جُبَيْلًا وَعَيْرَسٍ
 فَذَهَبَ بِهَا كُلَّهَا ، لَا وَاللَّهِ مَا لَهُ مِنْهَا إِلَّا أَرْبَعَةُ آيَاتٍ (١) .

والخبر الثاني أورده السيوافي فقال : « وحدثنا أبو بكر بن السراج ، قال حدثنا أبو العباس محمد بن يزيد ، قال حدثنا الرياشي ، أحسبه عن الأصمعي ، قال : قال رؤبة خرجت مع أبي أريد سليمان بن عبد الملك (٢) ، فلما صرنا ببعض الطريق قال لي أبي : أبوك راجز وجدك راجزاً وأنت مفحم ! قلت : أفاقول ؟ قال : نعم . قال فقلت :

كَمْ قَدْ حَسَرْنَا مِنْ عِلَّةٍ عَنَسِ

ثم أنشدته إياها ، فقال : أسكت فض الله فاك . قال : فلما انتهينا إلى سليمان ، قال له : ماقلت ؟ فأنشده أرجوزتي ، فأمر له بعشرة آلاف ، فلما خرجنا من عنده قلت : أتسكتني وتنشد أرجوزتي؟! قال : اسكت ويملك فأنك أرجز الناس . قال : فالتمت منه أن يعطيني نصيباً بما أخذه بشعري فأبى أن يعطيني منه شيئاً فنادته ، فقال (٣) :

لَطال ما أجرى أبو الجَحَافِ لِنِيَّةِ بَعِيدَةِ الْإِيْجافِ
 نأى عن الأهلين والألأفِ سَرَهْفَتُهُ ما سَتُّ مِنْ سَرَهافِ
 حتى إذا ما آصَّ ذا أعرافِ كالكَوْدَنِ المشدودِ بالإكافِ

والبيت الثالث لم يرد في أرجوزة الديوان ، وقد رواه أيضاً بعد هذين البيتين الجواليقي في التكملة ٢٥ ، ورواه ابن منظور في اللسان (عرس) بعد البيت (٤٣) من الأرجوزة .

(١) الشعر والشعراء ٥٧٦ - ٥٧٧ .

(٢) سبق أن أشرنا إلى أن الصواب هو الوليد بن عبد الملك . انظر حديثنا عن رحلة العجاج .

(٣) ديوان العجاج ، الأرجوزة ٤٧/٨ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٥٩ - ٦٣ وثمة اختلاف في الرواية .

قال الذي عندك لي صَوَافٍ من غير ما كَسَبٍ ولا احتِرَافٍ
فقال رؤبة يجيبه (١) :

انك لم تنصف أبا الجحَافِ وكان يرضى منك بالانصافِ
ظلمتني غَيْرُكَ ذو الإسرافِ ياليت حظي من نَدَاكَ الصافي
والفضل ان تتركني كَفَافٍ (٢) .

فالخبر الأول يزعم أن الأرجوزة لرؤبة ، وليس للعجاج منها إلا أربعة
أبيات والخبر الثاني يزعم أن العجاج قد سرق الأرجوزة من رؤبة ، ثم يجعل
ذلك سبباً للعتاب الذي جرى بين العجاج ورؤبة ، إلا ان هنالك من الاخبار
والحقائق ما يفند هذين الخبرين ، ويؤكد أن الأرجوزة للعجاج نفسه .

فالمرزباني نقل بسندين عن أبي عبيدة والأصمعي : « أن العجاج دخل
على الوليد بن عبد الملك ، فأنشده :

كم قد حسرنا من علة عنس

فصار إلى قوله :

بين ابن مروان قريع الإنس وابنة عباس قريع عيس

فقال له الوليد : ما صنعتَ شيئاً ، أنشدني غيرَ هذا . فأنشده (٣) :

وقد أراني للغواني مصيِّداً ملاوة كأن فوقني جلدًا

فقال : مِصِيِّداً ، وجِلْدًا ، لم تصنع شيئاً ، أفرغتَ مدحك في عمر

(١) ديوان رؤبة : من أرجوزة ردّ بها على أبيه ، وهي في النسخة
(٥١٦) أدب : الورقة ٢٩٩ ، والنسخة (٥١٩) أدب ص ١٥٣ ، والنسخة
(ش ٤٩) أدب : ص ١٥٩ ، وثمة اختلاف في الترتيب والرواية .
(٢) أخبار النحويين البصريين ٩١ - ٩٣ ، ونقله ابن عساکر في تاريخه
٣٩٥/٧ .
(٣) ديوان العجاج ، الأرجوزة ٩/٢٧ - ١٠ . وفي الرواية بعض الاختلاف .

ابن عبيد الله بن معمر إذ قلت - وقال الأصمعي فقال له أتقول في ابن معمر - (١) :

حَوْلَ ابْنِ غَرَاءَ حَصَانٍ إِنْ وَتَرَ
فَازَ وَإِنْ طَالَ بِالْوَعْمِ اقْتَدَرَ
إِذَا الْكِرَامُ ابْتَدَرُوا الْبَاعَ بَدَرَ

وتقول في :

بين ابن مروان قريع الإنس وابنة عباس قريع عبس
فقال : يا أمير المؤمنين ، إن لكل شاعر غريباً ، وإن غريباً ذهب
في ابن معمر ، وقال أبو عبيدة : قال : فإن لكل شاعر حمّة ، وكانت
هذه الأرجوزة حمّتي فقدقتها (٢) .

ثم روى المرزباني شيئاً من هذا الحديث بأسانيد تنتهي عند أبي عمرو بن
العلاء ، وذكر في نهايته أن يونس كان يشك بهذا لعلمه أن الوليد كان
لحناً لا يحسن ذلك (٣) ، إلا أن هذا الشك فيه نظر ، ذلك لأن اللحن في
اللغة لا يمنع أن يتذوق الحليفة بعض المعاني في المديح ، ويفاضل بينها ، ولا
سيما إذا كان الفارق بيناً كما في أبيات العجاج المتقدمة .

والمهم في خبر المرزباني أن سنده ينتهي عند الأصمعي وأبي عمرو وأبي
عبيدة لا عند رؤبة بن العجاج ، وكذلك فهو لا يشير إلى استحسان العجاج
لمعاني بعض الأبيات التي أوردها ابن قتيبة ، ولا نجد هذه الرحلة التي وصفها
السيرافي ، ولا أثر لرؤبة في حضرة الوليد ، وإنما دخل العجاج وحده فأنشد
الأرجوزة ، أما خبر السيرافي فيشير من طرف خفي إلى اجتماع رؤبة والعجاج

(١) ديوان العجاج ، الأرجوزة ٧١/١ - ٧٣ .

(٢) الموشح ٢١٥ - ٢١٦ .

(٣) الموشح ٢١٦ - ٢١٧ .

معاً بين يدي الوليد . وإذا وُجِدَ للخبر أكثر من رواية لم يعد من العلم في شيء أن يؤخذ بوحدة دون أخرى .

وبما يمكن أن ينقض خبر السيرافي من أساسه ، هو أن هذا الخبر قد أورده السيوطي^(١) ، والبغدادى^(٢) أيضاً ، ونقله بعده^٣ خبراً آخر يفسر الخلاف بين العجاج وولده ، فقال السيوطي : « وروى صاحب كتاب مناقب الشبان وتقدمهم على ذوي الاسنان من طريق محمد بن سلام عن أبي يحيى الضبي ، قال : كان رؤبة يرعى إبل أبيه ، حتى بلغ وهو لا يقرض الشعر ، فتزوج أبوه امرأة يقال لها عقرب ، فعادت رؤبة ، وكانت تقسم إبله على أولادها الصغار ، فقال رؤبة : ما هم أحق مني^(٣) ، إني لأقاتل عنها السنين ، وانتجع بها الغيث . فقالت عقرب للعجاج : اسمع ، هذا وأنت حي ، فكيف بنا بعدك ؟ ! فخرج فزبره ، وصاح به ، وقال : اتبع ابلك : لطلما أجرى أبو الجحاف .. الخ^(٤) » .

وهذا الخبر ينقض مانص عليه خبر السيرافي من أن الخلاف بين رؤبة والعجاج كان بسبب الأرجوزة السينية ، إذ يجعل الخلاف بينها خلافاً أسرياً يمكن أن يحدث في كل ظرف مشابه ، وبما يؤيد هذا أن أرجوزة العجاج التي عاتب فيها ولده ، وأرجوزة رؤبة التي رد بها على أبيه ، لاتحتملان أية إشارة إلى رواية تلك الأرجوزة في حضرة الوليد ، وإنما نجد من خلال الأرجوزتين ماينم عن ذلك الخلاف الأسري بسبب إبل أو مال أو ما أشبه ذلك ، قد جر إلى خلاف أوسع بينها ، ويبدو من قراءة أرجوزة

(١) شرح شواهد المغني ٣٢٣ .

(٢) الخزانة ٣٩/٢ .

(٣) في الخزانة : « ما هم بأحق مني لها » .

(٤) شرح شواهد المغني ٣٢٤ ، ونقله البغدادي في الخزانة ٤٠/٢ .

رؤية أنه كان مهذباً بعض الشيء في الرد على أبيه ، ولكنه كان متألماً لأن والده قد رجز فيه ، ولو كانت المشكلة مشكلة سرقة العجاج لأرجوزة من أراجيزه ، لكان رؤية سباقاً إلى الإشارة ، ولو من طرف خفي ، إلى هذا السبب الذي أثار العجاج فقال في رؤية رجزاً قد يسيء إليه بين الناس . ولكن ليس من إشارة إلى هذا كله ، مما يدل على أن هذا العتاب الذي شجر بين الوالد وولده كان لخلاف آخر لا يمت بصلة إلى ما يزعمه رؤية فيما بعد من أن السبب كان سرقة العجاج لأرجوزة له .

ولعل الصلة قد ساءت فيما بعد بين رؤية بن العجاج وأسرته أبيه ، ولا سيما بعد وفاة العجاج ، ولهذا ربما سمح رؤية لنفسه ان يلفق بعض الاخبار التي تناهض اباة العجاج ، او تلقي عليه اللوم فيما كان قد شجر بينهما من خلاف . ولذا وجدنا الحبرين اللذين ينالان من العجاج ينتهيان عند رؤية نفسه، في حين لم نجد الاخبار الاخرى تنتهي عنده ، وإنما تنتهي عند كبار الرواة امثال أبي عمرو بن العلاء ، تنقل عن شاهد ماجرى في مجلس الوليد أو سمعه .

وبهذا نرجح أن يكون باطلاً كل ما قيل عن سلب العجاج لهذه الأرجوزة من رؤية ، وترداد هذه الحقيقة يقيناً باتفاق الاصمعي وابن الأعرابي على أنها للعجاج ، فالاصمعي قد رواها عنه ابو اسحق الزياتي في ديوان العجاج ، واما في ديوان رؤية فلم ينقل الاصمعي منها شيئاً ، ولم يشر إليها بأية إشارة، وكذلك ابن الاعرابي لم يروها في ديوان رؤية ولم يشر إليها مطلقاً ، وقد رأيناه يعرض لرواية الأصمعي وأبي عمرو بن العلاء في غير هذه الأرجوزة ، ولو وجد مجالاً إلى مخالفة الأصمعي ورواية هذه الأرجوزة لرؤية ، لنص على ذلك ، إلا أنه أغفلها من ديوان رؤية ، وكان هذا ارهاص منه بأنها للعجاج كما رواها الأصمعي .

وأبيات الأرجوزة قد تناثرت في مصادر كثيرة جداً^(١) ، ومعظم هذه المصادر على كثرتها قد نسبت آياتها إلى العجاج ، ولم نجد في كل ما رجعنا إليه من مصادر آية إشارة إلى رؤبة إلا في موضع واحد من جمهرة اللغة ، نقل فيه ابن دريد البيت (٢١) وعزاه إلى رؤبة^(٢) ، وهذا لا يعدو أن يكون وهما منه في هذا الموضع لأنه نقل آياتاً أخرى من هذه الأرجوزة في مواضع متعددة من جمهرة اللغة ، ونص في عدد منها على أن الرجز للعجاج^(٣) . وهذا يدل دلالة قاطعة على أن الأرجوزة للعجاج ، وما قيل من أنها لرؤبة ، لم يجد أذن صاغية لدى الرواة الأوائل من أمثال أبي عمرو بن العلاء والأصمعي وأبي عبيدة ومن إليهم .

فإذا توسعنا في دراسة الاضطراب بين رؤبة والعجاج رأينا هذه الظاهرة يتسع نطاقها اتساعاً يلفت النظر في رواية أبيات من أراجيز العجاج وعزوها إلى رؤبة ، أو رواية أبيات من أراجيز رؤبة وعزوها إلى العجاج ، ومرد هذا الاضطراب الواسع في الرواية بينهما ، إنما يعود إلى أن شهرة رؤبة في قول الرجز لاتقل عن شهرة العجاج ، وهذا ما أدى برواة الشواهد إلى الوقوع في الوهم والخطأ في إسناد الرجز لرؤبة أو للعجاج . وبما ساعد على اتساع ذلك أمران : الأول تشابه الأسماء ، والثاني تشابه الرجز .

أما تشابه الأسماء فيبدو في كنية رؤبة ، إذ كان يكنى بأبي الجحاف ،

(١) انظر تخريجها في آخر الديوان .

(٢) جمهرة اللغة ٢٥٦/٣ ، وعبارة الجمهرة : « قال رؤبة » .

(٣) انظر جمهرة اللغة ٦٠/١ ، ١٧٣ ، ٢١٠ ، و ٤٧/٢ ، و ٣٧/٣ ،

٤٤ وعبارة الجمهرة فيها جميعاً : « قال العجاج » ، وهي صريحة بأنها لابن

دريد . وانظر الجمهرة ١٤٧/١ ، و ٧٢/٢ ، ٩٤ ، ١٦٥ ، ٢٤٥ ، ٢٤٨ ،

و ٤٣/٣ ، ٢٠٥ ، وعبارة الجمهرة في هذه المواضع : « قال الراجز العجاج »

وانظر الجمهرة ١٣٧/١ والعبارة هنا : « قال الآخر العجاج » .

وبأبي العجاج أيضاً^(١) ، ولا شك أن كنيته الثانية « أبا العجاج » ، قد لعبت دوراً هاماً في مشكلة الاضطراب بين العجاج ورؤبة ، ويمكن أن يضاف إليها أن الرواة والمصنفين قد أكثروا من عبارة « قال العجاج بن رؤبة »^(٢) ، أو « أنشد للعجاج بن رؤبة »^(٣) ، وأكثروا أيضاً من عبارة « قال رؤبة بن العجاج »^(٤) ، أو « أنشد لرؤبة بن العجاج »^(٥) ، ولا يخفى التشابه بين « العجاج بن رؤبة » و « رؤبة بن العجاج » ، بما كان يوقع في الوهم ، أو التقديم والتأخير من قبل النسّاخ أو الرواة ، ولعل من صور هذا الوهم ما كان يصادفنا من حيرة لدى بعضهم ، إذ كان يقف عند رواية البيت فيقول : « وأنشد للعجاج أو رؤبة^(٦) » ، فيحار بين الراجزين الكبيرين ، وهذا التشابه كان وراء كثير من أمثلة الاضطراب بينها .

ولم يكن تشابه ، الأسماء هو الوحيد الذي أوقع في الوهم والاضطراب ، وإنما كان لتشابه الأراجيز دور هام في ذلك أيضاً ، ومن أمثلة ذلك ، أن الزمخشري أنشد بيت العجاج^(٧) :

ضرباً هذا ذيكَ وطعنًا وخضًا

وعزاه إلى رؤبة وهماً منه^(٨) ، وذلك لوجود بيت مشابه لرؤبة

-
- (١) الأغاني ١٢٢/١٨ ، و ٥٧/٢١ ، ٥٨ ،
(٢) انظر مثلاً الصحاح ١٦٧٢/٤ ، وجمهرة اللغة ٢١٣/١ .
(٣) جمهرة اللغة ٢٢/١ ، و ٤٩٩/٣ .
(٤) انظر مثلاً البيان ٤٠/١ ، وجمهرة اللغة ٦/١ ، ٩٣ ، وأدب الكاتب ٦٤ ،
والصحاح ٩٧٢/٣ ، وشرح المقصورة ٢١٤ .
(٥) انظر مثلاً البيان والتبيين ٣٧/١ .
(٦) انظر مثلاً الأزمنة والامكنة ٣١٩/٢ .
(٧) ديوان العجاج ، الأرجوزة ٣١/٦ .
(٨) أساس البلاغة ٥٤١/٢ .

من أرجوزة في ديوانه تشبه في رويتها وقافيتها أرجوزة العجاج ، وهو^(١) :

قَفْنُخًا عَلَى الْهَامِ وَبَجًّا وَخَضًّا

فالتشابه بين الأرجوزتين أو بين البيتين ، أوقع الزمخشري في الوهم فأخطأ في رواية بيت العجاج ونسبه إلى رؤبة . ومن هنا كان تشابه الرجز ، أو تشابه الأسماء ، يؤدي إلى رواية بعض الأبيات وعزوها إلى رؤبة وهي للعجاج ، أو عزوها إلى العجاج وهي لرؤبة ، وتمييز ذلك سهل جداً إذا كانت هذه الأبيات من أراجيز قد وردت في ديوان كلٍّ منها ، إذ أن وجود بيت ينسب إلى رؤبة وهو للعجاج ، يمكن أن تصحح نسبته أرجوزة البيت الواردة في ديوان العجاج مثلاً ، ولهذا لا نجد ضرورة لعرض ذلك الحشد الكبير من صور الاضطراب في أبيات من ديوان العجاج تعزى إلى رؤبة ، أو من ديوان رؤبة تعزى إلى العجاج ، فهي كثيرة جداً ولا فائدة من عرضها في هذا الموضع ، وقد أشرنا إليها جميعاً في مواضعها من ديوان العجاج نفسه .

وأما الاضطراب في ملحقات ديوان العجاج ، فقد نجد صعوبة أحياناً في دراسته وردّ روايته للعجاج أو لرؤبة ، ولكن أكثر الاضطراب في هذه الملحقات يمكن أن تحل مشكلاته ، وذلك تبعاً لدراسة نوع المصادر التي أوردت هذه الرواية أو تلك ، وقدم هذه المصادر ، ومدى توثيق أصحابها ، وما يتصل بها من ظروف خاصة ، وما يلاحظ من كثرة الأبيات المتفرقة التي تعزى إلى أحدهما ، وهي من روي وقافية واحدة وقلة أبيات أخرى من الروي والقافية نفسها تعزى إلى الآخر ، إذ ربما أشار ذلك إلى أنها كانت

(١) البيت (٨٦) من أرجوزة رؤبة ، وهو في ديوانه النسخة (٥١٦) أدب) الورقة ١١١ ، والنسخة (٥١٩) أدب ص ١٩٨ ، والنسخة (٤٩ ش) ص ٢١٣ . وهو في مقاييس اللغة ١٧٣/١ ، و ١١٣/٥ ، والصحاح ٢٩٨/١ ، ٤٢٩ ، واللسان (قفخ) و (بجاج) و (وخض) .

تؤلف أرجوزة واحدة في الأصل ، قد تكون لمن تعزى إليه أكثر أبياتها .
فهذه الملاحظات يمكن أن تحدد لنا صاحب الأبيات بشيء من السهولة
أحياناً .

وإذا كنا لم نجد ضرورة لعرض ما حدث من اضطراب بين رؤبة والعجاج
في أبيات من أراجيز كل منها ، فإن ملحقات الديوان بحاجة إلى مثل هذا
العرض والدراسة .

ففي الأرجوزة (١) من الملحقات ، نجد ابن منظور (٧١١ هـ) قد أنشد
منها البيتين :

حَيْرَانٌ لَا يَشْعُرُ مِنْ حَيْثُ أَتَى عَنْ قَبْصٍ مَنْ لاقَى أَخَاسٍ أَمْ زَكَ
وعزاها إلى رؤبة في موضع من اللسان (١) ، ثم عزاها إلى العجاج في
موضعين آخرين (٢) ، ورواية الأبيات في موضعين للعجاج أرجح من روايتها في
موضع واحد لرؤبة ، ولا سيما أن الأبيات قد رواها ابن قتيبة (٢٧٦ هـ)
للعجاج (٣) ، وروايته أقدم من رواية المصادر التي اعتمدها ابن منظور في
تصنيف كتابه (٤) ، ولهذا تبقى الأبيات للعجاج دون رؤبة .

وفي الأرجوزة (٢) من الملحقات ، أنشد البكري (٤٨٧ هـ) للعجاج (٥) :

(١) اللسان (حسا) .

(٢) اللسان (دجر) و (زكا) .

(٣) المعاني الكبير ٩٦٣/٢ .

(٤) صنف ابن منظور كتابه اللسان من الأصول الخمسة : تهذيب
اللغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري (٣٧٠ هـ) ، والصحاح لأبي
نصر اسماعيل بن حماد الجوهري (٣٩٣ هـ) والمحكم لأبي الحسن علي
ابن اسماعيل بن سينده الأندلسي (٤٥٨ هـ) ، والامالي على الصحاح
للشيخ أبي محمد عبد الله بن بري (٥٨٢ هـ) ، والنهاية لأبي السعادات
المبارك بن محمد بن الأثير الجزري (٦٠٦ هـ) .

(٥) معجم ما استعجم ١٢٤٧/٤ .

وِخَلْتُ أَنْقَاءَ الْمُعَيِّ رَبُّرَبَا

وأشده ابن سيده (٤٥٨ هـ) لرؤبة^(١) ، والبكري وابن سيده متعصران
إلا أن رواية البكري أرجح لأن للعجاج أرجوزة بهذا الوزن تتناثر أبياتها
في مصادر كثيرة ، وليس لرؤبة مثل هذه الأرجوزة .

وفي الأرجوزة (٢) أيضاً أنشد ابن منظور (٧١١ هـ) :

شَدَّ الشَّظِيَّ الْجَنْدَلَ المَظْرَبَا

وعزاه إلى رؤبة^(٢) ، وأنشد ابن فارس (٣٩٥ هـ) البيت الذي يليه :

فِي رُسْغٍ لَا يَتَشَكَّى الحَوْشَبَا

وعزاه إلى رؤبة أيضاً^(٣) ، إلا أن هذا البيت أنشده الجوهري (٣٩٣ هـ)
في موضعين للعجاج^(٤) وأنشده الإسكافي (٤٢١ هـ)^(٥) ، وابن منظور^(٦)
العجاج أيضاً ، كما نسب اليتان معاً إلى العجاج في جمهرة اللغة^(٧) ، وهذا
كله يميل باليتين إلى العجاج ، ولا سيما أن لهما نظائر من وزنها في رجز العجاج ،
وليس لهما نظائر في رجز رؤبة .

وفي الأرجوزة (٢) أيضاً أنشد ابن منظور هذين البيتين :

وإن تَنَاهَبَهُ تَجِدُهُ مِنْهَبَا تَكْسُو حُرُوفَ حَاجِبِيهِ الأَثَلَبَا

-
- (١) المخصص ١٣/١٧ .
 - (٢) اللسان (ظرب) .
 - (٣) مقاييس اللغة ٦٦/٢ .
 - (٤) الصحاح ١١٢/١ و ١٣١٩/٤ .
 - (٥) مبادئ اللغة ١٢١ .
 - (٦) اللسان (حشب) .
 - (٧) جمهرة اللغة ٣/٣٦١ ، وعبارة الجمهرة « قال الراجز العجاج » ،
وكلمة « العجاج » قد تكون لابن دريد أو لناسخ بعده .

وعزاهما إلى رؤبة^(١) ، وفي موضع آخر أنشد الأول منها مع ثان على هذا النحو :

وإن تَنَاهِبُهُ تَجِدُهُ مِنْهَبًا فِي وَعَكَةِ الْجَدِّ وَحِينًا مِثْلَبًا
وعزاهما إلى العجاج^(٢) ، ثم أنشد البيت الأول مرة ثالثة ونسبه إلى العجاج
أيضاً^(٣) ، وإشارته إلى العجاج في موضعين أرجح من إشارته إلى رؤبة في
موضع واحد ، ولا سيما أن بنية هذه الأبيات ومعانيها تدل على وحدة نسقها
في أرجوزة واحدة في الأصل .

وآخر ما عثرنا عليه من اضطراب مع رؤبة في الأرجوزة (٢) هذا
البيت :

وفارِجًا مِنْ قُضْبٍ مَا تَقَضَّبًا

فقد أنشده الزمخشري (٥٣٨ هـ)^(٤) ، وابن منظور لرؤبة^(٥) ، وجاء
في جمهرة اللغة مع بيتين آخرين من هذه الأرجوزة للعجاج^(٦) ، ولا شك ان
كثرة الأبيات المنسوبة إلى العجاج في هذه الأرجوزة تشد هذا البيت إليها
وتنفيه عن رؤبة ، وبذلك يكون قد رُدَّ إلى العجاج كل ما رُوِيَ لرؤبة
من هذه الأرجوزة التي بلغت أبياتها (٦٥) بيتاً ، ولا يبعد أن تكون جزءاً
من الأرجوزة (٧) من أصل الديوان ، وهذا الاحتمال يبعد عنها كل اضطراب
داخلها بين العجاج وغيره .

-
- (١) اللسان (ثلب) .
 - (٢) اللسان (الب) .
 - (٣) اللسان (نهب) .
 - (٤) أساس البلاغة ١/٣٣٦ .
 - (٥) اللسان (قضب) .
 - (٦) جمهرة اللغة ٣/٤٣١ ، وعبارة الجمهرة : « قال الشاعر العجاج » .

وفي الرقم (٨) من الملحقات ، أنشد التميمي (٥٣٨ هـ) البيتين ^(١) :

مالي إذا أجدبها صأيتُ أكبرمَ غيرني أم بيئتُ
وعزاهما إلى العجاج ، وهذان البيتان أنشدهما ابن دريد (٣٢١ هـ) في
جمهرة اللغة ، وعزاهما إلى رؤبة بن العجاج ^(٢) ، وأنشد العيني (٨٥٥ هـ)
الآيات (١ - ٢) من هذه المقطعة في المقاصد ، وقال : « أقول : قيل
إنه لرؤبة ، ولم أقف على صحته ^(٣) » ، وأنشدهما أيضاً في الفرائد ، وقال :
« عزي لرؤبة ولم يصح ^(٤) » ، وأنشد الآيات (٣ - ٦) في المقاصد أيضاً ،
وقال : « أقول : قائله رؤبة بن العجاج ، وهو من الرجز المدس ، ويقال :
هذا أنشده الكسائي ولم يعزه إلى أحد ^(٥) » ، وأنشد الآيات (٥ - ٦)
في الفرائد أيضاً ، وقال : « هذا رجز عزاه بعضهم إلى رؤبة ولم يثبت ^(٦) » .
ولا شك أن رواية ابن دريد أقدم من رواية أبي طاهر محمد بن يوسف التميمي
وأوثق ، وهي ترجح أن تكون الآيات لرؤبة ، ولكن الشك الذي ألح
عليه الامام العيني ربما أشار إلى احتمال وضع هذه الآيات من قبل النحاة أو
أصحاب الشواهد وعزوها فيما بعد إلى العجاج عند بعضهم ، أو إلى رؤبة
في أكثر الروايات .

وفي الرقم (١٣) من الملحقات أنشد الجوهري هذا البيت :

بِفَاحِمٍ وَحَفٍ وَعَيْنِي بَحْرَجٍ

-
- (١) المسلسل في غريب اللغة ٤٢ .
 - (٢) جمهرة اللغة ١/١٨٢ .
 - (٣) المقاصد ٣/٥٧٣ .
 - (٤) فرائد القلائد ٢٦٠ .
 - (٥) المقاصد ٢/٥٢٤ ، ونقل السيوطي نسبة الرجز لرؤبة عن العيني
في شرح شواهد الفني ٢٧٧ .
 - (٦) فرائد القلائد ١٦٨ .

وعزاه إلى العجاج^(١) . وأنشده كذلك ابن منظور وعزاه إلى رؤبة^(٢) ،
ولا مرجح بينها لشبه المعاصرة بين الجوهري (٥٣٩٣ هـ) وأصحاب المصادر^(٣)
التي يمكن أن ينقل عنها ابن منظور هذا البيت .

وفي الرقم (٢٠) من الملحقات أنشد ابن يعيش هذا البيت :

والرأسُ قد كان لهُ شكيرُ

وعزاه إلى العجاج^(٤) ، ثم أنشده البغدادي في الخزانة وعزاه إلى رؤبة
ابن العجاج^(٥) . ورواية ابن يعيش أقدم من رواية البغدادي (١٠٩٣ هـ) ،
ولهذا نرجح ان يكون البيت للعجاج .

وفي الأرجوزة (٢٥) من الملحقات ، أنشد سيبويه هذا البيت :

يَدَهْبِنَ فِي نَجْدٍ وَغَوْرًا غَاثِرًا

ونسبه إلى العجاج^(٦) ، ثم أنشده أبو عبيدة في مجاز القرآن مع
بيت آخر على هذا النحو :

يَهْوِينِ فِي نَجْدٍ وَغَوْرًا غَاثِرًا فَوَاسِقًا عَن قَصْدِهَا جَوَاثِرًا

ونسب البيتين إلى رؤبة^(٧) ، وبما أن أبا عبيدة قد أنشدهما في مجاز

(١) الصحاح ٢٩٩/١ .

(٢) اللسان (بحر ج) .

(٣) الأزهري (٣٧٠ هـ) ، وابن سيده (٤٥٨ هـ) ، أما ابن بري
(٥٨٢ هـ) فلا ينقل عنه ابن منظور عادة الا بعد ذكر اسمه والنص على
أقواله .

(٤) شرح المفصل ١٠٠٧/٣ .

(٥) الخزانة ٣٢/٤ (بولاق) .

(٦) الكتاب ٤٩/١ ، وعبارة الكتاب : « ومثله قول العجاج » وهي
صريحة بأنها من كلام سيبويه نفسه ، لا من كلام أبي عمر الجرمي (٢٢٥ هـ)
الذي قيل أنه نسب بعض أبيات الكتاب . انظر في هذه المسألة كتاب
سيبويه وشروحه للدكتورة خديجة الحديثي ١١٨ وما بعدها .

(٧) مجاز القرآن ٤٠٦/١ .

القرآن ، فقد نُقِلَ عنه لرؤية في عدد من المصادر التي اهتمت بهذا الموضوع أو بما يقاربه ^(١) ، وعنها نُقِلت هذه النسبة لرؤية في بعض المصادر الأخرى ^(٢) ، إلا أن رواية أحد الأبيات من قبل سيبويه للعجاج يجعل من المرجح أن يكون البيتان معاً للعجاج ، لأن سيبويه (١٦١ أو ١٦٨ هـ) أسبق من أبي عبيدة (٢١٠ هـ) زمنياً ، ويؤيد ذلك أبيات أخرى بهذا الوزن قد نُسبت إلى العجاج في بعض المصادر ^(٣) ، وليس من إشارة إلى رؤية إلا في رواية أبي عبيدة .

وفي الرقم (٢٨) من الملحقات أنشد ابن عساكر (٥٧١ هـ) في ترجمة العجاج البيتين :

كَأَنَّ خَلْفَيْهَا إِذَا مَدَرًا جَرُوا هِرَاشٍ حَرِشًا فَهَرًّا

وقال قبلها : « وما يستحسن له ^(٤) في وصف الدرّ ، وتروى لرؤية ^(٥) » ، وهذا يشير إلى أن البيتين من أرجوزة تروى للعجاج وتروى لرؤية أيضاً ، ولكنّه لا أثر لها في ديوان هذا أو ذاك ، ولم نعثر بهذا الوزن والقافية إلا على بيت واحد أنشده صاحب اللسان ، ومن المرجح أن يكون من هذه الأرجوزة الضائعة ، وقد عزاه ابن منظور إلى العجاج ^(٦) ، وليس

(١) الكشف للزمخشري ٣٩٣/٢ ، وأنوار التنزيل للبيضاوي ٩٢/١ ، والتفسير الكبير لأبي حيان الأندلسي ١٣٦/٦ ، ومفاتيح الغيب للامام الرازي ٤٨٨/٥ .

(٢) أساس البلاغة للزمخشري ٢٠٠/٢ ، وشرح المقامات للشريشي ٥١/١ .

(٣) جهرة اللغة ٣٣٤/٣ ، والشعر والشعراء ٥٧٣ ، واللسان (دعثر) .

(٤) أي للعجاج .

(٥) تاريخ ابن عساكر ٣٩٤/٧ .

(٦) اللسان (دمثر) ، وفي اللسان (دعثر) أربعة أبيات بهذا الوزن والقافية أيضا قالها العجاج في ابنته حزمة ، ولكنها تبدو خاصة بمناسبة معينة ، وليست من أرجوزة مطولة ، ولهذا افردناها في الرقم (٢٦) من الملحقات .

في هذا البيت ما يُرجَّح نسبة الأرجوزة إلى العجاج دون رؤبة ، وذلك لضياع هذه الأرجوزة ، وبذلك لا نجد من دليل يقطع في نسبة الأرجوزة إلى العجاج أو إلى ولده رؤبة .

وفي الرقم (٤٢) من الملحقات ، أنشد المستشرق أواردت هذين البيتين :
إني إذا استنشدتُ لا أحبّ نطِي ولا أحبُّ كثرةَ التَمطِّي
وأشار إلى أنه قد نقل البيتين عن كتاب الإشتقاق (ص ٧٨) ، ولم نعثر عليها في كتاب الإشتقاق لابن دريد ، أو في كتاب الإشتقاق للأصمعي ، وقد وردا في بعض المصادر دون نسبة ، وأنشدهما العسكري في موضعين اثنين لرؤبة بن العجاج^(١) ، وليس في وسعنا مناقشة هذين البيتين إلا بالوقوف على مصدر نقل أواردت ، وذلك لاحتمال وجود خطأ في تصريحه بنقل البيت عن الإشتقاق .

وفي الرقم (٤٥) من الملحقات ، أنشد الجاحظ هذه الأبيات :
أما رأيتَ الألسنَ السَّلاطَا إنَّ النَّدَى حيث تَرَى الضُّغَاطَا
والجِئَاةَ والإقْدَامَ والنَّشَاطَا
ولم يصرح باسم صاحب الأبيات ، وإنما قال : « وقال التميمي :
الأبيات^(٢) » ، إلا أن المبرد أنشد البيت الثاني منها وعزاه إلى رؤبة^(٣) ، وأنشده كذلك الخالديان وعزياه إلى العجاج^(٤) ، وبذلك أصبحت الأبيات تضطرب روايتها بين العجاج وابنه رؤبة ، ولكن المبرد (٢٨٦ هـ) أسبق من

-
- (١) شرح ما يقع فيه التصحيف ٢٨ و ١٠٨ .
 - (٢) البيان والتبيين ١/ ١٧٧ .
 - (٣) اكامل للمبرد ١٤٩ .
 - (٤) المختار من شعر بشار ٩٥ .

الخالدين^(١) ، وباعتبار هذا المقياس الزمني نرجح أن تكون الأبيات لرؤبة، لأننا لانجد من حولها أو في أسلوبها وبنيها مرجحاً آخر ميل بها نحو هذا الراجز أو ذلك .

وفي الأرجوزتين (٥١) و (٥٢) من الملحقات نجد تشابهاً في الوزن والموضوع ، فالأولى في مدح الحارث بن سليم الهجيمي ، والثانية في مدح ابراهيم بن عربي والي اليمامة . وقد نقل البغدادي هاتين الأرجوزتين للعجاج عن أبي محمد الأعرابي في فرحة الأديب ، ثم قال بعدهما : « هكذا أورده والله أعلم بالصواب ، والأكثر على أن هذا الرجز لرؤبة بن العجاج لا للعجاج^(٢) » .

ولم نجد من أبياتها إلا بيتين فقط ، فقد عثرنا على البيت (٦) من الأرجوزة الثانية مروياً على هذا النحو :

يَا أَبَتَا عَلِّكَ أَوْ عَسَاكَ

وقد ورد في بعض المصادر دون نسبة^(٣) ، ولكنه نُسب في كتاب سيويه إلى رؤبة^(٤) ، وتابع الشنمري على نسبته إلى رؤبة أيضاً^(٥) . وعثرنا على البيت (١) من الأرجوزة الأولى مروياً مع البيت (٦) من الأرجوزة الثانية على هذا النحو :

تَقُولُ بِنْتِي قَدْ أَنْى أَنَا كَا يَا أَبَتَا عَلِّكَ أَوْ عَسَاكَ

-
- (١) سعيد بن هاشم (٣٧١ هـ) ومحمد بن هاشم (٣٨٠ هـ) .
(٢) خزانة الادب ٤٤٣/٢ (بولاق) .
(٣) أدب الكاتب ١٣٦ ، والانصاف ٢٢٢/١ ، والخزانة ٧٤/١ ، وخزانة بولاق ٤٣٠/٢ .
(٤) الكتاب ٣٨٨/١ ، وعبارته : « قال الراجز وهو رؤبة » ، وكلمة « وهو رؤبة » زيادة من أبي عمر الجرمي على الأرجح .
(٥) تحصيل عين الذهب ٣٨٨/١ .

وهذه الرواية أنشدتها الإمام العيني ، وصرح أن الأول منها صدر للثاني، ونسب البيتين إلى رؤبة بن العجاج (١) ، ثم تابعه السيوطي على ذلك كله ونسب البيتين إلى رؤبة أيضاً (٢) ، ثم نسب البغدادي على هذا الخلط والتداخل في رواية البيتين وأشار إلى موقع كل منهما في كلتا الأرجوزتين (٣) .

وبذلك فالمصادر لا تذكر العجاج مطلقاً ، وإنما تشير إلى رؤبة ، والذي يبدو لنا من دراسة الأرجوزة الأولى أنها لا يمكن أن تصدر عن العجاج ، لأنه في مدحه لا يسفر الوجه تماماً عن السؤال وطلب العطاء ، ولأنه لم يخرج إلى خراسان أو كرمان ، وكذلك فأسلوب الأرجوزة بوجه عام ليس من نمط أسلوب العجاج ، ولعل من الأرجح أن تكون لرؤبة لأنها أقرب إلى طبيعة رؤبة وأسلوبه منها إلى العجاج .

وأما الأرجوزة الثانية فلا يبدو أن تكون هي الأخرى لرؤبة ، إلا أننا لانكاد نميل كل الميل إلى ذلك ، لأن في الأرجوزة مدحاً لوالي اليمامة ابراهيم بن عربي ، وقد مدحه العجاج بأرجوزة مطولة في ديوانه (٤) ، والمعاني التي نصادفها في هذه المقطعة تشبه بعض المعاني التي وردت في أرجوزة الديوان ، ولا سيما في الحديث عن السنين والقحط وما ألم بالناس من بلاء ، ولهذا نكاد نرجح أن تكون هذه الأرجوزة للعجاج ، ولكن إنشاد سيبويه لبيت من أبياتها وعزء الجرمي (٥٢٢٥ هـ) على الأرجح لهذا البيت إلى رؤبة ، وكذلك اشتهار رؤبة بالرجز إلى جانب والده في اليمامة ، يجعلنا نبعدهم الخطأ في هذا الترجيح ، ومن هنا نجد وسائلنا لا تقوى في هاتين الأرجوزتين على القول

(١) المقاصد النحوية ٢٥٢/٤ ، وفرائد القلائد ٣١٨ .

(٢) شرح شواهد المغني ١٥١ .

(٣) الخزانة ٤٤٣/٢ (بولاق) .

(٤) انظر ديوان العجاج : الأرجوزة (١٧) .

الفصل تماماً ، وإنما نخرج ونحن مترجحين بين الشاعرين ، وإن كنا نفضل أن تكون الأرجوزة الأولى لرؤية ، والثانية للعجاج ، وما حدث بينها من تداخل ، إن هو إلا من صور الاضطراب بسبب تشابه الأوزان .

وفي الرقم (٦٠) من الملحقات أنشد ابن منظور هذا البيت :

كُلُّ جُلَّالٍ يَمَلَأُ الْمُحَبَّبَا

ونسبه إلى رؤية^(١) . ثم أنشده مع بيت آخر ونسب البيتين إلى العجاج^(٢) ، وما يرجح أن يكون البيت للعجاج أن أبا زيد الأنصاري (٢١٥ هـ) قد أنشد بيتين آخرين بهذا الوزن وعزاها للعجاج^(٣) ، مما يدل على أن ثمة مقطعة للعجاج بهذا الوزن ، ومنها هذه الأبيات المتفرقة .

وفي الأرجوزة (٦٤) من الملحقات أنشد الجوهري هذا البيت :

كَمَا يَأْوِحُ الْخَوْعُ بَيْنَ الْأَجْبَالِ

ونسبه إلى رؤية وزعم أنه يصف ثوراً^(٤) ، فردّ عليه الصاغاني وابن بري ، أن البيت للعجاج^(٥) ، وهو من أبيات يصف فيها الأثافي وآثار الديار ، وأنشده ياقوت لرؤية أيضاً^(٦) ، ولعله تأثر في ذلك بالجوهري^(٧) ، والصواب أنه من أرجوزة العجاج ، وقد مرّ بنا في موضع سابق أن أبا نخيلة الراجز السعدي قال : « وفدت على مسلّمة بن عبد الملك وقد مدحته فأكرمني

-
- (١) اللسان (حبل) .
 - (٢) اللسان (فيل) .
 - (٣) نوادر أبي زيد ١٤٥ .
 - (٤) الصحاح ١٢٠٦/٣ .
 - (٥) اللسان والتاج (خوع) .
 - (٦) معجم البلدان ٣٩٦/٢ و ٤٩٩/٢ .
 - (٧) لأنه نقل عبارة الجوهري : « قال رؤية يصف ثورا » ، معجم البلدان ٤٩٩/٢ .

وأُنزلني ثم قال : مالك والقصيد وأنت من بني سعد ، عليك بالرجز ،
 فقلت : أولست بأرجز العرب ؟ فقال : أسمعني ! فأشدته :
 يَا صَاحِ مَاشَاقِكِ مِزَّسَمِ خَالَ وَدِمْنَةَ تَعَرَفُهَا وَأَطْلَالَ
 وهو من قول العجاج ، فلما سمع أولها أصاخ ، فلما أسهت فيها قال :
 أمسك فنحن أروى لهذا منك ، وظننته مقتني ، فما أصبت منه خيراً^(١) .
 ومعنى ذلك أن هذه الأرجوزة كانت مشهورة للعجاج منذ أيام مسلمة
 ابن عبد الملك وقد توفي سنة (١٢٠ هـ)^(٢) ، وأمکن لنا أن نجمع منها
 أبياتاً كثيرة منسوبة إلى العجاج ، وهذا ينقض ماذهب إليه الجوهري من
 أن ذلك البيت لرؤبة ، ويؤكد أنه للعجاج من هذه الأرجوزة ، ولا سيما
 أن رؤبة ليس له أرجوزة على هذا الوزن .

وأشد الآمدي (٣٧٠ هـ) من الأرجوزة السابقة هذه الأبيات :

مِآلَةٌ مِثْلُ الكَثِيبِ المُنْهَالِ عَزَزَ مِنْهُ وَهُوَ مُعْطِي الأَسْهَالِ
 ضَرَبُ السَّوَارِي مَتْنَهُ بِالْتَهْتَالِ

ونسبها إلى رؤبة في موضعين من كتابه الموازنة^(٣) ، إلا أن ذلك قد
 بدر عن وهم منه ، ذلك لأن البيت الثاني والثالث منها قد نسا للعجاج لدى
 عدد من معاصري الآمدي ، وهم أبو الطيب اللغوي (٣٥١ هـ) في كتابه
 الإبدال^(٤) ، وأبو علي القالي (٣٥٦ هـ) في أماليه^(٥) ، وأبو الفتح عثمان بن
 جني (٣٩٢ هـ) في كتابه الخصائص^(٦) ، وكذلك وردا للعجاج في مصادر

-
- (١) الوساطة للجرجاني ١٥٢ ، وتوفي الجرجاني سنة (٣٦٦ هـ) .
 (٢) دول الاسلام ١/٦٢ .
 (٣) الموازنة ٣٢٦ و ٣٢٧ .
 (٤) الإبدال ٢/٣٨٣ .
 (٥) الأمالي ٢/٤١ .
 (٦) الخصائص ٢/٨٣ .

أخرى^(١) ، ونُسب البيت الأول للعجاج أيضاً في شرح القاموس^(٢) ، وجاءت هذه الأبيات الثلاثة بهذا الترتيب منسوبة للعجاج في لسان العرب^(٣) .

ورواية هذه الأبيات للعجاج من قبل جماعة من معاصري الآمدي ، ثم شهرتها للعجاج بعد ذلك في مصادر أخرى ، تجعل من المؤكد أن تكون من ضمن أبيات هذه الأرجوزة المشهورة للعجاج .

وثمة أبيات أربعة ، تفرقت في بعض المصادر ، وعزيت إلى رؤبة ، والأرجح أنها من أرجوزة العجاج ، فقد أنشد ابن دريد هذا البيت :

مِنْ سَاهِكَاتٍ دُقَّتِي وَخَلَّخَالَ

وعزاه إلى رؤبة^(٤) ، وأنشد ابن منظور هذا البيت :

مُغْدَوْدِنُ الْأَرُطَى غُدَايِي الضَّالِّ

ونسبه إلى رؤبة^(٥) ، وأنشد الزمخشري هذين البيتين :

وقد أعاصي في الشبابِ الميَّالِ مَوْعِظَةَ الْأَدْنَى وَتَنْفِطِينَ الْوَالِ

ورواهما لرؤبة بن العجاج^(٦) .

ومن المرجح أن تكون هذه الأبيات الأربعة من أرجوزة العجاج نفسها ، ذلك لأن رؤبة لا يمتلك أرجوزة بهذا الوزن ، ولا يعقل أن تشرده له هذه الأبيات فقط ، على ما فيها من تفرق وعدم اتصال ، وإنما الأولى أن تكون

(١) الأزمنة والأمكنة للمرزوقي (٤٥٣ هـ) : ١٤٢/٢ ، واللسان (هتل) ، والتاج (عزز) .

(٢) شرح القاموس ، مادة (ضنك) .

(٣) اللسان ، مادة (ضنك) .

(٤) جمهرة اللغة ١/١٤٠ ، وعبارة الجمهرة : « قال رؤبة » . وجاء

البيت في اللسان (سهك) و (دقق) و (خلل) دون نسبة .

(٥) اللسان (غدن) .

(٦) أساس البلاغة ٢/٢٠٦ .

أشتاتاً من أرجوزة العجاج ، التي لم ترد في الديوان وإنما تفرقت أبياتها في أثناء المصادر . ولهذا كله فقد ألحقتُ هذه الأبيات الأربعة بأرجوزة العجاج ، وأثبتها في المواضع التي تتناسب مع المعاني والنسق العام للأرجوزة .
وفي المقطعة (٧١) من الملحقات ، أنشد الجوهري هذا البيت :

صُرْنَا بِهِ الْحُكْمَ وَأَعْيَا الْحُكْمَا

ونسبه للعجاج^(١) ، وأنشده ابن منظور للعجاج أيضاً ثم قال : « قال ابن بري : هذا الرجز نسبه الجوهري للعجاج ، وليس هو للعجاج ، وإنما هو لرؤبة يخاطب الحكم بن صخر بن عثمان ، وقبله :

أبْلِغْ أَبَا صَخْرٍ بَيَانًا مُعَلِّمًا صخر بن عثمان بن عمرو وابن ما^(٢) »

وبذلك جعل ابن بري هذه الأبيات الثلاثة لرؤبة لا للعجاج . وثمة أرجوزة لرؤبة بهذا الوزن وردت في ديوانه المخطوط^(٣) ، ونقلها جبير في مشارف الأقاويز^(٤) ، ولا وجود فيها لهذه الأبيات الثلاثة . وكذلك ثمة أرجوزة للعجاج أيضاً بهذا الوزن^(٥) ، ولا وجود فيها أيضاً لهذه الأبيات ، ومن هنا لانجد مرجحاً يدفع بالأبيات إلى رؤبة أو إلى العجاج ، إلا ما قاله ابن بري ، ولا نسلم له تسليماً مطلقاً ، لأنه لم يعرض حجة مقنعة في ذلك ، ولهذا نُبقي على هذه الأبيات مترجحةً بين الراجزين ، دون أن نقطع برأي في أمر نسبتها .

وبهذا نكون قد فرغنا من مناقشة القسم الأول من الاضطراب في

(١) الصحاح ٧١٧/٢ .

(٢) اللسان (صور) .

(٣) النسخة (٥١٩) أدب ٢٨٩ ، والنسخة (ش ٤٩ أدب) ٣١٣ .

(٤) مشارف الأقاويز ١٢٠ .

(٥) هي الأرجوزة (٢١) من الديوان .

رواية رجز العجاج ، وهو القسم الذي يتصل بأسرة العجاج ، أو قل بولده
 رؤبة . وأما القسم الثاني فقد حدث بسبب تشابه الأراجيز بينه وبين عدد من
 الرجاز أو الذين عرفوا بقول الرجز ، وهذا القسم يكاد يشمل كل ماورد من
 اضطراب وتداخل في أراجيز الديوان ، وإن كان قد يمتد إلى بعض الملحقات
 أيضاً . ولا بد من عرض ومناقشة لكل ماورد من صور هذا النوع من
 الاضطراب .

وإذا كان رؤبة قد مضى الحديث عنه في القسم السابق ، فإن أبا النجم
 العجلي أكثر الرجاز حظاً في هذا القسم ، وذلك لكثرة أراجيزه وشهرتها
 وتشابه بعضها مع أراجيز العجاج ، ولهذا كان ثمة اضطراب أو تداخل بين
 أراجيز العجاج وأي النجم .

ففي إحدى أراجيز العجاج ، ورد هذا البيت ^(١) :

نَظَارِ أَنْ أَرَكَبَهُ نَظَارِ

وقد أنشده المبرد لأبي النجم ^(٢) ، وذلك لوجود أرجوزة له بهذا
 الوزن أمكن لنا أن نجتمع منها نحو ثلاثين بيتاً ، ولا ندري إن كان فيها
 مايشابه هذا البيت في الأصل .

وفي أرجوزة أخرى للعجاج ، ورد هذان البيتان ^(٣) :

تَشْكُو الْوَجَى مِنْ أَظْلَلٍ وَأَظْلَلِ

وَطُولِ إِمْلَالٍ وَظَهْرِ مُمَلِّ

(١) الأرجوزة ٥/٤ .

(٢) الكامل للمبرد ٤١٣ . ونسب هذا البيت لرؤبة في الكتاب ٣٧/٢ ،
 والانصاف ٥٤٠/٢ ، والمخصص ٦٣/١٧ ، وهذه النسبة لا تعدد بعض
 صور الوهم الذي رأيناه في حديثنا عن رؤبة منذ حين .

(٣) الأرجوزة ٨٨/١٢ - ٨٩ .

والبيت الأول من شواهد سيديويه ، ولذلك كثرت روايته عند شرح آياته ، ومن ثم أنشد شارح الشافية هذين البيتين ، ثم قال : « والبيتان من رجز طويل لأبي النجم العجلي ، وصف فيه الإبل لهشام بن عبد الملك وأوله :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْاجْتَلِ

وهذا أيضاً ضرورة ، والقياس الأجل^(١) .

وقد وهم شارح الشافية فظن البيتين من أرجوزة أبي النجم ، وذلك لتشابهها مع رجوزة العجاج ، بل ربما زاده وهما ان موضع الشاهد في بيت العجاج ، وهو فكّ الإدغام ، قد وُجِدَ أيضاً في مطلع أرجوزة أبي النجم ، فأرسل حكمه دون عودة إليها ، أو نظر إلى آياتها .

وفي الأرجوزة (١٧) من أراجيز العجاج^(٢) :

مَعَجَ المَرَامِي عَن قِياسِ الأشْكَلِ

وقد تعرّف هذا البيت في عدد من المصادر^(٣) ، منها أمالي القاضي^(٤) ،

فجاء على هذا النحو :

عُوجاً كَمَا عَوَجَّتْ قِياسُ الأشْكَلِ

وبهذه الرواية أنشده البكري (٥٤٩٦) في سمط اللآلي ، ثم قال :

«أنشده كراع لأبي النجم ، ولم أجده في رجز أبي النجم الذي على هذا الروي^(٥)» .

(١) شرح الشافية ٤/٤٩١ .

(٢) الأرجوزة ١٧/٥٥ .

(٣) مقاييس اللغة ٣/٢٠٥ ، والصحاح ٥/١٧٣٦ .

(٤) الأمالي ٢/٢٦٦ .

(٥) سمط اللآلي ٦٠٦ . وانظر أرجوزة أبي النجم في الطرائف

الأدبية ٥٧ - ٧١ .

ولا شك أن الذي أوقع كراعاً في الوهم إنما هو تحريف البيت ، وعدم نسبته في المصادر التي تحرّف فيها ، ثم تشابه أرجوزة العجاج مع أرجوزة أبي النجم .

ولم يقف الاضطراب مع أبي النجم عند أراجيز الديوان ، وإنما تعدى ذلك إلى بعض الملحقات ، ففي الأرجوزة (١) من الملحقات أنشد أبو عبيدة أبيتاً للعجاج^(١) ، منها هذا البيت :

سَاطِرٌ إِذَا ابْتَلَّ رَقِيقَاهُ نَدَى

وهذا البيت أنشده ابن قتيبة مفرداً لأبي النجم^(٢) ، إلا أن أبا عبيدة أنشده في موضع آخر للعجاج أيضاً^(٣) ، بما يدل على وعي منه في عزوه البيت إلى العجاج ، ولعل هذا هو الصواب بدليل أن ابن قتيبة نفسه قد أنشد أبيتاً من هذه الأرجوزة وعزاها إلى العجاج^(٤) .

والذي أوقع ابن قتيبة في هذا الوهم ، إنما هو تشابه الرجز ، ذلك لوجود أرجوزة على ما يبدو لأبي النجم بهذا الروي وقد جمعنا منها (١٣) بيتاً ولا ندري إذا كانت هذه الأبيات من أبيات تلك الأرجوزة التي ألحقناها بديوان العجاج ، أم أن لكل منها أرجوزة مستقلة بهذا الوزن .

وفي الرقم (٥٠) من الملحقات ، ورد هذا البيت :

كَأَنَّ عَيْنَيْهِ إِذَا مَا أَلْغَفَا

وقد نُسب في جمهرة اللغة إلى العجاج^(٥) ، إلا أن ابن قتيبة (٥٢٧٦) .

-
- (١) كتاب الخيل لأبي عبيدة ١٦٩ .
 - (٢) المعاني الكبير ١٤/١ .
 - (٣) كتاب الخيل ١٢٥ .
 - (٤) المعاني الكبير ١٤/١ .
 - (٥) جمهرة اللغة ١٤٨/٣ ، وعبارة الجمهرة : « قال الراجز العجاج » .

أنشده لأبي النجم ضمن أبيات لا يُفصل عنها لشدة تمكُّنه منها^(١) ، وهذا يعني أنه من هذه الأبيات التي تُروى لأبي النجم ، وإذا كان ثمة أبيات أخرى بهذا الوزن تُروى لأبي النجم في بعض المصادر^(٢) ، فهذا يرجح أن تكون هنالك أرجوزة له ، منها أبيات ابن قتيبة ، وأما الأبيات الثلاثة الباقية في الرقم (٥٠) من ملحقات العجاج ، وهي بيت ورد في اللسان^(٣) ، وبيتان وردا في الألفاظ لابن السكيت (٢٤٤هـ)^(٤) ، فقد تشير إلى أنها ربما كانت أيضاً من أبيات أرجوزة للعجاج ، أو من شوارد الأرجوزة الأخيرة في ديوانه ، وربما كانت أيضاً من أرجوزة أبي النجم وقد نسبت سهواً إلى العجاج في رواية ابن السكيت واللسان .

والمهم أن هذا الاضطراب إنما حدث فعلاً لوجود أرجوزة للعجاج في ديوانه بهذا الروي والقافية هي الأرجوزة (٤٤) وهي آخر أرجوزة وردت في الديوان ، وأولها :

ياصاحـ ماهاجـ الدُموعَ الذُرْفَا من طَلَلِ أضْحَى تَخَالُ المُصْحَفَا
ومن المرجح وجود أرجوزة أخرى تماثلها لأبي النجم ، وهذا التشابه

(١) المعاني الكبير ٢٥٢/١ ، والأبيات وردت فيه على هذا النحو :
 كأن سَقَافاً بخوص سَقَفَا من سعف النخل كميئاً سَعَفَا
 ناط على المتنين منه خَصَفَا وابتز منه الصدر بطناً أهيفَا
 وإن رآه مدلج تلهفا وصدق الظن الذي تخوفَا
 عدواً وإتهاباً يمد الطفطفا كأن عينيه إذا ما الغفا
 للشعريان لاحتا بعد الشفا

(٢) محاضرات الادباء ١٥١/٢ ، والمعاني الكبير ٦٨٨/٢ ، وبعض هذه الأبيات ينسب إلى رؤية ، فانظر العمدة ١٨٨/٢ ، والكامل للمبرد ٥٢٢ ، وروايتها لرؤية قد تكون من قبيل الاضطراب بينه وبين أبي النجم .

(٣) اللسان (وكف) .

(٤) مختصر تهذيب الالفاظ ٤١٧ .

هو الذي أدى إلى الوهم والاضطراب في بعض الأبيات . ولم نجد من أوجه الاضطراب مع أبي النجم لسبب آخر غير تشابه الرجز ، إلاّ بيتين أوردهما ابن منظور ، وهما :

بِإِذَائِدَيْهَا خَوْصًا بِأَرْسَالٍ وَلَا تَدْوِدَاها ذِيادَ الضُّلَّالِ

وقد عزاها إلى أبي النجم العجلي^(١) . ولم نجد لأبي النجم أي شعر بهذا الوزن ، وإنما هنالك أرجوزة مشهورة للعجاج بهذا الوزن سبقت الإشارة إليها في حديث رؤبة ، ولهذا نرجح أن يكون البيتان من أرجوزة العجاج^(٢) ، وأن ماورد في رواية اللسان ليس إلا وليد الوهم أو التصحيف ، والذي حمل صاحب الرواية على ذلك أن البيتين قد وردا في عدد من المصادر دون نسبة^(٣) ، فلما أراد لهما رداً إلى راجز معين ، وهم في ذلك أو أخطأ .

فلاضطراب والتداخل بين أراجيز العجاج وأبي النجم ، كان معظمه بسبب التشابه بين هذه وتلك ، ومثل هذا التشابه كان داعياً إلى شيء من الاضطراب والتداخل أيضاً بين أبيات العجاج ، وأبيات عدد من الرجاز ، أو من عرّف بقول الرجز .

ففي الأرجوزة (١) من ديوان العجاج ، قال يمدح عمر بن عبيد الله بن معمر^(٤) :

يُمْكِنُ السِّيفَ إِذَا الرَّمْحُ انْطَرَفَ فِي هَامَةِ اللَّيْثِ إِذَا مَا اللَّيْثُ هَرَفَ
وفي شرحها قال الأصمعي : « قال العَلَّاقُ بن جَعْلٍ ، وهو مع أبي

-
- (١) اللسان ، مادة (خوص) .
 - (٢) ملحقات ديوانه رقم (٦٤) .
 - (٣) مقاييس اللغة ٢/٢٢٩ ، والصحاح ٣/١٠٣٩ .
 - (٤) الأرجوزة ١/٩٦ - ٩٧ .

موسى أو خالد بن الوليد بنهر المرأة (١) :

مَنْ يُرْنَا يَوْمَ الْمَدَارِ وَالنَّهَرِ بِيَطْنِ مَيْسَانَ وَقَدْ حَقَّ الْجَدْرُ
حَوْلَ أَمِيرٍ صَادِقٍ ثَبَّتِ الْغَدْرُ يُمَكِّنُ السِّيفَ إِذَا الرَّمْحُ انْطَارَ
فِي غَامَةِ اللَّيْلِ إِذَا مَا اللَّيْثُ هَرَّ .

ولم يعلق الأصمعي بشيء حول روايته هذه الايات ، وكأنه يشير إلى ماينها وبين آيات العجاج من تداخل ، ولا نظن أن الأصمعي يشير بذلك إلى أخذ هذا عن ذاك ، لانه لو أراد ذلك لصرح به على عادته في بعض المواضع من شرحه لديوان العجاج (٢) ، أو ديوان رؤبة (٣) . ولكنه يشير إلى مجرد التداخل ، وهذا مرده إلى وهم الرواة وخطهم بين آيات من أرجوزة العجاج مع آيات لابن جحل وذلك لتشابه الرجز .

وفي الأرجوزة (١١) من ديوان العجاج ، ورد هذا البيت في وصف الثور (٤) :

حَتَّى إِذَا الصُّبْحُ لَهُ تَنَفَّسًا

وهذا البيت أنشده أبو عبيدة مع بيت آخر لم يرد في أرجوزة العجاج، ورواه على هذا النحو :

حَتَّى إِذَا الصُّبْحُ لَهَا تَنَفَّسًا وَانْجَابَ عَنْهَا لَيْلُهَا وَعَسَعَسَا

ونسب البيتين إلى علقمة بن قرط (٥) . وقد ورد هذان البيتان بهذه

-
- (١) نهر المرأة : نهر بالبصرة ، انظر معجم البلدان ٣٢٥ .
 - (٢) انظر مثلا شرح الأرجوزة ١٤/٦ من ديوان العجاج .
 - (٣) انظر مثلا ديوان رؤبة : النسخة (٥١٦ أدب) الورقة ١٥٤ ، والنسخة (٥١٩ أدب) ٢١٣ ، والنسخة (ش ٤٩ أدب) ٢٢٧ .
 - (٤) الأرجوزة ٤٦/١١ .
 - (٥) مجاز القرآن ٢٨٧/٢ .

الرواية في بعض المصادر^(١) ، ونسبنا إلى العجاج . وهذا يجعلنا في حيرة من أمرها ، إذ ربما كان هنالك أبيات لعلقة بهذا الوزن منها البيت الثاني ، وربما كان هذا البيت من شوارد أرجوزة العجاج ، ولم ينقله الأصمعي ، وربما كان أيضاً من زيادات رواة الشواهد ، ، زادوه بعد روايتهم البيت الأول شاهداً على اللغة في قوله تعالى : « والصبح إذا تنفس^(٢) » .

فاذا صح وجود أبيات لعلقة بهذا الروي ، فلا شك أن البيت الأول قد تداخل معها بسبب تشابه الوزن ، وإلا فالبيت للعجاج ، والثاني من شوارد أرجوزته ، أو أنه مزيد عليها .

وفي الأرجوزة (١٢) من أراجيز العجاج ، جاء قوله^(٣) :

وَمَنْهَلٍ وَرَدْتُهُ عَن مَنْهَلٍ

وهذا البيت من شواهد النحاة على واو ربّ ، وقد ورد في بعضها دون نسبة ، إلا أن السيوطي أنشده ضمن أرجوزة قوامها (٢٢) بيتاً ، وترتيبه فيها الثالث عشر ، وقدم لها بقوله : « قال ابن الأعرابي في نوادره : أنشدني بكبير ابن عبد الله الربيعي^(٤) » . وعزاه ابن السيد البليوسي إلى العجاج ، ثم قال : « وأنشده ابن الأعرابي في نوادره في رجز ذكر أنه لعبد الله بن رواحة^(٥) » . وجاء بعد هذا البيت في أرجوزة ابن الأعرابي :

قَفَرْتُهُ بِهِ الْأَعْطَانُ لَمْ تُسَهَّلِ عَلَيْهِ نَسْجُ الْعَنْكَبُوتِ الْمُرْمَلِ
طَالَ فَلَمْ يَنْقَطِعْ وَلَمْ يُوَصَّلِ ..

-
- (١) الكشف للزمخشري (٥٣٨ هـ) ٥٢٧/٢ ، ومفاتيح الغيب للرازي (٦٠٦ هـ) ٢٦٦/٨ .
(٢) سورة التكوير ١٨/٨١ .
(٣) الأرجوزة ١٢/١٠٢ .
(٤) شرح شواهد المغني ١٤٨ .
(٥) الاقتضاب ٤٤٤ .

والبيت الثاني من هذه الأبيات ، هو أيضاً من أرجوزة العجاج مع اختلاف يسير في الرواية (١) ، ولا يُعقل أن يكون ثمة اضطراب بين الأرجوزتين : أرجوزة العجاج ، وأرجوزة ابن رواحة ، في هذين البيتين ، وذلك لتمكن كل منهما في موضعه من كل أرجوزة ، ولهذا نرجح ألا يكون ثمة اضطراب أو تداخل بينها ، بل نرجح أن ثمة شيئاً من التضمن أو توارد الحواطر ، لأن معاني الأبيات ربما كانت من المعاني الشائعة بين الشعراء يومئذ ، فكل من عرف الصحراء وقاساها ذلك الحين ، قد سار من منهل إلى منهل ، واول ما يلاحظه حتماً إذا ماورد منهلأ بعيداً عن الواردة ، إنما هو العنكبوت المتدلي من الأغصان ونحوها .

وفي الأرجوزة (١٦) من ديوان العجاج ، قال الأصمعي في شرح البيتين (٢٩ - ٣٠) : « قال الأصمعي : بعضهم يجعل من هذا لدهلب القرئعي . قال أبو سعيد : سمعت عقبة بن روبة ينشدها للعجاج . وقال بعد البيت (٤٣) : « قال : هذا آخرها ، والباقي زيادة » ، ثم رسمت حاشية بخط المقابل تابعت السطر تقول : « أنشدها ابن الأعرابي في نوادره لدهلب » ، وأراد صاحب هذه الحاشية أن الزيادة هي التي أنشدها ابن الأعرابي لدهلب ، وهي أربعة أبيات وردت في نهاية الأرجوزة .

فالأصمعي قد أشار إلى تداخل حدث على السنة الرواة بين أرجوزة العجاج ، وأرجوزة تماثلها لدهلب القرئعي ، إلا أنه احتج بأن موطن التداخل ، في بعض الأبيات التي تروى لدهلب ، قد سمعها الأصمعي نفسه من عقبة بن روبة ينشدها للعجاج ، وهذا حجة في نظره ، وفي نظرنا أيضاً ، على أن هذه الأبيات للعجاج .

(١) الأرجوزة ١٢/١٠٨ .

ولكن بعض هذه الأبيات بقيت تروى لدهلب في بعض المصادر ، فقد أنشد ابن منظور الأبيات (١) :

جاريةٌ ليست من الوخشنَّ
كأن مجرّى دمعها المُستنَّ
قُطُنَّةٌ من أجودِ القطنَّ

وعزاها إلى دهلِب (٢) ، ثم روى البيتين الأخيرين من هذه الأبيات الثلاثة وقدّم لها بقوله : « قال قارب بن سالم المريّ ، ويقال : دهلِب بن قريع : البيتين (٣) » . وبذلك زاد ابن منظور من الاضطراب في رواية هذين البيتين ، إلا أن ابن دريد قد أنشدهما أيضاً وقال مقدّمًا لهما : « وأنشدنا أبو حاتم عن أبي زيد للعجاج : البيتين (٤) » ، مما يدل على أن رواية هذه الأبيات قد جاءت للعجاج من طرق متعددة موثوق بها ، فقد نقلت من طريق عقبة بن روبة ، والأصمعي ، وأبي زيد الأنصاري (٥) ، وأبي حاتم السجستاني وكلهم يجعلونها للعجاج ، ولهذا نرى أن هذه الأبيات ينبغي أن تكون فعلاً للعجاج ، ولكنها تداخلت عند الرواة مع رجز يماثلها لدهلب القريعي ، أو قارب بن سالم المريّ ، وقد نبه الأصمعي على هذا منذ قليل .

وامتد هذا النوع من الاضطراب إلى بعض ملحقات الديوان ، ففي الأرجوزة (٢) من الملحقات ، أنشد التبريزي هذين البيتين :

(١) وهي من أرجوزة العجاج ٣٧/١٦ ، ٤٠ ، ٤١ .

(٢) اللسان (وخش) .

(٣) اللسان (قطن) .

(٤) جمهرة اللغة ٣/١١٥ . وأنشدهما ابن دريد في الجمهرة ٣/٣٥٠ .

دون نسبة .

(٥) جاء في نوادر أبي زيد ما يلي : « قال أبو زيد : وقال الراجز (وهو

قارب بن سالم المريّ ، وقيل : دهلِب بن قريع) : الأبيات ١٦٧ . وما بين

الأقواس ليس من كلام أبي زيد ، والا لما وضع ضمن أقواس فكأنه زيادة من

ناسخ أو محقق ، أخذت من اللسان .

وَاطْأَ مِنْ دَعْسِ الْحَمِيرِ نَيْسَبًا مِنْ صَادِرٍ أَوْ وَارِدٍ أَيْدِي سَبَا
وعزاها إلى العجاج مع أبيات أخرى^(١) ، وفي اللسان أنشد ابن منظور
لدكين الراجز^(٢) :

مَلِكًا تَرَى النَّاسَ إِلَيْهِ نَيْسَبًا مِنْ دَاخِلٍ أَوْ خَارِجٍ أَيْدِي سَبَا
ثم قال : « ويروى : من صادر أو وارد » .

وقد يكون هذا تحريفاً أو اضطراباً أو تداخلاً بين الأرجوزتين ، وقد
يكون مجرد تضمين من أرجوزة العجاج ، أو سرقة لبعض معانيه وهذا هو
الأرجح ، لأن البيت يبدو متمكناً من موضعه في أبيات دكين ، وبذلك
لا يشير إلى التداخل ، وإنما يشير إلى أنه من أصل بناء الأبيات ، وهذا
يعني أن دكينا قد اقتبسه أو سرقه من العجاج .
وفي الرقم (٢٥) من الملحقات ، ورد هذان البيتان في وصف حمر
الوحش :

يَتْبَعْنَ ذَاهِدًا هِدِ عَجَنَسًا إِذَا الْغُرَابَانِ بِهِ تَمَرَسَا
وقد أنشد الجوهري البيت الأول وعزاه إلى العجاج^(٣) ، ثم أنشد ابن
منظور البيتين ، وقال : « قال العجاج وقيل جُرَيَّ الكاهلي : البيتين ، قال
ابن بري : نسب الجوهري هذا البيت للعجاج ، وهو لجري الكاهلي^(٤) » ،
ثم أنشد البيت الأول مع البيت (٢٧) من أرجوزة العجاج (١١) دون
نسبة على هذا النحو^(٥) :

-
- (١) كنز الحفاظ ٥٥ .
 - (٢) اللسان (نسب) .
 - (٣) الصحاح ٩٤٣/٢ .
 - (٤) اللسان (عجنس) .
 - (٥) اللسان (هدد) .

يَتَّبَعْنَ ذَا هُدَاهِدٍ عَجَسًا مُوَاصِلًا قُفْفًا وَرَمَلًا أَدَهَسًا
وهذا تلفيق لامكان له في أرجوزة العجاج ، لأن البيت (٢٧) وما
قبله يتحدث عن القَطَا ، لا عن حمر الوحش .
وبهذا نكون قد فرغنا من دراسة القسم الثاني مما وقفنا عليه من تداخل
واضطراب في رواية رجز العجاج بسبب تشابه الرجز بينه وبين عدد من
الرجاز الآخرين .

وأما القسم الثالث من الاضطراب في رواية رجزه ، فمرده إلى عدم
تَثَبُّتِ الرواة وخلطهم في نسبة الرجز بين العجاج وبين عدد من الرجاز أو من
عُرِفَ بقول الرجز . وهذا الوهم أو الخطأ في الرواية أمر لا يسلم منه رواة
الشواهد ومن إليهم ممن لا يعينهم صاحب البيت أو الأبيات ، وإنما الذي يعينهم
هو ما في البيت أو الأبيات من شاهد على اللغة أو النحو أو المعاني أو ما إلى
ذلك ، ولهذا ربما نسبوا هذه الأبيات خطأ إلى غير أصحابها ، وبذلك ينشأ
الاضطراب في نسبتها بين شاعرين أو أكثر .

ومن هنا كان ثمة اضطراب واسع بين طبقة الرجاز في الأدب العربي ،
فهناك اضطراب في نسبة بعض الرجز بين رؤبة وأبي النجم^(١) ، وبين رؤبة
وأبي نُخَيْلَةَ^(٢) ، وبين رؤبة والخطيئة^(٣) ، وبين رؤبة وعترة بن عروس^(٤) ،
وبين رؤبة وولي الأخيلية^(٥) ، وهنالك اضطراب بين أبي نُخَيْلَةَ وهَمِيان

(١) انظر الشعر والشعراء ٥٨٢ ، والمغرب ٣٣٩ ، وقابل ذلك باللسان
(نيم) ، وانظر الف با ٧٥/٢ فقد تسبب البلوي الى رؤبة أشهر بيت معروف
لأبي النجم .

(٢) انظر البديع ١٤١ ، وقابله بالشعر والشعراء ٥٨٤ ، والعمدة
١٨٧/٢ ، والعقد ٢٠٦/٦ .

(٣) انظر الصحاح ١٩٨٢/٥ ، وقابله بالعمدة ٧٤/١ .

(٤) انظر شرح شواهد المضي ٢٠٦ .

(٥) انظر فتح الجليل ٢٩ .

ابن قُحَافَةَ^(١) ، وبين أبي نخيلة ومعاصره العماني^(٢) ، وهناك اضطراب بين هيمان بن قحافة والزقيان^(٣) ، وبين هيمان بن قحافة وخطام المجاشعي^(٤) ، وهناك اضطراب بين أبي النجم وحميد الأرقط^(٥) ، وبين أبي النجم وغيلان ابن حرث الربيعي^(٦) ، وبين أبي النجم وبعض بني ضبة^(٧) ، وهناك اضطراب بين حميد الأرقط وحميد بن ثور^(٨) ، وثمة اضطراب بين الأغلب العجلي ويحيى بن منصور^(٩) ، وبين الأغلب وخطام المجاشعي^(١٠) ، وبين الأغلب ولى بنت الحميرس^(١١) ، وبين الأغلب وعجفاء بنت علقمة^(١٢) ، وقد يضطرب الرجز الواحد بين عدد من الرُجَّاز ، وهناك مثال على ذلك بين الشماخ وابن أخيه جبار بن جزء بن ضرار وأبي النجم وابن المعتز^(١٣) ، ومثال آخر بين أبي نخيلة والعماني والحكم بن عبدل^(١٤) ، وأمثال هذا كثير .

ولعل من أغرب ما صادفنا من صور هذا الاضطراب بين طبقة الرجاز،

-
- (١) المخصص ١٣٩/١١ ، والكامل ١٤٩ .
 - (٢) خزانة بولاق ٢٩٣/٤ .
 - (٣) الحيوان ١٥/٢ .
 - (٤) الخزانة ٣٧٤/٣ - ٣٧٦ ، وكتاب سيبويه ٢٤١/١ ، ٢٠٢/٢ .
 - (٥) الحيوان ٩٨/٥ ، والجمهرة ٣٠٦/١ - ٣٠٧ .
 - (٦) مجالس ثعلب ٦٥٥ ، ومجاز القرآن ١٥٠/٢ .
 - (٧) شرح أدب الكاتب ٣٣٤ - ٣٣٦ .
 - (٨) اللسان (جفف) .
 - (٩) كتاب الابدال ٨٧/٢ .
 - (١٠) اللسان (رعن) .
 - (١١) جمهرة اللغة ١٧/١ ، ومقاييس اللغة ١٢/١ .
 - (١٢) جمهرة الأمثال ١٦٢ .
 - (١٣) أسرار البلاغة ١٤٤ .

(١٤) قابل بين ديوان المعاني ٣٦/١ ، ومغني اللبيب ١٦٤/١ ، وشرح شواهد المغني ١٧٥ ، وخزانة بولاق ٢٩٢/٤ - ٢٩٣ ، وفوات الوفيات ١٤٦/١ .

أن نجد ابن قتيبة (٢٧٦ هـ) يقول : « أخبرنا أبو حاتم حدثنا الأصمعي قال :
كان ثلاثة أخوة من بني سعد لم يأتوا الأمصار ، فذهب رجزهم ، ويقال لهم
منذر ونذير ومنتذر ، ويقال إن قصيدة رؤبة التي أولها :
وقاتمِ الأعماقِ خاويِ المُخترَقِ

لمنتذر (١) » .

ففي همد الأصمعي وُجِد من يزعم أن أرجوزة رؤبة وهي غرّة ديوانه ،
ليست له وإنما هي لرجز مغمور من بني سعد ، وهذا لا يمكن أن يصدق
بجال على أرجوزة رؤبة .

والمهم أن وهم الرواة وخلطهم في نسبة أبيات الرجز بين عدد من
الرجاز أو الشعراء قد حمل على وجود اضطراب واسع في رواية رجز العجاج ،
إلاّ أن ذلك لا يكاد يخرج عن ملحقات الديوان إلاّ نادراً ، إذ لم نجد من
هذا النوع غير بيت واحد في الديوان قد تلاقى على الاضطراب حوله كل من
العجاج ورؤبة وذو الرمة ، وذلك بسبب الوهم والخطأ من الرواة ، وهذا
البيت هو (٢) :

تَرْجِي أَرَايِلَ الْجَهَامِ الْخُورِ

فقد أنشده ابن منظور لذي الرمة (٣) ، وأنشده الزمخشري لرؤبة (٤) ،
وكلا الروايتين فيها خطأ أو وهم ، لأن البيت من أرجوزة للعجاج في ديوانه
وليس لرؤبة أو لذي الرمة رجز بهذا الوزن .

-
- (١) الشعر والشعراء ٥ ، وقارن ذلك بالوساطة ١٣١ - ١٣٢ .
 - (٢) الأرجوزة ٧٦/١٩ .
 - (٣) اللسان (رعل) .
 - (٤) أساس البلاغة ١/٣٥٠ .

ولا نكاد نضيف إلى هذا البيت ، إلا بعض الصور التي مرت بنا فيما سبق ، وأما سائر هذا النوع من الاضطراب فهو خاص برواية بعض الملحقات ، وسوف نعرض لها جميعاً .

ففي الأرجوزة (٢) من الملحقات ، أنشد الزبيدي للعجاج (١) :

وإن تَوَنَّى التَّالِيَاتُ عَقْبًا

وأنشده ابن منظور للطرماح (٢) ، وكان صاحب التاج قد صحح ما وهم به صاحب رواية اللسان ، لأن البيت أقرب إلى العجاج منه إلى الطرماح ، ذلك لوجود أرجوزة بهذا الوزن للعجاج ، وليس من أرجوزة للطرماح بهذا الوزن ، مما يرجح أن يكون البيت للعجاج .

وفي الأرجوزة (٧) من الملحقات ، التي أولها :

وَمَنْهَلٍ فِيهِ الْغُرَابُ مَيْتٌ كَأَنَّهُ مِنَ الْأَجُونِ زَيْتٌ

أشار البكري إلى أبيات الرجز ، وقال : « هذه الأسطار قد نسبها قوم للعجاج ، ونسبها آخرون إلى أبي محمد الفقعسي ، وكذلك قال يعقوب إنها للحدلمي (٣) » ، وأشار إليها في موضع آخر فقال : « هو لأبي محمد الجرمي الفقعسي ، وقد مضى القول فيه » ، وقد نُسِبَ هذا الرجز إلى العجاج والصحيح ما قدمناه (٤) ، وأنشد ابن منظور الأبيات (١ - ٣) ونسبها إلى أبي محمد الفقعسي (٥) ، وأنشد الأبيات (٧ - ٩) وعزاها أيضا إلى أبي

-
- (١) التاج (عقب) .
 - (٢) اللسان (عقب) .
 - (٣) سمط اللالي ٢٠١ .
 - (٤) سمط اللالي ١٦٩ .
 - (٥) اللسان (أجن) .

محمد الفقعسي^(١) ، واتسع الاضطراب حول هذه الأبيات فامتد إلى رُوْبة أيضاً إذ أنشد أبو عبيدة البيتين (٤ - ٥) في مجاز القرآن وعزاهما إلى رُوْبة في موضعين من كتابه^(٢) ، ولعله هو السبب لنقل أبي حيان الأندلسي نسبة هذين البيتين إلى رُوْبة^(٣) .

والحقّ أنّ رواية أبي عبيدة (٥٢١٠ هـ) لبعض الأبيات وعزوه إليها إلى رُوْبة ، يمكن أن تكون صورة من صور الاضطراب بين العجاج ورُوْبة التي مرّت بنا فيما سبق ، وهي مرجح للعجاج على الفقعسي ، ولكننا لانكاد نقطع بهذا الترجيح لأننا لم نقف على مصادر البكري (٥٤٩٦ هـ) ، ولم نعلم شيئاً عمّن روى هذه الأبيات للعجاج ، أو عمّن رواها لأبي محمد الخدلي غير ما جاء في اللسان .

وفي الرقم (١٤) من الملحقات ، أنشد البغدادي هذه الأبيات للعجاج^(٤) :

لاخَيْرَ فِي الشَّيْخِ إِذَا مَا اجْلَخْنَا وَسَالَ غَرْبُ عَيْنِهِ وَلَسَخَا
وَكَانَ أَكْلًا قَاعِدًا وَسَخَا تَحْتِ رِوَاقِ الْبَيْتِ يَغْشَى الدُّخَا
وَأَشْتَتَ الرَّجْلُ فَكَانَتْ فَخَا وَكَانَ وَصَلُ الْغَانِيَاتِ أَخَا

وقال البغدادي في البيت الأخير : « ولم أر نسبة البيت للعجاج إلاّ في الفصل وفي العباب للساغاني » ، وفي هذا القول وهم أو تصحيف ، ذلك لأن الزمخشري في الفصل قد أنشد البيت دون نسبة^(٥) ، وإنما الذي أنشده

-
- (١) اللسان (جمم) .
(٢) مجاز القرآن ٢/٢٢١ ، ٢٣٢ .
(٣) تفسير البحر المحيط ٨/١٠٤ .
(٤) خزانة بولاق ٣/١٠٣ .
(٥) الفصل ١٦٥ .

للعجاج هو ابن يعيش في شرح المفصل (١) .

والمهم أن ابن يعيش والصاغاني هما اللذان نسبا بعض هذه الأبيات إلى العجاج ، وقد وردت طائفة منها في عدة مصادر (٢) ، ولكنها لم تنسب إلى راجز معين ، إلا أن البغدادي نقل أيضاً بسنده عن الأصمعي أن الأبيات لأعرابية في زوجها وكان شيخاً ، فقال : « وقال أبو عبد الله محمد بن الحسين اليمني في طبقات النحويين : حدثنا ابن مطرف قال أخبرنا ابن دريد قال أخبرنا عبد الرحمن عن عمه قال : قالت أعرابية في زوجها وكان شيخاً : الأبيات (٣) » ، ثم روى الأصمعي أبياتاً لزوجها يردّها بها عليها .

ولا شك أن رواية الأصمعي هذه الأبيات لأعرابية مرجح أن تكون لها دون العجاج ، ولا سيما أنها ترتبط في رواية الأصمعي بنجر معين ، يمكن أن يساعد على تحديد صاحب الأبيات .

وفي الرقم (٢٣) من الملحقات ، أنشد ابن السكيت (٢٤٤ هـ) هذين البيتين :

فوردت قبل انبلاج الفجرِ وابنٌ ذكوةٍ كامنٌ في كفرٍ

ونسب البيتين إلى حميد (٤) ، وأنشدهما ابن منظور لحميد أيضاً (٥) ،

وأضاف التبريزي (٥٥٢ هـ) إليها ثالثاً ونسب الأبيات إلى حميد أيضاً (٦) ، إلا

أن الجاحظ (٢٥٥ هـ) أنشد البيت الثاني ونسبه إلى العجاج (٧) ، والجاحظ

وابن السكيت متعاصران وكلاهما حجة في روايته ، ولئن كان التبريزي

(١) شرح المفصل ٥٣٦/٢ .

(٢) انظر تخريجها في آخر الديوان .

(٣) خزانة بولاق ١٠٤/٣ .

(٤) مختصر تهذيب الالفاظ ٢٣١ .

(٥) اللسان (كفر) ، وأنشدهما في (ذكا) دون نسبة .

(٦) كنز الحفاظ في كتاب تهذيب الالفاظ ٣٨٧ .

(٧) الحيوان ١٣/٥ .

واللسان مرجحاً لابن السكيت ، فابن رشيق (٥٤٦٣) مرجح للجاحظ لأنه أنشد للعجاج بيتين آخرين بهذا الوزن نفسه (١) ، والمعاني فيها تتصل اتصالاً وثيقاً بمعاني هذه الأبيات ، مما يدل على أنها جميعاً من أرجوزة واحدة في الأصل ، ومن ثم لانجد مرجحاً في نسبة الأبيات إلى حميد أو إلى العجاج .

وفي الرقم (٣٠) من الملحقات ، أنشد الزمخشري (٥٣٨) :

لَقَد تَخَاذَرْتُ وَمَا بِي مِنْ خَزَرٍ

ونسبه إلى العجاج (٢) ، وهذا البيت ورد في عدة مصادر دون نسبة (٣) ،

ورواه الجواليقي (٥٣٩) أول أربعة أبيات على هذا النحو :

إِذَا تَخَاذَرْتُ وَمَا بِي مِنْ خَزَرٍ ثُمَّ كَسَرْتُ الْعَيْنَ مِنْ غَيْرِ عَوَرٍ

أَلْفَيْتَنِي أَلْوَى بَعِيدَ الْمُسْتَمَرِّ أَحْمِلُ مَا حَمَلْتُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرِّ

ونسب الأبيات إلى الأغلب العجلي (٣) . ثم رواه الدميري مع أربعة

أبيات على هذا النحو :

إِذَا تَخَاذَرْتُ وَمَا بِي مِنْ خَزَرٍ ثُمَّ كَسَرْتُ الطَّرْفَ مِنْ غَيْرِ عَوَرٍ

أَلْفَيْتَنِي أَلْوَى بَعِيدَ الْمُسْتَمَرِّ كَالْحَيَّةِ الصَّمَاوِي فِي أَصْلِ الشَّجَرِ

أَحْمِلُ مَا حَمَلْتُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرِّ

تم قال مقدا لها : « قال عمرو بن العاص رضي الله عنه يوم صفين (٥) » .

(١) العمدة ١.٩/٢ .

(٢) أساس البلاغة ٢٢٧/١ .

(٣) كتاب سيبويه ٢٣٩/٢ ، والحيوان ٢٨٠/١ ، والمخصص ١١٩/١ ،

والمفصل ٢٨٠ ، واللسان (خزر) .

(٤) شرح ادب الكاتب ٣٢١ ، وأنشدها ابن سيده في المخصص ١٤/١٨٠ .

دون نسبة .

(٥) حياة الحيوان ٢٥٤/١ ، وراها القالي دون نسبة في أماليه ١/٩٥ .

مع اختلاف في الترتيب والرواية .

وبذلك أصبح الاضطراب في هذه الأبيات بين الأغلب والعجاج وعمرو بن العاص ، إلاّ أن ابن منظور انشد الأبيات الأربعة المتقدمة ثم قال : « قال ابن بري : هذا الرجز يروى لعمر بن العاص ، قال : وهو المشهور ، ويقال : إنه لأرطاة بن سهية تمثّل به عمرو رضي الله عنه »^(١) .

وهذا يشير إلى أن الرجز ليس لعمر بن العاص ، وإنما تمثل به تمثلاً ، وإذا كان قد تمثل بهذا يوم صفين فهذا يرجح ألاّ تكون الأبيات للعجاج ، لأنها تتم عن تقدم في السن ، وحنكة وتجربة لدى قائلها ، وهذا قد يتوفر لدى الأغلب أو ابن سهية في ذلك الحين ، ولكنه لا يتوفر للعجاج آنشد لأنه كان ما يزال في شبابه . ومن هنا تبقى الأبيات متنازعة بين الأغلب العجلي وأرطاة بن سهية ، وليس من مرجح بينها يميل بها إلى هذا أو ذاك .

وفي الرقم (٣١) من الملحقات ، أنشد البكري أرجوزة أولها :

يَضْرِبْنَ جَابًا كَمَدْقِ الْمِعْطِيرِ

يَنْتَشِفُ الْبَوْلَ انْتِشَافَ الْمَعْدُورِ

ورواها دون نسبة^(١) . إلاّ أن الأبيات (١ ، ٤ ، ٥) نسبت إلى العجاج في مواضع متعددة من الصحاح^(٣) ، واللسان^(٤) ، والأبيات (٧ ، ٩ ، ١٠) نسبت إلى منظور بن مرثد الأسدي في موضع واحد من اللسان^(٥) . ونسبة الأبيات إلى العجاج في مواضع متعددة من الصحاح واللسان ، أرجح من نسبتها إلى منظور بن مرثد في موضع واحد من اللسان ، ولهذا نرجح

(١) اللسان (مرر) .

(٢) أراجيز العرب ١٥٥ .

(٣) الصحاح ٧٥١/٢ و ١٤٧٦/٤ و ١٥٠٩/٤ .

(٤) اللسان (عطر) و (دقق) و (صلق) .

(٥) اللسان (روح) .

أن تكون الأرجوزة بكاملها للعجاج .

وفي الرقم (٤٠) من الملحقات ، أنشد السيوطي أبياتاً أولها :
أَصْبَحْتُ لَا يَحْمِلُ بَعْضِي بَعْضِي مُنْفَهًا أَرْوْحُ مِثْلَ النِقْضِ
وقال : « وفي شرح سيبويه للزمخشري : هذا الرجز للأغلب العجلي ،
وقيل : للعجاج ، وأوله : (الأبيات) (١) » .

وهذا الرجز وردت بعض أبياته في مصادر كثيرة دون نسبة (٢) ،
ونُسبت بعض أبياته إلى الأغلب العجلي عند أبي حاتم السجستاني (٣) ،
والأصفهاني (٤) ، والعيبي (٥) ، والبغدادي (٦) ، ونُسبت أبيات أخرى إلى
العجاج عند سيبويه (٧) ، وابن سيده (٨) ، والشتمري (٩) ، وأبي عبيدة معمر
ابن المثني (١٠) .

ولا شك أن منزلة سيبويه وأبي عبيدة ، تقابلها منزلة أبي حاتم السجستاني
والأصفهاني ، ولذلك لانجد مجالاً للترجيح من حيث المصادر ، ولكن الجاحظ
نقل أن معاوية بن أبي سفيان قد رأى هزاله وهو مُتَعَرِّفٌ فقال بعض هذه
الآيات (١١) ، ولا مِرْيَةَ أن معاوية قد تمثل بها لما تَتَحَدَّثُ عنه من

-
- (١) شرح شواهد المغني ٢٩٨ .
 - (٢) انظر تخريج الابيات في آخر الديوان .
 - (٣) كتاب العميرين ٧٩ .
 - (٤) الاغاني ١٦٤/١٨ .
 - (٥) المقاصد ٣/٣٩٥ ، والفرائد ٢٣٣ .
 - (٦) الخزانة ٤/١٦٧ - ١٦٨ .
 - (٧) الكتاب ١/٢٦ ، وعبارة الكتاب : «وقال العجاج» ، وهي صريحة
بأنها من كلام سيبويه .
 - (٨) المخصص ٧٨/١٧ .
 - (٩) تحصيل عين الذهب ١/٢٦ .
 - (١٠) مجاز القرآن ١/٩٩ .
 - (١١) البيان والتبيين ٤/٦٠ ، ونقله السيوطي عن الجاحظ في شرح
شواهد المغني ٢٩٨ .

ضعف وهرم . وإذا صح هذا الخبر الذي نقله الجاحظ فهو يحتم أن تكون الأبيات للأغلب للعجاج ، لأن معاوية توفي سنة (٦٠ هـ) ، ولعله قال هذه الأبيات سنة وفاته أو قبل ذلك بسنوات ، وعلى الحالين فالأبيات ينبغي أن تكون قد خرجت من شفاه صاحبها قبل سنوات على الأقل ، حتى أمكن لها أن تبلغ من الشهرة ما يصل بها إلى أسماع الخليفة وذاكرته ، والعجاج في ذلك الحين لم يكن من الهرم بمثل ماتصور الأبيات ، ، لأنه توفي بعد معاوية بنحو ثلاثين عاماً ، ولهذا نرجح أن تكون الأبيات للأغلب لانه من المعمرين وقد توفي سنة (١٩ هـ) في معركة نهاوند أيام الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١) .

وفي الرقم (٤٤) من الملحقات ، أنشد الجوهري هذا البيت :

كَأَنَّمَا رَحَلِيَّ وَالْقَرَاِطَطَا

ونسبه إلى العجاج (٢) ، ثم أنشده ابن منظور وقال : « هذا الرجز نسبة الجوهري للعجاج ، وقال ابن بري : هو للزيان للعجاج ، قال : والصحيح في إنشاده :

كَأَنَّ أَقْتَادِيَّ وَالْأَسَامِطَا وَالرَّحَلَ وَالْأَنْسَاعَ وَالْقَرَاِطَطَا
ضَمَّتْهُنَّ أَخْدَرِيًّا نَاسِطَا (٣) »

وهذا يعني أن الأبيات مضطربة الرواية بين العجاج والزيان ، وليس من مرجح بينها إلا قول ابن بري وليس كلامه بالقول الفصل ، لأنه لايعرض سبباً أو حجة لذلك .

-
- (١) الشعر والشعراء ٥٩٥ ، والاغاني ١٦٤/١٨ .
(٢) الصحاح ١١٥١/٣ .
(٣) اللسان (قرط) .

وفي الرقم (٥٨) من الملحقات ، أنشد ابن فارس هذا البيت :

بَارَكَ فِيكَ اللَّهُ مِنْ ذِي آلٍ

ونسبه إلى العجاج ^(١) ، ثم أنشده ابن منظور فقال : « قال أبو الحضر

اليربوعي يمدح عبد الملك بن مروان ، وكان أجرى مهراً فسبى :

مُهْرَ أَبِي الْحَبَابِ لَا تَشَلِّي بَارَكَ فِيكَ اللَّهُ مِنْ ذِي آلٍ

أي من فرس ذي سرعة ^(٢) . ثم أنشد هذين البيتين مرة أخرى لأبي

الحضر اليربوعي أيضاً ^(٣) . ومن المرجح أن يكون البيت لأبي الحضر

اليربوعي خلافاً لابن فارس ، ذلك لأن رواية اللسان قد حددت مناسبة البيت ،

ولا شك أن تحديد هذه المناسبة أدعى إلى تحديد صاحب البيت ، وهذا أوثق

من رواية البيت مجرداً من ذلك ، يتبا دون أقرانه ، فمثل هذه الرواية قد

يقع صاحبها في وهم أو نسيان أو خطأ في عزو البيت إلى صاحبه ، ولهذا

نرجح أن يكون البيت لليربوعي دون العجاج .

وفي الرقم (٦٣) من الملحقات ، أنشد ابن منظور هذه الأبيات :

تَبَادِرَ الْحَوْضِ إِذَا الْحَوْضُ شَغِيلٌ بِشَعَشَعَانِيٍّ صُهَابِيٍّ هَدِيلٌ

وَمَنْكَبَاهَا خَلْفَ أَوْزَاكِ الْإِبِلِ

ونسب الأبيات إلى العجاج ^(٤) ، وأنشد البيت الثاني في موضع آخر

ونسبه إلى العجاج أيضاً ^(٥) ، وفي موضع ثالث أنشد البيتين الأول والثاني مع

اختلاف يسير في الرواية ونسبها إلى أبي محمد الخذلمي ^(٦) ، وهذا يعني أن الأبيات

(١) مجمل اللغة ٧/١ .

(٢) اللسان (ألل) .

(٣) اللسان (شلل) .

(٤) اللسان (شعع) .

(٥) اللسان (صهب) .

(٦) اللسان (هدل) .

ربما كانت متازعة بين العجاج والحذلي ، ولا مرجح بينها إلا أن يقال إن نسبة الأبيات إلى العجاج في موضعين من اللسان ، أرجح من نسبتها لأبي محمد الحذلي في موضع واحد .

وفي الرقم (٦٨) من الملحقات ، أنشد البغدادي هذين البيتين :
بِالْيَتِّهَا قَدْ خَرَجَتْ مِنْ فَمِّهِ حَتَّى يَعُودَ الْمَلِكُ فِي أُسْطُمِهِ
وكان قد أنشد الأول : « حتى إذا ما خرجت .. » ، ثم قال :
« والبيت من أرجوزة للعجاج ، وقد تقدمت ترجمته في الشاهد الحادي والعشرين من أوائل الكتاب ، ورواية الشارح للبيت غير جيدة ، والصواب :
بِالْيَتِّهَا قَدْ خَرَجَتْ مِنْ فَمِّهِ

كما هو في ديوانه (١) .

فالبغدادي قد رأى أرجوزة لهذين البيتين في ديوان العجاج ، وليس من وهم أو تصحيف في ذكره للعجاج ، لأنه أكد أنه يريد به بذاته حين قال :
« وقد تقدمت ترجمته في الشاهد الحادي والعشرين من أوائل الكتاب » ،
والذي ترجم له في الشاهد (٢١) من الخزانة إنما هو العجاج فعلاً (٢) .

ومن الغريب أن البغدادي لم يشر إلى غير العجاج في نسبة الأبيات ، ولعله لم يفعل ذلك ، لأنه رآها في ديوانه ، إلا أن ابن عبد ربه (٥٣٢٨) أورد خبراً جاء فيه قوله : « وحدث الهيثم بن عدي عن سليمان عن ابن عباس ، قال : لما أراد الوليد أن يبايع لابنه عبد العزيز بعد سليمان ، أبا ذلك سليمان وشنع عليه ، وقيل للوليد : لو أمرت الشعراء أن يقولوا في

(١) الخزانة ٣٧٨/٤ - ٣٧٩ .

(٢) الخزانة ١٥٧/١ .

ذلك لعله يسكت فيشهد عليه بذلك . فدعا الأقبيل العتيبي فقال له :
ارتجز بذلك وهو يسمع فدعا سليمان فسأيره ، والأقبيل خلفه ، فرفع صوته
فقال :

إِنَّ وَلِيَّ الْعَهْدِ لَابْنُ أُمِّهِ ثُمَّ ابْنُهُ وَلِيُّ عَهْدِ عَمِّهِ
قَدْ رَضِيَ النَّاسُ بِهِ فَسَمَّهُ فَهَوَّ يَضُمُّ الْمَلِكُ فِي مَضْمِهِ
بِالْيَتَاهُ قَدْ خَرَجَتْ مِنْ فَمِّهِ حَتَّى يَعُودَ الْمَلِكُ فِي أُسْطُمِّهِ

فالتفت إليه سليمان ، وقال : يا ابن الحبيثة ، من رضي بهذا؟ (١) .
وهذا الخبر يجعل الأبيات للأقبيل العتيبي ، وثمة خبر مشابه أورده ابن
رشيقي (٥٤٦٣) يجعل الأبيات للعُماني الراجز ، وفيه يقول : « ودخل
العُماني الشاعر وهو أبو العباس محمد بن ذئيب الفقيمي على الرشيد فأنشده
أرجوزة يقول فيها :

قُلْ لِلْإِمَامِ الْمُقْتَدَى بِأُمِّهِ مَا قَاسَمُ دُونَ مَدَى ابْنِ أُمِّهِ
فَقَدَّرَ رَضِيَانَهُ فَمُّهُ فَسَمَّهُ (٢) »

والعُماني هنا يطلب من الرشيد أن يبايع لابنه القاسم بولاية العهد ،
والأبيات في هذا الخبر لاتنأى عن الأبيات السابقة ، وإنما تشترك معها
في توسيع الاضطراب حولها بين العجاج ، والأقبيل ، والعُماني . وهذا
الاضطراب قد اتسع في اللسان إذ روى ابن منظور هذه الأبيات للعُماني
يخاطب الرشيد :

مَا قَاسَمَ دُونَ مَدَى ابْنِ أُمِّهِ قَدَّرَ رَضِيَانَهُ فَمُّهُ فَسَمَّهُ

(١) العقد الفريد ١٨٦/٥ - ١٨٧
(٢) العمدة ٣١/١ - ٣٢ .

يَالَيْتَهَا قَدْ خَرَجَتْ مِنْ فُؤْمِهِ حَتَّى يَعُودَ الْمَلِكُ فِي أُسْطُومِهِ
ثم قال بعدها : « وقال ابن خالويه : الرجز لجرير قاله في سليمان بن
عبد الملك وعبد العزيز ، وهو :

إِنَّ الْإِمَامَ بَعْدَهُ ابْنُ أُمَّهِ ثُمَّ ابْنُهُ وَلِيُّ عَهْدِ عَمِّهِ
قَدْرَضِيَ النَّاسُ بِهِ فَسَمَّهَ يَالَيْتَهَا قَدْ خَرَجَتْ مِنْ فُؤْمِهِ
حَتَّى يَعُودَ الْمَلِكُ فِي أُسْطُومِهِ أَبْرَزْ لَنَا يَمِينَهُ مِنْ كُمِّهِ (١) »
وهكذا فالآيات متنازعة بين العجاج ، وجرير ، والأقيل ، والعماني ،
وبين العصرين الأموي والعباسي ، ولا نكاد نسلم أن تكون للعجاج
لأنها في الأخبار جميعاً ترتبط بأمر ولاية للعهد ، ولم نجد في أخبار العجاج
شيئاً من ذلك ، وطبيعة العجاج أصلاً تحول بينه وبين أمثال هذه المآزق ،
وأما وجود الآيات في ديوانه على قول صاحب الخزانة ، فليس له تفسير
إلا أن يكون زيادة من النسخ ، لأن الأعمى أدري بأمثال هذه الأخبار
المصلة ببني أمية ، وأعلم بهذه الأشعار إن كانت قد أنشدت حقاً في
بلاط الرشيد .

وفي الرقم (٧٠) من الملحقات ، أنشد العيني أرجوزة ، أولها :
عَبْسِيَّةٌ لَمْ تَرَعْ قَنُفًا أَدْرَمًا وَلَمْ تُعَجِّمْ عُرْفُطًا مُعَجِّمًا
وقال بعد إنشاده البيتين (١٨ - ١٩) : « أقول قائلة هو أبو حيان
الفقعسي ، كذا قاله ابن هشام الحنبلي ، وقال ابن هشام اللخمي : قائله
مساور العبسي ، ويقال : العجاج والد رؤبة ، وقال السيرافي : قائله الديبري ،
وقال الصاغاني : قائله عبد بني عبس . وهو من قصيدة مرجزة أولها هو قوله :

(١) اللسان (طسم) .

(الأبيات) (١) .

وأشار البغدادي إلى شيء من قول العيني ، وزاد عليه قوله : « وقد روى الحلواني في كتاب الشعراء المنسويين الى أمهاتهم الأبيات الأخيرة من قوله :

عند كرامٍ لم يكن مكرماً

إلى آخرها باختلاف في بعض الألفاظ ، ونسب الشعر إلى ابن جبانة ، بضم الجيم وبعدها موحدتان خفيفتان وهو شاعر جاهلي لص ... ونسب ابن السيد واللخمي هذا الشعر إلى مساور العبسي ، ونسبه بعضهم إلى العجاج ، قال ابن السيرافي في شرح أبيات الغريب المصنف للعجاج قصيدة ، يشبه أن تكون هذه الأبيات منها ، والرواية تختلف ، وأبيات العجاج في صفة فجل من فحول الإبل .. (٢) » .

ولا شك أن السيرافي قد أشار إلى أرجوزة العجاج (٣) :

طاف الخيالان فهاجبا سقما خيالٌ تكنى وخيالٌ تكتما

ولم ترد فيها أبيات الأرجوزة المتنازعة بين عدد من الرجاز ، ولكنه لا يبعد أن تكون جزءاً منها لم ينقله الأصمعي ، أو أن تكون أرجوزة أخرى للعجاج تتفق مع الأولى رويًا وقافية ، ولكن هذا أو ذلك من الصعب أن نجد عليه دليلاً ، وإذا كانت ثلاثة أبيات من الأرجوزة المتنازعة بين عدد من الرجاز قد نسبت في جمهرة اللغة إلى العجاج ، فهذه النسبة زيادة

(١) المقاصد النحوية ٤/٨٠ ، ومثله في الفرائد ٢٨٤ ، وشرح شواهد

المفني ٣٢٩ .

(٢) خزانة بولاق ٤/٥٧٣ .

(٣) الأرجوزة (٢١) من ديوان العجاج .

من المحقق على الأرجح^(١) ، وبذلك لانجد من الأدلة ما ميل بالأرجوزة إلى العجاج أو غيره ، وإنما تبقى مُتَنَازَعَة بينه وبين عدد من الرجاز .

وفي الرقم (٧٣) من الملحقات أنشد الزبيدي هذا البيت :

يَطْفَنَ بِحُوزِيَّ المَرَاتِعِ لم تُرَعْ

بَوَادِيهِ من قِرَعِ القِسيِّ الكِنَانِ

وعزاه إلى العجاج^(٢) ، وهذا البيت أنشده ابن منظور وعزاه إلى الطرماح^(٣) ، وأنشد الرماني عجزه وعزاه إلى الطرماح أيضاً^(٤) ، وإنشاده من قبل الرماني وابن منظور للطرماح يؤيد أن يكون للطرماح فعلاً ، وذلك لأنها أسبق من المرتضى الزبيدي زمناً ، ولأن البيت من الطويل ، ويبدو أنه من قصيدة وليس بيتاً ، والعجاج قل أن يقول شعراً من غير الرجز إلا فيما ندر ، ولا يقول إلا البيت أو البيتين ، أما القصائد غير المرجزة ، فلا أثر لها في ديوانه أو في مصادرنا على اختلاف أنواعها .

وفي الرقم (٧٦) من الملحقات ، أنشد ابن منظور هذه الأبيات :

مَابَالُ عَيْنِ شَوْقِهَا اسْتَبْكَهَا فِي رَسْمِ دَارِ لَبِيسَتِ بِلَاهَا

تَأَلَّه لَوْلَا النَّارُ أَنْ نَصَلَاهَا أَوْ يَدْعُو النَّاسُ عَلَيْنَا اللَّهُ

لَمَّا سَمِعْنَا لِأَمِيرِ قَاهَا

ونسب الأبيات إلى الزفيان^(٥) . والبيت الاخير أنشده الجوهري ونسبه

-
- (١) جمهرة اللغة ٣/٣٢٥ ، وعبارة الجمهرة وردت على هذا النحو :
« وقال الراجز في الشجعم - هو العجاج » .
(٢) تاج العروس (حوز) .
(٣) اللسان (حوز) .
(٤) توجيه اعراب أبيات ملفزة الإعراب ٥٥ .
(٥) اللسان (قوه) .

إلى العجاج^(١) ولهذا أنشد ابن منظور الأبيات الثلاثة الأخيرة ، وقال قبلها :
« وقال العجاج ، قال ابن بري : صوابه الزفيان^(٢) » ، فقد نسب ابن
منظور الأبيات الأخيرة للعجاج ثم أورد تصويب ابن بري بأنها للزفيان ،
ومن هنا نجد الأبيات متنازعة بين العجاج والزفيان ، والذي يرجح أنها للعجاج
مافيه من معان تقرب كلّ القرب من معاني العجاج المعروفة في هذا الموضوع
وكذلك وجود بيتين آخرين من هذا الروي انشدهما الزمخشري للعجاج^(٣) ،
ولهذا نرجح أن تكون الأبيات كلها للعجاج ، وهي أشأت من أرجوزة
ضائعة له .

وبهذا ينتهي القسم الثالث من الاضطراب في رواية رجز العجاج ، وكاد
يقتصر على ملحقات الديوان بوجه خاص ، لأنها أكثر الأراجيز هدفاً لوهم
الرواة وخلطهم بين هذا وذاك من الرجاّز .

وأما القسم الرابع فهو ما أنشد للعجاج من أبيات وليست له ، وإنما
هي من قصائد أو أراجيز أمكن لنا أن نعثر عليها في دواوين أصحابها ،
وبذلك أخرجنا تلك الأبيات من الديوان ، وألحقناها به في قسم خاص أطلقنا
عليه اسم « ما أنشد للعجاج وليس له » . ولا حاجة بنا إلى استعراض
ماورد منها ، لأنها لا تحتاج إلى أيّ مناقشة ، ذلك لأنها مجرد أبيات وردت
في بعض المصادر منسوبة إلى العجاج ، وقد أمكن أن نعثر على قصيدة كل
بيت ، ونزدها إلى صاحبها ، ونحدد مكانها في ديوانه ، وبذلك أصبح من
المحال أن تكون تلك الأبيات لراجزنا العجاج . ولم نسلححق بهذا القسم شيئاً
بما رجحنا أنه لغير العجاج فيما سبق ، لأن مجرد الترجيح ليس فيه كلّ اليقين ،

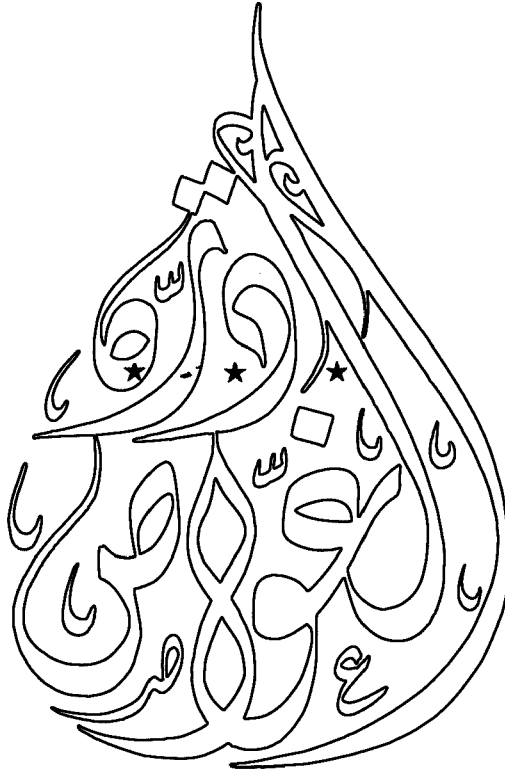
(١) الصحاح ٢٤٠٣/٦ .

(٢) اللسان (صلا) .

(٣) أساس البلاغة ١١٢/١ .

وليس من السائغ أن نلحق ذلك بما ثبت يقينا أنه ليس للعجاج ، رغم نسبته إليه في بعض المصادر .

ولا مرية أننا بدراسة ما داخل رجز العجاج من اضطراب أو انتحال ، قد غربلنا هذا الرجز ، وأصبح من اليسير أن نتجه إلى دراسة موضوعاته وخصائصه ، وذلك من خلال الرجز الموثق الذي بقي لدينا من ديوانه ، وما كان لنا أن نقف على صورة واقعية لما فيه من موضوعات أو خصائص فنية قبل تلك المرحلة من التوثيق والغربة .



الفصل الرابع

موضوعات رجزه

في هذا الفصل سوف نتحدث عن الموضوعات التي تناولها العجاج في رجزه ، والموضوعات التي صدّ عنها ، ولكننا لانفهم دور العجاج في مدرسة الرجز ، إلاّ إذا عدنا قليلاً إلى موضوعات الرجز قبل العجاج ، على أننا لن ندخل هذا البحث دخول المؤرخ او المستقضي رغم مالدينا من الأسباب التي تسهل علينا طريق الاطالة والاسهاب في ذلك ، واهمها ماقمنا به من جمع لدواوين أكثر الرجاز المشاهير ، ممن فقِدَت دواوينهم أو حُفِظت أقسام منها قليلة ، ولكن مثل هذه الدراسة المطولة أخرى أن تكون خاصة بداسة « تاريخ الرجز » ، لا أن تُسلك ضمن دراسة خاصة براجز معين ، ولهذا لن نتناول موضوع الرجز قبل العجاج ، إلاّ بشيء من الایجاز والوقوف عند الأمور الهامة فحسب ، والتي فيها مايساعد على فهم دور العجاج في تطوير موضوعات الرجز .

١ - موضوعات الرجز قبل العجاج

لاشك أن الرجز من أقدم الأوزان في الشعر العربي ، بل إن بعض الباحثين يردّ ظهور الشعر العربي إلى هذا الوزن ، فيرى أن الشعر إنما بدأ بوزن الرجز ، ثم ربط بعضهم بين الرجز والإبل والحداء ، واتخذ من حداء

الإبل ، أو إيقاع أقدامها على الأرض ، مبدأ لظهور هذا الكلام الشعري الموزون ، وهذه النظرة إلى الرجز قديمة ليس لأحد من المحدثين أن يدعيها لنفسه ، فقد نقل القرشي بسنده عن محمد بن اسحق قال : « قدم قيس بن عاصم التميمي على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال يوماً وهو عنده : أتدري يارسول الله من أول من رجز ؟ قال : لا ، قال : أبوك مضر ، كان يسوق بأهله ليلة ، فضرب يد عبد له ، فصاح : وايداه ! فاستوثقت الإبل ونزلت ، فرجز على ذلك ^(١) . »

ولا يعنينا الآن مناقشة هذا الخبر ، وإنما يهمنا منه قِدَم هذه النظرة إلى الرجز والربط بينه وبين سير الإبل ، وبذلك يكون الربط بين الرجز والإبل قديماً ، قال به جماعة منذ عهد ابن اسحق على الأقل ، وليس جديداً يمكن أن يدعيه لنفسه بعض الباحثين في هذا العصر .

وقد لاحظ الدكتور شوقي ضيف أن الرجز كان وزناً شعبيّاً عاماً في عصر ما قبل الإسلام ، فقال : « الرجز من البحور القديمة في الشعر العربي ، فقد كان يستخدم بكثرة في العصر الجاهلي ، وهي كثرة تؤكد أنه كان الوزن الشعبي العام الذي يدور على كل لسان ، ومن ثم قلما وجدنا شعراءهم المبرزين ينظمون فيه ، وكأنا تركوه للجمهور يتعده ويرعاه ^(٢) . »

ثم أوضح بعض مظاهر هذه الشعبية فقال : « وليس ذلك كل ما نلاحظه في شعبيته الجاهلية ، فقد دخلت فيه صور كثيرة من الزحاف ، لانتقالنا في أي وزن آخر ، فكثرت فيه المشطور والمنهوك ، وأيضاً فإنه لم يطل إذ كان لا يتجاوز البيتين والثلاثة إلا نادراً ، فهو مقطوعات قصار ، ينظمها كثيرون

(١) جمهرة أشعار العرب ٢٧ .

(٢) العصر الاسلامي ٣٩٤ - ٣٩٥ .

معروفون ومجهولون ، حين يجدون بغير ، وحين يجولون في ميادين الحروب ،
وحين يتناولون أي عمل كحفر بئر أو متح منها (١) .

وإذا ماعدنا إلى الأخبار المتصلة بالرجز الجاهلي وجدناه فعلاً شديد
الاتصال بحياة الأعراب وما يعرض لهم من أحوال أو أسفار أو مهاجاة أو
قتال أحياناً (٢) . ولم يكن من طبيعة الرجز في الجاهلية أن يطول إلى
آيات متعددة ، وإنما نجده غالباً في ثنايا الأخبار التي تتحدث عن وقائع
القوم وأيامهم ، وكثيراً ما نجد أمثال هذه العبارة : « فخرج إليه وهو يرتجز » ،
أو « وكان فلان يحمل عليهم وهو يرتجز » ، ثم يوردون آياتاً لا تريد على
الثلاثة في أغلب الأحيان ، وهي آيات يتحدث فيها ذلك الفارس عن إقدامه
وجرأته ، ولا ينسى أن يتهدد الأعداء بسيف له أو برمح . ولا يقف
موضوع هذا الرجز عند الحرب ، وإنما يتعدى ذلك إلى حياة الأعراب نفسها ،
ولا سيما في ترقيص طفل أو طفلة ، أو ترديد آيات أثناء عمل ساق وخاصة
إذا كانت تشترك فيه جماعة ، فإذا ما أوردوا آياتاً من الرجز ، وإذا
ما وقفوا على الآبار رجزوا أيضاً ، وغنّوا بأبيات ينشدونها ، فتبعث فيهم
نشاطاً ، وهم يكدون ويتعبون ، ولهذا قال راجزهم (٣) :

لن يُغَلَّبَ الماتِحُ مادامَ رَجَزٌ فإنَّ أصاخَ ساكِتاً فقد عَجَزٌ
فالموضوعات في رجز الجاهلية عامة لاتكاد تخرج عن هذا النطاق المحدود
في التعبير عن بعض أحوال النفس من تعب أو حماس أو ما أشبه ذلك ،
فهي تعبر عن دفقة شعورية خاصة في آيات قليلة لاتتجاوز الثلاثة في أغلب

(١) العصر الاسلامي ٣٩٥ .

(٢) انظر طبقات ابن سلام ٢٤ ، ٢٧ ، ٢٨ ، والعقد الفريد ٧٧/٤ -

٨٣ و ٢٤/٦ - ٢٥ ، وشرح التبريزي على حماسة أبي تمام ١٣/٢ - ١٤ .

(٣) شرح التبريزي على الحماسة ٧٠/٢ .

الاحيان ، ولم تكن الأرجوزة لتعبر عن أمور متشعبة ، أو تطول لتعبر عن جوانب معقدة لموضوع واحد كالذي نجد في بعض القصائد او المقطعات الشعرية لذلك العصر .

أما أراجيز العجاج فهي تتناول موضوعات القصيد نفسه ، والأرجوزة الواحدة ربما طالت فقاربت المائتين من الأبيات ، وهي تنتهج سُنّة الشعراء في تعدد الموضوعات ضمن الأرجوزة الواحدة ، وكثيراً ماتقف مواقفهم من الأطلال والبكاء عليها وتذكر أيام الشباب الخاليات ، أيام كانت تلك الأطلال مأهولة بالأحبة ، عامرة بمجالس الأنس والهوى ، ثم تمضي مواقف الأرجوزة إلى وصف الرحلة أو الطريق ، وما يعرض فيها من متاعب ، ثم لا ينسى العجاج أن يشبه ناقته أو جملة بشور أو بجمار وحشي ، ومن ثم ينطلق إلى وصف هذا الثور وما يصادفه من كلاب وصيد ، وقد تنتهي أرجوزة العجاج عند هذه المشاهد الأخاذة من الصراع بين الثور والكلاب ، ويجد غاية ما يحتم به الأرجوزة أن يجعل الثور يمضي في نشوة النصر والغلبة ، والكلاب بين صريع وجريح يلفظ آخر الأنفاس ، وقد لا تنتهي الأرجوزة عند انتصار الثور ، وإنما تمضي إلى مدح هذا الخليفة أو ذلك الوالي أو الامير ..

وبذلك نجد موضوعات الأرجوزة عند العجاج لا تختلف في شيء عن موضوعات القصيدة الجاهلية وما فيها من إطالة وتنويح ، ولا شك أن هذا الخلاف بين موضوعات الرجز في الجاهلية وبين رجز العجاج ، لم يحدث إلا بعد أن مرت الأرجوزة بأطوار متعددة قبل أن تصل إلى منهج القصيد ، ولا نظن أن العجاج هو الذي بدأ هذا التحويل الجندري في تاريخ الأرجوزة ، ذلك لأن القدماء قد لاحظوا أن الأغلب العجبي كان أول من أطال الرجز ونوع في أغراضه وموضوعاته .

فابن سلام (٥٢٣٢ هـ) ذكر الأَغلب العجلي في طبقة الرجاز ، فقال :
« الأَغلب العجلي ، وكان مقدماً ، اول من رجز ^(١) » ، وقد تكون هذه
العبارة محرفة في نسخة الطبقات ، وقد يكون هذا التحريف قديماً يرقى إلى
عهد ابن رشيقي (٥٤٦٣ هـ) لأنه نقل عبارة ابن سلام ورد عليها فقال : « وزعم
الجمحي وغيره انه اول من رجز ، ولا اظن ذلك صحيحاً ، لأنه إنما كان
على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن نجد الرجز أقدم من ذلك ^(٢) » ،
وبهذا الرأي قال محقق الطبقات ^(٣) .

وقد تكون العبارة غير محرفة في الطبقات ، وإنما كان ابن سلام
يريد بها هذا النمط المطول من الرجز ، الذي بدأ به الأَغلب وطوره العجاج ،
لا مجرد النظم بهذا الوزن ، وهذا ما كان يعنيه الرجز عند علماء القرن الثاني ،
ذلك لأن « الرجز » لم يعد في نظر هؤلاء مجرد البيت أو البيتين أو المقطعات
القصار التي كانت لعهد الجاهلية ، وإنما أصبح له معنى إصطلاحي يراد منه
ذلك النمط الجديد الذي بدأ به الأَغلب ، واستوى أمره على يد العجاج ،
واستمر يحتفظ بشيء من خصائصه إلى عهد ابن سلام أواخر القرن الثاني
وأوائل القرن الثالث .

وبعد ابن سلام جاء ابن قتيبة (٥٢٧٦ هـ) فوضح دور الأَغلب بعبارة
ادق وأوضح فقال في ترجمته : « هو الأَغلب بن جُشَم ، من سعد بن عجل . .
وعاش تسعين سنة . وكان الأَغلب جاهلياً اسلامياً ، وقتل بنهاوند ^(٤) » ،

(١) طبقات ابن سلام ٥٧١ .

(٢) العمدة ٥٦/١ .

(٣) انظر حاشية الاستاذ محمود محمد شاكر ٥٧١ .

(٤) كانت وقعة نهاوند سنة (١٩ هـ) في خلافة عمر بن الخطاب رضي
الله عنه ، وكانت فيها نهاية دولة الفرس .

وهو أول من شبه الرجز بالقصيد وأطاله ، وكان الرجز قبله إنما يقول الرجل منه البيتين أو الثلاثة ، إذا خاصم أو شاتم أو فاخر^(١) .

فالأغلب في رأي ابن قتيبة أول من شبه الرجز بالقصيد وأطاله ، وهذا ما نجده بعد ذلك عند الأصفهاني (٣٥٦ هـ) إذ قال : « وهو أحد المعمرين في الجاهلية عمراً طويلاً ، وأدرك الإسلام فأسلم وحسن إسلامه ، وهاجر^(٢) ، ثم كان فيمن توجه إلى الكوفة مع سعد بن أبي وقاص ، فنزلها واستشهد في وقعة نهاوند فقبره هناك في قبور الشهداء . ويقال : إنه أول من رجز الأراجيز الطوال من العرب^(٣) » .

ونقل ابن رشيق كلاماً لأبي عبيدة سنورده بعد قليل ، ثم قال : « وقال غيره : أول من طول الرجز الأغلب العجلي وهو قديم^(٤) » ثم ردّ على ابن سلام أن يكون الأغلب « أول من رجز » .

ولئن كانت عبارة ابن سلام فيها غموض أو تحريف ، فعبارة ابن قتيبة والأصفهاني وابن رشيق ، واضحة كل الوضوح ، وهي تشير إلى أن الأغلب أول من أطال الرجز ، وأول من شبهه بالقصيد ، ويفهم من هذا أن الأغلب العجلي أول من حاول تطوير الرجز ونَحَله إلى ميدان القصيد ، إلا أن هذه الأقوال جميعاً لا تجعلنا نقف على موضوعات الأرجوزة الواحدة عند الأغلب ، ولا موضوعات رجزه بوجه عام ، فتطويل الأرجوزة شيء ، وحملها على منبج القصيدة شيء آخر ، وهنا نجد مسألة جد دقيقة ، وليس في أيدينا

(١) الشعر والشعراء ٩٥ ونقله عن ابن قتيبة البغدادي في الخزانة ٢٠٧/٢ ، ونقل السيوطي أقوال ابن قتيبة والجمحي وردّ ابن رشيق عليه في المزهري ٢/٤٨٤ وانظر شرح شواهد المغني أيضا ١٨ و ٢٩٨ .

(٢) انظر تعليق البغدادي حول « هجرة الأغلب » في الخزانة ٢/٢٠٧ .

(٣) الأغاني ١٨/١٦٤ .

(٤) العمدة ١/٥٦ .

ما يحل إبهامها ، ويوضح شيئاً من أمرها ذلك لأن تراجم الأغلب لم تشر إلى هذا ابدأ ، وكان يمكن لديوانه أن يعرض من ذلك ، ولكنه مفقود ليس له من أثر ، وقد حاولنا التعويض من ذلك بجمع ديوان له عسى أن نحل شيئاً من هذه المشكلة الغامضة .

إلا أن هذا الديوان الذي جمعناه للأغلب لا يستجيب لحل تلك المشكلة ، ذلك لأننا لانجد أرجوزة مطولة فيه ، ولا نكاد نجد بما يطول غير تلك الأرجوزة المفحشة التي قالها يهجو مسيلة الكذاب وسجاح التميمية ، وهذه الأرجوزة لاتخرج عن موضوع الهجاء والنيل من الكذابين ، وهي برواية ابن سلام لاتخرج عن (٣١) بيتاً . وأما سائر الديوان فلا نجد فيه إلا أبياتاً فرادى أو مقطعات لاتزيد على ثلاثة أبيات غالباً ، ولا تبلغ الأراجيز القصيرة إلا نادراً ، ولا شك أن هذه الأبيات أو المقطعات القصيرة ، ليست إلا بقايا من أراجيز كانت للأغلب ثم فقدت ، فضاعت معها الحلقة الهامة التي تمثل أول منطلق للرجز نحو ما يشبه القصيد .

ولعل رجز الأغلب قد فقد أكثره قبل القرن الثاني الهجري إذ قال المرزباني (٥٣٨٤ هـ) في ترجمته : « أخبرنا ابن دريد قال أخبرنا أبو حاتم قال : سألت الأصمعي عن الأغلب العجلي : أفحل هو أم من الرجاز ؟ فقال : ليس هو بفحل ولا مفلح . قال : وأعياني شعره . وقال لي مرة أخرى : ما أروي للأغلب إلا اثنتين ونصفا . قلت : وكيف قلت نصفاً ؟ قال : أعرف له اثنتين ، وكنت أروي نصفاً من التي على القاف ، فطوّلوها . ثم قال : كان ولده يزيدون في شعره حتى أفسدوه .

قال أبو حاتم : وطلب اسحق بن العباس الهاشمي من الأصمعي رجز الأغلب فطلبه مني فأعرتة إياه ، فأخرج منه نحواً من عشرين قصيدة ، فقلت

للأصمعي : ألم تزعم أنك لم تعرف إلا اثنتين ونصفاً ؟ قال : بلى ، ولكن انتقيت ما أعرف ، فإن لم يكن له فهو لغيره ممن هو ثبت أو ثقة . قال أبو حاتم : وكان الأصمعي من أروى الناس للرجز . قال الأصمعي وقال خلف أيضاً : أعياني شعر الأغلب . قال خلف : وكان ولده انساناً يصدق في الحديث والروايات ويكذب عليه في شعره (١) .

فهذا يشير إلى أن كبار الرواة أمثال الأصمعي وخلف لم يجدوا للأغلب أراجيز كثيرة ، وإنما فقدت هذه الأراجيز ، ولم يحفظ منها إلا آيات متفرقة على ألسنة الرواة ، وربما كان لتزيد ولده في شعره ما زهد الرواة في حمله والحفاظ عليه ، إذ ليس من السهل أن يقبل الرواة هذا الرجز ، والأصمعي نفسه يشير إليه بإصبع الاتهام ، ولهذا لم نظفر في مصادرنا على كثرتها بأراجيز مطولة للأغلب ، وإنما عثرنا على آيات أو مقطعات قصيرة فحسب .

ومع ذلك فهذه الآيات والمقطعات تدل على أن الأغلب قد تصرف في موضوعات الرجز ، وجعله أهلاً للتعبير عن موضوعات الشعر بوجه عام ، فقد تناول فيها بعض موضوعات الوصف ، والهجاء ، والحكمة ، وإحسانة ، وذكر فيها بعض أيام بكر بن وائل ، أمثال الزورين وكان لبكر على قيم ، وذو قار وكان على الفرس .

ولم نقف للأغلب على شعر من غير الرجز ، والذي يبدو لنا أن الأغلب كان يقرض الشعر إلى جانب الرجز ، وأن الرجز كان يتميز عنده من القصيد ، يدل على ذلك هذا الخبر المشهور الذي كان ابن سلام أول من

(١) الموشح للمرزباني ٢١٣ .

نقله فقال موجزاً : « وكتب عمر إلى عامله (١) ، أن سل ليدياً والأغلب ما أحدثا من الشعر في الإسلام . فقال الأغلب :

أرجزاً تريد أم قصيداً فقد سألتَ هيناً موجوداً

وقال ليد : قد أبدلني الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران (٢) .

وفي هذا ما يدل على أن الأغلب كان يحسن القصيد إلى جانب الرجز ، وأن الرجز كان يتميز عنده من القصيد ، ومن ثم كان في تطويله للرجز إنما يحاول فعلاً أن يجدد في هذا اللون من الشعر ، ويجدد له بعض الخصائص التي لم تكن له من قبل ، ولعل محاولة الأغلب هذه قد لقيت بعض الأصداء في جزيرة العرب ، قبل أن يصل الأمر إلى العجاج ، إذ بدا الرجز يطول على السنة بعض الشعراء ، ومن أمثلة ذلك ما أنشده الطبري من قول عمرو بن سالم الخزاعي (٣) :

(١) المغيرة بن شعبة وكان على الكوفة .
(٢) طبقات ابن سلام ١١٣ ، وانظر تفصيل ذلك في أمالي اليزيدي ١٠٠ ، والأغاني ٩٤/١٤ ، ١٦٤/١٨ ، ١٦٥ ، والخزانة ٢/٢١٤ - ٢١٥ ، وثمة إشارة إلى ذلك في جواهر الالفاظ ٥٤ ، ومجالس ثعلب ٥٨ ، والمخصص ١٣٢/١٠ ، ورواية الأبيات في المصادر الثلاثة الأخيرة فيها اختلاف ، وتسبب في المخصص لحميد الأرقط وهنماً من ابن سيده .
(٣) تاريخ الطبري ٣٢٥/٢ ، والأبيات في تاريخ ابن الأثير ٩٩/٢ ، والبداية والنهاية ٢٧٨/٤ ، وعيون الأثر ١٦٤/٢ ، ولسان العيون ٨٣/٢ ، وتاريخ الخميس ٧٧/٢ ، والعقد الفريد ١٣١/٦ ، وجمهرة أشعار العرب ٢٦ - ٢٧ ، مع اختلاف في الرواية والترتيب .
وخزاعة من حلفاء الرسول عليه السلام بعد صلح الحديبية ، فلما أغارت قريش على حي من خزاعة يقال له بنو كعب ، فقتلوا فيهم وأخذوا أموالهم ، جاء عمرو بن سالم الخزاعي إلى النبي صلى الله عليه وسلم مستنصراً فأنشده هذه الأبيات . وكان غدر قريش يبني كعب نقضا لعهد الحديبية ، مما أدى إلى الحرب وفتح مكة . انظر شروط الحديبية في

لا هُمَّ إني ناشد محمداً حلفَ أينا وأيه الأتلتدا
 فوالدا كنتا و كنتَ ولدا ثُمَّتَ أسلمنا فلم نزع يدا
 فانصر رسول الله نصرأ عتدا وادع عباد الله يأتوا مددا
 فيهم رسول الله قد تجردا أبيض منذ اليد تنمي صعدا
 إن سيم خسفا وجهه تربدا في فيلق كالبحر يجري مزبدا
 إن قريشأ أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقتك المؤكدا
 وجعلوا لي في كداءِ رصدا وزعموا أن لست أدعو أحدا
 وهم أذلُّ وأقلُّ عددا هم بيتونا بالوتيد هجدا
 فقتلونا رُكعاً وسُجداً

فهذه الأرجوزة ليست من نمط الرجز الذي كان سائداً لدى القوم قبل الأغلب العجلي ، فهي أطول في عدد أبياتها ، وأكثر تنوعاً من حيث موضوعاتها ، إذ حشدت عدداً من الموضوعات على قلة أبياتها نسبياً ، ففيها مدح للرسول عليه السلام ، وتحريض على القتال ، وتعريض بقريش ، وشرح لما حدث من عدوان على خزاعة ، فهي إذن لا تختلف في شيء عن القصيدة الشعرية هدفاً وأغراضاً ، وإنما تساير القصيدة في ذلك مسaire الند للند ، ولسنا الآن بصدد الخصائص الفنية عند العجاج لنبحث الفارق بين هذه الأرجوزة وأراجيزه ، وإنما حسبنا أن نلاحظ ما فيها من كثرة في الأبيات ، وتنوع في الأغراض ، فهذا طور من أطوار الرجز ، كان قد حدث بتأثير الأغلب العجلي على مانظن ، وذلك لأن الأغلب قد سلخ من حياته في الجاهلية زهاء سبعين عاماً ، وهي فترة تكفي لانتشار تأثيره فيمن حوله من الشعراء .

تاريخ ابن الأثير ٨٤/٢ ، وتاريخ الطبري ٢٨١/٢ ، وتاريخ أبي الفداء ١٤٦/١ ، والبداية والنهاية ١٧٥/٤ ، وانسان العيون ٢٤/٣ ، وجوامع السيرة ٢٠٨ .

وثمة أمثلة أخرى لتأثير الأغلب العجلي فيما نُقِلَ إلينا من رجز تلك الفترة^(١) ، ولا يعيننا أن نطيل في سرد هذه الأمثلة أو أن نقف عند هذه المسألة ، إلا أن ثمة قولاً للجاحظ لا بد من الوقوف عنده ، وهو قوله : « ومن الشعراء من يُحْكِم القريض ولا يُحْسِن من الرجز شيئاً ، ففي الجاهلية منهم : زهير والنابعة والأعشى ، وأما من يجمعها فامرؤ القيس وله شيء من الرجز ، وطرفة وله كمثل ذلك ، وليد وقد أكثر^(٢) . »

ومثل هذا القول قد يكون مغايراً لما ورد من أقوال عدد من علمائنا وروائنا القدامى حول دور الأغلب العجلي ، إلا أن ديوان امرئ القيس لا يحتوي من الرجز إلا على مقطعة واحدة هي قوله في بني أسد^(٣) :

يا لَهْفَ هِنْدٍ إِذْ خَطِئْنَ كَاهِلًا	تَأَلَّهَ لَا يَذْهَبُ شَيْخِي بَاطِلًا
حَتَّى أَبِيرَ مَالِكًا وَكَاهِلًا	الْقَاتِلِينَ الْمَلِكَ الْحَلَّاحِلًا
خَيْرَ مَعْدٍ حَسْبًا وَنَائِلًا	وَخَيْرَ هِمٍّ قَدْ عَلَمُوا شَمَائِلًا
نَحْنُ جَلَبْنَا الْقَرْحَ الْقَوَافِلًا	يَحْمِلُنَنَا وَالْأَسْلَ النَّوَاعِلًا
وَحِيَّ صَعْبٍ وَالْوَشِيحَ الذَّابِلًا	مُسْتَنْفِرَاتٍ بِالْحَصَى حَوَافِلًا
يَسْتَشْرِفُ الْأَوَاخِرَ الْأَوَائِلًا	

ولا يبعد أن تكون منحولة لما فيها من سطحية تشبه أن تكون من أساليب القصص ، وشعر امرئ القيس لا يؤتمن بوجه عام ، والشعر المنحول

(١) انظر أبياتا لابن رواحة في طبقات ابن سلام ١٨٦ - ١٨٧ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ،
والمؤتلف والمختلف ١٢٧ ، وتاريخ الخميس ٤٤/٢ ، وأبياتا لأعشى بني
الجرماز في المؤتلف ١٥ - ١٦ .
(٢) البيان والتبيين ٨٤/٤ .
(٣) ديوان امرئ القيس ١٥٤ - ١٥٥ .

لم يتنبّه إليه كله أمثال ابن سلام والأصمعي والأصفهاني والجاحظ ومن إليهم ،
ولمّا تنبّه هؤلاء إلى بعض المنحول في الشعر العربي ، وجاز عليهم شعر آخر
لم يتنبّهوا إلى انتحاله ووضعه .

وطرفة لم تقف في ديوانه على غير هذه الأبيات (١) :

يالكِ من قُبْرَةٍ بِمَعْمَرٍ خِلالِكَ الجَوْهَ فيضِي واصْفَرِي
قد رُفِعَ الفِخْهُ فماذا تحذري ونَقَرِّي ما شئتِ أن تنقري
قد ذهب الصيادُ عنكَ فابشري لا بد يوماً أن تصادي فاصبري

وهي تُروى أيضاً لكيب أخى مهلل بن ربيعة ، ولا يبعد أن يكون
طرفة قد تمثّل بها . ومهما يكن من أمرها ، أو أمر مقطعة امرئ القيس
السابقة ، فنحن لاندري إذا كان لها رجز آخر علم به الجاحظ ولم يُنقل إلينا
في ديوانيهما ، ولكن يبدو أن مثل هذا الرجز لم يكن يخرج عن حدود
الرجز المعروف عند العرب قبل الأغلب العجلي ، إذ لو كان يشبه ما أراده
الأغلب للرجز من تطوير ، لما غفل عنه كبار العلماء من أمثال ابن سلام
وابن قتيبة والأصفهاني وابن رشيق وهم يحددون دور الأغلب في تطوير الرجز .
وأما لبيد فقد وجدنا له رجزاً في أضعاف بعض المصادر ، ولكنه
لا يخرج عن نطاق الرجز الجاهلي ، وذلك مثل قوله في الحكمم بين عامر بن
الطفيل ، وعلقمة بن علاثة (٢) :

ياهرم بن الأكرمين منصبا (٣) إنك قد أوتيت حكماً معجبا

فطبّق المفصل واغتم طيباً

(١) ديوان طرفة ٦٣ (طبعة صادر) .

(٢) البيان والتبيين ١/١٠٩ ، وبلغت هذه الأبيات سبعة في الاغانى

٥٤/١٥ .

(٣) هو هرم بن قطبة بن سنان بن عمرو الفزاري ، أحد حكام العرب ،

فقول الجاحظ لايعني أن هؤلاء الشعراء قد ساروا بالرجز سَيْرَ الأُغلب العجلي ، وإنما يعني أنهم قالوا من الرجز مايشبه عادة العرب فيه أسلوباً وشكلاً وموضوعاً ، ولم يطيّلوا في شكله أو ينوّعوا في موضوعاته كالذي أحدثه الأُغلب فيما بعد ، وبذلك يبقى الأُغلب العجلي أول من طوّر موضوعات الرجز وأطال في شكل الأرجوزة ، ولا شك أن امتداد حياته في عصر ما قبل الإسلام قد جعل له تأثيراً في رجز معاصريه ، وإذا كان العجاج قد وُلِد في الجاهليّة وقال أبياتاً فيها ، فإن مما لا ريب فيه أنه قد اتّجه إلى أساليب الأُغلب ، وأعجب به ، ولهذا ذكره في رجزه فقال (١) :

إني أنا الأُغلبُ أضحى قد نشيرُ

وهذا القول يشير بنفسه إلى أن الأُغلب هو الذي رسم الطريق للعجاج ، ولولا ذلك لما فاخر العجاج بأنه الأُغلب قد نشيرَ إلى الناس برجزه ، وإن توارى عنهم تحت طيّات الثرى .

إلاّ أن العجاج لم يقف عند الحدود التي رسمها الأُغلب لموضوعات الأرجوزة ، ولم يكتف بمجرد إطالة الأبيات ، وإنما سار بالتطوير إلى أبعد من ذلك ، فجعل من الأرجوزة مايشبه القصيدة فعلاً وذلك في بنائها وموضوعاتها ، ثم حدّد لقصيدة الرجز بعض الخصائص التي تميزها من القصيد بوجه عام ، فجعل ألفاظها ومعانيها تتسم بطابع الغرابة والبداعة ، وهذه الخصائص سوف نعرض لها في أبحاث خاصة ، إلاّ أن موضوعات الأرجوزة هي مايمينا في هذا البحث .

وقد لاحظ أبو عبيدة معمر بن المثنى التطوير الذي أدخله العجاج على

وهو غير هرم بن سنان المري الذي مدحه زهير بن أبي سلمى في المعلقة وغيرها ، انظر الاغاني ٥٢/١٥ ، والاشتقاق ٢٨٣ .
(١) الشعر والشعراء ٥٩٥ ، والاغاني ١٦٤/١٨ ، والخزانة ٢٠٧/٣ .

موضوعات الرجز ، فقال : « إنما كان الشاعر يقول من الرجز البيتين والثلاثة ونحو ذلك ، إذا حارب أو شاتم أو فاخر ، حتى كان العجاج أول من أطاله وقصده ، ونسب فيه ، وذكر الديار ، واستوقف الركاب عليها ، ووصف مافيا ، وبكى على الشباب ، ووصف الراحلة ، كما فعلت الشعراء بالقصيد ، فكان من الرجاز كأمريء القيس من الشعراء (١) » .

فأبو عبيدة لا يكاد ينظر إلى الأغلب العجلي ، وإنما يجعل العجاج هو صاحب الدور الأوفى في تطوير أغراض الرجز وموضوعاته ، وذلك لأن هذا التطوير قد اتضح بجلاء بيّن في أراجيز العجاج ، واتخذ طابعاً محدد المعالم والسمات في تاريخ الرجز ، إلا أن دور الأغلب مع ذلك ينبغي ألا يغفل تماماً ، ولذلك نجد ابن رشيق قد حدد بدقة دور كل من الأغلب والعجاج فقال : « وزعم الرواة أن الشعر كله إنما كان رجزاً وقطعاً ، وأنه إنما قصّد على عهد هاشم بن عبد مناف ، وكان أول من قصده مهلهل وامرؤ القيس ، وبينها وبين مجيء الإسلام مائة ونيّف وخمسون سنة ، وذكره الجمحي وغيره . وأول من طوّّل الرجز وجعله كالقصيد الأغلب العجلي شيئاً يسيراً ، وكان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم أتى العجاج بعد فافتن فيه ، فالأغلب والعجاج في الرجز كأمريء القيس ومهلهل في القصيد (٢) » .

فالأغلب قد طور الرجز شيئاً يسيراً ، ثم أتى العجاج فافتن في هذا التطوير ، ومثل هذا الحكم الذي يطلقه ابن رشيق جدّ ثمين في نظرنا ، لأن ابن رشيق أقرب منا إلى رجز الأغلب ، ولا شك أنه أطلع على شيء من

(١) العمدة لابن رشيق ٥٦/١ ، ونقله السيوطي في الزهر ٢/٤٨٤ .
(٢) العمدة ١/١٢٦ .

أراجيزه ، التي ضاعت ضياعاً تاماً ، أو بقي منها بعض الأبيات في مصادر متفرقة .

وبذلك كان الأغلب العجلي أول أستاذ لمدرسة الرجز ، إلا أن العجاج هو الأستاذ الثاني ، وله يرجع أكبر الفضل في تطوير هذه المدرسة وتحديد معالمها في تاريخ ادبنا العربي ، وقد عاصر العجاج عدد من الرجاز^(١) في مقدمتهم ولده رؤبة ، وأبو النجم العجلي ، وليس ثمة من يمكن أن يقارن بالعجاج سوى هذين الرجازين الكبيرين .

إلا أن رؤبة كان تلميذ والده لاريب في ذلك ولا شك ، وأبو النجم كان مقدماً في رجزه ، إلا أنه لم يتخصص وإنما فرق نفسه بين الرجز والقصيد ، ورجزه لايساير رجز العجاج في غرابة اللغة أو المعاني ، ولم يكن رجزه على سوية واحدة شأن العجاج في أكثر أراجيزه ، ولهذا قال المرزباني : « أخبرنا ابن دريد قال أخبرنا أبو حاتم قال : رأيت الأصمعي لا يستجيد بعض رجز أبي النجم ويضعفُ بعضاً لأن له رديئاً كثيراً . قال : وقال لي مرة في شيء : لايعجبني شاعر اسمه الفضل بن قدامة ، يعني أبا النجم العجلي »^(٢) .

ولا شك أن هذه المآخذ التي لاحظها الأصمعي في رجز أبي النجم ، قد أوزرت به في نظر النقاد ، ولم تجعله في مقدمة هذه المدرسة الجديدة ، بل إن مدرسة الرجاز كان أول أهدافها أن تنقل في موضوعاتها ومعانيها أجواء

(١) أمثال الشمردل ، وأبي نخيلة ، ودكين ، وعمرو بن لجأ ، وأبي الزحف ابن عم جرير ، والكذاب الحرمازي ، وحميد الأرقط ، والعماني ، وغيرهم ، انظر تراجمهم في الاغاني ، والمؤتلف ، ومعجم الشعراء ، والشعر والشعراء ، والمعارف لابن قتيبة . وهؤلاء ليسوا من رجاز الطبقة الاولى وانما هم من رجاز الطبقة الثانية وبعضهم يتفاوت عن بعض في منزلة رجزه .

(٢) الموشح ٢١٣ .

البادية إلى الحياة الجديدة في العراق والشام ، وأخص ما في حياة البادية هو الإبل ، واول ما كان يمتاز به العجاج وابنه رؤبة هو وصف البعير أو الناقة^(١) ، وأما أبو النجم فقد أخذت عليه بعض المعاني التي تتصل بوصف الإبل نفسها^(٢) ، ومثل هذه المآخذ أيضاً لا تغتفر لأعرابي يحدث الناس بأسلوب الرجز عن حياة الأعراب والبوادي .

وهذا كله قد أبعد أبا النجم عن منزلة العجاج في مدرسة الرجز^(٣) ، ولئن وجدنا عند المرزباني أيضاً أن أبا النجم « مقدم عند جماعة من أهل العلم على العجاج »^(٤) ، فذلك لأن من النقاد القدامى من كان يفضل أن يكون الشاعر شاعراً وراجزاً معاً^(٥) ، وهذا شيء والمفاضلة بين الراجزين شيء آخر .

ولهذا كان العجاج في نظر قدامى الرواة والنقاد هو رأس طبقة الرجاز غير منازع ، وهو صاحب الاقتتان الكبير في تطوير الرجز شكلاً ومضموناً ، حتى أصبحنا نجد بعض النقاد إنما يحكمون على سائر الرجاز بالقياس إلى ما اقتربوا به من العجاج أو ابتعدوا عنه . فأبو العتاهية يقول لابن مناذر : « إن كنت أردت بشعرك العجاج ورؤبة فما صنعت شيئاً^(٦) » ، وابن المعتز يقول في العماني الراجز : « وله اسماء حسان كثيرة ، وكان يوزن

-
- (١) طبقات ابن سلام ١٠٧ ، والشعر والشعراء ٥٧٧ ، والعقد ١/١٣١ ، و ٢٠٦/٦ ، والقول في البغال للجاحظ ٢٠ ، والاغاني ١٢٥/١٨ و ٦١/٢١ .
(٢) انظر الشعر والشعراء ٥٩٠ - ٥٩١ ، والعقد ٦/٢٠٦ ، والاغاني ٦١/١ (دار الكتب) .
(٣) انظر الاغاني ١٥٢/١ (دار الكتب) .
(٤) معجم الشعراء ١٨٠ .
(٥) انظر العمدة ١٢٣/١ - ١٢٤ ، والبيان والتبيين ٢٠٩/١ و ٨٤/٤ ، والحيوان ٢٣/٤ .
(٦) الموشح ٢٩٥ ، وانظر أيضا الموشح ٣٦٩ .

بالعجاج ورؤية ، بل كان أطع منها ، وكان من أقرانها في السن والزمان (١) .. » ، وذو الرمة يتخلى عن الرجز خوفاً من غلبة العجاج ورؤية مع أنه أعرابي صاحب وصف للابل والصحراء ، فقد نقل المرزباني بسنده أن ذا الرمة قال : « قلت الرجز ، فلما رأيتني لا أقع من الرجلين أخذت في القصيد وتركته . يعني العجاج ورؤية (٢) » .

فالعجاج إذن هو الذي افتن في تطوير الأرجوزة شكلاً ومضموناً ، فعدّد من أغراضها ، وجعل الرجز أهلاً لموضوعات القصيد ، ثم حدّد للرجز بعض الخصائص ليمتاز بها من غيره ، وهذه الخصائص ستكون موضوعاً للفصل القادم ، أما في هذا الفصل فحسبنا أن نتابع القول في الموضوعات التي تناولها العجاج في رجزه .

٢ - موضوعات الرجز عند العجاج

من خلال البحث السابق رأينا أن العجاج قد افتنّ في تطوير الرجز ، فقصدّه وجعله أهلاً لموضوعات الشعر عامة ، وهذا فعلاً ما يطالعنا به ديوانه ، إذ نجد فيه المديح وما يشبه الهجاء ، ونرى النسب والفخر ، ونلمس الوعظ والحكمة ، ونقف طويلاً عند الوصف بأنواعه المختلفة ، ولا نكاد نفتقد من الموضوعات الأساسية إلاّ موضوع الرثاء ، وذلك ربما كان لطبع عند العجاج ، أو لأنه لم يفجع في حياته بأحد من أبنائه أو أحبته .

والموضوعات التي تناولها العجاج ، ليس فيها ما هو محدود ضيق الأفق

(١) طبقات الشعراء المحدثين لابن المعتز ٤٧ ، وقوله فيه نظر لأن البون شاسع بين العجاج ورؤية وبين العماني الراجز .
(٢) الموشح ١٧٤ .

في رجزه ، وإنما هي جميعاً من الاتساع ، بحيث تبرز في جنبات الديوان كلها ، ولا بد من عرض لها جميعاً .

النسيب والمديح

إن الغزل من الموضوعات الهامة في أراجيز العجاج ، إلا أنه بقي محافظاً على الطابع التقليدي بالنظر إلى منهج القصيدة ، إذ كان يمثل ركناً من أركان المقدمة التقليدية للأرجوزة ، على نحو ما كان عليه في قصائد الشعر العربي قبل العجاج ، أو في قصائد معاصريه من شعراء العراق ، بمن سار بالقصيدة على المنهج التقليدي القديم .

ولا نجد في ديوان العجاج إلا أرجوزة واحدة (١) ، قصر موضوعها على الغزل وحده ، وهذه الأرجوزة لا تمثل تطوراً لدى العجاج في قصيدة الغزل ، لأنها بمفردها لا تكاد تبلغ به ما عرّف من قصائد الغزل لدى شعراء الحجاز أو شعراء نجد في عصره . فقد تخصص معظمهم لموضوع الغزل ، وأفردوه بقصائد خاصة به ، فأوجدوا بذلك شيئاً من التطور والتجديد في منهج القصيدة لعصر بني أمية ، وما ذلك إلا لأن حياة أولئك الشعراء كانت وقفاً على المرأة والغزل ، سواء كان ماجناً عند شعراء الحجاز ، أو عذرياً عند شعراء نجد ، أما العجاج فلعل هذا الجانب قد اتخذ مكاناً في نفسه ومشاعره ، ولكنه لم يكن كل شيء في أدوار حياته ، ولهذا لم يغلب الغزل على أراجيزه ، وإنما كان واحداً من موضوعاتها ، ولم يتفرد بأراجيز خاصة به ، وإنما استمر في موضعه التقليدي من منهج القصيدة القديمة .

على أن هذا الغزل التقليدي ، لم يكن تقليدياً كله في مضمونه ، وإنما

(١) الأرجوزة (١٦) ، وعدد أبياتها (٤٧) بيتاً .

فيه ألوان من التنويع تبرز في معاني الأبيات وعواطفها ، فتارة نقف على غزل تقليدي مطلق لا أثر فيه لعاطفة العجاج ، وطوراً يطالعنا غزل لا يخلو من تباريح الهوى وذكريات الغواني وأيام الشباب ، وأحياناً يطل علينا غزل الحب والصبابة ، والبعد والفراق ، وهنا يتمثل حب العجاج الحقيقي ، وتظهر تجربة له مع « ليلي » والذي يبدو أنها فارقت ، وتزوجت من غيره ، فغرست حسرة لا تبرح ، وآلاماً لا تريم .

وفي الغزل التقليدي المطلق لا يصور العجاج إلاّ بعض الأوصاف الحسية لامرأة لا يسميها ، فهو تارة ينعت امرأة « غراء تَرَوِق العُنْسًا » وطوراً يتحدث عن « إِبْرِيْقِ العَشِيّ » ، وحيناً يصف « خَوْدًا ضَنَاكًا » ، ولكنه لا يشير إلى تسمية معينة لهذه أو تلك ، وكأنه وعى في قرارة نفسه أن هذه الأبيات التي يصف بها المرأة ، ليست إلاّ تمهيداً لأرجوزة ، وليس له أن يتحدث عن امرأة بعينها ، وإنما حسبه أن يصف نموذجاً لامرأة جميلة يراها بخياله لابعينه ، ولهذا كانت أوصافه لا تحمل نبضة من قلبه ، أو طرفاً من مشاعره ، ذلك لأن هذه الأوصاف إنما وردت في الأرجوزة لغرض موضوعي ، لا لتصوير تجربة شعورية واقعية ، ولهذا فهي أوصاف يضعها العجاج صناعة ، دون أن يكون فيها أثر من خلجات نفسه أو نبضات قلبه .

فإذا وقف بالأطلال كان لا بد أن يصف حالها قبل ترحل الأحبة عنها ، وهذا يدفع حتماً إلى ذكر امرأة غراء جميلة كانت تستعجب حتى العنسن من النساء^(١) :

(١) الأرجوزة ١١/١١ - ١٤ .

وقد تَرَى بالدَّارِ يوماً أنسًا جَمَّ الدَّخِيسِ بِالثُّغُورِ أَحْوَسًا
ولَهْوَةَ اللَّاهِي وَلَوْ تَنَطَّسًا أزمانَ غَرَاءُ تَرُوقُ العُنْسَا

وما أشار إلى هذه الغراء إلا ليشغل سامعه بشيء من أوصافها قبل أن يصل إلى غرض آخر من الأرجوزة ، وذلك تبعاً لمنهج القصيدة المعروف آنثذ. ولهذا تابع وصفه لمحاسن هذه المرأة ، فجعلها تعجب العنس بشعره فاحم قد عولج بالدهن والغسل حتى ركب بعضه بعضاً ، وبشرة تجاذبها لوانان من البياض والسمره ، وهي حسنة الخلق منعمة ، فتوبها كأنما ألبس دِعْصاً من الرمل ، وحلثها في جيدها ، إذا ماتبختوت سمعت له أصواتاً كأنها صوت الريح إذا مرت بالحصاد اليابس (١) :

بِفاحم دُوِّيَ حَتَّى اعْلَنَكْسَا وَبَشْرِي مَعَ البِياضِ العَسَا
خَوْذَ ائْحَالِ رِيْطِهَا المُدْمَقَسَا وَمِيسَانِيَا لَهَا مُمَيَّسَا
أَلْبِيسَ دِعْصَا بَيْنَ ظَهْرِي أَوْعَسَا تَسْمَعُ لِلْحَلْثِي إِذَا مَا وَسَّوَسَا
وَالتَّحْجِ فِي أَجْيَادِهَا وَأَجْرَسَا زَفْرَفَةَ الرِّيحِ الحِصَادِ اليَّبْسَا

ومن ثم ينتهي من أبيات الغزل ، ويمضي إلى وصف المفازة (٢) :

وَبَلْدَةِ يُمْسِي قَطَاهَا نُسْسَا سَرَوَابِعاً أَوْ بَعْدَ رِبْعِ خُمْسَا

فالعجاج في هذه الأبيات قد تحدث بشيء عن أوصاف هذه « الغراء » ، ولكننا لانجد أثراً من عاطفته أو تجربته مع هذه « الغراء » ، فهو لم يفعل أكثر من سرد عدد من الأوصاف التقليدية المتعارفة بين الشعراء ، لتكون مجرد جزء من المقدمة التقليدية ، لالتعبر عما يعاينه من تجربة شعورية خاصة . وفي هذه الأرجوزة لم يُطل قسم النسيب ، ولكنه في أراجيز أخرى

(١) الأرجوزة ١١/١٥ - ٢٢ .

(٢) الأرجوزة ١١/٢٣ - ٢٤ .

ربما أطاله بعض الشيء ، فأتى بأوصاف متعددة لتلك المرأة التي كانت تملأ
الديار أنساً وبهجة ، وهنا ينقلب إلى مصور بارع إذ يرسم صوراً حيّة لها ،
ولكنه لا يحرك عاطفة في هذه الصور ، فلا يقول لنا إنها تحبه ، أو إنه يحبها ،
كما يقول شعراء مدرسة ابن أبي ربيعة في الحجاز ، أو شعراء المدرسة العنصرية
في نجد .

فهي مثلاً برّاقة حتى بالعشي إذا ماتت الألوان ، وخصرها ضامر
يكاد ينخزل إذا مشت ، وهي غراء منعمّة ، صحيحة الجسم ، تدوس بردها
تبخترًا ، وجسمها غض فعمّ العظام غير مترهل ، ومشيتها فيه تناقل
واسترخاء ، وإذا مشت تدافعت في مشيتها تدافع الجدول إثر الجدول (١) :

ديارَ إبريقِ العشيِّ خوزلِ غراء لم تلتح بلوح الشكلِ
لم تُغدّ في بوسٍ ولم تُشكلِ ولم تُنبّت بالجرأ المحنلِ
ولم تُخامرُ وصَباً فتُسلِ ركاضة للبرد والمرحلِ
بِقَصَبِ فعمّ العظام خدلِ ريان لا عَشَّ ولا مهبلِ
في صلبِ لذنٍ ومشي هو جلِ تدافع الجدول إثر الجدولِ
في أُنعبانِ المنجنونِ المرسلِ

وربما تفلتت من العجاج بعض المعاني المستمدة من أخلاقه وعفته . ولهذا
قد يشير إلى عفة هذه المرأة ، فهي ميّالة ، ولكنها إنما تميل على الحليل ،
بل الحليل المحدل ، فهي ذات دل على زوجها ، لا على إنسان سواه (٢) :

ميّالة على الحليلِ المحلّلِ تهايل الدِعضِ بهيلِ الهيلِ
ثم يعود إلى وصف جمالها ، فهي برّاقة الحدين والشعر ، وشعرها كثيف

(١) الأرجوزة ٢٩/١٢ - ٣٩ .

(٢) الأرجوزة ٤٠/١٢ - ٤١ .

طويل تغذيه بالزيت والصندل^(١) :

براقه الخدين والمقبل
تكسو الشرا سيف إلى المجدل
قرون جثل واردي مجثل
مغدودن يجيب غسل الغسل
يسقى السليط في رفاض الصندل

ثم ينتقل بعد ذلك فجأة إلى وصف الرحلة^(٢) :

رحلت من أقصى بلاد الرحل
من قتل الشجر فجنبي مو كل

ففي هذه الأبيات قد رسم العجاج صوراً حية لإبريق العشي ، وهي صور تجعلها تخطر أمامنا بضيائها وجمالها وبياضها ودلالها وعفتها ، ولكننا لانجد صلة بينها وبينه ، بل نرى صلة أخرى بينها وبين زوجها وحليها ، ومن ثم نعود إلى القول إن العجاج في هذه الأبيات وأمثالها ، لم يكن يتجه إلى وصف الحب والهوى ، وإنما كان يصف المرأة ذاتها ، وهو لا يشير إلى امرأة بعينها ، وإنما يصور نموذجاً للمرأة الجميلة في نظر ذلك العصر ، وقد نجد هذه الأوصاف كلها أو بعضها في أراجيز أخرى ، قد تعرض فيها العجاج لأوصاف الحب والمرأة معاً ، وخصها بأحاديث حبه وهواه .

وهذه الأحاديث تبرز غزلاً آخر محمد العجاج ، هو غزل وجداني لا أثر فيه للتقليد إلا في موضعه من الأرجوزة ، وهذا الغزل الوجداني لا تخلو معانيه من التنويع ، فهو نارة يبكي أيام شبابه ، ونارة يذكر فاترة الطرف وما أوقعته بقلبه ، ونارة أخرى يتحدث عن ليلي ، وما خلفته من وجد وصبابة وآلام .

فهو كثيراً ما يتحدث عما آلت به الأيام إلى الهرم ، ثم يتبصر فيرى

(١) الأرجوزة ٤٤/١٢ - ٤٨ .

(٢) الأرجوزة ٤٩/١٢ - ٥٠ .

أيام الشباب شاخصات ذات اليمين وذات الشمال ، وهنا صلة مع الغواني ، وهناك تجربة مع ليلي ، أما الغواني فقد كن به معجبات ، وإليه مائلات ، فلما شاب منه الرأس ، ودب إليه الهرم ، غنّين عنه ، واستبدلن به زيدا من الناس ، لما عنده من نضارة وشباب (١) :

إِنَّ الْغَوَانِيَّ قَدْ غَنَيْنَ عَنِّي وَقُلْنَ لِي عَلَيْكَ بِالتَّغْنِيَّ
 عَنَّا ، فَقُلْتُ لِلْغَوَانِي : إِنِّي عَلَى الْغِنْيِ ، وَأَنَا كَالْمُظَنَّ
 لَمَّا لَبَسْنَ الْحَقَّ بِالتَّجَنِّي غَنَيْنَ وَاسْتَبَدَلْنَ زَيْدًا مِنِّي
 غُرَانِقًا ذَا بَشَرٍ مَكْتَنٌ يَرْضَى وَيُرْضِيهِنَّ بِالتَّمَنِّي
 أَنْ شَابَ رَأْسِي وَرَأَيْنَ أَنِّي حَتَّى قَنَاتِي الْكِبَرُ الْمُحَنِّي

ثم يسترسل في تصوير كبره وهرمه ، حتى يعود إلى الحوار مع الغواني ، فهن لا يجدن هذا الهرم إلا لطول السن ، وهو السيئر الشديد ، ولا ندري إن كان فيه كناية عن اللجاجة في الهوى ، لقولهن بعد ذلك إن الذي أفناه أيضاً هو طول ما أنفقه من دهره مع الهوى وقلة التواني فيه (٢) :

وَقَلْنَ لِي أَفْنَاكَ طُولُ السَّنِّ وَبُرْهَةٌ مِنْ دَهْرِكَ الْمَفْنِي
 مَعَ الْهَوَى وَقِلَّةِ التَّوَانِي

فالشيب والهرم دائماً على لسان العجاج ، وهما يثيران لديه شيئاً من ذكريات الشباب ، فاذا كان الكبر والحلم والتدين قد كف من صباه ولهوه ، فقد كان أيام شبابه ذا صلة بأوانس يشبهن الطباء ، حتى كن يدمن الأبصار إليه إعجاباً ، وكان يديم النظر إليهن أيضاً إعجاباً أو إغواء (٣) :

(١) الأرجوزة ١/١٦ - ١٠ .

(٢) الأرجوزة ١٤/١٦ - ١٦ .

(٣) الأرجوزة ١٧/١٦ - ٢٢ .

فإن يكن نأهى الصبا من سنِّي والحلم بعد السفه المستن
 وعلم وعُد الله غير الظن فقد أراني ولقد أرني
 بالفن من نسج الصبا والفن غراً كآرام الصريم الغن

وربما عرض إلى ما يشبه المجون ، ولكنه لا يشير إلى ذلك بصراحة وتفصيل واستقصاء على نحو ما كان لدى شعراء الحجاز من أصحاب مدرسة ابن أبي ربيعة ، وإنما يشير إلى ذلك ضمن كناية بارعة ، إذ يعبر مثلاً عن الغي واللهو بجن منهن تسامي جنًا منه في منبسات مثل الغيطة ، وهي ما التفت من الشجر ، بل زاد في دقة تصويره لهذه الغيطة فجعلها قد ألبست بالظلمة والسواد ، وذلك ليقول من طرف خفي : إنه كان في غاية المجون والغي معهن (١) :

وقد يُسامي جنهن جنِّي في غيطاتٍ من دُجَا الدُجن

ثم يصور حسن منطقته وحديثه مع الغانيات ، ليخرج إلى آخر دفقة شعورية في تصوير ذكرياته أيام شبابه ، فقد قضى من الشباب زمناً طويلاً متّع به ، وكان كالسكران إذا أخذ فيه الشراب وراح يغني بين الحمرة والدنان ، بدلاً من ركوب الخيل وقطع المفاوز (٢) :

ملاوة ملئتها كأنني ضارب صنجي نشوة مغن
 بين حفافتي قرقف ودن من قد قود الفرس الحصن

وهذه الأرجوزة هي الوحيدة التي اختصت بالغزل ، وقد لمسنا فيها بكاء العجاج أيام شبابه ، ولكننا لانجد وصفاً لتجربة شعورية مع واحدة بالذات ، وإنما وجدنا حديثاً عن المجون أو ما يشبه المجون ، إلا أن العجاج

(١) الأرجوزة ٢٦/١٦ - ٢٧ .

(٢) الأرجوزة ٣٣/١٦ - ٣٦ .

في غير هذه الأرجوزة قد بكى أيام الشباب ، وأتى بكثير من معاني
 الأرجوزة السابقة ، ولكنه ربما أشار إلى أن إحداهن قد سبته وتيمته ، ومن
 ثم ينطلق الى وصفها وصفاً لا يخاو من الجدة أحياناً وإن كان تقليدياً في أكثر
 معانيه ^(١) ، وأبرز ما يهمننا في هذا القسم من رجز العجاج أنه يكاد يلامس
 أحياناً بعض المعاني عند عمر بن أبي ربيعة ^(٢) ، إذ يجعل نفسه معشوقاً
 للغواني ، بدلاً من أن يكون هو العاشق المقيم ، وقد رأيناه في الأرجوزة
 السابقة يجعل أبصار الغواني لاتريم عنه ، إعجاباً به ، وميلاً إليه ، وفي
 أرجوزة أخرى وسّع هذا المعنى ، إذ جعل حديثه عن أيام شبابه يُنزل
 عَصْمَ الوعول من رؤوس الجبال ، وذلك لأن النساء كنَّ يرتمنن إليه
 بأبصارهن من خلل الخدور ، معجبات به ، مائلات إليه ، وهن معه في غمرة
 الشباب ^(٣) :

لو أن عَصْمَ شَعَفَاتِ النَّيْرِ يَسْمَعْنَهُ بِأَسْرَنَ لِلتَّبْشِيرِ
 يَبِينُ اقْتِحَامَ الطَّوْعِ وَالخُرُورِ إذ تَرْتَمِي من خَلَلِ الخُدُورِ
 بِأَعْيُنٍ مَحْوَرَاتٍ حُورِ خُزُرٍ بِالبَابِ إِلَيَّ صُورِ
 إذ نَحْنُ فِي ضَبَابَةِ التَّسْكِيرِ

وهذه اللمحات في غزل العجاج لاتقربه من غزل ابن أبي ربيعة في جعل
 نفسه معشوقاً لا عاشقاً ، ذلك لأن العجاج قد أكثر من وصف عشقه وما
 يخلفه من أثر في نفسه ، حتى لنجد شيئاً من هذا الوصف في بعض الغزل
 الوجداني الذي لم يفرد له لواحدة منهن باسمها ، وإنما أطلقه لغانية قد وقع في

(١) انظر الأرجوزة ١/١٩ - ٣٢ .
 (٢) انظر التطور والتجديد للدكتور شوقي ضيف ١٩٥ .
 (٣) الأرجوزة ٩/١٩ - ١٥ .

حباتها ، حين تبتد في تناقلها كالأظية ذات الغزال ، مع أربع من مثلها في دلالها وجمالها ، ومثل أولاد البقر في رشاقتها وسعة عيونها ، فبات قلبه يتمايل ، فلا يستقر همماً وحرزاً ، ودموعه تنهمل ، فلا يماثلها إلا ماطر من سحاب غرير^(١) :

إِصْطَدْتَنِي مِنْ بَعْدُ طَوْلِ الْمَعْدَلِ عَلَى احْتِبَالِ الْغَانِيَاتِ الْحَبْلِ
لَمَّا تَبَدَّتْ مَلْتًا كَالْمَغْزَلِ فَاتِرَةَ الطَّرْفِ مِنَ التَّدَلِّ
فِي أَرْبَعِ مِثْلِكَ مِثْلِ الْحَسْلِ فَبَاتَ مِنِّي الْقَلْبُ ذَا تَمَلُّمِ
مُؤَكِّلَ الْعَيْنَيْنِ بِالتَّهْمَلِ كَمَا طِيرِي مِنْ وَاكِفَاتِ الْوَسْلِ

وبذلك كان العجاج هو العاشق المتيّم في أكثر غزله خلافاً لابن أبي ربيعة ، الذي كاد يتفرد بالتغزل بنفسه لا بالمرأة ، حتى أصبحت هي العاشقة له في أشعاره .

وقد ذكر العجاج بعض الأسماء في غزله ، فأشار إلى خيال « تكتنى » ، وخيال « تكتنم »^(٢) ، وتحدث عن جمال « سلمى »^(٣) أو « سليمي »^(٤) ، وصور الحبّ والفراق بينه وبين « ليلي »^(٥) ، وقد تكون هذه الأسماء لامرأة واحدة ، على عاداتهم في الغزل منه عصر ما قبل الإسلام ، إذ أن الشاعر الأموي قد استمر يأتي بأسماء رمزية أحياناً ، يكتني بها عن الاسم الحقيقي الذي يريده ، لأسباب تتصل بحياة المجتمع في ذلك الحين ، وقد تنبه أبو الفرج إلى ذلك في أشعار عمر بن أبي ربيعة^(٦) .

-
- (١) الأرجوزة ١/١٥ - ٨ .
(٢) الأرجوزة ٢/٢١ .
(٣) الأرجوزة ٢٤/٤٤ .
(٤) الأرجوزة ١٧/٣٤ ، والأرجوزة ١/٣٨ .
(٥) الأرجوزة ٩/٢١ ، والأرجوزة ١٨/٢٤ ، والأرجوزة ٢٧/٢٢ و٢٣ .
(٦) الاغانى ٢٣٩/٩ .

فالأسماء التي وردت في غزل العجاج قد تتردد كلها إلى « ليلي » ، لأنها هي المرأة التي شغلت قلبه على ما يبدو من أراجيزه ، فأسماء « تكنى وتكنم » ، ربما كانا لامرأتين من صواحب ليلي ، ذلك لأنه لا يكاد يذكر خيال هذه أو تلك ، حتى يُذكر كراه بليلى وقد تبدل الحال بها وغدت لانسان سواه (١) :

طاف الخيالنِ فَهَاجَا سَقَمًا خيَالُ تَكْنَى وَخيَالُ تَكْتَمَا
 بَاتَا يَجُوسَانِ وَقَدَّ تَجَرَّمَا لَيْلُ التَّمَامِ غَيْرِ عِنكَ أَدَهَمَا
 بِالخَيْفِ مِنْ مَكَّة نَاسًا نَوْمًا فَأَرَقَا عَيْسًا وَشُعْنًا سَهْمَا
 أَسْرَوْا وَأَسْرَيْنَ هَزْبِعًا ثُمَّ مَا عَرَّسْنَ إِلَّا مَا يُحِلُّ الْقَسَمَا
 يَازِ كُرَّةً ذَكَرْتُ لَيْلِي بَعْدَمَا جَالِ الْفُوَادِ جَوْلَةً وَاسْتَهَزَمَا
 وَاسْتَبَدَلْتُ لَيْلِي حِمَاً وَحَمَاً

ولا يبعد أن تكون ليلي هذه زوجة للعجاج ، ثم تقطعت بينهما الأسباب لعارض لانعلمه ، وإلا فليس من داع لقوله : إنها استبدلت حِماً وحِماً .

وأما « سلمى أو سليمة » ، فهي كذلك زوجة للعجاج على ما يبدو من حوار جرى بينها قبل أن يتحلل إلى بشر بن مروان ، إذ لاتعدم أن يكون لها موقف من رحيله وسفره ، ولهذا بدأ الأرجوزة بذكر حوارها معه (٢) :

قَالَتْ سَلِيمَى لِي مَعَ الضَّوَارِسِ يَا أَيُّهَا الرَّاجِمُ رَجِمَ الحَادِسِ
 بِالنَّفْسِ بَيْنَ اللُّجْمِ العَوَاطِسِ

إلى آخر هذا الحوار ، وهو لا يتم غالباً إلا بين الشاعر وزوجته ،

(١) الأرجوزة ١/٢١ - ١١ .

(٢) الأرجوزة ١/٣٨ - ٣ .

كالذي عرفناه من حوار جرير وأم حذرة في مقدمات بعض قصائده ، وهذا ما يرجح أن تكون سلمى هذه زوجة للعجاج ، ثم تفرقا لسبب لا ندري به ، ولكن السؤال الذي يفرض نفسه علينا هو أن العجاج قد تحدث عن سلمى ، وتحدث عن ليلي ، وكل منهما تبدو أنها زوجة له ، فهل هما شخصية واحدة ، أم أنها شخصيتان تميّزتا في حياة العجاج .

والحق أن الاجابة على مثل هذا السؤال لا تخلو من الحيرة والتردد ، ولكننا مع ذلك نرجح أنها شخصية واحدة ، لأن أحاديثه عن « سلمى » لا نجد فيها لواجع الحب ، أو صباية الذكريات ، بل نجد أوصافاً للجمال ألفنا معظمها في غزله التقليدي والوجداني معاً ، أما أحاديث الحب والفراق واللوعة فهي تلازم حديثه عن « ليلي » ، بما يشير إلى أنها هي المرأة التي عاشت في خياله ، واحتلت حيزاً من قلبه ، بعد أن افترقا لسبب من الأسباب ، ولا يبعد أن تكون « سلمى » أو « سليمة » تكنية عنها في بعض الأراجيز . ولهذا كان غزل العجاج بليلى أوضح الغزل الوجداني لديه ، فهنا تبرز المشاعر الانسانية ، والصور الذاتية ، والأهواء المتناقضة ، ولا يخلو ذلك من أحاديث الصباية والحسرة أو الحزن والألم ، ويرافق ذلك غالباً بعض الأوصاف الحسية والمعنوية لهذه المرأة ، التي خلقت جذوة حب ، وآلام فراق ، بعد أن كانت هي التي ترهب منه فراقاً ، فتريه من محاسنها ما يعطفه عليها ، ويديم من حبه لها (١) :

بِإِذِ كَرَّةٍ ذَكَرْتُ لَيْلَى بَعْدَمَا جَالَ الْفُؤَادُ جَوْلَةً وَاسْتَهَزَمَا
وَاسْتَبَدَّلْتُ لَيْلَى حَمَاءً وَحَمَا قَامَتْ تُرْيِكُ رَهْبَةً أَنْ تُصْرَمَا

(١) الارجوزة ٩/٢١ - ١٦ .

ساقاً بَخْنَدَاءَ وَكَعْباً أَدْرَمَا وَكَفَلًا وَعَعْنًا وَكَشِيحًا أَهْضَمَا
 وَفَخِذًا لَفَاءً تَمَّتْ عِظَمَا وَمَا كِمَاتٍ يَرْتَجِجْنَ وَرَمَا
 وإذا وقف بالأطلال تذكر ليلي أيام كانت غاية مايشتهيه ويتمناه ، ثم
 أعقب ذلك بالحسرة لما آل إليه من شيب وهم (١) :

دارُ لَهْيَا قَلْبِكَ المَتِيمِ ذِكْرَ الغَوَانِي أَيَّمَا تَرَهَّمِ
 أَرْمَانَ لَيْلَى عَامَ لَيْلَى وَحَمِي وَمَا التَّصَابِي لِلْعُيُونِ الحَلْمِ
 بَعْدَ أَيِّضِ الشَّعْرِ المُلْتَمِّمِ إِلَّا أَضَالِيلُ الفُؤَادِ الأَيِّهِمِ
 ثم وقف عند تصوير محاسنها فأتى بصور لياضها وكفلها وساقها وخصرها
 وتنعّمها وما أشبه ذلك ثم غلبت عليه الحسرة مرة أخرى فقال (٢) :

فَأَصْبَحَتْ عَنْ وَصْلِهَا كَأَنَّ لَمْ تَعْلَمَ بِهِ آوْنَةٌ وَتَعْلَمَ
 فأنس الذي فات ولا تندم

وكان عمق هذه الحسرة هو الذي حمل العجاج بعد ذلك على الانتقال
 إلى موضوع الوعظ في هذه الأرجوزة ، إذ أن ثمة تجربة مع ليلي قد أثرت
 في نفسه ، وإذا ما تحدث عنها بشيء من الصراحة ، لم يكن في وسعه إخفاء
 واقعه النفسي المتألم ، وهذا الواقع يتبدى من تكرار اسمها داخل الأرجوزة
 أو داخل البيت الواحد :

أزمان ليلي عام ليلي وحمي

بل إن بعض المواقف ربما جعلت صباة العجاج تزداد حتى تستبد به
 فينطق بالحكمة يستمدّها بما هو فيه من تجربة شعورية تحيا في أعماق نفسه ،

(١) الأرجوزة ١٦/٢٤ - ٢١ .

(٢) الأرجوزة ٣٦/٢٤ - ٣٨ .

فالبعد قَطَاعٌ رَجَاءَ الإنسان أن يلقى من مُريد ، إلا أن يجتصر حاجته
بنفسه فلا ينقطع رجاؤه (١) :

مَنَازِلَا هَيَّجْنَ مَن تَهَيَّجَا مَن آلَ لَيْسَى قَد عَفَوْنَ حَيَّجَا
وَالشَّحَطُ قَطَاعٌ رَجَاءَ مَن رَجَا إِلَّا احْتِضَارَ الْحَاجِّ مَن تَحَوَّجَا

وما تزال صابته تتوقد حتى توجب فيه لهفة حرى إلى ليلي ، وإذا بجياله
يتنقل بها بين أرجاء جزيرة العرب ليقول إنها مها كانت بعيدة ، وبأي
أرض حلت ، ثم أرسلت إليّ مع الريح وحياً مبهماً ، عرفت وحيا ،
وتبينت حاجتها ، وما ذلك إلا شغفاً بها ، ولهفة إليها ، وتمكنا من حبها (٢) :

فَإِن تَصِرْ لَيْسَى بِسَلْمَى أَوْ أَجَا أَوْ بِاللَّوَى أَوْ ذِي حُسَى أَوْ يَأَجَا
أَوْ حَيْث كَانَ الْوَلَجَاتُ وَلَجَا أَوْ حَيْث رَمَلُ عَالِجٍ تَعَلَجَا
أَوْ حَيْث صَارَ بَطْنُ قَوِّ عَوْسَجَا أَوْ تَجْعَلِ الْبَيْتَ رِثَا جَا مُرْتَجَا
بِجَوِّفِ بُضْرَى أَوْ بِجَوِّفِ تَوَّجَا أَوْ يَنْتَوِي الْحَيَّ نَبَا كَا فَالرَّجَا
فَتَحْمِلِ الْأَرْوَاحُ حَاجَا مُحْنَجَا إِلَيَّ أَعْرِفْ وَحَيْهَا الْمُلْجَلَجَا

ثم يرسم صوراً لمحاسنها لا تختلف كثيراً عن الأوصاف التي رأيناها فيما
سبق ، ذلك لأنه في هذا القسم من غزله كان يجمع دائماً بين وصف الحب
والمرأة معاً ، وكان هو العاشق المعذب على عادة أكثر شعراء عصره ، إلا
أن أوصافه لتجربة الحب لم تكن من الاتساع والوضوح كما نراها لدى شعراء
نجد من أصحاب الغزل العذري ، وما ذلك إلا لأن قصائد هؤلاء كانت تتفرد
بالغزل وحده ، أما غزل العجاج فكان أحد موضوعات متعددة داخل
الأرجوزة ، ولم يتفرد بالغزل عنده إلا أرجوزة واحدة فقط .

(١) الأرجوزة ٢١/٣٣ - ٢٤ .

(٢) الأرجوزة ٢٧/٣٣ - ٣٦ .

وبذلك لم يكن العجاج بمن أسهم في التطور والتجديد لقصيدة الغزل في هذا العصر ، إذ تحول موقف الغزل في القصيدة إلى مدرستين ، لكل منهما خصائص تميزها عن الأخرى من حيث المعاني والمضمون ، الأولى في الحجاز وهي تمثل التجارب الحسية من لهو ومجون ، والثانية في نجد وهي تمثل التجارب الانسانية الروحية دون أن تعرض للحسية المادية في نظرية الحب ، وهما تتفقان في جعل الغزل موضوعاً مستقلاً ، يُنظَم في قصيدة أو مقطعة ، دون أن يُتَّخَذَ طريقاً تقليدية في مقدمات القصائد .

فالعجاج ترك الغزل للمقدمات التقليدية ، وكان بذلك لا يختلف عن سائر شعراء العراق من أصحاب النقائض ونحوهم ، ولكنه في معاني الغزل كانت لديه ألوان تتراوح بين الغزل التقليدي والغزل الوجداني ، إلا أن أكثر معانيه كانت أقرب إلى المدرسة النجدية ، وذلك لما عُرفَ عنه من عفة وأنفة واتصال بحياة البادية .

★ ★ ★

ذلك هو الغزل في رجز العجاج ، ليس فيه من التجديد لعصر بني أمية إلا آثار يسيرة لاشأن لها إذا ماقيست بالتطور الذي تم على أيدي معاصريه في هذا الموضوع . وأما المديح فقد تصرف العجاج فيه ، وأخضعه تارة لعصره ، وتارة لنفسه وأخلاقه ، وكان يحتل مكانة بارزة في رجزه ، إذ نجده في أربع عشرة أرجوزة^(١) من أراجيز ديوانه التي تبلغ أربعاً وأربعين . وقد تعرّض العجاج لمدح الأمويين ، خلفائهم وأمراءهم وولاتهم وقادتهم ، والذي يبدو أنه لم يتصل بمعاوية بن أبي سفيان ، وإنما مدحه بأبيات ضمن أرجوزة مدح بها واليه على المدينة واليامة مروان بن الحكم^(٢) ، ثم مدح

(١) هي الأراجيز : ١ ، ٢ ، ٦ ، ٧ ، ٩ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٧ ، ٢٣ ، ٣٤ ، ٣٨ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ .

(٢) الأرجوزة ١٦/٢٣ - ٢٠ .

من الخلفاء يزيد بن معاوية^(١) ، وبعد وفاة يزيد وقيام الأمر لعبد الله بن الزبير ، مال إلى ابن الزبير ومدح أخاه مصعباً حين كان على العراق^(٢) ، وما إن عادت الخلافة إلى الفرع المزواني على يد مروان بن الحكم ، حتى عادت الصلة بين العجاج والأمويين ، ولا سيما أن هذه الصلة قديمة تعود إلى أيام كان مروان والياً على المدينة واليامة لمعاوية بن أبي سفيان ، وقد مدحه العجاج آئناً بأرجوزتين^(٣) ، وسعى لإطلاق رجلين من سجنه بالمدينة ، ثم مدح ولده عبد العزيز بن مروان لعونه على إطلاق ذينك الرجلين^(٤) ، وأصفاه أيضاً أرجوزة ثالثة لم يشر فيها إلى هذه المسألة^(٥) ، ومدح كذلك بشر بن مروان في أرجوزة أخرى^(٦) ، ولكننا لانجد أرجوزة خاصة بمدح مروان بن الحكم بعد أن أصبح خليفة ، وكذلك لانجد أرجوزة خاصة بمدح الخليفة عبد الملك بن مروان ، مع أن الصلة كانت وثيقة بينه وبين العجاج ، بدليل أنه أقطعه القُصْبَةَ ، وهي قرية باليامة^(٧) ، إلا أن ثمة أرجوزة قالها العجاج بعد مقتل مصعب بن الزبير معروضاً بآل الزبير مادحاً آل مروان^(٧) ، ولا يبعد أن تكون هذه الأرجوزة قد توجهت بها العجاج إلى عبد الملك أيام وجوده في البصرة عقب انتصاره على مصعب بن الزبير وقتله ، وقد يكون افتقادنا لمديح الخليفين مروان بن الحكم وعبد

-
- (١) الأرجوزة ١٢ .
 - (٢) الأرجوزة ٧ .
 - (٣) الأرجوزة ٢ ، و ٢٣ .
 - (٤) الأرجوزة ٤٤ .
 - (٥) الأرجوزة ١٣ .
 - (٦) الأرجوزة ٣٨ .
 - (٧) معجم البلدان ١٢٦/٤ .
 - (٨) الأرجوزة ٩ .

الملك بن مروان ، إنما يعود إلى ضياع قسم من أراجيز العجاج ، ذلك لأن الصلة بينه وبين الأمويين في هذه الفترة كانت جدّ وثيقة ، إذ مدح الحجاج ابن يوسف الثقفي والي العراق وتحدث عن إيقاعه بالختار الثقفي (١) ، ومدح عمر بن عبيد الله بن معمر ، وكان عبد الملك قد وجهه إلى قتال الحرورية باليامة ، فحورهم وقتل قائدهم أبا قُدَيْك ، فصورّ العجاج ذلك تصويراً جعل من أرجوزته هذه غرّة ديوانه (٢) ، وما دامت الصلة وثيقة بينه وبين الأمويين هذه الفترة ، فلا يعقل أن يتخلى عن مدح مروان بن الحكم ، أو عبد الملك بن مروان ، ولا سيّان عبد الملك هو الذي وَحَدّ الدولة ، وقضى بنفسه على مناوئيه في العراق ، وهذا فيه مجال واسع للقول والمديح ، وإذا كان الحجاج قد أرسله الى الوليد بن عبد الملك (٣) ، فهذا ما كان له أن يتمّ إلاّ بعد أن استوفى مدحه له ، وذلك شأن معاصره جرير ، ومع ذلك لانجد في ديوانه غير أرجوزتين في مدح الحجاج ، وهذا يعني أن بعض أراجيزه قد مُفقدت ولم تُنقل في ديوانه .

وثمة أرجوزة أخرى قيل إن العجاج قالها يمدح سليمان بن عبد الملك (٤) ، وقد ذكرنا في مواضع سابقة أنها ليست في مدح سليمان وإنما هي في مدح الوليد بن عبد الملك حين ولي الخلافة (٥) ، وهناك مدح آخر أصفاه العجاج أحد أمراء الأمويين وقادتهم وهو مسلمة بن عبد الملك (٦) ، وأثنى في أرجوزة مطولة على والي الیامة ابراهيم بن عربي ، فمدحه وتحدث عن فساد عمال الخليفة

(١) الأرجوزة ٣٤٦ و٣٤٧ .

(٢) الأرجوزة ١ .

(٣) الاغانى ١٢٣/١٨ و ٥٩/٢١ .

(٤) الأرجوزة ٤٣ .

(٥) انظر حديثنا عن رحلات العجاج ، والاضطراب في رواية رجزه .

(٦) الأرجوزة ٤٢ ، وهي متنازعة مع رؤبة ، انظر بحث الاضطراب .

وما يلقاه الناس بهم من غت وإرهاق (١) .

فالعجاج قد مدح خلفاء بني أمية وعدداً من أمرائهم وولائهم وقادتهم ، ومدح كذلك مصعب بن الزبير أيام كان والياً على العراق لأخيه عبد الله ، إلا أن مدحه لم يكن يجري وراء التكسب على الأغلب ، وإنما نجده في أكثر أراجيزه يندفع إلى أغراض سياسية أو مايقرب من الأغراض السياسية ، ولا نجد ملامح التكسب إلا في خمس أراجيز فقط ، وهذه الملامح تختلف من أرجوزة إلى أخرى إذ ربما تعرض لمجرد وصف المدوح بالكرم فحسب ، فقال لعبد الملك بن مروان (٢) :

وَخَضِلُ الْكَفَيْنِ غَيْرُ نِكْسٍ كَالغَيْثِ هَدَى الرَّجْسَ بَعْدَ الرَّجْسِ
فهو ندى الكفين بالعطاء ، غير ضعيف من الرجال ، بل يشبه الغيث الغزير الذي يُسْمَعُ له صوت جافٍ غليظ ، وإذا نظر إلى قوم عبد الملك ، قال (٣) :

يَكْفُونُ أَثْقَالَ ثَأَى الْمُسْتَأْسِي وَيَفْصِلُونَ اللَّبْسَ بَعْدَ اللَّبْسِ
فهم يحملون ديات القاتل إن لاذ بهم أو التجأ إليهم . وفي هاتين الاشارتين لانجد طلباً أو سؤالاً ، ولا إراقة ماء وجه ، بل لانكاد نشعر بوجود العجاج المتكسب ، لأن من الطبيعي أن يوصف الخليفة وقومه بالكرم والجد ، أو بندى الكفين وتحمل الديات ، وهي من المعاني التقليدية منذ عصر ما قبل الاسلام .

ومثل ذلك مدحه لابراهيم بن عربي والي اليمامة ، إذ قال (٤) :

- (١) الأرجوزة ١٧ .
- (٢) الأرجوزة ٣٣/٤٣ - ٣٤ .
- (٣) الأرجوزة ٤٩/٤٣ - ٥٠ .
- (٤) الأرجوزة ٧/١٧ - ٩ .

من أجل أن وُدّه لم ينسَلِ مِنِّي ولا بلاؤُهُ إذ نَبَتَلِي
منه أهاضيب ربيع مُسْبِلِ

فهو يلتزم جانب ابراهيم لودّ لم يذهب منه ، ولأهاضيب خير ينالها
منه ، وفي هذه إشارة إلى أن العجاج ربما كان ينال شيئاً من أعطيات والي
اليامة ، ولكن التعبير عنها جاء متلفظاً مهذباً ، يخفي وراء هذه الأهاضيب
والدفعات من المطر .

وفي تلك الصفات التي عددها في مديح ابراهيم ، لم ينس العجاج أن
يتحدث عن وصله لإخوانه وجوده عليهم ، وارتياحه أيام تبرد الرياح وبشدة
الزمان ، لما في ذلك من فرصة للجود والكرم (١) :

وَصَالِ إِخْوَانَ النَّدَى مُوَصَّلِ يَرْتَاحُ أَنْ تَبْرُدَ رِيحُ الشَّمَالِ
وفي هذه الإشارة أيضاً لانبج وجه العجاج المتكسب ، لأن مثل هذه
الأوصاف لا يختلف عن وصف المدوح بالسمو والرفعة والشجاعة والإقدام ونحو
ذلك ، ولهذا لانبج في هذه الاشارات غير تلميح مهذب وسريع إلى ما كانت
ترجوه نفوس الشعراء غالباً من عطاء ونوال .

ولكن هذا التلميح يزداد وضوحاً يسيراً ، حين يخاطب ناقته قائلاً
لها (٢) :

لاتأملين في السرى ترؤيحي
بأهة كاهة المجروح
إلى ابن ليلى فاغتدي ورؤيحي
مُرْزَاءَ بِسَيْبِهِ نَفُوحِ
وإن تشكيت أذى القروح
وظاهري السريح بالسريح
إلى فتى في الباع ذي مندوح
في البدو ذو بدو وذو ممنوح

(١) الأرجوزة ٤٦/١٧ - ٤٧ .

(٢) الأرجوزة ٥/١٣ - ١٤ .

هَنَا وَهَنَا وَعَلَى الْمَسْجُوحِ جَرَى ابْنُ لَيْلَى جَرِيَّةَ السَّبُوحِ
فناقة ينبغي ألا تأمل منه فتوراً أو ترويحاً عنها ، وإن أُصِبت بدبره ،
أو تاوّهت تأوّه المجروح ، وإنما ينبغي أن تظاهر النعال في أخفافها ، فتحمل
منها رقاعاً فوق رقاع ، حتى تصل إلى الأمير الأموي عبد العزيز بن مروان ،
ذلك لأنه لأنه رجل في الكرم ذو سعة ، وفي العطاء يصاب منه الكثير ، وله
مال وأنعام في البوادي ، وأخرى يمنحها الناس ، ولا يخص جماعة بنوآله ،
وإنما يفرّق أمواله في كل وجه ، فيعطي يمينه ويسرة وعلى القصد .
ولا شك أن في هذا تلويحاً بطلب شيء من نوال الأمير المرواني ، ولكنه
لا أثر للسؤال ، ولا ذكر فيه لوصف حال العجاج من الفاقة والعوز وما
أشبه ذلك بما كان يجري على ألسنة الشعراء أمثال معاصره جرير ، وإنما يجعل
ناقته هي التي تعاني آلام الطريق ، أما العجاج فذو همة إلى لقاء ابن ليلي ،
وابن ليلي كريم بل واسع الكرم ، ولا بد أن يكون صاحب فطنة وذكاء ،
وله أن يقدر رحلة العجاج إليه ، فيعطيه دون أن يتذلل أو يريق إليه ماء
الجبين .

إلا أن العجاج في موضعين آخرين من ديوانه ، لا يختلف عن شعراء
عصره في الوقوف أمام المدوح يطلب العطاء طلباً ، ولكنه لا يلح في
المسألة ، ولا يتذلل أو يصف ما به من فاقة أو ما خلفه من عيال لا يجدون
طعاماً أو شراباً ، إنه يطلب من مدوحه ، ولكن بعفة دون مذلة ، فإذا
سار إلى بشر بن مروان ، وتحدثت عن رحلته بمقدمة قصيرة ، وقف أمامه
يقول (١) :

(١) الأرجوزة ١٨/٣٨ - ٢٢ .

هَابِشْرُ مَنْ زَارَكَ غَيْرُ بَائِسٍ مِنْ سَيْبِ فَرَعٍ طَيْبِ الْمَغَارِسِ
بَيْنَ الذَّرَاوِ الْأَفْحَلِ الرَّوَاجِسِ إِنَّا لَنَرَجُو نَفْحَةَ مَنْ عَائِسِ
مَنْ مَاطَرَ الْكَفِينِ غَيْرِ بَائِسِ

فالذي يزور بشر بن مروان لا يصيبه بؤس أو فقر لما يناله من سيبه وعطائه ، ولذا لا يجد العجاج ضيراً من قوله : إِنَّا جِئْنَاكَ رَجَاءَ نَفْحَةٍ مِنْ رَجُلٍ كَرِيمٍ شَرِيفٍ مَاجِدٍ ، تَطْرُقُ كَفَاتِهِ بِالْجُودِ وَالْعَطَاءِ .

وعلى الرغم من أن العجاج يطلب طلباً هذه النفحة من ماطر الكفين ، فهو لا يتذلل ، وكأنه يجد في ذلك أمراً طبيعياً ، وحقاً لا بد منه ، فهو شاعر قد سار إليه ومدحه ، وذاك ينبغي أن يُسأل فيُعْطِي ، ومثل هذا ما كان من العجاج في مدح يزيد بن معاوية ، فقد مهّد لذلك بمقدمة طويلة ، تحدّث فيها عن الأطلال والنسيب والرحلة المضنية إلى يزيد ، ثم جعل غايته من هذه الرحلة كلها أن يصل إلى يزيد رجاء نواله وعطائه ، ورجاء أن يجعل له عطاء في الأمصار (١) :

رَحَلْتُ مِنْ أَقْصَى بِلَادِ الرَّحَلِ رَجَاةَ سَجَلٍ مِنْ يَزِيدَ مُسْجَلِ
دِيوَانَ مِضْرٍ أَوْ عَطَاءٍ مُجْزَلِ مِنْ مُكْمَلٍ فِيهِ الْعَلَى لِمُكْمَلِ
بَحْرِ الْأَجَارِيِّ حَنِيكَ مُسْهِلِ يَنْهَلُ لِلسُّوْلِ وَقَبْلَ السُّوْلِ
بِنَائِلِ يَغْمُرُ بَاعَ النُّوْلِ مَدَّ الْخَلِيْجِ فِي الْخَلِيْجِ الْمُرْسَلِ
فَاشِ جِدَاهُ مِنْ نَدَاهُ الْمُشْمَلِ فَشَوْ طَوْفَانَ الرَّيْبِ الْمُرْسَلِ
يَعْلَمُ ، وَالْعَالِمُ لَا كَالْأَجْهَلِ أَنْ حِسَابَ الْعَمَلِ الْمُحْصَلِ
وَالْأَوَّلِ مِنْ غِبِّ الْأُمُورِ الْأَوَّلِ عِنْدَ الْإِلَهِ يَوْمَ جَمْعِ الْعَمَلِ

(١) الأرجوزة ٤٩/١٢ ، ٦٩ - ٨٣ .

بِمَجْمَعِ الْحِسَابِ وَالْمُزَيَّلِ وَأَنَّ خَيْرَ الْخَوَالِ الْمُخَوَّلِ
فَلَنذُ الْعَطَاءِ فِي الْحَقُوقِ النَّزْلِ

فغاية الرحلة أن ينال دلوأ عظيمة من جود يزيد ، وعطاء يدوآن له في
الأمصار ، ومن ثم وقف العجاج طويلاً أمام تصوير جود يزيد ، فتارة ينهل
بمعروف دونه كل معروف سواه ، وطوراً يتحول جوده إلى مطر يعم
الناس أجمع ، ولا ينسى العجاج بعدئذ أن يُذكر بأن خير ما يجده الانسان
عند ملك الملك يوم الحساب هو العمل الصالح من جود وسخاء ، وخير الجود
أن يجعل العطاء في أهله من أصحاب الحقوق ، أمثال العجاج طبعاً .

وهذه الأبيات هي الوحيدة في ديوانه التي تقف عند تصوير جود الممدوح
على هذا النحو من التطويل والتنويع ، ورغم ذلك فنحن لانلمح فيها وجه
جرير ولا الحطيئة ولا الأعشى ولا غيرهم من شعراء بني أمية أو بني العباس
ممن مدحوا وألحوا في السؤال ، ثم هددوا وتوعدوا طلباً لجائزة أو نوال ،
حتى كان منهم من وقف ذليلاً على أبواب ممدوحه ، ومنهم من تصاغر بين
يديه وشكى زمناً قاسياً ، أو جفافاً شاملاً ، أو عيلة لا يجد لها مايسد رمقاً ،
إن العجاج لايعمد في مديحه إلى أمثال هذه السبل ، وإنما يشير إشارة مهذبة
إلى أن رحلته إنما كانت طلباً لـ « سَجَل » من يزيد ، ثم لايعود إلى
السؤال والمذلة ، وإنما حسبه أن يعدد مكرمات يزيد ، ويصف جوده ،
وبذلك يوفّر لنفسه عزتها ، ولا يفترط بكرامة أو بأخلاق أيتة كان
يتصف بها .

فالتكسب في رجز العجاج كان محدوداً ومهذباً ، وهو لا يزري بصاحبه أو
ينال منه ، ولم يكن بالهدف الرئيسي في مدامحه كلها ، وإنما أكثر أراجيز
المديح كانت لأهداف أخرى ، أبرز ما يتضح فيها هو الغرض السياسي ،

وذلك حرصاً على توطيد الأمر لنفسه أو لقبيلته عند الولاة أو الخلفاء ، ولولا هذا الغرض لما وجدنا مبرراً لتلك الأراجيز التي مدح بها مصعب بن الزبير ، والحجاج بن يوسف الثقفي ، وعمر بن عبيد الله بن معمر ، فالغرض منها كان رعاية لمصالح قومه باليامة أو بالبصرة ، أو رعاية لما يهمه هو شخصياً من شؤون وحاجات ، فهذه المدائح تخلو تماماً من أي غرض آخر أمثال التكسب أو سواه ، وأسلوبها أسلوب سياسي في الغالب ، يحاول تصوير المدح بالنبيل والمنعة والقوة ، ويحدد نزعة السياسة والعقدية ، ويقربها بنزعة خصمه من الخوارج أو الشيعة ، ثم يرسم لوحات رائعة لانتصاراته على الأحزاب المناوئة ، وتحزير الناس بما أصابهم من بلاء ، ومعظم هذا البلاء كان مجلّ بأهل العراق ومن جاورهم من أهل اليامة وصحراء نجد ، وربما كان هذا دافعاً نفسياً قوياً إلى مدح من خلّص القوم من هذا البلاء العظيم ، وقد صرّح العجاج بذلك في بعض أراجيزه ، وذلك حين غلبت الحرورية على اليامة وصحراء نجد بقيادة أبي فديك الخارجي ، فوجه عبد الملك عمر بن عبيد الله بن معمر إلى قتالهم ، فهزمهم وقتل أبا فديك ، فمدحه العجاج بغرّة أراجيزه ، وفيها يخاطبه بقوله (١) :

ها فتهوذا فقد رجأ الناس الغير
 من آل صعفوق وأتباع آخر
 من أمرهم على يدك والثور
 من طامعين لايبالون الغمر
 فقد علا الماء الزمبي فلا غير

فبلاء الخوارج قد طال على الناس ، حتى إنهم ليرجون تغييراً لأحوالهم على يدك يا بن معمر وثارا لهم من أولئك الصعافقة الطامعين ، الذين لايبالون

(١) الأرجوزة ٢٩/١ - ٣٣ .

دنساً ولا تلتطيخ أعراض ، حتى عمّ البلاء ، وبلغ الأمر غايته من سوء ،
وليس للناس من يُغيّر عنهم هذه الحال .

ومن هذه العبارات الصريحة ندرك أسباب هذه اللفتة والتحفظ ، التي
تتبدى في أرجوزة العجاج هذه ، وفي أراجيزه الأخرى التي مدح بها مصعب بن
الزبير بعد قضاؤه على ثورة المختار بن أبي عبيد ، والحجاج بن يوسف بعد
قضاؤه على ثورة عبد الرحمن بن الأشعث !

وإذا وقفنا عند مدحه للحجاج أدركنا أنه يندفع اندفاعاً إلى مدح
بعد قضاؤه على ثورة ابن الأشعث ، إذ يتبع كل أسلوب من أساليب السخرية
والتهكم للنيل من هؤلاء الخارجين على الحجاج ، ثم ينعثم بالعدو
ونقض العهود تارة ، وبالسفه تارة أخرى (١) :

أَلَمْ يَكُنْ أَشَدَّ قَوْمٍ رَحَضًا سَرَاءَهُمْ وَالْأَخْبِيثِينَ رَكُضًا
إِذْ رَكَضُوا وَالْأَضْعَفِينَ قَبَضًا حِينَ أَطَالُوا فِي الْأُمُورِ الْمَخْضًا
ثُمَّ اصْطَفَوْهَا عَدْرَةً وَتَقَضًا فَانْقَضَ بِالنُّحُوسِ حِينَ انْقَضَا
وَرَهَبُوا النِّقْضَ فَلَاقُوا نَقْضًا فَجَمَعُوا مِنْهُمْ قَضِيضًا قَضَا
جَاءُوا مُخْلِينَ فَلَاقُوا حَمْضًا طَاهِينَ لَا يَزْجُرُ بَعْضُ بَعْضًا
عَنْ خَطَاٍ وَلَا سَفِيهِ حَضًا

ثم يصور كثيرهم واندفاعهم ، ولكنه ينتهي بهم إلى ملاقاته الحجاج ،
وإذا به يأبى الهزيمة ، بل تعود أن يهزم الجيوش من قبلهم ، ولهذا جعل
يجود عليهم ، فيسقيهم لبناً لا كأيّ لبن ، إنه يسقيهم الموت بضرب من
السيوف أو طعن من الرماح ، حتى كانوا بين قتيل مُضْرَجٍ بدمه ، أو

(١) الأرجوزة ١/٦ - ١١ .

منهزم في أشد الغم والكرب ، واتسع كرم الحجاج فراح يقدم لهم من القروض أضعاف ما أسلفوه وقدموه له (١) :

فوجدوا الحجاج يَأْتِي الهَضَا لا فَايَا ولا تَحْدِيثَا غَضَا
وَمِنْ صَرِيحِ الأَكْرَمِينَ مَحْضَا ثَبِتَا إِذَا كَانَ المَقَامُ دَحْضَا
وَالجِيُوشِ قَبْلَهُمْ مِهْضَا غَدَاةَ يَسْفِيهِمْ صَبُوحَا مِضَا
بِالمَشْرِفَاتِ وَطَعْنَا وَخَضَا يَمْضِي إِلَى عَاصِي العُرُوقِ النَحْضَا
حَتَّى اسْتَفْتَرَا وَآخِرَتَا مُرْقَضَا مُلْحَبَا أَوْ سَابِقِينَ جَرَضِي
يَجْزِيهِمْ بِكُلِّ قَرْضٍ قَرْضَا وَتَارَةً يُسَلِّفُونَ فَرَضَا
حَتَّى تَقْضَى القَدْرُ المَقْضَى

وهذا المديح لا يريد العجاج به إلا غرضاً سياسياً يهدف إلى توطيد الأمر لنفسه أو لقومه عند ولاية بني أمية أو خلفائهم ، وثمة غرض قلمي يقرب أن يكون سياسياً ، كان يدعو الشاعر الأموي إلى المديح في ذلك العصر ، وهو السعي لدى الخليفة أو الوالي لإطلاق سراح بعض السجناء ، وقد حدث للعجاج أن سجن له رجلان عند مروان بن الحكم والي المدينة واليامة لمعاوية ابن أبي سفيان ، فقام يسعى لإطلاق سراحها ، وقد برع في أراجيزة التي مدح بها مروان داعياً إلى فك الإسار عنها ، إذ كانت الأراجيزة تتجه في كل جزء منها إلى تحقيق ذلك الهدف ، فهي تعرض حال العجاج وتأثره البالغ بما أصابها ، حتى أصبح لا ينام توجعاً وألماً ، ولا ترقأ له عين هماً وحزناً (٢) :

تَطَاوَلَ اللَّيْلُ عَلَى مَنْ لَمْ يَنَمْ وَاحْتَمَّتِ العَيْنُ احْتِيَامَ ذِي السَّقَمِ
وَوَاقَتِ اللَّيْلُ بِسِلْسَالِ سَجَمِ جَارِي الرِّشَاشِ كَالجَبَانِ المُنْتَظَمِ
مِنْ جَارِ مَرَوَانَ وَجِيرَانِ الحَكَمِ

(١) الأراجيزة ١٨/٦ - ٣٠ .

(٢) الأراجيزة ١/٢٣ - ٥ .

وهو لا يزعم أن أصحابه « سجناء » عند مروان ، وإنما يذهب بهم إلى أنهم في جواره وجوار أبيه الحكم ، وهذه لفظة بارعة جداً ، لأن الجار له ذمة لا تخفى ، وعهد لا ينقض ، ولا ينبغي لمروان أن يخفّر ذمة ، أو ينقض عهداً (١) :

مروانُ إنَّ اللهَ أَوْصَى بِالذِّمَمِ ۖ وَجَعَلَ الْجِيْرَانَ أَسْتَارَ الْحُرَمِ ۚ
ولم يَكُنْ جَارُكُمْ لَحَمٍ وَضَمٍ ۚ وَالرَّخْوَةُ عَنْ جَوَارِهِ كَالْمُهْتَمِّمْ ۚ
ولا يزال يجادل مروان في أمر جواره ، وحققهم في حماية مروان حماية الجار لجاره ، حتى يخرج إلى أمر آخر يراه مجدياً مع الوالي ، إذ أن منتهى الأمر ومآله إلى خليفة الشام معاوية ، وإذا كان مروان لا يريد حلاً لإسار ولا إطلاقاً لسجين ، فليكتب إلى الخليفة في أمرهما حتى لا تكون عليه ملامة في ذلك ، والخليفة لا يقضي بقضاء منتهم لا عدل فيه ، وإنما يقضي بالحق والعدل (٢) :

فَادْفَعْ وَأَنْ تَدْفَعَ خَيْرٌ لِّلْكَرَمِ ۚ فِي عَاجِلِ الْأَمْرِ وَأُجْلَى لِّلظُلْمِ ۚ
وظَاهِرِ الْإِزْسَالِ وَآكُتْبُ بِالْقَلَمِ ۚ إِلَى ابْنِ حَرْبٍ لَا تَجِدُهُ كَالْبَرَمِ ۚ
لَا عَاجِزَ الْهَوَىٰ وَلَا جَعْدَ الْقَدَمِ ۚ وَلَا قَضِيًّا بِالْقَضَاءِ الْمَتَّهِمِ ۚ
فِي أُمَّةٍ سُوِّسَهَا بَعْدَ أُمَّمُ ۚ كَيْفَا تُصِيبَ نَجْحًا وَلَمْ تَلْمِ ۚ

ثم يعود إلى مروان مهتددا متوعدا ، ذلك لأن عاصماً وحيياً ، لم يمتنعا على مروان ، وإنما أتياه طائعين ، مع أن لهما من المنعة ما يحول بينها وبينه ، وإذن فليحذر مروان أن يتجه إليهما بعمل فيه داهية نكراء تلحقه الندامة (٣) :

الرجوع إلى صفحة ٢٥٣

الرجوع إلى صفحة ٢٥٣

(١) الأرجوزة ٦/٢٣ - ٩ .

(٢) الأرجوزة ١٤/٢٣ - ٢١ .

(٣) الأرجوزة ٢٤/٢٣ - ٢٨ .

فَاتَّقِينَ مروانُ في القَوْمِ السَّلِيمِ . . . عِنْدَكَ فِي الْأَجْجَالِ شِعْرَاءِ التَّدَمِّ
فِيهِمْ زَارُوكَ مِنْ غَيْرِ عَدَمٍ . . . وَدَوْتَهُمْ أَثْبَاجُ لَيْلٍ وَأَكْتَمُ
وَالغُرُثُ مِنْ رَمْلِ مِعْرَاضِ المُرْتَكَمِ .

إلا أنه يمزج بين هذا الوعيد وبين شيء من المديح المرضي ، إذ يتابع
الآيات بأن عاصماً وحيياً إنما جاءا طائعين لينبأ عند مروان حيث يعتصمان
ويمتنعان به (١) :

حَتَّى أَنَاخُوا بِمَنَاخِ المُعْتَصِمِ . . . مِنْ عَيْصِ مَرَوَانَ إِلَى عَيْصِ الحَكَمِ
ذَاكَ يُنَجِّي جَارِدَةً مِنْ الغَمِّ .

ثم يلتفت إلى وصف حيي وأنه إن لاقى أمراً شديداً يقلُّ الحجارة ،
فإنه عاش بعيداً عن الضيم ، وله من العزِّ ما يعالي الجبال ، ثم يقف عند
عاصم ليلقي حمته من التوعد والتعريض بالحرب والقتال (٢) :

وَعَاصِمٌ مَا عَاصِمٌ لَوْ اعْتَصَمَ	فِي الهَامَةِ الرَّقَبَاءِ مِنْ رَهْطِ جَلَمِ
مُقَابِلٌ فِي المَجْدِ مِنْ خَالٍ وَعَمِ	لَوْ كَانَ تَجَكِيمًا بِمَالِ مُحْتَكَمِ
وَلَوْ أَتَى حُكَّامُهُ فَوْقَ الأَمَمِ	عَنكَ مُحْيِيٌّ مَا بَخِلْنَا بِالنَّعَمِ
أَوْ كَانَ ضَرْبًا فِي يَافِيخِ البَهَمِ	عَنكَ مُحْيِيٌّ مَا جَزَعْنَا مِنَ أَلَمِ
وَلَوْ أَطَارَ الحَرْبُ طَعْنٌ كَالضَّرَمِ	فِي يَوْمِ هَيْجَازِي طَلَالٍ وَقَتَمِ

وفي أرجوزة أخرى نجد اختلافاً في تناول هذا الموضوع (٣) ، إلا أنه
يحافظ فيها على أسلوب المزج بين المدح والاقناع والوعيد ، ولا يختلف
عن هذه الأرجوزة إلا في اكثاره نسبياً من عدد آيات المديح التي خصَّ بها

(١) الأرجوزة ٢٣/٢٩ - ٣١ .

(٢) الأرجوزة ٢٣/٣٩ - ٤٨ .

(٣) انظر الأرجوزة (٢) من الديوان .

مروان بن الحكم .. وبذلك كان هذا الغرض سبيلاً إلى المدح السياسي الذي عُرف لعصر بني أمية ، وهذا ما كان يدعو غالباً إلى شيء من المصانعة في مدائح الشعراء ، وهذه الظاهرة قد وجدت لنفسها أكثر من موضع في مديح العجاج ، وكانت عن الدوافع البارزة إلى قوله بعض أراجيز المديح .

فالعجاج كان دائم المديح لولاة البصرة واليامة ، لما في ذلك من رعاية لمصالحه ومصالح قومه معاً ، فلما غلب ابن الزبير على العراق ، وغدا مصعب والياً لأخيه على البصرة ، كان لا بد أن يتقرب العجاج إليه ، ويمدحه حين أوقع بالختار الثقفي ، ويجعل سيره في جيشه قدراً من الله تعالى (١) :

لقد رأيتُم مُصعَباً مُستصعَباً حين رمى الأحزابَ والمُحزَّبَنا
يُحاجِبني سَبعينَ ألفاً مُعرباً مَوجاً تَرى قُدُموسَه مُكَوِّكبَا
في مُرَجحينَ يَدَعُرُ المَهيبَا سارَ على أهوائِه مُستنسِبَا
يَقَدَرِ يَتَلَوُ كِتَاباً مُوجِبَا

فلما قُتِل مصعب وآل الأمر إلى عبد الملك بن مروان لم يبق في ذهن العجاج من رمى الأحزابَ والمُحزَّبَ ، ولا من كان يسير إلى السبيِّ بقدر من الله تعالى ، ذلك لأن هذا ملك كان يهيمه في شيء ، فمصعب قد قتل وانظفاً سراجَه ، وغدا سلطان العراق لغيره ، ولا بد من التقرب إلى صاحب هذا السلطان الجديد ، ولذا فقد عرضَ بآل العوام ، ومدح آل مروان ، فقال بعد مقتل مصعب (٢) :

زَلَّ بنو العَومِ عَن آلِ الحَكمِ وَشَنِيوا المَلكَ لِمَلكِ ذِي قَدَمِ
ضَخَمَ الإيادِينِ شَدِيدِ المَدْعَمِ

(١) الأرجوزة ١/٧ - ٢ ، ٧ - ١١ .

(٢) الأرجوزة ١/٩ - ٣ .

وما هذا إلاّ مصانعة من شاعر العصر الأموي ، الذي ما كان غالباً
 ليهتم بآل العوام أو آل الحكم ، وإنما كان يُعْتَنَى بالتقرب إلى السلطان
 رعاية لمصلحه ومصالح قومه ، دون نظر إلى أصحاب هذا السلطان ، ولم يكن
 ليخرج عن هذه الظاهرة إلاّ شعراء الخوارج .

وتبرز هذه المصانعة عند العجاج في موضع آخر حين مدح والي اليمامة
 ابراهيم بن عربي ، فالوالي دُعي إلى الخليفة على ما يبدو من بعض أبيات
 الأرجوزة (١) ، وكان الخليفة يرى فيه تقصيراً في جباية الأموال ، وكان من
 المحتمل في نظر الناس أن يُحوّل عن منصبه ، فيُعزَل ويُغرّم بعض المال ،
 ولهذا لم يهتم العجاج على ما يبدو حين دعي الوالي من اليمامة ، ولكن الوالي لم
 يُعزَل ولم يُغرّم بعد رحلته هذه ، وإنما عاد إلى ولايته على اليمامة ، وهنا
 انقلب الأمر بالعجاج ، وراح يمدحه في أرجوزة مطولة ، معتذراً عما أسلفه
 من تهاون في أمر واليه ، متعللاً بأسباب واهية القوي ، مدعياً أنه كان في
 شغل شاغل (٢) :

أما وربّ البيتِ لو لم أشغَلِ	شُغْلاً بِحَقِّ غَيْرِ ما تَكْسَلِ
ما كنتُ من تلكَ الرجالِ الخُذَلِ	ذِي رَأْيِهِمُ والعاجِزِ المُخَسَلِ
عن هَيْجِ اِبْرَاهِيمَ يَوْمَ المَرَحَلِ	وَجَعَلَ نَفْسِي مَعَهُ ومِقْوَلِي
مِنَ أَجْلِ أَنْ وُدَّهُ لم يَنْسَلِ	مِنِي ولا بَلاؤُهُ إِذْ نَبْتَلِي
منهُ أَهاضِبَ رَيِّعِ مُسْبِلِ	فَلستُ أَنسأهُ كَمَا يَنْسَى السِّلِي

على التناهي والزمانِ الأعْصَلِ

وما نظن هذا صحيحاً ، وما كان ليفطن بأهاضيب ريعه ، لو أنه

(١) الأرجوزة ١٧/٢٠ - ٢٣ .

(٢) الأرجوزة ١٧/١ - ١١ .

عُزل وأنتهى به الأمر ، ولكنه فطن به وبودّه حين عاد من جديد إلى سلطانه ، وما هذه إلاّ مصانعة لا تقتصر على العجاج ، وإنما كانت سمة بارزة لدى شعراء الحزب الأموي ، وبعض شعراء الشيعة ، ولم ينبج منها إلاّ شعراء الحوارج ، لتفانيهم في عقائدهم ، والتفانيهم عن الدنيا بكل ما فيها من جاه أو عرض لا يدوم .

وقد تناول العجاج في مديحه بعض المعاني التقليدية ، التي عرفت في عصر ما قبل الإسلام ، ثم استمرت في مدائح شعراء العصر الاسلامي والأموي ، ومدح كذلك بمعان دينية وسياسية بما جدّ في العصر الاسلامي ، ودعت إليه أحوال السياسة في العصر الأموي ، وبذلك جمع في مديحه بين القديم والجديد من المعاني .

والمعاني التقليدية تظهر مثلاً في مديحه ليزيد بن معاوية ، فهو بارع الخدين ليس بقصير دميم ، ولا بضعيف أو قبيح ، وإنما هو ماجد أشبه ما يكون بالجواد السابق أمام الخيل ، وهو كريم يبذل العطاء لمن ليست له وسيلة إليه ، ولن له وسيلة (١) :

والقولُ إنْ يخطئكَ خَبْلُ الخَبْلِ من الحثوفِ والمنايا الخَبْلِ
يرجعُ يحفظُ المُستفيدِ المُجدلِ وبجباةِ الموجةِ المؤملِ
من بارعِ الخدينِ غيرِ خَبَلِ ليس بزميلِ ولا كَوَالِلِ
أشمّ ذي أكرومةِ مُسرَبِلِ نيجارِ نُورِ السابقِ الممهلِ
بذالِ سيبِ من نَدَى مُبَدَلِ لوئسلِ القرُوبى وغيرِ الوئسلِ

وهذه كلها من المعاني التقليدية التي درج عليها الشعراء منذ عصر ما قبل الإسلام ، ومثلها أيضاً تلك المعاني التي مدح بها الوليد بن عبد الملك ، فهو

(١) الأرجوزة ٥٨/١٢ - ٦٧ .

كريم الفرعين إذ كان أبوه مروان بن الحكم ، وكانت أمه ولادة العبسية^(١) ،
فهو ضياء بين قمر وشمس ، وأبوه لم يُعَبِّ بنقص ، وأمّه حصان ليس بها
أثر من ريبة أو أذى ، وقومه فوق الناس في مجدهم وكرمهم ، فهم يعطون
إن كان عطاء ، ويحملون ديّات من أصاب جراحاً ، حتى أيام الجذب
والضيق^(٢) :

بين ابن مروان قرّيع الإنسِ وابنة عباس قرّيع عبسِ
ضياء بين قمرٍ وشمسِ أزهر لم يولد بنجم النّحسِ
بين نجيب لم يُعَبِّ بوّكسِ وحاصن من حاصنات ملّسِ
من الأذى ومن قرافِ الوقسِ من قنسِ مجدٍ فوق كلِّ قنسِ
في الباع إن باعوا ، ويوم الحبسِ يكفون أثقال ثأى المُستأسي

وهم إلى ذلك لاتنال الدواهي الشديدة منهم ، إذ يفصلون في أمرها ،
ويصلحون من فسادها ، ذلك لأنهم ينقرون من الفساد ، ويفارقون من يضر
الحياة ، وهم إلى هذا أسود في الحرب ، لاتدّل ولا تحقر ، وإن تعاقبت
عليهم بلايا الدهر لم يجزعوا^(٣) :

ويفصلون اللبس بعد اللبسِ من الأمور الرئس بعد الرئسِ
ويعتلون من مأي في الدّحسِ بالمأس يرقى فوق كلِّ مأسِ
ليوث هيجالم ثرم بابسِ ضراغم تنفي بأخذ همسِ
عن باحة البطحاء كلِّ جرسِ فالأسد بين مغلصم وخرسِ
وما أراهم جزعا بحسّ عطف البلايا المس بعد المسّ

وعرّكات البأس بعد البأسِ

(١) قال البكري : « كانت أم الوليد وسليمان ولادة العبسية » ، سمط
اللاي ٦٤٨ .

(٢) الأرجوزة ٤٣/٤٠ - ٤٩ .

(٣) الأرجوزة ٤٣/٥٠ - ٦٠ .

ثم يمضي العجاج بعد ذلك إلى توسيع معنى القوة والمنعة والغلبة لديهم في أبيات متعددة وهي مع ما تقدم لا تخرج عن المعاني التقليدية في المديح ، فالشعراء جميعاً قد تناولوا في مدائحهم معاني الكرم والمجد والعفة والحسن والقوة والغلبة وما أشبه ذلك ، وتفاوتوا في التعبير عنها تبعاً لاساليبهم في التعبير والتصوير وما يتصل بذلك ، وهذه المعاني التي أوردنا أمثلة لها من رجز العجاج ، يمكن أن نجد لها لدى شعراء عصره ، وكذلك لدى شعراء العصر الجاهلي ، وربما وجدنا عند النابغة صورة للنعمان وهو شمس والملوك كواكب ، أروع من صورة الوليد وهو ضياء بين قمر وشمس عند العجاج .

ولكن العجاج ربما افتنّ في بعض هذه المعاني التقليدية في المديح ، إذ يبعث فيها روحاً من الجدّة ، بما يضيفه عليها من صور متسارعة ، وأنغام متلاحقة ، وجرس إيقاعي مثير ، واختيار للألفاظ موفق ، فقد مدح الشعراء بالعفة والمنعة والقدرة على طلب الثار ، ومدحوا بالكرم والقوة والشجاعة في القتال ، وكذلك مدح العجاج بهذه المعاني في عدد من أراجيزه ، ولكنه افتنّ دون سائر الشعراء في التعبير عن هذه المعاني التقليدية حين مدح عمر بن عبيد الله بن معمر بقوله (١) :

حَوْلَ ابْنِ غَرَاءَ حَصَانٍ إِنْ وَتَرَ
فَاتَ وَإِنْ طَالَبَ بِالْوَعْمِ اقْتَدَرَ
إِذَا الْكِرَامُ ابْتَدَرُوا الْبَاعَ ابْتَدَرَ
دَانَى جَنَاحِيهِ مِنَ الطُّورِ فَمَرَّ
تَقَضَّى الْبَازِي إِذَا الْبَازِي كَسَرَ

وكان الوليد بن عبد الملك يعجب بهذه الأبيات ، ويقدمها على الأبيات التي مدحه العجاج بها ، حتى قال : « ما صنعت شيئاً أفرغت مدحك في عمر بن عبيد الله بن معمر ، إذ قلت : (حول ابن غراء ..) ، وتقول

(١) الأرجوزة ٧١/١ - ٧٥ .

في : (بين ابن مروان قريع الإنس ..) . فقال يا أمير المؤمنين ، إن لكل شاعر غرباً ، وإن غربياً ذهب في ابن معمر (١) .
 وإلى هذه المعاني التقليدية كان لابد لروح العصر أن تؤثر في مديح العجاج ، فتظهر فيه تلك المعاني التي جدت بعد ظهور الاسلام ، واتسعت وتنوعت في العصر الأموي ، بتأثير الصراع الديني والسياسي بين الأحزاب ، فقد رأيناه يمدح يزيد بن معاوية بعبان تقليدية ، إلا أنه لم يلبث أن مدحه بعبان إسلامية جديدة ، فهو يقوم الليل بالصلاة حين ينام الناس ، ويطيل من تلاوة آيات القرآن وسوره ، ويقضي بين الناس بالعدل ، ويردهم إلى الحق رداً (٢) :

اقومه عند غفول الغفل	خير الشباب وابن خير الكهل
وبالمثاني من كتاب منزل	الله بالمئين والمفضل
يلهمز أصداغ الخصوم الميل	وفي الحقوق ذوقضاء فينصل
بقول مرضي أمين المقبول	بالعدل حتى ينتحوا للأعدل

ولا يقف مدح العجاج لبني أمية عند هذه المعاني الدينية المجردة ، وإنما يمدحهم أيضاً بعبان سياسية تعتمد على أسس دينية ، كانت الأموية بمثلها تحاول أن ترد على دعوة الأحزاب المناوئة من شيعة أو خوارج ، ولهذا كان دائماً يجعل الأمويين حياة للدين والاسلام في كل ما ينهض من ثورات مناوئة لهم ، فالخليفة يزيد لم يزلزل عن الدين الحنيف ، بل قاتل عنه ، وكان سيف الله في أعناق العادين على دين الله ، أو قل على حكم بني أمية (٣) :

(١) الموشج ٢١٥ - ٢١٦ .

(٢) الأرجوزة ١٢/١٢٤ - ١٣١ .

(٣) الأرجوزة ١٢/١٣٤ - ١٤٢ .

فقد رأى الراؤون غيرَ البطلِ
 إذ زُلزلَ الأقوامُ لم تُزلزلِ
 إذ طارَ بالناسِ قلوبُ الضللِ
 و كنتَ سيفَ اللهِ لم يُفَللِ
 أنك يا يزيدُ يا بنَ الأفحلِ
 عن دينِ موسى والرَّسولِ المرسلِ
 قتلاً وإضراراً بيمينٍ لم يُقتلِ
 يفرعُ أحياناً وحيناً يختلي
 سِوَالفِ العادِينَ هَذَا العُنْصُلِ

وعبد الملك بن مروان إمام بركة ونماء ، ذلك لأنه قد استمد ملكه من الله تعالى ، فكان خليفة عدل ، لا يظلم الناس ، ولا يتكثر بأموالهم ، وما أعطاه الله ذلك إلا لأنه عماد للدين وابن عماد له (١) :

حَتَّى احْتَضَرَ نَابِعْدَ سِيرِ حَدْسِ
 مَلِكَةِ اللهِ بِغَيْرِ نَحْسِ
 خَتَاً وَلَا تَكْثُرٍ بِالْبَخْسِ
 إِمَامَ رَغْسٍ فِي نِصَابِ رَغْسِ
 خَلِيفَةً سَاسَ بِغَيْرِ فَجْسِ
 رَأْسُ قِيَامِ الدِّينِ وَابْنُ رَأْسِ

وهذا المعنى كان من أبرز ما ينادي به الحزب الأموي ، فهم يزعمون أن سلطانهم من الله تعالى ، وما على الناس إلا إطاعة أولي الأمر منهم ، ولذا ما كان لهذا المعنى أن يفارق ألسنة الشعراء من الحزب الأموي ، وقد أكثر العجاج من ترديده في مدائحه للخلفاء وللملواة والقادة معاً ، وكان يربطه شأن غيره من شعراء هذا الحزب ، بمعان أخرى كانت تنادي بها الأموية ، وتشجع عليها ، أمثال الاقرار بالقضاء والقدر ، وذلك لأن الأموية كانت ترى أنها تحكم الناس بقدر من الله تعالى ، ولا مرد لما قدره الله على الناس ، ولهذا رأى العجاج أن الله هو الذي قدر أن تكون أفضل دار هي دار الحجاج بواسطة ، والله تعالى هو الذي نصر الحجاج واختار أنصاره له (٢) :

(١) الأرجوزة ٢٥/٤٣ - ٢٩ ، ٣٢ .

(٢) الأرجوزة ٦٤/٣٤ - ٦٧ .

بَلْ قَدَرَ الْمُقَدَّرُ الْأَقْدَارَا بِوِاسِطِ أَفْضَلِ دَارٍ دَارَا
 أَصْبَحَ نُورًا لِلْهَدَى أَنْارَا - وَاللَّهُ سَمَى نَصْرَهُ الْأَنْصَارَا
 والله هو الذي يسدّد خطا الحجاج والي الأمويين على العراق ، والحجاج
 في حربه مع ابن الأشعث ، لا يقضي أمراً إلاّ بعد أن يستخير الله تعالى
 فيه ، والله هو الذي يرشده إلى الصواب (١) :

فَمَا قَضَى أَمْراً وَلَا أَحَارَا فِي الْحَرْبِ إِلَّا رَبَّهُ اسْتَخَارَا
 وتظهر فكرة القدر واضحة جلية أيضاً في مديح ابن معمر ، فأمره
 مقدر في حرب الحرورية ، وقد كتبه الله في اللوح المحفوظ ، والظفر حليف
 ابن معمر أينما جرى ، ذلك لأن الله قد قدر له ظفراً بعينه ، فإما شهادة
 يطهره الله بها من الذنوب ، وإما وقعة تجلو عن الدين ما ألحقه به الخوارج من
 قدر ، وإما شرف يثم نوراً لابن معمر تمام القمر في ليلة البدر (٢) :

فَاعْلَمْ بِأَنَّ ذَا الْجَلَالِ قَدْ قَدَرَ فِي الصُّحُفِ الْأُولَى الَّتِي كَانَ سَطَرَ
 أَمْرَكَ هَذَا فَاحْتَفِظْ فِيهِ النَّتَرَ وَفِتْرَةَ الْأَمْرِ وَمُودٍ مَن فَتَرَ
 فَأَيْنَا جَرَيْتَ أُعْطِيتَ الظَّفَرَ شَهَادَةً فِيهَا طَهُورٌ مَن طَهَّرَ
 أَوْ وَقَعَةَ تَجَلَوُ عَنِ الدِّينِ الْقَدَرَ أَوْ شَرَفًا يَثْمُ نُورًا قَدْ زَهَرَ
 كَمَا تَثْمُ لَيْلَةُ الْبَدْرِ الْقَمَرَ

وفكرة القدر هذه وردت عند العجاج في مواضع أخرى غير المديح ،
 بما يسمع بالقول : إنه كان « جبرياً » ، يرى رأي الأمويين في « القدر » ،
 ولم يكن يمدحهم بما يريدون من آراء دون أن يكون معتقاً لهذه الآراء ، فإذا
 حدثت فتنة البصرة بعد هرب واليها عبد الله بن زياد عقب وفاة يزيد بن

(١) الأرجوزة ٨٣/٣٤ - ٨٤ .

(٢) الأرجوزة ١٣٥/١ - ١٤٣ .

معاوية ، لم يجد العجاج في ذلك إلاّ قدراً قدر على الناس فألبسهم جميعاً (١) :

بل لو شهدت الناس إذ تكُمّوا بقدرٍ حمّ لهم وحمّوا
وإذا أوقع قومه بجي من بجيلة يدعى عقيدة ، لم يجد في ذلك
أيضاً إلاّ قدراً مكتوباً قدر على ذلك الحي من بجيلة (٢) :
لقد نَحَاهُمْ جَدُّنَا وَالنَّاحِي لِقَدَرٍ كَانَ وَحَاهُ الْوَاحِي
بِشَرِّ مَدَاءِ جَهْرَةَ الْفِضَاحِ

ويلاحظ في هذين الموضعين أنه جاء بفكرة القدر في أوائل الأرجوزتين ، بما يدل على اهتمامه بهذه الفكرة ، ومدى ما لنفسه من تعلق بها . ولكنها قد ترد أيضاً في أضعاف أرجوزته ، فإذا خافت عليه « سليمي » أن يلقي بنفسه إلى المهالك ، ردّ عليها بقوله : إنه يجِدّ ويمضي متغافلاً عن الأخطار ، لأنه مؤمن بقضاء الله ، ولا حارس من قضاؤه ، ومهما تشدّد الانسان حدّراً ، فالدهر غلاب لكل متشدّد أو محاذر (٣) :

والجِدُّ مَضَاءٌ عَلَى التَّعَامْسِ مَا مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ لِي مِنْ حَارِسِ
وَالدَّهْرُ غَلَابٌ يَدُ الْمِيمَاكِسِ

فالعجاج إذن قد آمن بمذهب الجبرية في نظره إلى القدر على الأقل ، ولعله لم يتعد مع القائلين به ، في الاتساع من الجدل ، والتفريع لمشكلاته ، وما اتصل بهذه المشكلات من أفكار أخرى .
والذي يهمنا ان مدحه للأموية كان لا يقتصر على المعاني التقليدية ، وإثمه

-
- (١) الأرجوزة ١/٣٥ - ٢ .
 - (٢) الأرجوزة ١/٣٧ - ٣ .
 - (٣) الأرجوزة ٧/٣٨ - ٩ .

جاء في مدحه بمعان اخرى كانت وليدة العصر الاسلامي والأموي . وبذلك كان المديح عند العجاج ذا أهداف متنوعة ، منها ما اتجه به إلى التكسب ، ومنها ما قصد به الشعر السياسي بأنواعه المختلفة ، وأغراضه المتباينة ، وكان فيها جميعاً يمثل أكثر جوانب المديح في عصره ، ولكنه أضفى على بعضها شيئاً من ذاته وأخلاقه ولا سيما في مسألة التكسب .

الفخر والهجاء

كان الفخر عند العجاج من أبرز الموضوعات الرئيسية في رجزه ، ولم يكن موضوعاً جانبياً يمكن أن يرد في أضعاف قصائد المديح أو الهجاء فحسب ، كالذي كان عليه الأمر لدى أكثر شعراء الجاهلية ، أو شعراء النقائص بوجه عام ، وإنما أصبح عند العجاج يتفرّد بأراجيز ومقطعات خاصة به ، لا ينازعه فيها موضوع سواه^(١) ، وبذلك أسهم العجاج في اتساع ظهور المقطعة لهذا العصر ، ومال بالقصيدة إلى التخصص بموضوع واحد ، فكانت الأراجيز التي اختصت بموضوع الفخر لديه ، تقابل القصائد التي اختصت بموضوع الغزل لدى شعراء الحجاز ونجد ، وهذا التخصص ضمن إطار القصيدة الواحدة ، كان من سمات التجديد لعصر العجاج ، وهذه السمات تبدت لديه في أراجيز الفخر بوجه خاص .

وثمة نوع آخر من أراجيز الفخر عند العجاج ، إذ يبدأ فيها بمقدمات تقليدية من غزل وأطلال^(٢) ، أو غزل ووعظ^(٣) ، ثم ينتهي إلى الموضوع الرئيسي من الأرجوزة ، وهو الفخر بنفسه ، ذلك لأن الغزل لا يخلو من الفخر

(١) انظر الأراجيز ١٠ ، ١٨ ، ٢٨ ، ٣٩ ، ٤١ .

(٢) انظر الأراجيز ١١ ، ١٩ ، ٣٣ .

(٣) انظر الأراجيز ١٤ ، ٢٤ .

بمغازلة الغواني ، وكذلك الحديث عن الليل والطريق والمفاوز المهولة ، فما كان له أن يتحدث عن شيء منها ، لولا أنه يفخر بقطع الليل المظلم الخالك السواد ، ويجتاز المفازة المهلكة التي لاماء فيها ولا أنيس ، ومن ثم يخرج إلى وصف مشاهد الصحراء ، بليها ونهارها ، ورملمها وسرابها ، ونباتها وحيوانها ، وفي ذلك متعة حقيقية لانقع لها على نظير إلا في أشعار ذي الرمة ، فقد تخصص هو الآخر بوصف الصحراء ، وجاء بصور رائعات لما فيها من طبيعة ومشاهد .

ومثل ذلك أيضاً حديثه عن مكارم أخلاقه ، فهذا لا يخلو من فخر ضمني بما يتصف به من ورع وتدين وحسن خلق ، وبذلك نجد هذه الأراجيز المطولة إنما تخضع لموضوع الفخر بوجه عام ، وإن خرجت في مقدماتها إلى موضوعات فرعية من وصف أو غزل أو وعظ أو مايتصل بأمثال هذه الموضوعات .

ولعل مربد البصرة كان له أثر في توجيه العجاج إلى مثل هذه الأراجيز ، ذلك لأن العجاج لم يشترك في « لعبة النقائض » ، ولذا كان لا بد له من فن يقف به في المربد ، فيجذب أنظار الجماهير ، وينال منهم كل إعجاب واستحسان ، فكان يعوض من الهجاء وتمزيق الأعراض ، بفن يتناسب مع طبعه وذوقه ، فكان يبني الأرجوزة بناء تقليدياً ، فيبدأ بالأطلال والغزل والوصف ، ثم يختم بفخر قومه من بني تميم ، وما يتصلون به من الحزب المضري أحياناً ، ومثال ذلك الأرجوزة (٣٣) ، فقد بدأت بالأطلال والغزل ، واحتل الوصف شطراً كبيراً منها ، ثم انتقل العجاج انتقالاً مقتضياً بعد البيت المائة إلى تبيح حسبه ، والفخر بقيلته ، فقال :

دَعُذَا وَبَهَّجْ حَسَبًا مُبَهَّجًا فَخَمًا وَسَنَّنْ مَنْطِقًا مُزَوَّجًا

إنّا إذا مذكّرنا الحروبِ أربّجا ... الخ

ثم مضى مبهتاً لحسبه ، مفتخراً بقبيلته في (٤٧) بيتاً ، وما ذلك إلا لأن الغاية من هذه الأرجوزة المطولة إنّما هو الفن وحده ، سواء في وصف الأطلال ، أو التغزل بليلي ، أو الفخر بناقب القبيلة ، فهذا الفن هو الذي كان ينشده غالباً في المربد ، وهو الذي كانت تطرب له قبائل تميم ، حين تجتمع إليه .

وهذا الجانب الفني جعل أرجوزة الفخر عند العجاج قصيدة ذات طابع خاص ، أضف إلى ذلك ما أفرده من الأراجيز افراداً مطلقاً لموضوع الفخر ، فكان بذلك بمن أسهم في اتساع ظهور المقطعة ، واختصاص القصيدة بموضوع واحد في عصر بني أمية .

والفخر في رجز العجاج يمتاز تارة بالطابع الفردي ، وتارة أخرى بالطابع القبلي ، إلا أن الجانب الفردي فيه من الاتساع والوضوح ما يجعل منه عنصراً من عناصر الجدة والتطوير أيضاً ، فهذا الجانب قد عرفت له بعض الآثار في أشعار الجاهليين ، إلا أنها كانت جدّ ضئيلة إذا ما قورنت بالفخر القبلي في أشعارهم ، وأكثر ما كان يتبدى ذلك الطابع الفردي في أشعار جماعة ممن كانوا يتألمون لظلم القبيلة إياهم ، أو عدم اعترافها بحريتهم أو أنسابهم وذلك أمثال طرفة بن العبد ، وعنترة بن شداد .

أما عند العجاج ومعاصريه فالأمر يختلف عما كان لدى أولئك الشعراء فالعجاج ليس بظالم ولا ناقد على قبيلته ، وإنّما أصبح يشعر بكيانه الذاتي ، إلى جانب الكيان الكلي للقبيلة ، ذلك لأن الفرد بدأ يتميز عن القبيلة بعد أن كان ذائباً فيها ، ومردّد ذلك إلى أن القبيلة نفسها لم تعد وحدة مغلقة بسلطانها وأحكامها وتماسكها كالذي كانت عليه قبل الإسلام ، وإنّما أصبحت

تخضع لأحكام الدولة ، وتشترك مع القبائل الأخرى في الواجبات ، ثم جعلت الحياة الحزبية تفرق أحياناً بين أفراد القبيلة الواحدة ، ولا سيما القبائل التي انحاز بعض أفرادها إلى الحوارج أو الشيعة ، إذ أصبح طبيعياً أن نجد أفراداً من القبيلة الواحدة يلتقون على السيف ، بعضهم في صفوف الدولة ، وبعضهم في صفوف الأحزاب المناوئة ، وخاصة في العراق وبوادي نجد حيث كانت تعصف أقوى رياح للثورة الخارجية أو الشيعة .

ومن هنا كان لابد للفردية أن تظهر بجلاء في مجتمع العجاج ، وتجد لنفسها بعض الأصداء في رجزه ، أو في أشعار معاصريه ، ولهذا كان العجاج يكثر من الفخر الذاتي بنفسه وشعره وقوافيه ، فهو يفاخر دائماً بدأبه وقطعه المفازة المهولة وخاصة في ظلام الليل (١) :

إِنْ قَالَ قَيْلٌ لَمْ أَكُنْ فِي الْقَيْلِ وَأَقْطَعُ الْأَنْجَلَ بَعْدَ الْأَنْجَلِ
مِنْ حَوْمَةِ اللَّيْلِ بِهَادِي جَمَلِي وَمَنْهَلٍ وَرَدْتُهُ عَنْ مَنْهَلِ
قَفَرَيْنِ هَذَا نَمَّ ذَا لَمْ يُؤْهَلِ

والملوك وأصحاب السلطان من الصعب أن يدخل إليهم كل من أراد ذلك ، أما العجاج فذو منزلة لديهم ، ومهما كان واحدهم من الكبراء والعظمة ، فالعجاج يدخل إليه دون حجاب أو استئذان (٢) :

فَرُبَّ ذِي سُرَادِقٍ مَحْجُورِ جَمِّ الْغَوَاشِي حَاضِرِ الْمَحْضُورِ
أَشْوَسَ عَنْ سِفَارَةِ السَّفِيرِ سُرْتُ إِلَيْهِ فِي أَعَالِي السُّورِ
دُونَ صِيَاحِ الْبَابِ وَالصَّرِيرِ بِيَجَاهِ لَاوَعْلٍ وَلَا مَغْمُورِ
وهو قوي يقهر خصمه وبذله ، ولولا أنه يخاف عذاب الله ، وفار

(١) الأرجوزة ٩٩/١٢ - ١٠٣ .

(٢) الأرجوزة ٣٣/١٩ - ٣٨ .

جهنم ، لعلم خصومه انه شدّاخ لرؤوسهم ، يرضها ويخرج منها الدماغ ، وما ذلك إلاّ لأنه أشم الأنف بدّاخ متناول متفاخر بنفسه ، قد ارتفعت أنسابه إلى أشراف من الناس يتبدّخون بهم من مجد وكبرياء (١) :

تالله لولا أن تحشّ الطبخُ بيّ الجحيم حين لامستصرخُ
في دُخْل النارِ وقد تسلّخُوا لعلم الجهالُ أي مفتحُ
لهم أرضه وأنقحُ أم الصدى عن الصدى وأصمخُ
أشم بدّاخ نمتني بدّخُ

والعجاج لا يفاخر بقوته أو قطعه للمفاوز أو دخوله على الملوك فحسب ، وإنما يفاخر دائماً بالتغلب على الشعراء ، فلو رآه الشعراء ذلوا وتصاغروا ، ولو قال لهم : تكلموا بالفارسية وغيرها ، لتكلموا وهم أذلة صاغرون ، بل إنه ليدوسهم كما تداس البقلة الحقاء (٢) :

ولو رأني الشعراء دبخوا ولو أقول برّخوا لبرّخوا
لمار سرّجيس وقد تدخدخوا ودسّتهم كما يداس الفرّفخُ
بؤكل مرّات ومرّاً يشدّخُ

ورب شاعر قد أقسم بأشد الأيمان ، ليقطن باطل العجاج وشدة غضبه فكان في ظنه وأمانه أشبه بصبي يمرث قلاوته أيام الفطام (٣) :

وشاعري آلى بجهد المقسم ليعضدن باطلي وأضيي
بالقول والظن له المرجم وبالأماني التي لم تزعم
كما تمنى مارث في مفطم

(١) الأرجوزة ١/٤١ - ٧ .

(٢) الأرجوزة ٢٤/٤١ - ٢٨ .

(٣) الأرجوزة ٢٤/١٤٣ - ١٤٧ .

وما زال الشاعر يتهم ويتوعد حتى التقى بالعجاج ، وإذا به يتحول إلى مُفحَم لا يقدر على الكلام ، فيصفر منه اللون ، ويأخذ بالهذيان كأنه مصاب بمرض البرسام ، وذلك حين رأى داهية الدواهي دون العجاج ، ولم يستطع شيطانه أن يكف شيئاً من زجر العجاج وضربه أو رده بالقوافي التي إن وصمت خصمه أوجبت عليه ذلك (١) :

فلم يزلْ بالقولِ والتَّهْكُمِ حتَّى التقينا وهو مثلُ المُفحَمِ
واصفرَ حتَّى آضَ كالمبرسَمِ وقد رأى دواني من تَجَهْمِي
أمُّ الرُبَيْقِ والورَيْقِ الأزْنَمِ فلم يُلِّكْ شيطانه تَنهْمِي
صَقَعِي وَرَدِّي بالقوافي الحُتَمِ

والقوافي لا تغلق بابها دون العجاج ، وإنما هي طوع أمره ، لا يطلبها حتى تُقبِلَ عليه ، كأنما هي سيل غزير (٢) :

إني إذا ما عَصَبَةٌ أَنْتَابُهَا ظالِمَةٌ قد سَرَّني سِبَابُهَا
أصدقُها الشَّمَّ ولا آهَابُهَا حتَّى تُرَى جاحِرَةً كِلَابُهَا
إذا القوافي حُسِرَتْ أَثْوَابُهَا وَجَدْتُهَا مُفْتَحاً أَبْوَابُهَا
مُقبِلَةٌ بِسِيلِهَا سَعَابُهَا

وفي حديث الغواني والغزل ، ربما فخر العجاج بمنطقه وحسن حديثه ، فله منطق لو ترفق به لحيات الجبال ، وجاءت إليه تسعى (٣) :

بمنطق لو أنسي أنسي حَيَاتِ هَضْبِ جِبْنِ أولَوِ آني
في خرَّعبِ أسودٍ مُسْتَحِينٍ فيه كَتَهْزِيمِ نَوَاحِي الشَّنِّ
أو تُقَبِّ الصَّنَجِ ارْتَجَسْنَ الغنَّ

(١) الأرجوزة ١٤٨/٢٤ - ١٥٤ .

(٢) الأرجوزة ١٥/٣٩ - ٢١ .

(٣) الأرجوزة ٢٨/١٦ - ٣٢ .

وهكذا فالجانب الفردي من فخر العجاج واضح في أراجيزه ، وهو يرتكز على المفاخرة بقوته ، وأدبه ، وقطعه للمفاوز ، ودخوله على الملوك ، وما إلى ذلك من المعاني الفردية التي تتصل بذاته ونفسه ، ولعل وعي العجاج لما كان يفتن به في تقصيد الرجز ، هو الذي أملى عليه ذلك الفخر برجزه ، وإفحامه لسائر الشعراء .

إلا أن الجوانب الفردية لا يمكن أن تستقل بفخر العجاج أو غيره من شعراء عصره ، ذلك لأن الفرد في هذا العصر قد تميز عن إطار القبيلة ، ولكنه لم يتحلل من الارتباط الوثيق بها ، لأنها ما تزال تنتظم شطراً كبيراً من شؤون حياته ، وإليها مردّ أجداده وأسابه ومفاخره ، ولا سيما أن التكوين الاجتماعي والسياسي كان ما يزال يقوم على أساس قبلي مطلق كما رأينا في التمهد لهذه الدراسة .

ومن هنا كان فخر العجاج يتجه إلى الجانب القبلي أيضاً ، وتارة يتفرد به في أراجيز الفخر ، وأحياناً يمزج بينه وبين الجانب الفردي ، وهذا الفخر القبلي يرتكز على المفاخرة بقوة القبيلة وأجدادها وعزتها وكثرتها ومنعتها وما أشبه ذلك من المعاني المعروفة في أشعار الجاهليين والاسلاميين في هذا الموضوع .

فقوم العجاج ينفقون على الفقراء ، ويقسمون الغنائم ، ويصلحون ذات البين ، ويعطون فيجزلون العطاء^(١) :

إنّا أناسٌ نَحْمِلُ الأَعْيَالَ ونَقْسِمُ النِّهَابَ والأَنْفَالَ
نَكْفِي النَّأْيَ ونُعْظِمُ الإِجْرَالَ ونُكْثِرُ الإِنْعَامَ والإِفْضَالَ

(١) الأرجوزة ٣٨/١٤ - ٤١ .

وهم إلى ذلك يقومون ذا العوج إذا ما مال عن الحق وميرهبون
الأبطال إذا ما أشرعت السيوف أيام الوقائع والحروب (١) :

نَلَهَزْ ذَا الدَّرءِ إِذَا مَا مَالَا فِي كُلِّ يَوْمٍ نَحْجِرُ الأَبْطَالَ
إِذَا السِّوْفُ اتَّخَذَتْ ظِلَالَا وَانْسَجَلَ المَوْتُ بِهَا انْسِحَالَا

ولهم من الجمد ما يشبه قرماً ، فإذا صال هذا القرم خافت منه سائر
الفحول ، ورأت فيه فحلاً قوياً ضخماً مستأ ، وبهذا القرم العظيم يقطعون
داير من يشتد عليهم في الحصومة ، ويدلون من يحاول الخلاء عليهم (٢) :

إِنَّ لَنَا قَرَمًا إِذَا مَا صَالَا هَدَّ الصَّوْىَ وَاذرَقَ الفِحَالَا
يَلْقَيْنَ مِنْهُ قَهِيْبًا مُجَلَالَا نَقْتَصِلُ اللُدَّ بِهِ اقْتِصَالَا
به نَدُوْكَ المَتْرَفَ المَحْتَالَا

وعزهم قد ثبت في الأرض كالطود ، وعلا كل عزٍ طويل ، وتعالى
أن يدانيه عزٌ آخر ، وهو ملازم لهم ما أقامت الجبال في الأرض (٣) :

إِنْ لَنَا عِزًّا رَسَا وَطَالَا حَالَفْنَا وَافْتَرَعَ الطَّوَالَا
مَا حَالَفَتْ أَرْضٌ بِهَا الجِبَالَا

فهو في هذه الأرجوزة لا يتحدث عن نفسه ، وإنما يتحدث عن قومه
وما لهم من صفة أيام الحرب أو أيام السلم ، وهذه الصورة الأخيرة ، ولا سيما
ذلك « القرم » الذي يخيف سائر الفحول ، قد أكثر العجاج من ذكرها في
أراجيزه المختلفة ، وإذا كان في هذه الأرجوزة يتصف بشيء من الاعتدال في
نعت قومه ، فهو في بعض الأراجيز الأخرى ، لا يعرف للاعتدال معنى ،

-
- (١) الأرجوزة ٤٢/١٤ - ٤٥ .
 - (٢) الأرجوزة ٤٩/١٤ - ٥٣ .
 - (٣) الأرجوزة ٥٤/١٤ - ٥٦ .

ولإنما يثور في حديثه عن قومه ، حتى لكانه رجل من صميم الجاهلية .
 فالحروب إذا هاجت تضرس الناس ضرساً ، وتوقد الرعب في القلوب ،
 وتزرع الهاجسات في الصدور ، وإذا تحول الأمر إلى فتنة عارمة ، الفساد
 فيها يستدعى بالفساد ، واختل أمر الناس ، فمن اختلس شيئاً مضى به دون
 عقاب ، ومن كان ذا دين أو عهد أو تعويذة ، لم ينفعه ذلك ، لأن الحرب
 تدور عليهم جميعاً .. إذا حدث بهذا كله وجدت العجاج أعزّ الناس طراً ،
 وأكثرهم عدداً ، ورأيت عزه متعالياً غليظاً شديداً ضخماً ، قد يش الحاسد
 أن يعيه ، أو ينال منه (١) :

شِبَابًا وَأَقْبَسَنَ الرُّوَاعَ الْقُبَسَا	إِنَّمَا إِذَا هَاجَ الحُرُوبُ ضُرَّسَا
وَهَاجِسَاتِ حَدَثَانٍ هُجَسَا	أَوَانِيَاءَ مَرَّآ وَمَرَّآ عُمَسَا
وَأَحْرَزَ الخَلَّاسُ مَا تَخَلَّسَا	بِالْمَآسِ نَسْتَجْرِي الأُمُورَ المُوَسَا
وَلَا أَخَا عَقْدٍ وَلَا مُنْجَسَا	وَلَمْ يَهِنَ حُمْسَةَ لِأَحْمَسَا

★ ★ ★

عِنْدَ الكِطَاطِ حَسْبًا وَمَقِيَسَا	وَجَدْتَنِي أَعَزَّ مَن تَنَفَسَا
غَضَبًا عَفَرْتَنِي جَحْدَبًا عَجَسَا	وَعَدَدًا بَخًّا وَعِزًّا أَقْعَسَا
مِن نَحْتِهِ وَذَادَ مَن تَجَسَسَا	قَدْ نَلِمَ الشَّانِيءَ حَتَّى اسْتِيَسَا

والرجل من قومه إنما هو رجل غليظ ، إن أراد خُلُقًا عَسْرًا أَقْرَهُ
 النَّاسُ عَلَيْهِ وَإِنْ تَكَبَّرَ وَتَعَطَّطَمَ ، وَإِذَا مَا أَرَادَ أُمُورًا مُعَمَّسَةً مَلُوبَةً عَنْ
 قَصْدِهَا مَظَالِمَةً ، أَتَى بِهَا غَيْرَ مُبِينٍ لَهَا ، وَهُوَ يَحِطُّ مِنْ شَأْنِ القِسَاةِ ، وَإِنْ
 رِيمَ خَسْفًا أَبِي وَقَسَا عَلَى مَنْ يَرِيدُهُ بِذَلِكَ ، وَإِذَا لَاقَى صَعَابًا أَخَذَهَا بِعُنْفٍ

(١) الأرجوزة ٥٠/١١ - ٦٥٥٧ - ٧٠ .

وشدة وجفاء (١) :

فينا وجدت الرجل الكروسا إذا أراد خُلُقًا عَفَنَقَسَا
أقره الناسُ وإن تَفَجَّسَا وإن أرادَ عُمَسَةً تَعَمَّسَا
أعداؤه ذَلُّوا وما تَأَيَّسَا يَهْتَضِمُ القَسَا وإن رِيمَ قَسَا
غَضْبًا وإن لاقَى الصِّعَابَ عَتَّرَسَا

وما زال يتحدث عن قوة هذا الرجل من قومه ، حتى جاء إلى ذكر
أجاده وكثرة قومه ، ثم مزج بين الفخر بنفسه والفخر بقومه معاً .

وقد لا يكتفي العجاج بالحديث عن عزه المنيع ، وسرعة قومه إلى
الحرب ، وبلائهم في القتال ، وإنما يذكر بعض الأيام التي كانت لبني سعد ،
أو لبني تميم عامة ، فهم قد ضربوا ملوك كندة يوم الكلاب ، وردوا من
لاقام بمنعج ، وبالنباجين ، ويوم التقوا بمذحج تلك القبيلة اليمنية (٢) :

فَحْنُ ضَرَبْنَا المَلِكَ المَتَوَجَّجَا يَوْمَ الكَلَابِ وَرَدَدْنَا مَنعِجَا
وَبالنَّبَاجِينَ وَيَوْمَ مَذْحِجَا

ثم مضى إلى تصوير هذه القبائل ، فقد جاءت إلى تميم وعليها ملك متوجج ،
وسادات خبروا القتال ، فأقبلوا يتدافعون في جيش لجب مثل الجراد ، أو
أكثر منه كثافة وعداداً ، فكان أن رأوا من قوم العجاج أشرافاً كثيراً ،
وفرساناً أشداء في القتال ، ولوعين بتحطيم الرؤوس ، فعرفوا أن ليس لهم
مخرج حتى تكون الغلبة عليهم (٣) :

إِذْ طَوَّقُوا أَمْرَهُمُ المِهْمَلِجَا نَقَابًا وَمِقْوَلًا مَتَوَجَّجَا

(١) الأرجوزة ٧١/١١ - ٧٧ .

(٢) الأرجوزة ٣٣/١٣٠ - ١٣٢ .

(٣) الأرجوزة ٣٣/١٣٣ - ١٣٨ و ١٤١ - ١٤٧ .

إِذَا أَقْبَلُوا يَزْجُونَ مِنْهُمْ مَنْ زَجِيًّا بَلَجِبِ مِثْلَ الدَّبَا أَوْ أُوثَجَا
 مَوْجًا إِذَا لَمْ يَسْتَقِمِ تَمَوَّجًا حَتَّى رَأَى رَائِيهِمْ فَحَجَّحَجَا
 مِنْ خَرَاطِيمٍ وَرَأْسًا عَلَجَا رَأْسًا بِتَهْضَاضِ الرُّؤْسِ مُلْهَجَا
 يَزْدَادُ مِنْ طُولِ النِّطَاحِ فَلُجَا فَعَرَفُوا أَلَّا يَلْقَاوَا مَخْرَجَا
 أَوْ يَبْتَغُوا إِلَى السَّمَاءِ دَرَجَا حَتَّى يَعِجَّ ثَخْنًا مَنْ عَجَّعَجَا
 فَيُودِي الْمُودِي وَيَنْجُو مَنْ نَجَا

وفي هذه الأراجيز وما إليها لانالاحظ ذكراً لبني سعد قومه الأذنين ،
 وإنما يتحدث بضمائر الجمع فقط : « إِنَّا أَنَا نَحْمَلُ الْأَجْزَالَ » ، و « نَحْنُ
 ضَرْبْنَا الْمَلِكِ الْمُتَوَجَّاءِ » ، و « إِن لَنَا قَرْمًا إِذَا مَا صَالَ » ، و « إِنَّا إِذَا
 هَاجَ الْحُرُوبُ ضَرْسًا » ، و « فِينَا وَجَدْتَ الرَّجُلَ الْكُرُوسَا » ، وهذا دأبه
 في سائر أراجيز الفخر ، إنه لا يذكر قبيلته بني سعد ، وإن كان يشير إلى
 أيام خاصة بها ، ولكننا بذكر هذه الأيام أحياناً ، وبلبجته أحياناً أخرى
 ندرك أنه يريد بني سعد بالذات ، ولكنه في الغالب كان يتعداهم إلى الفخر
 بتميم ، أو بقبائل مضر كلها ، وذلك لأنه لم يشترك في صراع مع شاعر
 تميمي آخر ، كالذي كان بين جرير والفرزدق ، مما جعل كلاً منها يلوذ
 أحياناً بأطراف من تميم لا بتميم كلها ، ولذا ما كان العجاج ليفخر بقومه حتى
 يفخر بالقبيلة الكبرى التي ينتسب إليها بنو سعد ، وهي قبيلة تميم ، ثم يوسّع
 من إطار هذا الفخر ليشمل القبائل المضرية كلها ، وذلك بدافع عصبي سياسي
 كان يوحد بين هذه القبائل .

فهو يستدعي قبائل تميم ، وخزاعة ، وقيس عيلان ، فيجمع بذلك بين
 الحزب المضريّ كلاًه إن صحَّ التعبير ، وفي الأرجوزة السنية السابقة أطال
 من الافتخار بقومه ، ثم مال إلى جمع القبائل المضرية من حوله ، وإذا به

يدعو سادات تميم ، والراس من خزيمية ، وقيس عيلان ومن ينتسب إليها ،
وبذلك يجد العزّ لديهم قد ثبت وامتنع فبخّس الناس حقهم ظملاً ، وغلب
العدوّ حتى سكت ذلاً (١) :

وإن دَعَوْنَا مِن تَمِيمٍ أَرُوْسَا والرأسِ مِن مُخَزِيمَةَ العَرْنَدَسَا
وَقَيْسَ عَيْلَانَ وَمَنْ تَقَيَسَا تَقَاعَسَ العِزُّ بِنَا فَاقْعَنَسَا
فَبَخَّسَ النَّاسَ وَأَعْيَا البُخْسَا وَدَخَدَخَ العَدُوَّ حَتَّى اخْرَمَسَا
ذُلًّا وَأَعْطَى مِن حِمَاهُ المُكْسَا

وما هذا من العجاج إلاّ تعريض بقبائل ربيعة ، التي سخر منها في
أراجيزه الأخرى ، ونال منها صراحة لا خفاء فيها ولا غموض ، ومن ذلك
قوله (٢) :

عَشِي رَبِيعٍ وَأَقْصَرِي فِيمَنْ قَصَرَ وَابْنِي عَلِيٍّ مُلْكِيكَ إِذْ أَمْسَى انْقَعَرُ
وَانْقَطَعَتْ مِنْهُ الرِّجَاةُ وَانْبَتَرَ

فالعجاج يفخر دائماً بالقبائل المضرية كلها ، ليجعل منها حلقة على أعداء
قومه ، وقد يمزج بين الفخر بقومه بني تميم ، والفخر بالحزب المضري ، ثم
يدخل فيه آثاراً أخرى من المعاني المستجدة لهذا العصر ، وهي المعاني الدينية ،
فيذكر أن إجازة الناس في الحجّ كانت لهم ، ويريد بذلك الفرع القرشي من
قبائل مضر (٣) :

حَتَّى إِذَا مَا حَانَ فِطْرُ الصُّومِ أَجَازَ مِنَّا جَائِزٌ لَمْ يَوْقَمْ
لِقِصْفَةِ النَّاسِ مِنَ المَجْرَتِجَمِ

(١) الأرجوزة ١١/٩٣ - ٩٩ .

(٢) الأرجوزة ١/١٥٩ - ١٦١ .

(٣) الأرجوزة ٢٤/٧٤ - ٧٦ .

وقريش تنتمي إلى قبائل خندف ، ولهذا قد لا يذكر قريشاً باسمها ، وإنما يطلق عليها اسم « خندف » على التعميم ، ثم يقف عندها ، إذ يجد فيها فخراً لا تبلغه غير القبائل المضرية ، إذ أن قريشاً ، منهم نبيّ الله صلى الله عليه وسلم ، وفيهم مستقرّ المصحف المرقم^(١) :

ثم رأى أهلَ الدِّيَاسِيعِ الأعْظَمِ خِنْدِفَ وَالجَدَّ الغِضَمِّ المِغْضَمِ
 وذِروَةَ النَّاسِ وَأهلَ الحُكْمِ ومُسْتَقْرَّ المُصْحَفِ المَرْقَمِ
 عندَ كَرِيمٍ مِنْهُمْ مُكْرَمِ مُعَلِّمِ آيِ الهُدَى مُعَلِّمِ
 مُبَارِكِ لِأنْبِيَاءِ خَاتَمِ فَخِنْدِفِ هَامَةِ هَذَا العَالَمِ
 قَوْمٌ لَهُمْ فَضْلُ السَّنَامِ الأَسْنَمِ

ثم يعود بعد ذلك إلى جمع القبائل المضرية على عادته ، فقد مدّم وأعانهم ذلك العدد الكثير من تميم ، والسؤدد القديم غير الأزدل ، والجماعات الكثيرة العزيزة من خزيمية ، وإذا مادعوا عمهم قيسَ عيلان لم يكن منه إبطاء عن نصرتهم والقتال إلى جانبهم^(٢) :

وَمَدَّنَا فَوْقَ اليَفَاعِ الأَجْسَمِ شَفَعُ تَمِيمٍ بِالْحَصَى المْتَمِّمِ
 والسؤددِ العاديِّ غيرِ الأَقْرَمِ والرأسِ مِنْ مُخْزِيْمَةِ العَرَمَرَمِ
 وَإِنْ دَعَوْنَا عَمَّنَا لَمْ بَسَّامِ قيسَ بنَ عَيْلَانَ وَلَمْ يُكْهَمِ
 فِي يَوْمِ هَيْجَا نَجْدَةَ أَوْ مَغْرَمِ

ومن ثم يجد الطريق واسعاً إلى الفخر العريض بعزّة الوطيد ، وإيقاع قومه ببعض قبائل وائل بنبيعة .

(١) الأرجوزة ٢٤/٨١ - ٨٩ .

(٢) الأرجوزة ٢٤/٩١ - ٩٧ .

وبذلك نجد الفخر عند العجاج قد امتاز باللون السياسي ، ودخلته بعض المعاني الدينية المستجدة ، وكان فردياً حيناً ، قَبَلِيّاً حيناً آخر ، فجمع بذلك بين الجدة والتقليد في شكله ومضمونه معاً .



وثمة ارتباط عند العجاج بين موضوع الفخر وموضوع الهجاء ، لأنه كثيراً ما يحاول الهجاء ثم ينقل الموضوع إلى الفخر ، ذلك لأنه إن فخر بنفسه أو بقبيلته أو بالعصية المضرية ، فكأنه ينتقص من منزلة خصمه فرداً كان أم قبيلة أو عصبية معادية ، إلا أن الهجاء تأثر إلى أبعد حدّ بنفسية العجاج وأخلاقه وطبعه ، وقد نقل ابن قتيبة أن سليمان بن عبد الملك قال للعجاج : « إنك لاتحسّن الهجاء ! فقال : إن لنا أحلاماً تمنعنا من أن نَظَلِمَ ، وأحساباً تمنعنا من أن نَظَلِمَ ، وهل رأيت بانياً لا يحسن أن يهدم^(١) » .

فالعجاج يرى أنه لم يضرب عن ذلك تقصيراً منه ، وإنما أنفة واقتداراً ، وقد شاع قوله بين قدامى الرواة والنقاد ، ومنهم من حاول مناقشته ، وجاء بأسباب أخرى لما رأوه من عدم وجود الهجاء في رجزه .

فابن قتيبة (٥٢٧٦ هـ) ردّ ذلك إلى اختلاف الطبع عند الشعراء فقال : « والشعراء أيضاً في الطبع مختلفون : منهم من يسهل عليه المديح ويعسر

(١) الشعر والشعراء ٥٧٣ . ونقل القيرواني هذا الخبر بعبارة مختلفة ، وجعل عبد الملك بن مروان هو الذي سأل العجاج عن ذلك ، انظر زهر الآداب للقيرواني ٥٣/٣ . وتقل كلام العجاج بنصه في عيون الأخبار لابن قتيبة ١٨٥/٢ ، واختلفت عبارته اختلافاً سيراً في تاريخ ابن عساكر ٣٩٥/٧ ، وشرح شواهد المغني ١٨ ، والتمثيل والمحاضرة للشعالبي ١٨٦ ، وسيرد أيضاً في مصادر أخرى ناقشت قول العجاج .

عليه الهجاء ، ومنهم من يتيسر له المرآئي ويتعذر عليه الغزل .
وقيل للعجاج : إنك لاتحسن الهجاء ! فقال : إن لنا أحلاماً تمنعنا من
أن ننظّم ، وأحساباً تمنعنا من أن ننظّم ، وهل رأيت بانياً لايحسن أن
يهدم ؟ ! .

وليس كما ذكر العجاج ، ولا المثل الذي ضربه للهجاء والمديح بشكل ،
لأن المديح بناء ، والهجاء بناء ، وليس كل بان بضرب بانياً بغيره ، ونحن
نجد هذا بعينه في أشعارهم كثيراً ، فهذا ذو الرمة ، أحسن الناس تشبيهاً ،
وأجودهم تشبيهاً ، وأوصفهم لرملة وهاجرة وفلاة وماء وقمرآد وحيّة ، فاذا
صار إلى المديح والهجاء خانه الطبع ، وذاك أخره عن الفحول ، فقالوا :
في شعره أبعاد غزلانٍ ونقَطُ عروس . وكان الفرزدق زير نساء وصاحب
غزل ، وكان مع ذلك لايجيد التشبيب . وكان جرير عفيفاً عزّاهة^(١) عن
النساء ، وهو مع ذلك أحسن الناس تشبيهاً . وكان الفرزدق يقول : ما
أحوجه مع عفّته إلى صلابة شعري ، وما أحوجني إلى رقة شعره لما
تروى^(٢) .

وعرض الجاحظ (٢٥٥ هـ) لقول العجاج ، ثم قال : « وهذه الحجج
التي ذكروها عن نصيب والكميت والعجاج ورؤبة ، إنما ذكروها على وجه
الاحتجاج لهم ، وهذا منهم جهل إن كانت هذه الأخبار صادقة ، وقد يكون
الرجل له طبيعة في الحساب وليس له طبيعة في الكلام ، وتكون له طبيعة
في التجارة ، وليست له طبيعة في الفلاحة ، وتكون له طبيعة في الحداة

(١) الرَّجُلُ العِزّهةُ : العازف عن اللهو والنساء .

(٢) الشَّعر والشَّعراء . ٤٠ - ٤١ .

والتغبير^(١) ، أو القراءة أو الأُلحان ، وليست له طبيعة في الغناء ..^(٢) .
 فالجاحظ يرى أيضاً أن المسألة تترد إلى طبع العجاج نفسه ، ذلك لأن
 لكل إنسان طبعاً في الأدب وفي سائر الصناعات . إلا أن ثمة رأياً ثالثاً
 يكاد يكون أكثر اعتدالاً ، هو رأي ابن رشيق القيرواني ، إذ قال :
 « ومنهم من لا يهجو كفاء ولا غيره لما في المهجو من سوء الأثر وقبح السمعة
 كالذي يحكى عن العجاج أنه قيل له : لم لاتهجو ، فقال : ولم أهجو ، إن
 لنا أحساباً تمنعنا من أن نظلم ، وأحلاماً تمنعنا من أن نظلم ، وهل رأيت
 بانياً لا يحسن أن يهدم ! ثم قال : أتعلمون أني أحسن أن أمدح ؟ فقالوا نعم .
 قال : أفلا أحسن أن أجعل مكان أصلحك الله قبحك الله ، ومكان حياك
 الله أخزأك الله^(٣) . »

ولا شك أن في كلام ابن رشيق تزيّداً على كلام العجاج أشبه ما يكون
 بالشرح أو التفسير له ، والمهم أن ابن رشيق قد أشار بعد ذلك إلى ردّ ابن
 قتيبة والجاحظ على ذلك ثم قال : « ومعنى قول الجاحظ وابن قتيبة واحد
 وإن اختلف اللفظان والصواب ما قالوا ، إلا أن يُعرّف من الشاعر أنف عن
 قدرة لاتدفع ، وبُعد تجربة لاتستواب ، فحينئذ^(٤) . »

فابن رشيق لا يكاد يقره للجاحظ وابن قتيبة بما قالوا ، حتى يعود إلى

(١) نقل ابن منظور عن الأزهري قوله : « وقد سمّوا ما يطربون فيه من
 الشعر في ذكر الله تغبيراً ، كأنهم إذا تناشدوه بالألحان طربوا فرقصوا
 وأرهجوا فسموا مغبيرة لهذا المعنى » . انظر اللسان (غير) .
 (٢) البيان والتبيين ١/٢٠٧ - ٢٠٨ . وتحدث الباقلاني عن طباع
 الشعراء أيضاً دون أن يشير إلى العجاج ، انظر اعجاز القرآن ٢٠ - ٢١ .
 (٣) العمدة ١/٧١ .
 (٤) العمدة ١/٧١ .

دقة الرأي ، فيرى أن الشاعر إن عرفت منه الأنفة والاعتدال ، فلا يبعد أن يكون قد تخلّى عن الهجاء لما فيه من فحش أو إساءة أو قبح سمعة .
 وتحديد السبب لعدم اتساع العجاج في موضوع الهجاء صعب جداً ، إذ ربما كان ذلك لطبع منه يباعده عن الهجاء ، وربما كان ذلك أنفة منه تنحاز به عما عرّف من افحاش لشعراء عصره ، وسواء كان ذلك لطبع أو لعفة ، فلا بدّ من وجود أسباب أخرى تختفي وراء « الطبع » أو « العفة » ، ذلك لأننا سوف نرى بعد قليل أن العجاج لم يضرب عن الهجاء اضراباً كاملاً ، وإنما جاء بأنواع منه لاتقل إيلاماً عن الهجاء الذي عرفناه لدى شعراء النقائض مثلاً .

والذي يجعلنا نزداد يقيناً بوجود بعض الأسباب والدوافع الخفية لذلك ، هو أن العجاج لم يكن بعيداً عن مرئيد البصرة ، وإنما كان ينشد ثمة بعض الأراجيز ، وربما تبارى مع غيره من الرّجّاز أمثال أبي النجم العجلي ، وفي الأغاني أن العجاج « وقف بالمرئيد والناس مجتمعون ، فأنشدهم قوله :

قَدْ جَبَرَ الدِّينَ الْإِلَهَ فَجَبَرَ

فَذَكَرَ فِيهَا رِيعةً وَهَجَامَ . فجاء رجل من بكر بن وائل إلى أبي النجم ، وهو في بيته ، فقال له : أنت جالس ، وهذا العجاج يهجوننا بالمرئيد قد اجتمع عليه الناس ! .. ، فانطلق حتى أتى المرئيد .. ، وأنشد :

تَذَكَرَ الْقَلْبُ وَجَهْلًا مَا ذَكَرَ

.. حتى إذا بلغ إلى قوله :

شَيْطَانُهُ أُنْتَى وَشَيْطَانِي ذَكَرَ

تعلّق الناس هذا البيت ، وهرب العجاج عنه (١) .

(١) الأغاني ١٠/١٥٢ - ١٥٣ (دار الكتب) . وانظر الشعر والشعراء ص ٥٨٤ - ٥٨٥ .

ونقل ابن قتيبة في ترجمة ابي نخيلة الراجز أنه : « كان يهاجي العجاج ، فلما تنافرا في شعرهما حضرهما الصبيان ، فذهب انسان يطردهم ، فقال العجاج : دعهم فانهم يُغلبون ويُبلَّغون (١) » .

وكان العجاج إلى ذلك يحضر المهاجاة بين الشعراء والرجاز ، اذ نقل الأصفهاني عن النابغة الجعدي أنه : « هاجى أوس بن مغراء بحضرة الأخطل ، والعجاج ، وكعب بن جعيل ، فغلبه أوس ، وكان مُغلباً (٢) » .

فالعجاج كان يحضر بعض مجالس الهجاء في المربد ، وكان يهاجي بعض الرجاز ، ولم يضرب اضراباً كاملاً - كما قلنا - عن الهجاء عامة ، ولم يكن طبعه ينأى به عن الهجاء جملة ، وإلما كانت هنالك أسباب تدفعه إلى عدم الاخذ بسبل ذلك الهجاء الذي عرف لعصره ، وفيه تُمزق الأعراس ، وتُقذف المحصنات ، ويسوده الكذب والاختلاق ، وهذه الأسباب لاتخرج عن أمرين : الأول هو أخلاق العجاج وما عُرف به من ورع وتقوى ، والثاني أن الرجز قد ينهض للتهاجي مع رجز يائله أحياناً ، ولكنه لا يقوى على مصارعة القصيد في هذا الميدان .

أما أخلاق العجاج ، فانه هو نفسه قد أشار إلى أنها تحول بينه وبين شتم الناس ، أو التعرض لانسان شتمه أو نال منه بهجاء أو تعريض ، فالأرجوزة (٢١) كان الهجاء هو الغرض الرئيسي منها ، ومع ذلك فالعجاج قد تناول هذا الغرض بأسلوب طريف جداً ، إذ جاء بمقدمة غزلية تحدث فيها عن خيال « تُكْنَى » وخيال « تُكْتَم » ، ثم لم يلبث أن تذكر

(١) الشعر والشعراء ص ٥٨٣ .

(٢) الاغاني ٨/٥ (دار الكتب) ، وانظر تفصيل ذلك في الاغاني ١٣/٥ (دار الكتب) .

« ليلي » وتحدثت عن بعض أوصافها ، ثم انتقل الى الحديث عن أخلاقه وما أتم الله عليه من النعم ، فقال (١) :

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَدْ أَنْعَمَا عَلَى أَبِي الشَّعْثَاءِ نِعْمَى ثُمَّ مَا
 بَدَّلَهَا إِلَّا بِإِحْسَانٍ كَمَا أَمَّ نِعْمَاهُ عَلَى مَنْ أَسْلَمَا
 لَا اسْتَمِ الْمَرْءُ الْكَرِيمَ الْمُسْلِمَا وَلَا أَرَى شَتْمَ الْبَرِيِّ مَغْنَمَا
 وَلَا ابْنَ عَمِّي أَنْ أَرَاهُ مُفْحَمَا

وما زال يعدد من مكارم أخلاقه ، حتى بلغ غايته من الأرجوزة ، وهي الردة على توعده أحدهم ، أو قل على هجاء بعضهم إياه (٢) :

وَقَدْ أَتَانِي أَنْ عَبْدًا أَكْشَمَا فِي عَدَدٍ بَخْسٍ وَخَطْمٍ أَكْزَمَا
 يُوْعِدُنِي وَلَوْ رَأَيْتَنِي طَرَسَمَا وَشَدَّ لِحْيَتَهُ لِحَامًا مُلْجَمَا
 تَضْرَعُ الْقَعُودِ لَأَقَى الْمُقْرَمَا تَرَى الْجِبَالَ تَحْتَهُ إِذَا سَمَا
 مُخْتَضِعَاتٍ تَحْتَ جَسْرٍ أَحْزَمَا يَخْفَنَ مِنْهُ مَهْكَةً وَأَضْمَا
 وَحَدَّ نَابٍ لَمْ يَكُنْ مُحْجَمَا إِنْ شِئْتَ أَنْ تَعْلَمَ أَوْ تَعْلَمَا
 أَيْ الْحِصَانِينَ يَكُونُ الْأَبْهَمَا فَوَاعِدِ النَّاسَ أَمَارًا مَعْلَمَا
 حَيْثُ يَبْدُ السَّابِقُ الْمُرْلَمَا وَيُنْحِ الْكَلُوبَ عَجْبًا مُسْلَمَا

وهذه الأبيات لا أثر فيها للشتم أو الهجاء المقذع ، فهو لا يعدو أن يصف خصمه بالعبد تحقيراً له ، وبالأجدع أنفه ، والعدد البخس ، ثم يتعالى عليه ، وإذا به لو رأى العجاج سكت وأطرق كأنما بليجام قد شد فمه ، فهو ضارع له ، متذل إليه ، تضرع القعود (٣) من الإبل ، لفحل

-
- (١) الأرجوزة ١٧/٢١ - ٢٣ .
 (٢) الأرجوزة ٢٩/٢١ - ٤٢ .
 (٣) وهو الذي ينمتن ويركب .

قوي تخافه سائر الإبل وتخضع له ..

فالعجاج يقف عند هذه المعاني ، ولا يتجاوزها إلى الشتم وقذف المحصنات ، ولم يقدم بالأبيات التي تحدتت عن أخلاقه وإيمانه وخوفه من الله تعالى ، إلا ليقول إنني لتلك الأسباب لأستم الناس ، ولا ارى مغنا في التعرض إليهم ، فإن كان قد توعدني ذلك العبد الأكثم ، فحسبه أنني منه بمنزلة الفحل القوي من القعود المذلل .

وبذلك نجد العجاج قد التزم الجانب الخلفي في رده وهجائه ، وكاد يخرج بالهجاء إلى موضوع الفخر بنفسه ، لما في ذلك من انتقاص للخصم ، ووضع له في مكانة دون مكانة العجاج ومنزله .

وهذا الجانب الأخلاقي نلاحظه بجلاء في هجاء العجاج ، حين يتحرج في عبارته ، ويقدم المعاذير قبل أن يشرع في إحديثه عن الإيقاع بإحدى القبائل من وائل بن ربيعة ، فهو يقول قولاً لا إثم فيه ، وقومه وعظوا وائلاً قبل الإيقاع بها ، وذلك اتقاء للآثم ، وحنذاً من الفحشاء ، ولكن وائلاً أبت إلا أن تحرق أنياب الشر ، فكان لا بد من حربها والقضاء عليها (١) :

بل قلت بعض القول غير مؤثم	لصيفذفن خابير إلى عم
يمن علمناه ومن لم نعلم	مساكن الهند وأرض الديلم
بحضر موت أو بلاد الأعجم	يوم رديننا وائلاً بالصيلم
وقد وعظناها اتقاء المأثم	وحذر الفحشاء ما لم تظلم
تقرئاً والأمر لما يفقم	فجعلوا الغاية حرق الأرم
واحتلبوا الحرب ولما تصرم	نوفي لهم كيل الإناء الأعظم

(١) الأرجوزة ١١٣/٢٤ - ١٢٤ .

فاذا كانت الواقعة بين الفريقين ، كاد العجاج يقترب مما عُرِفَ بالمنصفات في الأدب العربي اذ يجعل الحرب تدور بالموت من سيف كلا الفريقين ، ولا تولي قبيلة وائل إلا بعد أن يدرع الناس سرايل من الدماء (١) :

دارت رحاها ورحاهم تترتمي بالموت من حد الصفيح الأثمن
حتى إذا ما فر كل مملحم واذرع الناس سرايل الدم
على النحور كرساش العندم ولوا ومن يطلب بحرب يندم
كانهم من فائظ مجرجم أراح بعد الغم والتغمم
خشب نفاها دلظ بحر مفعم

وبهذه المعاني كان يتجه دائماً إلى النيل من خصومه ، فهو لا يشتمهم ، وإنما يصور ما أصابهم من بلاء الحرب ، ومذلة الهزيمة ، ولا ينسى دائماً أن يردد أنهم هم الذين أرادوا ذلك ، وهم الذين أعدوا للحرب ، فكانت عليهم خزيا وبلاء وشر هزيمة ، وكثيراً ما يؤول به هذا التعريض أو الهجاء إلى الفخر بقوة تميم وشجاعتها وجراتها وضربها من يناوئها من القبائل الأخرى . إلا أنه يحرص دائماً على الجانب الأخلاقي في تقديم المعاذير ، والادعاء أن هذه القبائل هي التي توعدت ، ولا ذنب لتميم في اعداد الحرب لأنها قد فرضت عليها فرضاً ، وما كان لها إلا أن تحارب وتنتصر .

ويبدو هذا الجانب الأخلاقي في خبر أورده الأصفهاني بسنده عن أبي عبيدة عن رؤبة قال : « لما ولي الوليد بن عبد الملك الخلافة ، بعث بي الحجاج مع أبي لنقاه .. فكان أول من أذن له من الشعراء أبي ثم أنا ، فأقبل الوليد على جرير ، فقال : ويلك ألا تكون مثل هذا ، عقده الشفاه عن

(١) الأرجوزة ٢٤/١٣٠ - ١٣٨ .

أعراض الناس ؟ ! فقال : إني أظلم ! فقال : اصبر . ثم لقينا بعد ذلك جرير ، فقال : يا بني أم العجاج ، والله لئن وضعت كل كلي عليكما ما أغنت عنكما مقطعاتكما . فقلنا : لا والله ما بلغه عنا شيء ، ولكنه حسدنا لما أذن لنا قبله واستنشدنا قبله (١) .

فالوليد بن عبد الملك يدرك أن العجاج قد كان أخلاقياً في رده على مناوئيه إذا أراد الهجاء ، حتى إنه عقد الشفاه عن أعراض الناس ، فلا شتم لديه ولا قذف ولا اتهام .

وهذا الجانب الأخلاقي هو الذي يفسر خوف العجاج على نفسه ان يهجمي بأبيات فاحشة يصبها عليه شاعر هجاء أمثال معاصره جرير ، ولذلك كان يتعد عن درب هذا الهجاء الخفيف ، فقد نقل صاحب الأغاني بسنده عن رجل يدعى روح الكلبي ، قال : « كنت عند عبد الملك بن بشر بن مروان ، فدخل جرير ، فلما رأى العجاج أقبل عليه ثم قال له : والله لئن سهرت لك الليلة لتقلن عنك مقطعاتك هذه ! قال العجاج : يا أبا حزره ، والله ما فعلت ما بلغك ، وجعل يعتذر إليه ويحلف ويخضع . فلما خرج قال رجل : لشد ما اعتذرت إلى جرير . قال : والله لو علمت أنه لا ينفعني إلا السلاح لسلحت (٢) » .

ونقل جبير خبراً فيه أن جريراً : « قال للعجاج وهو عند المهاجر باليامة ، وهو يخاصم الدهناء امرأته ، فاستنشد المهاجر العجاج قوله (٣) :

تالله لولا أن يحش الطبع

(١) الأغاني ١٢٣/١٨ ، و ٥٩/٢١ ، وتاريخ ابن عساکر ٣٩٥/٧ .

(٢) الأغاني ١٢٤/١٨ ، و ٦٠/٢١ .

(٣) الأرجوزة ١/٤٠ .

فلما بلغ إلى قوله :

ولو رأيتي الشعراءُ ذَنَعُوا

أي ذلّوا ، وثب جرير ، فقال :

يا بنَ كَسَيْبِ ماعلينا مَبْدَخُ قد غَلَبَتَكَ فَيَلِقُ تَضْمَخُ
لَمَّا أَتَتْ بابَ الأَميرِ تَصْرُخُ يَا أَسْتَ حُبَارَى طارَ عنها الأَفْرُخُ
فاستعاذ العجاج بالمهاجر فكفّه عنه (١) .

وما خوف العجاج هذا إلا لأن أخلاقه ما كانت لتأذن له بسماح الفاحش في أهل بيته ، وما كانت لتلقي على لسانه أمثال فواحش جرير ، التي كان يصبها صباً على أقرانه من المناوئين .

وما عُرفَ عن العجاج من التخلي عن الهجاء المفحش ، عُرف أيضاً عن عبدة بن الطيب ، إذ نقل صاحب الأغاني بسنده عن أبي عبيدة عن يونس قال : « قال رجل لخالد بن صفوان : كان عبدة بن الطيب لا يحسن أن يهجو . فقال : لا تقل ذلك ، فوالله ما أبى عن عي ، ولكنه كان يترفع عن الهجاج ، ويراه ضعة ، كما يرى تركه مروءة وشرفاً (٢) » .

وبذلك كان الجانب الاخلاقي من الأسباب البارزة في عزوف العجاج

(١) مشارف الأفاريز ١٨٧ ، والأبيات الثلاثة الأولى من أبيات جرير في جمهرة اللغة ٢٨٧/١ ، ونص أنها لجرير . والأول والثاني من هذه الأبيات في اللسان (كسب) وأشار إلى أنها لجرير ، ورواها « كاعب تَضْمَخُ » ، ثم علق عليها بقوله : « يعني بالكاعب ليلي الأخيلية ، لأنها هاجت العجاج فقلبتة » . وهذا غريب جداً لأننا لم نقف في أي من المصادر على ما يشير إلى مهاجاة بين العجاج ويلي الأخيلية ، وليس من الصحيح أبداً أن تكون هذه الأبيات في ليلي الأخيلية ، لأنها تذكر حادثة طلاق الدهناء بنت مسحل عند المهاجر والي اليمامة . وكسيب : جد العجاج من قبل أمه .
(٢) الأغاني ١٨/١٦٣ .

عن الهجاء الذي عُرف لأكثر شعراء عصره . وثمة سبب آخر لا يقل خطورة وأهمية ، هو أن الرجز لا يقوى على منازلة القصيد في موضوع الهجاء ، ذلك لأن الغلبة في هذا الفن لا تكون إلاّ للأبيات التي لها سيرورة على ألسنة الناس ، وبقاء في ذاكرتهم ، وهذا لا يتبها إلاّ للأبيات التي تمتاز بسهولة في مبنائها ، ولطف مأخذ في معناها ، كالأبيات التي تُروى ويقال إنها أهدى أبيات قائلها العرب ، وهذه السهولة تنافي ما أراده العجاج لمدرسة الرجز من أن تكون أعراية البنية في ألفاظها ومعانيها ، حتى تنقل نسام الصحراء إلى أجواء الحضارة الجديدة ، فكان الغريب يثقل من أبياتها على اللسان والذاكرة معاً ، ولهذا كان الإغراب في الرجز يحدّ من قدرته على الهجوم في لعبة الهجاء ، سواء في جدّها أو في هزلها .

وقد لاحظ الحصري شيئاً من هذا حين عرض لرأي العجاج في تخليه عن الهجاء ، ثم قال : « وليس كما قال العجاج ، بل لكثير من الشعراء طباع تنبو عن الهجاء كالطائي وأضرابه ، وأصحاب المطبوع أقدر عليه من أصحاب المصنوع ، إذ كان الهجاء كالنادرة ، التي إذا حدثت على سجية قائلها ، وقربت من يد متناولها ، وكان واسع العطن^(١) ، كثير الفطن ، قربت القلب من اللسان ، والتهبت بنار الاحسان^(٢) » .

فالحصري يؤكد أن الهجاء أشبه بالنادرة ، التي تأتي على سجية قائلها دون تكلف أو تعمل ، ومعنى هذا أن الهجاء الجيد لا يخلو من سهولة وطرافة ، تحمل الذاكرة على التعلق به ، وروايته بكثرة ، ومتى تم ذلك كان لا بد أن يُحقق الغلبة لصاحبه ، وهذا يمكن أن يتحقق للقصيد بوجه عام ، ولكن

(١) العطن : موطن الابل ومبركها حول الحوض .

(٢) زهر الآداب ٥٣/٣ .

من الصعب أن يتحقق للرجز في مدرسة العجاج ، ومن ثم كان القصيد أطوع للهجاء من الرجز في هذه المدرسة ، وأدعى إلى سيرورة أبياته دون الرجز ، ولا سيما ان بيت الرجز قصير لا يستوعب من المعاني ما يتسع له بيت القصيد .

وتقصير الرجز عن القصيد في الهجاء يمكن أن ندركه في خبر نقله ابن سلام بسنده عن المهاجاة بين ذي الرمة وهشام المرثي جاء فيه : « .. وكان ذو الرمة مستعلياً هشاماً ، حتى لقي جرير هشاماً ، فقال : غلبك العبد ، يعني ذا الرمة . قال : فما أصنع يا أبا حذرة ، وأنا راجز وهو يقصد ، والرجز لا يقوم للقصيد في الهجاء ؟ ! فلو رددتني ! (١) » ، ثم يعطيه جرير أبياتاً من الشعر لامن الرجز ، جعلت هشاماً يُغلب على ذي الرمة .

وفي أبيات جرير أكثر من وسيلة لجأ فيها إلى الاجهاز على ذي الرمة ، وأهم ما فيها هو ذلك العلم الواسع بأنساب القبائل ومفاخرها وأيامها ، ثم اخراج تلك المعاني بأسلوب طريف سهل يمكن أن يُضحك من جانب ، ويمكن أن يُحمل على كل لسان من جانب آخر ، إلا أن الذي يستوقفنا أيضاً هو أن ذا الرمة كان يصوغ الهجاء بأبيات من القصيد مع أن في وسعه أن يرجز لو أراد الرجز ، ثم ما رددت به هشام المرثي على جرير من أن الرجز لا يقوم للقصيد في الهجاء ، ذلك لأنه كان يدرك أن الرجز ليس في مقدوره أن يحمل المعاني على جناح من السهولة والطرافة واليسر ، على نحو ما يستطيع القصيد أن يحقق ذلك .

فهذه هي الأسباب الرئيسية لعدم اتخاذ العجاج من الهجاء موضوعاً رئيسياً في رجزه ، ومن الصواب أن يُنظر إليها بعناية قبل أن يقال إن

(١) طبقات ابن سلام ٤٧١ - ٤٧٥ .

المسألة تترد إلى اختلاف طباع الشعراء ، بل إننا لانفهم طبع العجاج مثلاً إلاّ من خلال تفاعل هذه الأسباب المختلفة في نفسه ، ثم إملائها عليه اتجاهات معينة في رجزه ، إذ ليس الطبع في نظرنا إلاّ نتيجة حتمية لتفاعل القوى النفسية والعقلية والأخلاقية لدى الشاعر مع ما يقابلها من قيم واتجاهات مختلفة في بيئته وعصره ، فهذا التفاعل هو الذي يميل عليه قصداً أو عن غير قصد مانسبه « بالطبع » ، ولا شك أننا قد رجعنا إلى أهم المؤثرات التي تفاعلت فادت إلى ماسماه النقاد القدامى باسم « الطبع » .

على أن بعض قدامى النقاد كان يرى أن الشاعر لا يُحكّم له بالتقدم إلاّ إذا تصرف في موضوعات الشعر كلها ، ومن ذلك ماقاله ابن رشيق : « يجب للشاعر أن يكون متصرفاً في أنواع الشعر ، من جدّ وهزل ، وحلو وجزل ، وأن لا يكون في النسب أروع منه في الرثاء ، ولا في المديح أنفذ منه في الهجاء ، ولا في الافتخار أبلغ منه في الاعتذار ، ولا في واحد مما ذكرت أبعد منه صوتاً في سائرهما ، فانه متى كان كذلك حكم له بالتقدم ، وحاز قصب السبق ، كما حازها بشار بن برد ، وأبو نواس بعده ^(١) » .

ومثل هذا الحكم لا ينطبق إلاّ على قلة يسيرة من شعراء الأدب العربي ، ولا سيما العصر الأموي ، إذ وجد في هذا العصر ما يشبه التخصص بين بعض الشعراء في موضوعات الشعر المختلفة ^(٢) ، ولا نراه من الأحكام النقدية التي ينبغي أن نقاضي بها كل الشعراء ، ذلك لأن الشاعر إن تصرف فيها جميعاً ، فلا شك أنه « حاز قصب السبق » ، وإن لم يتصرف فيها جميعاً ، فليس لنا أن نقول : « يجب عليه أن يكون متصرفاً في أنواع الشعر » فعبارة « يجب .. » ليس لها مكان رحب في النقد أو الأدب ، بعد ما رأيناه في

(١) العمدة ٨٣/٢ ، وانظر جمهرة أشعار العرب ٧٦ - ٧٧ .

(٢) ارجع الى الدكتور شوقي ضيف في التطور والتجديد ٥٧ وما بعدها .

التمهيد لهذا البحث من اختلاف في البيئات والظروف ، وتباين في معاش الناس وأحوالهم ، وانكاس لما يحدث من صراع سياسي أو عقلي أو نفسي أحياناً .

ومع ذلك فالعجاج قد تصرف في الهجاء على نحو يتفق مع طبعه وأخلاقه ، وإذا كان قد ابتعد بنفسه عن مهاترات عصره ، بما فيها من جد وهزل ، فقد حقق لابن رشيق ما رواه عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال : « خير الهجاء ما تنشده العذراء في خدرها فلا يقبح بثلمها ^(١) » .

ذلك لأن العجاج قد وجد سبيلاً إلى الهجاء الصريح ، في مدائحه لابن الزبير والأمويين ، إذ كان يجد في ثورة بعض الأحزاب أو القبائل ، ما يبرر هجاءها ، ولا سيما أن ثورتها في نظره ، ما كانت إلا تمزيقاً لدين الله ، وخروجاً على حماته . وهذا ما يأذن له بهجائها ، ليقم مفارقات فنية رائعة بين معاني المديح لقوم ، ومعاني الهجاء لقوم آخرين ، ولا سيما أنه يتناول في هجائه المعاني السياسية والدينية معاً .

فإذا مدح ابن معمر لتغلبه على الحرورية ، وقتله أبا فديك الخارجي ، كان لابد للعجاج أن يوجه سهام هجائه إلى الحرورية ليصورها خارجة على الدين ، مذهبة للحق ، كافرة كأنما هي تسعى في ليل مظلم أيّ ظلام ^(٢) :

فقد علا الماءُ الزُّبِّيَ فلا غَيْرُ واختار في الدينِ الحرُّوريَّ البَطْرُ
وأنزفَ الحقَّ وأودى مَنْ كَفَرَ كانوا كما أظلمَ ليلٌ فانسَفَرَ
عن مُدْلِجِ قَاسِيِ الدُّؤُوبِ والسَّهَرِ

وما زالت الحرورية تكذب وتقلب من أمور الدين ، وتسير في أمر

(١) العمدة ٢/١٣٨ .

(٢) الأرجوزة ١/٣٣ - ٣٧ .

يهوي بها نحو الهلاك ، حتى تكشف الصبح لناظرها عن جيش ابن معمر^(١) :
في بئرٍ لأحورٍ سرى وما شعرٍ بإفكهِ حتى رأى الصبحَ جسرُ
عن ذي قداميسٍ لهم لو دسرُ

وهؤلاء الخوارج قد بالغوا في أمرهم حتى مرقوا من الدين ، وخالفوا
الناس فيما ابتدعوه ، وما زال أمرهم يتسع بهم بغياً وإحاداً ، حتى انتشر
عليهم فأهلكهم^(٢) :

يا عمر بن معمر لا منتظرٌ بعد الذي عدا القروصَ فجزرُ
من أمرٍ قومٍ خالفوا هذا البشرُ واشتغروا في دينهم حتى اشتغروا
فاذا ما وفق الله ابن معمر إلى القضاء على أبي فديك وعصبته من
الخوارج ، وقف العجاج يهزأ بريعة ، ويسخر منها ، فهي ليست للحرب أهلاً ،
وإنما لها أن ثقيل على رعية الإبل ، وتبكي ملكاً قد انقطع من أصله ،
ولم تعد منه رجاة ترجى ، بعد أن غدا شقاقهم أشبه بسجابة أخذت في وجهه ،
فأمطرت قليلاً ثم ذهبت^(٣) :

عشي ربيعٍ واقصري فيمن قصرُ وأبكي على ملكك إذ أمسى انقعرُ
وانقطعت منه الرجاة وانبتت واشتق شؤبوب الشقاق واشفتت
وأزلفت له لجة الغيث سحرُ

فهو لا يهجو الخوارج إلا بالمعاني الدينية والسياسية ، فاذا وقف من
ريعة ، وبينها وبين الحزب المضري خصومة أصلاً ، لم يجد إلا تهكماً وسخرية
يصبها عليها صباً ، وكذلك الأمر في تعريضه بالغالية من أصحاب المختار بن

(١) الأرجوزة ٤٠/١ - ٤٢ .

(٢) الأرجوزة ١٣٠/١ - ١٣٣ .

(٣) الأرجوزة ١٥٩/١ - ١٦٣ .

أبي عبيد التقي ، فهو ينعتهم بالحشبية ، ولعلمهم كانوا يُعرفون بذلك ، ولا
يُبعد أن يكون لهذه التسمية وقع ساخر بين عامة الناس آنئذ ، ثم ينعت
المختار بأنه مُكذَّب فيما يدعيه ، سبئي من الغلاة ، ومذنب يقبل الرشوة .
والمختار كان والياً لابن الزبير ، ثم آمن بآراء الغالية (١) ، وخرج بهم يحاول
ملكاً عن طريقهم (٢) :

لقد وجدتمُ مُصعباً مُستصعباً حين رمى الأحزابَ والمُحزَّباً
وَخَشَبَى الأَعْجَمِ والمُخَشَّبَا والدَّرْبَ ذَا البُنْيَانِ والمُدْرَبَا
وإبنَ أَبِي عُبيدِ المُكذَّبَا والسَّبْيِيَّ والمُرَاشِي المُنذِرَبَا
بِحَاجَتِي سَبْعِينَ ألفاً مُعْرَبَا

والمختار حين جدَّ الأمر قد علم من الذي ماج كما يموج الصبيان ، ورضي
بالصغار والمذلة ، وكان قد حسب أن الله تعالى تاركه بغير عقوبة ، وأنى
له بذلك (٣) :

قد عَلِمَ المُختارُ إذْ جدَّ الجبَا وبلَغَ المَاءُ حَلَاقِمَ الزَّهْبِي
مَنِ الذي عَيَّقَ تَغْيِيقَ الصَّبَا وَرِثِمَ الخَسْفَ الذي كانَ أَبِي
إذْ لم يَزَلْ يُطَاوِعُ المُستصعبَا إذْ حَسِبَ الرحمنَ عنه مُضْرَبَا
كُهَانَةً وَقَدَّ رَأَى مُرِيَبَا

وبهذا لم يفارق المعاني الدينية والسياسية في هجاء المختار وصحبه ، إلا
إلى شيء مما أصابه من خزي الهزيمة ، ومذلة الانكسار ، ولكن العجاج
لا يعود بشيء آخر من المعاني المفحشة التي كانت سائعة لعصره .

(١) الكامل للمبرد ١٦٤/٢ - ١٦٥ .

(٢) الأرجوزة ١/٧ - ٧ .

(٣) الأرجوزة ٣٦/٧ - ٤٢ .

وإذا كان العجاج في هجائه قد عزف عن فاحش القول ، فقد استعاض عن ذلك بما هو أطرف فناً ، وأكثر إزرأ ، وأشد إيلاماً ، ذلك هو التهكم والسخرية ، ولهذا طرائق عند العجاج ، لا نظير لها إلا في أشعار الحطيئة وابن الرومي ودعبل الخزاعي ومن إليهم من هذه الطبقة التي جعلت من الهجاء فناً يعتمد على الاضحاك والتهكم والسخرية .

ففي أرجوزة ابن معمر رأينا هجوا الحورية ، وهزأ بريعة ، ثم لا يلبث أن يعود إليهم مرة أخرى بشيء من التهكم الموجه والسخرية اللاذعة ، فقد جاءوا يجاربون ، وفي ظنهم أن الحرب والغلبة هي مجرد ركض الخيل بين الخُضرماتِ وهَجَرَ ، وهي مواضع باليامة ، ثم يعطيهم صورة أخرى تبعث على الاضحاك والسخرية ، اذ جعلهم يأتون وقد علقوا طعامهم بكلايب ، لاندرى أمحملونها على أكتافهم ، أم يعلقونها بالأقتاب أو السروج ، فهم حريصون عليها ، مع أن الحرب تدعو إلى إبراز الأسنه والسيوف ، لا إلى إبراز ما أعدوه من طعام (١) :

إذ حَسِبُوا أن الجهادَ والظَّفَرَ
إيضاعُ بينِ الخِضرماتِ وهَجَرَ
مُعَلِّقِينَ فِي الكَلَالِبِ السُّفْرَ

وزاد هذا التصوير المضحك ، حين جعلهم يحاولون النجاة وراء الحصون ، ولكن وراء أيّ حصون تحصنوا ، إنها مجرد خندق ، وحائط من الطرفاء ، ودنان من الخمر ، وهي حصون تبعث على السخرية والضحك ، ولكنه زادهم سخرية حين التفت بنا إلى جيش ابن معمر ، وإذا موج من الخيل يجار النظر إليه ، فإذا ماجت كتابه كان للبصر أن يموج لما فيها من عدد وكثرة (٢) :

(١) الأرجوزة ١/١٧٢ - ١٧٤ .

(٢) الأرجوزة ١/١٧٦ - ١٨٠ .

لَا تَحْسَبَنَّ الْخُنْدَقِيَّيْنَ وَالْحَفَرِيَّ وَخَرَسَهُ الْمُحَمَّرَ فِيهِ مَا اعْتَصَرَ
 وَحَائِطَ الطَّرْفَاءِ بِكَفِيٍّ مِنْ حَظَرٍ أَدِيٍّ أَوْ رَادٍ يُغَيِّقَنَّ الذَّظَرَ
 سُهْبٌ إِذَا مَا مَجَنَّ مَوْجَنَّ الْبَصَرَ

فهو ساخر بارع إذا أراد النيل من الحرورية ، وهذه السخرية قد بلغت غايتها في هجائه لأصحاب ابن الأشعث حين أوقع الحجاج بهم . فالإبل من عاداتها إن أكلت الخلة أن تشتهي الحمض ، وهذه الصورة البدوية أمكن لحيال العجاج أن ينقلها بسخرية لاذعة إلى أصحاب ابن الأشعث ، فهم قد نقضوا العهد ، وتجمعوا للحرب ، واشتهوا القتال ، فكانوا كإبل أكلت خلة ثم اشتت أن تجد حمضاً ، فجاءوا الحجاج ، يظنون به ذلك الحمض المرجى^(١) :

وَرَهَبُوا النَّقْضَ فَلَاقُوا نَقْضًا فَجَمَعُوا مِنْهُمْ قَضِيًّا قَضًا
 جَاءُوا مُخْلِئِينَ فَلَاقُوا حَمْضًا

فإذا وجدوا لدى الحجاج ، أكان حمضاً يشفي ما بهم من خلة ، إنهم وجدوا الحجاج يأبى أن يُكسر ، وهو ثبت في الحرب ، لا تنزل له قدم إذا كان المقام زلقاً ، وكثيراً ما هزم قبلهم من جيوش ، وهو الآن يكرم وفادتهم ، ويسقيهم صبحاً لا كأي صبح عرفوه ، إنه صبح لاذع ، يشربونه بالسيوف والرماح لا بالكؤوس والقعاب^(٢) :

فوجدوا الحجاج يأبى الهضاً لا فانياً ولا حديثاً غضاً
 ومن صريح الأكرمين محضاً ثبتاً إذا كان المقام دحضاً
 وللجيوش قبلهم مهضاً غداة يسقيهم صبحاً مضاً
 بالمشرقيات وطعناً وخضاً يمضي إلى عاصي العروق النحضاً

(١) الأرجوزة ٦/٧ - ٩ .
 (٢) الأرجوزة ٦/١٨ - ٢٥ .

ثم يشتد عليهم سخرية وتهكما ، حين يجعل ماقدّموه من سوء ليس أكثر من قرض أسلفوه للحجاج ، وهو اليوم يجزيهم بدل كل قرض قدّموه له ، بقرض يمنحهم إياه ، بل ويُسلفهم فوق ذلك فيعطيهم هبات أخرى لا تُترد ، ولكنه لا يتقدم دراهم أو دنانير في قروضه وهباته ، وإنما يقدم إليهم ضرباً يقطعهم تقطيعاً ، وطعناً يبلغ أجوافهم ، وضرباً آخر إذا أصاب رؤوسهم رضاً ماعليها من أطباق الخُوذ^(١) :

يَجْزِيهِمْ بِكُلِّ قَرْضٍ قَرْضًا وَتَارَةً يُسَلِّفُونَ فَرَضًا
حَتَّى تَقْضَى الْقَدْرُ الْمُقْضَى ضَرْبًا هَذَا ذَيْكَ وَطَعْنًا وَخَضًا
صَقْعًا إِذَا صَابَ الرُّؤُوسَ رَضًا أَعْلَى الطَّرَاقِينَ وَطَعْنًا مِضًا

وهذا الأسلوب من السخرية كان شديد الإيلام في هجائه السياسي وغير السياسي ، والهجاء عنده كان يعتمد على أمرين بارزين : الأول تصوير ما يؤول إليه الخصم من مذلة وجراح على أيدي قبيلته تميم ، أو على أيدي الخليفة أو الأمير ، والثاني هو هذا اللون من السخرية اللاذعة والتهكم الموجه ، وبذلك كان العجاج يتصرف بالهجاء على نحو يرضي طباعه وأخلاقه ، ولم يكن ممن أضرَب عن الهجاء إضراباً كاملاً .

الشعر الديني والحكمة

لا شك أن الشعر الديني قد عُرِفَ له بعض الآثار في عصر ما قبل الإسلام ، وذلك على يد بعض الشعراء ممن عُرِفَ بالتحف والتأله في ذلك الحين ، من أمثال أمية بن أبي الصلت ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، وورقة

(١) الأرجوزة ٢٨/٦ - ٣٣ .

ابن نوفل ، حتى قال الأصمعي : « وكل ما قيل في الزهد فقد غلب عليه أمة ابن أبي الصلت (١) » .

إلا أن هذا الموضوع كان محدوداً في الجاهلية ، وأكثر الأشعار التي وصلتنا عن جماعة الحنفاء ، مشكوك في صحتها ، أو منحولة اطلاقاً ، ومع ذلك فمن المؤكد أن الشعر الديني قد عرفت له بعض الآثار في الشعر الجاهلي ، بتأثير بعض الاتجاهات الدينية المعروفة آنئذ ، وبدافع من التحنف وطلب الدين لدى عدد من الأفراد الذين عُرفوا بالحنفاء أو الأحناف .

فما كان العصر الأموي بدأ الشعر الديني يتخذ لنفسه طابعاً محدد المعالم ، واضح المثل ، وذلك بتأثير ما شب من صراع حزبي يعتمد على حجج يستمدّها من الدين الخفيف ، وينادي بها خطباء كل حزب وشعراؤه ، وبسبب ما ظهر في هذا العصر من تيارات فكرية وعقلية مختلفة جعلت تبحث في مسائل القدر والايان وما أشبه ذلك ، وبدافع من قيام جماعة من الصحابة والتابعين يوضحون للناس أمور دينهم ، تفسيراً لكتاب الله ، أو رواية لحديث رسوله صلوات الله عليه ، أو تبييناً لأركان الفقه الإسلامي ، وكانوا جميعاً من الزهاد أو المبالغين في الزهد ، وهذا كله قد أثر في الشعر الأموي فدخلت المعاني الدينية إلى موضوعاته كلها تقريباً ، وتفرد موضوع الزهد أو الوعظ عند عدد من الشعراء ، واتخذ لنفسه مكاناً خاصاً إلى جانب الموضوعات الأخرى ، وإن كان ما يزال قاصراً بعض الشيء ، ولا بد له أن يبلغ العصر العباسي ، ليجد ما يبتغيه من اتساع وانتشار .

وفي رجز العجاج كان طبيعياً أن نجد للوعظ مكاناً خاصاً به ، ذلك لما

(١) تاريخ ابن عساکر ١٢٢/٣ .

عرف عن العجاج من ورع وتدين وإيمان^(١) ، وقد مرّ بنا أنه اتصل بأبي هريرة ، وعرض عليه شيئاً من غزله ، يسأله هل يرى فيه حرجاً^(٢) ، ثم عرض عليه شيئاً مما قاله في موضوع الوعظ ، فقال أبو هريرة : « أشهد أنك تؤمن بيوم الحساب^(٣) » ، وما كان هذا إلاّ تعلقاً بالدين الحنيف ، وشغفاً بأدابه ، وحرصاً على معتقداته ، وبعداً عما يسيء إليه ، وتقرباً من ثواب الله تعالى إيماناً واحتساباً .

وبهذه الآداب الإسلامية كان العجاج أشبه بالواعظ في بعض أراجيزه ، بل كان الشعر الديني يتفرد في عدد من الأراجيز لا ينازعه فيها موضوع آخر ، فإذا ألمّ الداء بالعجاج في ليلة قاسية ، وكاد الموت ينشب أظفاره فيه ، ثم فرّج الله عنه ، وعافاه بما نزل به من بلاء ، كان ذلك سبباً لإبداع أرجوزة رائعة في الوعظ ، قد امتازت بكثير من التنويع والصورة^(٤) :

ياذنه السّمَاءِ واطْمَأَنَّتِ	الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي اسْتَقَلَّتْ
وَحَى لَهَا الْقَرَارَ فَاسْتَقَرَّتِ	يَاذِنِهِ الْأَرْضُ وَمَا تَعَتَّتِ
رَبُّ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ الْقُنْتُ	وَشَدَّهَا بِالرَّاسِيَاتِ الثُّبَّتِ
وَالْجَامِعِ النَّاسِ لِيَوْمِ الْمَوْقِيتِ	وَالْجَاعِلِ الْغَيْثِ غِيَاثِ الْمُسْنِيتِ
يَوْمَ تَرَى النَّفْسُ مَا أَعَدَّتِ	بَعْدَ الْمَمَاتِ وَهُوَ يُجِيبِي الْمَوْتِ
مِنْ سَعْيِ دُنْيَا طَالَ مَا قَدَّمَدَّتِ	مِنْ نَزْلِ إِذَا الْأُمُورُ غَبَّتِ
إِلَى الْإِلَهِ خَلَقَهُ إِذْ طَمَتِ	حَتَّى انْقَضَى قَضَاؤُهَا فَأَدَّتِ

- (١) ارجع الى بحثنا عن عقيدة العجاج وشخصيته .
(٢) انظر شرح الأصمعي للأرجوزة ١٦/٢١ ، وانظر العقد الفريد ٦/٦٣٩ ،
واللسان (بخند) و (درم) .
(٣) الأغاني ٥٨/٢١ ، والخزانة ٥٠٩/٣ (بولاق) .
(٤) الأرجوزة ١/٢٢ - ١٨ .

غَاشِيَةً النَّاسِ الَّتِي تَغَشَتْ - يَوْمَ يَرَى الْمُرْتَابُ أَنْ قَدْ حُقِّتْ -
 إِذَا رَأَى مَتْنِ السَّمَاءِ انْقَدَّتْ - وَحَيَّ الْإِلَهِ وَالْبِلَادَ رُجَّتْ -
 ولا شك أن هذه الآيات تستمد كثيراً من معاني القرآن وأسلوبه ،
 ومن الواضح أن العجاج قد بدأ بلفت الأنظار إلى الطبيعة من سماء وأرض
 وجبال وجدب وأمطار ، وردّ ذلك كله إلى قدرة الله تعالى ، وهذا من
 أساليب القرآن نفسه ، ثم اتجه إلى فكرة البعث والحساب ، فالناس
 يُبعثون بعد موتهم ، ويجتمعون ليوم الحساب ، وهناك يرون جزاء ما قدموه
 في الدنيا من خير أو شر ، ولا تكفي هذه الصور عند العجاج لتمثيل مشاعر
 الناس في ذلك اليوم العظيم ، وإنما يثير جانباً نفسياً وفكرياً آخر ، حين
 يرى أن الحياة الدنيا مهما طالت ، فنهايتها إلى الموت لا محالة ، ومن ثمّ إلى
 يوم الحساب ، فيرى المرتاب فيه أنه حقيقة لامراء فيها ولا شكّ ، ولا سيما
 حين يقع البصر منه على متن السماء وقد تشقق ، وعلى وجه الأرض وقد
 رُجّت رجاً . إنها صور متنوعة ، ولكنها تستمد وجودها من معاني القرآن
 وأساليبه .

وإذا بلغ العجاج ذروة التأثير في النفس والفكر معاً ، عرض ما أصابه
 من بلاء في تلك الليلة القاسية ، فالله تعالى قد أنعم على المسلمين أجمع ، ولم
 يغب سبحانه عن العجاج في ليلته وقد اشتدت عليه بذلك الداء ، ولولاه
 تعالى لضرّت به وأهلكته ، فقد بات لها يقظان وهي جاسية عليه شديدة
 صعبة ، وإذا ما ارجحت وتناقلت ظنّ أنها قد كرّرت عليه من طولها ،
 وما كرّرت ولكنه كان مريضاً (١) :

(١) الأرجوزة ٢٢/١٩ - ٣٢ .

وهو الذي أنعمَ نِعْمَى عَمَّتِ
 فلم يَغِبْ عن ليلتي وليلي
 وليلةٍ من الليالي مَرَّتِ
 كَلِكَلِهَا لولا الالهُ ضَرَّتِ
 عني ولولا الله ما تَجَلَّتِ
 إذا رَجَوْتُ أن تُضِيءَ اسودَّتِ
 منها عَجَاسَاءُ إذا ما التَجَّتِ
 على الذين أسلموا وسمتِ
 والليلة الأخرى التي اسمهرتِ
 بكابِدٍ كابدتها وجرتِ
 في مظلمٍ أزلتها فزلتِ
 بيتٌ لها يقظانَ واقسانتِ
 دون قدامي الصبحِ فآرَجَحَنْتِ
 حَسِبْتُهَا ولم تَكُرُّ كَرَّتِ

وما زال يفتنُّ بوصف تلك الليلة المتناقلة المتطاولة ، حتى عاد إلى وصف
 بلائه ، ثم نجاته بقدرة الله تعالى ، وجعل يراوح بين هذا المعنى وذاك ،
 وينوع في صوره ، ويلوّن في تناول هذه المعاني والصور ، حتى فرغ
 من أرجوزته وقد بلغت اثنين وسبعين بيتاً ، وليس فيها إلاّ الحديث الديني ،
 وما رافقه من حكم ، أو وصف لأحوال تلك الليلة .

وفي أرجوزة أخرى خص بها موضوع الشعر الديني ، نجد حديثاً صرفاً
 عن يوم الحساب وما فيه من هول وأيّ هول ، وكل ماورد فيها من معان
 كان أشبه بنقل حرفي أحياناً عن آيات الكتاب المين ، وقد تكررت فيها
 بعض المعاني والصور التي وردت في الأرجوزة السابقة ، ومنها قوله (١) :

أَلَيْسَ يَوْمٌ سُمِّيَ الْخُرُوجَا أَعْظَمَ يَوْمَ رَجَّةٍ رَجُوجَا
 يوماً ترى مُرِضَعَةً خَلُوجَا وَكُلٌّ أَشَى حَمَلَتْ حَدُوجَا
 وَكُلٌّ صَاحٍ ثَمِيلاً مَرُوجَا

وهذه الأبيات تنقل معانيها من قوله تعالى في يوم القيامة : « ذلك

(١) الأرجوزة ١/٣١ - ٥ .

يوم الخروج^(١) ، وقوله عزّ وجلّ : « إذا رُجّت الأرضُ رَجًّا^(٢) » ، وقوله جلّ وعلا : « يوم ترونها تذهل كلُّ مرضعة عما أرضعت ، وتضع كلُّ ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى ، وما هم بسكارى ، ولكنّ عذاب الله شديد^(٣) » .

وهذا يدل بوضوح على تشبّع العجاج بروح القرآن ومعانيه وأسلوبه ، ولذا كانت معاني الوعظ لديه غالباً ماتتصف بالطابع القرآني الاسلامي بوجه خاص . إلاّ أنه ربما خرج عن التقيّد بإطار الآيات القرآنية إلى الحديث العام عن المعاني الدينية ، وغالباً مايلجأ إلى أسلوب المناجاة ، فانت ياربّ ترزق الفقير ، وانت وهبت لي قطعة من الإبل عظيمة ، فيها أدمّ وييض ، وهي من خيار الإبل وغزارها ، وليس في عطائك تكدير أو نقص أو قَطْع أو تأخير ، كالذي في عطاء الناس للناس^(٤) :

ياربّ أنت تجبرُّ الكسيرا وترزقُ المُسترزقَ الفقيرا
 أنت وهبت هجمةً جرجورا أدمّاً وعيساً معصاً خبورا
 لم تعطِ في عطائك تكديرا حوايةً ولم يكنْ مهبوراً
 ولا كراءً يقطعُ الظهوراً

ثم انطلق إلى وصف هذه القطعة العظيمة من الإبل ، وما نظن هذه الأرجوزة إلاّ خاصة بالشعر الديني ، ثم غلب الوصف على العجاج لتمكّنه من نفسه في كل أرجوزة من ديوانه .

-
- (١) سورة ق ٤٢/٥٠ .
 (٢) سورة الواقعة ٤/٥٦ .
 (٣) سورة الحج ٢/٢٢ .
 (٤) الأرجوزة ١/٢٦ - ٧ .

إلا أن الشعر الديني لا يستقل دائماً بأراجيز خاصة به ، وإنما قد يرد مع موضوعات أخرى في بعض الأراجيز ، وربما اتخذ لنفسه مكاناً في المقدمات التقليدية المطوّلة إلى جانب الأطلال والغزل ، على نحو ما نراه في الأرجوزة (٢٤) ، فما كاد العجاج يدعو نفسه إلى نسيان ما فات من وصل « ليلي » وأيامها ، حتى مال إلى الشعر الديني ، لما فيه من عزاء وسلوى ، فراح يحمد الله تعالى ، ويعدد من صفاته ، وإذا بلهفة في أعماق قلبه ، وحسرة في أعماق نفسه ، تقابل إيماناً يجعله متعلقاً دائماً بالله العلي العظيم (١) :

فألحِمْهُ اللهُ الْعَلِيِّ الْأَعْظَمِ	فَأَنْسَ الَّذِي فَاتَ وَلَا تَنْدَمِ
وَعَالِمِ الْإِعْلَانِ وَالْمُكْتَمِ	ذِي الْجَبْرُوتِ وَالْجَلَالِ الْأَفْخَمِ
وَالسَّاكِنِ الْأَرْضِ بِأَمْرٍ مُحْكَمِ	وَرَبِّ كُلِّ كَافِرٍ وَمُسْلِمِ
وَرَبِّ هَذَا الْبَلَدِ الْمُحْرَمِ	بَنَى السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ سُلْمِ
أَوَالفَاءِ مَكَّةَ مِنْ وَرُقِ الْحَمِي	وَالْقَاطِنَاتِ الْبَيْتِ غَيْرِ الرِّيمِ

ثم ينتهي إلى بعض القصص الديني ، فيشير إلى ما يقال من أن امرأة اسماعيل حين غسلت رأس ابراهيم عليها السلام ، وضع رجله على المقام ، فأثرت في الحجر الصلب ، والعجاج يرمى أن هذا الأثر المحسن إن هو إلا تذكرة وتنذير لأمر محكم ، وهو الاسلام (٢) :

مِنْ عَهْدِ إِبْرَاهِيمَ لَمَّا يُطَسَّمِ	وَرَبِّ هَذَا الْأَثَرِ الْمُقَسَّمِ
وَهُوَ إِلَى عَطْفِ الْبُرَاقِ الْمُلْجَمِ	بِحَيْثُ أَلْقَى قَدَمًا لَمْ تُذَامِ
فَهَزَمَتْ مَتْنِ السَّلَامِ الْمُبْتَهَمِ	عَلَى سَرَاةِ الْحَجَرِ الْمَلْمَمِ
ذِكْرًا وَتَنْذِيرًا لِأَمْرٍ مُحْكَمِ	فَغَادَرَتْ مِنْهُ لِمَنْ لَمْ يُحْرَمِ

(١) الأرجوزة ٢٤/٣٨ - ٤٧ .

(٢) الأرجوزة ٢٤/٤٨ - ٥٥ .

وما زال هذا الحديث حتى خرج إلى موضوع الفخر والتعريض ببعض قبائل ربيعة ، ومن هنا كان الشعر الديني في هذه الأرجوزة المطولة أشبه بتحضير نفسي لموضوعات الأرجوزة الرئيسية ، ولا يخفى ما في ذلك من جدّة في منهج العجاج وأسلوبه .

وقد يرد الشعر الديني في خاتمة الأرجوزة على نحو ما نراه في الأرجوزة (١٢) ، وفيها جاء بمقدمة تقليدية ثم مدح يزيد بن معاوية بعدد من المعاني السياسية والدينية ، ثم ختم الأرجوزة بشيء من معاني الوعظ ، وكأنه يريد القول إنه صادق في مديحه ، ولا يريد أن يكون كاذباً ، لأنه ملاق يوم الحساب ماقدّم في الحياة الدنيا من أعمال ، ولأنه صائر إلى الموت في يوم من الأيام لاحالة (١) :

فقد علمت لوزننا من أملي	أني ملاق ذات يوم عملي
وأن لي يوماً إليه مجعلي	متى أصبه أزد مردي أو لي
لست بمغضوض ولا مؤجل	وراءه عمراً ولا معجل
عمراً خلا أن البلايا تبثلي	بالتأبات غفلة المغفل

وثمة أرجوزة متنازعة بين العجاج ورؤية ، وقد حلّ الموضوع الديني في المقدمة منها محلّ موضوع الأطلال والغزل في المنهج التقليدي ، فبدأت الأرجوزة بقوله (٢) :

يارب إن أخطأت أونسيت	فأنت لاتنسى ولا تموت
إن الموقسى مثل ما وقيت	أنقديني من خوف من خشيت
ربي ولولا دفعه تويت	

(١) الأرجوزة ١٢/١٥٠ - ١٥٧ .

(٢) الأرجوزة ٤٢/١ - ٥ .

ثم استقل الشعر الديني والمناجاة بأكثر أبياتها ، وغلب على مدح مسلمة ابن عبد الملك ، إذ لم يفارق أبيات المديح ، ولم يلبث أن ظهر عليها في نهاية الأرجوزة ، فاتخذ لنفسه أكثر الأبيات . وهذه الأرجوزة إن صحت للعجاج فهي تشير إلى تطوير في منهج القصيدة جعل الوعظ أو الحكمة يحتل مكان الأطلال والغزل ، وفي هذا سبق على شعراء بني العباس أمثال أبي تمام والمتنبي ومن الهم .

فالشعر الديني في رجز العجاج ربما ورد مستقلاً في بعض الأراجيز ، وربما سلك مع غيره من الموضوعات في بعض الأراجيز الأخرى ، ولم تكن معانيه ذات طابع رتيب لا تجدد فيه ، وإنما كانت تمتاز بشيء من التنويع ، إذ كان العجاج تارة يقف عند الجوانب الدينية ، وطوراً ينقل من آيات الكتاب ، وأحياناً يناجي ربه في خشوع ، فينطق بأحاديث الحياة والموت ، والبعث والحساب ، والنعيم والجحيم ..

وهذا الاتجاه الأخير أدخل ما يكون في موضوع الزهد ، إلا أن هذا الموضوع لم يجد من الاتساع والتخصص في هذا العصر ، ما وجدته في عصر بني العباس ، إذ أفردت له أبواب واسعة في دواوين بعض الشعراء كأبي نواس وأبي العتاهية وأمثالهما ، ممن جعلوا التوبة غاية ما يرجون من الحياة ، بعد أن أخذوا من كل معصية بطرف ، ثم راحوا يبنذون الدنيا رغبة في الآخرة ، ويناجون ربهم طلباً للغفران . ثم تطور هذا الفن على أيدي المتصوفة إلى أناشيد الحب الإلهي ، والزهد في الدنيا ، والرغبة في الآخرة ، على نحو ما نجده عند رابعة العدوية (١٨٥ هـ) ، والحلاج (٣١٠ هـ) .

* * *

وموضوع الشعر الديني يرتبط به موضوع آخر عند العجاج ، هو موضوع الحكمة ، وذلك لأن أكثر الحكم التي تناثرت في رجزه ، كانت تستمد معانيها من الأفكار الدينية ، والتربية الاسلامية ، التي تأصلت في نفسه ، إلا أن ذلك لم يكن بالمصدر الوحيد لحكمة العجاج وإنما كان ثمة تأثير واسع لأحداث عصره ، وادوار حياته ، وتجاربه المختلفة .

ومن هنا كانت حكم العجاج تمتاز بالعمق والتأثير والحيوية ، لأنها من نتاج ما انعكس في نفسه من أحداث سياسية واجتماعية خطيرة ، وما كان له من تجارب في أدوار حياته ، وما تأصل في نفسه من ثقافة اسلامية ، حتى كان العجاج لا يكتفي أن يجعل من الحكمة أقوالاً يطلقها بنفسه ، وإنما جعل يلقي هذه الحكمة في مخيلة الثور كلما أراد له وصفاً .

فالثور حكيم إذا ما التقى بالكلاب ، متزن إذا ما أراد النزال ، ولهذا لاتكاد الكلاب تجدد في طلبه حتى يجد بالفرار ، ولكنه لا يجهد نفسه كل الجهد ، وإنما يقتصد من ذلك إبقاء على قوته ، اما الكلاب فلا تقتصد من قوتها ، وإنما تجهد نفسها كل الجهد في وثبها دون ابطاء (١) :

وَسَمَرْتُ وَأَنْصَاعَ سَمَرِيٍّ أَلَىٰ وَمَا فِي ضَبْرِهَا أَلِيٌّ
بِالشَّدِّ إِذْ زَوَّزَتْ بِهِ الرَّبِيَّ

ثم لا يلبث الثور أن يكر عليها ، فيلقي بها أسلاء مضرجة بين قتيل وجريح ، وهذا يعني أن الثور حكيم كالعجاج الذي ينطقه ويحدد معالم شخصيته ، وما كان للعجاج أن يرسم للثور هذه الشخصية ، لولا أن الحكمة عميقة الجذور في نفسه ، ولم تكن مجرد معان عامة أو أفكار كلية يمكن أن تجمد في بعض قوالب الألفاظ ، ولهذا كانت مؤثرة ، تنبض بالحياة

(١) الارجوزة ١٥٢/٢٥ - ١٥٤ .

والحركة ، ولا سيما حين يهد لها بآيات تجعل منها جزءاً طبيعياً من الأرجوزة،
اذ ترتبط ارتباطاً وثيقاً بسائر الآيات .

ومن ذلك مثلاً حديثه عن بعض قبائل وائل بن ربيعة ، إذ بين أن
قومه قد وعظروا هذه القبائل اتقاء للإثم ، وحذراً من الفحشاء ، ولكنها
أبت إلاّ الوعيد والتهديد ، فدارت الحرب بين الفريقين ، حتى إذا ما قرء
كلُّ مُدْرَكٍ ، وتسربل الناس بالدم ، وغدا فوق رؤوسهم كرشاش العندم ،
ولت قبائل وائل وندمت ، وكذلك كلٌّ من طلب الحرب ، فهو نادم
لا محالة (١) :

حتى إذا ما قرء كلُّ مُدْرَكٍ وادّرع الناسُ سراييلَ الدّمِ
على النحورِ كرشاشِ العندمِ ولو آو من يطلبُ يحربُ يندمِ

فقد مهد لهذه الحكمة بتجربة الحرب كلها ، ثم ألقى بها تجسيداً لتلك
التجربة ، ونتيجة حتمية لها ، ثم مضى بعد ذلك ليصور ما أصابهم في تلك
الحرب ، وكأنه يفخر من جانب ، وينهى عن أمثال هذه الحروب من
جانب آخر .

ولا شك أن هذه الحكمة في البيت الأخير ، كانت وليدة مارآه
العجاج بنفسه من ويلات الحرب وتجاربها ، وبذلك فقد تعمقت في نفسه قبل
أن يطلقها حكماً عاماً في رجزه ، ولكن على الرغم مما نلاحظه من عمق الحكمة
وتنوع مصادرها لديه ، فهي لا تمثل جانباً هاماً في موضوعات رجزه ، وإنما
نجدها قليلة نسبياً ، ولا سيما إذا ما قورنت بالحكمة عند زهير ومن إليه .
وقد ترد حكمة العجاج في بداية الأرجوزة ، داخل المقدمة التقليدية ،
إذ ربما وجدناه يعاتب نفسه لبكائه على الأطلال ، وقد أصبح شيخاً طامناً

(١) الأرجوزة ١٣٢/٢٤ - ١٣٥ .

ليس له أن يطرب أو يحزن لذكر الأجابة أو الوقوف على الديار ، ثم يجد في هذا الحديث دافعاً إلى عدد من الحكم ، يستمدّها من تجاربه في الحياة . فالصبيّ هو الذي يَصْبُرُ فَيَعْتَذِرُ لأنه لايسنّ له ولا تجربة ، والدهر لايبقي الانسان على حال من الأحوال ، وإنما يتصرف به ويدور من حال إلى حال ، وقد أفنى القرون من الناس وما يزال صلباً شديداً^(١) :

بَكَيْتَ وَالْمُحْتَزِنُ الْبَكِيُّ وَإِنَّمَا يَأْتِي الصَّبَا الصَّبِيُّ
 أَطْرَبَا وَأَنْتَ قَنْسَرِيُّ وَالدَّهْرُ بِالْإِنْسَانِ دَوَّارِيُّ
 أَفْنَى الْقُرُونِ وَهَوَّ قَعَسَرِيُّ وَبِالدَّهَاءِ يُخْتَلُّ الْمَدْهِيُّ
 من أن شجاك تطلّ عاميُّ

فالحكمة قد وردت هنا في بداية الأرجوزة ، إلاّ أنها سايرت معاني المقدمة التقليدية ، ولم تحلّ مكانها كالذي تمّ على أيدي بعض شعراء بني العباس من أمثال أبي تمام والمنتبي ، ولكن وُضِعَ العجاج لها في مقدمة الأرجوزة ربما كان بداية لهذا التطور الشامل في منهج القصيدة الذي تمّ على أيدي بعض شعراء العصر العباسي ، وإذا كان العجاج لم يتخذ من الحكمة مقدمات خالصة لأراجيزه ، فقد أتى بالمطالع الدينيه واتخذ منها مقدمات لبعض الأراجيز ، وهي قريبة جداً من موضوع الحكمة الذي لجأ إليه المنتبي وأمثاله واتخذ منه بداية لأكثر قصائده ، وبذلك كان العجاج من أسهم في هذا التطوير لعصر بني أمية ، سواء في تقريب الحكمة من المقدمات ، أو الاقتصار في المقدمات على المطالع الدينيه والانتقال منها مباشرة إلى موضوع الأرجوزة كقوله مثلاً^(٢) :

(١) الأرجوزة ١/٢٥ - ٧ .
 (٢) الأرجوزة ١/٤١ - ٥ .

تالله لولا أن تحشَّ الطَّبَّحُ بي الجحيمِ حيث لا مُستصرخُ
 في دُخْلِ النارِ وقد تسلَّخُوا لَعَلِمَ الجُهالُ أني مِفْنَحُ
 لها ميمُ أرضه وأنقَحُ

وقد لآترد الحكمة في بداية الأرجوزة ، وإنما ترد في أضعافها على سنّة
 غيره من الشعراء ، وذلك لما يدعو الموقف أحياناً من اطلاق بعض الأحكام
 العامة ، التي تشبه أن تكون نتيجة لذلك الموقف أو تفسيراً أو توضيحاً ،
 فإذا وقف على منازل ليلي ، وقد عفت وتغيّرت ، بعد أن بعدت وطال
 العهد بها ، وتقطّعت أسباب الوصل دونها ، راح يطلق بعض المعاني
 الكليّة التي تتصل بهذه التجربة النفسية ، فالإنسان إذا بعد اتقع رجاءه في
 لقاء من يريد ، إلا أن يحضر حاجته بنفسه فلا ينقطع منه الرجاء ، وإذا
 عمل في أمر بغير إحكام ، أضواه ذلك وأنقصه ، مادام ملهوجاً بين يديه
 غير نَضِيج (١) :

مَنازِلًا هيجنَ من تهيّجًا من آلِ ليلتي قد عَفَوْنَ حَجَبًا
 والشحطُ قَطَاعُ رَجَاءٍ من رَجَا إلا احتِضَارَ الحَاجِ من تَحَوُّجًا
 والأمرُ مارا مَقْتَهُ مُلَهَّوَجًا - يُضْوِيكَ مالم تُحْيِي منه مُنْضَجًا

وقد تراقق الحكمة أحاديث العجاج عما بلغه من الهرم والضعف والكبر ،
 فإذا تحدث عما صار إليه من الضعف والهرم ، بعد أن كان قوياً صلب القناة ،
 نظر إلى تقلب الدهر بالإنسان ، وألقى رأي الشيخ المجرّب ، فالدهر
 لا يستقيم على حال ، وبيننا الفتي يسعى إلى أمنية من أمانيه ، وهو يظن أن
 الدهر يسير على طريقة واحدة لا تتغير فيها ، إذا بداهية تعرض له ، فتعقله

(١) الأرجوزة ٣٣/٢١ - ٢٦ .

وتردّه عن هواه وأمانيه (١) :

بَيْنَنَا الْفَتَى يَسْعَى إِلَى أُمْنِيَّةٍ يَحْسِبُ أَنَّ الدَّهْرَ مُرْجُوجِيَّةٌ
مَرَّتْ لَهُ دَاهِيَةٌ دُهُورِيَّةٌ فَاعْتَقَلَتْهُ عَقْلَةٌ شَزْرِيَّةٌ
لَفْتَاءً عَنِ هَوَاهُ شَغْزَبِيَّةٌ

وبما تقدم ندرك أن الحكمة عند العجاج ربما وردت في بداية الأرجوزة، وربما وردت في أثناء أبياتها ، ولا سيما إذا ما تحدث عن الهرم وقارونه بما كان عليه أيام الشباب . وهي تعتمد اعتماداً كلياً على ثقافته الإسلامية ، وتجاربه في أدوار حياته ، وما أثر في نفسه من أحداث عصره ، ولكنها مع ذلك قليلة نسبياً ، لا تمثل موضوعاً رئيسياً في رجزه .

الوصف

إن الموضوعات السابقة مها يكن واحدا من الاتساع في رجز العجاج، فهو محدود إذا ما قيس بموضوع الوصف ، فهذا الموضوع كان العجاج يسعى إليه سعياً في أكثر الأراجيز ، حتى إننا قد لانجد في الأرجوزة على طولها أيّ هدف غير وصف مشاهد الصحراء ، وما فيها من نبات وحيوان ، وما يتم على رمالها من طراد لمار أو ثور وحشي ، وليس من دافع إلى هذا الوصف الرائع المطول ، إلا حب العجاج للصحراء ، وتآلفه معها ، وحرصه على نقل مشاهدتها (٢) ، وربما كان للأرجوزة هدف معين كالمديح أو الفخر ، إلا أن موضوع الوصف كثيراً ما يغلب على أبياتها (٣) ، فلا يترك لمذح العجاج مثلاً

-
- (١) الأرجوزة ١٢/٤٠ - ١٦ .
(٢) انظر الأراجيز ١٥ ، ٢٠ ، ٢٥ .
(٣) انظر الأراجيز ٣٦ ، ٤٤ .

إلاّ أقلّ الأبيات (١) ، وأما في سائر رجزه فالوصف يتغلغل في ثنايا كلّ موضوع مدججاً كان أم تعريضاً أو نسيباً أو فخرأ ، فهو لا يكاد يجد مناسبة للوصف حتى يتقلّبت من موضوعه ليخرج إلى أوصاف جانبية ، ثم يعود إلى موضوعه من جديد ، ولا يزال هذا دأبه حتى يستقل الوصف بأكثر أبيات الأرجوزة .

وأكثر ما نلاحظه في وصف العجاج ، ليس خاصاً به ، أو مقتصرأ عليه ، وإنما هو شائع لدى أكثر شعراء عصره ، ومن تقدّم عليهم من شعراء الجاهلية و صدر الاسلام ، ولهذا قال ابن رشيق : « الشعر إلاّ أقله راجع إلى باب الوصف ، ولا سبيل إلى حصره واستقصائه (٢) » .

إلاّ أن ما يتفرد به العجاج هو ذلك التخصص لأوصاف الصحراء ، وجعلها هدفاً وغاية لأكثر أراجيزه المطولة ، ولا يكاد يدانيه في ذلك إلاّ بعض شعراء هذيل لشغفهم بوصف مشاهد الصحراء ، وذو الرمة لأنه هو الآخر قد عاش حياة العجاج في الصحراء ، وكان راعياً للإبل ، ولذا أتقن أوصافها ، وجاء بصور رائعة لمشاهد الصحراء أيضاً (٣) .

ولهذا تُعرف عن العجاج وابنه رؤبة ، أنها أصحاب إبل في الوصف لأصحاب خيل ، ومن ذلك ما قاله ابن سلام : « وقال يونس : كان الجعدي أوصف الناس لفرس ، أنشدت قوله رؤبة :

فَإِنْ صَدَقُوا قَالُوا : جَوَادٌ مُجَرَّبٌ ضَلِيعٌ ، وَمِنْ خَيْرِ الْجِيَادِ ضَلِيعُهَا
قال رؤبة : ما كنت أرى المرهف إلاّ أسرع منها . ولم يكن

(١) في الأرجوزة ٣٤ .

(٢) العمدة ٢٢٦/٢ .

(٣) ارجع الى التطور والتجديد في الشعر الأموي ٢٠٩ - ٢٣١ .

رؤبة والعجاج صاحبي خيل ولكن كانا صاحبي إبل ونعتها^(١) .
ومن المشهور أن رؤبة قد أخطأ مرة في وصف الخيل ، فقد نقل
المرزباني بسنده عن الأصمعي أن سلم بن قتيبة قال لرؤبة : « أخطأت في
قولك :

يهوين ستي ويقعن وفقاً

قال الأصمعي : لأن الجياد لا تقع حوافرها معاً ، وإذا وقعن وفقاً ،
فكانه يضبرُ ليس يسبح^(٢) .

ونقل ابن قتيبة هذا الخبر فقال : « فقال له سلم : أخطأت في هذا
يا أبا الجحاف ، جعلته مقيداً . فقال رؤبة : أدني من ذنب بعير^(٣) .
يريد أنه وَّصاف للابل لا للخيل . وقيل شيء من هذا حول غلط أبي النجم
في بيت وصف فيه الخيل أيضاً^(٤) ، وهذا قد يشير إلى ولوع الرجاز
بوصف الصحراء والإبل بوجه خاص ، إلا أن ذلك لم يكن حائلاً دون وصفهم
للخيل ، فقد ورد في رجز العجاج أوصاف رائعة للخيل ، وليست بالقليلة
في ديوانه^(٥) ، وكذلك كانت أوصاف الخيل كثيرة في رجز رؤبة ، وقد
أورد ابن قتيبة في باب أوصاف الخيل أمثلة من رجز العجاج^(٦) ، وأمثلة

-
- (١) طبقات ابن سلام ١٠٧ ، ونقله الجاحظ في كتابه القول في البغال ٢٠ .
(٢) الموشح ٢١٩ .
(٣) الشعر والشعراء ٥٧٧ ، ومثله في العقد ١/٣١١ ، والأغاني
١٢٥/١٨ و ٦١/٢١ .
(٤) الشعر والشعراء ٥٨٦ ، والأغاني ١٦١/١٠ (دار الكتب) ،
والموازنة ٣٨ - ٣٩ ، والوساطة ١٧ ، والمعاني الكبير ١/٣٠ - ٣١ ، والعقد
الفريد ١/١٣١ و ٢٠٦/٦ .
(٥) انظر مثلاً الأراجيز ١/٥٦ - ٦٢ ، ١٣/١٤ - ٢٦ ، ٣٣/١١٧ - ١٢٥ ،
١٧/٣٦ - ٢٢ ، ٣٧/١٣ - ٢٠ ، ٣٩/٨ - ١٤ .
(٦) المعاني الكبير ١/٢٢ - ٢٣ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٧٥ ، ١٣٤ ، ١٥٦ .

أخرى من رجز رؤبة (١) ، وثلاثة من رجز أبي النجم (٢) ، وثمة أراجيز رائعة لأبي النجم في وصف الخيل ولا سيما داخل الحلبة (٣) .

فالعجاج قد وصف الخيل وأجاد ، وإن كانوا قد أخذوا على ولده رؤبة بعض الخطأ في بيت وصف فيه الخيل ، فهذا لا يعني أن العجاج أو رؤبة كانا يجهلان أوصاف الخيل ، لأن مجرد الخطأ في صورة أو معنى لا يعني الحكم المطلق في ذلك ، فأبو النجم مثلاً وهو أعرابي راجز من وصافي الإبل ، قد أخذوا عليه أنه أخطأ في بيت وصف فيه الإبل (٤) ، ولا شك أن هذا المأخذ لا يحيط من شأن أبي النجم ، ولا يخرج من وصافي الإبل المجدين .

ومن هنا يمكن أن نعود إلى قول ابن سلام : « ولم يكن رؤبة والعجاج صاحبي خيل ، ولكن صاحبي إبل ونعتها » ، ونفهم من هذا القول أن العجاج ورؤبة كانا إلى وصف الإبل أكثر اتجاهاً منها إلى وصف الخيل . فالإبل أوثق صلة بالأعرابي ، وأكثر ألفة فوق رمال الصحراء .

إلا أن أوصاف العجاج لم تقف عند وصف الإبل ، وإنما اتجهت إلى كل ما كانت تقع عليه عينه في بيدائه ، فقد وصف حيوان الصحراء ، فبجاء بلوحات حية للأسد ، والآرام ، والوعول ، والظلم ، والجراد ، والنسر ، والبازي ، والبوم ، وبقر الوحش ، والحمار والأتن ، وما يجري من طراد بينها وبين الصياد والكلاب . ثم أتى بلوحات مشرقة أيضاً لمشاهد الصحراء نفسها في ليلا ونهارها ، وبردها وقبظها ، وصجورها وغيثها ، فتحدث عن

(١) المعاني الكبير ٣١/١ - ٣٣ ، ٥٣ ، ٨٠ .

(٢) المعاني الكبير ٦/١ ، ١٠ ، ١٣ ، ١٤ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٤٨ ، ٦٣ ،

٧٥ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٩١ .

(٣) انظر الشعر والشعراء ٥٨٧ - ٥٨٨ ، والعقد الفريد ١٢٥/١

و ١٣٠ - ١٣١ ، وديوان المعاني ١٠٩/٢ - ١١٠ .

(٤) الشعر والشعراء ٥٩٠ .

الأجمة ، والكناس ، والسراب ، والمطر ، والبرق ، والرعد ، والسيل ،
والمسيل ، والمنهل ، ثم وصف الليل والنجوم ، وأكثر من وصف المفاوز
الرائحة المَهْؤلة ، ولم ينس أن يتحدث عن رحلته وما يصادفه فيها من عنت
ومشقة ، وما يستوقفه من أطلال درست ، فلم يبق فيها إلاّ مسارح
للمذكرات .

ولم تكن عين العجاج لتتنقل فقط ماتراه في صحراء نجد ، وإنما كانت
تنقل أيضاً ماتراه في بيئة اليمامة ، وهي تلتقي بأموج الخليج العربي ، فهذه
الأمواج تركت في رجزه بعض الصور للبحر والسفينة وما يتناقله الصيادون
من أعاجيب البحر ، وكذلك كان لرحلة العجاج إلى العراق ، وإقامته
بالبصرة ، أن زينت بعض أوصافه بصور النهر والسفينة أيضاً ، وثمة صور أخرى
كانت وليدة الغزل أو الأحداث السياسية ، ومنها أوصافه للمرأة والدموع ،
أو للحرب وأدوات القتال .

وبذلك كانت موضوعات الوصف عند العجاج لاتقف عند جانب من
الطبيعة دون آخر ، فقد صورّ الطبيعة بعناصرها المتحركة ، وعناصرها
الصامتة ، ولكن مشاهدته على اختلافها كانت لاتخلو من الروح والحركة ،
حتى ولو كانت تصور الجماد الذي لايتحرك . وهذه الصور على تنوعها صور
موضوعية تراها عين العجاج ، أو تحس بها أذنه ، إلاّ أن عنده صوراً أخرى
لاتقل عنها فنّاً ، وهي الصور الذاتية ، التي مثل فيها مشاعر النفس
الانسانية ، أو مال من خلالها إلى تجسيم هذه المشاعر في تصوير الحيوان
أو الطبيعة .

فالعجاج قد وصف المرأة أوصافاً موضوعية كثيرة ، وأتى بصور لشعرها
وبياضها وقوامها وجيدها وما أشبه ذلك ، إلاّ أنه لم يغفل الجانب الذاتي

والنفسى فى أوصافه لها ، وإئما صور ماىختلج فى أنفسمن من هواجس أو أفكار ، فالىوم قد تعهدّه الشىب ، ومالت به الأيام إلى مايشبه الهرم ، فمذا يمكن للنساء أن ينظرن به إليه ، إنهن معروضات عنه ، بعد أن كنّ مائلات إليه (١) :

مائلُ الغواني معروضاتٍ مُصدّداً وقد أراهنّ إلينا عنّدا
بالطرفِ واللّباتِ مُخزراً قوّداً لمّا رأينَ الشىبَ قد تعهدّا

فهو بهذه المفارقات بين حاضر الغواني وقد تعهدّه الشىب ، وحالهن وقد كان فى برد الشباب ، لا يقف عند صور موضوعية لهذه المرأة أو تلك ، وإئما يدخل إلى ماىختلج فى نفوسهن من عواطف متناقضة بين اليوم والأمس ، ولا يكتفى بهذه المقابلة المؤثرة ، وإئما يعمد أيضاً إلى وسيلة فنية أخرى ، تكشف عن هذا الجانب النفسى ، فيلجأ إلى مايشبه الحوار أو المناجاة ، وإذا بلسانهن ينطق بما فى النفس من تساؤل بعد أن كفّ العجاج عن اللهو ، فهن فى حيرة من أمره ، أتراه أقصر عنهن وغدا مسناً كالعوّد من الإبل ، أم أنه تجلّد وتصبّر بعد أن تعهدّه الشىب والكبر (٢) :

فقلنّ قد أقصرَ أو قد عوّدّا عن واصلنا العجاج أو تجلّدّا

وفى هذا تصوير للواقع النفسى الذى حرص العجاج على تصويره ، ليعث الحياة فى الجوانب الموضوعية من صورهِ ، ولهذا ربمابداً به فى أوصافه للمرأة ، إذ كان يحاول دائماً إبراز ما فى نفسها من أفكار ، وما يدور فى خلدّها من هاجسات ، فهى تحرص على العجاج ، وتخشى أن يقطع من دونها الأسباب ، فتميل إلى مايشبه الاغراء أو الاغواء ، والعجاج طبّ بهذا كله ، ولذا ينقله

(١) الأرجوزة ١/٢٧ - ٤ .

(٢) الأرجوزة ١١/٢٧ - ١٢ .

في أوصافه لها ، قبل أن يعرض لأوصافها الموضوعية (١) :

واستبدلت ليلتي حماةً وحمًا قامت تُرريك رهبةً أن تُضرمًا
ساقاً بَخْنَداءَ وكعباً أدرمًا وكفلاً وعتاً وكشعاً أهضمًا

والغريب أن العجاج في صورة الذاتية ، لم يتحدث عن النساء أو الإنسان فحسب ، وإنما برع في تجسيم هواجس الحيوان ، وغالباً ما يتخذ منه وسيلة لتصوير ما في نفسه هو من أحزان أو أسواق أو احساسات ومشاعر خاصة ، فالقطا قد تَعَوَّدنا أن نجده في أوصاف الصحراء عند الشعراء ، وكذلك أوردته العجاج في رجزه ، ولكنه لا يصف القطا بالعطش والبعد عن الماء على عادتهم ، ولا يصفه بمجرد السواد ، فيقول إنه « جُويني » ويقف ، وإنما يحرك في أبياته بعض المشاعر الذاتية ، فيأتي بصور نفسية لهذا القطا ، وإذا بها وحيدة في ذلك الليل الموحش الذي يلفّ رمال الصحراء ، والوحشة قد أثارت في قلبها الهمّ والكآبة ، فإن مرّ العجاج بها وجدت فيه أنيساً يفرّج عنها ذلك الهمّ ، ويباعد عنها تلك الكآبة (٢) :

سوابقي الجويني بالإنلافِ فرجتُ همّ ليلها الغدافِ

وقد أكثر العجاج من تصوير الثور ومعاركه مع الكلاب ، ونقل من ذلك لوحات حيّة تجعل تلك المشاهد ماثلة للعين ، شاخصة أمام الخيال ، إلا أنه لا يصف الثور أو الكلاب وصفاً خارجياً فقط ، ولا ينتقل مع الثور في رحلته بين الليل والنهار فحسب ، وإنما يصر دائماً على الدخول إلى نفس هذا الثور ليصف هواجسه وخواطره وما يناجي به نفسه ، حتى لكأن الثور إنسان كالعجاج ، ولهذا يتعاطف معه ويصور خلجات نفسه ، فإذا لجأ الثور

(١) الأرجوزة ١١/٢١ - ١٤ .

(٢) الأرجوزة ١٧/٨ - ١٨ .

في ليلة مطيرة باردة إلى رَبْضِهِ ، بات وهو خائف قد جَمَعَ بعضه إلى بعض ،
وذلك حذراً أن يفجأه ما يودي به إلى الموت والهلاك ، ولا يكاد يطلب
النوم حتى تروعه هاجسات يفكر فيها ، فتسده وتنع النوم عن أجفانه (١) :

فباتَ حيثُ يَدْخُلُ الشَّوِيءُ مُجْرَمٌ زَاً وَلَيْلُهُ قَسِيءُ
خوفَ التَّرْدِيِّ والرَّدَى مَخْشِيءُ إِذَا اسْتَنَامَ رَاعَهُ النَّجِيءُ
مِنْ عازِفَاتِ هَوْلِهَا هَوِيءُ وَمُسْهِدَاتِ رَوْعِهَا تَنْزِيءُ
خَوْفًا كَمَا يُسْهِدُ الرَّقِيءُ

فالعجاج قد دخل إلى نفس الثور وراح يحلل ما فيها من خلجات وأحاسيس ،
ليجعل من هذه المشاهد الذاتية تمهيداً نفسياً لما سيورده بعد قليل من صراع
بين الثور وكلاب الصياد ، بل إنه ينظر إلى الثور على أنه واحد من أعراب
البادية ، أو فارس من فرسان بني تميم ، فهو متكبر لا يؤخذ قسراً ، وذو
نخوة شديد الجلد في حربه ، بل يجود بنفسه دفاعاً عن حومته ، وحفاظاً
على نخوته الأعرابية (٢) :

لِلْقَسْرِ ذُو أَبْهَةِ عَصِيءُ ذُو نَخْوَةٍ مَحَارِسُ مُعْرِضِيءُ
أَلَيْسُ عَنْ حَوْثَائِهِ سَخِيءُ

ومن الطريف أن يجعل الثور يفكر بطرائق القتال فيراوغ عدوه
ويخدعه ، ثم يترى رأي العجاج في عقيدة القضاء والقدر ، وهذه الصور الذاتية
كلها قد أمكن للعجاج أن يصل إليها عن طريق المناجاة ، فالثور يناجي
نفسه ويحدثها بأوجه مختلفة من أمور قتاله مع الكلاب ، إذ أن الكلاب
قد أفرغت الثور ، فانصاع أمامها يجري ، يريها أنه لا يريد قتالاً ، وقد أضر

(١) الأرجوزة ١١١/٢٥ - ١١٧ .

(٢) الأرجوزة ١٧٣/٢٥ - ١٧٥ .

لها الشر والقتال ، فتارة يمضي كأنما رجله قد شُدَّت بِسِهْجَار ، وطوراً يمور في جريه مُعذِراً لا يجتهد ولا يبألغ ولا يجدد ، وهو ينظر من طرف ليعطف على الكلاب وينقض ، وما كاد يجري ميلين حتى بدأ يحزم أمره على القتال، ويحدث نفسه : إني إن كررت اليوم فهو أدنى إلى الحياة ، وإلا فإني أقتل دون أن ألقى بيدي ، ولعلي أقتل من يريد هلاكي ، ثم كَرَّ على الكلاب، صابراً على القتال ، راضياً بما يريده القدر ، حاذقاً في الطعان غير ضجور (١) :

فَانْصَاعَ وَهُوَ ذَاخِرُ التَّنْكِيرِ	فَرَعْنَهُ وَالرَّوْعُ لِلْمَذْعُورِ
وَتَارَةً يَمُورُ كَالْتَعْذِيرِ	مِنْ بَغْيِهِ مُقَارِبُ التَّهْجِيرِ
وَفِيهِ كَالْإِعْرَاضِ لِلْعُكُورِ	نَسْجَ الشَّمَالِ حَدَبَ الْغَدِيرِ
إِنَّ الْحَيَاةَ الْيَوْمَ فِي الْكُرُورِ	مِيلَيْنِ ثُمَّ قَالَ فِي التَّفْكِيرِ
فَكَرَّ وَالنَّصْرُ مَعَ الصَّبُورِ	أَوْ أترَدَى وَمَعِي ثُؤُورِي
بِوَقْعٍ لَا جَافٍ وَلَا ضَجُورِ	مُعْتَرِفاً لِلْقَدَرِ الْمَقْدُورِ

فالثور إذن قد تَقَمَّصَ شخصية أعرايي يحسن القتال ويروِّي فيه ، وما ذلك إلا لأن العجاج لم يكتف بالأوصاف الموضوعية له أو للقتال ، وإنما كان دائماً يُعَرِّجُ على الجوانب النفسية ، ويبرزها بجدق ومهارة ، ويجعل منها وسيلة بارزة من وسائل التأثير وإحياء الصور بالدفء والحركة والواقعية . ومثل هذا التصوير الذاتي للثور يمكن أن تقع على شيء منه عند بعض شعراء هذيل ، ولكننا لانقع عليه في أشعارهم بهذه الدقة والاتساع الذي نجده في رجز العجاج ، بل إننا لانقع على دقة العجاج في هذا التصوير عند أمثال النابغة الذبياني وزهير بن أبي سلمى ، وهما من أبرع وصافي الجاهلية ، ذلك لأن العجاج قد اختص بوصف الصحراء ، وراح يقدم الأراجيز الطوال

(١) الأرجوزة ١٩/١٢٥ - ١٣٦ .

وليس لها غاية أو هدف أحياناً إلاّ "تدقيق النظر في مشاهد الصحراء ، ونقلها في صور رائعة ، ولكن زهيراً أو النابغة كان للقصيد عندهما هدف آخر غير التركيز على مشاهد الصحراء ، ولهذا ضمرت مشاهد الثور في أشعار زهير وكادت تختفي من أشعار النابغة .

فزهير وصف الثور في إحدى قصائده ، ونقل صوراً لرحلته مع بقره ، ثم إقامته في تلك الليلة المطيرة ، ثم سار به مع الصباح إلى الصراع بينه وبين كلاب الصيد ، ولكنه لم يتغلغل إلى نفسية الثور وهو ينتظر الصباح ، ولم يدخل إلى ذاته وهو يصارع الكلاب ، وإنما كان حديثه موجزاً جداً ، حتى إن مشهد القتال نفسه لم يدم أكثر من بيتين ^(١) ، وفي قصيدة أخرى أتى بلحظة خاطفة من هذه المشاهد ، حين شبه فرسه بثور رأى كلاب الصيد من بعيد ^(٢) ، وفي قصيدة ثالثة شبه ناقته بثور وحشي ثم جعله ينتقل بسرعة إلى كلاب الصيد وينتصر عليها ، ولم يعط هذه المشاهد كلها أكثر من خمسة أبيات فقط ^(٣) ، وهذا كل ماورد في ديوانه حول هذا الموضوع ، وإن كان قد تحدثت بإيجاز أيضاً عن الحمار الوحشي والأتن في موضعين آخرين ^(٤) .

وأما النابغة الديراني فلم نجد في ديوانه إلاّ موضعاً واحداً فقط تحدثت فيه عن الثور ، فكان حديثاً موجزاً ، لا ينفذ إلى تصوير ذاتي له ، ولا يطيل في تحليل هواجسه ، وإنما يجعله يلتقي بكلاب الصيد ثم ينتصر عليها ،

(١) انظر ديوان زهير ٤٢ - ٤٨ .

(٢) ديوانه ٢٦٤ .

(٣) ديوانه ٣٧٩ - ٣٨٠ .

(٤) انظر ديوانه ٦٥ - ٧٢ و ٣٧٢ - ٣٧٨ . وفي موضع آخر تحدثت عن

بقرة غفلت عن ولدها فأكله الوحش ، ثم لقيها الرماة ، فنجت منهم بسرعة الجري : ديوانه ٢٢٥ - ٢٣٠ .

ولا تمتد هذه المشاهد كلها إلاّ في نطاق ثمانية أبيات فقط (١) .

فالعجاج كان مختصاً بأوصاف الصحراء ، براءً في نقل مشاهدتها ، حاذقاً في تصويره الذاتي لجوانبها الموضوعية ، من أمثال الثور ، وما يتم من عراك بينه وبين عدوّه من كلاب القانص أو الصياد .

ولا يقف التصوير الذاتي لديه عند هذه الجوانب فحسب ، وإنما يمتد أيضاً إلى تعاطف العجاج مع الموصوف ، واندماجه معه في شخصية واحدة ، وذلك حين يصور العجاج ذاته وعواطفه وأشواقه وحبّه للأسفار من خلال وصفه لبعيره « مَسْحُول » .

فالعجاج قد حنّ إلى السفر ، ولكنه لا يقول ذلك صراحة ، وإنما يجعل بعيره هو الذي يحنّ إلى ذلك ، فقد أُنيخَ مَسْحُولٌ مع الإبل المحبوسة عن الرحيل ، فغداً يملّ مكانه كما يملّ الأسير في أسره ، وإذا جاءه الليل قضى ليله كله بالزفير والحزن والدموع ، وذلك شوقاً إلى الأسفار ، وانتظاراً للعجاج أن يركبه ويمضي عليه (٢) :

أُنيخَ مَسْحُولٌ مع الصُّبَّارِ مَلالَةَ المَأسُورِ إلى الصَّارِ
يُفني جَميعَ الليلِ بالتزفَّارِ وَعَبَرَاتِ الشَّوقِ بالإذْرارِ
نَظَّارِ أنْ أركبَه نَظَّارِ ولو يَقرِّرَ كانَ ذا قَرارِ
صَبابةً في أثرِ السُّفَّارِ

فهو لا يصف بعيره كما يراه ، وإنما يصف خواطر هذا البعير ، ليجعل منها صورة لما في نفسه هو من هواجس وخواطر وأفكار . ومثل هذا

(١) ديوان النابغة ١٩ - ٢٠ . وفي موضع آخر شبه ناقته بحمار الوحش فوصفه مع الأتن في خمسة أبيات ، ولم يتحدث عن القانص أو الصياد : ديوانه ٥٨ - ٥٩ .

(٢) الأرجوزة ١/٤ - ٧ .

التصوير نجده أيضاً في وصفه لبعيره وقد خرج من دمشق يريد نجداً ، فمسحول
قد أصبح يعاني ضجراً ومشقة لإقامته بدمشق ، ويقاسي ذباباً أزوق مؤلماً
يزيده ملالة على ملالة (١) :

أَصْبَحَ مَسْحُولٌ يُؤَاوِي سَقًّا مَلَالَةً يَمَلُّهَا وَأَزْقًا
وَبَادِيَاتٍ مِنْ ذُبَابٍ زُرْقًا

وهذه الملالة في الواقع لم تكن عند مسحول ، وإنما كانت عند صاحبه
العجاج ، يدل على ذلك فرحته وبشراه حين أنجدَ جملةً ، وخرج من غمقِ
دمشق ، ونظر إلى العراق ، فأبصر برقاً يلعب من ناحية سهيل (٢) :

أَقُولُ إِذْ أَنْجَدَ مِنْ دِمَشْقًا حِينَ رَمَى بِحَاجِبِيهِ الشَّرْقَا
وَاشْتَفَّ مِنْ نَحْوِ سَهِيلٍ بَرَقًا يَا بُشْرَا إِنَّ كَانَ هَذَا حَقًّا
إِذَا السَّرَابُ الرِّقْرَقَاتُ انْعَقًا

وفي هذه الصورة التي رسمها لبعيره ، قد توفرت كثير من
من العناصر الفنية الموحية ، فقد أطلعنا على خلجات نفسه ، ثم زاد من
ملالته بذكر الذباب ، ولم ينس أن يلبس الذباب لتزداد الصورة وضوحاً
وتأثيراً ، ومن ثمَّ حرك جملةً ، وإذا به يخرج من دمشق ، ثم يتجه إلى
بلاد في العراق أو نجد ، وهنا برزت نفس العجاج ، فبدت عليه فرحة
وراحة نفسية بقاء البادية حين رأى برقاً يلوح من قِبَلِ سهيل ، وسراباً
يترقق أمام عينيه مؤذناً بعودته إلى صحرائه أو إلى بلدته في الهامة أو
البصرة .

والمهم أن العجاج في أوصافه لبعيره ، ربما تعاطف معه ، وصوّر

(١) الأرجوزة ١/٣ - ٣ .

(٢) الأرجوزة ٦/٣ - ١٠ .

من خلاله ما يجده في نفسه هو من عواطف وأفكار خاصة ، وهذا يشير إلى أنه لم يكن وصافاً دائماً ، دون أن يشرك إحساسه وعاطفته في هذا الوصف. ورجز العجاج لم يقف عند التصوير الذاتي فحسب ، وإنما جاء بلوحات رائعة من التصوير الموضوعي ، ولا سيما حياة الصحراء وما فيها من طبيعة وحيوان ، إذ لم يغفل شيئاً يمكن أن تقع عليه العين في جنباتها ، بل كان مصوراً حاذقاً لكل ما وقعت عليه عينه من صور أو مشاهد .

والعجاج لا يتجه إلى الصور بعينه فحسب ، وإنما يتجه إليها بسمعه وكلّ حواسه ، لينقل منها كلّ جانب يوحي بالحياة والحركة فيها ، فإذا وصف الأسد مثلاً أتى بصور متنوعة له ، لا تزال تتكامل حتى تجعل منه حقيقة ماثلة أمام العين تلمح وتتحرك ضمن إطار طبيعي واقعي ، فالعجاج يحدّق النظر إلى الأسد ، وإذا به خضيب الصدر من الدماء ، وجلده مُرفّل مُوسّع فوق جسده ، وأشدّاه واسعة تنذر بالرعب ، وهذه العناصر كلها توحي بسائر الجزئيات من صور الأسد ، ذلك لأنها تُبرز أهمّ الخطوط والألوان في هذه الصور الرهيبة ، فالدم فوق صدره ، والأشدّاق واسعة ، والجلد مرفّل ، ولكن العجاج يتناول جانباً آخر ليؤكد عنصر الرعب والخوف ، فيلوذ بوصف ذاتي له ، حين يراه غليظاً شديداً جريئاً ، يُغيّر على الآهلين من الناس ، ويقطع الطريق ويهلك أبناء السبيل ، وهذه الصور المتنوعة توحي بلا ريب إجماعاً متكاملًا بصورة الأسد الراعب ، ولكن الخيال حتى الآن لم يستطع أن يتبصّر إطاراً طبيعياً لهذا الأسد المخوف ، ولذلك تابع العجاج رسم المشهد ، فجعل الأسد بين صفين من الشجر الكثيف الملتف داخل أجمة كثيرة الشجر ، ولم ينس أن يبعث الحياة في هذه الأجمة ، إذ أسمعَ فيها أصواتاً مختلفة من ذلك البعوض والذباب الأحمر^(١) :

(١) الأرجوزة ١٢/١١٣ - ١١٩ .

وكلّ رثبالٍ تخضب الكلكلِ كأنّه في جلدٍ مرقّلِ
منهّرت الأسداق غضبٍ مؤكلِ في الآهلين واخترام السبلِ
بين سماطي غيطلٍ وغيطلِ من لجّتي شجواء ذات أزمّلِ
من البعوض والذباب الأشكلِ

فالصورة في هذه الأبيات ، قد اعتمدت على جوانب فنية متنوعة ، ذلك لأن العجاج لم يكتف بالصور البصرية ، وإنما أتبعها بصور ذاتية ، وأخرى سمعية ، فتكاملت بها تلك العناصر الموحية ، وأمکن لها أن تبرز أمام العين ذلك المشهد ماثلاً بكل ما فيه من ألوان وخطوط وجزئيات ورعب وحركة ، ثم ماكدت تبرز صورة الأسد ، حتى عادت إلى إبراز الإطار الطبيعي له بكل ما فيه من خطوط وأصوات وجزئيات موحية ، وإذا بالأسد بين صفتين من الأشجار في غابة كثيفة ، وأصوات الذباب والبعوض في جنباتها ، يضي عليها شيئاً من الحياة والحركة .

ومثل هذا المشهد كثير جداً في رجز العجاج ، بل يمكن القول إن أوصافه كلها كانت تمتاز بهذا التنوع ، وذلك لكلفه الشديد بالألوان والخطوط والأصوات على حدّ سواء ، ومهما تضاءل العنصر الصوتي في الصورة ، فأذن العجاج المرهفة تنتبه إليه ، وتجعل منه عنصراً فنياً بارزاً في بعث الحيوية والحركة داخل الصورة ، ولهذا وجدناه لا يغفل حتى عن صوت الماء في أجواف الإبل ، وقد شربته وهي عطاش ، وهنا نجد أنفسنا أمام مشهد فني متكامل أيضاً ، فهو يسير الإبل بعينه ، فيراها تتراحم وكأن بعضها يحث بعضا ، حتى تبلغ الشقيير من الكديد ، وهو المكان الغليظ من الأرض ، ثم تسرع السير ، وإذا بعينها تلمح الماء من بعيد ، ثم تأتيه صباحاً لتجد فيه ماء غزيراً صافياً ، لا ركود فيه ولا تغير في طعمه أو لونه ، ولكن شدة

العطش جعلتها لاترد بتمهل ، وإنما تتزاحم تزامماً يُطِير الأوبار من أجسادها ،
وتجرع الماء جرعاً يُسْمَع له خرير في أجوافها^(١) :

واحتثَّ مُحْتَثَاتُهَا الحُدُورَا حتى إذا ما عَلَتِ الشَّفِيرَا
من الكَدِيدِ وتغَالَت زُورَا وعَايَنَتُ أعينُهَا تَامُورَا
وباكَرَتُ ذَا جُمَّةٍ نَمِيرَا لا آجِنَ المَاءِ ولا مَاطُورَا
جاءت بيزَحْمٍ يَزَحْمُ المَدْحُورَا تُطِيرُ عن أَكْنافِهِ القَتِيرَا
تَسْمَعُ للماءِ إذا اسْتَحِيرَا لِلجَرَعِ في أَجوافِهَا خَرِيرَا

فهو هنا ينظر إلى الإبل ثم يأتي بعدد من الصور المتنوعة لها ، ففي
الطريق يسايرها ويتنقل معها من مكان إلى آخر ، فاذا جاء ورود الماء ،
نقل صوراً أخرى لكثرة الماء ولونه وجريانه ، ثم نظر إلى الإبل فنقل صورة
لتزاحمها الشديد ، وما ذلك إلا ليحدد مدى العطش المتحكم بها ، ثم سلط
سمعه المرهف لينقل صوت الماء في أجوافها ، وبهذا التنويع أمكن له أن يبعث
المشهد حياً متحركاً ، وذلك بعد أن اتجه إليه بعينه وأذنه وكل حواسه .
ومثل هذا التنويع نراه أيضاً في مشهد الصراع بين الثور وكلاب الصياد ،
وهو مشهد مطول لانجد من السائغ أن نقف عنده بأكمله على ما فيه من إثارة
وتصوير بارع ، إلا أن الوقوف عند بعض جوانبه المثيرة قد يكفي لبيان
التنويع الحاذق في صور العجاج ، فقد أطل في وصف القتال بين الثور
والكلاب ، وقبل أن يبلغ نهاية هذا الصراع الدامي ، جعل يحدق في قرن
الثور ، لأنه آلة الحرب البارزة في الميدان ، فهذا القرن حاد جداً وكأنه
رمح من الرماح ، وهذه صورة بصرية ، وقد أتبعها فوراً بصورة صوتية ،

(١) الأرجوزة ٢٦/١٩ - ٢٨ .

تجعلنا ندخل الميدان بأنفسنا لئرى ما يحدث ، وإذا بالقرن يشتبك مع الكلاب ،
وإذا بها تعوي وتصوت حين تصاب بجده ، ومن هذه الصورة الصوتية يعود
إلى الصور البصرية من جديد ، فالثور يطعن فيصيب الكلب في كليته ،
والكلب يصرخ فيموت ، ثم يطعن في صدور الكلاب ، فيتك فيها آباراً
تغلي بالدم ، وأنفاقاً تهدر بسيل من الدم القاني ، يتدفق من أجوافها^(١) :

يَنسَنُّ أَنْ تَسْنَهُ الدِّمِيَّ كَمَا يُسْنُ النَّيْزُكَ الْخَطِيَّ
لَهْنٌ فِي شِبَاهِهِ صَيِّئٌ إِذَا كَتَلَتْ وَأَقْتَحِمَ الْمَكْلِيَّ
وَفِي الْجَاشِيشِ لَهَا رَكِيٌّ تَغْلِي وَأَنْفَاقٌ لَهَا مُوْهِيٌّ
لَهَا إِذَا مَا هَدَرَتْ أَيْئٌ وَرَدُّ مِنَ الْجَوْفِ وَبَحْرَانِيٌّ

ولو تابعنا هذا المشهد لوجدنا عجباً من آيات هذه الدقة في التنويع
والتصوير ، فقد رأينا قرن الثور ومدى حدته ، ثم سمعنا صوت الكلاب
الصرعى ، ثم أمكن لنا أن نجد أنواعاً من الصور الفنية تمثل ما عليها من
جراحات ، فأبار الدم الأحمر في صدورها ، وأنفاق تهدر بسيل ورد من
أجوافها ، وطعن كان يسدد إلى كلاتها ، ولا شك أننا قد سمعنا غليان
الدم ، وهدير السيل ، وذلك حين قال « تغلي » و « هدرت » ، فهذه
الألفاظ صورت ما يراه البصر ، وأوحت بما تسمعه الآذان ، وهيات جواً
تتمثل جزئيات كثيرة من تلك الصور المتلاحقة . وبهذا التنويع الفني أمكن
للعجاج أن يحيي ذلك المشهد المثير أمام أعيننا بكل ما فيه من خطوط وألوان
وأصوات وحركة .

ومن هنا نلاحظ أن العجاج كان يعي دائماً هذه العناصر الفنية في خلق

(١) الأرجوزة ٢٥/١٨٥ - ١٩٢ .

الصورة الأدبية ، فهو كلف بتحديد الإطار المكاني والزمني للصورة ، ثم التدقيق بما فيها من ألوان وجزئيات موحية ، ولا يبقى الصورة بلا روح أو حياة ، وإنما يبعث فيها الدفء والحركة ، لتكون صورة واقعية لا ترتاب فيها عين أو خيال .

ومن ثم كانت الصورة الفنية في رجزه تطالعنا دائماً بالروعة والجمال والحيوية ، لما فيها من تكامل في أركانها الفنية المختلفة ، ولو اتجهنا مثلنا نحو الإطار الزمني ، لوجدنا الألوان والخطوط وسائر الجزئيات تتغير في الصورة تبعاً له ، فإذا نظر إلى المشهد في الليل ، صوره بشكل يختلف اختلافاً بيناً عن تصويره في وضح النهار ، وهذا يعني أن العجاج لا ينقل الصورة نقلاً تقليدياً ، وإنما ينصبه على الموصوف عيناً وأذناً وقلباً ونفساً وروحاً ، لنقل ما يراه بعينه ، وما يسمعه بأذنه ، وما يتبصره بخياله ، فيجعل الأبيات القليلة لاتعدو أن تكون قطعة من تلك الصحراء ، أو ذلك المنهل ، أو ما أشبه ذلك من تلك المشاهد الزاخرة في رجزه .

فإذا أراد بالجمار والأتن أن ترد المنهل مع الصبح أو في أواخر الليل ، كان لابد أن يدقق النظر في جزئيات هذا المشهد ليلاً ، ويختار من اللقطات المناسبة ما يوحي بهذا الواقع الزمني نفسه . فما كاد الصبح يخاطب الظلام بشيء من ضيائه ، حتى رأى الجمار شيئاً من الحمرة في الأفق يتصل بصفرة من سواد الليل ، اتصال السلسلة البيضاء من اللجام بالسير الأسود الذي يقع على خدّ الفرس ، ولما أبصر الجمار ذلك ، كان للأتن أن تنزل إلى الماء لتشرب ، وهنا بدأ العجاج يرسم صورة لهذا الماء في ذلك الحين من الليل ، فالماء ذو أعراف وخرير يتعالى منه أصوات الضفادع ، والأتن تضربه بقوائمها لتزليل الطحلب وتشرب ، والنجوم ساججات فيه كأنها اللآلئ في صفحة

الماء (١) :

حَتَّى إِذَا مَا مَذَّقَ الْأَسْحَارَا أَعْرَهُ يَحْدُو مُظْلِمًا قِيَارَا
وقد رأى في الأفقِ اشْقِرَارَا وفي جناحي لَيْلِهِ اصْفِرَارَا
وَصَلَّكَ بِالسِّلْسِلَةِ الْعِدَارَا تَعَرَّضْتَ ذَا حَدَبٍ جَرَجَارَا
أَمَلَسَ إِلَّا الضَّفْدَعَ النَّقَّارَا يَرُ كَضْنٍ مِنْ عَرْمَضِهِ الطَّرَارَا
تَخَالُ فِيهِ الْكَوَكَبَ الزَّهَّارَا لُؤْلُؤَةً فِي الْمَاءِ أَوْ مِسْمَارَا

فهنا عني عناية بالغة بالألوان والأصوات واختار الجوانب الموحية ، التي تبرز في ذلك الوقت من الليل ، فالليل أسود قِيَار ، والصبح أبيض أَعْر ، وفي الأفق حمرة من الشفق ، وفي سواد الليل صفرة من اختلاطه بالفجر ، والجدول تثير الريح عليه بعض التجاعيد ، وخريره يتردد كأصوات البعير ، والضفدع تنقر فيه وتصوت ، وبهذا رسم ذلك المشهد من الليل وفيه الجدول والحمار والأتن ، فلونه بالأوان الطبيعة ، ثم حرّكه وأسمع أصواتاً من أركانه المختلفة ، ثم تناول كل ركن بصور سريعة تبرزه في مخيلة السامع على أروع ما يريد له من تصوير . ولم يكتف بهذه الجوانب ، وإنما دقق النظر في الجدول نفسه ليبرز في الصورة جانبَ الواقعية والحياة ، ولهذا أدخل الأتن إلى الماء لتضرب الطحلب بأيديها فتبعده وتشرب ، وجعل النجوم تظهر في صفحة الماء بما فيها من بريق وتألؤ وتوقد ، وبذلك استكمل هذا الشريط المتحرك من الصور المتلاحقة ليرسم مشهد الأتن وهي ترد الماء قبيل الفجر بقليل ، وما نظن شيئاً يمكن أن يضاف إلى هذا المشهد ليكمل ما فيه من روعة وجمال .

وإذا كان في المشهد السابق لم يذكر من دقائق المنهل إلاّ حَدَب الماء

(١) الأرجوزة ٤٦/٣٤ - ٥٥ .

- ٣٢٥ -

وأعرافه ، فذلك لأنه وصف ذلك المنهل في الليل ، ولولا بعض النور الخافت من أضواء النجوم ، لما أمكن للعجاج أن يذكر حتى ذلك الحدب من الماء ، إلا أنه إذا ما أراد أن يصف المنهل في النهار ، جعل يصوره على نحو جديد ، يبرز فيه ما تراه العين بدقة واستقصاء من صور وجزئيات .

فالعجاج يفخر بورود المناهل الخالية في البوادي والقفار ، ولذا كان الإطار العام لصورة المنهل هنا أنه منهل بعيد عن الناس يخلو من الواردين ، وضمن هذا الإطار المحدد ستبرز الجزئيات الموحية بهذا المنهل ، فالحمام قد اطمأن ، حتى ألقى قوادمه وريشه ، فكان هذا الريش أشبه بنبال ورقاء متشابهة قد سقطت عنها نصالها ، والطحلب قد جلى ماءه الطامي المرتفع ، وغدا لطول انجباس الماء أشبه بما يبقى من الشحم بعد إذابته ، والأغصان قد تدلت حول الماء وعليها من نسج العنكبوت ما يشبه الأثواب الرقيقة من الكتان ، والمنهل نفسه قد اندفنت بعض أجزائه لما سفته عليه الريح من التراب والرمال ، وماؤه قد اصفر لونه ، واختلطت به أبعاد الحمر والآرام وما إليها ، لتفرده وبعده عن السابلة (١) :

وَمَنْهَلٍ وَرَدَّتْهُ عَنْ مَنْهَلٍ	فَقَرَيْنِ هَذَا ثُمَّ ذَا لَمْ يُؤْهَلِ
كَانَ أَرْيَاشَ الْحَمَامِ النَّسَلِ	عَلَيْهِ وَرُقَانُ الْقِرَانِ النَّصَلِ
فَوَيْتَقَ طَامِي مَائِهِ الْمُجَلَّلِ	مُجْفَالَةَ الْأَجْنِ كَحَمِّ الْجَمَلِ
كَانَ نَسِجَ الْعَنْكَبُوتِ الْمُرْمَلِ	عَلَى ذَرَى قَلَامِهِ الْمَهْدَلِ
مُسُوبٌ كَتَّانٍ بِيَأْيِدِي الْغَزَلِ	دَقْنٍ وَمُصْفَرٍّ الْجِجَامِ مُوَالِ (٢)

فها قد حدد كثيراً من الجزئيات المرئية في هذا المنهل البعيد ، ولعلنا

(١) الأرجوزة ١٢/١٠٢ - ١١١ .

(٢) دفن وموال : صفة لـ « منهل » في البيت الأول .

نلاحظ بسهولة أنه لم يحرك أي صوت في جنباته ، فلا صوت للماء ، ولا حركة للحمام ، ولا حفيف للأعصان ، وما ذلك إلاّ قدرة فنية من العجاج ، لأنه يريد الصمت والسكون المطلق لهذا المنهل القفر النائي عن الناس ، وذلك ليضيف إليه شيئاً من الرهبة ، التي لا يشعر بها إلاّ ذلك الإنسان المنفرد في قفر أو فلاة .

وبذلك نجد العجاج مصوراً حاذقاً ، ينقل المشهد بواقعية فنية ، لاتصنع فيها ولا تكلف ، وهذه الواقعية كانت تدفع به إلى اتخاذ كل عنصر يمكن أن يبرزها في صوره أو مشاهدته القصصية المختلفة ، ومن أوضح هذه العناصر مانجده من تركيز على الحوار ، فالعجاج لا يكتفي مثلاً برسم ما حدث لوالي اليامة مع الخليفة ، وإنما ينقل ما دار من حوار ، فيجعل الصورة تجمعا مع الواقع تماماً ، ولا يتعد عنه أبداً^(١) :

فقال للإمام هذا قبلي بذي غنى أهلي أصفى ما كلي
قال الإمام : ما جمعت لي ؟ فقال إبراهيم : عذرة المؤتلي
أما وعهد الله إن لم أغفل ..

ولا يقتصر الحوار على الإنسان ، وإنما قد نجده بين الصياد والكلاب ، فالصياد يخاطبها ، ويكشف عما في نفسه من قترم إلى الشواء^(٢) :

قال لها وقوله موعيه وكله ذاك يفعل الوصي
إن الشواء خير الطري

وقد أكثر العجاج من الحوار والمناجاة ، واتخذ من ذلك وسيلة للكشف عن الصور الذاتية النفسية ، كما لاحظنا منذ قليل ، إلاّ أن هذا الحوار كان

(١) الأرجوزة ١٧/١٠٤ - ١٠٨ .

(٢) الأرجوزة ٢٥/١٤٩ - ١٥١ .

يساعد على الواقعية أيضاً في صورته ومشاهدته ولا سيما القصصية منها .
ومن صور الواقعية أيضاً ما نجده من ولع عند العجاج بذكر أسماء البعير
أو الناقة أو الكلاب ، ففي بعض الأراجيز يذكر اسم جملة « مسحول » ،
وفي أراجيز أخرى يذكر اسم ناقته « الشعناء » ، فإذا وصف هذه الناقة
أو ذلك الجمل ، أصبح الوصف أقرب ما يكون إلى الواقعية ، ومثل ذلك
حديثه عن الصياد والكلاب ، فالثور مثلاً يرى صياداً معه كلاب يدعو منها
« عَطَافاً » وأخا « عِطَاف » (١) :

حَتَّى رَأَى مِنْ حَالِكِ الْأَسْدَافِ ذَا كَلْبٍ نَوَاهِزٍ خِطَافِ
يَدْعُو عَطَافاً وَأَخَا عِطَافِ

فهذا جانب من دقة العجاج ، لإضفاء الواقعية على صورته ، إذ كان
يبحث دائماً إلى الدقة في صورته ، ويختار لها من الدقائق الفنية ما يجعلها في
غاية الجمال والإتقان الفني ، فإذا شبه الجيش بسيل من الجراد ، لم يكتف
بأنه جراد يسد الأفق أو تدعوه خضرة فيجدت في طلبها ، وإنما دقق في
الصورة فأضاف إليها عنصراً جديداً يوحي بتحفظ هذا الجراد واندفاعه في
سيره ، فهو غرضٌ بكانه ضجيراً منه ينتظر شروق الشمس ليندفع
ويتنشر (٢) :

سَيْلُ الْجَرَادِ السُّدِّيْرُ نَادُ الْخُضْرِ آوَاهُ لَيْلٌ غَرِيضًا تَمَّ ابْتِكْرُ
وَفَنَاتٌ عَنْهُ ضَجَى الشَّرْقِ الْخُضْرُ فَمَدَّ أَعْرَافَ الْعَجَاجِ وَأَنْتَشَرَ

وإذا أراد وصف بعيره بالسرعة ، جعله كالثور الوحشي على عادة الشعراء ،

(١) الأرجوزة ٣٣/٨ - ٣٥ .
(٢) الأرجوزة ١٥٤/١ - ١٥٧ .

ثم دقق في صورته فاختر للثور أن يكون بمطوراً ، لأنه إذا مطير اشتد عدوه^(١) :
 بل خِلتْ أُعْلاقِي وَجَلْبَ الكُورِ عَلَى سَراةِ رَائِحِ تَمَطُورِ
 وإذا ما أراد تشبيه الثور بالبرق في سرعته ، رأيناه يستثني من ذلك
 « لون البرق » ، وما هذه الدقة إلاّ لأن الثور الوحشي فيه خطوط سود ،
 والعجاج لا يريد الوهم لصورته ، فيُظنّ أنه يريد مجرد التشابه في اللون^(٢) :
 عَلَى سَراةِ نَاشِطِ خَطَّاطِ يُقَلِّبُ الطَّرْفَ بِذِي أَراطِ
 كَالْبَرِّقِ الأَلَوْنَةُ مِيطِ

وإذا ما تحدّث عن الحمرة ، وأشار إلى مزجها بالماء ، دقق في صورة هذا
 الماء وأراد أن يكون في غاية الرقة والصفاء ، ولهذا جعل الشراب يمزج بماء
 سال من رَصَفِ^(٣) ، حتى اجتمع في صهاريج من صفاً وحجارة ، وذلك لأنه
 أصفى له وأرق^(٤) :

فَشَنَّ فِي الإِبْرِيقِ مِها مُزَقاً مِنْ رَصَفِ نازِعَ سَيْلاً رَصَفاً
 حَتَّى تَناهى فِي صَهارِيجِ الصَّفَا

وبذلك لا تخلو صور العجاج من الدقة في تناول الجزئيات الموحية من
 الموصوف ، ولا سيما أن جلّ اعتماده في وسائل التصوير كان يتجه إلى اختيار
 هذه الجزئيات الموحية ، وتناول اللقطات الموفقة البارة من المشهد ، فإذا
 أراد مثلاً أن يُسكِن الأطلالَ نعاماً أو بقرأً وحشياً ، لم يُدخِل بقرة
 الوحش دون أن يختار لها لقطة توقظ الخيال ، وتنبّه الأحاسيس ، لما فيها

-
- (١) الأرجوزة ١٩/٨٢ - ٨٣ ، وانظر الصحاح ١/٢٧٠ .
 (٢) الأرجوزة ٢٠/١٩ - ٢١ .
 (٣) الرصف : حجارة مرصوفة متصلة .
 (٤) الأرجوزة ٤٤/٢١ - ٢٣ .

من ملامح موحية مؤثرة في النفس الانسانية ، فقد اختار لهذه البقرة أن يكون لها ولد صغير تدفعه قليلاً قليلاً وتهيئه للمشي ، ثم زاد من تزيين هذا المشهد حين دقق النظر في هذا الطفل ، ونقل ما يرى في قوائمه عادة من لون السواد ، فجعله كأنه يلبس خِفافاً من الأرنَدَجِ ، وهو ذلك الجلد الأسود الذي تصنع منه الخفاف^(١) :

وَكُلُّ عَيْنَاءٍ تُزَجِّي بِحَزَجَا كَأَنَّهُ مُسْرَوْلٌ أُرْنَدَجَا

ولا يقف العجاج عند الدقة واختيار اللقطات المناسبة ، وإنما يعتمد غالباً إلى شيء من المفارقات في رسم صورهِ ، وذلك لتزداد وضوحاً وإشراقاً ، ويتم لها ما يرتضيه من الابداع الفني ، فإذا تحدث مثلاً عن فتیان قریش في جيش عمر بن عبيد الله بن معمر ، رأيناه يرسم مفارقة فنية سريعة لفتى قریش ، فهذا القرشي حلو في تساهله ، إلا أنه مرّ في عدائه^(٢) :

وَمِنْ قُرَيْشٍ كُلِّ مَشْبُوبٍ أَغْرَ مَحْلُوِّ الْمُسَاهَاةِ وَإِنْ عَادَى أَمْرٌ

وإذا تحدث عن الغواني رسم مفارقة أيضاً بين حالهن وقد أمسى الشيب في رأسه ، وحالهن أيام كان في بُرْدِ الشباب ، فهنّ اليومَ معرضات عنه ، وقد كنّ بالأمس مائلات إليه بالعيون والأعناق^(٣) :

مَا لِلْغَوَانِي مُعْرِضَاتٍ مُصَدِّدَا وَقَدِ أَرَاهُنَّ إِلَيْنَا عُنْدَا
بِالطَّرْفِ وَاللَّبَّاتِ خُزْرًا مُقَوِّدَا لَمَّا رَأَيْنَ الشَّيْبَ قَدْ تَعَهَّدَا

وإذا عاتب ولده رؤبة لجأ إلى مثل هذه المفارقات في رسم بعض الصور الذاتية المؤثرة ، فالعجاج قد كبر وأرعشت أطرافه ، وكان ينبغي أن يراه

(١) الأرجوزة ٩/٣٣ - ١٠ .

(٢) الأرجوزة ٨٤/١ - ٨٥ .

(٣) الأرجوزة ١/٢٧ - ٤ .

رؤية على هذه الحال ، فيرق له ويعطف عليه ، ولكن هذا لم يحدث ، وإنما حدث شيء يفارقه ، إنه يستعجل الموت لأبيه ، ويرجو أن يكون الخلاص منه سريعاً (١) :

وَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ وَفِيهِ كَافٍ يَخْتَرِمُ الْإِلْفَ عَنِ الْآلِفِ
لَمَّا رَأَى أُرْعِشْتَ أَطْرَافِي

وبهذه المفارقة الفنية نهياً في أنفسنا شيء من التعاطف مع العجاج ، ولكنه لم يلبث أن أكد هذا التعاطف بمفارقة فنية أخرى ، إذ عرض لرؤية أيام كان صغيراً في حاجة إلى حنان أبيه وعطفه وإعالته ، فكان العجاج يحنو عليه ويعوله ويحسن غذاءه ، حتى إذا ما قوي واشتد ، لم يجز أباه إحساناً بإحسان ، أو عطفاً بعطف ، وإنما جعل يتنكر له ، يريد أن يصطفي ماله قسراً (٢) :

سَرَعَفْتُهُ مَا شِئْتُ مِنْ سِرْعَافٍ حَتَّى إِذَا مَا آصَ ذَا أَعْرَافٍ
كَالْكَوْدِ الْمَشْدُودِ بِالْإِكْفِ قَالَ الَّذِي جَمَعْتَ لِي صَوَافٍ

فالمفارقات الفنية من أبرز وسائل العجاج في تحقيق ما يريده لصورته من تأثير نفسي ، أو كإل فني ، أما وسائله في رسم الصورة نفسها ، فكان جل اعتماده فيها على معاني الألفاظ وإيحائها ، دون الاعتماد الكلي على التشبيه والاستعارة وما إلى ذلك ، فإذا وصف الجيش وقف يرسم صوراً ومشاهد من واقع الجيش ، وذلك بالألفاظ المعبرة عن تلك الصور والمشاهد ، دون أن يلجأ إلى التشبيه في كل صورة ، كالذي نجده مثلاً في معلقة امرئ القيس أو معلقة طرفة بن العبد ، فالجيش ذو قداميس وهي الكتاب المقدمة ،

(١) الأرجوزة ٥١/٨ - ٥٣ .

(٢) الأرجوزة ٥٩/٨ - ٦٢ .

وهو لهُامٌ لا يمر بشيء إلا ابتلعه والتمه ، وهو قوي كثير لو اندفع فوق جبل لهدمه وقلعه من أصله ، وهو كثير العدة والعدد ، ثقل السير ، لا يُرَى له أثر على الأرض كما يُرَى أثرُ الجيش القليل السريع ، بل إنه لا يمر بالقياف الصعبة من الأرض ، حتى يدُقُّها ويُسهِّلها ، ولا يمر بالسهول أو البيد حتى يحفرها حَفراً ويؤثر فيها تأثيراً (١) :

بِإفْكِهِ حَتَّى رَأَى الصُّبْحَ جَشَرَ ۚ عَنْ ذِي قَدَامٍ مِيسَ لُهَا مِ لَو دَسَرَ
بِرُّ كُنْهِ أَرْكَانَ دَمَخٍ لَأَنْقَعَرَ ۚ أَرْعَنَ جَرَّارٍ إِذَا جَرَّ الْأَثَرَ
دَيْثَ صَعْبَاتِ الْقِيَافِ وَابْتَارَ ۚ بِالسَّهْلِ مَدْعَاسًا وَبِالْبَيْدِ النُّقْرَ

فالجيش هنا قد برزت له صور متعددة لاشأن للتشبيه فيها ، وإنما جاءت كلها عن طريق الألفاظ المعبرة عنها ، والموحية بها ، إلا أن التشبيه يظهر بعد ذلك ليكون حلية أو وسيلة لنقل الوصف إلى موضوع جديد مادام العجاج كلفاً بنقل كل مافي وسعه من مشاهد الطبيعة أو الصحراء ، ولهذا يرى من المناسب أن يتحدث عن كثرة هذا الجيش فيجعله كالليل ، وعن جلبته فيجعله كالمطر ، والحق أنه ما أراد من هذا التشبيه إلا أن يصل به إلى ذكر المطر ، ومن ثم ينهي مهمة التشبيه ، ويبدأ وصفاً للمطر بالألفاظ نفسها ، دون استعانة غالباً بأي وسيلة أخرى (٢) :

كَأَنَّمَا زُهَّاءُهُ لِمَنْ جَهَرَ ۚ لَيْلٌ ، وَرِزُّ وَغَرِّهِ إِذَا وَغَرَ ۚ
سَارٍ سَرَى مِنْ قِبَلِ الْعَيْنِ فَجَرَ ۚ عَيْطَ السَّحَابِ وَالْمَرَابِيعِ الْكُبْرَ ۚ
وَزَفَرَتْ فِيهِ السَّوَابِقِ وَزَفَرَ ۚ بَغْرَةَ نَجْمٍ هَاجَ لَيْلًا فَبَغَرَ ۚ
مَاءٌ نَشَاصٍ حَلَبَتْ مِنْهُ فَدَرَ ۚ حَدَوَاءُ تَحْدُوهُ إِذَا الْوَبْلُ انْتَشَرَ ۚ

(١) الأرجوزة ٤١/١ - ٤٦ .

(٢) الأرجوزة ٤٧/١ - ٥٤ .

فالألفاظ هنا هي التي تنقل مشاهد المطر والسحاب ، ولا نكاد نميز إلا بعض الاستعارات الطريفة والقليلة ، حين جعل الرياح تحدو السحاب وتسوقه ، ثم تحلب منه الوَبَل والمطر .

وما رأيناه في الأبيات السابقة يمكن أن نواه أيضاً في وصف العجاج لبعيره ، فقد نقل بعض الصور الذاتية لما يقاسيه بعيره مسحول من ملالة الإقامة والانقطاع عن السفر ، ثم أتى ببعض الصور الموضوعية له ، فكانت الألفاظ بمعانيها وإيحاءها هي التي ترسم هذه الصور ، فقد ذاب سنامه الواري السمين ، وتعرّى وَسَطُهُ من اللحم ، وانضمت خاصرته من التضمير ، وغدا كالحبل المفتول من الهزال ، وإذا سار بين الأشجار الكثيفة شقّ طريقه برأس طويل اللّحْيَيْنِ يعتمد على السّفارِ ، وهو ما يشبه اللجام (١) :

وانهم هأموم السديف الواري عن جرتي منه وجوزي عاري
وانضم كسحاه من المضمار وآض مثل المسد المغار
يشق دوح الجوز والصنار بستجم يحط في السفار

فالألفاظ بمعانيها وإيحاءها ، هي التي نقلت صوراً مختلفة لهذا البعير الهزيل ، أما التشبيه فكان دوره ثانوياً ، ولم يرد إلا ليكون حلية بين هذه الصور المتعددة ، ولم يلبث العجاج أن اعتمد على التشبيه لنقل الوصف إلى موضوع آخر ، فشبّه بعيره بسفينة تجري في دجلة ، ثم انطلق إلى وصف هذه السفينة ، فعاد إلى الاعتماد على معاني الألفاظ ، لأن دور التشبيه قد انتهى بمجرد انتقال موضوع الوصف من البعير إلى السفينة (٢) :

(١) الأرجوزة ٨/٤ - ١٣ .

(٢) الأرجوزة ١٤/٤ - ٢٠ .

كَأَنَّهُ إِذْ ضَمَّهُ أَمْرَارِي مُرْقُورٌ سَاجٍ فِي دُجَيْلٍ جَارِ
 مُخْرَوِّطاً جَاءَ مِنَ الْأَطْرَارِ دَانَاهُ تَضْبِيبٌ وَعَضُّ قَارِ
 مِنْ خَشَبِ النَّجَارِ وَالنَّجَارِ قَوْتَ الْعِرَاقِ ضَامِنِ السَّفَارِ
 ولاحَ ضَوْءٌ مِنْ سُهَيْلِ سَارِ

فهو هنا لا يصور السفينة بغير الألفاظ المعبرة الموحية ، فهي من خشب الساج ، وتجري في دجلة ، وتسرع قادمة من نواحي البلاد ، وقد صنعتها أيدي النجارين بعد تضييب وسمر بالمسامير أو الألياف ، وهي تقطع العراق وتضمن المسافرين ، والآن تجري في دجلة ليلا وقد لاح ضوء من نجم سهيل . فاعتماد العجاج في التصوير يتركز على الألفاظ نفسها لا على التشبيه ، وأما دور التشبيه فلا يعدو أن يكون وسيلة الانتقال بالوصف من موضوع إلى آخر ، وربما وردت منه بعض الصور القليلة لتكون حلية وزينة بين الصور الأخرى ، ومن ذلك قوله يمدح ابن معمر^(١) :

فأينمَا جَرَيْتَ أُعْطِيتَ الظَّفَرَ شَهَادَةً فِيهَا طَهُورٌ مِنْ طَهْرٍ
 أَوْ وَقَعَةَ تَجَاوَعِ الدِّينِ القَدْرُ أَوْ شَرَفًا يُتِمُّ نُورًا قَدْ زَهَرَ
 كَمَا تُتِمُّ لَيْلَةَ البَدْرِ القَمَرُ

فالصورة الأخيرة قد اعتمدت على التشبيه ، فكانت أشبه بجملة تزيين الصور السابقة لها . ومثل هذا أيضاً قوله يتغزل بامرأة إبريق العشي^(٢) :

دِيَارَ إبْرِيقِ العَشيِّ خَوْزَلِ غِرَاءَ لَمْ تَلْتَحِ بِلَوْحِ الشُّكْلِ
 لَمْ تُغْدَ فِي بوسٍ وَلَمْ تُشْكَلِ وَلَمْ تُنْبِتْ بِالجِرَاءِ المُحْتَلِ
 وَلَمْ تُعَاِمِرْ وَصَبًا قُتِّلِ رَكَاةً لِلبُرْدِ والمُرْحَلِ

(١) الأرجوزة ١/١٣٩ - ١٤٣ .

(٢) الأرجوزة ١٢/٢٩ - ٤٠ .

بِقَصَبِ فَعَمِ الْعِظَامِ خُدَلِ رِيَّانَ لَا عَشَّ وَلَا مُهْبَلِ
فِي صَلْبِ لَدْنٍ وَمَشِي هَوُجَلِ تَدَافُعَ الْجَدُولِ إِثْرَ الْجَدُولِ
فِي أُتْعُبَانِ الْمَنْجُونِ الْمُرْسَلِ مِيَالَةَ عَلَى الْحَلِيلِ الْمُحَلَّلِ

فهذه الصور كلها تعتمد على الألفاظ المعبرة ، وأما صورة تدافع الجدول ،
إثْرَ الجدول ، فقد جاءت تعتمد على التشبيه ليكون حلية وزينة في الأبيات ،
ولا شك أن هذه الصورة قد جمّلت ما ورد قبلها من صورة المشي المستوخي
لتلك المرأة .

وما رأيناه في هذه الأمثلة يمكن أن يطالعنا في رجز العجاج كله ، إذ
لا يخرج التشبيه عنده عن أن يكون أداة انتقال في الوصف من موضوع إلى آخر
أو أن يكون حلية سريعة داخل أوصافه وصوره ، أما جلّ اعتماده فقد كان
على اختيار اللقطات الموفقة من الوصف ، والتعبير عنها بعاني الألفاظ وإيجازها ،
وفي هذا طور هام في التصوير الفني ، لأن الشاعر بحاجة إلى مقدرة فنية
واسعة ، حتى يمكن له التخلي عن الاعتماد الكلي على التشبيه في صورته ، ذلك
لأن تتبع الجزئيات ورسمها بدقة واستقصاء مع تحديد لأركانها من زمان
ومكان وألوان وما إلى ذلك يحتاج إلى مهارة فنية ، لا يدعو إليها التشبيه
في أكثر الأحيان .

وقد تكون الاستعارة طوراً متأخراً عن التشبيه ، لما فيها من إيجاز لبعض
تفصيلاته ، وتحفّف من بعض أركانه ، وربما كانت مرحلة فنية لجأ إليها الذوق
الفني قبل أن يتخلى عن الاعتماد الكلي على التشبيه في الوصف والتصوير ، ولا
سيما أن الاستعارة في وسعها أن تجعل المشهد تجميلاً فنياً لا يقوى عليه التشبيه ،
لأن التشبيه يوزع الخيال بين صورتين متقابلتين ، دون أن يركز الخيال على
الصورة الموصوفة نفسها .

ومن هنا كان للاستعارة سلطان أوسع من التشبيه في رجز العجاج ،
فالسيف السريجية تخطف الأعناق ، وتوقد الشرر في حديد البيض فوق
الرؤوس^(١) :

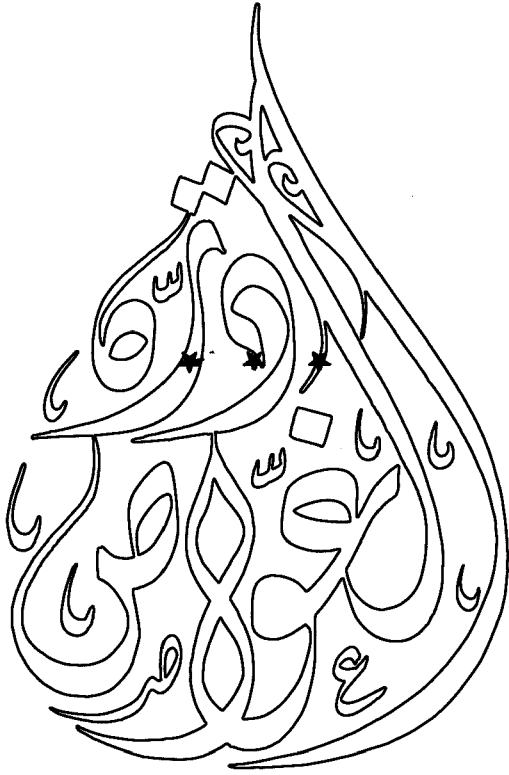
وبالسريجات يخطفن البصرُ وفي طرايق البيض يوقدن الشررُ
والشقاقُ سحابة تنتشر ولا تجري على القصد ، ثم يذهب بها صوبُ
المطر فيهلكها ، وذلك حين أمطرت الأيادي بالضرب والطعن ، واتخذت
من السيف صواعق تنصب بالموت والهلاك^(٢) :

واشتق شؤبوبُ الشقاقِ واشفتَرُ وأزلفتهُ لجةُ الغيثِ سحرُ
إذ أمطرت فيه الأيادي ومطرُ بصاعقات الموت يكشفن الحيرُ
والحرب نار يمكن أن توقد فتستعر وتأخذ كل شيء بالحر والوهج ،
ويمكن أن تكون دابة غريبة تلبس مجلاً فيه يياض وحمرة من لطح الدماء^(٣) :
إننا إذا مذكي الحروب أرجأ منها سعاراً واستشاطت وهجا
ولبيست للموت مجلاً أخرجا

وأمثال هذه الصور كثيرة في أوصاف العجاج ، مما يشير إلى أنه قد
يعتمد على الاستعارة في ترين صوره أكثر منه على التشبيه .
وبذلك فالعجاج في أوصافه يعتمد إلى التصوير بالألفاظ المعبرة الموحية
ثم بالاستعارة ، ولكنه لا يأتي بالتشبيه إلا حين الانتقال من وصف موضوع
إلى وصف موضوع آخر ، أو حين يريد منه أن يكون حلية سريعة لبعض
الجزئيات في صورته الفنية .

-
- (١) الأرجوزة ١/١١٦ - ١١٧ .
 - (٢) الأرجوزة ١/١٦٢ - ١٦٥ .
 - (٣) الأرجوزة ٣٣/١٠٣ - ١٠٥ .

وبما تقدم كله ندرك أن الوصف كان من أبرز موضوعات العجاج ، إذ غلب على أكثر الموضوعات ، واختص نفسه بأكثر الأراجيز المطوّلة ، ولكن العجاج قد اهتمّ بأكثر موضوعات الشعر العربي آنثذ ، فتناول في رجزه موضوعات النسيب ، والمديح ، والفخر ، والتعريض ، والوعظ ، والحكمة ، وما يتفرع عن هذه الموضوعات من أغراض ومعان مختلفة .



الفصل الخامس

الخصائص الفنية في رجزه

لاشك أننا في دراسة موضوعات العجاج ، قد عرضنا لبعض الخصائص الفنية في رجزه ، ولا سيما حين تناولنا موضوع الوصف ، وبيننا طرائق العجاج الفنية في التصوير . وهنا سنخص هذا الفصل بدراسة الخصائص المعنوية ، ثم الخصائص اللفظية ، وبذلك تتكامل لدينا شيئاً فشيئاً صورة جلية للخصائص الفنية في رجز العجاج .

١ - الخصائص المعنوية

إن أول ما يبرز لنا في معاني العجاج أنها تترجح بين الوضوح والغموض ، فتارة تبرز المعاني واضحة لا غموض فيها مطلقاً ، وطوراً تبدو جلية لا يشوبها إلا بعض الألفاظ الغريبة ، وأحياناً تظهر غامضة لأسباب كثيرة جداً . أما الوضوح المطلق فهو قليل نسبياً في أراجيزه ، وأكثر ما صادفه في وعظه أو غزله أو بعض المقطعات القصيرة ، ومثال ذلك قوله في الوعظ^(١) :

فالحَمْدُ لِلَّهِ العَلِيِّ الأعْظَمِ .
ذِي الجَبَرُوتِ والجَلالِ الأفْخَمِ .

(١) الأرجوزة ٣٩/٢٤ - ٤٤ .

وعالم الإعلان والمكتم . ورب كل كافر ومسلم .
 والساكن الأرض بأمر محكم . بنى السموات بغير سلم .
 وفي هذه الآيات لا إغراب في الألفاظ ، ولا غموض في المعاني ،
 ذلك لأنها لا تستمد المعاني والأخيلة من نفحات الصحراء ، وإنما تستمدها من
 الدين الخفيف ، فتأتي سهلة واضحة كأنها تقرب من أساليب الفثر الفني .
 ومثل هذه الآيات قل أن تصادف في أراجيزه ، ذلك لأن من خصائص
 مدرسة الرجز - كما سنرى - الإغراب في ألفاظ اللغة ، ولهذا غالباً ما نجد
 وضوح المعاني رهناً بفهم الألفاظ اللغوية الغريبة في آيات العجاج ، وربما
 قلت هذه الألفاظ فلم تحوج إلى كبير عناء ، كقوله (١) :

بِاذِكْرَةٍ ذَكَرْتُ لِيْلَى بَعْدَمَا جَالِ الْفُؤَادِ جَوْلَةً وَاسْتَهْزَمَا
 وَاسْتَبَدَلْتُ لِيْلَى حِمَامَةً وَحَمَا قَامَتْ تُرْبِيكَ خَشِيَّةً أَنْ تُضْرَمَا
 سَاقًا بِخَنْدَاةٍ وَكَعْبًا أَدْرَمَا وَكَفَلًا وَعَنَّا وَكَشْحًا أَهْضَمَا

وتارة تكثر الألفاظ الغريبة في الآيات ، فلا يفهم المعنى إلا بعد
 ريث وإبطاء ، وعود إلى معاجم اللغة ، وسؤال عن معاني الألفاظ واحدة
 بعد أخرى ، ومن ذلك قوله (٢) :

وَبَلَدَةٍ نِيَّاطِهَا نَطِيءُ قِيٍّ تَنَاصِيهَا بِيْلَادٍ قِيءُ
 الْخَيْمِسُ وَالْخَيْمِسُ بِهَا جُلْدِيءُ نَقَطَعُهَا وَقَدْ وَنَى الْمَطِيءُ
 رَكْضَ الْمَدَاكِي وَاتَّلَى الْحَوِيءُ وَمُخْذِرُ الْأَبْصَارِ أَخْدَرِيءُ
 حَوْمٌ غَدَافٌ هَيْدَبٌ حُبْشِيءُ لِحْجٌ كَأَنَّ ثَنِيَّةً مَثْنِيءُ

ومها كثر الغريب في هذه الألفاظ ، فالمعاني واضحة جلية ، إذ لا نجد

(١) الأرجوزة ٩/٢١ - ١٤ .

(٢) الأرجوزة ٥١/٢٥ - ٥٨ .

غموضاً متى وقفنا على معاني الألفاظ الغريبة ، وهذا ما نصادفه غالباً في رجز العجاج ، إلا أن هذا الرجز ربما وجدنا فيه الغموض في المعاني لأسباب كثيرة ، وأبرزها ما اتخذته لنفسه من تصرف واسع في اللغة والتراكيب وبناء العبارة بوجه عام . فإذا أجابت معاجم اللغة إلى معاني الألفاظ الغريبة في رجزه ، فالمعنى واضح لاغموض فيه ولا إبهام ، ولكنها ربما أحجمت أحياناً ، فلم نجد فيها شرحاً لهذه الكلمة أو تلك ، وبذلك نجد انفسنا أمام مشكلة غامضة لايتيسر فهمها في غالب الأحيان ، وقد كان هذا شأن الأصمعي نفسه في شرحه للديوان ، فقد أنشد هذا البيت (١) :

هَشْمَكَ حَوْليَ الهَيْدِ آرِكَ

ثم قال : « ويروي : الراتكا ... والرتك أن تقارب الخطو وتسرع المشي . قال الأصمعي : وأما قوله : الهيد الراتكا ، فإن هذا لا أدري ماهو » . وأنشده ابن قتيبة بالرواية الثانية ثم أشار إلى الأصمعي ، فقال : « وقال : لا أدري ما الهيد الراتك ، غير أن الرتك مقاربة الخطو . وقال بعضهم : إن الحنظل يؤخذ فيلقى حبه في حوض ويصب عليه الماء مراراً ، ثم يوطأ بالأرجل ويدلك ذلكاً شديداً ، فإذا طاب الماء ، أخرج وجفف ثم جش فطيبخ به واتخذ منه السويق . يريد بالراتك المرتوك فيه » (٢) .

فالمعنى في البيت غامض لأن العجاج أتى بلغة غير معروفة على ما يبدو حتى بالنسبة للأصمعي نفسه ، وهذا ما يحدث أيضاً إذا ما أتى بلغة تحتل أكثر من وجه واحد ، ومن أمثلة ذلك قوله (٣) :

(١) الأرجوزة ٧/٥ .

(٢) المعاني الكبير ٩٨٦/٢ .

(٣) الأرجوزة ٣٣/٣٧ - ٤٠ .

أَزْمَانٌ أَبَدَتْ وَاضِحاً مُفْلَجاً أَعْرَبَ بَرَأْفًا وَطَرَفًا أَبْرَجَا
 وَمُقَلَّةٌ وَحَاجِبًا مُزَجَّبًا وَفَاحِمًا وَمَرْسِنًا مُسَرَّجًا

فَوُصِّفَهُ لِلرَّسَنِ ، وَهُوَ الْأَنْفُ ، بِأَنَّهُ مُسَرَّجٌ ، غَيْرٌ وَاضِحٌ تَمَامًا ،
 لِأَنَّهُ يَحْتَمِلُ أَكْثَرَ مِنْ وَجْهِ وَاحِدٍ ، حَتَّى قَالَ الْخَطِيبُ الْقَزْوِينِيُّ : « إِنَّهُ لَمْ
 يُعْرَفْ مَا أَرَادَ بِقَوْلِهِ مُسَرَّجًا ، حَتَّى اخْتَلَفَ فِي تَخْرِيجِهِ ، فَقِيلَ : هُوَ مِنْ
 قَوْلِهِمُ لِلسُّيُوفِ سَرِيحِيَّةٌ مَنْسُوبَةٌ إِلَى قَيْنٍ يُقَالُ لَهُ : سَرِيحٌ ، يَرِيدُ أَنَّهُ فِي الْاِسْتِوَاءِ
 وَالِدَقَّةِ كَالسُّيُوفِ السَّرِيحِيِّ . وَقِيلَ : مِنَ السَّرَاجِ ، يَرِيدُ أَنَّهُ فِي الْبَرِيقِ
 كَالسَّرَاجِ » (١) .

وَمِنْ ثَمَّ كَانَ بَعْضُهُمْ يَجْعَلُ « الْمَسَرَّجِ » فِي الْبَيْتِ بِمَعْنَى الْمُحَسَّنِ (٢) ،
 وَبَعْضُهُمْ يَجْعَلُهُ بِمَعْنَى الْاِسْتِوَاءِ وَالِدَقَّةِ ، أَوْ يُشِيرُ إِلَى الْاِخْتِلَافِ فِي مَعْنَاهُ (٣) .
 وَالْمَهْمُ أَنَّ الْأَصْمَعِيَّ لَمْ يَسْمَعْ بِهَذَا الْوَصْفِ إِلَّا فِي رَجْزِ الْعَبَّاجِ ، وَمَا عَرَفَ
 مَعْنَاهُ إِلَّا بِسُؤَالِهِ أَعْرَابِيًّا عَنْهُ ، قَالَ ابْنُ دَرِيدٍ : « وَأَنْفٌ مُسَرَّجٌ : دَقِيقٌ ،
 قَالَ الْأَصْمَعِيُّ : مَا كُنْتُ أَعْرِفُ الْمَسَرَّجَ وَلَمْ أَسْمَعْ إِلَّا فِي بَيْتِ الْعَبَّاجِ :
 (الْبَيْتُ) ، فَسَأَلْتُ أَعْرَابِيًّا عَنْهَا ، فَقَالَ : أَتَعْرِفُ السَّرِيحِيَّاتِ ، يَعْنِي
 السُّيُوفَ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ! قَالَ : ذَاكَ . أَرَادَ أَنَّ الْأَنْفَ دَقِيقٌ كَالسُّيُوفِ
 السَّرِيحِيِّ ، وَهُوَ مَنْسُوبٌ إِلَى قَيْنٍ يُسَمَّى سَرِيحًا . وَقَالَ آخَرُونَ : مُسَرَّجًا ،
 أَرَادَ مَنِيْرًا كَلَوْنِ السَّرَاجِ (٤) .»

- (١) شرح الإيضاح ١١/١ .
 (٢) انظر المخصص ١٥٤/٢ ، والأزمنة والامكنة ٣٢٥/٢ ، وأسرار البلاغة
 ٣٠ ، والمفردات في غريب القرآن ٢٢٩ ، والمقاصد النحوية ٣٥/١ ، وشرح
 شواهد المغني ٢٦٩ .
 (٣) انظر جمهرة اللغة ٣٣٨/٢ ، والصحاح ٣٢٢/١ ، وصبح الأعشى
 ٢٠٥/٢ ، ومختصر المعاني للتفتازاني ٩ ، ومتن التلخيص ٥ ، واللسان (سرج) .
 (٤) جمهرة اللغة ٧٦/٢ .

فالغموض قد يترتب إذن على لغة العجاج نفسه ، ولكنه لا يقتصر عليها وإنما يتعداها إلى ولوع العجاج بالقلب المعنوي ، ومن أمثلة ذلك ما نقله المرزباني ، فقال : « أخبرني الصولي قال حدثنا القاسم بن اسماعيل قال حدثنا محمد بن سلام قال : سمعت يونس يقول : كان رؤبة عندي ، فقال له رجل مامعنى قول العجاج :

وَحَبَسَ النَّاسُ الْأُمُورَ الْحُبْسَا

فقال له رؤبة : قلبه وبئلك (١) .

فالمعنى قد استغلق في البيت بهذه الرواية لما فيه من قلب معنوي ، وأصله « حبس الأمور الناس » ، وأمثلة هذا القلب كثيرة في رجز العجاج ، وهي غالباً ماثير الغموض في أبياته .

ومن أسباب الغموض أيضاً طريقة العجاج في بناء بعض التراكيب بناء يكثر فيه الحذف ، أو التقديم والتأخير ، وما أشبه ذلك . فإذا أكثر من الحذف ، أصبح المعنى غامضاً جداً ، لا يفهم إلاّ بعد كدّ وعناء في التأويل والتقدير ، ومن ذلك قوله (٢) :

وقد يسامي جنهنّ جنّي في غيظلاتٍ من دجّ الدجّن
بمنطقٍ لو أنني أسني حياتٍ هضبٍ جئن أولو آني
في خرّعبٍ أسودٍ مستجنّ

فقد حذف متعلق « في خرّعب » في البيت الأخير ، والتقدير : « أو لو أني أنفخ في خرعب » ، ولولا هذا التقدير لما فهم البيت ، ولا سيما أن

(١) الموشح ٢١٨ - ٢١٩ ، والبيت من الأرجوزة ٦٤/١١ ، ورواية الديوان « وحابس الناس » وقال الأصمعي في شرحه : « يقول : حبسوها وحبستهم » .

(٢) الأرجوزة ٢٦/١٦ - ٣٠ .

الحرع لم تشرح من قبل الأصمعي ولا وجود لها في المعاجم ، أضيف إلى ذلك أن المعنى في الآيات الأولى جاءت فيه مسحة من التائق بُعْداً من العجاج عن المعاني الصريحة في مثل هذا الموضوع .

وقد يجتمع الحذف في تراكيبه مع احتمالات أخرى ، فلا يزداد المعنى إلا غموضاً ، ومن ذلك قوله في حمار الوحش والأذن^(١) :

كَأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ حِمَارًا بَيْنَ تَالِي النَجْمِ حِينَ غَارَا
فَقَوْلُهُ « بَيْهِنٌ » أَصْلُهُ « بَطْرَدَهُنَّ » ، فَاسْقَطَ مِنْهُ الْمُضَافُ ، فَأَدَّى إِلَى شَيْءٍ مِنَ الْغُمُوضِ فِي الْمَعْنَى ، وَعَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ جَاءَ شَرْحُ الْأَصْمَعِيِّ لِلْبَيْتِ ، وَلَكِنْ الْمَرْزُوقِيُّ رَأَى فِيهِ شَيْئاً آخَرَ ، فَقَالَ : « وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ (بَيْنَ) بَطْرَدَهُنَّ فَحَذَفَ الْمُضَافُ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَرِيدَ بِاجْتِمَاعِهِ مَعْنَى وَيَكُونُ فِي الْبَاءِ تَقْدِيرَانِ : أَحَدُهُمَا أَنْ يَكُونَ الْعَامِلُ فِيهِ مَا فِي كَأَنَّ مِنْ مَعْنَى الْفِعْلِ أَيِ شَبْهِ الْعَيْرِ تَطْرُدُهُ الْأَتْنُ تَالِي النَجْمِ . وَالْآخَرُ أَنْ تَعَلَّقَهُ بِكَأَنَّ أَيِ لَوْ لَمْ يَكُنْ حِمَارًا بَطْرَدَهُنَّ أَوْ بِالاجْتِمَاعِ مَعْنَى ، وَالْمَعْنَى أَنْ كَوْنَهُ حِمَارًا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كِتَابِي النَجْمِ عَلَى الْحَقِيقَةِ وَإِنْ كَانَ كَوْنَهُ خَلْفَهَا كَكَوْنِ الدَّبْرَانِ خَلْفَ الثَّرْيَا^(٢) » .
فَالْحَذْفُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَوَاضِعِ يَجْعَلُ فِي الْمَعَانِي غُمُوضاً لَا يَفْهَمُ شَيْءٌ مِنَ الْبَسْرِ وَالسَّهُولَةِ ، وَكَذَلِكَ الْأَمْرُ إِذَا مَا عَاطَلُ فِي عِبَارَتِهِ فَقَدَّمَ عَلَى هَوَاهُ فِي بِنْيَةِ الْبَيْتِ ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ فِي وَصْفِ الثَّوْرِ^(٣) :

كَأَنَّ مِنْ سَبَائِبِ الْغِيَاطِ كَتَّانَهَا أَوْ سَنَدٍ أَشْمَاطِ
عَلَيْهِ جَلًّا بَاقِي السَّطِّ غَيْرِ الشَّوَى وَمَوْضِعِ الْعِلَاطِ
وَالفَطْمِ عِنْدَ تَحْقِينِ الْإِسْعَاطِ

(١) الأرجوزة ٦٢/٣٤ - ٦٣ .

(٢) الأزمئة والامكنة ٣١٩/٢ .

(٣) الأرجوزة ٢٢/٢٠ - ٢٦ .

فهذه الأبيات لا تفهم بسهولة قبل إعادة النظر إليها ، بتقديم ما تأخر ، وتأخير ما تقدم ، ذلك لأن تقدير الكلام : « كان عليه جلا من سبائب الحياط غير الشوى .. » ، يريد عليه جلا أيضا غير مواضع من جسده يُرى فيها سواد .

وهذا الغموض يتركز في رجز العجاج ، حين يتصرف بالألفاظ ، ويخرج على بنيتها في اللغة ، ويأتي بصيغ لم تسمع إلا في رجزه ، ومن الصعوبة بمكان أن يقطن المرء أحيانا إلى أصولها في اللغة ، ومن ذلك قوله معرضاً بالمختار الثقفي^(١) :

قَدْ عَلِمَ الْمُخْتَارُ إِذْ جَدَّ الْجِيَا وَبَلَغَ الْمَاءُ حَلَاقِيمَ الزُّهْبِي
مِنَ الَّذِي غَيَّقَ تَغْيِيقَ الصَّبَا

ومن أين لنا أن ندرك بسهولة أن « الصبا » هنا يريد بها « الصبيان » . وقال الأصمعي في شرحه : « يقول : من الذي ماج كما يموج الصبيان ولم يقو أمره » . ومن ذلك أيضا قوله يفتخر بالفرد من أبناء قبيلته^(٢) :

أَعْدَاؤُهُ ذَلُّوا وَمَا تَأَيَّسَا يَهْتَضِمُ الْقُسَا وَإِنْ رِيمَ قَسَا

و« القسا » لم يشرحها الأصمعي ، ولا وجود لها في اللغة ، لأنها نتيجة تصرف من العجاج أبعدها عن أصل بنائها اللغوي ، وكيف لنا أن نفهم البيت ، قبل أن نكد الذهن لنورد الكلمة إلى أقرب أصل يمكن أن تعود إليه ، ولذلك لا بد من الإيغال في التقدير حتى نصل بها إلى « القساة » أو « القسا » جمعاً لـ « قاس »^(٣) .

(١) الأرجوزة ٣٦/٧ - ٣٨ .

(٢) الأرجوزة ٧٥/١١ - ٧٦ .

(٣) انظر تعليقتنا على البيت في شرح الديوان .

وأمثال هذا التصرف في رجزه كثير جداً ، وغالباً ما يبعث على الغموض في معاني الأبيات ، ومنه ما أتى الأصمعي بشرح أو تقدير له ، ومنه ما تخلى عنه دون أن يدلي برأي فيه .

وبما تقدم ندرك أن الغموض له سلطان لا يخفى في رجز العجاج ، ولا ندري إذا كان للطبيعة أثر في إيجاد بعض الأسباب الداعية إليه ، ذلك لأن من الأخبار ما يدل على أن العجاج قد كان ينظم الأرجوزة المطولة أحياناً في ليلة واحدة ، ومن ذلك ما قاله ابن فتيبة : « ولما سُمِّيَ العجاج بقوله :
حَتَّى يَعْجَجَ عِنْدَهَا مَنْ عَجَّجًا^(١) »

قال : وقلت هذه الأرجوزة في ليلة واحدة واثالث علي انثيالاً^(٢) .
وقال الجاحظ : « قال العجاج : لقد قلت أرجوزتي التي أولها^(٣) :
بَكَيْتَ وَالْمُحْتَزِنُ الْبَكِيُّ وَإِنَّمَا يَأْتِي الصَّبَا الصَّبِيُّ
أَطْرَبًا وَأَنْتَ قِنْسَرِيُّ وَالدَّهْرُ بِالْإِنْسَانِ دَوَّارِيُّ
وأنا بالرمل ، في ليلة واحدة ، واثالث قوافيها انثيالاً ، وإني لأريد اليوم دونها في الأيام الكثيرة فما أقدر عليه^(٤) . »

وإذا صحت هذه الأقوال ، فذلك يعني أن العجاج ربما نظم بعض أرجوزته المطولة ، دون إبطاء أو روية ، ومن ثم كان لا بد أن تظهر بعض سمات الغموض في المعاني ، أو تبرز بعض ملامح التصرف الواسع في الألفاظ ، ولكن هذا قد يفسر جزءاً من رجز العجاج ، إلا أنه لا يكفي لتفسير

(١) الأرجوزة ١٤٦/٣٣ ، ورواية الديوان : « حتى يعجج ثخنًا » .

(٢) الشعر والشعراء ٥٧٣ .

(٣) الأرجوزة ١/٢٥ - ٤ .

(٤) البيان والتبيين ٢٠٩/١ ، وأشار إلى ذلك السيوطي في شرح شواهد

المفني ١٨ .

الظواهر العامة في رجزه كله ، ولا نعتقد أن الطبع وحده كان وراء تلك الأراجيز المتقنة التي يطالعنا بها ديوانه ، وأغلب الظن أن الأسباب الداعية إلى الغموض في رجزه ، لم تكن نتيجة لإرسال الشعر دون تثقيف ، وإنما كانت تصدر عن إيمان العجاج بأنه صاحب اللغة وله أن يتصرف بها كيف أراد ، بل ربما كان يتعمد ذلك ليعرض من صور الاغراب ما وسعه إلى ذلك من سبيل ، وينقل من نساخ الصحراء ما يعجز عنه الشعراء أجمع ولا سيما أن قصور الخلافة والأمانة ، ومجالس القبائل في المربد ، كانت كلها تؤيد هذا اللون الجديد من الشعر ، وترى فيه صورة لماضيها ، وأنفاساً لبيدائها ، ومعرضاً لألفاظ لغاتها أو لهجاتها ، وهذا أدعى إلى الصنعة منه إلى الطبع .

فرجز العجاج لا يخلو من صنعة وتثقيف ، إلا أن الصنعة لعصر العجاج كانت شبه امتداد لما كانت عليه في عصر ما قبل الإسلام ، وبذلك كانت تختلف اختلافاً جندياً عنها لدى المولدين من شعراء بني العباس ، من أمثال مسلم بن الوليد ، وابن المعتز ، وأبي تمام ، ومن سار على نهجهم من الشعراء . وقد يتبن ابن رشيقي مذهب الصنعة لعصر الجاهلية وما تبعه من العصر الاسلامي ، فقال : « ومن الشعر مطبوع ومصنوع ، فالمطبوع هو الأصل الذي وضع أولاً وعليه المدار ، والمصنوع وإن وقع عليه هذا الاسم فليس متكلفاً تكلف أشعار المولدين ، ولكن وقع فيه هذا النوع الذي سموه صنعة من غير قصد ولا تعمّل ، لكن بطباع القوم عفواً ، فاستحسنوه ومالوا إليه بعض الميل بعد أن عرفوا وجه اختياره على غيره ، حتى صنع زهير الحوليات على وجه التنقيح والتثقيف ، فكان يصنع القصيدة ثم يكرر نظره فيها خوفاً من التعقيب بعد أن يكون قد فرغ من عملها في ساعة أو ليلة ، وربما رصد أوقات نشاطه فتباطأ عمله لذلك . والعرب لا تنظر في أعطاف شعرها بأن

تجنس أو تطابق أو تقابل فتترك لفظة للفظة أو معنى لمعنى كما يفعل المحدثون ، ولكن نظرها في فصاحة الكلام وجزائته ، وبسط المعنى وإبرازه وإتقان بنية الشعر وإحكام القوافي وتلاحم الكلام بعضه ببعض^(١) .

فالصنعة في عصر العجاج كانت تتجه إلى العناية بالألفاظ فصاحة وجزالة ، والعناية بالمعاني بسطاً وإبرازاً ، مع إتقان لبنية الشعر وإحكام لقوافيه ، وبذلك لا تخرج صنعة الشاعر عن التثقيف والتجويد الذي عرف لشعراء الجاهلية ، وهذا ما يتضح من قول الدكتور شوقي ضيف : « على كل حال لم ينتقل العصر الاسلامي بالشعر العربي إلى مذهب جديد في صنع نماذجه ، وإنما المذهب القديم ، مذهب الصنعة الذي رأيناه في العصر الجاهلي ورعاه خير رعاية ، فقد أقبل صناع الشعر ببالغون في الاهتمام بحرفتهم ، وبوفرون لها كل ما يمكن من تجويد وتجميل^(٢) » .

ولهذا كانت المعاني في رجز العجاج لا تخلو من تجويد أو تجميل ، رغم أن الطبع كان من الخصائص البارزة في رجزه ، ولا شك أن من آثار هذا التجويد ما لمسه من خصائص فنية في رسم صورته ، والتقاط مشاهدته ، ومن ذلك ما نلاحظه في معانيه من تأتى وتخيير لما يروق ويعجب ، فإذا وصف الخمر تآتى في وصفها ، وابتعد عن شيء من أوصاف أصحابها ، فلم ير منها كأساً أو فقاعة أو نشوة ، وإنما وقف عند جوانب أخرى ، فتناولها بأسلوب جديد في عرضه واستقصائه^(٣) :

كَأَنَّ ذَا فِدَايَةِ مُنْطَفَا قَطْفَ مِنْ أَعْنَابِهِ مَا قَطَفَا
فَعَمَّهَا حَوْلَيْنِ ثُمَّ اسْتَوْدَفَا صَهْبَاءَ خُرْطُومًا عَقَارًا قَرَقَفَا

(١) العمدة ١/٨٣ .

(٢) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ٢١ .

(٣) الأرجوزة ١٧/٤٤ - ٢٣ .

فَشَنَّ فِي الْإِبْرِيْقِ مِنْهَا تُزْفًا مِنْ رَصْفٍ نَازِعٍ سَيْلًا رَصْفًا
حَتَّى تَنَاهَى فِي صَهَارِيَجِ الصَّفَا

إنه نَحِيْرٌ مِنَ الْمَعَانِي مَا يَثِيْرُ فِي الْحِيَالِ صَوْرًا مِتْلَاحِقَةً ، تَنْتَقِلُ بِهِ
مِنَ الْحَقُولِ وَقَطْفِ الْأَعْنَابِ ، إِلَى حَانَةِ الْحَمَارِ عَصْرًا وَتَقْطِيْرًا وَتَعْتِيْقًا ،
إِلَى مَزْجِ تِلْكَ الْحَمْرَةِ بِنَاءِ صَافٍ لَا كَدْرَ فِيهِ ، وَقَدْ تَأْتَقُ فِي وَصْفِ الْحَمْرَةِ ،
فَجَعَلَهَا صِهْبَاءَ خَرْطُومًا قَرْقَفًا ، وَتَأْتَقُ فِي رَسْمِ صَفَاءِ الْمَاءِ ، فَجَعَلَهُ مِنْ سَيْلٍ لَمْ
يَتَحَدَّرْ عَلَى رِمَالٍ أَوْ أُتْرُبَةٍ ، وَإِنَّمَا جَرَى مِنْ رَصْفٍ إِلَى رَصْفٍ حَتَّى اجْتَمَعَ
فِي حِيَاضٍ مِنَ الْحَجَارَةِ ، وَهَذَا أَصْفَى مَا يَكُونُ لَهُ وَأَرْقُ ، وَكَانَ الْمُعْرِي
يَعْجَبُ بِهَذِهِ الْمَعَانِي عِنْدَ الْعَجَاجِ^(١) ، وَمَا تَزْدَادُ بِهِ إِعْجَابًا أَنَّهُ لَا تَنَافِي مَا عُرِفَ
عَنِ الْعَجَاجِ مِنْ عَزُوفٍ عَنِ الْحَمْرَةِ أَصْلًا ، لِمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ وَرَعٍ وَإِيْمَانٍ
إِسْلَامِي خَالِصٍ .

وَتَضَيَّرُ الْمَعَانِي لَا يَقْتَصِرُ عَلَى شَاهِدٍ فَرْدٍ فِي رَجَزِ الْعَجَاجِ ، وَإِنَّمَا هُوَ سَمَةٌ
يَكُنُ أَنْ تَلْقَانَا فِي كُلِّ أَرْجُوزَةٍ لَهُ ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا مِنْ آثَارِ الصَّنْعَةِ وَالتَّجْوِيدِ ،
وَلِئِنْ كَانَ كَثِيْرٌ تَمِيْذُ الْمَدْرَسَةِ الْأَوْسِيَّةِ ، قَدْ عَنِيَ بِأَسَالِيْبِ أَسْتَادِهِ زَهِيْرِ بْنِ
أَبِي سَلْمَى ، فَكَانَ « يَعْجَبُ كَزَهِيْرٍ بِالصُّوْرِ الْبَيَانِيَّةِ ، وَكَانَ يَطْلُبُ فِيهَا أَنْ
يَقَعَ عَلَى الْغُرَائِبِ وَالطَّرَائِفِ حَتَّى يَسْتَوِي عَلَى إِذْهَانِ النَّاسِ وَعَقُولِهِمْ »^(٢) ، فَقَدْ
كَانَ الْعَجَاجُ أَيْضًا مِنْ أَعْجَبِ هَذِهِ الصُّوْرِ ، وَاتَّجَهَ إِلَى أَسَالِيْبِ الْمَدْرَسَةِ
الْأَوْسِيَّةِ ، إِذْ لَمْ تَكُنْ خِصَائِصُ هَذِهِ الْمَدْرَسَةِ وَقَفًّا عَلَى الْجَاهِلِيَّةِ ، وَلَمْ تَكُنْ
كَذَلِكَ فِي الْإِسْلَامِ ، وَإِذَا كَانَ الدُّكْتُورُ طَهْ حَسِيْنٌ قَدْ صَنَّفَ هَذِهِ الْخِصَائِصَ
وَرَأَاهَا تَبْرَزُ فِي أَشْعَارِ جَمَاعَةِ بَعِيْنِهَا مِنْ شِعْرَاءِ مَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَبَعْدَهُ^(٣) ، فَهَذَا

(١) رسالة الغفران ٢٤ - ٢٥ .

(٢) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ٢٢ .

(٣) انظر كتابه الأدب الجاهلي ٣٣٦ .

لا يعني أن تلك الخصائص لم تكن في أشعار غيرهم من معاصريهم ، بل نرى
أن هذه الخصائص كانت سمة عامة تميز أشعار الفحول جميعاً من شعراء الجاهلية
والعصر الاسلامي .

ولهذا كان ابن معمر عند العجاج أشبه بطائر يضم جناحية ، ثم ينقض
مسرعاً من الشام إلى الحرورية بالهامة^(١) :

دانى جناحيه من الطورِ فمرَّ تقضيّ البازي إذا البازي كسر
وغدا للصبح أعناق تعلو في أعجاز الليل^(٢) :

حتى ترى أعناق مصبح أبليجاً تسورُ في أعجاز ليل أدعجاً
كما رأيت اللهب المؤججاً

وقد أراد بذلك أوائل الصبح وماخير الليل ، فجعل يياض الصبح
وحمرته يبدو في أواخر الليل المظلم أشبه باللهب المتوقد ، وهي صورة حسية
لاتخلو من روعة وطرافة .

بل إن الصبح ربما أصبح حادياً يحدو ظلام الليل^(٣) :

حتى إذا مامدق الإسحارا أغرَّ يحدو مظليماً قيّارا
وقد رأى في الأفق اشقاراً وفي جناحي ليله اصقاراً

وهذه صورة أخرى ذهبت إلى الطرافة كلّ مذهب ، فقد جعل ظلام
الليل أشبه بالإبل يسوقها ذلك الصبح إلى نهاية لا بد منها ، بل زادها تأثقاً
حين جعل الليل طائراً أسود ، يبدو على أجنحته صفرة من ضياء الشفق .

فالليل تارة له أعجاز ، وطوراً له أجنحة ، وحيناً له رداء يلبس به

(١) الأرجوزة ٧٤/١ - ٧٥ .

(٢) الأرجوزة ٦٤/٣٣ - ٦٦ .

(٣) الأرجوزة ٤٦/٣٤ - ٤٩ .

كل شيء^(١) :

وَمَهْمَةٍ هَالِكٍ مَن تَعَرَّجًا هَائِلَةً أَهْوَالُهُ مَن أَدَلَّجًا
إِذَا رِدَاءٌ لَيْلِيهِ تَدَجَّدَجًا

وإذا تحدث العجاج عن أيام صباه ، جعل للصبا ثوباً يمكن أن يبلى
ويتمزق ، وقد لبس وشي هذا الثوب ، وتحسَّن به بين الناس دهرأ من
شبابه^(٢) :

فإن يكن ثوب الصبأ تَصَرَّجًا فقد لبسنا وشيَه المَبْرُجًا
عَصْرًا وَخُضْنَا عَيْشَةَ الْمُعَدَّلَجَا

فالعجاج كان يسعى إلى تجويد معانيه ، وإذا كنا قد رأيناه كلفا
بالتصوير عن طريق الألفاظ الموحية المعبرة ، فانه لم يغفل - كما رأينا - حلية
الصور البيانية ، التي عرفت في أسلوب زهير وأصحاب مدرسته . وهذه الصور
في أشعار الجاهلين والاسلاميين ، ولا سيما أصحاب المدرسة الأوسية ، كانت
تنتزع من البيئة الحسية المادية ، ذلك لأنهم كانوا يستمدون معانيهم من هذه
البيئة الحسية التي يحيون فيها ، ويتأثرون بها ، ولهذا جاء التشبيه لديهم حسيًا
ماديا منتزعا من البيئة المادية نفسها^(٣) .

وكل ما رأيناه من أمثلة للصور البيانية عند العجاج ، كان يستمد التشبيه
من بيئته المادية ، ثم يبنه بناء حسيًا ، يمكن أن يتمثل للعين أو لأي حاسة
أخرى ، ولا يتبغي منه أحياناً غير الوضوح وحسن التمثيل لما يطلبه من
معان أو صور في رجزه ، فاذا أراد مثلاً أن يتحدث عن الحرورية مال إلى

(١) الأرجوزة ٥٨/٣٣ - ٦٠ .

(٢) الأرجوزة ٥٥/٣٣ - ٥٧ .

(٣) انظر العصر الجاهلي للدكتور شوقي ضيف ٢٢٠ وما بعدها .

التشبيه الحسي ، فجعلهم كالساري في ظلام الليل ، فهم يقاسون داباً وسهراً
وظلاماً ، ثم لا يدرون أنهم إلى مهلكة سائرون (١) :

كانوا كما أظلم لَيْلٌ فانسَفَرَ
عن مُدْلِجٍ قاسى الدُّؤوبَ والسَّهَرَ
وتخدرَ اللَّيْلَ فَيَجْتَابُ الغَدَرَ
وغبراً قَتْمًا فَيَجْتَابُ الغَبَرَ
في بَيْتِ لَأُحُورٍ سَرَى وما شَعَرَ

فهذا الظلام لا يريد به العجاج غير ضلالة الحرورية وما اتخذوه لأنفسهم
من خروج على عامة المسلمين ، إلا أنه جاء بهذا المعنى في إطار حسي مادي ،
وذلك ليقربه من الأفهام ، ويجعله أمراً مسلماً به ، إذ أن المدلج قد تفضل
به الطريق ، مادام يسري في ظلام دامس .

فالتشبيه الحسي ، على قلته نسبياً في معاني العجاج كانت له أغراض
لا تخفى في رجزه ، فهو إما أن يكون الوسيلة المفضلة لنقل الوصف من
موضوع إلى آخر ، وإما أن يتجه إلى توضيح المعاني ، أو تحسين الصور .
وحرص العجاج على توضيح معانيه ، وتقريبها من الأفهام ، وإثباتها في
الأذهان ، كان دافعاً قوياً إلى الاكثار من ضرب الأمثال الحسية في معانيه ،
ذلك لأن الأمثال تجعل المعنى أقرب إلى الفهم ، وأثبت في الذهن ، وأدعى
إلى الأخذ به ، والاعتناع بما جاء فيه ، وربما أورد من الأمثال ما عرفته العرب
قبله ، وربما صاغ من المعاني ما يصبح أمثالاً على ألسنة الناس من بعده .

فإذا أراد العجاج أن يتحدث عما أصاب الناس من بلاء الحوارج ،
ألبس معناه ثوباً حسيماً ، وأخرجه في إطار من الأمثال ، فقال (٢) :

فقد علا الماء الزُّبَى فلا غَيْرَ
واختارَ في الدِّينِ الحَرُّورِيَّ البَطْرَ

(١) الأرجوزة ٣٦/١ - ٤٠ .

(٢) الأرجوزة ٣٣/١ - ٣٤ .

وقد جاء بهذا المعنى من قول العرب : « قد علا الماءُ الزهبيُّ » ،
 فضربه مثلاً للأمر إذا تجاوز حدّه ، وبلغ غايته وأقصاه (١) .
 وإذا عاد إلى الخوارج ليقول : إنهم قد بالغوا في أمرهم ، حتى انتشر
 عليهم ، فخالقوا الناس أجمع ، أخرج هذا المعنى أيضاً في لبوس الأمثال ،
 فقال (٢) :

يا عمر بن معمر لا مُنتظَرٌ بَعْدَ الَّذِي عَدَّ الْقُرُوصَ فَحَزَرَ
 مِن أَمْرِ قَوْمٍ خَالَفُوا هَذَا الْبَشَرَ

وقد أتى بهذا المعنى من قول العرب : « عدا القارصُ فحزَرَ » ،
 يضربونه مثلاً للأمر إذا تقادم (٣) .

فهذه الأمثال وما إليها قد استمدتها العجاج من التراث العربي القديم ،
 ولكنه ربما صاغ بعض المعاني في إطار المثل الحسي ، وأطلقها لتكون أمثلاً
 على أسنة الناس من بعده ، فإن أراد حثاً لابن معمر حتى يوقع بالحرورية
 في هجر حاضرة البامة ، قال له (٤) :

لا قَدَحَ إن لم تُورِ ناراً بِهَجَرَ ذاتَ سناً يوقِدُها مِنِ افْتَخَرَ

وقد ذهب هذا مثلاً ، فقال الأصمعي في شرح البيت : « ويقال للرجل
 إذا أنجح : ورئتُ بكَ زِنادِي بِهَجَرَ » ، وأنشد الميداني البيت الأول ،
 ثم قال : « هذا للعجاج يخاطب عمر بن معمر ، يقول : إن قدحت في كل

(١) انظر الكامل للمبرد ١٨/١ ، وأضداد الأصمعي ٥٥ ، وأضداد
 السجستاني ٢٠٦ ، والقصور والمدود لابن ولاد ٥١ ، والخزانة ٤٩٨/٢
 (بولاق) .

(٢) الأرجوزة ١٣٠/١ - ١٣٢ .

(٣) انظر مجمع الأمثال ٢١/٢ ، والمعاني الكبير ٨٥٦/٢ ، ١١٣٩ ،
 وجمهرة اللغة ١٣٠/٢ ، واللسان (قرص) . والقارص : اللبَنُ يَحْدِي
 اللسان . والحازر : الحامض جدا .

(٤) الأرجوزة ١٢٧/١ - ١٢٨ .

موضع ، فليس بشيء حتى تُورِي بِهِجَرَ . يُضْرَبُ لِمَنْ تَرَكَ مَا يَلْزِمُهُ فِي .
طلب حاجته (١) .

وإذا أراد التهكم بأصحاب ابن الأشعث ، قال عنهم (٢) :

جَاؤُوا مُخْلِئِينَ فَلَاقُوا حَمَضًا طَاغِينَ لَا يَزْجُرُ بَعْضُ بَعْضًا

وقد تحول البيت الأول إلى مثل ، فذكر القالي أن أبا بكر ابن دريد قال :
« هذا البيت يضرب مثلاً لكل من أتى متهدداً فصادف ما يقمع تهدده . قال :
والعرب تقول : أنت مُخْتَلٌّ فَتَحَمَّضُ » (٣) . وقال البكري : « يعني أن
الإبل بأكل الخلة تشتهي الحمض ، فضربه مثلاً ، يقول : جاءوا يشتهون
القتال فلاقوا من يقاتلهم ويشفيهم » (٤) .

فالحرص على جعل المعاني قريبة المأخذ ، سهلة المتناول ، هو الذي حدا
بالعجاج إلى الإكثار من الأمثال في رجزه ، وهذا يتفق تماماً مع الطابع
الحسي المادي للتشبيه في معانيه ، وهذا الطابع الحسي لم يكن غريباً عن
العجاج ، لأنه رغم انتقاله إلى بيئة البصرة ، ورحلته إلى بيئات الحجاز والشام ،
فقد بقي على صلة وثيقة جداً بروح الصحراء ، ولم يستطع أن يتخلى عن تأثير
البادية في طبعه أو رجزه ، ولم يتمثل كل ما وجدته من مظاهر الحضارة الجديدة ،
أو ما دقّ عند الفقهاء من المفاهيم حول بعض المعاني في العقيدة الإسلامية .
ولهذا كان يؤخذ على العجاج بعض المعاني التي تتنافى مع ثقافته البدوية
أو طبعه الأعرابي ، ومن ذلك قوله (٥) :

(١) مجمع الأمثال ٢/٢٣٠ .

(٢) الأرجوزة ٩/٦ - ١٠ .

(٣) أمالي القالي ١/١٩١ .

(٤) سمط اللالي ٧٤ .

(٥) الأرجوزة ١٩/٥٢ - ٥٧ .

كَانَ عَيْنَهُ مِنَ الْغُؤُورِ بَعْدَ الْإِنْتَى وَعَرَقِ الْغُرُورِ
قَلْتَانِ فِي لِحْدَيْهِ صَفَاً مَنْقُورِ أَذَاكَ أَمْ حَوَّجَلْنَا قَارُورِ
غَيْرَتَا بِالنَّضْحِ وَالتَّصْيِيرِ صَلَاصِلِ الزَّيْتِ إِلَى الشُّطُورِ

فجعل الزجاج ينضح ويرشح فكان هذا من المأخذ عليه عند عدد من النقاد^(١) ، وما أخطأ فيه إلا لأن الزجاج ليس من المظاهر التي تعودتها عينه في بديانه .

وما أخذ عليه أيضاً ، قوله يصف ثوراً^(٢) :

كَأَنَّهُ سِبْطٌ مِنَ الْأَسْبَاطِ

وقال فيه ابن دريد : « والسبب واحد الأسباط ، وهم أولاد اسرائيل اثنا عشر سبطاً ، كل سبط قبيلة ، هكذا فسر في التنزيل والله أعلم . وغلط العجاج أو روبة فقال : (البيت) ، أراد رجلاً وهذا غلط »^(٣) . وغلط العجاج يرتد إلى أنه لم يفهم بدقة معنى « الأسباط » الواردة في القرآن الكريم^(٤) .

وقد زلت قدم العجاج أيضاً في معان أخرى ، لما كان عليه من جفاء أعرابي ، ومن ذلك قوله^(٥) :

يَا رَبِّ لَا أَدْرِي وَأَنْتَ الدَّارِي

وقد أخذ هذا على العجاج لعدم علمه بما يُطلق على الله تعالى من

(١) الشعر والشعراء ٥٧٤ ، والعقد الفريد ٦/٢٠٤ - ٢٠٥ ، وكتاب الصناعتين ٦٧ .

(٢) الأرجوزة ٣٣/٢٠ .

(٣) جمهرة اللغة ١/٢٨٤ ، وقال بمثل ذلك في جمهرة اللغة ٢/٥٠٤ ، والاشتقاق ١٣٢ .

(٤) سورة البقرة ٢/١٣٦ ، ١٤٠ ، وآل عمران ٣/٨٤ ، والنساء ٤/١٦٣ ، والأعراف ٧/١٦٠ .

(٥) الأرجوزة ٤/٢٥ .

الصفات ، فقال أبو حيان الأندلسي : « وأُسْنِدَ الْعِلْمِ اللهُ وَالِدْرَايَةُ لِلنَّفْسِ ، لما في الدراية من معنى النخلة والحيلة ، ولذا وُصِفَ اللهُ بِالْعَالِمِ وَلَا يُوصَفُ بِالْإِنْسَانِيِّ ، وأما قوله : (البيت) ، فقول عربي جلف جاهلي جاهل بما يُطْلَقُ على الله من الصفات وما يجوز منها وما يمتنع » (١) . وقال الراغب الأصفهاني : « والدراية لا تستعمل في الله تعالى ، وقول الشاعر : (البيت) ، فمن تعجرف أجلاف العرب » (٢) . وجعل ابن سيده هذا المعنى غير جائز على العالم بنفسه ، وذهب بالبيت إلى أنه من غلط الاعراب (٣) .

ومثل هذا قوله أيضاً (٤) :

فَارْتَاخَ رَبِّي وَأَرَادَ رَحْمَتِي

وقال الأصمعي في شرحه : « ولا يقال : الله ارتاخ ، ولكنه أعرابي مجنون جلف جاف » . وقال ابن سيده : « ونزلت به بليّة فارتاخ الله له برحمته فانقذه منها ، وقال العجاج : (البيت) ، أي نظر إليّ ورحمني ، فأما الفارسي فجعل هذا البيت من جفاء الأعراب » (٥) . وقال ابن منظور : « قال الأزهري : قول رؤبة (٦) في فعل الخالق ، قاله بأعرايته ، قال : ونحن نستوحش من هذا اللفظ ، لأن الله تعالى إنما يوصف بما وصف به نفسه ، ولولا أن الله تعالى ذكره ، هداانا بفضلته لتمجيده وحمده بصفاته التي أنزلها في كتابه ، ما كنا لنتهدي لها أو نجترىء عليها » (٧) .

(١) تفسير البحر المحيط ١٩٤/٧ .

(٢) المفردات في غريب القرآن ١٦٩ .

(٣) المخصص ٣١/٣ .

(٤) الأرجوزة ٥٥/٢٢ .

(٥) المخصص ٤/٣ ، وانظر مقاييس اللغة ٤٥٧/٢ .

(٦) لأن الأزهري نسب البيت لرؤبة وهنأ منه .

(٧) اللسان (روح) .

ومن هذا أيضاً قوله (١) :

لَمَّا أَرَادَ تَوْبَةَ التَّرْحَمِ مِثْلَ بَيْنِ النَّاسِ أُنَى يَعْتَمِي

وقد ورد في شرح الديوان بحاشية الأصل : « كان أعراياً جلفاً جافياً ، فقال مِثْلَ بَيْنِ النَّاسِ ، وكذَّبَ لا يُمِثِّلُ اللهُ لأنه خالق كل شيء ، والعالم به قبل أن يخلقه ، وإنما يُمِثِّلُ النَّاسُ » . وما هذا إلا لأن التمثيل بين الشئين يفيد الترجُّحَ بينها ، وإذا مِثَّلَ الرَّجُلُ بَيْنَ هَذَا وَذَلِكَ فَهُوَ شَاكٌ ، ولا يستقيم ذلك مع الله تعالى .

وبهذا فالعجاج بقي مشدوداً إلى طباع البادية ، ولم يقو على تمثّل بعض مظاهر الحياة الجديدة فبرزت في أراجيزه بعض المعاني ، التي ما كان لها أن تجد قبولاً حسناً عند أذواق المتأخرين عن عصره بقليل ، ولكن هذا لم يكن واسعاً في معانيه ، ولا نكاد نجد منه إلا أمثلة قليلة في ديوانه ، وهي لا تعدو أن تكون مجرد أعلام ودلائل تشير إلى ارتباط وثيق بينه وبين البادية ، ولا تبلغ بنا أكثر من الأمثلة السابقة إلا قليلاً .

وهذا الارتباط مع البادية ، كان يحمل في أضعافه بعض المعاني الجاهلية ، على ما فيها من تعارض مع الإسلام وتعاليمه . فزجر الطير ، والاستقسام بالأزلام ، أمور أبطلها الإسلام ، وما كان ينبغي لشاعر إسلامي أن يصدر عنها في معانيه ، ومع ذلك فالعجاج لا ينسى تطيره بالبارح من الطير أيام الجاهلية ، ولا تقلب الأزلام من « مُعَلَّى » و « مَنِيع » ، فيجعل من فرسه بارحاً سريعاً سرعة تقلب تلك الأزلام (٢) :

وَتَارَةً يُمِرُّ فِي الْبُرُوحِ عَطْفَ الْمُعَلَّى مَكَّ بِالْمَنِيعِ

(١) الأرجوزة ٧٩/٢٤ - ٨٠ .

(٢) الأرجوزة ٢٥/١٣ - ٢٦ .

والميسر عادة جاهلية أبطلها الاسلام أصلا ، وجعلها من عمل الشيطان ، فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون^(١) » ، ومع ذلك فالعجاج لا يتناسى تلك العادة الجاهلية ، وإنما يقول مادحا معاوية بن أبي سفيان^(٢) :

التي ابن حربٍ لا تجده كالبرمٍ لا عاجز السهوء ولا جعد القدم
وقال الأصمعي في شرحه : « والبرم : الذي يضيق فلا يدخل الميسر ، ولا يدخل فيه مع القوم والجمع أبرام^(٣) . فابن حرب إذن جواد كريم ، وليس بصاحب بخل ينأى به عن الدخول مع القوم في الميسر ، ولا سيما أن الميسر كان من مظاهر الجود والكرم في الجاهلية ، وهذا لم يورح مخيلة العجاج بعد .

والعطاس كان مما يتطير منه العرب في الجاهلية ، فأبطل النبي صلى الله عليه وسلم ، طيرتهم منه ، ومع ذلك بقي معنى التشاؤم ملازما للعطاس عند العجاج^(٤) :

قالت سُلَيْمَى لِي مع الضَّوَارِسِ يَا أَيُّهَا الرَّاجِمُ رَجِمَ الحَادِسِ
بالتَّنْفَسِ بينَ التُّجْمِ العَوَاطِسِ
وقال الأصمعي في شرحه : « وقوله : التُّجْمِ العَوَاطِسِ ، هذا مَثَلٌ . يقول : كانوا في الجاهلية يتطَيرون من العطاس ، اذا عطس العاطس قالوا : قد أَلْجَمَهُ ، كأنه يُلْجِمُهُ عن حاجته^(٥) .

-
- (١) سورة المائدة ٩٣/٥ ، وانظر المائدة ٩٤/٥ ، والبقرة ٢١٩/٢ .
(٢) الأرجوزة ١٧/٢٣ - ١٨ .
(٣) وانظر اللسان (برم) .
(٤) الأرجوزة ١/٣٨ - ٣ ، ومثله أيضا في الأرجوزة ٣٢/١١ .
(٥) ومثل هذا في المعاني الكبير ٢٧١/١ و ١١٨٥/٣ ، وانظر اللسان (لجم) و (عطس) .

وإذا وصف الحرب جاء بعدد من المعاني الجاهلية الخالصة ، فهم لا يعالجون الأمور الفاسدة إلاّ بفساد مثلها ، والحرب لا تدع للحمس من قريش أيّ حرمة ، ولا ترعى اخا عهد ، أو إنساناً يعلّق على نفسه أشياء متنتة ، يتخذ منها عوذة ، كيلا يصيبه البلاء^(١) :

بِالْمَأْسِ نَسْتَجْرِي الْأُمُورَ الْمُؤْتَمًا وَأَحْرَزَ الْخَلَاسُ مَا تَخَلَّسَا
وَلَمْ يَهْبَنَ مُحْسَةً لِأَحْمَسَا وَلَا أَخَا عَهْدٍ وَلَا مُنْجِسَا

وهذه كلها أمور جاهلية ، فالحمسة دين لقريش في الجاهلية ، والتنجيس عادة من عادات بعض العرب في الجاهلية أيضاً^(٢) ، ومع ذلك فالعجاج ما يزال يلح عليها بخياله ، ويستمد منها بعض معانيه .

ومن هذه العادات أيضاً ما يبرز في قوله^(٣) :

فَقَدْ أَكُونُ لِلْعَوَانِي مَصِيدًا مُلَاوَةً كَأَنَّ فَوْقِي جَلْدًا

وقال فيه ابن دريد : « والجلد : جلد حوارٍ يُسَلَخُ فَيَلْبَسُ حواراً آخر لتشمه أم السلوخ فترأمه .. وهذا شيء كان من فعل الجاهلية^(٤) » .

فالمعاني الجاهلية قد استمرت في أخيلة العجاج ومعانيه ، ولكن هذا لا يعني أن الإسلام لم يُدخِل شيئاً من التطوير في معاني رجزه ، بل نجد لديه كثيراً من المعاني الإسلامية ، ولا سيما أن عقيدته كانت من العوامل البارزة في تكوين شخصيته وأخلاقه وطباعه ، ولهذا كانت المعاني الإسلامية تبرز

(١) الأرجوزة ٥٤/١١ - ٥٧ .

(٢) انظر شرح الأصمعي للأبيات ثم انظر اللسان (حمس) و (نجس) .

(٣) الأرجوزة ٩/٢٧ - ١٠ ، وذكر الجلد أيضاً في الأرجوزة ١١٤/١٢ .

(٤) جمهرة اللغة ٦٨/٢ .

وقد أخذ العجاج هذا المعنى ، فقال يصف الأتان وحمار الوحش (١) :

سَفَوَاءٌ مِرْحَاءٌ تَبَارِي مِغْلَجًا كَأَنَّمَا يَسْتَضِرُّ مَانَ الْعَرُفَجَا

فهذا المعنى قد استمدده من التراث الأدبي لمن تقدمه من الشعراء ، وأمثلة ذلك كثيرة في رجزه ، ومنها ما أخذه من طرفة بن العبد ، إذ قال طرفة (٢) :

كَبَنَاتِ الْمَخْرِي مَأْدُنَ كَمَا أَنْبَتَ الصَّيْفُ عَسَالِيحَ الْخُضْرُ

فشبه النساء بالعساليج ، وهي مالان واخضر من قضبان الشجر والكرم أول ما ينبت ، وهذا المعنى أخذه العجاج ، فقال (٣) :

وَفَاحًا وَمَرِسًا مُسْرَجًا وَبَطْنَ أَيْمٍ وَقَوَامًا عُسْلُجًا

فجعل قوام المرأة كالعسلوج أيضاً .

ومن أمثال هذا ما أخذه من بشر بن أبي خازم ، إذ قال بشر (٤) :

عَطَفْنَا لَمْ عَطَفَ الضَّرُّوسِ عَلَى الْمَلَا بِشَهَابٍ لَا يَأْتِي الضَّرَاءَ رَقِيبُهَا

فهذه الكتيبة من القوة بحيث لا يتوارى رقيبها ، ولا يمشي في الضراء ، وهو ما وارك من شجر ونحوه ، وهذا المعنى أخذه العجاج ، فقال يصف جيش ابن معمر (٥) :

فِي لَامِعِ الْعِقْبَانِ لَا يَأْتِي الْخَمْرُ يُوجَهُ الْأَرْضَ وَيَسْتَأَقُ الشَّجَرَ

فجعل الجيش لا يأتي مستراً ، ولا يسير في الخمر ، وهو ما وارك من شجر ونحوه .

-
- (١) الأرجوزة ٣٣/٨٩ - ٩٠ .
 (٢) ديوان طرفة ٥٣ .
 (٣) الأرجوزة ٣٣/٤٠ - ٤١ .
 (٤) ديوان بشر ١٥ ، واللسان (ضرا) و (خرس) و (ملا) .
 (٥) الأرجوزة ١/٦٨ - ٦٩ .

ومن هذه المعاني ما أخذه العجاج عن مُعَفَّر بن حمار البارقى ، إذ قال معفر (١) :

هوى زهدم تحت الغبارِ لحاجِبٍ كما انقضَّ بازٍ أقتمَّ الرِّيشِ كاسرٍ
فجعل انقضاض زهدم هذا كاتقضاض البازي إذا ضم جناحيه للانقضاض ،
وهذا المعنى أخذه العجاج فقال واصفاً سرعة ابن معمر في سيره من الشام إلى
اليامة لحرب الحوارج (٢) :

دانى جناحيه من الطورِ فمرَّ تقصَّى البازي إذا البازي كسرَّ
وأمثلة هذه المعاني كثيرة جداً ، ومن التعت أن نقف لنستعرض
طائفة كبيرة منها ، إلا أن العجاج وبما أخذ المعنى المتداول بين الشعراء
فأضاف إليه ما يجمه ويجعل منه معنى خاصاً به دون سواه ، ومن ذلك قول
الحارث بن حلزة (٣) :

وفعلنا بهم كما علم الله وما إن للخائنين دماء
فلم يفصح عما أوقعوه بقبيلة تغلب من دماء وجراحات ، وذلك ليكون
أوقع أثراً في النفس ، وأبلغ في التعبير عما أراد لها من كثرة واتساع ،
فعبّر عن ذلك كله بقوله « كما علم الله » . ومثل هذا قول كعب بن زهير
يمدح الرسول عليه السلام (٤) :

تحمله الناقة الأدماء معتجراً بالبرد كالبدر جلى ليلة الظلم
وفي عطافيه أو أثناء رباطه ما يعلم الله من دين ومن كرم

-
- (١) شرح الأصمعي للأرجوزة ٧٥/١ .
(٢) الأرجوزة ٧٤/١ - ٧٥ .
(٣) شرح المعلقات السبع للزوزني ١٩٨ .
(٤) العمدة ١٠٩/٢ ، وقال ابن رشيق : « والجهال يروون البيت الأول
لابي دهل الجمحي » .

فجعل في أثوابه من الدين والكرم ما يعلم الله ، وذلك تكثيراً وتعظيماً له . وهذا المعنى أخذه العجاج أيضاً ، ولكنه افتن فيه فقال (١) :

يَحْمِلْنَ كُلَّ سُودِدٍ وَفَضْرٍ يَحْمِلْنَ مَانْدَرِيٍّ وَمَا لَا تَنْدَرِيٍّ

فجعل الرِّكَبَ لا يحمل من المكارم ما يجمله العجاج ، وإنما توسع في المعنى فجعلها تحمل من المكارم ما أحاط العجاج به علماً ، وما خرج عن درايته وعلمه ، لأنها أوسع وأكثر من أن يحيط بها إنسان خبراً . وبهذا فقد دقق في المعنى ، وافتن فيه ، وأخرجه في صورة تكاد تبرز شخصيته ، وتختص به دون سواه .

فالعجاج قد استمد بعض المعاني من تقدمه من الشعراء ، وربما وجدنا في ذلك ما يمكن أن يسمى بالسرققات الشعرية ، إلا أن ذلك في رأي الآمدي « باب ما يعرى منه أحد من الشعراء إلا القليل » (٢) ، بل إن هذا الباب لا ينبو منه شاعر ، لأن طبيعة الأدب العربي تدعو الشاعر إلى التزود بثقافة أدبية واسعة وعدم الإخلاد إلى الموهبة الطبيعية فحسب ، إذ لا بد له « قبل أن يأخذ في الاتجاه الشعري ، أن يغمس نفسه في حومة الموروث الشعري ، وأن يتعرف مافيه من أهداف ومنازع ، وأن يحكم أساليب فنه حسباً انتقلت من جيل إلى جيل » (٣) .

إلا أن العجاج لم يتكئ على المعاني المتداولة بين الشعراء فحسب ، وإنما كان يأتي بكثير من المعاني التي فيها شيء من الجدة والإبداع ، ولا سيما حين يولد المعنى بصورة تخالف ما تعارف الناس عليه من قبل ، ومن ذلك

(١) العمدة ١٠٩/٢ ، وانظر ملحقات الديوان .

(٢) الموازنة ١١٥ .

(٣) دراسات في الأدب العربي لغوستاف فون غربنوم ٤٧ .

قوله مثلاً^(١) :

عَيْنَ حَيْثُ كَالْحَرَّاجِ نَعْمَهُ يَكُونُ أَقْصَى سَلْبِهِ مُحَرَّرْتَجْمَهُ
وقال أبو علي القالي في شرحه : « والمعنى أن الناس إذا فوجئوا بالغارة
طردوا إبلهم ، وقاموا هم يقاتلون ، فإذا انهزموا كانوا قد نجوا بها ، يقول :
فهؤلاء من عزمهم ومنعتهم لا يطردونها ، ولكن يكون أقصى طردهم أن
ينسخوها في مباركتها ثم يقاتلوا عنها »^(٢) .

ولا شك أن العجاج قد خالف سائر الشعراء في تناوله لهذا المعنى ،
فجاء جديداً لا يخلو من طرافة وإبداع ، ولهذا الجودة أمثلة كثيرة في رجزه ،
إذ كان له أن يستمد من التراث القديم ، والمعاني المتداولة بين الشعراء ،
إلا أنه كثيراً ما يفتن في بعض المعاني فيخرج بشيء من الجودة والإبداع ،
ولهذا نجد كثيراً من معانيه قد سارت على ألسنة عدد من الرجاز والشعراء ،
وما ذلك إلا لشهرة رجزه ، والجدة في معانيه .

فالشعراء قد وصفوا الثور والفرس ، ودققوا في تصوير جريه ،
وشبهوا ذلك بالسباحة أحياناً ، ولكن العجاج قد زاد من الدقة ، حين نظر
إلى سرعة الثور ، فلم يقل إنه يسبح سباحة ، وإنما دقق فقال : إنه إذا
ما عرض له رمل متعقد طفا عليه ، كما يطفو الشيء فوق الماء^(٣) ، وذلك
لأن قوائمه لا تسيخ في الرمل إذا ما عدا^(٤) :

كالبَرْقِ يَجْتَازُ أَمِيلًا أَعْرَفًا إِذَا تَلَقَّتْهُ الْعَقَائِلُ طَفَاً

(١) الأرجوزة ١٤/٣٦ - ١٥ .

(٢) الأمالي للقالي ٦٦/١ .

(٣) قارن بالتبريزي في تهذيب اصلاح المنطق ٦/٢ .

(٤) الأرجوزة ٧٨/٤٤ - ٧٩ .

فالثور يطفو فوق « العقاقيل » ، أو فوق « الجراثيم » (١) ، وكلاهما الرمل المتعقد ، وهذا المعنى فيه جدّة ودقة في التصوير ، ولهذا أخذهُ ذو الرمة ، فقال يصف ثوراً (٢) :

ذو سَعْفَةٍ كَشِيبِ القَدْفِ مُنْصَلِتِ

يَطْفُو إِذَا مَا تَلَقَّتْهُ الجَرَائِمِ

وقد نبّه الأصمعي على أخذه هذا المعنى عن بيت العجاج (٣) . ونقل الأصفهاني بسنده أن العجاج قد أخذه بدوره من قول علقمة بن عبدة (٤) :

يطفو إِذَا مَا تَلَقَّتْهُ العَقَاقِيلُ

وإذا صح هذا البيت لعلقمة ، فذلك يعني أن العجاج قد أعجب بهذه الصورة ، ثم نقلها في رجزه ، ومن ثمّ أخذها ذو الرمة ، ولا سيما أن ذا الرمة قد أخذ عدداً من المعاني الأخرى عن العجاج ، ومن ذلك قول العجاج يصف الكناس (٥) :

كَأَنَّ رِيحَ جَوْفِهِ المَرْبُورِ فِي الخُشْبِ تَحْتَ الهَدَبِ اليَخْضُورِ

مَشْوَاةٌ عَطَارِينَ بالعُطُورِ أَهْضَامَهَا والمِسْكِ والكَافُورِ

فجعل لکناس البقر رائحة زكية أيام الربيع تشبه رائحة هذه العطور لدى العطار ، وهذا المعنى أشار الأصمعي إلى أن ذا الرمة قد أخذه عن العجاج ، فقال (٦) :

(١) في رواية أخرى للبيت وردت في الشعر والشعراء ٥١٦ ، والصحاح ٧٥/٢ ، والمخصص ١١٤/٧ ، والمعاني الكبير ٧٣٨/٢ .

(٢) المعاني الكبير ٧٣٨/٢ .

(٣) الشعر والشعراء ٥١٦ .

(٤) الأغاني ١١٢/٢١ .

(٥) الأرجوزة ٩٦/١٩ - ٩٩ .

(٦) الشعر والشعراء ٥١٧ .

إذا استهلّت عليه عَيْبَةٌ أَرَجَتْ مَرَابِضُ الْعَيْنِ حَتَّى يَأْرَجَ الْخَشَبُ
وقال العجاج يصف الثور أيضاً (١) :

حتى غدا واقْتادَه الكَرِيهُ وشَرُّرُه وقَسُورُه نَضْرِيهِ
فجعل هذه النباتات تستدعي الثور وتقتاده إليها ، فجاء ذو الرمة وأخذ
هذا المعنى ، إذ جعل رائحة الثور تستدعي الأسد إليه ليأكله (٢) :

أَمْسَى بِبِوَهْبَيْنَ مُجْتَازاً لَطِيئِهِ مِنْ ذِي فَوَارِسَ يَدْعُو أَنْفَهُ الرِّيبُ
وقال العجاج في مدح الحجاج يصف أصحاب ابن الأشعث (٣) :

وإنْ عَلَوْا مِنْ بَعْدِ أَرْضِ أَرْضَا حَسِبْتَهُمْ زَادُوا عَلَيْهَا عَرْضَا
وقال الاصمعي في شرحه : « يقول : إذا علوا من بعد أرض أرضا
حسبتهم زادوا على الأرض عرضا . والعرض : الحيل تشبه بالجبل . قال (٤) :

كُنَّا إِذَا قَدُنَا لِقَوْمٍ عَرْضَا لَمْ نُبْقِ مِنْ بَغْيِ الْأَعَادِي عَضَاً
والعِضُّ : الرجل الشديد اللسان الشديد العارضة . يقال : إنه لَعِضُّ .
قال ذو الرمة :

كَمَا تَدَهْدِي مِنَ الْعِرْضِ الْجَلَامِيدُ

وكلاهما سرق من العجاج (٥) .

فالشاعر ذو الرمة قد أعجب بمعاني العجاج ، وأدخل بعضها في
أشعاره ، وذلك لطرافة أو إبداع أو جدة كانت تمتاز بها على غيرها من

(١) الأرجوزة ١٤١/٢٥ - ١٤٢ .

(٢) المعاني الكبير ٧٥٤/٢ .

(٣) الأرجوزة ١٣/٦ - ١٤ .

(٤) البيتان لرؤبة في الأمالي ١١٨/١ ، والصحاح ١.٠٨٣/٣ ، واللسان

(عرض) .

(٥) شرح الأرجوزة ١٣/٦ - ١٤ .

المعاني التي جاء بها الشعراء في أوصاف هذه الموضوعات ، ولم يكن ذو الرمة بالشاعر الوحيد الذي تأثر بمعاني العجاج ، وإنما كان لهذه المعاني أن وجدت لنفسها كل سبيل إلى عدد من الرجاز والشعراء ، ومنهم أبو النجم العجلي ، فقد أخذ عن العجاج بعض المعاني ، ومن ذلك قول العجاج في والي اليمامة (١) :

تَبْرِي لِه مِن أَيْمَنٍ وَأَشْمَلٍ خَوَالِجٍ مِن أَسْعَدٍ أَن أَقْبَلِ
فجعل الخوارج تعرض له عن يمين وشمال (٢) ، وهذا المعنى أخذه أبو النجم ، فقال (٣) :

يَبْرِي لَهَا مِن أَيْمَنٍ وَأَشْمَلٍ ذَوِ خَوْقٍ طُلُسٍ وَسَخْصٍ مِذَالِ
ومنهم الراعي النميري ، فقد أخذ عن راجز بني سعد بعض المعاني ، ومن ذلك قول العجاج (٤) :

تَسْمَعُ لِلْمَاءِ إِذَا اسْتَحِيرَا لِلنَّجْرَعِ فِي أَجْوَاهَا خَرِيرَا
فجعل الإبل ترد الماء عطاشاً ، فإذا شربت سمعت للماء صوتاً في أجوافها ، وهذا المعنى أخذه الراعي ، فقال في وصف الإبل أيضاً (٥) :

فَسَقَوْا صَوَادِي يَسْمَعُونَ عَشِيَّةً لِلْمَاءِ فِي أَجْوَاهِنَّ صَلِيلَا
ومنهم عبد الله بن قيس الرقيات ، إذ قال العجاج (٦) :

(١) الأرجوزة ٢٧/١٧ - ٢٨ .
(٢) انظر المعنى بدقة في الصحاح ٢٢٢١/٦ ، وتحصيل عين الذهب ١١٣/١ .
(٣) نوادر اللغة لأبي زيد ١٦٥ ، واللسان (يمين) ، والأول مشهورة نسبته لأبي النجم ، وهو في الكامل للمبرد ١٢٣١ و٧٦ ، ومقاييس اللغة ٢١٦/٣ ، والصحاح ٢٢٢١/٦ ، والمخصص ٣/٢ ، ١٩٠/١٦ ، ١٢/١٧ ، والخصائص ١٣٠/٢ ، وكتاب سيبويه ١١٣/١ ، ٤٧/٢ ، ١٩٥/٢ ، والانصاف ٤٠٦/١ ، وشرح الواحدي على المتنبي ٧١٩/٢ ، والخزانة ١٣٢/٣ (بولاق) ، واللسان (شمل) .

(٤) الأرجوزة ٢٧/٢٦ - ٢٨ .

(٥) الاقتضاب ٤٥٥ .

(٦) انظر الملحقات (٤٥) ، والضفاط : الزحام .

إِنَّ النَّدَى حَيْثُ تَرَى الضَّغَاطَا وَالْجَاهَ وَالْإِقْدَامَ وَالنَّشَاطَا
فجعل الندى في المكان الذي يكثر فيه الزحام ، فأخذ ابن قيس
الرقيات هذا المعنى وافتن فيه ، فقال :

يسقط الطيرُ حيثُ يَنْتَثِرُ الحَـبُّ وتُغْشَى مَنَازِلُ الكَرَمَاءِ
وقد نبّه الخالديان على أنه أخذ هذا المعنى عن العجاج (١) .
ومنهم حَكِيمٌ بن مَعِيَّة (٢) ، فقد قال العجاج (٣) :

لقد كَفَى قَرَضِي بَنِيكَ العَسْرَا

وقال ابن قتيبة في شرحه : « أي أن تَعَسَرَ عليهم الأيدي بالسياط
فيضربوا (٤) » ، وهذا المعنى أخذه حكيم بن معية ، فأشار إلى رفع الأيدي
عند الحُصومة ، فقال (٥) :

لَمِني إِذَا مَا طَارَتِ الزُّنَابِيرُ وَلَقِحَتْ أَيْدِيهَا عَوَاسِرُ
ومن أخذ عن العجاج أيضاً القطامي ، إذ قال العجاج في وصف
القتال (٦) :

حَتَى إِذَا مَا مَرَّ جَلُّ القَوْمِ أَفْرُ . بِالْغَلْيِ أَحْمَوُهُ وَأُخْبَوُهُ التَّيْرُ
فجعلهم يهيجون تارة ويسكنون تارة أخرى عند غليان القتال ، وهذا
المعنى أخذه القطامي ، فقال (٧) :

-
- (١) المختار من شعر بشار ٩٥ .
 - (٢) راجز اسلامي كان يعاصر العجاج ، انظر الاغاني ٤٤/٧ ، والخزانة ٣١١/٢ .
 - (٣) ملحقات الديوان (٢٦) .
 - (٤) المعاني الكبير ٨١٩/٢ .
 - (٥) المعاني الكبير ٨١٩/٢ .
 - (٦) الأرجوزة ١١٤/١ - ١١٥ .
 - (٧) ديوانه ٣٤ ، واللسان (سوع) .

وَكُنَّا كَالْحَرِيْقِ أَصَابَ غَابًا فَيَخْبُو سَاعَةً وَيُهْبُ سَاعًا
ومنهم دكين الراجز ، فقد قال العجاج (١) :

شَدَّ الشَّظِيَّ الْجَنْدَلَ الْمُظْرَبَا فِي رُسْعٍ لَا يَتَشَكَّى الْحَوْشَبَا
فجعل الحافر صلباً شديداً لا يشكو ذلك الحوشب ، وهو عظيم في
باطن الحافر يتصل بالرسع ، وهذا المعنى أخذه دكين ، فقال (٢) :

فِي حَافِرٍ لَا يَتَشَكَّى حَوْشَبُهُ مُصْلَبُ الصَّقَا يَرْفُضُ عَنْهُ أَصْلَبُهُ
وقال العجاج يصف سرعة الفرس (٣) :

يَكَادُ يَرْمِي الْقَيْقَبَانَ الْمُسْرَجَا لَوْلَا الْأَبَا زَيْمَ وَأَنَّ الْمِنْسَجَا
نَاهَى عَنِ الذَّيْبَةِ أَنْ تَفْرَجَا لِأَقْحَمَ الْفَارِسَ عَنْهُ زَعَجَا
فجعله من السرعة حتى لكانه يلقي بالسرج أو بالفارس عن ظهره لولا
الأبازيم وما في السرج من فجوة تمسك بظهر الفرس ، وهذا المعنى أخذه دكين
أيضاً فقال (٤) :

لَوْلَا حِزَامَاهُ وَلَوْلَا لَبَّيْبُهُ لَقَحَمَ الْفَارِسَ لَوْلَا قَيْقَبُهُ
وَالسَّرْجُ حَتَّى قَدَّ وَهِيَ مُضَيَّبُهُ
ومن أخذ عن العجاج أيضاً حميد الأرقط ، إذ قال العجاج في وصف
المفازة (٥) :

وَبَلْدَةٍ بَعِيدَةٍ النَّيَاطِ مَجْهُولَةٍ تَغْتَالُ خَطْوُ الْخَاطِي

-
- (١) انظر ملحقات الديوان ١٣/٢ - ١٤ .
 - (٢) كتاب الخيل لأبي عبيدة ٨٢ .
 - (٣) الأرجوزة ١٢٥/٣٣ - ١٢٨ .
 - (٤) اللسان (قيب) .
 - (٥) الأرجوزة ١/٢٠ - ١ ، ٢ - ٨ ، ٩ .

عَلَوْتُ حِينَ هَيْبَةِ الْوَطْوَاطِ بِذَاتِ لَوْنٍ صَخْمَةِ الْمِلَاطِ
 فجعل المفازة بعدها كأنها تناط بمفازة أخرى لا تكاد تنقطع ، وهي بعدها
 وسعتها كأنما تغتال المشي اغتيالاً ، فلا يستين فيها السير مهما طال وامتد به
 الأمد ، وهذا المعنى أخذه حميد الأرقط ، فقال (١) :

وَبَلَدَةٍ مَرهُونَةٍ النَّيَّاطِ تَغْتَالُ خَطْوَالِقُلُصِّ الْخَوَاطِي
 مِنْهَا مُسُوبٌ وَعِئْتَةُ الْوِهَاطِ وَرَدَتْ قَبْلَ سُدْفَةِ الْغَطَاطِ
 وأما المعاني التي أخذها رؤبة عن أبيه العجاج فهي كثيرة جداً ، وليس
 لنا إلا أن نعرض منها بعض الأمثلة فحسب ، ومنها قول العجاج (٢) :

نَجَلُّ حَصَانٍ نَجَلُّهَا لَمْ يُعْقَمِ غِرَاءٌ مِسْقَاباً لِفَحْلٍ سَرَطَمِ
 فجعلها غرَاءً مِسْقَاباً ، أي مذكراً تلد السقب ، وهو الذكر من
 ولد الناقة . وهذا المعنى أخذه رؤبة فقال (٣) :

وَكَانَتِ الْعِرْسُ الَّتِي تَنْخَبَا غِرَاءٌ مِسْقَاباً لِفَحْلٍ أُسْقَبَا
 وقال العجاج في وصف الجيش (٤) :

شُهْبٌ إِذَا مَا مَجْنٌ مَوْجِنُ الْبَصْرِ يَبْذِي إِيَادَيْنِ إِذَا عُدَّ اعْتَكِرُ
 فجعل هذه الكتابب الشهب في جيش إذا ما أراد الانسان له عدداً ،
 رآه يَعْتَكِرُ ، أي يرجع بعضه على بعض ، يموج وينعطف ، فلا يقدر
 على عدده ، وهذا المعنى أخذه رؤبة ، فقال (٥) :

-
- (١) سمط اللالي ٨٨٦ .
 - (٢) الأرجوزة ١٠٩/٢٤ - ١١٠ .
 - (٣) اللسان (سقب) .
 - (٤) الأرجوزة ١٨٠/١ - ١٨١ .
 - (٥) اللسان (عكر) .

إذا أرادوا أن يعدّوه اعتكروا

وقال العجاج في وصف المفازة (١) :

وبلدة تستحسّر الأرسالا من القطا وتبهظ الشمالا
فجعلها من البعد والاتساع ما يشق على ريح الشمال ويعجزها ، وهذا
المعنى أخذه رؤبة في وصف المفازة أيضاً ، فجعل الريح تكل إذا مامرت
بها ، وذلك لبعدها واتساعها ، فقال (٢) :

وقاتم الأعماق خاوي المخرق
يكل وفد الرّيح من حيث انخرق
وقال العجاج (٣) :

بليت والميسار جون حنتم (٤)
فجعل الجبل أسود أخضر . ونقل ابن قتيبة عن الأصمعي (٥) ، أن
رؤبة أخذ هذا المعنى عن أبيه العجاج ، فقال :

والسُدّ مادام شداداً أرذمته
وحديدته وقطرته ورضمته
وعاد بعد النحت جونا حنتمه

وفي شرح ديوان رؤبة جاء في البيت الأخير : « حنتمه : هذا
سرقه عن أبيه ، قال : ومعناه عاد أخضر أسود (٦) » .

(١) الأرجوزة ١٤/١٨ - ١٩ .

(٢) ديوانه المخطوط النسخة (٥١٦ أدب) الورقة ١ ، والنسخة (٥١٩
أدب) ص ٦٠ ، والنسخة (٤٩ أدب ش) ص ٦٦ .

(٣) ملحقات الديوان ١/٦٦ - ٢ .

(٤) المسمار : جبل . والجون : الأسود . والحنتم : خضرة قريبة من
السواد .

(٥) الشعر والشعراء ٥٧٨ .

(٦) النسخة (٥١٩ أدب) ص ٣٠٨ ، والنسخة (٤٩ أدب ش) ص ٣٣٦ .

وقال العجاج^(١) :

وَبَلَدَةٍ بَعِيدَةٍ النَّيَّاطِ . مَجْهُولَةٌ تَغْتَالُ خَطْوَ الْخَاطِي
فَجعل المفازة كأنما تغتال الخطو لاتساعها ، إذ لا يستين فيها المشي ،
بل يسير الإنسان فيها ويطيل الدأب ولا يصل منها إلى غاية . ونقل ابن قتيبة
عن الأصمعي^(٢) أن رؤبة أخذ هذا المعنى عن أبيه العجاج ، فقال :
وَبَلَدٍ يَغْتَالُ خَطْوَ الْمُخْتَطِي يُغَايِلُ الْغَوْلَ عَرِيضَ الْمَبْسُطِ .
وفي شرح ديوان رؤبة جاء عن الأصمعي في البيت الأول : « قال أبو
سعيد : فسرقها رؤبة عن أبيه العجاج ، قال أبوه :
وبلد يغتال خطو الخاطي^(٣)

قال : وحدثنا مسلمة بن عياش قال : قال رؤبة : الفحول هم الرواة .
قال : يريد أنهم يسرقون^(٤) .
وقال العجاج^(٥) :

وَرَبُّ هَذَا الْبَلَدِ الْمُحَرَّمِ وَالْقَاطِنَاتِ الْبَيْتِ غَيْرِ الرَّئِيمِ
أَوَالِفًا مَكَّةَ مِنْ وَرَقِ الْحَمِي
فأقسم بالحنام المقيم في مكة آمناً لا يبرحها ، وهذا المعنى أخذه رؤبة

-
- (١) الأرجوزة ١/٢٠ - ٢ .
(٢) الشعر والشعراء ٥٧٨ .
(٣) بهذه الرواية أنشده ابن قتيبة أيضا ، وهي تختلف قليلا عن روايته
في الديوان .
(٤) ديوان رؤبة النسخة (٥١٩ أدب) ص ٢١٣ ، والنسخة (٤٩) أدب
ش) ص ٢٢٧ ، وثمة إشارة الى هذا في النسخة (٥١٦ أدب) الورقة ١٥٤ .
(٥) الأرجوزة ٤٥/٢٤ - ٤٧ .

أيضاً فقال (١) :

فلا وربّ الآمّناتِ القُطنِ ما آيبُ سرّك إلاّ سرّي
ولم تقف معاني العجاج عند التأثير في معاصريه من رجاز وشعراء ،
بل امتدت إلى عصور أدبية أخرى ، فكانت تظهر في أشعار بعض الشعراء ،
أو في كلام بعض الناس ، بما يدل على شهرة هذه المعاني ، وحياة ذلك
الرجز على ألسنة الناس جيلاً بعد جيل . ومن هذه المعاني قول العجاج في
عتاب ولده رؤبة (٢) :

واستعجل الموتَ وفيه كافٍ (٣) يَخْتَرِمُ الْإِلْفَ عَنِ الْآلِفِ
لَمَّا رَأَى أُرْعِشَتْ أَطْرَافِي

فرؤبة يستعجل موت أبيه ، وفي الموت ما يكيه مؤونة استعجال ذلك ،
لأنه قد تعود احترام الناس ، والعجاج يوشك أن يمضي إليه ، وهذا المعنى
أخذه أبو دهل في حديثه عن صروف الدهر ، فقال (٤) :

ولو تركونا لا هدى الله أمرهم فلم يُلجِمُوا قَوْلًا مِنَ الشَّرِّ يُنْسَجُ
لأوشك صرف الدهر تقرييق يديننا وهل يستقيم الدهر والدهر أعوج
ثم أخذه فيما بعد عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، فقال (٥) :

إلى كم يكون العتبُ في كل ساعةٍ وكم لا تملين القطيعة والهجرة
رؤيدك إن الدهر فيه كفاية لتفريق ذات البين فانتظري دهرها

(١) ديوانه المخطوط النسخة (٥١٦ أدب) الورقة ٢٣ ، والنسخة
(٥١٩ أدب) ص ٢٥٣ ، والنسخة (٤٩ أدب ش) ص ٢٧١ .
(٢) الأرجوزة ٨/٥١ - ٥٣ .
(٣) وجاءت رواية هذا البيت في بعض المصادر : « واستعجل الدهر
وفيه كاف » .

(٤) أمالي المرتضى ٨١/١ .

(٥) أمالي المرتضى ٨١/١ .

فهذا المعنى قد سار عن العجاج إلى أبي دهل ، ثم إلى ابن طاهر ،
وشبهه به معنى آخر كان العجاج قد أخذه عن معفر بن حمار البلوقي ، ثم
افتن فيه ، وأخرجه ضمن إطار جديد ، فقال (١) :

دانسِ جَنَاحِيهِ مِنَ الطُّورِ فَمَرَّ تَقْضِيَّ البَازِي إِذَا البَازِي كَسَرَ

فالبارقي شبه الانقاض بانقضاض البازي إذا كسر جناحيه ، أما العجاج
فزاد على هذه الصورة ما وضعه لابن معمر من أجنحة يدانها ويضمها في
انقضاضه السريع من الشام إلى اليمامة ، وربما كانت هذه الأجنحة هي الجيش
الذي أنهضه إلى ما أراد ، كما ينهض العقاب بجناحيه ، وهذا المعنى الأخير
أخذه أبو الطيب المتنبي ، فقال (٢) :

هز الجيشُ حولَكَ جانِبَيْهِ كَمَا نَقَضَتْ جَنَاحِيهَا العُقَابُ

فهذا المعنى قد تأثر فيه المتنبي بالعجاج ، ومثله أيضاً ما تأثر به القاضي
التنوخي ، إذ قال العجاج في وصف ليلة شديدة مرت به (٣) :

بَتْ لَهَا يَقْظَانِ واقْسانَتْ إِذَا رَجَوْتُ أَنْ تُضِيءَ اسْوَدَّتِ
دون قَدَامِي الصُّبْحِ فَارْجَحَيْحَنْتِ مِنْهَا عَجَاسَاءُ إِذَا مَا التَّبَجَّتِ
حَسِبْتُهَا ولم تِكْرُ كَثُرَتْ

فالليلة شديدة قد ثقلت عليه وتناولت ، حتى ظنها قد كرت ، أي
تعطفت وارتدت إليها ماضى منها ، وهذا المعنى أخذه القاضي التنوخي ،
فقال (٤) :

-
- (١) الأرجوزة ٧٤/١ - ٧٥ .
 - (٢) الاقتضاب ٤١٣ .
 - (٣) الأرجوزة ٢٧/٢٢ - ٣٢ .
 - (٤) المختار من شعر بشار ١٧ .

وكم ليالٍ قد لقيت هولتها بهيمة فوق السماء كالسما
طالت دياجها فخلنا أنها تعطف منهن علينا ما مضى

وقد ذكر الخالديان أن البيت الأخير قد أخذ من بيت العجاج السابق (١) . ومن أشهر معاني العجاج قوله في مطلع رائيته (٢) :

قد جبر الدين الاله فجبّر وعور الرحمن من ولى العور

فجعل انتصار ابن معمر على الخوارج جبراً للدين مما ألمّ به من تصدع على أيديهم ، وهذا المعنى طارت شهرته حتى وجدناه أيام المعتصم يستنقذ روحاً بعد أن وقفت بين السيف والنطع ، ففي خبر جميل بن تميم السدوسي أنه خرج على المعتصم ، ثم جيء به إلى النطع والسيف لتضرب عنقه بين يدي أمير المؤمنين ، فلما استنطقه المعتصم ، كان بما قاله : « يا أمير المؤمنين ! جبر الله بك صدع الدين ، ولمّ بك شعث الإسلام والمسلمين ، وأخذ بك شهاب الباطل ، وأثار بك سبيل الحق (٣) » . وهذا كله قد استمده ابن تميم من معاني العجاج في مطلع أرجوزته ، وفي عدد من أبياتها .

وهذا إنما يشير إلى مدى شهرة رجز العجاج ومعانيه خلال عصورنا الأدبية المختلفة . فالعجاج قد استمد بعض معانيه من التراث الأدبي لمن تقدمه من الشعراء ، إلا أنه قد طور بعض المعاني ، وجدد في معان أخرى فأمدّها بها التراث الأدبي لمن عاصره ولمن جاء بعده من الشعراء ، وكلّ ما رأيناه في معانيه من خصائص كان يصدر عن ذلك الارتباط الوثيق بين رجزه والصحراء ، وهذا الارتباط هو ما يفسّر كذلك معظم الخصائص اللفظية

(١) المختار من شعر بشار ١٨ .

(٢) الأرجوزة ١/١ - ٢ .

(٣) المستجاد من فعلات الأجواد ١١٧ ، وانظر حل العقال ١٠٣ (ضمن مجموعة تفريغ المهج بتلويح الفرّج) .

٢ - الخصائص اللفظية

إن أول ما نقف عليه في الخصائص اللفظية هو شكل الأرجوزة ، وما تلاحظه من تجديد في منهج القصيدة القديمة أحياناً ، إذ تخلى العجاج عن تلك المقدمات التقليدية في كثير من أراجيزه ، إلا أنه لم يضرب تماماً عن المنهج القديم للقصيدة وإنما بنى بعض الأراجيز بناء القصيدة القديمة في منهجها وتعاقب موضوعاتها ، ومن ذلك مثلاً أرجوزته في عتاب ولده رؤبة^(١) :

وَبَلْدَةٍ لِمَاعَةٍ الْأَكْنَافِ قُلُوبٌ غَاشِيهَا عَلَى انْحِرَافِ

فقدّم للعتاب بالحديث عن المفازة ، وما فيها من مشاهد ، ثم انتقل إلى وصف بعيه القوي ، وما لبث أن شبهه بالثور الوحشي ، ومن ثم شرع في وصف هذا الثور والتقاءه مع الصياد والكلاب ، فأتى بمشاهد رائعة للصراع بين الكلاب والثور ، حتى إذا ما انتصر الثور كانت نهاية هذه المقدمة التقليدية ، بعد أن امتدت ستة وأربعين بيتاً ، ومن ثم انتقل العجاج إلى عتاب ولده رؤبة .

ومن أمثال ذلك أيضاً أرجوزته في مدح يزيد بن معاوية^(٢) :

مَا بَالُ جَارِي دَمْعِكَ الْمَهْتَلِ وَالشُّوقُ شَاجٍ لِلْعِيُونِ الْحُدَّالِ

إذ قدّم لمديح يزيد بالوقوف على الأطلال ، والتغزل بمن كانت فيها قبل الترحل عنها ، ثم انطلق إلى وصف الرحلة إلى يزيد ، فأتى بأوصاف

(١) الأرجوزة ١/٨ - ٢ .

(٢) الأرجوزة ١/١٢ - ٢ .

للإبل والمفازة والتفار وما فيها من مشاهد ، ثم انتقل بعد ذلك كله انتقالاً موفقاً إلى موضوع المدح ، بعد أن امتدت تلك المقدمة التقليدية زهاء مائة وعشرين بيتاً ، أفرد بعض أبياتها للمديح ، خلال حديثه عن غرض الرحلة ، وهو الوصول إلى يزيد بن معاوية طلباً لنواله وكرمه .

فالمقدمات التقليدية ربما طالت في بعض الأراجيز ، وذلك لتتنقل كل ما اعتادت المقدمات الجاهلية أن تنقله من أوصاف أو موضوعات ، لأن العجاج في تقصيد الرجز كان لا بد له أن يساير المنهج القديم للقوائد ، ولهذا كانت بعض الأراجيز تمتد فيها المقدمات وتطول ، فتذكر الأطلال والغزل وأوصاف البعير والصحراء خلال تلك الرحلة الطويلة ، ولا سيما أن مثل هذه الموضوعات كان للعجاج بها ولوع خاص ، باعتبار أنها وليدة البادية ، وكل ما كان له بالبادية اتصال ، كان للعجاج به شغف وميل إلى نقله وتصويره . إلا أن هذه المقدمات ربما جاءت سريعة جداً ، حتى ليبدو واضحاً أنها ماوردت إلا تقليداً لسنة متبعة ومنهج مرسوم في القصيدة التقليدية ، ومن ذلك أرجوزته في مدح عبد العزيز بن مروان (١) :

قلت لعنسٍ قد وَنَسَتْ طَلِيحٍ عَوْجَاءٍ مِنْ تَتَابُعِ التَّطْوِيحِ
فالمقدمة هنا لم تتجاوز ثمانية أبيات ، تحدث فيها عن ناقته ، وطلب إليها أن تصبر على ما أصابها من دأب وجهد في الطريق إلى الممدوح ، ولا ندري إذا كان ضمور المقدمة يرتد إلى قصر الأرجوزة نسبياً ، إذ لا تريد الأرجوزة كلها عن سبعة وعشرين بيتاً .

والمهم أن العجاج قد التزم المنهج التقليدي في بعض الأراجيز ، ولكنه

(١) الأرجوزة ١/١٣ - ٢ .

أغفل هذا المنهج في بعض الأراجيز الأخرى ، فأهمل المقدمات التقليدية ، ولجأ إلى منهج جديد للقصيدة ، فبدلاً من تلك المقدمات التقليدية أصبح العجاج يبدأ الأرجوزة بالموضوعات الدينية ، أو بشيء من الحكمة التي تتناسب وموضوع الأرجوزة ، ومن ذلك أرجوزته في مدح عمر بن عبيد الله ابن معمر (١) :

قَد جَبَّرَ الدِّينَ الِاللَّهَ فَجَبَّرُ وَعَوَّرَ الرَّحْمَنُ مَنْ وَلَّى العَوَرَ
فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعْطَى الحَبْرَ مَوَالِي الحَقِّ إِنْ الثَّمَلَى شَكَرَ

ففي هذه الأرجوزة لم يبدأ بمقدمات تقليدية ، بل قدّم للمديح بالحديث عن جبر الدين بعد أن صدعته الحرورية ، وحمد الله على ماتم من انتصار عليهم ، ثم عرض لعدد من المعاني الاسلامية ، فأشار إلى موقف الرسول عليه السلام وأصحابه بالحديبية ، وعرض لبيعة الرضوان ، وما أراده الله لنبيه من إظهار الدين الحنيف على يديه ، ومهد بكل هذه المقدمة الدينية التي امتدت ستة عشر بيتاً ، ليقول : لقد ظهر الدين على يد محمد صلوات الله عليه ، فجاء هؤلاء الحرورية ليطمسوا معالمه بأهوائهم ، فكان هذا الوقت بالذات هو أوان الجد لابن معمر ، للقضاء عليهم وإيقاد الدين من إفسادهم .

وبذلك كانت مقدمة هذه الأرجوزة لاتستمد معانيها وأسلوبها من المناهج التقليدية ، وإنما تستمدها من الجانب الفكري والسياسي لعصر العجاج ، وهذا أبلغ وأشد تأثيراً من المقدمات القديمة .

ومثل ذلك أيضاً ما قدّم به لموضوع الفخر في قوله (٢) :

(١) الأرجوزة ١/١ - ٤ .

(٢) الأرجوزة ١/١٠ - ٦ .

يَرْبُّ رَبَّ الْبَيْتِ وَالْمَشْرِقِ وَالْمُرْقَاتِ كُلَّ سَهْبٍ سَمَلَقِ
إِيَّاكَ أَدْعُو فَتَقْبَلْ مَلَقِي فَاعْفِرْ خَطَايَايَ وَثَمَّرْ وَرَقِي
إِنَّا إِذَا حَرَبٌ غَدَتْ لَانْتَقِي دِينًا وَلَا مُسْتَأْخِرًا لَمْ يَلْحَقِ

ففي هذه الأرجوزة لم يقدم إلا بأربعة آيات من المعاني الدينية الاسلامية ، ثم انتقل بعدها إلى موضوع الفخر بقبيلته ومالها من أيام على القبائل الأخرى أمثال قبائل بكر بن وائل ، وقبائل عامر بن صعصعة من قبائل كنانة .

وربما تحلى العجاج حتى عن أمثال هذه المقدمات ، وفضل عليها اختيار المطالع القوية ، والدخول مباشرة إلى الموضوع ، فإذا مدح مروان بن الحكم راجياً أن يفك أصفاد سجنائه « عاصم وحيي » ، بدأ بالمديح مباشرة ، واختار قوة الاستهلال وتأثيره ، فقال (١) :

مَا إِنْ عَلِمْنَا وَايَا مِنَ الْبَشَرِ مِنْ أَهْلِ أَمْصَارٍ وَلَا مِنْ أَهْلِ بَرِ
وَلَا عَلَى عِدَانِ مَلِكٍ مُحْتَضِرِ أَوْفَى مِنَ الْمُنْجِي حَيًّا بِالْقَدْرِ
وَعَاصِمًا سَلَمَهُ مِنَ الْغَدْرِ مِنْ بَعْدِ إِرْهَانِ بِيصْمَاءِ الْغَبْرِ

وإذا مدح العجاج لإيقاعه بآبن الأشعث ، لم يبدأ بالمقدمات التقليدية أو بغيرها ، وإنما بدأ بالمديح مباشرة ، واختار الدخول إليه باستفهام يثير الانتباه ويوجه الأسماع إليه ، وينشر من حوله شيئاً من الرهبة والقوة (٢) :

أَلَمْ يَكُنْ أَشَدَّ قَوْمٍ رَحَضًا سَرَاءَهُمْ وَالْأَخْبِينَ رَكْضًا
إِذْ رَكَّضُوا وَالْأَضْعَفِينَ قَبْضًا حِينَ أَطَالُوا فِي الْأُمُورِ الْمَخْضًا

(١) الأرجوزة ١/٢ - ٦ .

(٢) الأرجوزة ١/٦ - ٤ .

وليس من السائع أن نذهب إلى احتمال ضياع المقدمات من هذه الأراجيز وأمثالها ، ذلك لأن هذا الاحتمال قد يصدق في الأراجيز التي نجد آياتاً للعجاج بأوزانها وقوافيها في مصادرنا المختلفة ، ولا وجود لها في الديوان ، فهذا يوحي باحتمال أن تكون هذه الآيات جزءاً منها في الأصل ، كان مقدمة لها ثم سقطت من رواية الديوان لسبب من الأسباب ، وذلك مثل أرجوزته في مديح مصعب ابن الزبير^(١) :

لقد وجدتم مُصْعَباً مُسْتَضْعَباً حين رمى الأحزابَ والمُحَزَّباً
الآن أن الأراجيز الأخرى لا نجد فيها مسوغاً لمثل ذلك الاحتمال ، ولا سيما أن هنالك أراجيز كاملة بمقدماتها ، وهي تشير إلى عدم التزام العجاج بالمنهج التقليدي للقصيدة ، وإنما قد يلجأ إلى مقدمات أخرى يستمدّها من بيئته وعصره ، وإذا كان قد طور في المنهج التقليدي نفسه ، فليس ما يمنع أن يكون قد أحدث تطويراً أبعد ، فأسقط المقدمات كلها في بعض الأراجيز ، واعتمد فيها اعتماداً كلياً على براعة الاستهلال وقوة المطلع ، وهذا ما عمد إليه بعض الشعراء لعهد بني العباس ، فأسقطوا المقدمات التقليدية ، وجعلوا من الحكمة فاتحة لقصائدهم ، ومن المطالع القوية البارعة بدايات لها .

ولم يقف عند هذا التجديد فحسب ، بل أسهم أيضاً في تطوير شكل القصيدة ، وجعلها تختص بموضوع واحد أحياناً ، فإذا كان شعراء الحجاز قد خصصوا قصائدهم للغزل ، وشعراء الخوارج قد أفردوا قصائدهم للنضال السياسي ، فكذلك نجد العجاج قد أسهم في هذه الظاهرة الجديدة للعصر الأموي ، إذ أفرد بعض أراجيزه لأوصاف الصحراء فقط ، أمثال أرجوزته المطولة^(٢) :

(١) الأرجوزة ١/٧ - ٢ .

(٢) الأرجوزة ١/١٩ - ٢ .

جَارِيَّ لَا تَسْتَنْكِرِي عَذِيرِي سِيرِي وَإِشْفَاقِي عَلَيَّ بَعِيرِي
 وَأفرد للمواعظ بعض الأراجيز أيضاً ، مثل أرجوزته (١) :
 الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي اسْتَقَلَّتْ بِإِذْنِهِ السَّمَاءُ وَأَطْمَأَنَّتِ
 وَخَصَّ الْفَخْرَ بِأَرَاغِيزٍ مُسْتَقَلَّةٍ أَيْضاً ، ومنها أرجوزته (٢) :
 يَا رَبُّ رَبَّ الْبَيْتِ وَالْمُشْرِقِ وَالْمُرْقِلَاتِ كُلِّ سَهْبٍ سَمَلْتِ
 وَلديه أرجوزة خاصة بالغزل ، أولها (٣) :

إِنَّ الْغَوَائِيَّ قَدْ غَنَيْنَ عَنِّي وَقَلْتَنِي لِي عَلَيْكَ بِالتَّغْنِي
 فالتخصص في موضوع القصيدة عند بعض الشعراء في العصر الأموي ،
 ولا سيما شعراء الحجاز ونجد وشعراء بعض الأحزاب السياسية كالحوارج ، قد
 وجد في رجز العجاج بعض الأصداء ، مما يشير إلى أن العجاج لم يكن يتلمس
 المناهج القديمة دون التأثير بالأساليب الجديدة .

ومن هنا نجده قد أسهم أيضاً في تطوير آخر بالنسبة إلى شكل القصيدة ،
 إذ أكثر نسبياً من نظم الأراجيز القصيرة التي تعنى بموضوع مستقل غالباً .
 وانتشار المقطعة يرتد إلى العصر الإسلامي الأول وبما جد فيه من أحداث متسارعة ،
 كانت تستدعي قول الشعر تبعاً دون إبطاء أو روية ، ثم أيدها العصر الأموي ،
 إما لتخصص الشعراء أحياناً بنوع واحد من الشعر ، وإما بسبب الأحداث
 السياسية المتزاحمة ، والصراع السياسي الذي ما كانت لتهدأ له نامة خلال حكم بني
 أمية كله .

وهذه الظاهرة الجديدة في الشعر الإسلامي والأموي ظهرت لها بعض

-
- (١) الأرجوزة ١/٢٢ - ٢ .
 (٢) الأرجوزة ١/١٠ - ٢ .
 (٣) الأرجوزة ١/١٦ - ٢ .

الآثار في رجز العجاج ، فرأيناه ينظم المقطعات في موضوعات مختلفة . فثمة مقطعات وصف فيها بغيره ، وتحدث عن شوقه إلى الرحيل والسفر ، ومنها أرجوزته (١) :

أصبحَ مَسْحُولٌ يوازي سِقًا مَلالَةَ يَمَلِّها وَأزَقا
ومنها أيضاً أرجوزته (٢) :

أَنِخَ مَسْحُولٌ مَعَ الصَّبَّارِ مَلالَةَ المَأْسُورِ الإِسارِ
وأفرد بعض المقطعات لوصف الإبل ، كأرجوزته (٣) :

ما كانَ مِنْ رَيْثٍ ولا أَيْنِ آنَ وراءَ شَدِّ لُجْمٍ وَأبْداً
وخص بعض المقطعات بالفخر أو الوعظ أو الغزل أو التعريض ، ومن مقطعات الفخر أرجوزته (٤) :

إنَّا جُعِلنا لِتَمِيمٍ جَبَلا وَمَعْقِلا إذا أرادوا مَعْقِلا
ومن مقطعات الوعظ أرجوزته (٥) :

أَلَيْسَ يَوْمٌ سُمِّيَ الخُرُوجا أعْظَمَ يَوْمٍ رَجَّةٍ رَجُوجا
ومن مقطعات الغزل أرجوزته (٦) :

مالِغَواني مُعْرِضاتٍ مُصدِّدا وَقَدَّ أراهُنَّ إلينا عُنْدا
ومن مقطعات التعريض أرجوزته (٧) :

(١) الأرجوزة ١/٣ - ٢ .

(٢) الأرجوزة ١/٤ - ٢ .

(٣) الأرجوزة (٣٢) وتتألف من (٩) أبيات .

(٤) الأرجوزة (٢٨) وتتألف من (٧) أبيات .

(٥) الأرجوزة (٣١) وتتألف من (١٧) بيتا .

(٦) الأرجوزة (٢٧) وتتألف من (٢١) بيتا .

(٧) الأرجوزة (٣٠) وتتألف من (٩) أبيات .

لم ترهَبِ الشَّعْواءُ أَنْ تُنَاصَا تَدْعُو حُرَيْثاً وابْنَه وَقَاصَا
 وبما تقدم ندرك أن العجاج لم يتخلف عن التطوير العام للقصيدة الأموية ،
 فقد ألمّ بمنهج القصيدة وشكلها في العصر الأموي ، وكان لديه الأساس أحياناً
 لما ظهر من تطور في شكل القصيدة أيام دولة بني العباس ، إذ حاول أن
 يتخفف أحياناً من المقدمات التقليدية ، وعمد أحياناً أخرى إلى تخصيص
 الأرجوزة لموضوع واحد فحسب ، أو قصرها على أبيات قليلة لاتخرج عن
 حدود ما عرف بالمقطعات .

ولم يقف تجديد العجاج عند الإسهام في تطوير شكل القصيدة فحسب ،
 بل رأيناه يطوّر شكل الرجز نفسه ، إذ كان له الحظ الأوفى في تقصيده
 وإطالته بعد الأغلب العجلي ، ولهذا كان الرجز يكاد يكون الوزن الوحيد
 الذي أنشأ عليه قصائده ، إلاّ ما كان يخرج إليه أحياناً من بعض أوزان
 مشطور السريع ، وهي بما يختلط بأوزان الرجز ، أو يمكن أن تعتبر من
 أوزانه نفسها^(١) ، ولهذا عُرِف ديوانه بأنه « ليس فيه سوى الأراجيز^(٢) » ،
 ولا نجاد نجد للعجاج أوزاناً أخرى ، غير خمسة أبيات نسبت إليه في بعض
 المصادر ، إذ نَسَب إليه الراغبُ الأصفهاني بيتين من الطويل ، وهما^(٣) :

يَرى راحَةً في كَثرةِ المَالِ رَبُّهُ وَكَثرةِ مالِ المَرْءِ المَرْءُ مُتَعِبٌ
 إِذا قَلَّ مالُ المَرْءِ قَلَّتْ مُهُومُهُ وَتَشَعَّبَ الأَموالُ حينَ تَشَعَّبَ

ونسب إليه الدميري بيتاً من الكامل ، وهو^(٤) :

(١) انظر الخزّانة ٥١٢/٤ (بولاق) ، والمقاصد النحوية ٥١٤/٤ ، ومن ذلك
 الأرجوزة (٢٥) من الديوان .

(٢) وفيات الأعيان ٦٣/٢ ، وكشف الظنون ٧٩٠/١ ، والمقاصد النحوية
 ٢٦/١ .

(٣) محاضرات الادباء ٢٤٧/١ .

(٤) حياة الحيوان ١٨٥/١ ، وأنشده ابن منظور في اللسان (صفن) عن
 ابن الاعرابي دون نسبة .

ألف الصفون فلا يزالُ كأنه بما يقوم على الثلاث كسيراً
ونسب إليه ابن منظور بيتين من الكامل أيضاً ، وهما (١) :

الله يعلم يا مغيرة أنني قد دسّتهادوس الحصان المرسل
وأخذتها أخذ المقصب ساته عجلان يذبجها لقوم نزل

وهذه الأبيات إن صح الشك في الثلاثة الأولى منها ، فاحتمال الشك ضعيف في البيتين الأخيرين ، وذلك لارتباطها بجاذبة معينة من حياة العجاج ، وهي ما رأيناه من طلاقه لزوجته عقرب ، ولذا يمكن أن يكونا دليلاً على خروج العجاج أحياناً سيرة إلى غير الرجز من الأوزان الشعرية الأخرى ، إلا أنه مع ذلك لم يُعرف بغير الرجز ، ولم يُنقل إلينا في ديوانه غير الأراجيز ، وهذا مادفع به إلى شيء من الرثوب وعدم التنويع في الجرس الموسيقي للأرجوزة ، وذلك لأن الشطر الواحد كان يؤلف يتأمتقلاً بعروضه وضربه (٢) ، ولا يسمح بامتداد الأمواج الموسيقية كالذي يحدث في أبيات القصيد ، ولهذا ربما وجدنا أوصاف ذي الرمة أكثر حيوية من أوصاف العجاج ، لما تمتاز به من إيجاء موسيقي ، وجرس تصويري ، لا يمكن للرجز أن يعوض منه ، ولا سيما أن الرجز قد اتخذ لنفسه خصائص الإغراب في اللفظ والأبنية والصيغ من نحو وصرف .

ومع ذلك فقد عني العجاج بالجانب الموسيقي ، وحاول أن يُخرج

(١) اللسان (فتح) ، وأنشدهما الجاحظ دون نسبة في البيان ٣٥١/٢ ، والحيوان ٥٦/٣ .

(٢) ولهذا كانوا يعدون أبيات الأرجوزة باعتبار الأقطار ، وهذا ما فعلناه في شرح الديوان ، انظر حديث المعري عن ذلك في رسالة الملائكة ١٩٥ - ١٩٦ ، وانظر أيضاً العمدة ٥٦/١ ، والأغاني ١٢٤/١٨ ، و٦٠/٢١ ، والمزهر ٤٨٤/٢ ، والخزانة ٣٩/٤ .

الرجز إلى شيء من الحيوية ، فعمد إلى تكرار الألفاظ بكثرة داخل الأبيات ، ليخلق شيئاً من التجاوب الموسيقي بين أمواج البيت الواحد ، ومن أمثلة ذلك قوله (١) :

وزفرت فيه السواقي وزفر
بغرة نجم هاج ليلاً فبغر
ماء نساخ حابست منه فدر
حدواء تحدوه إذا الوابل انتشر
وإن أصاب كدراً مد الكدر

فقد كرر بعض الأفعال والأسماء داخل الأبيات ، لينشأ عنها تجاوب موسيقي في الأمواج الداخلية للبيت . ومن أمثال هذا أيضاً قوله في عاصم وحيي (٢) :

فأصبحا بنبجوة بعد ضرر
مستمين من إسار وأسر
ومنه أيضاً قوله في الحجاج (٣) :

فانقض بالنحوس حين انقضا
ورهبوا النقض فلاقوا نقضا
فجمعوا منهم قضيضاً قضا
جاءوا مخلصين فلاقوا حمضا
طاغين لا يزجر بعض بعضاً

ومنه أيضاً قوله في مصعب بن الزبير (٤) :

لقد وجدتم مضعباً مستصعباً
حين رمى الأحزاب والمخزباً
وخشبي الأعجم والمخشباً
والدرب ذا البنيان والمدرباً

وأمثال هذا كثير جداً في رجز العجاج ، حتى يمكن أن نعتبره إحدى الخصائص البارزة في أسلوبه ، ولم يكن يجري على لسانه مصادفة أو

(١) الأرجوزة ٥١/١ - ٥٥ .

(٢) الأرجوزة ١١/٢ - ١٢ .

(٣) الأرجوزة ٦/٦ - ١٠ .

(٤) الأرجوزة ١/٧ - ٤ .

دون وعي منه ، وانما كان يقصد إليه قصداً ، ويجري إليه جرياً ، بل كان يطلق عليه اسماً بعينه ، فيسميه بـ « عطف الرجز » ، وقد مرّ بنا أن ابن رشيق قال في باب التجنيس : « ولم تكن القدماء تعرف هذا اللقب ، أعني التجنيس ، يدلك على ذلك ما حكى عن رؤبة بن العجاج وأبيه ، وذلك أنه قال له يوماً : أنا أشعر منك . قال : وكيف تكون أشعر مني ، وأنا علمتكم عطف الرجز ؟ قال : وما عطف الرجز ؟ قال :

عاصمٌ يا عاصمٌ لو اعتصم^(١)

قال : يا أبتِ أنا شاعر ، وأنت شاعر ابن معجم ، فغلبه . فأنت ترى كيف سمّاه عطفاً ، ولم يسمّه تجانساً ، اللهم إلا أن يذهب بالعطف إلى معنى الالتفات فنعم^(٢) .

وسواء أراد به معنى « التجنيس » أو « الالتفات » ، فالهم أنه كان يعي هذا الجانب الموسيقي في رجزه ويسعى جهده إلى تجويده والإكثار منه ، حتى يخرج بالرجز من الثبات إلى التنويع الموسيقي ، وربما زاد على ذلك شيئاً من التألق في تقسيم البيت إلى أمواج موسيقية تشبه أن تكون فواصل ثابتة داخل البيت الواحد ، فينشأ عن ذلك ترنيم وائع لا يخلو من التنويع والحيوية داخل كل بيت ، ومن ذلك قوله^(٣) :

وَاحْتَضَرَ الْبَأْسَ ، إِذَا الْبَأْسُ حَضَرَ
بِمَجْمَعِ الرُّوحِ ، إِذَا الْعَامِي انْبَهَرَ
يُمْكِنُ السِّيفَ ، إِذَا الرُّمْحُ انْطَرَّ
فِي هَامَةِ اللَّيْثِ ، إِذَا مَا اللَّيْثُ هَرَّ
كَجَمَلِ الْبَحْرِ ، إِذَا خَاضَ جَسْرُ
غَوَارِبِ الْيَمِّ ، إِذَا الْيَمُّ هَدَرَ

(١) الأرجوزة ٣٩/٢٣ ، ورواية الديوان : « وعاصم ما عاصم لو اعتصم » .
(٢) العمدة ٢٢٧/١ - ٢٢٨ .
(٣) الأرجوزة ٩٤/١ - ٩٩ .

فكل بيت ينقسم إلى موجتين من الموسيقى ، تنتهي الأولى قبل « إذا » ،
وتبدأ الثانية بها ، وبهذا يتحوّل البيت إلى ما يشبه القرار والجواب في الموسيقى ،
ثم لا تلبث بعض هذه الأمواج المتجاوبة أن تتلون بتكرار بعض الألفاظ
بين الأولى والثانية ، فتعطي بذلك جرساً وأمواجاً جانبية ، ومن تعانق هذه
الأمواج وتلك في أبيات متوالية ، تتحول الأبيات إلى ما يشبه اللحن الأخاذ ،
وهذا اللحن قد لا يُفسد من روعته إلا بعض الألفاظ الغريبة ، وحتى غرابة
هذه الألفاظ قد لا تمنع الآذان من التزم بتلك الأبيات لما فيها من تلوين
موسيقي ، وتنويع في الأمواج الموسيقية المتعددة .

وعناية العجاج بالجانب الموسيقي في رجزه ، ربما حملته على شيء من الالتزام في
قوافيه ، وذلك حرصاً منه على دقة الإيقاع الموسيقي ، وانسجام الجرس من
بيت لآخر ، ولهذا ألزم نفسه بالفتح أبداً قبل الراء المقيدة في أرجوزته^(١) :

قد جَبَرَ الدِّينَ الإلهُ فَجَبَرَ وَعَوَّرَ الرَّحْمَنُ مِنْ وَلَّى العَوَّرَ

وكان لهذا الالتزام وقع مستحب لدى قدامى النقاد ، فابن جني يقول
في هذه الرائية : « .. وذلك أنه التزم الفتح قبل رويها البتة . ولعمري
إن هذا مشروط في القوافي ، غير أنك قلما تجد قافية مقيدة إلاّ وأتت
الحركات قبل رويها مختلفة ، وإنما المستحسن من هذه الرائية سلامتها بما لا يكاد
يسلم منها غيرها^(٢) » .

وكانوا يطلقون على اختلاف الحركات قبل الروي المقيد اسم « التوجيه »
أشار إليه العسكري وأثنى على العجاج لاحتراسه منه ، فقال : « والتوجيه
في المقيد ان يكون ما قبل حرف الروي مختلف الحركات . ومن أهل

(١) الأرجوزة ١/١ - ٢ .

(٢) الخصائص ٢/٢٦٠ .

القوافي من يجيزه على قبح ، وهو الأخفش ، ويقول : قد كثر من فصحاء العرب . والحليل يجيز الضمة مع الكسرة ، ثم قالوا : ألا يكون مع الفتحة غيرها ، فإن كان مع الفتحة ضمة أو كسرة فهو « سناد » . . ، ولم يفتن للاحتراس من هذا أحد من الشعراء كما فطن إليه العجاج في قصيدته :

قد جبر الدين الاله فجبر

فلم يُخِلَّ بيت واحد ، ولم يلتزم التوجيه فيها^(١) . . « .
ومثل هذا الالتزام لتجويد الجانب الموسيقي في الشعر كان ثَمَوًا لمذهب الصنعة في عصر العجاج إذ نجد التزاماً آخر عند معاصريه من أمثال كثير ، وفي هذا يقول الدكتور شوقي ضيف : « وكثير يصور لنا نموّ مذهب الصنعة عنده من جانب آخر هو الجانب الموسيقي ، فقد كان يُصعَّبُ على نفسه ، إذ يضيق على نفسه المرات التي يسلكها إلى شعره ، كما صنع في قصيدته :

خليليّ هذا رَسْمٌ عَزَّةَ فاعقِلا قَبَلِوَصِيكُما مابِكيا حيثُ حَلَّتِ
فقد التزم اللام المشددة في القصيدة كلها ، وبذلك كان من أوائل من وضعوا أسس الطريقة التي طبقها أبو العلاء في لزومياته^(٢) .
وعلى الرغم من عناية العجاج بالجانب الموسيقي ، فإن طبيعة الرجز تدعو إلى شيء من الثبات أو الجمود لا نجدّه غالباً في أبيات القصيد ، ولهذا ربما فضلنا أبياتاً من شعر ذي الرمة في وصف الصحراء ، على أبيات في الموضوع

(١) شرح مايقع فيه التصحيف ٢٨٦ - ٢٨٧ .

(٢) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ٢٢ .

نفسه من أراجيز العجاج ، رغم كل ما رأيناه في هذا الرجز من روعة في التصوير ، ودقة في المعاني .

ولم يعن العجاج بشكل الأرجوزة أو بالجانب الموسيقي فحسب ، وإنما أراد لمدرسته خصائص أخرى ، يمكن أن تدرج ضمن الخصائص اللفظية ، ولكننا أفردناها في فصل خاص بها ، ليكون من السهل تبويبها وبسط شيء من أمرها ، وهي الخصائص اللغوية والنحوية .



الفصل السادس

الخصائص اللغوية والنحوية

إن الخصائص اللغوية والنحوية جد متشعبة في رجز العجاج ، ولكنها يمكن أن ترتد إلى عدد من الظواهر العامة في رجزه ، وهي إغراب العجاج في ألفاظ اللغة ، وحفاظه على كثير من نواذر الألفاظ والأبنية ، ثم توليده في أبنية اللغة وألفاظها ، وتصرفه الواسع في هذه الابنية ، ثم تصرفه في القواعد المألوفة للغة . وهذه الظواهر يمكن من خلالها أن نحدد السمات اللغوية والنحوية العامة في رجزه .

١ - الإغراب في اللغة

لاشك أن الإغراب في ألفاظ اللغة ، كان من أبرز ما أراده العجاج لمدرسة الرجز من خصائص ، وهذا الإغراب يذهب عند قدامى النقاد إلى ضربين اثنين ، الأول منها ما يحتاج فهمه إلى بحث وتنقيب وكشف في كتب اللغة ، والثاني ما يحتاج إلى تدقيق النظر وتخريج اللفظ على وجه بعيد لاحتماله عدة وجوه في المعنى مع ان الكلمة مألوفة ليست بوحشية ، قال الخطيب القزويني : « والغرابة أن تكون الكلمة وحشية لا يظهر معناها ، فيحتاج في معرفته إلى أن يُتقَرَّ عنها في كتب اللغة المبسطة ، كما رُوِيَ عن عيسى بن عمر

النحوي أنه سقط عن حمار ، فاجتمع عليه الناس فقال : مالكم تكأ كاتم
علي تكأ كؤمك علي ذي جُنَّة ، افرنقوا عني . اي اجتمعتم تنحوا . أو
مُجْرَج لها معنى بعيد كما في قول العجاج (١) :

وفاحماً ومرسناً مُسْرَجاً

فإنه لم يُعرَف ما أراد بقوله « مُسْرَجاً » ، حتى اختلف في تخريجه ،
فقيل : هو من قولهم للسيوف سُريجيَّة ، منسوبة إلى قين يقال له سُريج ،
يريد أنه في الاستواء والدقة كالسيف السريجي ، وقيل : من السراج ، يريد
أنه في البريق كالسراج ، وهذا يقرب من قولهم : سُرَج وجهه بكسر
الراء ، أي حُسْنه ، وسُرَج الله وجهه أي بهجه وحسنه (٢) .
وقال القلقشندي : « ثم الغريب على ضربين : الضرب الأول ما يعاب
استعماله مطلقاً ، وهو ما يحتاج في فهمه إلى بحث وتنقيب ، وكشف في كتب
اللغة ، كقول ابن جحدر :

حلفتُ بما أرقلتُ حولهَ هَمْرَجَلَةٌ خلقتها سَيْظَمُ

وما سبرقتُ من تنويفيةَ بها من وحي الجنِّ زيزيزم (٣) »

ثم قال بعد شرح الغريب في هذه الأبيات : « الضرب الثاني : ما يحتاج
إلى تدقيق النظر في التصريف وتخريج اللفظ على وجه بعيد كلفظ « مسرَج »
في قول العجاج :

ومقلّةً وحاجباً مُزججاً وفاحماً ومرسناً مُسْرَجاً

(١) الأرجوزة ٤٠/٣٣ .
(٢) الايضاح ٩/١ - ١٢ ، ونقله السيوطي في الزهر ١٨٦/١ ، وانظر متن
التلخيص للخطيب القزويني ٤ - ٥ ، ومختصر المعاني للتفتازاني ٩ .
(٣) صبح الأعشى ٢٠٤/٢ .

فالقطة شحمة العين ، والحاجب معروف ، والمزجج المقوس مع طول ودقة في طرفه ، والفاحم الشعر الأسود الذي لونه كلون الفحم ، والمرسن الانف ، ووصفه بكونه مسرجاً ، إما أنه كالسيف السريجي في الدقة والاستواء ، والسريجي نسبة إلى قين يسمى سريجاً تنسب إليه السيوف ، وإما أنه كالسراج في البريق واللمعان ، أو من قولهم سرج الله وجهه إذا بهجه وحسنه ، فهذا ومثله بما لا يقف على معناه إلا من عرف التصريف وأتقنه (١) .

والنوع الأول من الغريب قد رأيناه بكثرة في كل ما مر بنا من رجزه ، ذلك لأنه لا يكاد يفارق موضوعاً من الموضوعات ، فالعجاج يغرب في ألفاظه حتى في موضوعات الغزل نفسها ، مع أنها أحوج ما تكون إلى اللفظ المألوف ، حتى لا يتلاشى وراء الإغراب ما فيها من توقد العواطف ، أو رقة المعاني ، فإذا عدنا إلى بعض أبياته في الغزل كان لا بد أن نشغل بالتقريب عن معاني الألفاظ أولاً ، ثم نمضي إلى فهم الأبيات وما فيها من تصوير لعواطفه ومشاعره ، ومن أمثلة ذلك قوله في ليلي (٢) :

فَهِيَ كِرْعِدِيدِ الْكَيْبِ الْأَهِيمِ .	مَوْصُولَةُ الْمَلْحَاءِ فِي مُسْتَعْظَمِ .
فِي كَفَلٍ بِنَحْضِهِ مُلْكَمِ .	وَعَثِ كَارَكَانِ النَّقَا الْمُجْرَثِمِ .
إِلَى سَوَاءِ قَطَنِ مُؤَكَّمِ .	رَبِيًّا الْعِظَامِ فَعَمَّةُ الْمُخَدَّمِ .
فِي صَلَبِ مِثْلِ الْعَنَانِ الْمُؤَدَّمِ .	لَيْسَ بِيَجْعَشُوشٍ وَلَا بِيَجْعَشْمِ .
تَجَلَّوْ بِعُودِ الْإِسْجِلِ الْمُفْصَمِ .	غُرُوبِ لَأَسَاسٍ وَلَا مِثْلَمِ .

فالعجاج في هذه الأبيات يرسم عدداً من الصور الحسية لتلك المرأة التي

(١) صبح الأعشى ٢/٢٠٥ .

(٢) الأرجوزة ٢٤/٢٥ - ٣٤ .

يتغزل بها ، ولكن صورة « ليلي » لا تكاد تظهر امام نواظرننا ، إلا بعد لأي وعناء في التنقيب عن معاني الألفاظ الغريبة ، التي تتزاحم داخل الأبيات .
ومثل هذا نجد أيضاً في قوله يتغزل بامرأة اخرى (١) :

فقد سبتني غير ما تعذير
مرمارة مثل النقا المر مور
براقة كظبية البرير
تمشي كمشي الوحل المبهور
على خبندى قصب ممكور
كعنفرات الحائر المسكور
غراء تسبي نظر النظور
بفاحم يعكف أو منشور
كالكرم إذ نادى من الكافور
في خششاوى حررة التخير

ولا نكاد نستين شيئاً من أوصاف هذه المرمارة ، وهي المرأة الشابة الناعمة ، إلا بعد الوقوف طويلاً على معاجم اللغة ، نسائلها عن جمهرة من الألفاظ الغريبة التي استعملها العجاج في أبياته .

ومثل هذا أيضاً قوله يتغزل بامرأة أخرى (٢) :

كانما عظامها بردي
سقاء ريتاً حائر روي
بالمأد حتى هو يموودي
في أيكهِ فلا هو الضحي
ولا يلوح نبتة الشتي
لاث به الأشاء والعبري
فتم من قوامها قومي
فعم بناه قصب فعمي
معدلج بيض قفاخري
وكفل يرتج رجراجي
كالدعص أعلى تربيه مشري

فهذه أبيات في الغزل ، وكان ينبغي ألا يزدحم فيها هذا الحشد من الغريب ، إلا أن مذهب العجاج هو الإغراب في اللغة ، ولا فرق عنده بين الغزل

(١) الأرجوزة ١٩/١٩ - ٢٨ .

(٢) الأرجوزة ٢٥/٢٧ - ٣٧ .

أو غيره من الموضوعات ، وكأنا يتخذ من رجزه ميداناً لعرض هذه الألفاظ الغريبة ، يستمدّها من حياته في البادية ، ثم يعرضها على الناس في الحواضر الجديدة ، في البصرة أو في واسط أو في دمشق .

ولم يقتصر على هذا الضرب من الإغراب ، وإنما اتجه إلى النوع الثاني ، وهو ما يحتاج إلى تدقيق النظر في الألفاظ لاحتمالها عدّة وجوه في المعنى ، ومن هنا كان الخلاف واسعاً في شرح بعض آياته ، ومن أمثلة ذلك ما رأيناه منذ حين في قوله (١) :

ومقلّةً وحاجباً مزججاً وفاحماً ومرسناً مُسرّجاً

فوصّفه للأنف بأنه « مسرج » ليس بالكلام الغريب الوحشي ، ولكن فهمه يحتاج إلى دقّة وبعُد في تخريج الكلمة وردّها إلى الاصل الذي اشتقت منه ، فربما شبه الأنف بالسيف السريجي في دقته واستوائه ، وربما ذهب به إلى معنى بريق السراج ولمعانه فأراد بالمرسج معنى المحسّن أو المثير ، ومن ثم اختلف الناس في تفسيره ، بعضهم أشار إلى هذا المعنى وذلك ولم يجزم بواحد منها (٢) ، وبعضهم ذهب إلى المعنى الأول دون إشارة إلى غيره (٣) ، وجماعة وقفت عند المعنى الثاني ولم تشر إلى الأول مطلقاً (٤) .

ومن هذا قوله في مطلع الرائية (٥) :

-
- (١) الأرجوزة ٣٣/٣٩ - ٤٠ . والمرنين : الأنف .
 - (٢) جمهرة اللغة ٧٦/٢ ، ٣٣٨ ، والمزهر ١٨٦/١ ، وصبح الأعشى ٢٠٥/٢ ، ومختصر المعاني ٩ ، والايضاح ١٢/١ ، ومتن التلخيص ٥ .
 - (٣) أمالي القالي ٢٣٨/٢ ، والصحاح ٣٤٢/١ .
 - (٤) مقاييس اللغة ١٥٦/٣ ، والمخصص ١٥٤/٢ ، ومختصر تهذيب الألفاظ ١٢٧ ، وكنز الحفاظ ٢٠٧ ، والأزمنة والامكنة ٣٢٥/٢ ، والمفردات في غريب القرآن ٢٢٩ ، وأسرار البلاغة ٣٠ ، والمقاصد النحوية ٣٥/١ ، وشرح شواهد المعنى ٢٦٩ .
 - (٥) الأرجوزة ١/١ - ٢ .

قد جَبَرَ الدِّينَ الإِلَهَ فَجَبَرُ وَعَوَّرَ الرَّحْمَنُ مِنْ وَوَلَّى الْعَوَّرَ
 فالعَوَّرَ من الكلام المألوف ، إلاّ أن الإغراب فيه يبرز في تحصيل
 المعنى الذي أراده العجاج بدقّة ، ومن ثمّ كان الخلاف حول تفسير البيت ،
 فالأصمعي قال في شرحه : « يقول : أفسد الرحمن من ولّاه العور ، أي
 جعله ولياً للعور . والعور : قبح الأمر وفساده » ، وتابع الأصمعي على هذا
 الرأي كثيرون^(١) ، إلاّ أن البيت لم يقف عندهما هذا التفسير ، وإنما كان هدفاً
 لكثير من التأويل والاختلاف ، فجماعة جعلت « العور » هنا بمعنى « الحق » ،
 وفسروه بقولهم : « أي وحقق الله قولَ مَنْ ولّاه الحق^(٢) » . وآخرون
 جعلوه بمعنى « ترك الحق » ، فقال أبو عبيدة « والأعور : الذي قد عوّر فلم
 يقض حاجته ولم يصب ما طلب ، قال العجاج : (البيت) ، وليس هو من
 عور العين^(٣) . وردّ ابن فارس ذلك كله ، فجعل « العور » هنا من عور
 العين نفسه ، فقال : « قولهم : إن العور ترك الحق ، وإنشادهم قول
 العجاج (البيت) ، فالقياس غير مقتض للفظ الذي ذكر من ترك الحق ،
 وإنما أراد العور الذي هو عور العين ، يضربه مثلاً لمن عمي عن الحق فلم
 يهتد إليه »^(٤) .

وما هذا الاختلاف إلاّ لأن الكلمة تحتاج إلى تल्पف وبعد نظر في تأويلها
 وتخريج معناها ، ومن ذلك أيضاً قوله يذكر تقدم السن به^(٥) :

(١) ابن قتيبة في المعاني الكبير ٧٦٩/٢ ، ٨٦٥ ، والجواليقي في شرح أدب
 الكاتب ٣١٧ ، والجوهري في الصحاح ٧٦٢/٢ ، وابن القطاع في الأفعال
 ٣٨٨/٢ ، والبغدادي في الخزانة ٤٠/٤ .
 (٢) نقل ذلك ابن القطاع في الأفعال ٣٨٨/٢ ، وقال به ابن الأنباري في
 في الأضداد ٣٨ .

(٣) مجاز القرآن ٢٠٥/٢ ، وانظر اللسان (عور) .

(٤) مقاييس اللغة ١٨٦/٤ .

(٥) الملحقات ١/١٧ .

إِذَا تَرَيْنِي أَصْلَ الْقَعَادِ

فَقَوْلُهُ « الْقَعَادَا » لَيْسَ بِالْوَحْشِيِّ الْغَرِيبِ ، وَلَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ أَثَرٌ خِلَافاً حَوْلَ شَرْحِ الْبَيْتِ ، فَالْعَسْكَرِيُّ نَقَلَ أَنَّ الْأَصْمَعِيَّ أَنْشَدَ هَذِهِ الْآيَاتِ « فَقَالَ لَهُ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ : مَا الْقَعَادُ ؟ فَقَالَ : يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ مَنْ قَعَدَ مِنَ الرِّجَالِ عَنْ طَلَبِ الْغَزْلِ الْكَبِيرِ ، أَوْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْلَ ذَلِكَ . فَقَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ : هَذَا لِلرِّجَالِ فَأَمَّا النِّسَاءُ فَجَمَعْنَهُنَّ قَوَاعِدَ ، كَمَا قَالَ عَزٌّ وَجَلُّ (١) ، فَضَحِكَ الْأَصْمَعِيُّ ، وَأَنْشَدَ لِلْقَطَامِيِّ :

أَبْصَارُهُنَّ عَنِ الشَّيْخَانِ مَائِلَةٌ وَقَدْ أَرَاهُنَّ عَنِّي غَيْرَ صُدَّادٍ
فَسَكَتَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ ، فَلَمْ يَجِرْ جَوَاباً (٢) .

فَالْأَصْمَعِيُّ لَمْ يَقْطَعْ فِي شَرْحِ الْبَيْتِ ، وَلَمْ يَجِدْ إِنْ كَانَ الْمَعْنَى خَاصّاً بِالرِّجَالِ أَوْ النِّسَاءِ ، وَلِهَذَا وَجَدْنَا ابْنَ قَتَيْبَةَ يَخْصُهُ بِالنِّسَاءِ ، فَيُشْرِحُ الْبَيْتَ بِقَوْلِهِ : « الْقَعَادُ جَمْعُ قَاعِدٍ مِنَ النِّسَاءِ ، وَهِيَ الَّتِي قَعَدَتْ عَنِ الْحَيْضِ وَالْوَالِدِ ، يَقُولُ : صَرَتْ شَيْخاً لَا أَزُورُ الشَّوَابَ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَبَدَّلَتْ » (٣) ، ثُمَّ نَجَدَ التَّبْرِيزِيُّ يَخْصُهُ بِالرِّجَالِ عَلَى مَا يَبْدُو مِنْ قَوْلِهِ : « قَعَادُ جَمْعُ قَاعِدٍ ، وَإِنَّمَا يَصْلُهُمْ وَيَكُونُ مَعَهُمْ لِكِبَرِهِ وَضَعْفِهِ ، وَلَا يَكُونُ مَعَهُ مِنْ يَتَصَرَّفُ (٤) » .

وَمِثْلُ هَذَا قَوْلُ الْعَبَّاجِ يَصِفُ الثَّورَ (٥) :

يَتَّبَعْنَ ذِيَّالاً مُوسَى هَبْرَجَا

وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ فِي شَرْحِهِ : « وَالْهَبْرَجُ : الَّذِي يَخْلُطُ فِي مَشِيئِهِ ، يَتَّبَعْتَرُ .

(١) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا » ، سُورَةُ النُّورِ ٢٤/٦٠ .

(٢) شَرْحُ مَا يَتَّبَعُ فِيهِ التَّصْحِيفُ ١٥٤ .

(٣) الْمَعَانِي الْكَبِيرُ ٣/١٢٢٤ .

(٤) تَهْدِيبُ إِصْلَاحِ الْمَنْطِقِ ١/١٦٤ .

(٥) الْأَرْجُوزَةُ ٣٣/١٣ .

قال ولم أسمعه إلاّ في هذا البيت - . ومثل ذلك ما أورده صاحب اللسان في شرح البيت ، فقال : « قال أبو نصر : سألت الأصمعي مرة : أي شيء هبرج ؟ قال : يخلط في مشيه . الأصمعي أيضاً : الهبرج المختال »^(١) ، فالأصمعي لم يحدد المعنى ، وإنما تركه بين أمرين : الذي يخلط في مشيته ، أو الذي يختال ويتبختر . واقتصر ابن قتيبة على المعنى الأخير فقال في شرح البيت : « هبرج : يتبختر »^(٢) ، وقال ابن السيد في شرحه أيضاً : « والهبرج : المتبختر في مشيه »^(٣) . إلاّ ان ابن دريد لم يذهب في شرح البيت إلى هذا المعنى أو ذاك ، وإنما قال : « يعني ثوراً طويلاً الذنب ، والهبرج : السريع ، ويقال : المسنّ »^(٤) ، وما هذا الخلاف إلاّ لان العجاج قد تفرّد في وصف الثور بـ « الهبرج » ، ولها معان متعددة ، ومن ثمّ كان لا بد من دقة وبعد نظر في تحديد معناها داخل البيت .

ومن هذا أيضاً قوله في وصف المنهل^(٥) :

يَكشِفُ عن جَمّاتِهِ دَلوُ الدّالِّ

فكلمة « الدالي » ليست بوحشية ولا غريبة ، ولكن استعمالها في بيت العجاج يحتاج فهمه إلى تدقيق النظر ، والبعد في تخريج المعنى المراد ، ففي اللغة يقال : دلا الدلوّ إذا جذبها وأخرجها من البئر ، فهو دالّ ، وأدلى الدلوّ إذا ألقاها في البئر ليستقي ، فهو مُدلى . ومن هنا ذهب ابن قتيبة إلى ان الدالي في البيت بمعنى المدلي فقال : « فإن الدالي هو الجاذب للدلو ليخرجها ، يقال دلا يدلو ، والمدلي هو المستقي ، يقال أدلى دلوه إذا ألقاها

-
- (١) اللسان (هبرج) .
 - (٢) المعاني الكبير ٧٦٧/٢ .
 - (٣) الاقتضاب ٤٢١ .
 - (٤) جمهرة اللغة ١٨٠/١ .
 - (٥) ملحقات الديوان ٢٦/٦٤ .

في الماء ليستقي ، ولو قال العجاج « المدي » لكان أشبه بما أراد ، ولكنه أراد القافية ، وعلم أن الدالي والمدي يجوز أن يوصف بها المستقي بالدلو ، قال : فأراد : يكشف عن الماء دلو المستقي (١) . واتجه الجوهري إلى هذا الرأي ، فقال : « وقد جاء في الشعر الدالي بمعنى المدي ، وهو في قول العجاج يصف ماء : (البيت) ، يعني المدي (٢) » .

وردت علي بن حمزة على هذا الرأي ، ورآه غلطاً بمن ذهب إليه في تفسير بيت العجاج ، ثم قال : « وإنما المعنى فيه أنه لما كان المدي إذا أدلى دلوه عاد فدلاها أي أخرجها قال دلو الدال ، كما قال النابغة :

مِثْلُ الإِمَاءِ الغَوَادِي تَحْمِلُ الحِزْمَا

وإنما تحملها عند الرواح ، فلما كُنَّ إذا غَدَوْنَ رُحْنَ ، قال : مثل الإماء الغوادي (٣) » .

ولم يقف الخلاف عند رأي ابن حمزة ، وإنما امتد إلى رأي ثالث جاء به أبو منصور الجواليقي ، إذ حملها على النسب ، فقال في شرح البيت : « والدالي : الجاذب للدلو ليخرجها ، ويقال : الدالي صاحب الدلو كاللأبن والتامر (٤) » .

ولا شك أن الكلمة لو أفردت عن بيت العجاج لما كان فيها شيء من الأشكال أو الغرابة ، ولكنها في بيت العجاج أحوجت إلى بعد في التأويل ، واختلاف في الرأي ، لان استعمالها على هذا النحو لا يفهم إلا بتدقيق النظر ، والبعد في تخريج المعنى المراد .

(١) أدب الكاتب ٦٣٦ .

(٢) الصحاح ٢٣٣٩/٦ .

(٣) اللسان (دلا) .

(٤) شرح أدب الكاتب ٤١٠ .

وهذا النوع من الإغراب يُوجد كذلك عند رؤبة ، ومن أمثله قوله (١) :

أو مُجْن عنه عَرِيَّتْ أَعْرَاوَه

وقال فيه ابن جني : « فيجوز أن يكون جمع عَرَاءٍ ، ويجوز أن يكون جَمْعُ عُرْيٍ ، ويجوز أن يكون جمع عَرَأٍ ، من قولهم : نزل بَعْرَاهُ أَي نَاحِيَتَهُ (٢) » .

وأمثال هذا نصادفه بكثرة في رجز العجاج ، لأن الإغراب هو المذهب الذي أَرَادَهُ لِرَجْزِهِ ، سواء كان هذا الإغراب في استعمال ألفاظ وحشية غير مألوفة ، أو في استعمال ألفاظ مألوفة ولكنها غير واضحة الدلالة بدقة وتحديد، وربما اتجه إلى نوع ثالث من الإغراب وهو استعمال الألفاظ الأعجمية ، وقد تنبه القدامى إلى هذه الظاهرة من الأغراب عند الشعراء ، ورأوا فيها شيئاً من التطرف فقال ابن رشيق : « ولشعراء ألفاظ معروفة ، وأمثلة مألوفة ، لا ينبغي للشاعر أن يعدوها ولا أن يستعمل غيرها .. إلا أن يريد شاعر أن يتطرف باستعمال لفظ أعجمي ، فيستعمله في الندرة وعلى سبيل الحظرة كما فعل الأعشى قديماً وأبو نواس حديثاً ، فلا بأس بذلك (٣) » .

وأشار الجرجاني إلى مثل ذلك ، فقال : « وقد استعمل العجاج في قوافي جيمته ألفاظاً منه ، فقال (كما رأيت في الملاء البردجا) يريد الرقيق ، وهو بالفارسية (بَرْدَه) ، وقال (كالحبشي التفّ أو تَسْبِجَا) يريد لبس القميص ، وإنما هو بالفارسية (شَبِي) فعربه بسبجة ثم صرف منه فعلا في آيات غيرها ، فليس يحظر على الشاعر الاقتداء بهم في أمثال ذلك

(١) من أرجوزة في ديوانه المخطوط : النسخة (٥١٦ أدب) الورقة ١٥٧ ، والنسخة (٥١٩ أدب) ، ٢١٦ ، والنسخة (٤٩ أدب) ، ٢٣١ .

(٢) الخصائص ٢٢٢/٢ ، ونقله ابن منظور في اللسان (عرا) ، وانظر الخصائص ٢١١/٢ .

(٣) العمدة ٨٣/١ .

إذا احتاج إليه (١) .

فاستعمال العجاج لبعض الألفاظ الأعجمية كان حجة عند بعض النقاد لتسوية نظائرها عند غيره من الشعراء ، إلا أن دخولها في رجزه ، لم يكن لمجرد الحاجة والضرورة دائماً ، وإنما كان ، على ما يبدو ، لما فيها من ظرف وإغراب ، كان العجاج حريصاً عليه في أراجيزه ، ولا سيما أن العرب قد تحدتت بها ، ولم يكن هو أول من أدخلها إلى اللغة .

وأكثر ما وردت هذه الالفاظ في أرجوزته الجيمية ، ومنها قوله (٢) :

كالحَبَشِيِّ التَّفِّ أو تَسْبَجًا

والسَّبِيحُ أو السَّبِيحَةُ قَمِيصٌ ليس له كَمَانٌ ، وهو بالفارسية (سَبِي) ، واشتق العجاج منه فعل « تَسْبَجَ » بمعنى لَبِيسَ القَمِيصَ (٣) .
ومنها قوله أيضاً (٤) :

كَأَنَّهُ مُسْرَوَّلٌ أَرْتَدَجًا

والأَرْتَدَجُ واليَرْتَدَجُ أصله بالفارسية (رَنْدَه) ، وهو جلد أسود تُعْمَلُ منه الخفاف (٥) .

ومنها قوله (٦) :

كَمَا رَايْتَ فِي الْمَلَاءِ الْبَرْدَجًا

(١) الوساطة ٣٤٨ .

(٢) الأرجوزة ٧/٣٣ .

(٣) انظر شرح الأصمعي للبيت ، وجمهرة اللغة ١/٢١٠ ، ٣/٤٩٩ ، والمعاني الكبير ١/٣٣٠ ، وأدب الكاتب ٥٢٩ ، وشرح ادب الكاتب ٣٤٠ ، والمعرّب ١٨٢ ، والمخصص ١٤/٤٢ ، والزهر ١/٢٨٩ .

(٤) الأرجوزة ١٠/٣٣ .

(٥) انظر شرح الأصمعي للبيت ، ثم جمهرة اللغة ٣/٥٠٠ ، والمعاني الكبير

٢/٧٣٦ ، والمعرّب ١٦ .

(٦) الأرجوزة ١٢/٣٣ .

والبَرَدَجُ أصله بالفارسية (بَرْدَه) ، وهو السَّبِيُّ (١) .

ومنها قوله (٢) :

عَكَفَ النَّبِيْطُ يَلْعَبُوْنَ الْفَنَزَجَا يَوْمَ خَرَاجٍ يُخْرِجُ السَّمَرَجَا
وَالْفَنَزَجُ رَقْصٌ لِلْفَرَسِ يَأْخُذُ بَعْضُهُمْ فِيهِ يَدَ بَعْضٍ وَيَرْقُصُونَ ، وَيَعْرِفُ
بِالْبَنَجَانِ أَوْ الدَّسْتَبَنْدِ (٣) . وَالسَّمَرَجُ هُوَ الْخَرَاجُ ، وَأَصْلُهُ بِالْفَارْسِيَّةِ
(سِهْ مَرَّةً) أَي ثَلَاثَ مَرَاتٍ يُؤَدَّى ، وَهَذَا أَصْلُهُ عِنْدَ الْفَرَسِ ، وَقَدْ اسْتَعْمَلْتَهُ
الْعَرَبُ فِي الْخَرَاجِ كُلِّهِ (٤) .

ومنها قوله (٥) :

مَيَّاحَةٌ تَمِيحُ مَشْيَارَهُوَجَا

وَالرَّهْوَجُ أصله بالفارسية (رَهْوَارُ) ، وَهُوَ الْمَشْيُ اللَّيِّنُ السَّهْلُ (٦) .

ومنها قوله (٧) :

وَكَانَ مَا اهْتَضَّ الْجِحَافُ بِهِرَجَا

(١) انظر جمهرة اللغة ٣/٥٠٠ ، وأدب الكاتب ٥٢٩ ، والمعاني الكبير ٧٣٦/٢ ، والاقتضاب ٤٢١ ، والمغرب ١٠ ، ٤٨ ، والصحاح ٢٩٩/١ ، واللسان (بردج) .

(٢) الأرجوزة ١٦/٣٣ - ١٧ .

(٣) انظر جمهرة اللغة ٣/٥٠٠ ، ٣/٣٥٤ ، ومقاييس اللغة ٤/٥١٥ ، وأدب الكاتب ٥٢٩ ، وشرح أدب الكاتب ٣٤١ ، والمغرب ٢٣٧ ، والصحاح ٣٣٦/١ ، والمخصص ٤٢/١٤ ، واللسان (فنزج) .

(٤) انظر جمهرة اللغة ٣/٥٠٠ ، وأدب الكاتب ٥٢٩ ، والاقتضاب ٤٢١ ، والمغرب ١٨٤ ، والصحاح ٣٢٢/١ ، والمخصص ٤٢/١٤ ، واللسان (سمرج) و (شمرج) .

(٥) الأرجوزة ٤٥/٣٣ .

(٦) انظر جمهرة اللغة ٣/٥٠٠ ، وأدب الكاتب ٥٢٩ ، والمغرب ١٥٧ ، والصحاح ٣١٨/١ ، والمخصص ٤٢/١٤ ، واللسان (رهج) ، وفي المخصص ٩٩/٣ ورد أن أصله في الفارسية (رهوه) .

(٧) الأرجوزة ١١١/٣٣ .

والبَهْرَج أصله بالفارسية (نَبَهْرَه) ، وهو الباطل ، يقال : دَرِهْمٌ
بَهْرَجٌ ، إذا كان يردّ ولا يؤخذ^(١) .
وثمة ألفاظ أعجمية أخرى وردت في غير هذه الأرجوزة ، ومنها ما ورد
في قوله^(٢) :

كَالْخُصِّ إِذَا جَلَّلَهُ الْبَارِيُّ
وَالْبَارِيُّ بِالْفَارِسِيَّةِ (بُوْرِيَاء) ، وهو الحَصِيرُ^(٣) .
ومنها أيضاً قوله^(٤) :

كَمِيرْ جَلِّ الصَّبَاغِ جَاشَ بَقْمُهُ
وَالْبَقْمُ صِبْغٌ أَحْمَرٌ ، وهو فارسي معرّب^(٥) .
ومنها قوله^(٦) :

وَلَوْ نَقُولُ دَرَبِيخُوا لَدَرَبِيخُوا
وَدَرَبِيخٌ كَلِمَةٌ فَارِسِيَّةٌ أَوْ سَرِيَانِيَّةٌ ، بمعنى التذلل والإصغاء إلى الأمر^(٧) .
ومنها قوله أيضاً^(٨) :

-
- (١) انظر جمهرة اللغة ٣/٥٠٠ ، وادب الكاتب ٥٢٩ ، والمخصص ٤٢/١٤ .
والمعرب ٤٨ ، والمزهز ١/٢٩٠ ، واللسان (بهرج) .
 - (٢) الأرجوزة ٢٥/١٣٠ .
 - (٣) انظر جمهرة اللغة ٣/٥٠٢ ، والصحاح ٢/٥٩٨ ، والمخصص ١٦/٧٩ ،
والمعرب ٤٦ ، وأمالي القالي ٢/١٢٤ ، وادب الكاتب ٤٠٢ ، ٥٢٩ ، وشرح
ادب الكاتب ٣٤ .
 - (٤) الأرجوزة ٣٦/٣٠ .
 - (٥) انظر جمهرة اللغة ١/٣٢٢ ، ٣/٣٥٣ ، والمعرب ٥٩ ، ومقاييس
اللغة ١/٢٧٦ ، والصحاح ٥/١٨٧٣ ، واللسان والقاموس ، مادة (بقم) .
 - (٦) الأرجوزة ٤١/٢١ .
 - (٧) انظر شرح الأصمعي للبيت ، وجمهرة اللغة ٣/٣٠١ ، والصحاح
٤٢٠/١ .
 - (٨) الأرجوزة ٤١/٢٥ .

ولو أقول بَرَّخُوا لَبَرَّخُوا . . .

والبَرَّخُ من أصل عبراني أو سرياني ، وهو البركة والنماء (١) .
والألفاظ الأعجمية وجدت طريقها إلى رجز رؤبة بن العجاج (٢) ، وأبي
النجم العجلي (٣) ، وثمة أرجوزة متنازعة بين رؤبة والعجاج (٤) ، فإن صحَّت لرؤبة ،
فهذا يعني أنه كان كأيهِ لا يدخل الأعجمي في رجزه فحسب ، وإنما يشق
منه إجراء له مجرى اللفظ العربي الأصيل ، فقد تحدّث ابن جني عن الأسماء
الأعجمية التي استعملتها العرب استعمال أسماء العربية ، ثم قال : « ويدل
على أنهم أجروها مجرى العربي ، أنهم اشتقوا منها كما يشتقون من العربي ،
قال رؤبة (٥) :

هل يُنَجِّسُنِي حَلِيفٌ سِخْتِيْتُ أَوْ فِضَّةٌ أَوْ ذَهَبٌ كِبْرِيْتُ
قال : فسختيت من السخت ، وهو الشديد ، بمنزلة زحليل من
زحلي « (٦) .

والألفاظ الأعجمية لم يأت بها العجاج لمجرد الحاجة فقط ، وإنما لضرب

-
- (١) جمهرة اللغة ٢٣٢/١ ، والمغرب ٨١ ، واللسان (برخ) .
(٢) انظر جمهرة اللغة ٩٣/١ ، ١٦/٢ ، ٢٩٥/٣ ، ٣٧٤ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ،
ومقاييس اللغة ٢٦٢/٢ ، وأدب الكاتب ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، والمغرب ١٠٤ ،
١٤٢ ، ٢٩٠ .
(٣) انظر الأغاني ١٣٥/٢١ ، والمغرب ١١٥ ، والمخصص ١١/١١٥ - ١٩٦ .
(٤) هي الأرجوزة (٤٢) من ديوان العجاج ، انظر بحث الاضطراب في
رجز العجاج .
(٥) الأرجوزة ٥٦/٤٢ - ٥٧ من ديوان العجاج .
(٦) شرح تصريف المازني ١٣٢/١ - ١٣٣ ، وأنشد ابن جني بيت رؤبة
ونقل شبيها بكلامه هذا عن أبي علي الفارسي في الخصائص ١/٣٥٨ ، وقال
السكاكي ما يشبه ذلك أيضا في مفتاح العلوم ٧٩ ، وابن سيده في المخصص
٩/٥ ، والجواليقي في المغرب ١٧٩ - ١٨٠ . وانظر مختصر تهذيب الالفاظ
لابن السكيت ١٦٠ ، وكنز الحفاظ للتبريزي ٢٦٠ ، والمخصص ٣/٨٨ ،
والصاحح ١/٢٥٢ ، واللسان (سخت) .

من النظرّف ، أو لما فيها من إغراب قد أصر عليه في رجزه ، سواء كان باستعمال الألفاظ غير المألوفة ، أو باستعمال ألفاظ تخرج إلى التدقيق وتقليب أوجه الرأي لمعرفة المعاني المقصودة منها ، أو باستعمال شيء من الألفاظ الأعجمية التي تكلمت بها العرب ، وهي من أصل فارسي أو عبراني أو سرياني أو ما إلى ذلك .

فالعجاج قد اتخذ من الرجز وسيلة لنقل أجواء الصحراء إلى الحياة الجديدة في بعض الأمصار ، ولهذا كان لا بد أن يأتي بغرائب الألفاظ يعرضها عرضاً في أبيات الرجز ، لما فيها من نفحات صحراوية بدوية ، حتى لكان أراجيزه قد تحوّلت إلى لوحات من الغريب في اللغة والألفاظ ، ولعل مما ثبتته على هذا الاتجاه ، هو ما كان يلقاه من إقبال الحلفاء والأمراء وسائر الناس على أراجيزه ، وتقديمه في الإنشاد على أمثال جوير وغيره (١) ، لأن أراجيزه على ما يبدو ، كانت تلتقي عند حين النفوس إلى حياتها الفطرية الأولى فوق رمال الصحارى في جزيرة العرب .

ومن هنا كانت أراجيز العجاج تجمع تلقائياً غرائب اللغة ونوادرها ، وتيسئ منها مادة وفيرة لعصر التدوين في القرن الهجري الثاني ، فلما كان هذا العصر ونشط العلماء في تدوين متن اللغة بدقة واستقصاء ، كان رؤبة بن العجاج يقدم لهم ما يطلبون ، بل ربما كان رؤبة قد صنع كثيراً من رجزه ليمدّ حاجة علماء عصره من الغريب والنوادير ، حتى كان رجزه أشبه بمتون لغوية (٢) ، تطوي على غرائب الألفاظ والأبنية والأساليب .

والمهم أن العجاج كان يأتي بهذا الغريب عن طبع دون تكلف أو

(١) الأغاني ١٨/١٢٣ ، ٥٩/٢١ ، وتاريخ ابن عساكر ٧/٣٩٥ .

(٢) ارجع الى الفصل الذي كتبه الدكتور شوقي ضيف بعنوان « متون

رؤبة » في التطور والتجديد ٢٧٥ - ٢٨٧ .

تعمل ، فتقع الألفاظ في مواضعها ، وتعتبر بدقة عن معانيها ، ولا تتنافر فيما بينها ، وذلك لأنها قد عاشت في نفسه ، وأحس بها في صحرائه ، قبل أن يبرزها في معارض رجزه ، ولهذا قصر عنه من حاول أن يجاريه في الغريب من معاصريه أو غير معاصريه .

فقد حاول الكميت والطرماع أن يجارياه في الغريب ، فأخفقا دون ذلك ، وسبب هذا الاخفاق قد بينه العجاج نفسه ، فقال : « كانا يسألاني عن الغريب فأخبرهما به ، ثم أراه في شعرهما وقد وضعاه في غير مواضعه . فقيل له : ولم ذاك ؟ قال : لأنها قرويان يصفان ما لم يريا ، فيضعانه في غير موضعه ، وأنا بدوي أصف ما رأيت فأضعه في موضعه (١) » .

وقد اشتهر هذا التعمل من الكميت ، فقال الآمدي : « وأما الكميت ابن زيد فهو مكثر جداً ، كان يتعمل لإدخال الغريب في شعره (٢) » ، وهذا يعني أن مدرسة العجاج في الإغراب قد أحدثت أصداء في أشعار معاصريها ، ومن جاء بعدهم ، إذ أصبح بعض الشعراء يعتمد إدخال الغريب إلى أشعاره ، ليثبت أن له قدماً وسابقة ، حتى كان بعضهم يدخل الغريب إلى شعره ، وهو لا يعرف معناه فتقع الألفاظ في غير مواضعها ، كالذي كان من أمر الكميت والطرماع .

ومثل ذلك أيضاً ما نقله صاحب اللسان ، فقال : « قيل لِنُصَيْب : ما الشكشال ؟ في بيت قاله . فقال : لا أدري سمعته يقال ، فقلته (٣) » ، ومثله أيضاً ما نقله صاحب الأغاني بسنده ، فقال : « قال أبو العتاهية لابن

(١) الأغاني ٩٧/٢ (دار الكتب) ، وفي الشعر والشعراء ٥٦٧ ، والموشح ١٩٢ ، ٢٠٩ ، أن الكميت والطرماع كانا يسألان رؤبة عن الغريب ثم يجده في أشعارهما .

(٢) المؤلف والمختلف ١٧٠ .

(٣) اللسان (شلل) .

مناذر : شعرك مهيجن لا يلحق بالفحول وأنت خارج عن طبقة المحدثين ، فإن كنت تشبّهت بالعجاج ورؤبة فما لحقتها ولا أنت في طريقها ، وإن كنت تذهب مذهب المحدثين فما صنعت شيئاً ، أخبرني عن قولك :

وَمَنْ عَادَكَ لَأَقْسَى الْمَرْمَرِيسَا

أخبرني عن المرمريس ماهو ؟ قال : فخبجل ابن مناذر وما راجعه حرفاً^(١) .

فإن مناذر ونصيب والكميت والطرماح يتكلفون جميعاً إدخال الغريب في أشعارهم جرياً وراء العجاج وتقليداً لمذهبه ، مع أنهم ربما ضلوا قهّم بعض الألفاظ الغريبة ، فأنزلوها في غير مواضعها ، وبذلك كانت الغلبة للعجاج ورؤبة في هذا الميدان ، وخوفاً من هذه الغلبة وجدنا ذا الرمة يتخلى عن الرجز إلى القصيد ، إذ نقل المرزباني بسنده عن ابن سلام ، قال : « أخبرني عبد الملك الباهلي قال : قال ذو الرمة قلت الرجز ، فلما رأيتني لا أقع من الرجلين أخذت في القصيد وتركته . يعني العجاج ورؤبة^(٢) » . ونقل المرزباني هذا الحديث أيضاً بسنده عن أبي عبيدة^(٣) .

فالعجاج قد أوجد مذهباً خاصاً هو الإغراب في الشعر ، ولهذا جعل الرواة يصفون أصحاب الغريب على درجات ، ومن ذلك ما نقله أبو احمد الحسن بن عبد الله العسكري (٣٨٢ هـ) بسنده عن الاصمعي انه قال : « تقول الرواة والعلماء : من أراد الغريب فعليه بشعر هذيل ورجز رؤبة والعجاج ، وهؤلاء يجتمع في شعرهم الغريب والمعاني . ومن أراد الغريب في

(١) الأغاني ٩٠/٤ - ٩١ (دار الكتب) ، وانظر أيضا الموازنة ٣٤٥ ،
والموشح ٢٩٥ - ٢٩٦ ، ٣٦٩ .
(٢) الموشح ١٧٣ - ١٧٤ .
(٣) الموشح ١٧٤ .

الشعر المحدث ففي أشعار ذي الرمة ، ومن أراد الغريب الشديد الثقة ففي شعر ابن مقبل ، وابن أحر ، وحيد بن ثور الهلالي ، والراعي ، ومزاحم العقيلي (١) .

وهذا المذهب استمر إلى ما بعد القرن الهجري الثاني ، فأولع به أبو تمام الطائي ، ولكن النقاد كالأمدي والمرزباني ، كانوا يمتقون ذلك منه ، ويرون فيه تكلفاً وتصنعاً (٢) خلافاً للغريب عند العجاج ، وذلك لأن الغريب في رجزه كان يلبي رغبة الناس فيه ، وحرصهم على ما يمثله من ماض قريب ، وهو في ذلك لا ينبو عن طباع عصره ، ولا سيما بعد أن أفرد له لون خاص من الشعر في أراجيز العجاج وبعض معاصريه من أمثال رؤبة وأبي النجم .

٢ - الحفاظ على اللغة

ولم يقف العجاج بالخصائص اللفظية للرجز عند الإغراب ، وإنما كان للرجز عنده خصائص لغوية أخرى ، منها المحافظة على بعض الصيغ النادرة ، أو توليد اللغة ، أو التصرف في أبنية الألفاظ دون أي قاعدة منطقية في ذلك .

وسبب هذا كله يرتد إلى قدرة العجاج في اللغة ، وهذه القدرة تبدو لنا مثلاً في رأيته المشهورة :

قد جَبَّرَ الدينَ الالهةُ فَجَبَّرَهُ وَعَوَّرَ الرَّحْمَنُ مِن وَلِيِّ العَوَزِ
فهي موقوفة مقيدة ، ولو أطلقت قوافيها وساعد فيها الوزن لكانت .

(١) المصون في الأدب للمسكري ١٧٣ .

(٢) انظر الموازنة للأمدي ٣٤٥ ، والموشح للمرزباني ٣١٠ ، ٣١٩ .

كلها منصوبة ، وهذا ما جعل القدماء أمثال يونس النحوي ، يعاون من قدرة العجاج في اللغة^(١) ، لأنه دون هذه القدرة لا يقوى على التزام أمرين في هذه الأرجوزة المطولة ، وهما التزام الفتح قبل الزي المقيد ، ثم التزام الفتح في حال اطلاق الروي .

وبهذه القدرة أمكن أن يحافظ على أبنية اللغة حيناً ، ويولد فيها طورا ، ويتصرف بها أحيانا ، فهو مقتدر على ذلك كله ، شاعر أنه أبو اللغة ، يتصرف بها كيف أراد ، ومن هنا كان رجزه يحافظ على أصول كثيرة لبعض الصيغ العربية ، وربما كان بعضها لا وجود له في غير أراجيزه ، ومن أمثلة ذلك محافظته على وزن « فَعْلُول » ، في قوله^(٢) :

مِنْ آلِ صَعْفُوقٍ وَأَتْبَاعِ أُخْرٍ

ولم يرد في العربية على وزن « فَعْلُول » بفتح الفاء الا صَعْفُوق في بيت العجاج ، وإنما يرد نظائره في العربية على وزن « فَعْلُول » بضم الفاء ، قال ابن قتيبة : « وقال سيويه : وليس في الكلام فَعْلُول ، بفتح الفاء وتسكين العين ، وإنما يجيء على فَعْلُول ، نحو هُدُلُولٍ وَزُنْبُورٍ وَعُصْفُورٍ ، وفي الصفة حُلْكُوكُ^(٣) ، أو على وزن فَعْلُول بفتح العين ، نحو بَلْصُوصٍ وَبَعْكُوكُ^(٤) . وقال غيره : قد جاء فَعْلُول في حرف واحد نادر ، قالوا : بنو صَعْفُوقٍ لِحَوْلٍ بِالْيَامَةِ ، قال العجاج :

-
- (١) انظر العمدة ١/٥٦ ، والأغاني ١٨/١٢٤ ، ٢١/٦ ، والمزهر ٢/٤٨٤ ، وشرح التبريزي على ديوان أبي تمام ٢/٢٨٢ .
- (٢) الأرجوزة ١/٣١ .
- (٣) الحالك والحلوك بمعنى ، وهو الشديد السواد .
- (٤) البلصوص : طائر . والبعكوك : بفتحيتين ، لم يرد في اللسان والقاموس ، وإنما ورد في اللسان « بعكوك » بضم الباء وسكون العين ، وهو شدة الحر .

(البيت) (١) .

ومنهم من ذهب إلى أنه اسم أعجمي ورد في قول العجاج كبن درستويه ، إذ قال السيوطي : « ليس في كلامهم » فعول « بفتح الفاء الاّصَعْفُوق بلا خلاف ، وهو من موالي بني عامر ، وزرَنُوق بخلاف ، وذلك في لغة حكاها أبو زيد والحياتي في نوادره ، والثاني المشهور فيه الضم (٢) ، والزُرَنُوقان : العمودان يُنصَّب عليها البكرة .. وقال ابن درستويه في شرح الفصح : .. إن « فعولاً » ليس من أبنية كلام العرب ، ولا في المعرّب كلمة إلاّ واحدة أعجمية معربة في قول العجاج : (البيت) وهو اسم معرفة بمنزلة ابراهيم واسماعيل ونحوهما من الأسماء الأعجمية التي ليست على أبنية العربية » (٣) .

ولكن أكثرهم على أن « صَعْفُوق » عربي الأصل ، ومن نوادر الأبنية في العربية ، ولم يسمع الاّ في بيت العجاج ، ومن ذلك قول ابن دريد : « والصَعْفُوق تضاؤل الجسم ومنه اشتقاق صَعْفُوق اسم ، وليس في كلامهم فعول بفتح الفاء إلاّ صَعْفُوق » قال الراجز العجاج : (البيت) ، وهم قوم من أهل اليمامة » (٤) .

فالعجاج قد حافظ في رجزه على هذا البناء النادر في العربية ، ومن هذا أيضاً محافظته على صيغة « بَخَّ » بالتشديد ، في قوله (٥) :

(١) أدب الكاتب ٦١٤ - ٦١٥ ، وانظر الانصاف ٨٠٠/٢ ، ومعجم ما استعجم ٨٣٣/٣ واللسان (بعك) و (صعق) .

(٢) الكوفيون يقولون « زرَنُوق » بالفتح ، والبصريون على الضم ، انظر المزهري ٥٨/٢ ، واللسان (زرنق) .

(٣) المزهري ٥٧/٢ - ٥٨ ، وذكر الجواليقي أن « صَعْفُوق » أعجمي تكلمت به العرب انظر المعرب ٢١٩ .

(٤) جهمرة اللغة ٣/٣٤٥ ، وانظر أدب الكاتب ٦١٥ ، والمزهري ٥٧/٢ ، وشرح شواهد شرح الشافية للبغدادي ٤ .

(٥) الأرجوزة ٦٧/١١ .

وَعَدَدًا بَخًا وَعِزًّا أَقْعَسًا

وكلمة «بخ» بالتخفيف والتنوين ، أو بالتخفيف وتسكين آخرها ، كلمة تقال عند تعظيم الانسان ، أو عند التعجب من الشيء ، أو عند المدح والرضا به ، وتكرر للمبالغة . وبيت العجاج دليل عند سيبويه وابن جني على ان أصلها هو التشديد ، إذ قال سيبويه : « وكذلك بخ الحقيفة يدلك على ذلك قول العجاج (البيت) ، فرده إلى أصله حيث اضطر »^(١) ، وعقب عليه الأعم بقوله : « الشاهد فيه تشديد بخ ، والاستدلال على أن بخ المخففة محذوفة من المضاعفة المشددة ، فإذا سمي بها وحقرت رُدَّتْ لامها المحذوفة ، فيقال : بُخَيْخ »^(٢) ، وقال ابن جني : « قالوا : بخ بخ . ويدل على أن أصله التثنية قول العجاج : (البيت) »^(٣) .

ولا شك أن بيت العجاج قد حافظ على أصل البناء في اللغة ، وبذلك أمكن لسبويه وابن جني أن يقفا على حقيقة صيغة « بخ » الثنائية في ظاهرها ، المخففة عن أصل ثلاثي في واقع أمرها .
ومن هذا أيضاً قوله^(٤) :

حَتَّى إِذَا مَا أَمْسَجَتْ وَأَمْسَجَا

يريد : أمت وأمسى ، فأبدل الياء جيماً كما سنرى في موضع لاحق ، إلا أن قوله « أَمْسَجَتْ » إذا رُدَّتْ الجيم إلى الياء أصبح « أَمْسَيْتْ » ، ولهذا أنشد ابن جني بيت العجاج دليلاً على ما يراه من أصل قولهم : رَمَتْ وَعَزَّتْ وما إليها فقال : « وهذا أحد ما يدل على ما ندعيه من أن أصل

(١) كتاب سيبويه ١٢٣/٢ .

(٢) تحصيل عين الذهب ١٢٣/٢ .

(٣) التصريف الملوكي لابن جني ٤٥ .

(٤) ملحقات الديوان ٢/١٣ .

رَمَتْ : رَمَيْتَ ، وَغَزَّتْ : غَزَوْتَ ، وَأَعْطَتْ : أَعْطَيْتَ ،
 وَاسْتَقْصَتْ : اسْتَقْصَيْتَ ، وَأَمْسَتْ : أَمْسَيْتَ ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَمَّا
 أَبْدَلَ الْمَاءَ مِنْ أَمْسَيْتَ جِيماً ، وَالْجِيمُ حَرْفٌ صَحِيحٌ يَجْتَمِعُ الْحَرَكَاتُ ، وَلَا
 يَلْحَقُ الْإِنْقِلَابَ الَّذِي يَلْحَقُ الْيَاءَ وَالْوَاوَ ، صَحَّحَهَا كَمَا يَجِبُ فِي الْجِيمِ ، فَدَلَّ
 « أَمْسَجَتْ » عَلَى أَنَّ أَصْلَ أَمْسَتْ : أَمْسَيْتَ ، وَكَذَلِكَ قَالَ أَيْضاً :
 أَمْسَجَا ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ أَصْلَ أَمْسَى : أَمْسَى ، وَأَنَّ أَصْلَ رَمَى :
 رَمَى ، وَأَصْلُ غَزَا : غَزَوَا ، وَأَصْلُ دَعَا : دَعَوَا ، وَدَلَّ ذَلِكَ أَيْضاً عَلَى
 أَنَّ أَصْلَ عَصَا : عَصَوَا ، وَأَصْلُ قَطَا وَقَفَا وَحَصَى وَفَى : قَطَوُوا ، وَقَفَوْا ،
 وَحَصَوْا ، وَفَتَى^(١) ، فَجَعَلَ ابْنُ جَنِي بَيْتَ الْعَجَّاجِ دَلِيلًا عَلَى أَسْوَاقِ نَظَائِرِهِ
 فِي الْعَرَبِيَّةِ مِنْ أَعْمَالٍ وَأَسْمَاءٍ ، ثُمَّ تَابَعَ يَقُولُ : « فِيهِذَا وَنَحْوَهُ اسْتَدَلَّ أَهْلُ
 التَّصْرِيفِ عَلَى أَسْوَاقِ الْأَشْيَاءِ الْمُغْيِرَةِ ، كَمَا اسْتَدَلُّوا بِقَوْلِهِ عَزَّ اسْمُهُ : « اسْتَحْوَذَ
 عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ »^(٢) عَلَى أَنَّ أَصْلَ اسْتَقَامَ : اسْتَقْوَمَ ، وَأَصْلُ اسْتَبَاعَ : اسْتَبَيْعَ ،
 وَلَوْلَا مَا ظَهَرَ مِنْ هَذَا وَنَحْوِهِ لَمَا أَقْدَمُوا عَلَى الْقَضَاءِ بِأَسْوَاقِ الْأَشْيَاءِ وَلَمَّا جَازَ ادْعَاؤُهُمْ
 إِيَّاهَا^(٣) .

وَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّ الْعَجَّاجَ قَدْ حَافِظٌ عَلَى بِنَاءِ هَامٍ فِي هَذَا الْبَيْتِ ، إِذْ
 كَانَ دَلِيلًا يَرُشِدُ إِلَى أَسْوَاقِ بِنَاءِ ذَوَاتِ الْيَاءِ أَوْ الْوَاوِ الْمُتَطْرَفَةِ مِنْ أَعْمَالٍ وَأَسْمَاءٍ ،
 وَلَوْلَا هَذَا الْبَيْتُ وَنَظَائِرُهُ مَا اسْتَدَلَّ عُلَمَاءُ الصَّرْفِ عَلَى أَسْوَاقِ الْأَبْنِيَةِ الْمُتَغْيِرَةِ
 فِي الْعَرَبِيَّةِ .

وَأَمْثَالُ هَذَا كَثِيرٌ فِي رَجَزِ الْعَجَّاجِ ، وَكَذَلِكَ فِي رَجَزِ رُوَيْبَةَ ، وَمِنْ
 أَمْثَلِهِ عِنْدَ رُوَيْبَةَ مَحَافِظَتُهُ عَلَى وَزْنِ « فَيَعْلَلُ » فِي الْمَعْتَلِّ ، قَالَ السِّيُوطِيُّ :

(١) سر صناعة الاعراب ١٩٤ - ١٩٥ .
 (٢) سورة المجادلة ١٩/٥٨ .
 (٣) سر الصناعة ١٩٥ .

« قال سيبويه : ولم يأت (فِعْلَل) إلا في المعتل ، نحو سَيِّدٌ وَهَيْتٌ غير حرف واحد جاء نادراً قال رؤبة (١) :
 ما بالُ عَيْنِي كَالشَّعِيبِ العَيْنِ
 فجاء به على (فِعْلَل) ، وهذا في المعتل شاذ (٢) . »

وعلق الأعمى على البيت بقوله : « الشاهد فيه بناء « العَيْن » على « فِعْلَل » بالفتح ، وهو شاذ في المعتل لم يُسمع إلا في هذه الكلمة ، وكان قياسها أن تكسر العين فيقال « عَيْن » كما قيل سَيِّدٌ وَهَيْتٌ وَلَيْتٌ ونحو ذلك وهو بناء يختص به المعتل ولا يكون في الصحيح ، كما يختص الصحيح بـ « فِعْلَل » مفتوحة العين ، نحو صَيْرَفٌ وَحَيْدَرٌ وهو كثير . والشعيب : القرية ، والعَيْن : الخلق البالية . شبه عينه لسيلان دمعها بالقرية الخلق في سيلان ماؤها من بين خرزها لبلاها وقدمها (٣) . »

ولم يحافظ العجاج في رجزه على بعض الأبنية فحسب ، وإنما حافظ أيضاً على جمهرة من الألفاظ ، ما كان لها أن تعرف لولا استعماله إياها وهذه الألفاظ لم ندرجها في باب الغريب لأنها ليست منه ، وإنما هي من باب النوادر ، ذلك لأنها لا تعرف إلا في رجز العجاج ، ولذا فهي أدخل في نطاق محافظته على أصول اللغة منها في نطاق الاغراب الذي رأيناه منذ حين ، ومن أمثلة ذلك كلمة « هبرجا » في قوله (٤) :

يَتَّبَعْنَ ذِيالاً مُوسَى هَبْرَجَا

- (١) من أرجوزة في ديوان رؤبة المخطوط : النسخة (٥١٦) . أدب الورقة ٢٣ ، والنسخة (٥١٩ أدب) ٢٥٣ ، والنسخة (٤٩ أدب) ٢٧١ .
 (٢) المزهر ٥٦/٢ ، وانظر كتاب سيبويه ٣٧٢/٢ ، وأدب الكاتب ٦٢٢ ، وشرح شواهد شرح الشافية للبغدادي ٦١ - ٦٢ و ٥٠٥ .
 (٣) تحصيل عين الذهب ٣٧٢/٢ .
 (٤) الأرجوزة ١٣/٣٣ .

وقال الأصمعي في شرحه : « والهَبْرَج : الذي يخلط في مشيته ،
يتبختر ، قال : ولم أسمع إلا في هذا البيت » .
ومن هذا أيضاً كلمة « مُسْرَجَا » ، في قوله (١) :

وَفَاحِماً وَمَرْسِناً مُسْرَجَا

وقد رأينا في هذه الكلمة ضرباً من الاغراب عند العجاج ، وقال ابن
دريد : « قال الأصمعي : ما كنت أعرف المسرج : ولم أسمع إلا في
بيت العجاج : (البيت) ، فسألت أعرابياً عنها ... » (٢) .
ومنه أيضاً كلمة « نَيْرَجَا » في قوله (٣) :

فَرَاخَ يَحْدُوها وَرَاحَتَ نَيْرَجَا

وقال الأصمعي في شرحه : « والنَيْرَج : الريح الخفيفة . قال : ولم
أسمع به في غير هذا » .

ومنه أيضاً كلمة « بَهَّج » ، في قوله (٤) :

دَعَّ ذَا وَبَهَّجَ حَسَباً مُبَهَّجَا

وقال ابن منظور في شرحه : « قال ابن سيده : لم أسمع بَهَّج إلا
ههنا ومعناه حَسَنٌ وَجَمَلٌ » (٥) .

وأمثال هذا كثير في رجز العجاج ، وله نظائر كثيرة أيضاً في رجز
رؤبة ، ومن أمثله في رجز رؤبة ما جاء في قول ابن دريد : « الظَّبَّاب :

-
- (١) الأرجوزة ٤٠/٣٣ .
 - (٢) جمهرة اللغة ٧٦/٢ .
 - (٣) الأرجوزة ٨٨/٣٣ .
 - (٤) الأرجوزة ١٠١/٣٣ .
 - (٥) اللسان (بهج) .

هو من قولهم رجل ليس به ظَبْظَاب ، أي ليس به داء . وسألت أبا حاتم عن الظبظاب ، فلم يعرف فيه حجة جاهلية ، إلا أنه قال فيه بيت بشار ، وليس بحجة ، وأنشد :

بُنَيْتِي لَيْسَ بِهَا ظَبْظَابُ

قال أبو بكر (أي ابن دريد) : ثم وقع لي بعد ذلك بيت لرؤبة ابن العجاج (١) :

كَانَ بِي سَلَاً وَمَا مِنْ ظَبْظَابُ
بِي وَابِلَيْتِي أَنْكَرُ تَيْكَ الْأَوْصَابُ (٢)

وبذلك كان رجز رؤبة حافظاً لهذا اللفظ النادر ، وما أكثر نظائره لديه ، وقد أنشد ابن دريد عدداً من أبياته في أبواب نادر الألفاظ (٣) ، ومن هذا أيضاً قول رؤبة (٤) :

فَنَعِمَ دَاعِي الْوَالِجِ الْمَسْتَأْذِنِ
أَبِي إِذَا اسْتُغْلِقَ بَابُ الصَّيْدَانِ

وقد أنشده ابن قتيبة ، ثم قال في شرحه : « الصيْدَانِ : المَلِكِ .. قال الأصمعي : لم اسمع الصيْدن الملك ، إلا في هذا البيت (٥) » .
ومن صور الحفاظ على اللغة ، ما يجده في رجز العجاج من آثار لهجة قومه بني تميم ، إذ حافظ على شيء من خصائصها في ابنية الألفاظ ومعانيها ،

-
- (١) من أرجوزة وردت في ديوانه المخطوط : النسخة (٥١٦ أدب) الورقة ٢٨٦ ، ولم ترد في النسخ الأخرى .
(٢) جمهرة اللغة ١٢٧/١ .
(٣) انظر جمهرة اللغة ٣/٤٥٧ ، ٤٦١ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٣ .
(٤) من أرجوزة في ديوانه المخطوط : النسخة (٥١٦ أدب) الورقة ٢٣ ، والنسخة (٥١٩ أدب) ٢٥٣ ، والنسخة (٤٩ أدب) ٢٧١ .
(٥) المعاني الكبير ٤٧٨/١ .

ومن ذلك قوله (١) : *فَخِنْدِفٌ هَامَةٌ هَذَا الْعَالَمِ* .
 ومنهم من أنشده « العالم » دون همز ، وجعله من مأخذ العلماء على العجاج ، لما فيه من تأسيس يخالف سائر أبيات الأرجوزة (٢) ، ومنهم من رواه بالهمز ، ونص على أن في لغة تميم « العالم » و « الخاتم » و « الباز » بدلا من العالم والخاتم والباز (٣) ، فقال ابن رشيقي : « ويقال إن لغته الهمز ، فإذا همز لم يكن تأسيساً (٤) » ، ونقل المرزباني بسنده عن أبي زيد أنه قال : « سمعت رؤبة يقول : أنا أشعر أم أبي ؟ فقلنا له : أنت أشعر من أهلك ، أبوك الذي يقول :

يا دار سلمى يا اسلمي ثم اسلمي

ثم قال :

فخندف هامة هذا العالم

قال : انه كان في لغة أبي العالم والخاتم مهموزان (٥) . وقال ابن جني :

« فأما قول العجاج :

يا دار سلمى يا اسلمي ثم اسلمي

ثم قال :

-
- (١) الأرجوزة ٨٨/٢٤ .
 (٢) انظر جمهرة اللغة ٢/٢٦٦ ، وطبقات ابن سلام ٦٤ ، والموشح ١٥ - ١٦ ، ٢١٧ ، والعمدة ١/١١١ .
 (٣) انظر الموشح ٢١٨ ، والابدال لأبي الطيب اللغوي ٢/٥٤٧ ، والعمدة ١/١١١ ، والمفصل ٣٦١ ، وشرح المفصل ٣/١٣٦٠ ، وشرح الشافية ١/٢٢٨ ، ٣/٢٠٤ ، وشرح شواهد شرح الشافية للبغدادي ٤٢٨ ، واللسان (علم) .
 (٤) العمدة ١/١١١ .
 (٥) الموشح ٢١٨ .

فخندف هامة هذا العالم

فقد رُوِيَ أن العجاج كان يهمز « العالم » و « الخاتم » ، فهزمة « العالم » و « الخاتم » من قلب الألف همزة . وحكى اللخمي عنهم « باز » بالهمز ، وهذا أيضاً من ذلك الباب (١) .

فالعجاج في هذا البيت قد حافظ على تحقيق الهمز في لهجة قومه بني تميم ، وكنا نود أن نعثر على شواهد أخرى في رجزه ، ذلك لأن تحقيق الهمز صفة تميز لهجة بني تميم عن اللهجة القرشية (٢) ، وقد وردت في لغة رؤبة بن العجاج أيضاً ، فقال ابن منظور : « الأصمعي : سِيَةِ الْقَوْسِ : مَا عَطِفَ مِنْ طَرَفَيْهَا .. وكان رؤبة بن العجاج يهمز سِيَةَ الْقَوْسِ وسائر العرب لا يهمزونها » (٣) . ولكننا مع ذلك لم نظفر عند العجاج بغير قوله أيضاً قبل البيت السابق (٤) :

مُبَارَكٍ لِلأَنْبِيَاءِ خَاتَمِ

وهو شبيه بالبيت المتقدم .

ولعل من أسباب هذه الظاهرة أن الشاعر لم يكن يلتزم عادة بلهجة قومه ، وإنما يخلد إلى اللغة الأدبية المثالية ، ولهذا رأينا العجاج ، لا يبالي بتسهيل الهمز أحياناً حين تلجئه القافية إلى ذلك ، ولو أدى الأمر إلى شيء

(١) سر صناعة الأعراب ١٠١ - ١٠٢ ، ونقله أبو الطيب عن ابن جني في الإبدال ٥٤٧/٢ ، وقال بذلك أيضاً ابن جني في شرح تصريف المازني ١٠٦/١ و ١٤٩/١ - ١٥٠ ، والزمخشري في المفصل ٣٦١ ، وابن يعيش في شرح المفصل ١٣٦٠/٣ ، والرضي في شرح الشافية ٢٢٨/١ ، ٢٠٤/٣ ، والبغدادي في شرح شواهد شرح الشافية ٤٢٨ ، وابن منظور في اللسان (علم) .
(٢) انظر دراسات في فقه اللغة للدكتور صبحي الصالح ٧١ .
(٣) اللسان (سيا) .
(٤) الأرجوزة ٨٧/٢٤ .

من اللبس أو الغموض ، ومن هذا ما نقله العسكري فقال : « وأخبرنا علي
ابن سليمان ، حدثنا أحمد بن يحيى ، حدثنا سلمة بن عاصم قال : قال الفراء :
الجبّي ما حول البئر ، والجبّي : ما جمعت من الماء وأنشد (١) :

حتى إذا أشرفَ في جوفِ جبّا

أنشده بإضافة جوفٍ إلى جبّا ، وقد عاب عليه بإضافة « جوف » إلى
« جبا » جماعة من العلماء منهم المفضل بن سلمة وغيره ، وظنّ الفراء أن
« جبا » الذي في البيت هو ما ذكر من حول البئر ، وأنه اسم ،
وإنما هو :

حتى إذا أشرفَ في جوفِ جبّا

وهو فعل من جباً يَجِبُّ ، فترك الهمز ، أي جبن ورجع ، يعني
الحمار ، ومنه يقال : رجلٌ جبّا ، أي جبان .

وأخبرني أحمد بن الحسن التميمي الجبّطي ، حدثنا محمد بن سلام ، سمعت
يونس يقول : جبّاً من تخوفِ الأسد ، أي جبن ، وأنشد للعجاج :

حتى إذا أشرفَ في جوفِ جبّا

وقال : ترك الهمز (٢) .

فالعجاج لا يلتزم التزاماً مطلقاً بخصائص اللهجة التيمية ، بل ربما اضطر
إلى استعمال لغات أخرى ، ومن ذلك قوله (٣) :

وَرَبُّ هَدْيٍ كَالْحَنِيِّ مُؤَدِّمٍ

(١) ملحقات الديوان ٤٩/٢ .

(٢) شرح ما وقع فيه التصحيف ١٣٢ - ١٣٣ .

(٣) الأرجوزة ٦٥/٢٤ .

وقال ابن منظور : « قال ثعلب : الهَدْيُ بالتخفيف ، لغة أهل الحجاز ، والهَدْيُ ، بالثقل على فَعِيل لغة بني تميم وسفلى قيس (١) » .
 إلا أنه رغم ذلك قد حفظ لنا شيئاً من سمات اللهجة التميمية سواء في أبنية الألفاظ أو معانيها ، وقد رأيناها يحافظ على تحقيق الهمز في بعض أبياته ، وهو من خصائص لهجة بني تميم .
 وبما حافظ فيه على بعض خصائص هذه اللهجة قوله (٢) :

وَمَهْمَهُ هَالِكٍ مَن تَعَرَّجًا

فالأصمعي جعل تقدير البيت « هَالِكِ الْمُتَعَرِّجِينَ فِيهِ » ، من « أَهْلَكَ اللهُ أَهْلَاكًا » ، كقولك : هَذَا رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ ، فوضع (مَن) في البيت موضع الألف واللام (٣) . إلا أن جماعة كأبي عبيدة جعلوا « هالك » في البيت بمعنى « مهلك » من هَلِكَهُ يَهْلِكُهُ هَلَكًا ، فقال ابن قتيبة : « هَلَكْتُ الشَّيْءَ وَأَهْلَكْتُهُ » ، قال العجاج : (البيت) ، بمعنى مهلك ، هذا قول أبي عبيدة ، وقال غيره : أي هالك المتعرجين ، أي من تعرَّج فيه واحتبس هلك (٤) » ، واكتفى ابن دريد بما قاله أبو عبيدة فأنشد البيت ثم قال : « أراد مهلك من تعرَّجائه » ، وقال ابن جني : « وهلك الشَّيْءُ وَهْلَكْتُهُ » ، قال العجاج : (البيت) ، فيه قولان : أحدهما أن « هالكا » بمعنى مهلك ، أي مهلك من تعرَّج فيه . والآخر : ومهمه هالك المتعرجين فيه ، كقولك : هذا رجل حسن الوجه ، فوضع (مَن) موضع

(١) اللسان (هدى) .

(٢) الأرجوزة ٥٨/٣٣ .

(٣) انظر شرح الأصمعي للبيت .

(٤) أدب الكاتب ٤٦٧ ، وانظر شرح أدب الكاتب ٣١٠ - ٣١١ ،

والاقتضاب ٤٠٣ .

(٥) جمهرة اللغة ١٧١/٣ .

الألف واللام^(١) .

ومنهم من ذكر أن « هلكه » لغة بني تميم ، فقال الجوهري :
« وقال أبو عبيد : تميم تقول هلكه يهلكه هلكا ، بمعنى أهلكه .
وأنشد للعجاج : (البيت) ، يريد مهلك ، كما يقال ليل غاضٍ بمعنى مُغضٍ .
ويقال : أراد هالك المتعرجين ، أي من تعرج فيه هلك^(٢) » ، وقال ابن
سيد : « غير واحد : أهلكه القدر . أبو عبيد : وهلكه ، وأنشد :
(البيت) ، أي مهلك ، لغة بني تميم^(٣) » ، وأورد الميداني هذا المثل :
« أهلك من ترهات البسابس » ثم قال في شرحه : « فذكر أبو
عبيد أنه مثل من أمثال بني تميم ، وذلك أن لغتهم أن يقولوا : هلكت^٤
الشيء ، بمعنى أهلكته ، يدل على ذلك قول العجاج وهو تيمي : (البيت) ،
أي مهلك من تعرج^(٤) » .

ولا شك أن وجود « هلك » في لغة بني تميم ، يرجح أن يكون
العجاج قد حافظ عليها واشتق منها « هالك » بزنة « فاعل » ، وبذلك تكون
من السمات التي حافظ عليها العجاج من لهجة قومه بني تميم .
ومن هذا قوله أيضاً^(٥) :

بَالَيْتِ أَيَّامَ الصَّبَا رَوَّاجِعَا

فنصب بـ « لبت » المبتدأ والخبر معاً ، وقال ابن سلام : « وهي
لغة لهم . سمعت أبا العون الحرمازي يقول : لبت أباك منطلقاً ، ولبت

(١) الخصائص ٢/٢١٠ - ٢١١ .

(٢) الصحاح ٤/١٦١٦ .

(٣) المخصص ٦/١٢٧ .

(٤) مجمع الأمثال ٢/٤٠٨ .

(٥) ملحقات الديوان ٤٩ .

زيداً قاعداً . وأخبرني أبو يعلى أن منشأه بلاد العجاج فأخذها عنهم^(١) .
ولبعض النحاة أقوال في هذا البيت لايعنينا أن نعرض لها الآن^(٢) ، والمهم
مانقله ابن سلام من أنها لغة لبني تميم ، وقد حافظ عليها العجاج في هذا البيت .
ومن هذا أيضاً قوله - إن صح له هذا البيت^(٣) :

لقد رأيتُ عَجَباً مَـذْ أَمْسَا عَجَازاً مِثْلَ السَّعَالِي خَمْسَا
لأن بعض بني تميم يعربون « أمس » ويمنعونها من الصرف ، خلافاً
لأهل الحجاز فهي عندهم مبنية على الكسر مطلقاً^(٤) ، فإذا صحَّ البيت للعجاج ،
فهذا يعني أنه حافظ على لهجة بعض بني تميم .
ومن هذا قوله^(٥) :

فَأَصْبَحَتْ عَنْ وَصْلِهَا كَأَنَّ لَمْ تَعْلَمْ بِهِ آوْنَةٌ وَتَعْلَمِ
فقد ضبط البيت في أصل الديوان « تَعْلَمِ » بفتح تاء المضارعة وكسرها
في الموضعين ، وكسر حرف المضارعة حكاة ابن جني في تَلْتَلَةٌ بَهْرَاءُ ،
فقال : « وأما تلتلة بهراء ، فإنهم يقولون : تَعْلَمُونَ ، وتَفْعَلُونَ ،

(١) طبقات ابن سلام ٦٤ - ٦٥ ، ونقله عن ابن سلام المرزباني في الموشح
٢١٧ ، والسيوطي في شرح شواهد المغني ٢٣٦ .

(٢) انظر الصحاح ٢٦٥/١ ، والمفصل ٢٨ ، ٣٠٢ ، وشرح المفصل
١١٣٩/٣ ، وهمع الهوامع ١٣٤/١ ، ومغني اللبيب ٢٢٢/١ ، ولمع الأدلة في
أصول النحو للأنباري ٨٢ ، وتوجيه الرماني ٩٧ ، والخزانة ٢٩٠/٤ (بولاق) ،
وحاشية الخصري ١٥٥/١ .

(٣) ملحقات الديوان ١/٣٤ - ٢ .

(٤) انظر كتاب سيبويه ٤٤/٢ ، والمفصل ١٧٢ ، وشرح المفصل ٥٥٧/٢ ،
وشرح شذور الذهب ٩٩ ، وأسرار العربية ٣٢ ، والخزانة ٢١٩/٣ - ٢٢٢
(بولاق) ، والمقاصد النحوية ٣٥٧/٤ - ٣٥٨ ، وجاء البيت فيها جميعاً شاعراً
على إعراب « أمس » ومنعها من الصرف على لغة بعض بني تميم .

(٥) الأرجوزة ٣٦/٢٤ - ٣٧ .

وَيَصْنَعُونَ ، بكسر أوائل الحروف (١) ، ولكن كسر حرف المضارعة لا يقتصر على ذلك ، وإنما هو لغة لأكثر العرب من غير أهل الحجاز ، يدل على هذا قول ابن منظور : « وَتَعَلَّمَ ، بالكسر ، لغة قيس وقيم وأسد وربيعة وعامة العرب ، وأما أهل الحجاز وقوم من أجاز هوازن وأزد السراة وبعض هذيل فيقولون تَعَلَّمَ ، والقرآن عليها ، قال : وزعم الأخفش أن كلَّ من ورد علينا من الأعراب لم يقل إلاَّ تَعَلَّمَ ، بالكسر ، قال : نقلته من نوادر أبي زيد (٢) » .

وإذا صحَّ البيت عن العجاج بكسر حرف المضارعة ، فهو بما حافظ فيه العجاج على لغة قومه ، وإذا كنا لانظر بشواهد أخرى حول الكسر في أوائل « أفعال المضارعة » فذلك لأن اللغة الأدبية لم تكن تكسر هذه الحروف ، وإنما تسير فيها لهجة قريش ، ولا يبعد أن يكون الرواة أو النساخ قد تصرفوا في ضبط هذه الحروف إن ورد بعضها عن العجاج بالكسر . وفي الأمثلة السابقة رأينا صورة لمحافظة العجاج على شيء من خصائص اللهجة التميمية صرفاً أو نحواً ، ولكنه ربما حافظ أيضاً على معاني الألفاظ في لهجته التميمية ، ومن ذلك قوله (٣) :

وَأَطْعُنُ اللَّيْلَ إِذَا مَا أَسْدَفَا

وَأَسْدَفَ هُنَا بمعنى أظلم ، وقال ابن السكيت : « أبو زيد : السُدْفَةُ فِي لُغَةِ بَنِي تَمِيمٍ الظُّلْمَةُ ، وَفِي لُغَةِ قَيْسِ الضُّوْءِ (٤) » ، وكلام أبي زيد نقله

-
- (١) الخصائص ١١/٢ ، وسر صناعة الاعراب ٢٣٥ .
 - (٢) اللسان (وقي) .
 - (٣) الأرجوزة ٣١/٤٤ .
 - (٤) أضداد ابن السكيت ١٨٩ .

جماعة غير ابن السكيت^(١) ، مما يشير إلى محافظة العجاج على معنى الكلمة في لهجة بني تميم .
ومن هذا أيضاً قوله^(٢) :

مَعْقَ الْمَطَالِي جَفَجَفًا فَجَفَجَفًا

ونقل ابن منظور عن الفراء أنه قال : « لغة أهل الحجاز عميق ، وبنو تميم يقولون معيق »^(٣) ، ولهذا فالعجاج قد حافظ على معنى الكلمة في لغة قومه ، وأمثال هذا كثير في رجزه ، ذلك لأن العجاج قد حفظ لنا في أراجيزه كثيراً من الصيغ العربية سواء كانت هذه الصيغ من لغة بني تميم أو من لغات العرب الأخرى .

٣ - توليد اللفظة

وإذا كان رجز العجاج قد تفرّد بكثير من الصيغ أو الألفاظ ، فلا يبعد أن يكون هو نفسه قد ولد بعض هذه الصيغ ، وأضافها إلى العربية ، مادام يؤمن بأنه أبو اللغة يصنع فيها ما يشاء ، ويضيف إليها ما يريد ، وقد تنبّه ابن جني إلى هذه الظاهرة في باب سماء « باب في الشيء يسمع من العربي الفصيح لا يسمع من غيره » ، فقال : « وذلك ما جاء به ابن أحرر في تلك الحروف المحفوظة عنه . قال أحمد بن يحيى : حدثني بعض أصحابي عن الأصمعي أنه ذكر حروفاً من الغريب ، فقال : لا أعلم أحداً أتى بها

(١) القالي في أماليه ١٢٢/٢ ، وابن سيده في المخصص ٤١/٩ ، وابن منظور في اللسان (سدف) ، إلا أن ابن سيده وهم إذ جعل السدفة في لغة تميم الضوء ، وفي لغة قيس الظلمة . وانظر أضداد الأصمعي ٣٥ ، وكنز الحفاظ ٤٠٩ ، ومختصر تهذيب الألفاظ ٢٤٤ والصحاح ١٣٧٢/٤ .

(٢) الأرجوزة ٤١/٤٤ .

(٣) اللسان (معق) .

الإلا ابن أحمـر الباهليّ» (١) .

ثم أورد ابن جنـي هذه الألفاظ التي تفرّد بها ابن أحمـر مع أبياتها ، ثم قال : « والقول في هذه الكلمـة المقدّم ذكرها وجوب قبولها ، وذلك لما ثبتت به المشاهدة من فصاحة ابن أحمـر . فإما أن يكون شيئاً أخذه عنـه ينطق بلغة قديمة لم يُشارك في سماع ذلك منه ، على حدّ ما قلناه فيمن خالف الجماعة وهو فصيح ، كقوله في الذُرْحَرَح : الذُرْحَرَح ، ونحو ذلك ، وإما أن يكون شيئاً ارتجله ابن أحمـر ، فإن الاعرابي إذا قويت فصاحته ، وسمت طبيعته ، تصرف وارتجل ما لم يسبقه أحد قبله به ، فقد حكى عن رؤبة وأبيه أنها كانا يرتجلان ألفاظاً لم يسمعاها ولا سببقا إليها . وعلى هذا النحو قال أبو عثمان (٢) : ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب (٣) » .

فابن جنـي يلاحظ أن ما تفرّد به ابن أحمـر من الأبنية والألفاظ يمكن أن يرتد إلى تفرّده في سماع بعضها ، أو ارتجاله وتوليدـه لبعضها الآخر ، ولا يرى ابن جنـي ضيواً في ارتجال ابن أحمـر ما دام على فصاحة مشهود بها ، ولا سيما أن العجاج ورؤبة قد كانا يرتجلان في اللغة ، وهما قدوة لابن أحمـر في هذا الارتجال .

وما قاله ابن جنـي حول تفرّد ابن أحمـر ، نجده طبعاً عند العجاج ، فثمة صيغ وألفاظ حافظ عليها رجزه ، أو رجز ابنه رؤبة ، وقد رأينا أمثلة لها في بحث سابق ، وثمة صيغ وألفاظ قد ارتجلها العجاج ارتجالاً ، وأضافها إلى اللغة إضافة ، وبذلك لم تسمع إلاّ في رجزه ، ومن ذلك كلمة الأصعل ، في قوله (٤) :

-
- (١) الخصائص ٢١/٢ .
 - (٢) يريد أبا عثمان المازني .
 - (٣) الخصائص ٢٤/٢ - ٢٥ .
 - (٤) الأرجوزة ٢٨/١٢ .

قَدْ أَقْفَرَتْ غَيْرَ الظَّلِيمِ الْأَصْعَلِ .

وقال الأصمعي في شرحه : « والأصعل : الحفيف الرأس والعنق ..
قال أبو سعيد : ولم أسمع (الأصعل) إلا ههنا ، و (الصعل) هو
الكلام » .

ومن ذلك أيضاً كلمة « القنْسرِي » ، في قوله (١) :

أَطْرَباً وَأَنْتَ قِنْسَرِيٌّ

وقال ابن سيده : « والقنْسرِي : الكبير المسن . قال أبو علي : ولم
أسمع بالقنْسرِي إلا في شعر العجاج » (٢) ، وقال الأعمى الشتمري :
« والقنْسرِي : الشيخ ، وهو غير معروف في اللغة ، ولم يسمع إلا في هذا
البيت وحده » (٣) ، وقال ابن منظور في القنْسرِي : « وقيل : لم يسمع
إلا في بيت العجاج » (٤) .

وعدم معرفة القنْسرِي إلا في بيت العجاج ربما كان بسبب توليد العجاج
نفسه لبناء هذه الكلمة ، فقد زاد الياء توكيداً للمبالغة في نسبة « القنْسر »
إلى نفسه كما قالوا في الأعجم أعجمي ، والأحمر أحمر ، والياء فيها جميعاً
قد زيدت لتوكيد المبالغة في الوصفية ، ومن هنا سار بيت العجاج شاهداً
في كتب اللغة والنحو على زيادة الياء توكيداً للمبالغة في الوصفية (٥) .

ولم يقتصر الأمر على بيت أو أبيات قلّة أورد فيها مثل هذه البنية ،

(١) الأرجوزة ٣/٢٥ .

(٢) المخصص ٤٥/١ .

(٣) تحصيل عين الذهب ١٧٠/١ ، ونقل البغدادي قوله في الخزانة ٥١١/٤ .
(بولاق) .

(٤) اللسان (قنسر) .

(٥) انظر شرح الحماسة للتبريزي ١٥٥/٤ ، وشرح المفصل ٤٥٦/١ ،
وغريب القرآن للسجستاني ١٩ ، وخزانة بولاق ١٤٧/٣ ، والوافي بالوفيات
٣١/١ .

وإنما أكثر منها ولا سيما في الأرجوزة (٢٥) ، حتى كان الأصمعي يشير إليها أحياناً ، ويهمل النص عليها أحياناً أخرى إما لكثرتها ، وإما لجلاء أصلها ، ومن ذلك مثلاً قوله (١) :

والدهرُ بالانسانِ دَوَّارِيهِ

فنسب « دَوَّار » إلى نفسه (٢) . وقال فيه ابن جني : « وإنما معناه (دَوَّار) فألحقه بإئِيّ الاضافة (٣) » . وقال ابن جني أيضاً : « أي دوار ، فزاد ياء الاضافة توكيداً لمعنى الصفة (٤) » .
ومنه أيضاً قوله (٥) :

مع الشبابِ فهوَ فَضْفَاضِيهِ نَعْمَهُ فهوَ خَبَرَنَجِيهِ
والأصل « فَضْفَاضٌ » و « خَبَرَنَجٌ » وهو الناعم الحسن التام .
ومثله أيضاً (٦) :

بالمَادِ حَتَّى هُوَ يَمْوُودِيهِ
وأصله « يَمْوُود » ثم نسبه إلى نفسه بزيادة الياء .
ومثله أيضاً (٧) :

غُضْفًا طَوَاهَا الْأَمْسَ كَلَّابِيهِ
ورجل كَالِبٌ وكَلَّابٌ : صاحب كلاب ، مثل تَامِر ولَابِن ، وأما

-
- (١) الأرجوزة ٤/٢٥ .
 - (٢) انظر الخزانة ٥١٢/٤ .
 - (٣) شرح تصريف المازني ١٧٩/٢ .
 - (٤) التمام في تفسير أشعار هذيل لابن جني ١٢١ .
 - (٥) الأرجوزة ٢٤/٢٥ - ٢٥ .
 - (٦) الأرجوزة ٢٩/٢٥ .
 - (٧) الأرجوزة ١٤٥/٢٥ .

« كلابي » فزاد العجاج الياء لتوكيد الوصفية . وقد تحدّث ابن جني عن بيت مشابه ، فقال : « ألحقه ياءي الاضافة توكيداً لمعنى الصفة كقول العجاج : (البيت) ، وقد تقدّم القول فيه ^(١) » .

ونقل ابن جني أن أبا علي الفارسي قال : « وهذا كثير في كلامهم ^(٢) » ، وكذلك فهو كثير في رجز العجاج ، لأنه لا يقف عند الأبنية المعروفة للألفاظ ، وإنما قد يولّد أبنية جديدة حسب حاجته ، وما يكلف به من ولوع بالإغراب في الألفاظ والأبنية على حد سواء ، ولعل من أوضح صور التوليد في الأبنية قوله ^(٣) :

لَأَيَّابًا يَثَانِيهَا عَنِ الْجَوَّورِ

وقال الأصمعي في شرحه : « والجوّور : يريد الجوّر » ، وفي هذا إشارة إلى أن « الجوّور » لم يُسمع في اللغة ، وإنما هو بناء جديد للعجاج ، ولم يرد كذلك في اللسان أو القاموس ، وقال البغدادي في شرح البيت : « والجوّور : مصدر جار إذا عدل عن القصد ، وهو مصدر سماعي جاء على فُعلول بالضم ، لكن همز عينه على مقتضى القاعدة ، ولم أر من نبه على هذا المصدر غير ابن السيرافي في شرح شواهد اصلاح المنطق وابن السيد البطليوسي في شرح شواهد أدب الكاتب ، وكلاهما نبه عليه في هذا البيت ، وكذلك الجواليقي في شرح أدب الكاتب أيضاً ^(٤) » .
ومن هذا أيضاً قوله ^(٥) :

مُسْتَشْعِرًا خَوْفًا عَلَى وَقُورِ

-
- (١) التمام في تفسير أشعار هذيل ٢٢١ .
 - (٢) شرح تصريف المازني ١٧٩/٢ .
 - (٣) الأرجوزة ٧٢/١٩ .
 - (٤) الخزانة ١٥٩/١ .
 - (٥) الأرجوزة ١٠٦/١٩ .

وقال الأصمعي في شرحه : « ووُقُورٌ : وقَارٌ » ، ولم يرد الوُقُورُ مصدرًا مرادفًا للوقار في كتب اللغة ، ذلك لأن العجاج جاء به قياساً على أفعال أخرى من باب فعله مثل قولهم : وثب يثب وثوباً ، ووجد يجد وجوداً ، فقاس على هذه الأفعال وأمثالها قوله : وقَرَ يَقِرُّ وقُوراً ، والأصل في اللغة أن يقال : وقَرَ يَقِرُّ وقَاراً .
ومثل هذا قوله (١) :

فَقَدَّ كَفَى اللهُ غِيَالَ الغَوَالِ

والذي في اللغة « غَالَهُ يَغْوِلُهُ غَمُولًا » ، إلا أن العجاج بنى منه مصدرًا على وزن « فِعَالٍ » فقال « غِيَالٌ » ، وذلك قياساً على قولهم : قام قياماً وصام صياماً ، وأصله « غِيَالٌ » بالواو ، ثم قلبت الواو ياء لوقوعها حشواً بين كسرة وألف في مصدر أجوف قد أعلت عين فعله .
ومنه أيضاً كلمة « ابن أجلى » في قوله (٢) :

لَا قَوَابِهِ الحَجَّاجِ والإصْحَارَا بِهِ ابنَ أَجْلَى وافقَ الإسْفَارَا

والعرب تقول « ابن جلى » بمعنى الصبح ، ولم يُسمع « ابن أجلى » إلا في هذا البيت ، إذ قال ابن دريد : « وقال الأصمعي : لم أسمع بابن أجلى إلا في هذا البيت ، يعني الصبح (٣) » ، ونُقِلَ كلامُ الأصمعي هذا في عدد من المصادر (٤) .

فالعجاج يتراءى لنا وكأنه أبو اللغة ، يغرب فيها حيناً ، ويولد فيها

-
- (١) الأرجوزة ٣٨/١٧ .
(٢) الأرجوزة ٨١/٣٤ - ٨٢ .
(٣) جمهرة اللغة ٢٢٨/٣ .
(٤) الاشتقاق لابن دريد ٣١٤ ، والامالي ٢٤٤/١ ، والمزهر ٢٥٢/١ ،
والخزانة ٢٣٤/١ .

أحياناً ، وما ذلك إلا لأنه قد ملك ناصيتها ، وأتقن إتقاناً طبعياً طرائقها في الخلق والاشتقاق ، ولهذا كانت ألفاظه لا تنبو عن الذوق اللغوي في بنائها ، أو التناسب الصوتي بين حروفها ، وذلك لأنها تصدر عن طبع وأصالة لغوية لا شك فيها ولا مرأى ، فإن فقدت هذه الأصالة كان لا بد من الإخلال بكل ذلك ، ومن هنا يمكن أن ندرك سبباً رئيسياً لإخفاق من حاول القياس على أبنية العجاج من المولدين ، ومن أمثلة هذا الإخفاق ما نقله الأصمعي عن الخليل من أن رجلاً أنشده :

تَرَفَعَ العِزُّ بِنَا فَارَفْتَنَعَا

فقال الخليل : هذا لا يجوز . فقال الرجل : كيف جاز للعجاج أن يقول :

تَقَاعَسَ العِزُّ بِنَا فَاقَعْنَسَا (١)

ولا يجوز لي (٢) ؟ »

وقد ردّ على ذلك أبو الفتح عثمان بن جني ، بأن الخليل لم يمنع القياس على لغة العجاج مطلقاً ، وإنما أنكر ذلك لأن الرجل « بناء بما لأمه حرف حلقي ، والعرب لم تبني هذا المثال بما لأمه أحد حروف الحلق ، وإنما هو بما لأمه حرف فموي » ، وذلك مثل اقعنسس .. فلما قال الرجل للخليل (فارفنعا) أنكر ذلك من حيث أرينا (٣) .

فالطبع والأصالة لم تنهيا لهذا المولد ، كما نهيات للعجاج ، ولهذا أخفق في القياس على أبنية ولغته ، وهذه الأصالة جعلت روية بن العجاج ،

(١) الأرجوزة ١١/٩٦ .
 (٢) الشعر والشعراء ٢٢ - ٢٣ ، والموشح ٣٧٠ ، والخصائص ٣٦٢/١ - ٣٦٦ .
 (٣) الخصائص ١/٣٦٢ .

لا يقصر عن أيه في ارتجال بعض الأبنية أو الألفاظ ، ومن أمثلة ذلك عند رؤبة ما قاله ابن دريد : « وأما المقم فلا أصل له ، فأما قول الراجز رؤبة (١) :

ولم تزلْ عِزُّهُ تَمِيمٌ مُدْعَمًا كالبَحْرِ يَدْعُو هَيْقَمًا وَهَيْقَمًا
فإنما هو حكاية صوت البحر (٢) .

فاشتق رؤبة « هيقما » من صوت البحر ، ومثله قول ابن سيده :
« والبِريِّتُ في شعر رؤبة (٣) :

يَنْشَقُّ عَنْهُ الْخَرَقُ وَالْبِريِّتُ

اسم اشتقه من البرية ، فكأنما سكن الياء فصارت الماء تاء ، وجعله اسماً للبرية والصحراء ، وصارت التاء كأنها أصلية في التصريف (٤) .

فالعجاج وابنه رؤبة قد أضافا إلى اللغة ألفاظاً مرتجلة لم تسمع إلا في أراجيزهما ، واشتقا أبنية لم يسبقا إليها ، وما ذلك إلا لما كانا عليه من أصالة لغوية ، وفصاحة أعراوية ، وطبع لا تكلف فيه ولا تعمل .

٤ - التصرف في أبنية اللغة

والأصالة اللغوية عند العجاج دفعت به إلى أمور أخرى تميّزت بها الحُصائص اللغوية لرجزه ، وأبرزها التصرف في أبنية اللغة ، دون مبدأ ثابت

(١) من أرجوزة في ديوانه المخطوط : النسخة (٥١٩ أدب) ص ٢٨٩ ، والنسخة (٤٩ أدب) ص ٣١٣ ، ولم ترد في النسخة الثالثة . ورواية الديوان : « للناس يدعو هيقما » .

(٢) جمهرة اللغة ١٦٧/٣ .

(٣) من أرجوزة متنازعة بين رؤبة والعجاج ، وهي الأرجوزة (٤٢) من ديوان العجاج ، ورواية الديوان : « عني الحزن والبريت » .

(٤) المخصص ١١٦/١٠ .

أو قاعدة محددة ، وكان إحساسه البدوي الأعرابي بأنه صاحب اللغة ، قد جعله يتصرف فيها كيف أراد ، بل ربما كان إيمانه بمبدأ الاغراب هو أحد الدوافع الرئيسية إلى هذا التصرف الواسع في اللغة ، يضاف إلى ذلك ما كان يريده لرجزه من تحمّل نفحات الصحراء بكل ما فيها من جفاء وخشونة ، وهذا يمكن أن توحى به كلمة شاردة عن مألوف مبنائها ، أو صيغة تتجافى عن مألوف اللغة وقواعدها .

وأيسر هذه التصرفات ما يقف عند حدود معروفة في قواعد الصرف أو العروض ، من أمثال القلب ، أو الابدال ، أو فك الادغام ، أو تحريك الساكن ، أو تسكين المتحرك ، أو استعمال الجمع بدل المفرد ، أو الجمع بدل المثنى ، أو المثنى بدل المفرد . فهذه كلها يمكن أن نصادفها في أشعار القدماء ، ولكنها تتميز في رجز العجاج بالكثرة والوضوح ، وكأنها ترد عن قصد وتعمد ، لما يريده العجاج من إغراب في اللفظ ، أو ندرة في الأبنية .

ومن أمثلة القلب قوله في وصف الجيش (١) :

باتَ يُقاسِي أمرَـةً مُبرَـمَـةً - أعصمهُ أم السَّحِيلُ أعصمهُ

ف « يقاسي » أراد العجاج بها « يقايس » بمعنى يميّز ، فأحدث قلباً بين العين واللام . وقال ابن جني : « وأما قيس ، فمنقول من قاس الشيء بالشيء يقيسه قياساً . وأما قول العجاج : (البيت) ، فانه أراد « يقايس » أي يميّز ، فقلب (٢) .

ومن ذلك أيضاً قوله في وصف أيك كثير الشجر (٣) :

-
- (١) الأرجوزة ٣٦/١١ - ١٢ .
(٢) المبهج لابن جني ١٦ ، ونقله التبريزي في شرح الحماسة ٣١/١ ، ٨٨/٣ .
(٣) الأرجوزة ٣٢/٢٥ .

لاثٍ به الأشاء والعبري

وهذا البيت أنشده سيبويه شاهداً على القلب ، فقال : « إنما أراد لاث ، ولكنه أخرج الواو وقدّم الناء ^(١) » . وقال المازني : « وكان الخليل يقول : هو مقلوب ، كما قالوا : شاكٍ ، و :

لاثٍ به الأشاء والعبري

يريد : شاكاً ولائئاً ^(٢) » .

وذهب إلى رأي الخليل وسيبويه جماعة من اللغويين والنحاة ^(٣) ، إلا أن أبا عبيدة لم يذهب بالكلمة إلى القلب ، وإنما جعلها محذوفة العين ، فقال : « وهار : مجازه هائر ، والعرب تنزع هذه الياء من فاعل ، قال العجاج : (البيت) ، أي لاث ، ويقال : كَيْدٌ خابٍ ، أي خائبٌ ^(٤) » ، وتبعه ابن جني على هذا الرأي ، فأنشد البيت في باب غلبة الزائد للأصلي ، ثم قال : « حذفت عين فاعل وأقررت ألفه ، إذ كانت دليلاً على اسم الفاعل ^(٥) » .

وقال ابن جني أيضاً : « وحكي أنهم يقولون « شاكٍ ، ولاثٍ » ، بجذف العين أصلاً وأنشد :

لاثٍ به الأشاء والعبري

-
- (١) كتاب سيبويه ١٢٩/٢ ، وقال بمثل ذلك في الكتاب أيضا ٣٧٨/٢ .
 - (٢) شرح تصريف المازني ٥٢/٢ ، وانظر أيضا ٦٦/٣ .
 - (٣) كابن سيده في المخصص ٢٢٢/١ ، وابن السيد في الاقتضاب ٢٣٨ ، وابن القوطية في كتاب الأفعال ٩٥ ، والرضي في شرح الشافية ١٢٩/٣ ، والبغدادي في شرح شواهد شرح الشافية ٣٦٩ .
 - (٤) مجاز القرآن ٢٦٩/١ .
 - (٥) الخصائص ٤٧٧/٢ ، ومثله في الخصائص ١٢٩/٢ ، ٢٨٩ .

ووجه هذا : أنهم لما قالوا في الماضي « شاكّ ، ولاثّ » وسكنت العين بانقلابها ألفاً ، وجاءت ألف فاعل ، التقت ألفان ، فحذف الثانية حذفاً ، ولم يحركها حتى تنقلب همزة ، كما فعل من يقول : قائم ، وبائع (١) .
 فالبيت حمل عند سيبويه والحليل ومن رأى رأياً على القلب ، وذهب عند أبي عبيدة وابن جني إلى الحذف ، وفي الحالين لا يخرج فيه التصرف عن وجه معروف في العربية ، وله نظائر عند غير العجاج .
 ومن أمثلة القلب أيضاً قوله في وصف القوس (٢) :

تُرِنٌ فِي الْكَفِّ إِذَا مَا أَنْضَبَا إِرْنَانٌ مَحْزُونٌ إِذَا تَحَوَّبَا

و « أنضب » ، أراد بها العجاج « أنبَضَ » بمعنى جذب وتر القوس لتصوّت ، ولعل هذا القلب هو الذي دفع الى اعتبار « أنضب » لغة في « أنبض » عند من أنشد بيت العجاج شاهداً على ذلك (٣) .

فالقلب ظاهرة واضحة في أبنية العجاج ، وله نظائر في أشعار غيره ، ومن أمثله عند القطامي ، ما قاله ابن جني : « ومن المقلوب بيت القطامي :
 ما اعتادَ حُبُّ سَلِيمِي حِينَ مُعْتَادِ وَلَا تَقْضَى بَوَاقِي دَيْنِهَا الطَّادِي
 هو مقابو عن الواطد ، وهو الفاعل من وَطَدَ يَطِدُّ ، أي ثبت ، فقلب عن (فاعل) إلى (عالف) (٤) » .

وقال ابن منظور في بيت القطامي أيضاً : « والطادي : الثابت من وَطَدَ يَطِدُّ فقلب من فاعل إلى عالف ، قال القطامي : (البيت) ، قال

-
- (١) شرح تصريف المازني ٥٤/٢ .
 (٢) ملحقات الديوان ٥٨/٢ - ٥٩ .
 (٣) انظر جمهرة اللغة ٤٣١/٣ ، ومقاييس اللغة ٢٨٠/٢ ، واللسان (نضب) .
 (٤) الخصائص ٧٨/٢ .

أبو عبيد : يراد به الواطد ، فأخر الواو وقلبها ألفاً^(١) .
ومثل ظاهرة القلب ، ما نجده في أبنية العجاج من ظاهرة الإبدال ،
والإبدال معروف في العربية ، وله نظائر عند غيره من الشعراء . ومن
أمثلة الإبدال عند العجاج قوله - إن صح له هذا البيت^(٢) :

حتى إذا ما أمسجت وأمسجا

فالجيم ربما أبدلت من الياء المشددة في الوقف ، وربما أبدلوا في أحوال
نادرة من الياء غير المشددة في الوقف أيضاً ، إلا أن العجاج قد أبدل الجيم من الياء
الخفيفة في غير الوقف ، وقال شارح الشافية بعد البيت : « أي أمسيّت^٣
وأمسي ، فلما أبدلت الياء جيماً لم تنقلب ألفاً ، ولم يسقط للساكين ،
كالياء في أمست وأمسي^(٣) » ، وقال ابن منظور : « اراد إذا أمست وأمسي ،
فأبدل مكان الياء حرفاً جليداً شبيهاً بها لتصح القافية والوزن^(٤) » .

وإبدال الجيم من الياء في الوقف ذكر سيبويه أنه لغة لبني سعد ،
فقال : « وأما ناس من بني سعد فإنهم يبدلون الجيم مكان الياء في الوقف
لأنها خفية ، فأبدلوا من موضعها أين الحروف ، وذلك قولهم : هذا تميمج^٤ ،
يريدون تميمي^٤ ، وهذا عليج^٤ ، يريدون علي^٤ ، وسمعت بعضهم يقول :
عربانج^٤ ، يريد عرباني^٤ ، وحدثني من سمعهم يقولون :

خالي عويّف^٤ وأبو عليج^٤ المطعيمان^٤ الشحم^٤ بالعشيج^٤
وبالغداة^٤ فلتق^٤ البرنج^٤

-
- (١) اللسان (و ط د) .
(٢) ملحقات الديوان ٢/١٣ .
(٣) شرح الشافية ٢٣٠/٣ ، وانظر شرح شواهد شرح الشافية للبغدادي
٢١٧ ، ٤٨٦ - ٤٨٧ ، وسر صناعة الاعراب ١٩٤ .
(٤) اللسان (مسا) .

يريد : بالعشبي ، والبَرَني ، فزعم أنهم أنشدوه هكذا (١) .
 وأنشد أبو علي القالي أبيات سيبويه عن الأصمعي عن خلف الأحمر أن
 رجلاً من أهل البادية أنشده إياها (٢) ، ثم قال أبو علي : « وقال أبو عمرو
 ابن العلاء : قلت لرجل من بني حنظلة : من أنت ؟ فقال : فُقَيْمِج .
 قال : قلت : من أيم ؟ قال : مُرَّج . يريد : فُقَيْمِي ومُرِّي .
 وأنشد لهميان بن قحافة السعدي :

يُطِيرُ عَنْهَا الْوَبَرَ الصُّهَابِجَا

يريد : الصُّهَابِي ، من الصُّهْبَةِ (٣) .

وهذا يعني أن إبدال الجيم من الياء في لغة فقيم من قبائل مرة ، أو
 في لغة بعض بني سعد ، لا تكون إلا في الوقف ، ولكن العجاج جاء بها
 في غير الوقف ، كما قال أبو النجم :

كَأَنَّ فِي أَدْنَابِهِنَّ الشُّوَلِ مِنْ عَبَسَ الصَّيْفِ قُرُونِ الْإِجَلِّ

وقد أنشدوا بيت أبي النجم بهذه الرواية شاهداً على إبدال الجيم من الياء
 المشددة في غير الوقف ، إجراء لها في الوصل مجرى الوقف ، وهو إبدال غير
 مطرد (٤) ، وعليه بيت العجاج ، ولهذا فهو لا يمثل فيه لغة مطردة في

(١) كتاب سيبويه ٢/٢٨٨ ، ونقله البغدادي عن سيبويه في شرح شواهد
 شرح الشافية ٢١٢ - ٢١٣ .

(٢) أمالي القالي ٢/٧٥ ، ونقلها ابن جني بسنده عن الأصمعي عن خلف
 الأحمر في سر صناعة الاعراب ١٩٢ ، وشرح تصريف المازني ٣/٧٨ ، وأنشدها
 دون سند أو عزو إلى أحد في شرح تصريف المازني ٢/١٧٨ ، والرواية فيها
 جميعاً بزيادة بيت رابع على أبيات سيبويه .

(٣) أمالي القالي ٢/٧٥ ، ونقله عنه ابن جني في سر صناعة الاعراب
 ١٩٢ - ١٩٣ .

(٤) انظر أمالي القالي ٢/٧٥ ، وسر صناعة الاعراب ١٩٣ ، والتصريف
 الملوكي لابن جني ٣٢ ، والأبدال لأبي الطيب اللغوي ١/٢٥٩ ، والمفصل ٣٧٢ ،

لهجة بعض بني سعد ، وإنما أقرب ما يكون الى باب الضرورة والحاجة ،
ولهذا لم نقف في رجزه على شاهد آخر يبدل فيه الجيم من الياء المشددة على
لغة بعض قومه ، ولا سيما أنها لغة لا يشترك فيها قومه جميعاً ، وإنما هي خاصة
بناس منهم كما ذكر سيبويه .

ومن أمثلة الإبدال قوله (١) :

فَيَانُ يَكْنُ أَمْسَى الْبِلَى تَيْقُورِي

و « تَيْقُور » هنا أصله « وَيَقُور » ، فأبدل فيه من الواو تاء ،
فهو فَيْعُورٌ من الوقار ، وقال سيبويه : « وربما أبدلوا التاء مكان الواو
في نحو ما ذكرت لك إذا كانت أولاً مضمومة ، لأن التاء من حروف الزيادة
والبدل كما أن الهمزة كذلك .. وقد دخلت على المفتوحة كما دخلت الهمزة
عليها وذلك في قولهم تيقور ، وزعم الخليل أنها من الوقار كأنه حيث قال
العجاج : (البيت) ، أراد فَيَانُ يَكْنُ أَمْسَى الْبِلَى وَقَارِي ، وهو فيعول (٢) .

وتحدث المازني عن قلب الواو تاء أول الكلمة في « تَوَلَّج » ، كيلا
يجتمع واوان في أولها ، ثم قال : « وقال الخليل : ومثل ذلك قوله :

فَيَانُ يَكْنُ أَمْسَى الْبِلَى تَيْقُورِي

إِنَّمَا هُوَ « فَيْعُورٌ » مِنَ الْوَقَارِ ، وَسَأَلْتُ الْأَصْمَعِيَّ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ :

وشرح المفصل ٣/١٣٩٠ ، وشرح شواهد شرح الشافية للبغدادي ٤٨٥ ،
والصحاح ٤/١٦٢١ ، واللسان (أجل) .
وجاء البيت برواية « قرون الإبل » على الأصل في جمهرة اللغة ٣/٧١ ،
وتهذيب إصلاح المنطق ١/١٤٨ ، ومقاييس اللغة ١/١٥٩ ، و٤/٢١١ ،
والمخصص ١٦/١٢٥ ، وتفسير البحر المحيط ٨/٣٦٨ ، واللسان (أول) .
(١) الأرجوزة ١٩/٢٩ .
(٢) كتاب سيبويه ٢/٣٥٥ - ٣٥٦ .

كذلك قول الأشياخ . وجعلوا التاء تابعة للواو في هذا ليكون ذلك عوضاً للواو في كثرة دخول التاء عليها^(١) . «

وذهب إلى رأي الخليل وسيبويه كل من ابن قتيبة^(٢) ، وابن يعيش^(٣) ، وأبي الطيب اللغوي^(٤) ، والجوهري^(٥) ، وأضاف ابن سيده : « وبعضهم يجعل وزنه تَفْعُول^(٦) » . ولكن أكثرهم على أن العجاج قد أبدل فيه التاء من الواو .

ومن هذا أيضاً قوله^(٧) :

بَعْدَ الْإِنْتَى وَعَرَّقِ الْغُرُورِ

وقال الأصمعي في شرحه : « ويقال الإنْتَى هنا : الاعياء » . والإنْتَى : إدراكُ الشيء وبلوغُه غايته ، أما إذا كان بمعنى الاعياء في بيت العجاج ، فهو مبدل عنده من الوَنْتَى . والوَنْتَى : الضعف والفتور والهلاك والإعياء^(٨) ، وبهذا يكون العجاج قد أبدل من الواو همزة دون ضرورة أو حاجة إلى ذلك .

ومن هذا أيضاً قوله^(٩) :

غير ثلاثٍ في المَحَلِّ مُصَيِّمٍ

-
- (١) شرح تصريف المازني ٢٢٧/١ ، وانظر أيضا ٣٩/٣ .
 - (٢) المعاني الكبير ١٢٢٣/٣ .
 - (٣) شرح المفصل ١٣٨١/٣ .
 - (٤) الأبدال ١٥٠/١ .
 - (٥) الصحاح ٨٤٩/٢ .
 - (٦) المخصص ١٩٣/١٢ .
 - (٧) الأرجوزة ٥٣/١٩ .
 - (٨) انظر اللسان ، والقاموس (اني) و (وني) .
 - (٩) الأرجوزة ٨/٢٤ .

وقال المرزباني : « أخبرنا أبو بكر الجرجاني قال حدثنا أبو العيناء ، قال سئل الأصمعي عن بيت العجاج : (البيت) وأصله الواو ، قال حدثني عيسى بن عمر قال : سألت رؤبة عن هذا فقال : تبه به في المتثيين ، هو مُصَوِّمٌ ^(١) . »

فروبة رده إلى الواو ، أما صاحب القاموس فأورد جمعه بالواو والياء « مُصَوِّمٌ وَمُصَيِّمٌ » ، إلا أن قول المرزباني بسنده القوي يكاد يقطع بأن الواو هي الأصل ، وأن الياء قد أبدلها العجاج إبدالاً من الواو ^(٢) .

ومن ذلك أيضاً قوله - إن صح له هذا البيت ^(٣) :

يَحْسِبُهُ الْجَاهِلُ مَا لَمْ يَعْلَمَا

وقال ثعلب : « الأصل : لم يَعْلَمَ ، فلما أطلق الميم ردها إلى فتحة اللام ، وأهل البصرة يقولون : أراد يَعْلَمَنَّ ، فجعل موضع النون الحفيفة ألفاً ^(٤) » ، وإذا أخذنا برأي البصريين ، وجدنا العجاج قد أبدل من النون الحفيفة ألفاً لتصح له قافية البيت .

وظاهرة الإبدال عند العجاج لها نظائر أيضاً في رجز رؤبة ، بل إن رؤبة قد تجاوز الإبدال المعتاد إلى مالا يبدل عادة من الحروف ، إذ قال ابن جني : « ولا تكون الحاء بدلاً ولا زائدة أبداً إلا فيما شذ عنهم ^(٥) » . ثم أنشد شاهداً على هذا الشذوذ قول رؤبة :

عَمْرُ الْأَجَارِيِّ كَرِيمِ السَّنْحِ أَبْلَجٌ لَمْ يُوَلَدْ بِسَنَجْمِ الشُّعْ

-
- (١) الموشح ٢١٨ .
 - (٢) انظر شرح تصريف المازني ٢/٢ - ٣ .
 - (٣) الملحقات ١٣/٧ .
 - (٤) مجالس ثعلب ٦٢ ، وانظر المقاصد النحوية ٣٢٩/٤ ، وشرح شواهد المغنى ٣٢٩ .
 - (٥) سر صناعة الاعراب ١٩٦ .

ثم قال : « يريد : السينخ » بالخاء المعجمة (١) .
والقافية حملت العجاج على الإكثار من فك الإدغام في رجزه ، ومن
ذلك قوله (٢) .

زَحَفَ الدَّبَا إِثْرَ الدَّبَا مُذْلَعِبًا

وقال الأصمعي في شرحه : « مذلعبيا : أراد مذلعبًا ، وهو المتتابع ،
فأظهر الباء المدغمة للحاجة » .
ومن هذا قوله (٣) :

تَشْكُو الْوَجَى مِنْ أَظْلَلٍ وَأَظْلَلٍ وَطُولِ إِمْلَالٍ وَظَهْرٍ مُمَمَّلٍ
وقال الأصمعي في شرح الأول : « والأظلل : ماتحت المنسيم .
والوجى : الحفَى . وإنما هو « الأظْلَهْ » ولكنه أظهر التضعيف (٤) » ،
ومثل ذلك « ظهر مُمَمَّل » فأصله « ممل » ولكنه فك الإدغام للحاجة (٥) .
ومن ذلك أيضاً قول العجاج (٦) :

وَلِلْأَمِيرِ مُعْنَتِينَ غُلِّلِ مِنْ حُرُمَاتِ اللَّهِ مَالٍ يُحْلَلِ
و « يحلل » أصله « يحل » ولكنه فك الادغام للضرورة .
ومن هذا أيضاً قوله (٧) :

فَإِنْ يُوضَعُ بِالْخَبِيثِ الْأَقْلَلِ يَرِضُوا وَيَنْسَوُ أَخْفَرَ التَّزْوَلِ

-
- (١) سر صناعة الاعراب ١٩٧ .
(٢) الأرجوزة ٣٢/٧ .
(٣) الأرجوزة ٨٨/١٢ - ٨٩ .
(٤) ومثل ذلك في الخصائص ١٦١/١ ، وشرح تصريف المازني ٣٣٩/١ ،
وكتاب الصناعتين ١١٣ ، ومقاييس اللغة ٤٦٢/٣ ، والصحاح ١٧٥٦/٥ ،
واللسان (ظلل) .
(٥) انظر اللسان (ملل) .
(٦) الأرجوزة ١١٨/١٧ - ١١٩ .
(٧) الأرجوزة ١٢١/١٧ - ١٢٢ .

فـ « الأقلل » أصله « الأقلّ » ، ولكنه فك الادغام للضرورة .
ومثله أيضاً قوله (١) :

فَوَقَّ الْجَلَاذِيَّ إِذَا مَا أَمَجَّجَا

وجاء في شرحه : « قال أبو حاتم : كان الوجه أن يقول : آمججاً ،
ولكنه أراد الوزن فحرّك الجيم » .

وما هذه إلا أمثلة يسيرة جداً من فك الادغام في رجز العجاج ، حتى
إن الأصمعي لم يأخذ نفسه بالتنبيه عليها دائماً ، وذلك لكثرتها ، أو لجلاء
أصلها في بعض الأحيان .

وقد حمل ابنُ جني فكَّ الادغام على الضرورة والحاجة (٢) ، ومن أمثله
عند غير العجاج ، قول قَعْنَبَ الغطفاني :

مَهْلًا أَعَاذِلَ قَدْ جَرَّبْتِ مِنْ خُلُقِي أَنِّي أَجُودُ لِأَقْوَامٍ وَإِنْ تَضَنُّوا
يريد « تَضَنُّوا » فأظهر التضعيف للحاجة (٣) .

ومنه أيضاً قول أبي النجم :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْأَجَلِّ

يريد « الأجلّ » فأظهر التضعيف للحاجة (٤) .

ولم يقف العجاج بالضرائر عند فك الادغام ، وإنما اتجه إلى تحريك

(١) الأرجوزة ٩١/٣٣ .

(٢) انظر شرح تصريف المازني ٣٣٨/١ ، والخصائص ٣٧٤/٢ .

(٣) انظر كتاب سبويه ١١/١ ، وشرح تصريف المازني ٣٣٩/١ ، و٦٩/٢ ،
٣٠٣ ، والخصائص ١٦٠/١ ، ٢٥٧ ، واللسان (ضنن) .

(٤) انظر شرح تصريف المازني ٣٣٩/١ ، والخصائص ٣٤٧/٢ ، وشرح
ابن عقيل ٣٥٢/٣ ، وهمع الهوامع ١٥٧/٢ ، والإيضاح ١٣/١ - ١٤ ، ومتن
التلخيص ٥ ، ومختصر المعاني ٩ ، والصحاح ١٦٦٠/٤ ، وحسن التوسل ١٧ ،
وشرح شواهد شرح الشافية للبغدادي ٣١٢ ، ٤٩١ .

الساكن ، أو تسكين المتحرك ، ومن أمثلة الأول قوله (١) :

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعْطَى الْجَبْرَ

ومنه من جعل « الجَبْر » لغة في « الجَبْر » ، وهو السرور (٢) ،
ومنه من جعل تحريك الأول ضرورة عند العجاج (٣) ، وأما من رواه « الذي
أعطى الشَّبْر » ، فأكثرهم ذهب إلى أن أصله « الشَّبْر » ، ولكن العجاج
حرّكه لإقامة الشعر (٤) .

ومن هذا أيضاً قوله (٥) .

فَأَصْبَحَا بِنَجْوَةٍ بَعْدَ ضَرَرٍ مُسَلِّمِينَ مِنْ إِسَارٍ وَأَسْرٍ
وقال الأصمعي في شرحه : « وإنما يقال : إِسَارٌ وَأَسْرٌ ، فاحتاج
إليه فحرّكه » .

ومن هذا أيضاً قوله (٦) :

وَيَسْرٍ إِنْ دُرُنَ لِلْمَيْسُورِ

وقال ابن قتيبة في شرحه : « وَيَسْرٌ مَسْكَنَةُ السَّيْنِ ، فحرّكه
ضرورة (٧) » :

ومن هذا أيضاً قوله (٨) :

-
- (١) الأرجوزة ٣/١ .
 - (٢) المخصص ١٣/١٣٤ ، واللسان (حبر) .
 - (٣) الصحاح ٢/٦٢١ ، ٦٩٢ .
 - (٤) تهذيب اصلاح المنطق ١/١٦٩ ، وامالي القالي ١/١٣٤ ، وجمهرة
اللغة ١/٢٥٧ ، ومجالس ثعلب ٥٣٣ ، والمخصص ١٥/٨٠ ، وانظر اللسان
(شبر) .
 - (٥) الأرجوزة ٢/١١ - ١٢ .
 - (٦) الأرجوزة ١٩/١٤٢ .
 - (٧) المعاني الكبير ٢/٧٦٩ ، وانظر اللسان (يسر) .
 - (٨) الأرجوزة ٤٤/٦٠ .

مِنْهُ عَنَّا نَسِينُ تَرَامِي خَدَفَا

والخذف : بالتسكين رميك بحصاة تأخذها بين السبابة والإبهام ،
وحرّكة للحاجة (١) .

ومن هذا أيضاً قوله (٢) :

يَشْرَبْنَ بَرْدَ الْمَاءِ شُرْباً ذَاتِجَا لَا يَتَعَيَّفْنَ الْأَجَاغَ الْمَآجَا

والمآج : بالتسكين الماء المالح أو المر ، وحرّكه العجاج للحاجة (٣) .

ومثل هذا أيضاً قوله (٤) :

كَأَنَّ أَصْوَاتَ كِلَابٍ تَهْتَرِشُ هَاجَتْ بُولُوَالٍ وَلَجَّتْ فِي حَرَشٍ
وَحَرَشَه حَرَشًا : خَدَشَه ، وحرّكه العجاج للحاجة (٥) .

وتحريك الساكن في هذه الأمثلة وما إليها إنما جاء على سبيل الضرورة
والحاجة ، ولم يُسْمَع في اللغة بالتحريك ، ولكن هنالك ألفاظاً في اللغة
وردت بالخالين ، مثل « نَشْرُ ونَشْرُ ، وشَبَح وشَبَح ، ومَعَز ومَعَز ،
وشَعْر وشَعْر ، وشَمَع وشَمَع » ، وهذه الألفاظ سُمِعَت ساكنة
ومتحركة ، وهي عند البصريين لغات مختلفة لا يقاس عليها ، وأما الكوفيون
فيقيسون بعضاً منها دون بعض ، وقد لخص ابن جني آراءهم ، فقال : « وأما
الكوفيون فيفصاؤون ، فَيَسْلَمُونَ ما جاء وليس ثانيه حرفاً حلقياً كما سمع ،
ولا يقيسون فيه شيئاً ، نحو « نَشْرُ ونَشْرُ » ، فأما ما كان ثانيه حرفاً
من حروف الحلق ، فإنهم يقيسونه ، ويقولون : إن شئت فحرّك ، وإن

(١) انظر اللسان ، والقاموس (خذف) .

(٢) ملحقات الديوان ٣/١٢ - ٤ .

(٣) ملحقات الديوان ٣/١٣ - ٤ .

(٤) الملحقات ١/٣٧ - ٢ .

(٥) انظر اللسان ، والقاموس (حرش) .

سئت فسكتن ، ويجعلون الامر في ذلك مردوداً إلى المتكلم .. وقالوا للرثة
سَحْرٌ وَسَحَرٌ ، وَنَهْرٌ وَنَهَرٌ ، وَصَخْرٌ وَصَخَرٌ ، وَفَحْمٌ وَفَحِمٌ ، وَبَعْرٌ
وَبَعَرَ ، وهذه كلها لغات عند أصحابنا^(١) ، كذلك قال أبو عمر^(٢) ،
والقياس يوجب ما قال ، لأنها سمعت ساكنة ومتحركة ، كما سمع غيرها مما
لا حرف حلق فيه ساكناً ومتحرراً كَأَ ، ويحتاج من فصل بينها إلى دليل^(٣) .
والخلاف بين البصريين والكوفيين لا يقوم إلاّ حول الألفاظ التي سمعت
بالتحريك والتسكين ، وإن قاس الكوفيون بعضها ، فحجة البصريين واضحة
في ردّ ذلك . وأما ما ورد من ألفاظ غيرها ، فهو من باب الضرورات^(٤) ،
كالتي وردت في أمثلة العجاج المتقدمة ، ولها نظائر في أشعار غيره ، كقول
أبي النجم :

إِنَّ لِبَكْرٍ عَدَدًا لَا يُحْتَقَرُ وَجَبَلًا طَالَ مَعْدًا فَاشْمَخَرَ
أَشْمٌ لَا يَسْطِيعُهُ النَّاسُ الدَّهْرُ

يريد : الدهر ، فحرك الماء للضرورة^(٥) .

ومنها أيضاً قول رؤبة :

وَقَاتِمِ الْأَعْمَاقِ خَاوِيِ الْمُخْتَرِقِ مُشْتَبِهِ الْأَعْلَامِ لِمَاعِ الْخَفْتِقِ

وقال فيه ابن جني : « فحرك الخفتق ، وهو يريد الخفتق ، للضرورة^(٦) » .

(١) يريد البصريين .

(٢) يريد أبا عمر الجرمي ، وهو من أساتذة أبي عثمان المازني .

(٣) شرح تصريف المازني ٣٠٦/٢ ، وانظر الخصائص ٩/٢ - ١٠ .

(٤) انظر شرح تصريف المازني ٣٠٧/٢ ، والخصائص ٣٣٣/٢ - ٣٣٩ ،

وسر صناعة الاعراب ١٢٨ .

(٥) انظر شرح تصريف المازني ٣٠٦/٢ ، والخصائص ٩/٢ - ١٠ .

(٦) شرح تصريف المازني ٣٠٨/٢ ، والخصائص ٣٣٣/٢ .

ومنها أيضاً قول رؤبة :

ولم يُضِعْهَا بَيْنَ فِرْكَ وَعِشْقٍ

وقال فيه المازني : « وإنما هو عِشْقٌ ، فاحتاج فبناء على فَعَلٌ ^(١) » .

ومنها قول رؤبة أيضاً :

هَاجَكَ مِنْ أَرْوَى كَمُنْهَاضِ الْفِكَكِ

يريد « الفكّ » ، فسهّل الادغام وحرك الساكن ، وقال فيه المازني :

« فإنما احتاج إلى تحريكه فبناء على فَعَلٌ ^(٢) » .

فتحرك الساكن في رجز العجاج ضرب من الضرورات ، ومثله تسكين المتحرك ، ومن أمثله قوله ^(٣) :

فَالْأَسْدُ بَيْنَ مُغْلَصَمٍ وَخَرَسٍ

وخرَسٌ : مصدر وصف به وسكن ثانياً للحاجة ، فكأنه قال : الأسدُ

بعضهم مُغْلَصَمٌ ، وبعضهم خَرَسٌ ، أي أخرسٌ ، يقال : خرسَ
يتخرس خرساً ^(٤) .

ومن هذا قوله أيضاً ^(٥) :

فَبَاتَ مُنْتَصَبًا وَمَا تَكَرَّرَدَسَا

وجاءت رواية البيت في كتب اللغة « فجاؤ مُنْتَصَبًا » ، وقال ابن

-
- (١) شرح تصريف المازني ٣٠٧/٢ ، وانظر أيضاً ٩١/٣ .
(٢) شرح تصريف المازني ٣٠٧/٢ ، وانظر ٩١/٣ . ولتحريك الساكن صور أخرى في أشعارهم لا تخرج عن باب الضرورات ، انظر شرح تصريف المازني ٣٠٦/٢ ، ٣٠٩ ، والخصائص ٢٥٨/١ ، ٢٦٢ ، ٢٨١ ، ٣٨٨ ، ٩/٢ ، ٢٥٤ ، ٣٣٣ - ٣٣٤ ، ٣٣٩ - ٣٣٨ .
(٣) الأرجوزة ٥٧/٤٣ .
(٤) انظر اللسان ، والقاموس (خرس) .
(٥) الأرجوزة ٤٤/١١ .

جني في هذه الرواية : « وما أجري فيه بعض الحرف مجرى جميعه قوله : (البيت) ، فأجري « مُنْتَصِباً » مجرى « فخذ » فأسكن ثانيه ، وعليه حكاية الكتاب : أراك مُنْتَفِخاً^(١) . وقال ابن منظور : « أراد مُنْتَصِباً ، فلما رأى نَصِيباً من منتصب ، كَفَخِد ، خَفَّفَهُ تخفيف فَنَخِد ، فقال : مُنْتَصِباً^(٢) » .

ومثل هذا أيضاً ما أنشده ابن جني للعجاج^(٣) :

بِسَبْحَلِ الدَّقِينِ عَيْسَجُورِ

وقال فيه ابن جني : « وقالوا في قول العجاج : (البيت) : أراد سَبْحَل ، فأسكن الباء وحرّك الحاء وغير حركة السين^(٤) » .
ومن هذا أيضاً قوله في وصف الليل^(٥) :

حَوْمٌ غُدَافٌ هَيْدَبٌ حُبْشِيٌّ

وقال الأصمعي في شرحه : « والحُبْشِيٌّ : الأسود ، منسوب إلى الحُبْش » . ولم يرد « الحُبْش » بضم فسكون في اللسان أو القاموس^(٦) ، وإنما ورد الحَبَش ، والحُبْشَان ، والأحْبِشُ ، والحَبَيْش ، وكان العجاج قد بناه من « الحَبَش » بفتحين ، فضمّ أوله بعد إسكان ثانيه للحاجة ، ثم نسبه إلى نفسه بإضافة الياء زيادة في توكيد وصفه بالسواد .

ومن أمثلة التسكرين عند غير العجاج قول ابن جني : « فأما قول

(١) الخصائص ٢/٢٥٤ ، ومثله في الخصائص ٢/٣٣٨ ، وشرح الشافية ٤٥/١ .

(٢) اللسان (نصب) ، ورواه « مُنْتَصِباً » أيضاً في (نصص) و(كردس) .

(٣) الملحقات ٣٢ .

(٤) الخصائص ٢/٣٣٩ .

(٥) الأرجوزة ٥٧/٢٥ .

(٦) اللسان ، والقاموس (حبش) .

القطامي :

ونُفِخُوا عَن مَدَائِنِهِمْ فَطَارُوا

وقول أبي النجم :

لو عُصِرَ مِنْهُ الْبَانُ وَالْمِسْكُ انْعَصَرَ

فإنما أريد به « نُفِخُوا ، وَعُصِرَ » ، ولكنه خفف بحذف

الكسرة (١) .

وذكر سيبويه في باب « مايسكن استخفافا وهو في الأصل عندهم متحرك » ، أن بكر بن وائل وأناساً كثيراً من بني تميم يكرهون الكسرة أو الضمة بعد الفتحة ، فيقولون « فَخَذَ وَكَبَدَ وَعَضَدَ » بدلاً من « فَخَذَ وَكَبِيدَ وَعَضَدَ » ، ويكرهون الكسرة بعد الضمة ، فيقولون « فُصِدَ وَعُصِرَ » بدلاً من « فُصِدَ وَعُصِرَ » ، ويكرهون توالي الضمتين ، فيقولون « رُئِلَ وَطُنِبَ وَعُنْتُ » بدلاً من « رُئِلَ وَطُنِبَ وَعُنْتُ » ، وكذلك توالي الكسرتين ، فيقولون « إِبِلَ » بدلاً من « إِبِيلَ » ، وأما ما توالى فيه الفتحان فإنهم لايسكنون منه لأن الفتح أخف عليهم من الضم والكسر (٢) . وكلام سيبويه يمكن أن يفسر ماورد في قول القطامي « نُفِخُوا » ، وقول أبي النجم « عُصِرَ » على أساس لهجة قبائل بكر بن وائل وكثير من بني تميم ، ولكن إذا عدنا إلى ما أورده سيبويه لنعارضه بالأمثلة السابقة من رجز العجاج ، وجدنا أن العجاج يسكن في توالي الفتحين مع أن هذا ليس

(١) شرح تصنيف المازني ٢٤/١ ، وانظر المخصص ٢٢٠/١٤ .

(٢) كتاب سيبويه ٢٥٧/٢ - ٢٥٨ . وانظر صوراً لتسكين المتحرك في الخصائص ١/١٢٨ - ١٢٩ ، ٣٨٨/٢ و ٣١٦-٣١٧ ، ٣٣٣ ، ٣٣٨-٣٤٢ ، والتمام في تفسير أشعار هذيل ٤٢ - ٤٣ ، ١٨٠ ، وشرح تصنيف المازني ٢/١٢٤ .

من لهجة بكر أو تميم ، ويسكن كذلك مع تصرف في أبنية الألفاظ ، وهذا لاقاعدة له في لهجة قومه ، أو في اللغة بوجه عام ، وإنما هو تصرف خاص به ، لا يخضع لقاعدة ثابتة ، أو لأسس محددة .

وإذن فالعجاج يتصرف بالألفاظ حسب حاجته ، وما تقتضيه الضرائر ، فله أن يقلب في أصوات الكلمة ، أو يبدلها بغيرها ، أو يفك المدغم منها ، أو يسكن المتحرك ، أو يحرك الساكن ، وذلك لأنه قد اتخذ لنفسه مبدأ التصرف في اللغة دون أن يجد في ذلك أدنى حرج .

وهذا المبدأ دفع العجاج إلى تصرف آخر في أبنية اللغة ، إذ نجد أنه يستعمل المثنى بدلاً من المفرد ، أو المفرد بدلاً من المثنى ، وربما جاوز ذلك فاستعمل الجمع بدلاً من المفرد ، أو الجمع بدلاً من المثنى ، وهذا ما يجعل الايات بحاجة إلى الدقة والحذر أحياناً لفهم المعاني دون وهم أو ذلل .

ومن أمثلة المثنى بدل الواحد قوله (١) :

لَاتَحْسَبَنَّ الْخَنْدَقَيْنِ وَالْحَفْرَ

وقد أنشده ابن سلام شاهداً لهذا الاستعمال ، ثم قال : « وهو خندق

واحد (٢) » .

ومن أمثلة المفرد بدل المثنى قوله (٣) :

حَتَّىٰ إِذَا الصُّبْحُ لَهُ تَنَفَّسًا غَدَاً بِأَعْلَىٰ سَحَرٍ وَأَجْرَسَا

وقال ابن سيده : « .. وَلَقِيْتَهُ بِسُحْرَةٍ وَسُحْرَةٍ وَسُحْرَةٍ وَأَعْلَىٰ

سَحَرَيْنِ وَأَعْلَىٰ السَّحَرَيْنِ ، فأما قول العجاج : (البيت) ، فهو خطأ ،

(١) الأرجوزة ١/١٧٦ .

(٢) طبقات ابن سلام . ١٥٠ .

(٣) الأرجوزة ١١/٤٦ - ٤٧ .

كان ينبغي له أن يقول : بأعلى سَحْرَيْنِ ، لأنه أول تنفّس الصبح ، ثم الصبح ، كقوله :

مَرَّتْ بِأَعْلَى سَحْرَيْنِ تَنْذَالُ

أي تسرع ^(١) .

ومن أمثلة الجمع بدل المفرد قوله ^(٢) :

كَأَنَّ فِي فِيهِ إِذَا مَا سَحَجَبَا عُوْدًا ذُوَيْنَ اللَّهَوَاتِ مَوْلَجَا
فجعل للجمار الوحشي « لهوات » ، وإنما له لهامة واحدة ^(٣) .

ومن هذا قوله ^(٤) :

تَسْمَعُ لِلْحَلِيِّ إِذَا مَا وَسُوَسَا وَالتَّجَّ فِي أَجْيَادِهَا وَأَجْرَسَا
فجعل للمرأة « أجیاداً » وإنما لها جيد واحد .

ومن هذا أيضاً قوله ^(٥) :

أَوْ حَيْثُ كَانَ الْوَلَجَاتُ وَلَجَا

والولجةُ بالإنفراد موضع بالرمل من شقّ بني تميم ، وقد جمعه العجاج بما حوله ، فقال : الْوَلَجَاتُ ^(٦) .

ومن هذا أيضاً قوله ^(٧) :

بِمَنْهَلٍ مُّحَلَّقِ الْمَنَاطِـِ صَفْرِ الصَّرِي فَاوْ عَنِ الْفُرَاطِـِ

(١) المخصص ٤٧/٩ ، ومثله في اللسان (سحر) .

(٢) الأرجوزة ٨٠/٣٣ - ٨١ .

(٣) المخصص ٢٣٤/١٣ .

(٤) الأرجوزة ٢٠/١١ - ٢١ .

(٥) الأرجوزة ٢٩/٣٣ .

(٦) معجم ما استعجم ١٠٨٢/٣ ، وانظر شرح الأصمعي للبيت .

(٧) الأرجوزة ١٥/٢٠ - ١٦ .

والصَّرَى : الماء الذي قد أُطِيل حبسه فتغيَّر ، وأراد أن المنهل « أصفر الصرى ناء عن الفراط » فاستعمل الجمع « صُفْر » بدلاً من المفرد « أصفر^(١) » .

ومن هذا أيضاً قوله^(٢) :

وبالحُجُورِ وثَنَى الوَلِيَّ

وقد أنشده أبو الطيب اللغوي ، وابن سيده ، شاهداً على استخدام الجمع بدل المفرد ، فقال أبو الطيب : « والحُجُور موضع يقال له حُجْرٌ بُجَيْرٌ ، فجمعه بما حوله^(٣) » ، وقال ابن سيده : « الحجور موضع يقال له حُجْرٌ بُجَيْرٌ^(٤) » .

ومن هذا أيضاً قوله^(٥) :

يَمْعَجَنَ بالدَوِّيَّةِ الأَمَالِسِ

وكان ينبغي أن يقول ، بالدَوِّيَّةِ المَلَسِ ، على معنى القَفْرِ لأن المَلَسَ مذكّر ، أو بالدويّة الملساء على حقيقة لفظها ، ولكنه وصف بالجمع بدل المفرد ، فاستعمل « الامالس » بدل المَلَسِ أو الملساء^(٦) .

ومن امثلة اجمع بدل المثني قوله^(٧) :

جَادَ له بالدُّبْلِ الوَسِيمِيَّ مِنْ بَاكِرِ الأَشْرَاطِ اشْرَاطِيَّ

وقال الأصمعي في شرحه : « وبَاكِرِ الأَشْرَاطِ : يريد نوء الشَّرَاطِينِ » .

(١) انظر شرح الأصمعي للبيت .

(٢) الأرجوزة ٩٢/٢٥ .

(٣) المثني لأبي الطيب ٧٣ .

(٤) المخصص ٢٣٥/١٣ ، وانظر معجم ما استعجم ٥٤٢/٢ ، واللسان

(حجر) ، وشرح البيت في حاشية الديوان .

(٥) الأرجوزة ١٣/٣٨ .

(٦) انظر شرح الأصمعي للبيت ، وتعليقنا عليه .

(٧) الأرجوزة ٨٧/٢٥ - ٨٨ .

فجعل الأشرط جمعاً أُريد به المثني ، ومثل هذا ما نجد عند ابن سيده ، والسيوطي ، إذ أنشدا البيت شاهداً لما جاء مجموعاً وإنما هو اثنان في الأصل^(١) .
 وخالف الجوهري فقال : « الشَّرَطَان : نَجْبَانٍ مِنَ الْحَمَلِ ، وَهَمَا قَرْنَاهُ ، وَإِلَى جَانِبِ الشَّهْلِيِّ مِنْهَا كَوْكَبٌ صَغِيرٌ ، وَمِنَ الْعَرَبِ مَنْ يَعِدُهُ مَعَهَا ، فَيَقُولُ : هُوَ ثَلَاثَةٌ كَوَاكِبٍ يَسْمِيهَا الْأَشْرَاطُ »^(٢) .
 ومن هذا أيضاً قوله^(٣) :

عَلَى كَرَّاسِيَعِي وَمِرْفَقِيهِ

والكَّرْسُوعُ : رَأْسٌ وَحْشِيٌّ الذَّرَاعُ مِمَّا يَلِي الْخَنْصَرَ ، فَقَالَ « كَرَّاسِيَعِي » وَإِنَّمَا لَهُ كَرْسُوعَانٌ . وَلِهَذَا أَنْشَدَ ابْنُ سِيدِهِ ، وَالسِّيُوطِيُّ ، وَأَبُو الطَّيِّبِ اللُّغَوِيُّ ، هَذَا الْبَيْتَ شَاهِدًا لِلْأَلْفَاظِ الَّتِي وَرَدَتْ بِصِيغَةِ الْجَمِيعِ وَالْمَعْنَى بِهَا وَاحِدًا أَوْ ائْتَانًا^(٤) .

وهذا الخروج على أبنية الألفاظ من حيث الإفراد والتثنية والجمع ، له نظائر في أشعار العرب ، حملت على إفراد فصول خاصة بها في بعض المصادر^(٥) .
 ومن أمثلة استعمال الجمع بدل المفرد ، قول عبيد :

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبٌ فَالْقُطْبِيَّاتُ فَالْجَنُوبُ

وقال ابن جني فيه : « وَإِنَّمَا الْقُطْبِيَّةُ مَاءٌ وَاحِدٌ مَعْرُوفٌ^(٦) » ، وَقَالَ ابْنُ مَنْظُورٍ : « وَالْقُطْبِيَّةُ : مَاءٌ بَعِينُهُ ، فَأَمَّا قَوْلُ عُبَيْدٍ : (الْبَيْتُ) ،

-
- (١) المزهري ١٩٢/٢ ، والمخصص ٢٣٥/١٣ .
 (٢) الصحاح ١١٣٦/٣ ، وانظر اللسان (شرط) .
 (٣) الأرجوزة ٦/٤٠ .
 (٤) المخصص ٢٣٥/١٣ ، والمزهري ١٩٢/٢ ، وكتاب المثني لأبي الطيب ٦٩ .
 (٥) انظر « باب ماجاء مجموعاً وإنما هو اثنان أو واحد في الأصل » في الجزء ١٣ من المخصص ، والجزء الثاني من المزهري .
 (٦) الخصائص ٤٢٠/٢ .

إنما أراد القطيبيّ هذا الماء ، فجمعه بما حوله (١) .

ومنه أيضاً قول الفرزدق :

وإذا ذكرتَ أباك أو أيامه أخزأكَ حيثُ تُقبلُ الأبحارُ

وقال فيه ابن جني : « يريد الحَجَر ، فإنه جعل كل ناحية حجراً ،
ألا ترى أنك لو مسست كل ناحية منه ، لجاز أن تقول : مسست الحجر ..
وهذا عندي سبب إيقاع لفظ الجماعة على معنى الواحد (٢) » .

ومن أمثلة استعمال المفرد بدل الجمع ، ما قاله ابن جني : « وقال شاعر
بني قُرَيْمٍ :

تَأْبِطُ سَوَاءً وَحَمَلَتْ شَرًّا لَعَلَّكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصَابِ

أي الذين يصابون ، ذهب بالمصاب إلى الجنس ، كقوله أنشدناه أبو
علي ، وقرأته على محمد بن الحسن عن أحمد بن يحيى :

إِنْ تَنْحَلِي يَأْمِيٍّ أَوْ تَعْتَلِّي أَوْ تُصْبِحِي فِي الظَّاعِنِ المَوْلِي

يريد : في الظاعنين الموليين . وأنشد ابن الأعرابي :

يَا حَبِذَا نَضْحَكَ بِالمَشَافِرِ وبالعَثَانِينَ وبالحَنَاجِرِ

عَلَى رُؤُوسِ كَرْمُوسِ الطَائِرِ

يريد : الطير (٣) .

ومن أمثلة المثني بدل المفرد قول جرير :

بَانَ الخَلِيطُ بِرَامَتَيْنِ فَوَدَّعُوا أَوْ كَلَّمَا ظَعَنُوا البَيْنِ أَجْزَعُ

(١) اللسان (قطب) .

(٢) الخصائص ٢/٤٢٢ ، وانظر أمثلة أخرى في التمام لابن جني ١٦٥ .

(٣) التمام لابن جني ١٣٧ ، وانظر سر صناعة الاعراب ٢/٤٩٠ .

وقال ابن جني : « وإنما أراد رامة ، أرض واحدة معروفة (١) » .
 فالخروج عند العجاج على أبنية الألفاظ من حيث الافراد والتثنية والجمع ،
 له نظائر في أشعار العرب ، وكذلك الأمر في كل ما رأيناه من صور التصرف
 في أبنية اللغة لديه ، إلا أننا ربما وجدنا شاهداً عند هذا ، وآخر عند ذلك ،
 ولكننا لانوفق إلى وجود هذه الأنواع جميعاً لدى واحد منهم بعينه ، ومن
 هنا يمكن أن نحدد الفوارق بين العجاج وغيره من نجد لديه بعض التصرف
 اللغوي ، فالعجاج قد ركّز على هذا الاتجاه ، وجعله مبدأ له في رجزه ،
 واتخذ منه ما يشبه الحلية في إغرابه ، وإذا أراد هذه « الحلية » فلا عليه إذا
 ما عمد إلى تمزيق الألفاظ على هواه ، فأسقط من هذه الكلمة ما أراد ، وبني
 تلك الكلمة على ما شاء ، لأن ذلك كله قد يبعث على الغموض والإبهام في
 فهم معناها ، ولكنه مع ذلك يحقق الإغراب في اللغة ، والندرة في الأبنية ،
 وهذا ما يبتغيه العجاج لالفاظ رجزه .

فالسيل يقتلع أشجار « الزيتون » ، ولكن العجاج يختصر هذه الكلمة
 فلا يبقى منها إلا « الزيت » ، فيقول (٢) :
 وَيَقْلَعُ النَّخْلَ الرَّطَابَ الْمُرْطَبَا وَالزَّيْتَ لَمْ يُرْطَبْ وَزَيْتًا أُرْطَبَا
 وقال الأصمعي في شرحه : « يريد بالزيت الزيتون ، أي يقلع
 الزيتون » .

و « الصبيان » جمع معروف لـ « صبي » ، إلا أن العجاج
 يسقط منه النون والياء ، فلا يبقى منه على غير « الصبا » ، فيقول (٣) :

-
- (١) الخصائص ٢/٤٢٠ ، وانظر اللسان (روم) .
 (٢) الأرجوزة ٧/٢٠ - ٢١ .
 (٣) الأرجوزة ٧/٣٦ - ٣٨ .

قَدْ عَلِمَ الْمُخْتَارُ إِذْ جَدَّ الْجَبَا وَبَلَغَ الْمَاءَ حَالِيْمَ الرَّبِّي
مَنْ الَّذِي غَيَّقَ تَغْيِيقَ الصَّبَا

وقال الأصمعي في شرحه : « يقول : من الذي ماج كما يموج الصبيان
ولم يقو أمره » .

وَجَمَعَ « تَارَاةٍ » تَارَاتٌ ، ولكن العجاج حذف التاء ، فصار الجمع
« تارا » ، فقال (١) :

وَيَرْتَمِي تَاراً وَمَا يُجَافِي
عَنِ الْكَلَى وَمَوْضِعِ الْحُجَافِ
ومثل هذا تماماً تصرفه في كلمة « المَرَارَاتِ » جَمَعَ « المَرَارَةَ » ،
إذ أسقط منها التاء ، فقال (٢) :

وَقَدْ عَلِمْنَا مَعَشَرًا أَعْمَارًا
فَقَّأَ أَكْبَادُهُمُ الْمَرَارَا
وقال الأصمعي في شرحه : « يقول : أحرَقَ أَكْبَادَهُمْ من الغيظ ،
فَتَفَقَّأَتْ مَرَارَاتُهُمْ ، انشقت بما احتشت به من الغيظ » .
و « الْقُسَاةُ » يحذف العجاج منها التاء ويعوض منها بالتشديد ،
فتصبح « الْقُسَا » فيقول (٣) :

أَعْدَاؤُهُ ذَلُّوا وَمَا تَنَآيَسَا
يَهْتَضِمُ الْقُسَا وَإِنْ رِيمَ قَسَا
وقد تكون « الْقُسَا » في البيت أصلها « الْقُسَاءُ » جَمَعَ قَاسَ عَلَى
فُعَالٍ ، ثم قصر الممدود ضرورة ، وبذلك يكون قد جاء بجمع نادر ، لأن
« فُعَالٍ » أصله أن يكون جمعاً لصفة صحيحة اللام على زنة « فاعل »

(١) الأرجوزة ٤٠/٨ - ٤١ .

(٢) الأرجوزة ٧٣/٣٤ - ٧٤ .

(٣) الأرجوزة ٧٥/١١ - ٧٦ .

مثل : صائمٌ ومُصَوِّمٌ ، وكاتبٌ وكُتَّابٌ ، وندرٌ مجيئهٌ من معتل اللام مثل : غازٍ وغزَّاءٌ . ثم تصرف تصرفاً آخر بهذا الجمع النادر ، إذ قصره فغمض أصله ، وأحوج إلى تعدد أوجه التأويل في فهمه .

و « التَّوَانِي » تصبح عند العجاج « التَّوَوْنِي » ، إذ احتاج إلى تشديد النون ضرورة ، فحذف الألف كيلا يجتمع ساكنان ، فقال (١) :

وَبُرْهَةٌ مِنْ دَهْرِكِ الْمُفَنِّيِّ مَعَ الْهَوَى وَقِلَّةِ التَّوَوْنِيِّ

وتصرف العجاج بكلمة « الحِصَان » ، فشدد النون ثم حذف الألف كيلا يجتمع ساكنان فأصبحت « الحِصَنَّ » ، وتصرف كذلك بكلمة « المِثْنَاة » وهي الحَبَل من الصوف أو الشعر ، فأسقط منها بعض الأحرف وغير في حركات الأحرف الأخرى ، فعدت « المِثَنَّ » ، فقال (٢) :

مِنْ قَدِّ قَوْدِ الْفَرَسِ الْحِصَنَّ جَارِيَةً لَيْسَتْ مِنَ الْوَخْشَنَّ
لَاتَلْبَسُ الْمِنْطَقُ بِالْمِثَنَّ

وتصرف أيضاً بكلمة « الذهب » ، فسكن ثانيه ثم أضاف النون الثقيلة ، فأصبحت « الذَّهَبَنَّ » ، وتصرف تصرفاً واسعاً في كلمة « المؤدِّن » لغة في « المودن » وهو القصير ، فتحوّلت على يده إلى « الأَدَنَّ » ، فقال (٣) :

كَأَنَّ قَرَطِينَهَا مِنَ الذَّهَبَنَّ نِيظًا بِيَجِيدٍ لَيْسَ بِالْأَدَنَّ
ويقال رجلٌ أرْمَلٌ وامرأةٌ أرْمَلَةٌ : محتاجة ، والجمع أرْمَلَةٌ

(١) الأرجوزة ١٥/١٦ - ١٦ .

(٢) الأرجوزة ٣٦/١٦ - ٣٨ .

(٣) الأرجوزة ٤٢/١٦ - ٤٣ .

وأرامل ، ولكن العجاج تصرف في هذا الجمع فأسقط التاء من الأولى ،
أو أسقط الألف من الثانية ، فقال يدح والي اليمامة (١) :

مُستَجْمِعَ الأَمْرِ جَمِيعَ الأَرْمَلِ
وأراد بـ « الأرملة » : الأرملة أو الأرايمل ، وهم جماعة المحتاجين
من رجال أو نساء ، وقوله « جميع الأرملة » ، يريد أنه يجتمع إليه أصحاب
الحاجات والمعوزون .

وتصرف أيضاً في كلمة « السراة » وهي الظهر ، فأسقط التاء للحاجة
فغدت « السرا » ، فقال (٢) :

تَرَمَى لِصِيْرَانِ المَهَا المَسْرُوْلِ وَشِيْ شَوَى تَحْتِ سَرَا مُجَلَّلٍ
 واحتاج في كلمة « السراويل » الى حذف الياء فأبقاها على « سراويل » ،
فقال في وصف الثور (٣) :

يَمْشِي كَمْشِي المَرِيحِ الفِخْرِ مَسْرُوْلٍ فِي سَرَاوِلِ الصُّفُوْرِ
و « المائط » البعيد ، وتصرف العجاج فيها فأسقط الهمزة للحاجة ،
فقال (٤) :

حَتَّى تَنَاحَ بَعْدَ خَمْسِ مَاطٍ

وقال الأصمعي في شرحه : « والماط : البعيد ، وإنما يريد المائط » .
وتصرف كذلك في كلمة « هنا » لغة في « هنا » ظرف المكان ،
فقلب الألف هاء للوقف ، فأصبحت « هنة » ، ثم قلب الهاء تاء حين أجرى

(١) الأرجوزة ١٧/٢٦ .

(٢) الأرجوزة ١٧/٦٢ - ٦٣ .

(٣) الأرجوزة ١٩/١١٤ - ١١٥ .

(٤) الأرجوزة ٢٠/١٤ .

القافية فقال « هنتِ » ، لأن الهاء تصير تاء في الوصل ، ثم عاملها في القطع
معاملته إياها في الوصل ، فقال (١) :

وكانتِ الحَيَاةُ حيثُ مُجِبَّتِ وَذِكْرُهَا هَنْتٌ ولاتٌ هَنْتِ
وتصرف أيضاً في كلمة « الحَمَامِ » فأسقط منها ، وغير في بنائها ،
فأصبحت « الحَمِي » ، فقال (٢) :

والقائِطَاتِ البَيْتِ غَيْرَ الرِّيمِ أوالفِاءِ مَكَّةَ منُ وُرقِ الحَمِي
وقد تباينت الآراء في تعليل هذا التصرف ، وسار البيت شاهداً في كتب
اللغة (٣) ، وذلك لكثرة ما أوجدوا حوله من أوجه للتأويل ، ولعل أيسرها
قول الأعمى : « يريد الحَمَامِ ، فغيرها إلى الحَمِي ، وفي ذلك أوجه أحسنها
عندي وأشبهها بالمستعمل من كلام العرب ، أن يكون اقتطع بعض الكلمة
للضرورة ، وأبقى بعضها لدلالة المبقى على المحذوف منها ، وبنائها بناء يدٍ ودم ،
وجبرها بالإضافة ، وألحقها الياء في اللفظ لوصل القافية (٤) .. » .

وتصرف أيضاً في « الأثْفِيَّة » ، واحدة الأثافي ، وهي الحجر توضع
عليه القدر ، فأسقط منها التاء للحاجة ، أو تصرف تصرفاً واسعاً في جمعها ،
فقال (٥) :

رَوَائِمٌ لو تَرَأْمُ الأثْفِيَّةُ

-
- (١) الأرجوزة ٦٤/٢٢ - ٦٥ .
(٢) الأرجوزة ٤٦/٢٤ - ٤٧ .
(٣) انظر كتاب سيبويه ٨/١ ، والخصائص ٤٧٣/٢ ، والعمدة ٢٠٨/٢ ،
وتأويل مشكل القرآن ٢٣٧ ، والمقاصد النحوية ٥٥٦/٣ ، ٢٨٥/٤ ، وهمع
الهوامع ١٨١/١ ، ١٥٧/٢ ، وحاشية الخضري ٣٢/٢ ، والصحاح ١٩٠٦/٥ ،
والمخصص ١٠٧/١٧ ، واللسان (ألف) و (حم) .
(٤) تحصيل عين الذهب ٨/١ .
(٥) الأرجوزة ١٤/٢٥ .

ومثل هذا تصرفه في كلمة « القومية » ، إذ قال (١) :

فَتَمَّ مِنْ قَوَامِهَا قَوْمِيٌّ

وقوام الرجل : قامته وحسن طوله ، والقومية مثله ، إلا أنه حذف التاء للحاجة ، فقال « قومي » أراد فتم لها من قوامها قواماً حسن . ومثل هذا أيضاً إسقاطه التاء من « روية » ، وتحويلها إلى « روي » في قوله (٢) :

حَتَّى نَهَاها حِينَ لَا رَوِيٌّ

وهذه الأمثلة وما إليها تشير إلى أن تصرف العجاج في أبنية اللغة ليس له حدود ، فهو يُسْقِطُ من الكلمة ، أو يزيد عليها ، أو يغيّر من بناءها . وربما وجدنا في أشعار العرب نظائر لبعض هذه التصرفات اللغوية (٣) ، كقول رؤبة مثلاً في الحذف :

حَتَّى إِذَا بَلَّتْ حَلَاقِيمَ الْحُلُقِ

أراد « الحُلُقُ » ، فأسقط الواو للحاجة (٤) .

ومنه أيضاً قول رؤبة :

وَصَانِيَّ الْعَجَّاجِ فِيمَا وَصَنِي

(١) الأرجوزة ٣٣/٢٥ .

(٢) الأرجوزة ١٨١/٢٥ .

(٣) انظر الخصائص ٨٠/١ - ٨١ ، ١٩٥ ، ٢٨٢ ، و ٢٩٢/٢ - ٢٩٣ ، ٣١٦ - ٣١٧ ، ٣٦١ ، ٤٣٦ - ٤٣٨ ، وشرح تصريف المازني ٣٤٨/١ - ٣٤٩ ، و ٤٩/٢ - ٥٠ ، و سر صناعة الاعراب ٢٩ - ٣٠ ، ١٢٨ ، ١٦٣ - ١٦٤ ، وتأويل مشكل القرآن ٢٣٨ ، ولباب التأويل ٢٠/١ ، وأنوار التنزيل ٣٧/١ ، وتفسير البحر المحيط ٣٥/١ ، واللسان : (سبب) ، (صهب) ، (هضب) ، (رذذ) ، (بيض) ، (أنف) ، (صرف) ، (ألل) ، (آدم) ، (أجن) ، (شأن) ، (مني) .

(٤) شرح تصريف المازني ٣٤٨/١ ، والعمدة ٢١٠/٢ .

أراد « فيما وَصَّاني » ، فأسقط الألف للحاجة (١) .

ومنه أيضاً قول جندل بن المثنى الطهوي :

وَكَحَلَّ الْعَيْنَيْنِ بِالْعَوَاوِرِ

أراد « العَوَاوِيرِ » جمع عَوَّار ، فحذف الياء للحاجة ، ولم يهمز الواو لأنها دلالة على الياء المحذوفة ، وتثبيت للمعنى المواد مع الياء (٢) .

ومن أمثلة ذلك أيضاً ما قاله ابن جني : « وقد يحذفون بعض الكلم استخفافاً ، حذفاً يخلُّ بالبقية ، ويعرض لها الشبه ، ألا ترى إلى قول علقمة :

كَأَنَّ إِبْرِيْقَهُمْ ظَنِّيُّ عَلَى شَرَفٍ مُفَدِّمٌ بِسَبَابِ الْمَكْتَانِ مَلْتُومٌ

أراد : بسائب . وقول لييد :

دَرَسَ الْمَنَّا بِمَتَالَعِ فَأَبَانَ

أراد : المنازل . وقول الآخر (٣) :

حِينَ أَلْقَتْ بِقُبَاءِ بَرِّ كَهَا وَاسْتَحَرَّ الْقَتْلُ فِي عَبْدِ الْأَسْلِ

يريد : عبد الأسهل من الأنصار . وقول أبي دؤاد :

يَذُرِينَ جَنْدَالَ حَاثِرٍ لَجْنُوبِهَا فَكَأَنَّمَا تُذْنِي سَنَابِكُهَا الْحُبَا

أي تصيب بالحصا في جريها جنوبها ، وأراد : الجباح . وقال الأخطل :

أَمَسَتْ مَنَاهَا بِأَرْضٍ مَا يَبْلُغُهَا بِصَاحِبِ الْهَمِّ إِلَّا الْجَسْرَةَ الْأَجْدُ

(١) الخصائص ٢/٢٩٣ ، ٣١٦ .

(٢) كتاب سيبويه ٢/٣٧٤ ، والخصائص ١/١٩٥ ، وشرح تصريف المازني

٢/٤٩ ، ٣/٥٠ .

(٣) هو عبد الله بن الزبيري كما في اللسان (برك) ، ورواية اللسان :

« حين حكَّت » .

قالوا : يريد منازلها ، ويجوز أن يكون معناها : قصدها (١) .
فهذه الأمثلة وما إليها تشير إلى وجود نظائر لبعض تصرفات العجاج في
أبنية اللغة ، ولكنها محدودة في أشعار غيره ، إذ لا نجد عند شاعر واحد هذا
الحشد الزاخر من التصرف الجريء في ألفاظ اللغة وأبنيتها ، كالذي رأيناه
عند العجاج ، فشاعرهم قد يخرج على الأبنية المألوفة في بيت أو أبيات قليلة ،
ولكنه لا يجعل من ذلك مذهباً يلتزمه في أشعاره ، أما العجاج فقد اتخذ من
ذلك مبدأ عمل به ، والتزم جانبه ، لما وقر في نفسه من شغف الناس بغرائب
الألفاظ ونوادير الأبنية .

٥ - التصرف في قواعد النحو

ولم يقف العجاج عند التصرف في بنية الألفاظ او معانيها ، وإنما تجاوز
ذلك إلى بعض الروابط النحوية المألوفة في اللغة ، مما جعل من رجزه أحياناً
مادة للخلاف الواسع بين النحاة ، ولا سيما بين مدرستي الكوفة والبصرة ،
فالبصريون لا يلتفتون إلى كل مسموع ، ولا يقيسون على الشاذ ، وإذا
ما عرض لهم ذهبوا به إلى تأويلات بعيدة حتى لا يخالف الأصول ، أما
الكوفيون فيقيسون على الشاذ أو النادر ، ولو سمعوا بيتاً واحداً فيه جواز
شيء مخالف للأصول جعلوه أصلاً وبوّأوا عليه ، وهذا كله مخالف للبصريين (٢) ،
ومن هنا كان خروج العجاج على مألوف القواعد النحوية أحياناً يؤدي إلى
الخلاف بين المدرستين واتساع التأويل في أبيات رجزه .

(١) الخصائص ١/ ٨٠ - ٨١ ، وانظر فصلاً لابن جني سماه « فصل في
التحريف » أورد فيه بعض هذه الأمثلة أيضاً : الخصائص ٢/ ٤٣٦ - ٤٣٨ .
(٢) الاقتراح في علم أصول النحو للسيوطي ١٠٠ ، ١٠٢ .

ومن أمثلة خروجه على مألوف القواعد النحوية ، إدخاله « الكاف » على الضمير في قوله (١) :

خَلَسَى الذُّهَانَاتِ شِمَالاً كَشَبَا وَأُمَّ أَوْعَالٍ كَهَا أَوْ أَقْرَبَا
ودخول الكاف على الضمير شاذ في الاستعمال لا في القياس ، اذ القياس ان تدخل على الاسم ظاهراً أو مضمراً ، ولكنهم استغنوا عنها بـ « مثل » في الدخول على الضمير ، فقالوا « مثلها » بدلاً من « كها » ، ولهذا جعل النحاة بيت العجاج شاذاً ، وحملوه على الضرورة (٢) .

وشبهه بهذا ادخاله « عن » على الكاف في قوله (٣) :

يَضْحَكُنَّ عَنِ كَالْبَرَدِ الْمُثَنَّمِ

وذهب النحاة في هذا البيت إلى أن الكاف اسمية بمعنى « مثل » ، ولولا ذلك لم يدخل عليها حرف الجر « عن » ، ثم اختلفوا فيه ، فمنهم من أجاز اسمية الكاف في الكلام والشعر ، ومنهم من خصص ذلك بالشعر حملاً على الضرورة (٤) .

ومن ذلك أيضاً تقديمه جزءاً من صلة « أن » عليها ، في قوله (٥) :

-
- (١) الملحقات ٤٢/٢ - ٤٣ .
(٢) انظر كتاب سيبويه ٣٩٢/١ ، والمفصل ٢٨٩ ، وشرح المفصل ١١٠١/٣ ، وأوضح المسالك ١٢٤/٢ ، وشرح الشافية ٣٤٥/٤ ، وشرح ابن عقيل ٩/٢ ، والخزانة ٢٧٧/٤ (بولاق) ، والمقاصد ٢٥٣/٣ ، وشرح المقامات للشريشي ١٤٥/٢ ، ومفتاح العلوم ٥٢ .
(٣) الملحقات ٤/٦٩ .
(٤) انظر أسرار العربية ٢٥٨ ، والمفصل ٢٨٩ ، وأوضح المسالك ١٤٧/٢ ، ومغني اللبيب ١٥٤/١ ، وشرح شواهد المغني ١٧١ ، والمقاصد النحوية ٢٩٥/٣ ، وخزانة بولاق ٢٦٢/٤ .
(٥) الملحقات ١/١٦ - ٣ .

رَبِيْتُهُ حَتَّى إِذَا تَمَعَّدَا وَآخَرَ نَهْدًا كَالْحِصَانِ أُجْرَدَا
كَانَ جَزَائِي بِالْعَصَا أَنْ أُجْلِدَا

فالفراء جعل البيت الأخير شاهداً على جواز تقديم معمول « أن »
المصدرية عليها ، لأن قوله « بالعصا » متعلق بـ « أجلدا » و « أجلد »
معمول « أن » . وأنكر البصريون ذلك ورأوا أن معمول الصلة من تمام
الصلة ، وإذا كان لا يجوز تقديم الصلة على « أن » ، فكذلك لا يجوز أن يتقدم
عليها جزء من الصلة ، وأجابوا عن بيت العجاج بأنه نادر ، وأن قوله « بالعصا »
متعلق بأجلد مقدراً ، أي « كان جزائي أن أجلد بالعصا أن أجلد » ثم
اختصر^(١) . وبهذا فقد شجر الخلاف بين علماء الكوفة والبصرة حول هذا
البيت ، ومن ثم كثرت التأويلات حوله عند النحاة^(٢) .

ومن هذا أيضاً حذفه حرف النداء من النكرة ، في قوله^(٣) :

جَارِي لَا تَسْتَنْكِرِي عَذِيرِي

أراد « يا جارية » ، فرخم بإسقاط التاء ، وحذف حرف النداء مع أن
« جارية » نكرة لا تتعرف إلا بالنداء ، وإنما يطرد الحذف من المعارف ،
ولهذا حملوا بيت العجاج على الشذوذ والضرورة^(٤) .

ومن ذلك أيضاً رده كلمة « الفم » إلى الأصل من غير إضافة ، في
قوله^(٥) :

خَالِطَ مِنْ سَلَمَى خِيَاشِيمَ وَفَا

(١) خزانة الأدب ٥٦٢/٣ (بولاقي) .

(٢) انظر الخزانة ٥٦٣/٣ - ٥٦٤ (بولاقي) .

(٣) الأرجوزة ١/١٩ .

(٤) انظر كتاب سيبويه ٣٢٥/١ ، والمفصل ٤٤ - ٤٥ ، وشرح المفصل

١٨٠/١ ، والوساطة ٣٥١ ، والمقاصد النحوية ٢٧٩/٤ ، والخزانة ١٠٨/٢ .

(٥) الأرجوزة ٢٤/٤٤ .

فأصل الفم « فتوة » ، فحذف منه الهاء وأبدل من الواو ميم ليصح تحركها في الإعراب ، فإذا أضفته رددته إلى الأصل فقلت : فاه ، وفوه ، وفيه ، حسب موقعه من الكلام ، وأما قول العجاج « وفا » دون إضافة ، فقد اختلفت فيه الآراء ، من النجاة من قال : إنه شاذ وفيه ضرورة ، ومنهم من قال : إنه حذف المضاف للعلم به ، ومنهم من قال أيضاً : إن ألف « فا » هي عين الفعل ، ومنهم من جعل حكمها أن تكون بدلاً من التنوين والمنقلبة من العين سقطت لالتقاء الساكنين لأنها هي الساكن الأول (١) .

ومن أمثلة ذلك أيضاً تقديمه المستثنى أول الكلام ، في قوله (٢) :

وتخففةٍ ليس بها مطوريٌ ولا خلا الجنّ بها إنسيٌ

وهذا البيت قد احتج به الكوفيون على جواز تقديم المستثنى أول الكلام ، ونصّ على جواز ذلك الكسائي ، وأبو اسحق الزجاج في بعض المواضع ، وذهب البصريون إلى أن ذلك لا يجوز ، وقالوا في تقدير هذا البيت : وبلدة ليس بها طوري ولا إنسي خلا الجنّ ، فحذف « إنسيا » وأضمر المستثنى منه ، وما أظهره تفسير لما أضمره (٣) .

ومن ذلك إتباعه الحرف حركة الحرف المجاور ، في قوله يمدح والي الهامة (٤) :

(١) انظر الصحاح ٢٢٤٤/٦ ، والمخصص ١٣٦/١ - ١٣٨ ، ٩٦/١٤ ، وأوضح المسالك ٢٨/١ ، والمقاصد ١٥٢/١ - ١٥٤ ، والخزانة ٤٠٥/٣ - ٤٠٦ ، ٣٣٣/٤ - ٣٣٤ ، وخزانة بولاق ١٣٥/٣ ، واللسان (فمم) و (فوه) .

(٢) الأرجوزة ٦٥/٢٥ - ٦٦ .

(٣) انظر الانصاف ٢٧٣/١ ، وهمع الهوامع ٢٢٦/١ ، والخزانة ٢٨٤/٣ .

(٤) الأرجوزة ٤٤/١٧ - ٤٦ .

سامٍ إِلَى الْمَعْلَاةِ غَيْرُ حَنْبَلٍ كَنْزٍ وَلَا مُزَلِّمٍ كَوَّالٍ
وَصَّالٍ إِخْوَانِ النَّدَى مُوَصَّلٍ

فقوله « وصالٍ » بالكسر ، كان حقه أن يقال « وصالٌ » بالضم ،
لأنه خبر ثالث على تقدير : « هو سامٌ غيرُ حَنْبَلٍ وصالٌ إخوانٍ » ،
أو خبر عن محذوف على تقدير : « هو وصالٌ » ، ولا يجوز أن يتبع
حركة الصفات السابقة عليه لأنها واقعة في حيز النفي ، والنفي لا يجوز عليه
من حيث المعنى ، ولهذا كان لا بد أن يكون « وصالٌ » بالضم ، إلا أن
العجاج أتبع اللام حركة الهمزة بعدها ، ثم أتبع « موصلٌ » لفظ « وصالٌ » ،
وبذلك استقام له العروض ، وإلا فالبيت كان ينبغي أن يكون :
وَصَّالٌ إِخْوَانِ النَّدَى مُوَصَّلٌ

على الاقواء .

ومن هذا أيضاً استعماله المثبت مكان المنفي في قوله (١) :

وَالشَّدَايَاتِ يُسَاقِطْنَ النُّعْرَ

وقال الأصمعي في شرحه : « ليس أحد يقول : يُسَاقِطْنَ النُّعْرَ ،
ولا طَرَحَتْ نُعْرَةٌ ، إنما يقال : نَاقَةٌ مَا حَمَلَتْ نُعْرَةً قَطُّ ، وما
قَرَأَتْ سَلَى قَطُّ ، ولم يكن في بطنها ذلك » . وقال ابن سيده : « قال
ابن السكيت : ما حَمَلَتْ النَاقَةُ نُعْرَةً ، أي مَلْقُوحاً ، حكاها في النفي ،
قال : واستعمله العجاج في غير الجحد فقال : (البيت) « (٢) » . فالعجاج لم
يلزم نفسه بالنفي المؤلف مع هذه العبارة ، وإنما استعملها دون نفي ، ولهذا
قال الأصمعي في شرحه أيضاً : « وقد علم ان الناس يعلمون ما أراد العجاج

(١) الأرجوزة ١/٦٣ .

(٢) المخصص ٧/١٩ ، وانظر الصحاح ٢/٨٣٢ ، واللسان (نعر) .

بهذا ، فحمله على المعنى ، فقال : يساقطن النعر .

ومن هذا أيضاً وصفه بجملة إنشائية - إن صحّ له هذا البيت (١) :

جاءوا بيمدقٍ هل رأيت الذئبَ قطّ

والجملة التي تقع نعتاً ، شرطها أن تكون خبرية ، ولهذا جعلوا جملة « هل رأيت الذئبَ قط » الاستفهامية ، نعتاً لـ « مدق » على تقدير القول ، أى جاءوا بمدق يقول من رآه : هل رأيت الذئبَ قط (٢) .

وهذه الأمثلة وما إليها ، إن صحّ التأويل فيها صناعة ، فهي لا تخرج عن الضرورة الشعرية ، ولئن كان بعض قدامى النقاد يأخذون على الشعراء خروجهم على قواعد اللغة (٣) ، فهذا حكم لا يمكن أن يجري على العجاج ، ذلك لأن مبدأه في التصرف اللغوي ، جعله يتساهل في بعض الروابط النحوية ، فيخرج عن قواعد المألوفة ، وبذلك ترك النجاة في خلاف واسع حول مشكلاتها .

والاشكال في رجز العجاج قد لا يتأتى عن مخالفته بعض قواعد اللغة ، وإنما لاعتماده أساليب الحذف ، أو الحمل على المعنى ، أو القلب المعنوي ، أو التصرف في الضمائر ، أو التصرف في الجموع ، وهذا ما يحوّج إلى تأويل البيت أو الخلاف بين النجاة أحياناً .

(١) ملحقات الديوان ٦/٤٦ .

(٢) انظر الانصاف ١١٥/١ ، وأوضح المسالك ٨/٣ ، والمغني ١٩٩/١ ، وشرح شواهد المغني ٢١٤ ، والكشاف ٣٧٣/١ ، والخزانة ٩٣/٢ - ٩٦ ، ٢٦/٣ ، وخزانة بولاق ٤٨٢/٢ ، ٢٩٥/٤ ، والمقاصد النحوية ٦١/٤ .
(٣) انظر ذم الخطأ في الشعر لابن فارس ٣٠ - ٣١ ، والموازنة ٢٧ ، واعلام الكلام ٣٧ - ٣٨ .

ومن أمثلة الحذف قوله (١) :

تحت الذي اختارَ له اللهُ الشجرَ

يريد « من الشجر » ، فحذف حرف الجر (٢) .

ومن هذا أيضاً حذفه الفاعل من فعلين متتالين دون قرينة واضحة ،

في قوله (٣) :

واستعرت سوق الضراب واستعرت منه همأذي إذا حرّت وحرّ

وقال الأصمعي في شرحه : « وقوله (حرّت وحرّ) ، يقول : حرّت

الهمأذي وحرّ القتال ، اشتد حرها واستعرت » .

ومن هذا أيضاً حذفه الصلة في قوله (٤) :

بعد اللتيا واللتيا والتي إذا علّتها أنفس تردّت

فقد أنشد سيبويه البيت الأول شاهداً على حذف صلة التي (٥) ، وعلّق

الأعلم عليه بقوله : « الشاهد فيه حذف صلة التي اختصاراً لعلم السامع بما

أراد ، هذا تقدير سيبويه ، وبعده :

إذا علّتها أنفس تردّت

وهذا يكون صلة التي ، فإما أن يكون سيبويه لم يرو هذا بعده ،

وإما أن يكون قد رواه فجعله صلة للتي وحدها ، وحذف صلة اللتيا فيكون

الشاهد في ذلك ، وحسن حذف صلة « اللتيا » لتصغيرها الدال على شاعتها ،

(١) الأرجوزة ١٢/١ .

(٢) انظر مجاز القرآن ٢٢٩/١ ، وتأويل مشكل القرآن ١٧٧ ، وكتاب

الصناعتين ١٣٩ ، واللسان (خير) .

(٣) الأرجوزة ١١٢/١ - ١١٣ .

(٤) الأرجوزة ٥٣/٢٢ - ٥٤ .

(٥) كتاب سيبويه ٣٧٦/١ .

لأنهم قد يصغرون الشيء على معنى التعظيم والتشيع (١) .
 ومن ذلك أيضاً حذفه الموصوف بشكل غامض ، في قوله (٢) :
 يرمونَ حَـدَّ اليَومِ ذِي التَّاجِمِ . وَلُجَّةَ الظِّلْمَاءِ بالتَّجَشُّمِ
 بِأَعْيُنِ سَاهِمَةٍ وَسَهْمِ .

فقواه « سَهْم » ليس من نعت « أعين » ، وإنما هو نعت لمحذوف ،
 فكأنه قال : « بأعين ساهمة وإبل سَهْم » . وحذف الموصوف على هذا
 النحو يوقع في شيء من الغموض واللبس ، لأنه ليس من قرينة تشير إليه
 في الكلام .

ومن هذا أيضاً حذف (قد) ، في قوله (٣) :

لَمْ يَكُ يَنَادُ فَاَمَسَى اَنَادَا

وقال الجوهري : « أي قد أناد ، فجعل الماضي حالاً باضمار (قد) ،
 كقوله تعالى (٤) : « أَوْ جَاؤْكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ » (٥) . وهذا رأى البصرين
 ماعدا الاخفش ، فهم يرون ان « قد » يجب دخولها على الماضي الواقع حالاً
 إما ظاهرة أو مقدره ، وخالفهم الكوفيون والأخفش فقالوا : لاحتياج لذلك
 لكثرة وقوعه حالاً دون « قد » والاصل عدم التقدير ولاسيا في ما كثر
 استعماله (٦) .

ومن أمثلة الحمل على المعنى لاعلى اللفظ قوله (٧) :

(١) تحصيل عين الذهب ٣٧٦/١ ، وانظر كتاب سيبويه ١٤٠/٢ ،
 والمغني ١٦٦/٢ .

(٢) الأرجوزة ٥٩/٢٤ - ٦١ .

(٣) ملحقات الديوان ٤/١٧ .

(٤) سورة النساء ٨٩/٤ .

(٥) الصحاح ٤٣٩/١ .

(٦) انظر مغني اللبيب ١٤٩/١ .

(٧) ملحقات الديوان ٦/٢٥ .

ينهبَنَ في نَجْدِ وغَوْرًا غَاثِرًا

فقد نصب « غَوْرًا » حملا على موضع « نَجْدِ » ، لأن معنى « ينهبون في نجد » و « يسكنن نجدا » واحد ، فكأنه قال : يسكنن نجداً وغوراً غاثراً^(١) .

ومن هذا أيضاً قوله^(٢) :

كَشْحًا طَوَى مِنْ بَلَدٍ مُخْتَارًا مِنْ يَأْسَةِ الْيَائِسِ أَوْ حِذَارًا
فقد نصب « حذارا » حملا على موضع « يَأْسَةِ » ، لأن قوله « طوى كَشْحًا مِنْ يَأْسَةِ الْيَائِسِ » بمعنى « طواه يَأْسَةَ الْيَائِسِ » ، فكأنه قال : طوى كَشْحًا يَأْسَةَ الْيَائِسِ أَوْ حِذَارًا^(٣) . والمفعول لأجله يجوز جرّه بحرف جرّ دال على التعليل ولو استوفى شروط النصب .

ومن أمثلة القلب المعنوي قوله^(٤) :

مُحَمَّلِينَ فِي الْأَزِمَاتِ النَّخْرُ

وَالْأَزِمَاتُ : جَمْعُ الْإِزْمَةِ ، وَالْأَخِيرَةُ جَمْعُ زِمَامٍ . وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ فِي شَرْحِهِ : « وَقَوْلُهُ (فِي الْأَزِمَاتِ النَّخْرُ) ، وَالنَّخْرَةُ : نَخْرَةُ الْأَنْفِ ، وَهِيَ طَرَفُ الْأَنْفِ ، تُجْعَلُ الْأَزِمَةُ فِيهَا » ، ثُمَّ قَالَ : « يَقُولُ : فَهْمٌ مَعْلُقُونَ فِي الْأَزِمَاتِ النَّخْرُ ، جَعَلُوا أَزِمَةَ الْإِبِلِ فِي مَنَاخِرِهَا وَسَافَرُوا » ، وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ فِي الْبَيْتِ قَلْبًا مَعْنَوِيًّا ، لِأَنَّهُ أَرَادَ : مَحْمَلِينَ الْأَزِمَةَ فِي الْأَنْوْفِ ، لِأَنَّ

(١) تحصيل عين الذهب ٤٩/١ ، وانظر كتاب سيبويه ٤٩/١ ،
والخصائص ٤٣٢/٢ ، وشرح شذور الذهب ٣٣٢ .
(٢) الأرجوزة ٣/٣٤ - ٤ .
(٣) انظر كتاب سيبويه ٣٣/١ - ٣٥ ، وتحصيل عين الذهب ٣٥/١ ،
والانصاف ٣٣٣/١ .
(٤) الأرجوزة ٨٢/١ .

الأنوف هي التي تحمل الأزيمة ، وقد ضمن « محملين » معنى « واضعين » ،
ولذلك عداها ب « في » .
ومن هذا أيضاً قوله (١) :

نَعَصَا بِكُلِّ مَشْرَفِيٍّ مَخْفَقٍ مُطْرِدٍ الْقَدِّ رُقَاقٍ الرَّوْنَقِ
يَشْقَى بِأَمِّ الرَّأْسِ وَالْمُطَوِّقِ

وقال الأصمعي في شرحه : « ومطرّد : يعني السيف ، إذا هُزَّ اطْرَدَ
هزؤه ، لا يهتز بعض دون بعض ، وأمّ الرأس : جلدة رقيقة على الدماغ .
والمطوّق : العنق ، وإنما أراد موضع الطوق ، وذا مقلوب ، والمعنى أن
الرأس والعنق يشقيان بالسيف » .
ومن هذا قوله أيضاً (٢) :

وَحَابَسَ النَّاسُ الْأُمُورَ الْحُبْسَا

وأنشده المازني برواية قوية السند : « وَحَبَسَ النَّاسُ » ، فقال :
« أخبرني الصولي قال حدثنا القاسم بن اسماعيل قال حدثنا محمد بن سلام قال
سمعت يونس ، يقول : كان رؤبة عندي ، فقال رجل مامعنى قول العجاج :

وَحَبَسَ النَّاسُ الْأُمُورَ الْحُبْسَا

فقال له رؤبة : قلبه ويلك (٣) » .

ومن هذا أيضاً قوله (٤) :

فَإِنْ يَكُنْ نَاهَى الصَّبَا مِنْ سِنِّي

-
- (١) الأرجوزة ١٤/١٠ - ١٦ .
 - (٢) الأرجوزة ٦٤/١١ .
 - (٣) الموشح ٢١٨ - ٢١٩ .
 - (٤) الأرجوزة ١٧/١٦ .

وقال الأصمعي في شرحه : « قوله (فإن يكن ناهي) ، يقول :
كفّ سني من الصبا » . ومن الواضح أن الأصمعي يشير إلى ما فيه من قلب
معنوي ، لأن تقدّم السنّ هو الذي يكفّ من الصبا والشباب .
ومن أمثلة التصرف في الضائر قوله (١) :

غراءٍ مسقَابٍ لِفَحْلٍ سَرَطَمٍ قَراسِيَاتٍ شَأْنُهُنَّ ضَيَّغَمٍ
مُنْهَرَتٍ الْأَشْدَاقِ غَضْبٍ ضَمُضَمٍ

والقراسيات : الضخام الهام . والشؤون : قبائل الرأس ، وهي أربع ،
كلّ قبيلة شأن . وقوله « قراسيات شأنهن » ، أراد « قراسيات شؤونهن » ،
فجعل الشأن بمعنى الجنس لاجتماع المفرد ، ثم ردّ ضمير « شأنهن » إلى « غراء »
و « فحل » ، فنعتهما بضخامة الرأس ، ثم عاد إلى نعت الفحل بمفرده ،
فقال : « ضيغم .. منهرت » ، وبذلك تصرف بضائر البيت حسب حاجته ،
تارة يردّها الى الجمع وطوراً إلى المفرد ، وهذا يوقع في إبهام وغموض ،
ويحوج إلى دقة وروية في التأويل .

ومن هذا أيضاً قوله في وصف الأثافي (٢) :

رَوَائِمٌ لَوْ تَرَأَمُ الْأَثْفِيُّ كَدَانُهُ أَوْ يَرَأَمُ الْحَرِيُّ
طَلَى الرَّمَادِ اسْتَرْتِمَ الطَّلِيُّ

شبهه تعطف الأثافي على الرماد بالإبل تعطف على البو . وقد
سبق القول إلى أن « الأثفي » هنا أصله « الأثفية » فأسقط العجاج التاء
للحاجة ، وقد عامل الأثفية بالتأنيث على حقيقة معناها فقال « لو ترأم » ،

(١) الأرجوزة ٢٤/١١٠ - ١١٢ .

(٢) الأرجوزة ٢٥/١٤ - ١٦ .

ثم عاملها بالتذكير على معنى الحجر فقال « كذّانه » فردّه إليها ضمير الغائب بدلاً من ضمير غائبة مفردة ، ولا شكّ أن هذا يحتاج إلى أناة وتبصّر حتى يفهم المعنى بدقة ، ولا سيما أنه لا ضرورة في البيت ، إذ يمكن أن يقول « كذّانها » ، ولكن مذهبه في الأغراب جعله يتبع كل وسيلة تؤدي به إلى هذا الغرض الذي أرادته لرجزه .

ومن أمثلة التصرف في الجموع ، قوله في وصف الصياد (١) :

ذِي نَبَعَةٍ صَفْرَاءِ ذَاتِ أَرْمَلٍ وَسَلْجَمَاتٍ ذَرِبَاتِ الْأَنْصُلِ
وَالسَّلْجَمُ : السهم الطويل العريض ، وَجَمَعُهُ سَلَاجِمٌ (٢) ، إِلَّا أَنْ
العجاج خرج على مألوف جمعه في اللغة ، فجمعه جمع سلامة المؤنث .
ومن هذا أيضاً قوله في وصف كلاب الصيد (٣) :

وِشْمَنَ فِي الْغُبَارِ كَالْأَخْطَاطِ

أراد أن الكلاب دخلن في الغبار كأنهن خطوط ، وقال ابن منظور:
« الخَطُّ الطريقة المستطيلة في الشيء ، والجمع خطوط ، وقد جمعه العجاج
على أخطاط فقال : (البيت) (٤) » : وهذا يشير إلى تفرّد العجاج في هذا
الجمع ، ولعله من تصرفاته في اللغة ، وقد يكون هو السبب لادخال هذا
الجمع إلى بعض المعاجم ، إذ قال صاحب القاموس : « الخطّ الطريقة
المستطيلة في الشيء أو الطريق الخفيف في السهل جمع خطوط وأخطاط (٥) » .
ومن هذا قوله في وصف القرقرور ، وهو السفينة (٦) :

-
- (١) الأرجوزة ٢٧/١٥ - ٢٨ .
(٢) انظر اللسان ، والقاموس (سلجم) .
(٣) الأرجوزة ٤٥/٢٠ .
(٤) اللسان (خطط) .
(٥) القاموس المحيط (خطط) .
(٦) الأرجوزة ٧٦/٢٥ .

رَفَعَ مِنْ جِلَالِهِ الدَّارِيُّ

وأراد بـ « جلاله » جمع الجَلِّ وهو الشراع ، والجَلِّ بمعنى الشراع
إنما يجمع على مُجَلُّولٍ وأَجَلالٍ ، إلا أن العجاج جمعه على « جلال » جمع
الجَلِّ الذي يُلبَسُ للدابة لتصان به ، وهذا يجمع على جلال وأَجَلالٍ (١) .
ومن هذا أيضاً قوله (٢) :

إِذَا أَنَا فَيِّنَانٌ أَنَاغِي الكُعْبَا

والكُعَابُ : الجارية إذا نَهَدَ تَدْيِثُهَا ، والجمع كَوَاعِبُ وكِعَابٌ (٣) ،
وهو القياس لأنها صفة للمؤنث على وزن « فاعل » ، ولكن العجاج جمعها
جمعاً قياسياً آخر على كُعْبٍ ، مثل صَائِمٍ ومُصَوِّمٍ ، وراكِعٍ ورُكْعٍ ،
ولم ينظر إلى صفة التأنيث فيها .
ومن هذا أيضاً قوله (٤) :

مِنْ مَنَزِلَاتٍ أَصْبَحَتْ دَعَاثِرَا

وَدُعْشُورٌ كُلُّ شَيْءٍ : حُفْرَتُهُ ، والدُعْشُورُ : الحوض المَهْدَمُ ، والجمع
دَعَاثِيرٌ . وقال ابن منظور بعد البيت : « أراد دعائيرا فحذف للضرورة (٥) » .
فهذا الأسلوب من الحذف أو الحمل على المعنى أو القلب المعنوي أو
التصرف في الضائر أو المجموع ، كان له أن زاد من الإشكال النحوي في
رجز العجاج ، ودعا إلى شيء من التأويل والغموض أحياناً ، وبذلك كان
العجاج لا يخرج على القواعد النحوية المألوفة فقط ، وإنما يلجأ إلى بعض الأساليب
الأخرى ، ليأتي بما يحقق له نوعاً من الإغراب لا يقف عند معاني الألفاظ أو

-
- (١) انظر اللسان ، والقاموس (جلال) .
 - (٢) ملحقات الديوان ١٢/٢ .
 - (٣) انظر اللسان ، والقاموس (كعب) .
 - (٤) ملحقات الديوان ١/٢٥ .
 - (٥) اللسان (دعثر) .

أبنتها ، وإنما يتجاوز ذلك إلى أساليب العبارة وما فيها من روابط نحوية خاصة .

وثمة مواضع من رجزه قد أثارت اشكالاً وخلافاً بين النحاة ، لا لأنها خرجت على قواعد اللغة ، أو اعتمدت على أساليب الحذف أو الحمل على المعنى أو ما إلى ذلك ، وإنما لأنها فهِّمَت بوجوه متباينة ، ومن ذلك مثلاً قوله (١) :

في بئرٍ لأحورٍ سرى وما شَعَرَ

فأكثر علماء اللغة والنحو جعلوا « لا » زائدة في البيت ، وذلك لأنهم ذهبوا بكلمة « حور » الى نقصان أو الهلاك ، فأصبح المعنى لديهم : في نقصان أو هلاك سرى الحوروي وما شعر (٢) ، وخالف الفراء وابن الأعرابي ذلك ، فذهب الفراء « إلى أن (لا) في البيت نافية وليست بزائدة ، لأن المعنى في بئر ماء لا يجير عليه شيئاً ، كأنك قلت إلى غير رشد توجه وما درى ، ووقع على مالا يتبين فيه عمله ، فهو جحد محض (٣) » ، وقال ابن الأعرابي : « أراد : حور ، أي بئر « لاحور » ، لارجوع ، قال : فأسكنت الأولى وحذفت لسكونها وسكون الثانية بعدها (٤) » .

فخلافهم حول زيادة « لا » أو عدم زيادتها ، إنما نشأ بسبب خلافهم حول المعنى المراد من كلمة « حور » في البيت ، فلها من الوجوه ما يؤيد

(١) الأرجوزة ٤٠/١ .

(٢) انظر شرح الأصمعي للبيت ، ومجاز القرآن ٢٥/١ ، وجمهرة اللغة ١٤٦/٢ ، وتأويل مشكل القرآن ١٩١ ، والوساطة ٣٥٨ ، والمفصل ٣١٢ ، والصاح ٦٣٩/٢ ، ٢٥٥٣/٦ ، والمجمل ٢٤٠/١ ، والصحابي ١٣٨ ، وشرح التبيان ١٥٢/٢ .

(٣) خزانة بولاق ٤٩٠/٤ ، وانظر طبعة السلفية ٣٨/٤ - ٣٩ .

(٤) الخصائص ٤٧٧/٢ ، وانظر مجمع الأمثال ١٩٥/١ ، واللسان (حور) .

زيادة « لا » ، ولها من الوجوه أيضاً ما يؤيد عدم الزيادة .

وقريب من هذا ما نجد من خلاف حول قوله (١) :

فَاجِ طَوَاهُ الْأَيْنِ مِمَّا وَجَفَا طَيَّ اللَّيَالِي زُلْفًا فَرَزْلَفَا
سَمَاوَةَ الْهَيْلَالِ حَتَّى أَحْقَوْقَفَا

فقد ذكر الرماني أن نصب « سماءة » فيه وجهان ، وأسند الوجه الأول لسيبويه ، فقال : « أما سيبويه فإنه ينصبه بفعل دلّ عليه الكلام ، وهو أنه لما قال : (ناج طواه الأين) ، دلّ على (اضمره) ، فكأنه قال : أضمّره حتى صار مثل سماءة الهلال (٢) » .

ثم أسند الوجه الثاني للمازني ، فقال : « وقال أبو عثمان المازني : ينتصب سماءة الهلال لأنه عندي مفعول . قال : لأنّ المعنى طواه الأين طيَّ الليالي (٣) ، فنصب سماءة بهذا الظاهر الذي في البيت ، كما تقول : ضربته ضرب زيد عمراً . فعلى هذا يكون الطي مصدرأ ، والليالي فاعله ، وسماءة الهلال مفعول ، وهو قول أبي علي والجرمي (٤) » .

ومن ثم جعل الرماني يدافع عن رأي سيبويه بكلام نحوي كأنه لا يدري بضروب المجاز عند العرب ، مع أن رأي المازني قد ذهب إليه أيضاً كلّ من المبرد ، والأعلم الشنتمري (٥) .

وليس يعيننا أن نفاضل الآن بين آراء النحاة ، وإنما حسبنا تبيان ما بينهم من خلاف حول رجز العجاج ، وهو خلاف قد تنوعت أسبابه ،

(١) الأرجوزة ٣٨/٤٤ - ٤٠ .

(٢) توجيه اعراب أبيات ملفزة الاعراب ٢٠٩ ، وقارن بكتاب سيبويه

١٨٠/١ .

(٣) أراد : طواه الأين طيَّ الليالي سماءة الهلال . ف « سماءة »

مفعول ب « طيَّ » المصدر .

(٤) توجيه الرماني ٢٠٩ ، وانظر التمام لابن جني ١٤٥ .

(٥) انظر الكامل للمبرد ١٣٠ ، وتحصيل عين الذهب للأعلم ١٨٠/١ .

فكان منها مجرد الخلاف حول فهم هذا الرجز ، وكان منها أيضاً خروج العجاج أحياناً على مألوف قواعد اللغة مما حمل أكثر النحاة على البعد في التقدير ، والاختلاف في وجوه التأويل ، والمعارضة تبعاً لمذهب كلّ منهم في بناء القواعد النحوية في اللغة .

وما رأيناه من شذوذ نحوي في رجز العجاج ، يمكن أن نصادف له نظائر في أشعار غيره ، مما يتناثر في كتب النحو والصرف ، وإذا كنا لم نأت بأمثلة لها ، فذلك لأن كلّ قاعدة تقريباً لا تخلو من أبيات تشذ عنها قليلاً أو كثيراً ، ولكن هذه الأبيات الشاذة لا نجد منها جمهرة غفيرة لدى شاعر بعينه كالذي نجد في رجز العجاج ، وإنما يمكن أن نجدتها مجتمعة في كتاب سيبويه مثلاً ، شاهداً لهذا الشاعر ، وآخر لذلك ، أما هذا الإصرار من العجاج على التصرف في قواعد النحو واللغة ، فهو ظاهرة واضحة في كل مامرّ بنا من خصائص لغوية أو نحوية ، سواء في ذلك الاغراب في ألفاظ اللغة ، أو التصرف في أبنيتها ، أو الخروج على قواعد النحوية المألوفة ، وهذه الظاهرة تشير بوضوح إلى ما أورده العجاج من سمات لمدرسة الرجز ، تتركز حول الاغراب في ألفاظ اللغة وأبنيتها وروابطها النحوية ، ولا نكاد نجد هذه السمات إلا في مدرسة العجاج نفسها ، ولا سيما في رجزه ورجز ولده رؤبة .

٦ - موقف أبي العلاء من الرجز

وبما تقدّم كله خلال الفصلين الخامس والسادس ، أصبح جلياً أن العجاج قد عني بالجوانب اللفظية لرجزه عنايته بالجوانب المعنوية ، وكانت عنايته اللفظية تنصرف إلى شكل الأرجوزة ، وجوها الموسيقي ، وألفاظها اللغوية ، ولعل

ابرز هذه الخصائص ما لسنائه من تعمد وإصرار على الإغراب في اللغة ، حتى كان لهذا الإغراب في رجزه ضروب وألوان مختلفة ، تارة يغرب في معنى الكلمة ، وطوراً في استعمالها ، وحيناً في بنيتها ، ثم لا يغفل شيئاً من شوارد الأبنية أو نوادرها ، وما ذلك كله إلا لشغف الناس بما يعرض عليهم ، إذ كان بعضهم يسعى وراء الكلمة الشرود ، وبعضهم كان يرتاح إلى هذه النفحات الصراوية التي تحيي في نفسه ذكريات الأمس القريب .

وهذه الخصائص على تنوعها ، تجعل من الواجب ان يُنظر إلى هذا الرجز من زاوية خاصة ، وألا يطرح للمقارنة بينه وبين القصيد^(١) ، إذ أن لكل منها هدفاً وغاية ربما كانت تختلف اختلافاً جوهرياً في بعض الاتجاهات ، ولهذا لانجد مسوغاً لأبي العلاء المعري في اعتبار الرجز من « سفاسف القريض » ، وجعل منازل أصحابه في الجنة أقل ارتفاعاً من منازل غيرهم ، إذ يقول : « ويمر بأبيات ليس لها مسموق أبيات الجنة ، فيسأل عنها ، فيقال : هذه جنة الرُّجُز ، يكون فيها أغلب بني عجل ، والعجاج ، ورؤبة ، وأبو النجم ، وحيد الأرقط ، وعذافر بن أوس ، وأبو نخيلة ، وكل من غفر له من الرِّجَّاز ، فيقول : تبارك العزيز الوهاب ، لقد صدق الحديث المروي : « إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفافها » ، وإن الرجز لمن سفاسف القريض ، قصرتم أيها النفر فقصر بكم^(٢) . »

فمثل هذا الموقف من الرجز يغفل الهدف الرئيسي منه خلال القرن الهجري الأول ، إذ كان الراجز لا يريد مجرد النظم ونقل المعاني ، ولكنه بالإضافة إلى ذلك كان يُعنى بعدد من الخصائص اللفظية ، التي تجعله يتعاطف

(١) كالذي نجده عند ابن رشيق في العمدة ١/١٢٣ - ١٢٤ .

(٢) رسالة الغفران ٢٩٧ .

مع أبناء عصره ، ويلبي رغبة الحنين إلى الماضي القريب ، وما لبث الأمر أن تحول على يد رؤبة ، فعدت بعض أراجيزه أشبه بعقود تنتظم ألفاظ اللغة وغرائبها ، لتقدم في القرن الثاني مادة وفيرة لأبناء عصره من علماء اللغة والنحو .

وهذه الخصائص لم تستمر إلى ما بعد رؤبة بن العجاج ، لأن الدوافع التي أوجدتها في القرن الأول ، بدأت تجبو رويدا رويداً ، ولأن الراجز بدأ يتعد عن الأصالة التي عرفت مثلاً للعجاج وابنه رؤبة ، وقد أدرك أبو عمرو ابن العلاء هذه الحقيقة ، فجعل وفاة رؤبة (١٤٥ هـ) نهاية لمدرسة العجاج ، فقال : « ختم الشعر بزدي الرمة ، والرجز برؤبة بن العجاج (١) » .

فأبو عمرو لم ينظر إلى رجز من جاء بعد رؤبة ، لأن هذا الرجز بدأ يختلف اختلافاً جذرياً عن مدرسة العجاج ، ولم يعد أكثر من نظم على هذا الوزن ، وقد حاول بعض أصحابه أن يقربه من هذه المدرسة بشيء من الغريب أحياناً ، وبعض منهم لم يفتن إلى هذا مطلقاً ، وإنما كان يكفيه أن يرسل أبياته على شكل أسطر من الرجز أو ما يقاربه ، فكان ذلك كله أبعد ما يكون عن الخصائص التي أرادها العجاج للرجز ، ويكفي أن نقارن أبياتاً من أرجوزة بشار الدالية المشهورة (٢) ، أو أبياتاً من الرجز لأبي نواس (٣) ، أو أبي تمام (٤) ، أو ابن المعتز (٥) ، أو ابن الرومي (٦) ، أو المتنبّي (٧) ، بأبيات لرؤبة أو للعجاج مثلاً ، حتى ندرك البون الشاسع بين هذه وتلك .

-
- (١) العمدة ٥٦/١ ، والمزهر ٤٨٤/٢ ، والمقاصد النحوية ٢٦/١ .
 - (٢) ديوان بشار بن برد ٢١٨/٢ - ٢٤٢ .
 - (٣) انظر باب الطرد في ديوانه ٦٢٥ - ٦٧٢ ، وانظر بعض أراجيزه في نقد الشعر ٨٣ ، والموازنة ٧٩ ، ومجموعة المعاني ٢٠٣ - ٢٠٥ .
 - (٤) انظر كتاب الصناعتين ٣٣ ، ومجموعة المعاني ١٨٦ .
 - (٥) انظر نثار الأزهار ٦٩ .
 - (٦) انظر زهر الآداب ٩/٢ - ١٠ ، وكتاب الأوراق ٨٥ .
 - (٧) انظر ديوانه بشرح الواحدي ٢٠١/١ .

فالعجاج قد بنى الرجز بخصائص معنوية ولفظية خاصة . وأسهم معه في ذلك بعض معاصريه من أمثال أبي النجم ورؤبة ، وكان لهذه الخصائص أن تنتهي بوفاة رؤبة ، لأن تلك الأراجيز التي كثرت من بعده ، لم يكن لها من الرجز إلاّ الوزن والشكل فحسب ، ولعلها هي المسؤولة عمّا آل إليه الرجز من ضعة فيما بعد ، ولا سيما حين تحوّل إلى ما عرف بالمزدوج ، فعاد شعراً لا روح فيه ولا حياة^(١) ، وخاصة بعد أن غدا وسيلة لنظم التاريخ أو ما صعب من العلوم^(٢) .

وهذا كله يمكن أن يدرس في بحث خاص بتاريخ الرجز ، ولا مجال هنا إلى بحثه واستقصائه ، والذي يهمنا أن أبا العلاء المعري لم ينصف هذه الطبقة من الرجاز ، ولو نظر الى مدرسة الرجز التي انتهت بوفاة رؤبة ، وما فيها من خصائص تتفرد بها عن سائر الشعراء ، وتتميز بها عن أراجيز ما بعد القرن الهجري الثاني ، لكانت منازلها لا تقل عن منازل أهل الجتة في رسالة الغفران .

(١) انظر بعض المزدوجات لابن المعتز في كتاب اللطائف والظرائف للشعالبي ٨٢ ، ومزدوجة لأبي فراس في يتيمة الدهر ٥٨/١ - ٦١ ، وثمة مزدوجات كثيرة متناثرة في هذا الكتاب .

(٢) من أمثلة ذلك مزدوجات أبان اللاهقي في التاريخ أو في ترجمة كلية ودمنة ، انظر الاوراق للصولي ٤٦ - ٥٢ ، ومزدوجة حمدان بن أبان في وصف الحب واهله ، انظر الاوراق ٥٧ - ٦٢ ، ومزدوجات البهاء العاملي في المواعظ ، انظر الكشكول ٣٨ ، و٧١ . ومزدوجات المتون مشهورة كثيرة ، وأشهرها مزدوجة ابن مالك في النحو المعروفة بالالفية ، وله مزدوجة أخرى تعرف باسم « الاعلام بمثلث الكلام » ، نظم فيها مثلث الكلام في العربية .

خاتمة

أردت هذه الدراسة لتكون مرآة تُعرِّفنا العجاجَ ، حياته ودوانه وخصائص رجزه ، وبما أن العجاج قد تأثر بواقعه ، وغدت بعض الجوانب من حياته أو أدبه ، لا تفهم إلاّ من خلال ما عاصره من أحداث سياسية أو ظواهر اجتماعية أو اتجاهات فكرية ، فلذلك كان لا بد من تمهيد حول الإطار السياسي والاجتماعي والفكري لعصره ، فبدأنا الحديث عن المشكلات السياسية التي عاصرها وامتدت منذ حروب الردّة بوجه خاص حتى أواخر القرن الهجري الأول ، ثم تحدثنا عن الظواهر الاجتماعية المختلفة ، التي برزت لعصره وأثرت في رجزه أو في أشعار معاصريه ، ومن ثم تحدثنا عن الاتجاهات الفكرية والعقلية وما أثرت به في أشعار تلك الفترة ، ولاسيما تلك الفرق المتباينة كالجبرية والقدرية والمرجئة وبوادر فرقة المعتزلة .

ولما تسمّ لنا رسم هذه الاتجاهات المختلفة ، التي أثرت في شخصية العجاج أو في أدبه ، كان لنا أن نبدأ الحديث عن العجاج نفسه ، فحان الفصل الأول خاصاً بدراسة حياته ، وبدأناه بالحديث عن نسبه وعشيرته ، فرايناه ينتمي إلى بني سعد من تميم ، وهي قبيلة عُرفت بقول الرجز ، وإذا كنا لم نظفر بأخبار مفصلة حول أسرته ، فقد أمكن التعرف بعدد من أفرادها ولاسيما بعض أولاده وأحفاده ، وكان منهم من حمل لواء الرجز من بعده أمثال ولده رؤبة ، وحفيده عقبة بن رؤبة .

ثم انتقل بنا الحديث إلى نشأته وعمره ورحلاته ، فرايناه من المعمرين ،

إذ وُلد في الجاهلية ، وتوفي أيام الوليد بن عبد الملك ، وخلافة الوليد امتدت بين (٨٦ - ٥٩٦) ، ورجحنا أنه لم يبق حتى خلافة سليمان ، ولكن هذا الترجيح يحتاج إلى مناقشة أخرى في الطبعة القادمة لهذا الكتاب إن شاء الله ، ذلك لأننا تنبها إلى بيت كان قد سقط من الأصول حين اعداد هذه الدراسة ، وهو البيت (١٤٤) من الأرجوزة (١٧) ، وفيه يقول : « إلى سليمان العَقُولِ المَعْقِلِ » ، وهذا قد يرجح أنه بقي إلى أوائل خلافة سليمان ، إن ثبت أنه يريد سليمان بن عبد الملك بالذات ، ولكنه مع ذلك لا يؤيد أن يكون العجاج قد ارتحل إليه وهو خليفة كما تزعم بعض الأخبار التي وقفنا عندها ، لأنه على الأرجح كان قد كبر وأقعد في هذه الفترة من حياته . وفي حديثنا عن نشأة العجاج ، رأينا أنه نشأ في حاضرة اليمامة ، وبها كانت إقامته أيضاً ، ولكنه جعل يتردد بينها وبين البصرة ، ويرتحل تارة إلى الشام ، وطوراً إلى الحجاز ، وبذلك تأثر بالجوانب المختلفة في بيئته وعصره ، وكانت الصلة وثيقة بينه وبين من عاصروهم من خلفاء وأمراء أو شعراء ورُجّاز ، ولا سيما أنه قد أسهم في حياة المربد الأدبية ، ولكن على نحو يتلاءم مع طبعه وأخلاقه .

ثم وقفنا عند عقيدة العجاج ، لنناقش الأب لويس شيخو ، حول رأيه في سلك العجاج بين شعراء النصرانية ، فلم نجد من راجزنا إلاّ تقيّاً ورعاً ، قد تعمق الإيمان الإسلامي في نفسه ، حتى كان له أثر واضح في بناء شخصيته وأخلاقه ومعانيه وأساليبه .

ثم عملنا على تحديد شيء من معالم شخصية العجاج ، فرأيناه رجلاً أعرابياً قد تبدت أعرابيته في ألفاظه ومعانيه ، ولئن تحدث أحياناً عن شيء من لهو الشباب ، فهو لا يصرّح بالمجون السافر ، ولا يقص أخباراً مع هذه أو تلك ،

وما ذلك إلا لأن الجانب الديني كان هو الغالب على أخلاقه ، ولهذا طُبعت أخلاقه على الخير ، وابتعدت عن الشر أو الإفساد بين الناس ، وكان ثمة عناصر متعددة قد تضافرت لتكون الإطار العام لشخصيته ، منها بيته وأسرته وعشيرته ، ومنها رحلاته إلى بعض أنحاء الجزيرة وإلى الشام والعراق ، ومنها الحياة الاجتماعية والسياسية التي عاصرها ، ولكن الحضارة الجديدة في العراق والشام والحجاز ، لم تُغيّر كثيراً من ثقافته الأعرابية ، ولهذا ربما أخطأ التعبير أحياناً عن بعض مظاهر هذه الحضارة ، التي لا تمتّ بصلة إلى حياة الأعراب ، ومن هنا كانت ثقافته شديدة الصلة بالصحراء ، منها يستمد فصاحته لتكون مضرب الأمثال ، ومنها يستمد معارفه بأمورها وأحوالها وما تقتضيه الحياة فيها ، ولكن هذه الثقافة الأعرابية قد تأثرت إلى حد ما بما عاصرها من تيارات سياسية أو فكرية أو دينية .

وبعد أن رسمنا هذه الصورة للعجاج ، حاولنا أن ننقل صورة أخرى لديوانه ومصادر رجزه ، فأفردنا لذلك الفصل الثاني ، ورأينا أن الديوان قد صنعه كل من الأصمعي وأبي عمرو الشيباني ، ولكنه لم يبق لنا غير ديوانه برواية الأصمعي وشرحه ، وقد ترددت الإشارات إليه في عدد من المصادر ، وحفظ لنا ابن خبير سنداً متصلاً لروايته عن الأصمعي ، وأهم ما في هذا السند أن الديوان روي عن أبي علي البغدادي عن أبي بكر بن دريد عن أبي حاتم السجستاني عن الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء عن روبة ابن العجاج عن أبيه العجاج ، وهذا السند يعوض ما نجده من نقص في نسخة الأصل ، لأن الناسخ صرح بأنها من رواية الأصمعي ولكنه أغفل سند روايتها عنه ، ولكن في النسخة من العبارات ما يؤكد أنها من رواية أحد تلامذة أبي حاتم السجستاني عن أبي حاتم عن الأصمعي .

ثم لاحظنا أن رجز العجاج لم يُنقل عن الأصمعي من طريق أبي حاتم

فحسب ، وإنما نُقل عنه من طرق أخرى أيضاً ، منها رواية عبد الرحمن بن أخي الأصمعي ، وأبي الفضل العباس بن الفرغ الرياشي ، وأبي اسحق إبراهيم ابن سفيان الزبدي ، وقد حفظت لنا بعض رواياتهم فيما ورد من إضافات على حواشي نسخة الأصل من قبل مجهول حاول أن يقابل بين هذه النسخة وبين نسخ أخرى من رواية هؤلاء ، ولا سيما النسخة التي جاءت برواية عبد الرحمن عن عمه ، وكان يمكن أن تضاف هذه الزيادات إلى الأصل باعتبارها منقولات عن الأصمعي نفسه ، لولا أن هذا المقابل خلط بها بعض الحواشي من كتب اللغة ، وليس من الهين دائماً التمييز بين هذه وتلك .

وبعد هذا التحقيق كان لابد من دراسة موجزة للأصمعي راوية الديوان وشارحه ، فرأينا شيئاً من ملامح ثقافته وعلمه وأخلاقه ، لتكون عوناً على فهم خصائص شرحه ، وكان أبرز ما أردنا أن نصل إليه ، هو الصلة الوثيقة بينه وبين الرجز ، والثقة الكاملة التي عُرفت بها روايته .

ومن ثم انتقلنا إلى الحديث عن « شرح ديوان العجاج » ، فأكدنا نسبة هذا الشرح للأصمعي ، ثم فصلنا بين العبارات التي أضافها أبو حاتم إلى شرح أستاذه وبين أصل الشرح نفسه ، وبذلك نفينا كل شك يمكن أن يساور الباحث حول نسبة هذا الشرح ، ومن هنا مضينا إلى البحث عن خصائص شرح الأصمعي ، وكان أول ما لاحظناه هو ذلك الاهتمام بالشرح اللغوي والاستطراد فيه ، واعتماده في ذلك على شواهد من القرآن والشعر القديم ، بل ربما شرح هذه الشواهد فزاد من ظاهرة الاستطراد في شرحه ، ولكنه في وجز العجاج قد لا يقف عند شرح الألفاظ فقط ، وإنما قد يشرح بعض معاني الأبيات بإيجاز ، وربما عرض للكشف عما فيها من أمثال ، ولكن الأمور النحوية لا ترد في حديثه إلا نادراً ، وأسلوب الأصمعي أسلوب الرجل العالم ، فإن لم يكن على ثقة كاملة بما يقول ، مرض العبارة ، ولم يطلقها دون

حيطة أو حذر ، وعنايته باللغة ربما حملته على نقد أستاذه أبي عمرو بن العلاء في شرح بعض الألفاظ ، وربما دفعته إلى الكشف عما بين الهجات من اختلاف في بنية بعض الألفاظ أو معناها ، أو الإشارة أحياناً إلى الأصول الأعجمية إن وجدت ، وربما أتى بأحكام تتصل بالنقد أو بضرائر الشعر ، وقد يورد أخباراً موجزة تفسر المناسبة لبعض الأراجيز ، وصلة الأصمعي بالأعراب والنوادر كانت تتبدى في نقله عن اعراب البادية أو سرده للطرائف والنوادر كلما وجد إلى ذلك من سبيل ، ولم يكن ينقل الأراجيز دون وعي أو تمحيص ، ولهذا تنبه إلى ظاهرتين هامتين ، الأولى ظاهرة الانتحال في الرجز ، والثانية ظاهرة الاضطراب في نسبة بعض الأراجيز إلى العجاج وإلى غيره من الشعراء أو الرجّاز .

وانتقل بنا الحديث إلى رواية رجزه والحفاظ عليه قبل عصر التدوين في القرن المجري الثاني ، فرأينا أن اسرة العجاج وقبيلته كان لهما النصيب الأوفى في حمل رجزه والمحافظة عليه ، ولاحظنا أن العجاج ربما كان يحسن الكتابة فدوّن بذلك شيئاً من أراجيزه ، وكان من الأدلة ما يشير إلى وجود كتاب لبني تميم ، وآخر لبني سعد ، وهذا يعني أن رجز العجاج كان مكتوباً كآلة أو بعضه قبل أن يصل إلى أيدي الرواة العلماء في عصر التدوين ، وقبل أن يصنّفه الأصمعي، ولا شك أن مافيه من شواهد لاتحصى في معاني اللغة وأبنية الألفاظ وطرائق الاشتقاق وغرائب الاستعمال ، قد حملت هذه الطبقة من الرواة على الكلف به والرفع من شأنه .

ثم وقفنا عند أنواع المصادر التي عنيت بهذا الرجز ، فرتبناها حسب كثرة ما أوردته من أبياته ، فكان في مقدمتها تلك الكتب التي عنيت بجمع اللغة، أو تناولت بالتصنيف مشكلات اللغة وظواهرها من فقه واشتقاق وغريب ونوادر

وما أشبه ذلك ، ثم تلتها كتب التفسير وما يتصل بها من كتب صنفت في غريب القرآن أو مشكله أو مجازه ، ثم جاءت كتب النحو والصرف على اختلافها ، ثم كتب الأدب والنقد والمعاني ، ثم المصادر التي تناولت شرح بعض الدواوين أو المختارات ، أو اهتمت بجمع الأمثال ، أو صنفت على شكل رسائل في موضوع من الموضوعات ، أو تعرضت لطبائع الحيوان ، أو ألقت في أسماء المواضع والبلدان ، ولاحظنا أن كتب البلاغة على اختلافها لم تورد غير بيت واحد للعجاج لأنه من شواهد البلاغيين على نوع خاص من الغريب ، وثمة مصادر أخرى لم تتعرض لرجز العجاج مطلقاً أمثال كتب التاريخ والسيره والديانات والفرق والقضاء والقدر وما إليها ، وبذلك نكون قد ساءلنا المكتبة العربية بكل ما فيها من أنواع المصادر عن رجز العجاج ، فحددنا أكثرها رواية له ، ثم تدرّجنا بها في ذلك ، حتى وقفنا على مصادر لم تورد منه قليلاً ولا كثيراً .

ولمّا تمّ لنا الحديث عن ديوانه ومصادر رجزه ، كان لا بد من توثيق هذا الرجز ، وتحديد ما للعجاج منه ، وما هو غريب عنه ، أو منسوب إليه وإلى غيره من الشعراء أو الرّجّاز ، ولهذا كان الفصل الثالث خاصاً بتوثيق رجز العجاج ، وعملنا من خلاله على تتبع ظاهرة الانتحال في أراجيزه ، ثم الفصل إلى حدّما في أمر بعض الأراجيز أو المقطّعات المنسوبة إليه وإلى غيره ، وقد لاحظنا أن الانتحال قليل في رجز العجاج لبعده نسبياً عمّا ضجّ في ذلك العصر من صراع حزبي أو قبلي ، ولصعوبة السير على سنّنه من قبل الوضّاع ، ولهذا لم نجد غير موضعين من رجزه أشار فيها الأصمعي إلى شيء من الاهتمام أو الانتحال ، وكذلك رجحنا وجود الانتحال في بعض الرجز المضطرب بينه وبين عدد من الرّجّاز ، وذهب بنا التوجّيح إلى أن بعض هذا الرجز ربما كان من صنع الرواة أو متصيدي الشواهد ، وأمّا الاضطراب في نسبة الرجز إليه وإلى غيره من الشعراء أو الرّجّاز ، فكان واسعاً جداً ، وقد عملنا على مناقشته كلّه

رغم اتساعه ، وحاولنا قدر الإمكان أن نميل به إلى العجاج أو إلى غيره إن وجدنا من الأدلة ما نعتمد عليه ، وإلا وقفنا نشير إلى الاضطراب ولا نقطع برأي مادام الدليل في أيدينا قاصراً أو مفقوداً .

ولما تمّ لنا توثيق أراجيز العجاج كان من السهل أن ننقل الحديث إلى موضوعات رجزه في الفصل الرابع ، وهنا وقفنا قليلاً عند موضوعات الرجز قبل العجاج ، لنكشف عن دوره في تطوير هذه الموضوعات ، فرأينا أن الرجز في الجاهلية لم يكن من طابعه أن يطول إلى أبيات متعددة ، وإنما كانت مقطعاته يسيرة الأبيات ، بسيطة الموضوعات ، وغالباً ما نجد لها في ثنايا الأخبار التي تتحدث عن وقائع القوم وأيامهم ، أو تنقل شيئاً عن الأعمال الجماعية التي كانوا يقومون بها ، وأما أراجيز العجاج فهي تتناول موضوعات القصيدة نفسها ، وربما طالت الأرجوزة فقاربت المائتين من الأبيات ، وهي تنتهج سنة الشعراء في تعدد الموضوعات ضمن الأرجوزة الواحدة ، وكثيراً ما تقف مواقفهم من الأطلال والبكاء عليها وتذكر أيام الشباب الخاليات ، وقد لاحظنا أن هذا الاختلاف بين العجاج وما كان عليه الرجز في الجاهلية ، لم يحدث إلاّ بعد أن مرّت الأرجوزة بأطوار متعددة ، ورأينا أن مرحلة التطوير الأولى قد قام بها الأغلب العجلي ، إذ كان أول من أطال الرجز ونوع في أغراضه وموضوعاته وحدّد له بعض الخصائص التي لم تكن له من قبل ، ومحاولة الأغلب هذه قد لقيت بعض الأصداء في الجزيرة العربية، قبل أن يصل الأمر إلى العجاج ، إذ بدأ الرجز يطول قليلاً على ألسنة بعض الشعراء ، وجعلت أغراضه تختلف اختلافاً يسيراً عما كانت عليه ، فلما وصل الرجز إلى العجاج ، لم يقف به عند الحدود التي رسمها الأغلب ، ولم يكتب بمجرد إطالة الأبيات ، وإنما سار بالتطوير إلى أبعد من ذلك ، فجعل من الأرجوزة ما يشبه القصيدة تماماً في بنائها وموضوعاتها ، ثم حدد لقصيدة الرجز بعض الخصائص التي تميّزها من

القصيد بوجه عام .

وبعد أن رسمنا معالم التطوير الذي أدخله العجاج إلى موضوعات الرجز ،
ألقينا بنظره إلى موضوعات رجزه ، فكانت متنوّعة ، فيها النسب والمديح ،
والفخر والتعريض ، والوعظ والحكمة ، والوصف . ووقفنا على موضوع
النسب ، فلاحظنا أن موضع الغزل من الأرجوزة قد استمرّ على ما كان عليه
في القصيدة التقليدية ، ولكنه لم يكن تقليدياً كله في مضمونه ومعانيه ، وإنما
فيه ألوان من التنويع تبرز في معاني الأبيات وعواطفها ، فتارة نقف على
غزل تقليدي لا أثر فيه لعاطفة العجاج ، وطوراً يطالعنا غزل لا يخلو من تباريح
الهوى أو ذكريات الشباب ، وأحياناً يطل علينا غزل الحب والصبابة ، والبعد
والفراق ، وهنا يتمثل حب العجاج الحقيقي ، وتظهر تجربة له مع « ليلي » ،
والذي يبدو أنها فارقت ، وتزوّجت من غيره ، فغرت حسرة لاتبرح ،
وآلاماً لاتريم .

ووقفنا عند المديح فرأيناها قد مدح الأميين ، خلفاءهم وأمراءهم وولاتهم
وقادتهم ، ومدح آل الزبير أيام غلبتهم على العراق والحجاز ، ولم يهدف في
مديحه إلى التكسب دائماً ، بل كان التكبس ضامراً لا يكاد يظهر إلاّ في
مواضع قليلة جداً ، ولا ينم عن إراقة ماء وجهه ، أو ازراء بأنفة أو بكرامة ،
ولعل الأغراض السياسية كانت أكثر وضوحاً في مديحه من الأغراض الأخرى ،
ولهذا كان يعتمد في المديح على المعاني السياسية ، والمعاني الدينية ، إلى جانب
المعاني التقليدية ، وبذلك لم يغفل ماجدّ في عصره من معان أو تيارات
سياسية مختلفة .

ثم انتقلنا إلى موضوع الفخر ، فرأينا بعض عناصر التجديد في أرجوزة
الفخر ، مما يساير حركة التطوير والتجديد لعصر بني أمية ، وقد كان فخره

يتميز تارة بالطابع الفردي ، وتارة أخرى بالطابع القبلي ، وهو في ذلك يخضع للمؤثرات الاجتماعية الجديدة لعصره ، إذ أن تميز الفرد من القبيلة كان دافعاً قوياً إلى إبراز الجانب الفردي في رجزه ، فكان يفخر بنفسه وقوافيه ، ويفاخر دائماً بدأبه وقطعه للمفاوز المهولة في ظلام الليل ودخوله على الملوك وقهره لخصومه وغلبته على الشعراء ، ولكن الفرد لهذا العصر لم يتحلل من الارتباط الوثيق بالقبيلة رغم تميزه منها ، ذلك لأنها ما تزال تنتظم شطراً كبيراً من شؤون حياته ، وإليها ما يزال مردّ أبحاده وأنسابه ومفاخره ، ومن هنا كان لزاماً على العجاج أن يتجه بفخره إلى الجانب القبلي أيضاً ، فكان تارة يخصّه ببعض الأراجيز ، وأحياناً يمزج بينه وبين الجانب الفردي ، والفخر القبلي لديه لا يخرج عن المفاخر بقوة القبيلة وأبحادها وعزيمتها وكثرتها ومنعتها وما إلى ذلك من المعاني التقليدية المعروفة في أشعار الجاهليين والاسلاميين .

ثم عرضنا بعد ذلك إلى موضوع الهجاء ، فرأيناه يصرّح بتخليه عنه ترفعاً وأنفة ، ومن ثم كان للنقاد آراء مختلفة حول ذلك ، منهم من ذهب بتخليه عن الهجاء إلى الطبع عند الشعراء ، ومنهم من ذهب إلى الترفع والأنفة ، ومهما يكن فقد لاحظنا أن العجاج لم يضرب عن الهجاء عامة ، ولم يكن طبعه ينأى به عن الهجاء جملة ، وإنما كانت هنالك أسباب تدفعه إلى عدم الأخذ بسبل ذلك الهجاء الذي عُرف لعصره ، وفيه تمزق الأعراض ، وتُقذف المحصنات ، ويسوده الكذب والاختلاق ، وهذه الأسباب لا يخرج عن أمرين : الأول هو أخلاق العجاج وما عُرف به من ورع وتقوى ، والثاني أن الرجز قد ينهض للتهاجي مع رجز يماثله أحياناً ، ولكنه لا يقوى على مصارعة القصيد في هذا الميدان .

ومع ذلك فالعجاج قد تصرف في الهجاء على نحو يتفق مع طبعه وأخلاقه ، وإذا كان قد ابتعد بنفسه عن مهارات عصره ، بما فيها من جد أو هزل ،

فقد وجد سبيلاً إلى التعريض ، وخاصة خلال مدائح لابن الزبير والأمويين ، إذ كان يجد في ثورة بعض الأحزاب أو القبائل ، ما يبرر هجاءها ، ولا سيما أن ثورتها في نظره ، ما كانت إلاّ تمزيقاً لدين الله وخروجاً على حماته ، ولهذا عمد في هجائه إلى المعاني الدينية والسياسية بوجه خاص ، واستعاض من فاحش القول بما هو أطرف فنّاً وأكثر ازراءً ، وأشدّ إيلاماً ، وذلك هو أسلوب التهمك والسخرية ، وبهذا الأسلوب كان شديد الإيلام في هجائه السياسي وغير السياسي . ثم انتقل الحديث إلى موضوع الوعظ والحكمة ، فرأينا موضوع الوعظ قد تأثر بعقيدته وشخصيته ، وكان الوعظ والشعر الديني يتفرّد أحياناً ببعض الأراجيز ، وأحياناً أخرى كان يرد ضمن موضوعاته المختلفة ، فيأتي في مقدمة الأرجوزة أو أثنائها أو خاتمتها ، وفي الحالين كان العجاج يعتمد على معاني القرآن وأسلوبه ، حتى رأيناه في بعض الأحيان ينقل نقلاً شبه حرفي عن آيات الكتاب المبين ، فإن خرج عن هذا النقل الحرفي ، جاء بمعان دينية عامة ، وربما لجأ إلى أسلوب المناجاة أو الدعاء ، أو إلى بعض القصص الديني ، كالذي أورده من قصة ابراهيم واسماعيل عليهما السلام .

ولا مرية أن الحكمة لها صلة وثيقة بالشعر الديني ، ولكنها قليلة نسبياً في رجز العجاج ، وهي على قلتها تمتاز بالعمق والتأثير والحيوية ، لأنها من نتاج ما انعكس في نفسه من أحداث سياسية واجتماعية خطيرة ، وما كان له من تجارب في أدوار حياته ، وما تأصل في نفسه من ثقافة بدوية أو اسلامية ، وربما جاءت الحكمة في بداية الأرجوزة ضمن المقدمة التقليدية ، دون أن تحلّ محلّ هذه المقدمة كالذي تمّ على أيدي بعض شعراء بني العباس ، إلاّ أن تقريب الحكمة من المقدمات والمطامع فيه شيء من التطوير لا ينكر للعجاج ، وقد ترد الحكمة في أضعاف الأرجوزة على سنّة غيره من الشعراء ، وكثيراً ما ترافق أحاديثه عما بلغه من الهرم والضعف والكبر .

ثم وقفنا طويلاً عند موضوع الوصف ، فرأيناه أوسع الموضوعات جميعاً في رجز العجاج ، حتى كانت بعض الأراجيز على طولها ، ليس لها أي هدف غير وصف مشاهد الصحراء ، وما فيها من نبات وحيوان ، وما يتم على رمالها من طراد لغير أو ثور وحشي ، وليس من دافع إلى هذا الوصف الرائع المطول إلاّ حبه للصحراء ، وتآلفه معها ، وحرصه على نقل صور لمشاهدها . ولهذا كانت موضوعات الوصف عند العجاج لاتقف على جانب من الطبيعة دون آخر فقد صورّ الطبيعة بعناصرها المتحركة ، وعناصرها الصامتة ، وجاء بصور موضوعية ، كانت تراها عينه ، وتحسّ بها أذنه ، وأتى بصور ذاتية، مثل فيها مشاعر النفس الانسانية ، او مال من خلالها إلى تجسيم هذه المشاعر في تصوير الحيوان أو الطبيعة .

وامتازت صورته الموضوعية بلوحات رائعة ، ولا سيما حياة الصحراء وما فيها من طبيعة وحيوان ، وهو لا يتجه إلى الصورة بعينه فحسب ، وإنما يتجه إليها بسمعه وكل حواسه ، ومن هنا كانت الصورة الفنية لديه تمتاز بالتنوع والكلف بالألوان والخطوط والأصوات على حدّ سواء ، ثم إبراز العناصر التي يمكن لها أن توحي عادة بسائر أركان الصورة أو المشهد ، ولا ينسى أن يُعنى بتحديد الإطار المكاني والزماني للصورة ، ثم التدقيق بما فيها من ألوان وجزئيات موحية تبعاً لذلك ، ولا يُبقي الصورة بلا روح أو حياة ، وإنما يبعث فيها الدفء والحركة ، لتكون صورة واقعية لاترتاب فيها عين أو خيال ، ولهذا كان لا يترك وسيلة تدعو إلى الواقعية إلاّ اعتمد عليها في صورته ، ولذلك رأيناه يعتمد على الحوار في رسم صورته أحياناً ، بل ربما جعل الحوار بين الانسان والحيوان ، على نحو ما صورته من حوار بين الصياد والكلاب ليكشف عما يجول في نفسه من قرم إلى الشواء ، وهذه الواقعية

دفعته أيضاً إلى ذكر أسماء ناقته أو بعيه أو أسماء كلاب الصياد خلال تصويره لها ، لأن ذلك أدمى إلى تقريب الصورة من الواقع ، وبعثها حية أمام العين أو الخيال ، وهو في ذلك كله لا يرسل الصورة دون دقة أو استقصاء ، وإنما يدقق دائماً في عناصرها ويختار لها من الدقائق الفنية والجزئيات الموحية ما يجعلها في غاية الجمال والإتقان الفني ، وربما عمد إلى شيء من المفارقات الفنية ، وذلك لتزداد الصورة وضوحاً وإشراقاً .

وأما وسائله في رسم الصورة نفسها ، فكان جل اعتماده فيها على معاني الألفاظ وإيجائها ، دون الاعتماد الكلي على التشبيه أو الاستعارة ، إذ أن دور التشبيه لديه لا يعدو أن يكون وسيلة لانتقال الوصف من موضوع إلى موضوع آخر ، وربما وردت منه بعض الصور القليلة لتكون حلية وزينة بالنسبة إلى الصور الأخرى ، وفي هذا طور هام في التصوير الفني ، لأن الشاعر بحاجة إلى مقدرة فنية واسعة ، حتى يمكن له التخلي عن الاعتماد الكلي على التشبيه في صورته ، ذلك لأن تتبع الجزئيات ورسمها بدقة واستقصاء مع تحديد لأركانها من زمان ومكان وألوان وما إلى ذلك ، يحتاج إلى مهارة فنية ، لا يدعو إليها التشبيه في أكثر الأحيان ، وقد تكون الاستعارة طوراً متأخراً عن التشبيه ، لما فيها من إيجاز لبعض تفصيلاته ، وتخفف من بعض أركانه ، وهي لاتعدو أن تكون وصفاً بمعان مجازية للألفاظ ، ولهذا كانت أقرب ما تكون إلى التصوير بمعاني الألفاظ وإيجائها ، ومن هنا كان للاستعارة سلطان أوسع من التشبيه في رجز العجاج .

ولا شك أن الحديث عن موضوع الوصف كان أدخل ما يكون في الخصائص الفنية لرجز العجاج ، ولكنه باعتبار موضوعات الرجز كان لابد أن يُسلك في الفصل الخاص بالموضوعات لأن الخصائص الفنية لها سمات أخرى متعددة

الجوانب ، ولهذا كان الفصل الخامس مجالاً لدراستها واستقصائها .
وفي هذا الفصل قمنا بدراسة الخصائص المعنوية في رجزه ثم الخصائص اللفظية ، وكان أول ما استوقفنا في معانيه هو التراجيح بين الوضوح والغموض ، فتارة تبرز المعاني واضحة لاغموض فيها مطلقاً ، وهذا قليل نسبياً في رجزه ، وطوراً تبدو جلية لايشوبها إلاّ بعض الألفاظ الغريبة ، وهذا ماصادفه بكثرة في أراجيزه ، وأحياناً تظهر المعاني غامضة لأسباب كثيرة ، منها استعماله ألفاظاً غير معروفة أصلاً ، أو ألفاظاً تحتمل أكثر من وجه واحد في المعنى ، أو لاعتماده على القلب المعنوي ، أو لأساليبه في بناء التراكيب بناء يكثر فيه الحذف أو التقديم والتأخير ، أو لتصرفه بالألفاظ إذ يخرج على بنيتها في اللغة ، ويأتي بها في صيغ لم تسمع إلاّ في رجزه ، ومن الصعوبة أن يفطن المرء أحياناً إلى أصولها في اللغة . وهذه الأسباب وما إليها كانت تبعث غالباً على الغموض في معاني أبياته ، ومنها ما أتى الأصمعي بشرح أو تقدير له ، ومنها ما تحلى عنه دون أن يدلي برأي فيه .

ثم لاحظنا أن رجز العجاج لا يخلو من صنعة وتثقيف ، إلاّ أن الصنعة لعصر العجاج كانت شبه امتداد لما كانت عليه في عصر ما قبل الإسلام ، ولم يتجه إلى غير العناية بالألفاظ فصاحة وجزالة ، والعناية بالمعاني بسطاً وإبرازاً ، مع إتقان لبنية الشعر وإحكام قوافيه ، ولهذا كانت المعاني في رجز العجاج لا تخلو من التجويد أو التخيير ، رغم أن الطبع كان من الخصائص البارزة في رجزه ، ومن ثمّ كانت عنيته بتخيير المعاني والتأنيق فيها ، وكذلك إعجابها بالصور الحسية المادية المنتزعة من البيئة التي عاشها بعينه وقلبه وكلّ احساسه ، ولا سيما أن هذه الصور الحسية ربما ساعدت على توضيح المعنى بالاضافة إلى وظيفتها الجمالية في التصوير .

وحرص العجاج على توضيح معانيه ، وتقريبها من الأفهام ، وإثباتها في الأذهان ، كان دافعاً قوياً إلى الإكثار من ضرب الأمثال الحسية في معانيه ، ذلك لأن الأمثال تجعل المعنى أقرب إلى الفهم ، وأثبت في الذهن ، وأدعى إلى الأخذ به ، والاعتناع بما جاء فيه ، وربما أورد من الأمثال ما عرفه العرب قبله ، وربما صاغ من المعاني ما يصبح أمثلاً على ألسنة الناس من بعده . وهذا الطابع الحسي لم يكن غريباً من العجاج ، لأنه رغم انتقاله إلى بيئة البصرة ، ورحلاته إلى بيئات الحجاز والشام ، فقد بقي على صلة وثيقة جداً بروح الصحراء ، ولم يستطع أن يتخلى عن تأثير البادية في طبعه أو في معاني رجزه ، ولم يتمثل ما وجدته من مظاهر الحضارة الجديدة ، أو ما دقّ عند الفقهاء من المفاهيم حول بعض المعاني في العقيدة الإسلامية ، ولهذا كان يؤخذ عليه بعض المعاني التي تتنافى مع ثقافته البدوية أو طبعه الأعرابي ، ولكن هذه المعاني لم تكن كثيرة في رجزه ، ولا نجد منها غير أمثلة يسيرة ، لاتعدو أن تكون مجرد أعلام ودلائل تشير إلى ارتباط وثيق بينه وبين البادية .

وهذا الارتباط بالبادية كان يحمل في أضعافه بعض المعاني الجاهلية ، على ما فيها من تعارض مع الإسلام وتعاليمه ، ولهذا رأيناه يستعمل أحياناً من المعاني ماله صلة بزجر الطير ، أو التشاؤم بالعطاس ، أو الاستقسام بالأزلام ، أو عادة الميسر وما يتصل بها من معاني الكرم في الجاهلية ، فهذه العادات الجاهلية بقيت لها آثار في رجز العجاج ، ولكن هذا لا يعني أن الإسلام لم يدخل شيئاً من التطوير في معانيه ، بل نجد المعاني الإسلامية تبرز بوضوح في أكثر موضوعاته ، وربما خص الشعر الديني بأراجيز مستقلة ، أو بأكثر الأبيات في بعض الأراجيز الأخرى .

وقد اعتمد العجاج في معانيه على التراث الأدبي ، فكان يأخذ منه حيناً ، ويجود فيه أحياناً ، وذلك شأن غيره من شعراء الأدب العربي القديم ، ولهذا وجدنا العجاج يستمد بعض المعاني من تقدمته من الشعراء ، إلا أنه لم يتكئ على المعاني المتداولة بين الشعراء فحسب ، وإنما كان يأتي بكثير من المعاني التي لا تخلو من جدّة وإبداع ، ولا سيما حين يولد المعنى بصورة تختلف عما تعارف الناس عليه من قبل ، ولهذا وجدنا كثيراً من معانيه قد انتقلت إلى أشعار معاصريه من رجاز وشعراء ، ثم امتدت إلى عصور أدبية أخرى ، فكانت تظهر في أبيات بعض الشعراء ، أو كلام بعض الفصحاء ، خلال عصر بني العباس مما يدل على شهرة هذه المعاني ، وحياة ذلك الرجز على ألسنة الناس جيلاً بعد جيل .

وأول ما لاحظناه في الخصائص اللفظية أن العجاج قد أحدث شيئاً من التطوير في شكل القصيدة ، فقد التزم المنهج التقليدي في بعض الأراجيز وأغفل هذا المنهج في بعض الأراجيز الأخرى ، فأهمل المقدمات التقليدية ، ولجأ إلى منهج جديد للقصيدة ربما كان هو الأساس الذي بنى عليه بعض الشعراء لعهد بني العباس طريقتهم في المنهج الجديد ، فبدلاً من تلك المقدمات التقليدية أصبح العجاج يبدأ بالموضوعات الدينية التي تتناسب وموضوع الأرجوزة ، وربما تخلى عن هذا وفضل عليه اختيار المطالع القوية والدخول مباشرة إلى الموضوع .

ولم يقف العجاج عند هذا فحسب ، وإنما أسهم أيضاً في تطوير آخر بالنسبة إلى شكل القصيدة ، إذ جعلها تختص بموضوع واحد أحياناً ، فإذا كان شعراء الحجاز قد خصصوا قصائدهم للغزل ، وشعراء الخوارج قد أفردوا قصائدهم للنضال السياسي ، فكذلك وجدنا العجاج قد أسهم في هذه الظاهرة

الجديدة للعصر الأموي ، فأفرد بعض الأراجيز لأوصاف الصحراء ، وأخرى للمواعظ ، وغيرها للفخر أو للغزل ، وهذا يشير إلى أن العجاج لم يكن يتماس المناهج القديمة دون التأثر بالأساليب الجديدة .

ولهذا رأيناه يتأثر بظاهرة جديدة أخرى في الشعر الاسلامي ، وهي انتشار المقطعات القصيرة ، فوجدنا لديه عدداً من هذه المقطعات ، أفرد بعضها للحديث عن بعيره ، وخصّ بعضها بوصف الإبل ، أو بالحديث عن الفخر أو الغزل أو المواعظ أو التعريض .

ولا شك أن الرجز لا يخلو من رتوب في جرسه الموسيقي ، ولهذا حاول العجاج الانتقال من هذا الرتوب إلى شيء من الحيوية ، فعمد إلى تكرار الألفاظ بكثرة داخل الأبيات ليخلق شيئاً من التجاوب الموسيقي بين أمواج البيت الواحد ، وربما زاد على ذلك شيئاً من التأنق في تقسيم البيت إلى أمواج موسيقية تشبه أن تكون فواصل ثابتة داخل البيت الواحد ، فينشأ عن ذلك ترنيم رائع لا يخجو من التنويع والحيوية داخل كل بيت .

وعنايته بالجانب الموسيقي ربما حملته على شيء من الالتزام في قوافيه ، وذلك حرصاً منه على دقة الإيقاع الموسيقي ، وانسجام الجرس من بيت لآخر ، وكان لهذا الالتزام وقع مستحب لدى قدامى النقاد ، ومثل هذا الالتزام لتجويد الجانب الموسيقي في الشعر كان نواً لمذهب الصنعة في عصره، إذ نجد التزاماً آخر عند معاصريه من أمثال كثير ، وبذلك كان للعصر الأموي أن وضع بواذر الأسس التي بنى عليها أبو العلاء طريقته في اللزوميات . ولم يعن العجاج بشكل الأرجوزة أو بالجانب الموسيقي فقط ، وإنما أراد لمدرسته خصائص أخرى ، يمكن أن تدرج ضمن الخصائص اللفظية ، ولكننا أفردناها في الفصل السادس ، ليكون من السهل تبويبها وبسط شيء

من أمرها ، وهي الخصائص اللغوية والنحوية ، وكان أول ما وقفنا عنده هو الإغراب في اللغة ، فلاحظنا أن العجاج يذهب في الإغراب إلى ضروب متنوعة ، منها ما يحتاج فهمه إلى بحث وتنقيب وكشف في كتب اللغة ، ومنها ما يحتاج إلى تدقيق النظر وتخريج اللفظ على وجه بعيد لاحتماله عدة وجوه في المعنى مع أن الكلمة ليست بوحشية ، ومنها أحياناً ما هو ذو أصل أعجمي يأتي به العجاج لما فيه من طرافة وإغراب .

فالعجاج قد اتخذ من الرجز وسيلة لنقل أجواء الصحراء إلى بعض الأمصار الجديدة ، ولهذا كان لا بد أن يأتي بغرائب الألفاظ يعرضها عرضاً في أبيات الرجز ، لما فيها من نفحات صحراوية بدويّة ، حتى لكان أراجيزه قد تحوّلت إلى لوحات من الغريب في اللغة والألفاظ ، ولعل مما ثبتته على هذا الاتجاه ، ما كان يلقاه من اقبال الخلفاء والأمراء وسائر الناس على أراجيزه ، وتقديمه في الانشاد على أمثال جرير وغيره ، لأن أراجيزه على ما يبدو ، كانت تلتقي عند حنين النفوس إلى حياتها الفطرية الأولى ، فوق رمال الصحارى في جزيرة العرب .

ومن هنا كانت أراجيز العجاج تجمع تلقائياً غرائب اللغة ونوادرها ، ونهيء منها مادة وفيرة لعصر التدوين في القرن الهجري الثاني ، فلما كان هذا العصر ونشط العلماء في تدوين متن اللغة بدقة واستقصاء ، كان رؤبة بن العجاج يقدم لهم ما يطلبون ، بل ربما كان رؤبة قد صنع كثيراً من رجزه ليمدّ حاجة علماء عصره من الغريب والنوادر ، حتى كان رجزه أشبه بمتون لغوية ، تنطوي على غرائب الألفاظ والأبنية والأساليب .

والمهم أن العجاج كان يأتي بهذا الغريب عن طبع دون تكلف أو تعمل ، فتقع الألفاظ في مواضعها ، وتعبّر بدقة عن معانيها ، ولا تتنافر

فما بينها ، ذلك لأنها قد عاشت في نفسه ، وأحس بها في صحرائه ، قبل أن يبرزها في معارض رجزه ، ولهذا قصر عنه من حاول ان يجاريه من معاصريه وغير معاصريه ، من أمثال الكميت والطرماح ونصيب وابن مناذر ، والسبب في ذلك أنهم كانوا يتكلمون إدخال الغريب في أشعارهم جرياً وراء العجاج وتقليداً لمذهبه ، مع أنهم ربّما ضلّوا فهم بعض الألفاظ الغريبة ، فأنزلوها في غير مواضعها .

وكانت للعجاج قدرة لغوية لاحدود لها ، وبهذه القدرة أمكن له أن يحافظ على أبنية اللغة حيناً ، ويولد فيها طوراً ، ويتصرف بها أحياناً ، فهو مقتدر على ذلك كلّه ، شاعر أنه أبو اللغة ، يتصرّف بها كيف أراد ، ولهذا كان رجزه يحافظ على أصول كثيرة لبعض الصيغ العربية ، وربما كان بعضها لا وجود له في غير أراجيزه ، ومن ثمّ حافظ في رجزه على عدد من خصائص لهجة قومه بني تميم ، سواء في أبنية الألفاظ أو في معانيها ، ولا يبعد أن يكون العجاج قد ولد بعض الأبنية وأضافها إلى العربية ، ولذلك كان يتفرد في بعض الصيغ فلا تُعرف إلاّ في رجزه ، وإذا ما ولد أو خلق بعض هذه الصيغ أو الأبنية ، فذلك لا يصدر إلاّ عن طبع وأصالة لغوية لديه ، فلا ينبو عن الذوق اللغوي ، ولا يبدو عليه شيء من التصنع أو التكلّف .

وقد وقفنا طويلاً عند تصرف العجاج في أبنية اللغة ، فكان أيسر صورته ما لاحظناه من أمثال القلب ، والابدال ، وفك المدغم ، وتحريك الساكن ، وتسكين المتحرك ، أو استعمال الجمع بدل المفرد ، أو الجمع بدل المثنى ، أو المثنى بدل المفرد ، أو المفرد بدل المثنى ، وهذه كلها يمكن أن نصادفها في أشعار القدماء ولكنها تتميز في رجز العجاج بالكثرة والوضوح ، وكأنها ترد عن قصد وتعمد ، لما يريد العجاج من إغراب في اللفظ ، أو ندرته

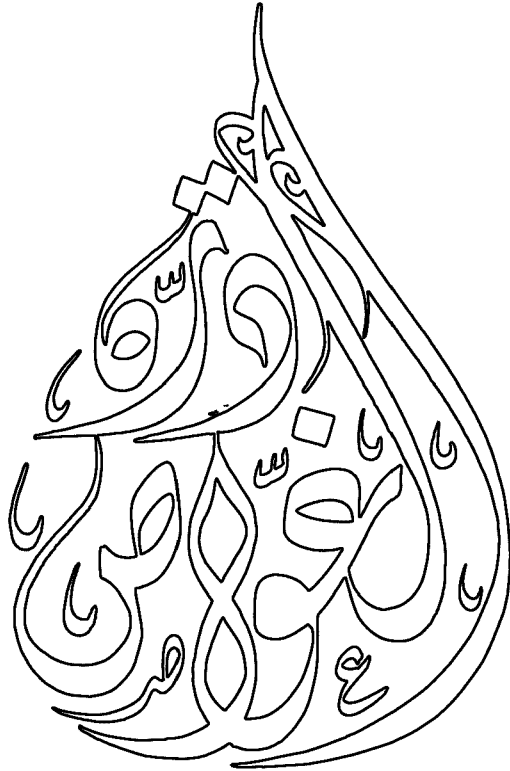
في المعاني .

ثم رأينا لديه تصرفاً أوسع في ألفاظ اللغة ، لا يقف عند قاعدته معروفة ، أو حدود مألوفة ، وذلك حين يلجأ إلى تمزيق الألفاظ على هواه ، ثم بناؤها على قدر حاجته ، فيسقط من هذه الكلمة ما يريد ، ويبني تلك الكلمة على ما يشاء ، لأن هذا قد يبعث على الغموض والإبهام في فهم معناها ، ولكنه مع ذلك يحقق الإغراب في اللغة ، والندرة في الأبنية ، وهذا ما كلف به العجاج ، وكان غاية ما يبتغيه لألفاظ رجزه .

ولا حظنا أن العجاج قد جاوز التصرف في أبنية اللغة ، إلى التصرف في بعض الروابط النحوية المألوفة ، بما جعل من رجزه أحياناً مادة للخلاف بين النحاة ، ولا سيما بين مدرستي الكوفة والبصرة ، وقد وقفنا عند صور متعددة لخروجه على مألوف القواعد النحوية ، ورأيناها مما يثير الإشكال أحياناً حول رجزه ، ولكن هذا الإشكال ربما كان أيضاً لاعتماد العجاج على أساليب الحذف في تراكيبه ، أو الحمل على المعنى ، أو القلب المعنوي ، أو التصرف في الضمائر ، أو التصرف في الجموع ، وقد أتينا بأثلة متعددة لهذه الأساليب ، ورأينا أنها جميعاً مما يحوج إلى البعد في تأويل البيت حيناً ، أو الخلاف بين النحاة أحياناً .

وآخر ما لاحظناه أن الرجز أصبحت له خصائص تميزه من الشعر في مدرسة العجاج ، وهذه الخصائص تجعل من الواجب أن ينظر إليه من زاوية خاصة ، وألا يطرح للمقارنة بينه وبين القصيد ، إذ أن لكل منها هدفاً وغاية ربما كانت تختلف اختلافاً جوهرياً في بعض الاتجاهات ، ولهذا لم نجد مسوغاً للمعري في اعتبار الرجز من « سفاسف القريض » ، لأن مثل هذا الموقف من الرجز يغفل الهدف الرئيسي منه خلال القرن الهجري الأول ،

إذ كان الراجز لا يريد مجرد النظم ونقل المعاني ، ولكنه بالاضافة إلى ذلك
يعنى بعدد من الخصائص اللفظية ، التي تجعله يتعاطف مع أبناء عصره ، ويلبي
رغبة الحنين إلى الماضي القريب ، ولو أن ابا العلاء كان قد نظر إلى مدرسة
الرجز من هذه الزاوية لما حطّ من قيمة الرجز أو الرّجاز .



فهرس الموضوعات

مقدمة : (٣ - ٨) .

تمهيد : الإطار السياسي والاجتماعي والفكري لعصر العجاج
(٣ - ٥٤) :

الإطار السياسي (٤ - ٣٠) : الأحداث الإسلامية الأولى وأثرها في
الشعر ٤ - مشكلة الخلافة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ٥ - مشكلة
الردة ٧ - مشكلة الخلافة بعد عمر بن الخطاب وفتنة عثمان ٩ - تنازل
الحسن بن علي عن الخلافة وتفرد معاوية وما تلى ذلك من أحداث
حتى قضاء عبد الملك على ابن الزبير ١٥ - الأحزاب السياسية : حزب ابن
الزبير ١٧ - حزب الخوارج ١٨ - حزب الشيعة ٢١ - الحزب الأموي ٢٧ .

الإطار الاجتماعي (٢٠ - ٤٢) : الفوضى في حياة الناس الاجتماعية ٣١ -
النفاق الاجتماعي ٣١ - العصبية القبلية ٣٢ - الطبقات الاجتماعية والتمييز بين
العرب والموالي ٣٥ - اختلاف البيئات الاجتماعية باختلاف الأقاليم : البيئة
الاجتماعية في الحجاز ٣٧ - البيئة الاجتماعية في نجد ٣٩ - البيئة الاجتماعية
في العراق ٤٠ - البيئة الاجتماعية في الشام ٤١ .

الإطار الفكري (٤٢ - ٥٤) : الاتجاهات الفكرية التي عنيت بتوضيح
أمور الدين الاسلامي ٤٢ - الجدل بين مدرستي الحجاز والعراق في الفقه ٤٣ -

دخول السياسة إلى التفكير العقلي ٤٥ - فرقة الجبرية وآراؤها ٤٦ - فرقة
القدرية وآراؤها ٤٧ - فرقة المرجئة وآراؤها ٤٨ - فرقة المعتزلة وآراؤها ٥٠ -
الجدل بين الفرق وأثره في الشعراء ٥٣ .

الفصل الاول : حياة العجاج (٥٥ - ١٠٠) :

١ - نسبه وعشيرته (٥٥ - ٦٣) : نسب العجاج ٥٥ - لقبه وكنيته
٥٦ - والده وهل عُرف بقول الرجز ٥٧ - قومه بنو سعد واشتهرهم
بالرجز ٥٨ - جده لأمه كُسيب ٥٩ - أخوه العباس ٥٩ - زوجته :
عقرب والديه ٦٠ - أولاده : رؤبة وحزمة ٦٢ - أحفاده : عبد الله ،
وعقبة ٦٢ .

٢ - نشأته وعمره ورحلانه (٦٣ - ٧٦) : أخبار نشأته قليلة جداً في
المصادر المختلفة ٦٣ - ثمة كتاب ضائع ألفه الجودي في أخبار العجاج ٦٤ -
رأي ألواردت في تحديد الفترة التي عاشها العجاج والرد عليه ٦٤ - تحديد
المرزباني لذلك ٦٤ - لم يذكره السجستاني في المعمرين ٦٥ - فترة حياته على
وجه التقريب ٦٥ - ثمة أدلة تشير إلى أنه عمّر طويلاً ٦٥ - موطن العجاج
في حاضرة اليمامة ٦٧ - إقامته بالبصرة أو ترده عليها ٦٨ - رحلته إلى
العراق والشام ٧٠ - رحلته إلى ممدوحيه ٧١ - رحلته إلى الحجاز ٧٢ -
صلته بشعراء عصره ٧٤ .

٣ - عقيدته (٧٦ - ٨٧) : رأي الأب لويس شيخو في عقيدة العجاج ٧٧
- مناقشته والرد عليه ٧٨ - أخلاقه الاسلامية ولقاؤه أبا هريرة ٨١ - الآثار
الاسلامية الزاخرة في رجزه دليل على عمق الاسلام في نفسه ٨٣ .

٤ - شخصيته (٨٧ - ٩٩) : الجانب الأعرابي في شخصيته وأثره في

ألفاظه ومعانيه ٨٨ - الجانب الأخلاقي وأثره في أساليبه ومعانيه وموضوعاته
٨٩ - المصانعة وتأثيره بأخلاق عصره ٩٢ - فقره كان من أسباب التكسب
أحياناً ٩٣ - العناصر المكونة لشخصيته وثقافته ٩٣ - الحضارة الجديدة لم
تغير كثيراً من ثقافته الأعرابية ٩٣ - فصاحة العجاج وامتدادها إلى أبنائه
٩٤ - مظاهر ثقافته الأعرابية ٩٥ - ربما كان العجاج يحسن الكتابة ٩٨ .

الفصل الثاني : مصادر رجز العجاج (١٠٠ - ١٤٨) :

١ - ديوان العجاج ١٠٠ - ١١٧ : ثمة اشارات الى ديوانه منذ أواخر
القرن الثالث إلى القرن الحادي عشر الهجري في كتب اللغة والأدب والتراجم
١٠٠ - ابن النديم أشار الى تصنيف الديوان على يد كل من الأصمعي وأبي
عمرو الشيباني ١٠١ - ابن خير حفظ لنا سنداً متصلاً لرواية الأصمعي حتى
القرن السادس ١٠١ ثمة نسخة لرواية الأصمعي في مكتبة فاتح ترقى إلى
القرن السادس الهجري ١٠٢ - دلائل فيها تؤكد أنها من رواية أبي حاتم عن
الأصمعي ، وتلتقي بذلك مع السند الذي أورده ابن خير ١٠٣ - إشارات
في بعض المصادر إلى قراءة أبي حاتم رجز العجاج على الأصمعي ١٠٤ - دلائل
في جمهرة اللغة تؤكد رواية ابن دريد لرجز العجاج وشرحه عن أبي حاتم عن
الأصمعي ١٠٥ - ثمة تلامذة آخرون للأصمعي نقلوا عنه ديوان العجاج ،
وأبرزهم : عبد الرحمن بن أخي الأصمعي ، وأبو الفضل العباس بن الفرغ الرياشي ،
وأبو اسحق الزياتي ١٠٦ - ترجمة الأصمعي راوي الديوان : اسمه ونسبه ١١١ ،
ورعه وأخلاقه ١١١ ، توثيق روايته ١١٢ ، نقله عن الأعراب ١١٣ ،
فصاحته ١١٤ ، ذاكرته وحفظه ١١٤ ، شغفه بالرجز ١١٤ ، اتساع بابه
في اللغة والغريب والنوادر والأخبار والأمثال ١١٦ ، وفاته ١١٧ .

٢ - شرح الديوان ١١٧ - ١٣٥ : نسبة الشرح إلى الأصمعي ١١٧ - وجود

عبارات كثيرة نُقِلت عنه في عددٍ من المصادر وعُزيت للأصمعي ١١٨ - زيادات أبي حاتم على شرح الأصمعي ١٢٢ - ثمة خمس عبارات أخرى يبدو أنها مزيدة على الأصل ، بعضها من قِبَل أبي حاتم ، وبعضها من قِبَل النُسخ ١٢٥ - خصائص شرح الأصمعي : الشرح اللغوي والاستطراد فيه ١٢٦ - الشواهد من القرآن والحديث والشعر القديم ١٢٦ - شرح الشواهد أحياناً ١٢٧ - شرح معاني الأبيات بإيجاز ١٢٧ - الأمثال ١٢٨ - تعرُّضه أحياناً قليلة لبعض الأمور النحوية ١٢٩ - دقة عبارته وتمريضها إن لم يكن على ثقة تامة مما يقول ١٢٩ - الإشارة إلى الأصول الأعجمية لبعض الألفاظ ١٣٠ - الكشف عن الاختلاف بين اللهجات العربية في بنية بعض الألفاظ أو معناها ١٣٠ - ربما نقد أستاذه أبا عمرو بن العلاء في شرح بعض الألفاظ ١٣١ - وربما أتى بأحكام تتصل بالنقد أو بضرائر الشعر ١٣١ - وربما أورد أخباراً موجزة تفسر المناسبة لبعض الأراجيز ١٣١ - نقله عن أعراب البادية ١٣٢ - عنايته بالطرائف والنوادر ١٣٢ - تنبّه الأصمعي إلى ظاهرتي : الانتحال ، والاضطراب ، في رجز العجاج ١٣٤ .

٣ - مصادر مختلفة ١٣٥ - ١٤٨ : دور أسرة العجاج في حمل رجزه من القرن الأول إلى عصر التدوين في القرن الثاني ١٣٦ - دور قبيلته في ذلك ١٣٩ - ربما كان العجاج يحسن الكتابة ، وهذا يعني أنه دوّن شيئاً من رجزه فساعد الرواة الأقربين منه على الأقل ١٤٠ - وأراجيز العجاج ربما دوّنت كلها أو بعضها في كتاب بني سعد أو كتاب بني تميم قَبْل زمن الأصمعي ١٤٠ - الرواية والكتابة تضافرت على نقل رجزه إلى طبقة الرواة العلماء في القرن الثاني فاهتمت هذه الطبقة بروايته وشرحه ١٤٢ - ثم اهتم به خلال القرون المتعاقبة طبقات اللغويين والنحاة لما فيه من شواهد لا تحصى

١٤٤ - لهذا كانت أهم مصادر رجزه هي المعاجم وكتب اللغة من فقهه واشتقاق وغريب ونوادير ١٤٥ - ثم تلتها كتب التفسير والكتب التي صُنِّفت في غريب القرآن ، أو مشكله أو مجازه ، أو ما أشبه ذلك ١٤٥ - ثم تلتها كتب النحو والصرف ١٤٦ - ثم كتب الأدب والنقد والمعاني ١٤٦ - ثم الكتب التي تناولت شرح الدواوين أو المختارات ، أو جمعت الأمثال أو أعلام البلدان أو صُنِّفت على شكل رسائل في موضوع من الموضوعات ، أو تعرّضت لطبائع الحيوان ١٤٦ - وثمة أنواع من المصادر لا أثر فيها لرجز العجاج ١٤٧ - مصادر العجاج موثقة بوجه عام ١٤٧ .

الفصل الثالث : توثيق رجز العجاج (١٤٩ - ٢١١) :

١ - الانتحال في رجزه ١٤٩ - ١٥٥ : ظاهرة الانتحال في القرن الهجري الأول ١٤٩ - قلّة الانتحال في رجزه وأسباب ذلك ١٥٠ - اتهام الأصمعي لبيت من رائية العجاج ومناقشة ذلك ١٥٠ - اتهام الأصمعي للأرجوزة الخامسة ومن المرجح أنها منحولة فعلاً ١٥١ - الانتحال في ملحقات الديوان وأسبابه ١٥٣ - ترجيح الانتحال في المقطعة (٣٤) من الملحقات ١٥٣ - ترجيح الانتحال في المقطعة (٤٦) من الملحقات ١٥٤ .

٢ - الاضطراب في رواية رجزه ١٥٥ - ٢١١ : الاضطراب ظاهرة معروفة في أدبنا القديم وأسباب ذلك ١٥٦ - الاضطراب في رجز العجاج يمكن أن يُصنّف في أربعة أقسام تبعاً للأسباب التي حملت عليه ١٥٦ - القسم الأول : الاضطراب مع أفراد أسرته : رؤبة ، وعبدالله بن رؤبة ١٥٦ - القسم الثاني : الاضطراب بسبب تشابه الأراجيز بينه وبين عدد من الرّجّاز أو من عُرف بقول الرجز ١٨٤ - القسم الثالث : الاضطراب بسبب وهم الرواة وخطهم في نسبة الرجز إليه وإلى غيره من الشعراء ١٩٤ - القسم - ٥٠١ -

الرابع : ما أنشد للعجاج وليس له ٢١٠ .

الفصل الرابع : موضوعات رجزه (٢١٢ - ٣٣٧) :

١ - موضوعات الرجز قبل العجاج ٢١٢ - ٢٢٤ : قدم الرجز عند العرب ٢١٢ - خصائص الرجز في الجاهلية ٢١٣ - الاختلاف بين رجز العجاج ورجز الجاهلية ٢١٥ - هذا الاختلاف لم يتم إلا بعد أدوار من التطور ٢١٥ - القدماء لاحظوا أن الأغلب العجلي كان أول من أطال الرجز ونوع في موضوعاته ٢١٦ - تجديد الأغلب كان له أصداء في تطويل الرجز عند بعض معاصريه قبل ان يصل الامر إلى العجاج ٢٢٠ - مناقشة الجاحظ في قول له يعزوه فيه الرجز إلى امرئ القيس وطرفة بن العبد وليد ٢٢٢ - دور العجاج في تطوير موضوعات الرجز وبناء خصائصه بوجه عام ٢٢٤ .

٢ - موضوعات الرجز عند العجاج ٢٢٨ - ٣٠٧ :

١ - النسب والمديح ٢٢٩ - ٢٦٤ : غزل العجاج يمتاز بمكانه التقليدي من منهج القصيدة القديمة ٢٢٩ - لديه أرجوزة واحدة أفردتها للغزل ٢٢٩ - في غزله تنويع يبرز في معاني الأبيات وعواطفها ٢٢٩ - غزل تقليدي مطلق في معانيه وعواطفه ٢٣٠ - غزل وجداني يكثر فيه من ذكر أيام الشباب ٢٣٣ - كاد يلامس غزل ابن أبي ربيعة في جعل نفسه معشوقاً لا عاشقاً ٢٣٦ - لكنه في أكثر غزله كان عاشقاً مدلتها خلفاً لابن أبي ربيعة ٢٣٦ - مشكلة تعدد الأسماء في غزله ٢٣٧ - غزله بليلى اوضح الغزل الوجداني، وفيه تبرز تجربة العجاج ومشاعره الانسانية ٢٣٩ .

مدحه لحلفاء الأمويين وأمراءهم وقادتهم ٢٤٢ - مدحه لمصعب بن الزبير ٢٤٥ - طبيعة التكسب في مديحه ٢٤٥ - الأغراض السياسية في أراجيز

المديح ٢٤٩ — المعاني التقليدية في مديحه ٢٥٧ — المعاني الاسلامية الجديدة
في مديحه ٢٦٠ — المعاني السياسية في مديحه ٢٦٠ .

ب - الفخر والهجاء ٢٦٤ - ٢٩٥ : التجديد في فخر العجاج شكلاً
ومنهجاً ٢٦٤ — أثر المربد في تكوين أراجيز الفخر لديه ٢٦٥ — اتساع
الجانب الفردي في فخره ٢٦٦ — أسباب ذلك ٢٦٦ — المعاني الفردية في
هذا النوع من الفخر ٢٦٧ — الجانب القبلي كان لا بد منه في فخره أيضاً
٢٧٠ — أسباب ذلك ٢٧٠ — المعاني التي تناولها في هذا النوع من الفخر
٢٧٠ — الاتجاهات العصبية في فخره القبلي ٢٧٤ .

رأي العجاج في تخليته عن الهجاء ٢٧٧ — آراء القدماء في ذلك ٢٧٧
— الأسباب الحقيقية لتخليه عن الهجاء ٢٨٠ — العجاج لم يتخل تماماً عن الهجاء
وإنما أوجد لنفسه نوعاً خاصاً يخلو من الفحش والمهاترات يجدها وهزلها ٢٩٠ —
اعتماده على المعاني السياسية والنهكم والسخرية والمفارقات المضحكة ٢٩٠ .

ج - الشعر الديني والحكمة ٢٩٥ - ٣٠٨ : الشعر الديني بين الجاهلية
وعصر بني أمية ٢٩٥ — تأثير الشعر الديني بعقيدة العجاج وشخصيته ٢٩٦ —
تفرّد الشعر الديني ببعض الأراجيز ٢٩٧ — اعتماده على معاني القرآن وأسلوبه
٢٩٨ — أسلوب المناجاة والمعاني الدينية بوجه عام ٣٠٠ — قد يرد الوعظ ضمن
موضوعات المقدمة التقليدية في بعض الأراجيز ٣٠١ — القصص الديني ٣٠١
— وقد يرد في خاتمة الأرجوزة ٣٠٢ — أرجوزة متنازعة بين العجاج ورؤبة
وفيها حلّ الشعر الديني محلّ الأطلال والغزل في المنهج التقليدي ٣٠٢ .

مصادر الحكمة عند العجاج ٣٠٤ — حكمته تمتاز بالعمق والتأثير
والحيوية ولكنها قليلة نسبياً ٣٠٤ — قد ترد الحكمة داخل المقدمات التقليدية

٣٠٥ - وقد يُسقط المقدمة التقليدية ويُجَل المطالع الدينية محلها ٣٠٦ - وقد ترد الحكمة في أضعاف الأرجوزة على سنة غيره من الشعراء ٣٠٧ - كثيراً ما تراق الحكمة أحاديث العجاج عما بلغه من الهرم والضعف والكبر ٣٠٧ .

د - الوصف ٣٠٨ - ٣٣٧ : اتساع الوصف في رجز العجاج ٣٠٨ - هذا الاتساع يشبه أن يكون عاماً لدى شعراء عصره ومن تقدمهم ٣٠٩ - تفرّد العجاج في التخصص لأوصاف الصحراء ٣٠٩ - شهرته في وصف الإبل ٣٠٩ - خطأ رؤبة وأبي النجم في وصف الحيل ٣١٠ - ولع الرّجّاز بأوصاف الإبل لم يحلّ دون وصف الحيل والإجادة فيه ٣١٠ - موضوعات الوصف عند العجاج : مشاهد الصحراء ، حيوان الصحراء ، مشاهد البحر والأنهار ، أوصاف المرأة ، أوصاف الحرب وأدوات القتال ٣١١ - الصور عند العجاج تنقسم إلى ذاتية وموضوعية ٣١٢ - الصور الذاتية النفسية : المفارقات في رسم هذه الصور ١١٣ ، الحوار أو المناجاة ١١٣ ، تصوير الواقع النفسي تصويراً مباشراً ٣١٣ ، تصوير هواجس الحيوان ٣١٤ ، استخدام المناجاة في تصوير نفسية الثور ٣١٥ - دقة العجاج في هذا التصوير لانجدها عند شعراء هذيل أو النابغة الذبياني أو زهير بن أبي سلمى ٣١٦ - تعاطف العجاج مع الموصوف واندماجه معه في شخصية واحدة أحياناً ٣١٨ - الصور الخارجية الموضوعية : التويع والاستقصاء في رسم صورته ، الصور البصرية والسمعية ، الأركان الفنية للصورة الأدبية في رجزه ٣٢٠ - الواقعية والحوار ٣٢٧ - الواقعية في ذكره أسماء البعير والناقة والصيد والكلاب ٣٢٨ - الدقة في صورته واختيار الجزئيات الموحية واللقطات الموفقة ٣٢٨ - المفارقات الفنية ٣٣٠ - اعتماده على معاني الألفاظ وإيجائها دون الاعتماد كلياً على التشبيه أو الاستعارة ٣٣١ - دور التشبيه في رجزه يقتصر على نقل الوصف من موضوع إلى آخر ،

أو تزيين الصور داخل المشهد الواحد ٢٣٤ - الاستعارة أوسع سلطاناً من التشبيه في رجزه لأنها أقرب إلى طبيعة التصوير بالألفاظ المعبرة ٣٣٦ .

الفصل الخامس : الخصائص الفنية في رجزه (٣٣٨ - ٣٨٨) :

١ - الخصائص المعنوية ٣٣٨ - ٣٧٤ : الوضوح المطلق قليل نسبياً في معانيه ٣٣٨ - قد تكون المعاني واضحة لايشوبها إلا غرابة الألفاظ ٣٣٩ - وقد تكون غامضة لأسباب كثيرة : الغموض بسبب استعمال لغات غريبة ٣٤٠ ، الغموض بسبب استعمال ألفاظ مألوقة ولكنها تحتمل في البيت أكثر من وجه واحد ٣٤١ ، الغموض بسبب القلب المعنوي ٣٤٢ ، الغموض بسبب الحذف ٣٤٢ ، الغموض بسبب التقديم والتأخير ٣٤٣ ، الغموض بسبب تصرفه في أبنية الألفاظ ٣٤٤ - دور الطبيعة والصنعة في تصرف العجاج وغموض معانيه ٣٤٥ - طبيعة الصنعة في عصر العجاج ٣٤٦ - صنعة العجاج كانت تنصرف إلى التجويد والتألق في المعاني ٣٤٧ - المعاني الحسية في رجزه ٣٤٨ - الامثال الحسية المادية في معانيه ٣٥١ - المعاني التي أخذت عليه لأنها تتنافى مع ثقافته البدوية وطبعه الأعراي ٣٥٣ - سبب ذلك هو الارتباط الوثيق بين العجاج والبادية ٣٥٦ - وهذا كان سبباً لظهور بعض المعاني الجاهلية في رجزه رغم أنها تتنافى مع تعاليم الإسلام ٣٥٦ - إلا أن المعاني الإسلامية كانت كثيرة جداً في رجزه ٣٥٨ - المعاني التي استمدتها من التراث الأدبي أو من شعراء بعينهم ٣٥٩ - تجويده في بعض المعاني المتداولة بين الشعراء ٣٦١ - تجديده في بعض المعاني ٣٦٢ - المعاني التي أخذها عنه عدد من الرجّاز والشعراء لما فيها من جدة ولما كان لها من شهرة ٣٦٣ .

٢ - الخصائص اللفظية ٣٧٥ - ٣٨٨ : المنهج الذي اتبعه في بناء الأرجوزة

٣٧٥ - اعتماده على المقدمات التقليدية في بعض الأراجيز ٣٧٥ - الجدة
 في اعتماده على مقدمات دينية سياسية لا أثر فيها للمعاني التقليدية ٣٧٧
 - الجدة في اعتماده على المطالع القوية واسقاط المقدمات جميعاً ٣٧٨ - لامسوغ
 لاحتمال ضياع المقدمات من هذه الأراجيز ٣٧٩ - اسهام العجاج في تطوير
 شكل القصيدة وجعلها تختص بموضوع واحد أحياناً ٣٧٩ - اسهامه في اتساع
 ظهور المقطعات لهذا العصر ٣٨٠ - لم يخرج عن وزن الرجز إلا نادراً
 جداً ٣٨٢ - الرجز يمتاز موسيقياً بالرتوب ٣٨٣ - عناية العجاج بالجانب
 الموسيقي تخلصاً ما أمكن من رتوب الرجز ٣٨٣ - تكرار الألفاظ داخل
 البيت الواحد ٣٨٤ - التجنيس أو ما كان يسميه العجاج بـ « عطف الرجز »
 ٣٨٥ - تقسيم البيت إلى فواصل موسيقية ٣٨٥ - التزام العجاج أحياناً في
 القوافي ما لا يلتزمه سائر الشعراء ٣٨٦ - هذا الالتزام نحو لمذهب الصنعة في
 عصره ٣٨٧ .

الفصل السادس : الخصائص اللغوية والنحوية (٣٨٩ - ٤٧٥) :

١ - الإغراب في اللغة ٣٨٩ - ٤٠٦ : أنواع الغريب في رجزه ٣١٩ -
 تحديد القدماء لأنواع الغريب ٣٨٩ - الغريب الذي يحتاج إلى معاجم اللغة في
 رجزه ٣٩١ - الغريب الذي يحتاج إلى تدقيق النظر لاحتماله عدة وجوه في المعنى
 ٣٩٣ - الإغراب في استعماله الألفاظ الأعجمية ٣٩٨ - أراجيزه أشبه بمعارض
 لغريب اللغة ٤٠٣ - الغريب عند العجاج كان يصدر عن طبع فيقع في
 مواضعه ٤٠٣ - بعضهم حاول مجاراته فتكلف إدخال الغريب في شعره
 وهو يجهل معناه فقصر بذلك عن العجاج ، ومن هؤلاء : الكميت ،
 والطرماح ، ونصيب ، وابن منذر ٤٠٤ - ذو الرمة تخلى عن الرجز خوفاً
 من غلبة العجاج ورؤية ٤٠٥ - الرواة يصنفون الشعراء من اصحاب الغريب

على درجات ٤٠٥ - أولع بهذا المذهب أبو تمام فكان من المآخذ عليه عند العلماء ٤٠٦ .

٢ - الحفاظ على اللفظة ٤٠٦ - ٤٢١ : قدرته اللغوية ٤٠٦ - محافظته على أصول كثيرة لبعض الصيغ العربية ٤٠٧ - محافظته على جمهرة من نواذر الألفاظ ٤١١ - محافظته على شيء من خصائص لهجة قومه بني تميم ٤١٣ .

٣ - توليد اللفظة ٤٢١ - ٤٢٨ : رأي ابن جني في تقرد ابن أحر والعجاج ورؤبة بألفاظ لم تسمع إلا في أشعارهم ٤٢١ - ارتجال العجاج لبعض الأبنية اللغوية ٤٢٢ - توليده في اللغة كان لا ينبو عن النوق اللغوي لأنه يصدر عن أصالة وطبع لا تكلف فيه ٤٢٧ - اخفاق من حاول القياس على أبنيته لاقتقاره إلى الطبع والأصالة ٤٢٧ .

٤ - التصرف في ابنية اللفظة ٤٢٨ - ٤٥٧ : تصرفات تقف عند حدود معروفة في قواعد الصرف أو العروض : القلب ٤٢٩ ، الإبدال ٤٣٢ ، فك الادغام ٤٣٧ ، تحريك الساكن ٤٣٩ ، تسكين المتحرك ٤٤٢ ، استعمال المثنى بدل المفرد ٤٤٥ ، أو المقربد بدل المثنى ٤٤٥ ، أو الجمع بدل المفرد ٤٤٦ ، أو الجمع بدل المثنى ٤٤٧ - تصرفات أخرى في بنية الألفاظ تجعله يميز الكلمة ثم بينها على هواه ٤٥٠ .

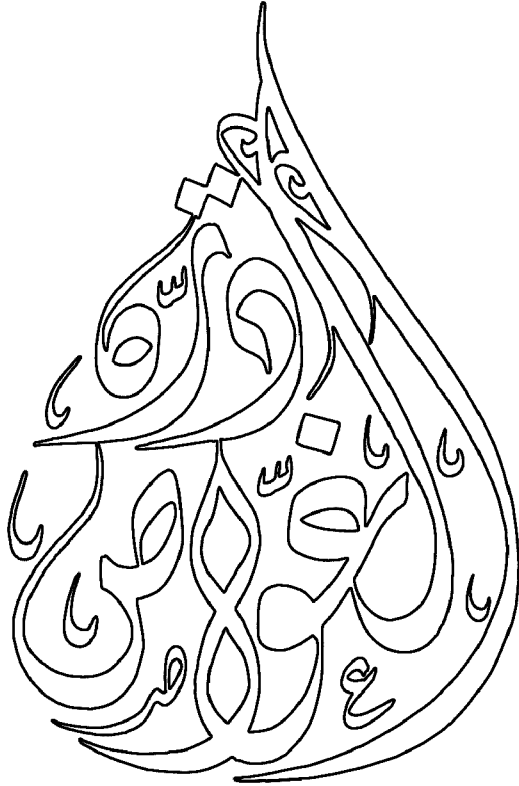
٥ - التصرف في قواعد النحو ٤٥٧ - ٤٧٢ : تصرفه في الروابط النحوية المألوفة في اللغة حمل على الخلاف بين النحاة ولا سيما بين مدرستي الكوفة والبصرة ٤٥٧ - أمثلة لخروجه عن مالوف القواعد النحوية ٤٥٨ - قد ينشأ الإشكال في رجزه لاعتماده : أساليب الحذف ٤٦٣ ، أو الحمل على المعنى ٤٦٤ ، أو القلب المعنوي ٤٦٥ ، أو التصرف في الضمائر ٤٦٧ ،

او التصرف في المجموع ٤٦٨ - الخلاف بين النجاة لاختلافهم أحياناً في فهم بعض آياته ٤٧٠ .

٦ - موقف ابي العلاء المعري من الرجز ٤٧٢ - ٤٧٥ : جعل أبو العلاء الرجز من سفاسف القريض ٤٧٣ - مناقشة ذلك والرد عليه ٤٧٣ - دور الرجز خلال القرنين الأول والثاني وتمييزه من الرجز في العصور التالية بخصائصه والدوافع إليه ٤٧٤ .

خاتمة : ٤٧٦ - ٤٩٥ .

فهرس الموضوعات : ٤٩٦ - ٥٠٨ .

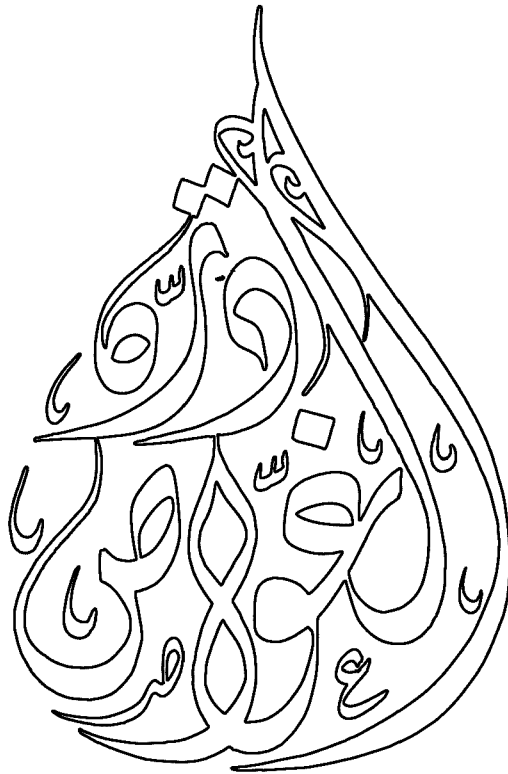


تصويب

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
الحسين	الحسن	١٥٠	١٦
لاذمة	لاذمة لهم	٣٢	١٥
رتابة	رتوب	٤٢	٢
أحدهما	إحداهما	٤٢	٨
تَمَرٌ	تَمَرٌ	٨٤	٦
كالبرم	كالبرم	٩٨	١٦
خمسة	خمس	١٢٥	١٢
فازَ دَرَدُوا	فازَ دَرَدُوا	١٢٩	١
عمرو	عمرو	١٣٥	١٩
البدء التاريخ	البدء والتاريخ	١٤٨	١٠
يَفْرُجُ	يَفْرُجُ	١٥١	١٩
راجزاً	راجز	١٦٣	٧
مُحْرِشاً	مُحْرِشاً	١٧٦	١٠
مترجحين	مترجحون	١٨٠	١
عزاها	عزاها	١٨٠	٨
مترججة	مترججة ،	١٨٣	١٦
ملياً	ملياً	١٩٣	١٦

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
كلا الروايتين فيها	كلتا .. فيها	١٩٦	١٧
لعمرو	لعمرو	٢٠١	٣
القيسي	القيسي	٢٠٩	٥
لأنها	لأنها	٢١٠	١٠
عمرو	عمرو	٢٢٦	١٩
زَفْرَقَة	زَفْرَقَة	٢٣١	١٣
معجبات	معجبات	٢٣٤	٢
تَوَهَّم	تَوَهَّم	٢٤٠	٥
مرزءآ	مرزءآ	٢٤٦	٢٠
فالأُسْدُ بين	فالأُسْدُ مِنْ	٢٥٨	١٨
أحيان	أحياناً	٢٦٧	٢
صفاة	صفات	٢٧١	١٦
يُحْيِي المَوْتِ	مُحْيِي المَوْتِ	٢٩٧	١٦
رتيب	راتب	٣٠٣	٩
أزوق	أزرق	٣١٩	٢
صور ، الصور	صورة ، الصورة	٣٢٠	١٣ ، ١٤
قال الإمامُ	قال له الإمامُ	٣٢٧	١٣
رَكَازَة	رَكَازَة	٣٣٤	٢٠
وَرَيْتُ	وَرَيْتُ	٣٥٢	١٦
مُعَفَّر	مُعَفَّر	٣٦١	٢ ، ١
يَحْمَل	تَحْمَل	٣٦٢	٤
عبد الله بن قيس الرقيات	بشار بن برد	٣٦٦	١٥

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
ابن قيس الرقيات	بشار بن برد	٣٦٧	٢
الأبازيم	الأبازيم	٣٦٨	٨
معفر	معقر	٣٧٣	٢
وما	وما	٣٨٠	١٤
العنان	العنان	٣٩١	١٨
(٢) ملحقات الديوان	(٣) انظر اللسان والقاموس		
٤٣/١٣	(ماج)	٤٤٠	٢١
فالأسد بين	فالأسد من	٤٤٢	١٠
سفافها	سفافها	٤٧٣	١٦



هذا الكتاب

يقدم أول دراسة واسعة للرجز
في العصر الأموي ، وذلك
من خلال رجز العجاج عبد الله
ابن رؤبة ، الذي كان له الفضل
الأول في تطوير الرجز وتقصيده
وبناء سماته وخصائصه لذلك
العصر .

وهذه الدراسة جزء من رسالة
للدكتوراه ، قدمت إلى جامعة
القاهرة ، ونوقشت بين يدي
الجمهور في ٢٧/٩/١٩٦٩ ، ونال
بها المؤلف لقب دكتور في
الآداب .